عالم الفكر

١

- ■ الحركة الصهيونية
- ■ العرب والصهيونية
- ■ النظرية والممارسة الصهيونية
- ■ قضية حدود اسرائيل الآمنة

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣

المحتويات

الصهيونيــــة

التمهيد — بقلم مستشار التحرير ٣
الحركة الصهيونية — الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري ١٣
النظرية والممارسة الصهيونية — تأليف الدكتورة آن م . لش
ترجمة يسر عبد الموجود ومحمد جمال امام ٤٧
العرب والصهيونية — الدكتور جوده عبد الخالق ٧١
قضية حدود اسرائيل الآمنة — تأليف الدكتور نيلز جونسون
ترجمة يسر عبد الموجود ٩٣
هتلر والصهيونيــة — الدكتور سعد الله حلابا ١٠٥

●●●

شخصيات وآراء

ايجور سترافنسكي — الدكتورة سمحة الخولي ١٢١

●●●

مطالعــــات

بعض كلاسيكيات الرفض اليهودي للصهيونية — الدكتورة هدى عبد السميع حجازي ١٤٥
توظيف الشخصية الدينية في الأدب لخدمة الفكرة الصهيونية — الدكتور أحمد حماد ١٦١

●●●

من الشرق والغرب

الاسلام والتنمية الاقتصادية — الدكتور محمد شوقي الفنجري ١٧٣
الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك — الدكتور محمد رجب النجار ١٩٣

●●●

صدر حديثاً

تغطية الاسلام — تأليف الدكتور ادوارد سعيد
عرض وتحليل الدكتور محمود الذوادي ٢٧٧

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

الصهيونية
هل هي حركة إحيائية ؟

تمهيد

للمؤرخ اليهودي سايمون دوبنوف Simon Dubnov عبارة مختصرة ولكنها مفعمة بالمعاني حول اليهود كشعب وأمة يقول فيها :

> « هناك أمثلة عديدة في التاريخ عن أمم اختفت من الوجود بعد أن فقدت أرضها وتفرقت بين شتى الأمم ، ولكن ليس لدينا سوى حالة وحيدة فقط لشعب أمكنه أن يستمر على قيد الحياة لآلاف السنين رغم تشتته وضياع وطنه ، وهذا الشعب الفريد هو شعب اسرائيل » .

ورغم أن هذه العبارة لا تذكر الصهيونية بشكل صريح فانها تلخص الى حد كبير ، وبطريقة ضمنية ، جوهر الصهيونية والاصل الذي نبعت منه والهدف الذي تهدف اليه والغاية التي ترمي اليها . فمهما اختلفت التعريفات والآراء حول الصهيونية ، فهي ابنة التشتت والتفرق ، أو (الشتات) الذي عاش فيه اليهود منذ عشرات المئات من السنين ، كما أن هدفها الأخير- على الأقل في صورتها المثالية ـ هو اعادة اليهود الى الأرض التي ظلوا طوال هذه القرون يعتبرونها وطنا قوميا لهم ، وذلك على أمل أن يتمكن (الشعب) اليهودي بهذه العودة من أن يعثر من جديد على هويته أو ذاتيته الحقيقية ، بعد أن ترتبط هذه الهوية أو الذات بوطن قومي محدد وواضح المعالم كما هو شأن بقية الشعوب والأمم . فالصهيونية تدور في أساسها اذن حول فكرة ظلت عالقة طيلة الوقت بأذهان اليهود ، ومشبوبة في صدورهم حول ماضيهم

العريق الذي زال واندثر ، وأرض اسرائيل التي فقدوها وتشردوا بعدها في الأرض . ولكنها ظلت رغم ذلك عاملا فعالا وحاسما في تماسكهم العاطفي ، ودافعا ومثيرا يحثهم على العمل من أجل العودة الى ذلك الوطن القومي القديم . وبذلك يمكن اعتبارها من ناحية تجسيدا لذلك الماضي القديم ، والرغبة الشديدة القوية العارمة في العودة الى أرض الوطن الضائع . ومن هنا فانها كانت تحرص منذ البداية على احياء ذلك الماضي في أذهان وضمائر اليهود في الشتات حتى يحتفظوا بشخصيتهم وتماسكهم فلا يفقدوا هويتهم بالاندماج مع الأغيار في المجتمعات التي يعيشون فيها ، كما كانت تعمل في الوقت ذاته على تحقيق تلك الرغبة ، واخراجها الى عالم الحقيقة والواقع عن طريق اقامة الوطن القومي في أرض فلسطين ، مما يتيح لليهود العودة الى أرض اسرائيل أو ـ ايرتز ييسرائيل ـ من الشتات ، وبذلك تتحقق تلك النبوءة الانجيلية القديمة التي يؤمنون بها . ومن هذه الناحية تعتبر الصهيونية مثالا جيدا لما يعرف في الكتابات الانثربولوجية باسم الحركات الاحيائية ، وان كانت الصهيونية تفترق عن هذه الحركات في بعض المظاهر الهامة ، كما أنها لم تلبث أن انحرفت عن المسار التقليدي الذي تسير فيه في العادة الحركات الاحيائية المعروفة ، والتي تمت دراستها حتى الآن في كثير من مناطق العالم .

فالحركات الاحيائية ـ كما يقول الاستاذ أنتوني والاس في مقاله Nativism and Revivalism في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية ، تهدف الى « العودة الى عهد سابق مجيد ، واسترجاع عصر ذهبي ، واحياء حالة سابقة من الطهر والنقاء والسمو الاجتماعي » . ومع أن علماء الانثربولوجيا هم الذين اهتموا أكثر من غيرهم بدراسة تلك الحركات لدى عدد كبير من الشعوب البدائية ، وبعض المجتمعات ذات الحضارات العريقة ، فقد لقيت هذه الحركات وأشباهها من الحركات القومية بعض العناية من علماء الاجتماع والتاريخ والدراسات التوراتية والاركيولوجيا الكلاسيكية وغيرهم . وتكشف كل هذه الدراسات عن أن الشعوب التي عرفت هذه الحركات كلها شعوب ذات ثقافات وحضارات قديمة ولها درجات مختلفة من السمو والتقدم ، ولكنها وقعت تحت حكم الغزاة المستعمرين ، وخضعت للاضطهاد وعمليات القتل والسجن والابادة ، ولكنهم أفلحوا في اقامة تنظيمات قوية تهدف الى رفع الظلم والضيم والاضطهاد ثم التخلص من تلك العناصر الدخيلة ، وكانت وسيلتهم دائما لذلك هي العودة الى القيم القديمة ، التي تتمثل في حضاراتهم وتراثهم لاستمداد القوة والعون منها . وقد اعتبرت بعض الحركات الدينية التي ظهرت في بعض البلاد ذات الحضارات العريقة داخلة ضمن هذه الحركات الاحيائية ، كما هو الحال بالنسبة لديانة اخناتون ، وذلك نظرا لانها كانت تهدف الى استرجاع الماضي الزاهر واصلاح بعض المسارات الاجتماعية والدينية في المجتمع المصري القديم .

وبصرف النظر عما انتهى اليه العلماء من دراساتهم للحركات الاحيائية التي تضم أشكالا متباينة ومتباعدة في الزمان والمكان تباعد حركة ماو ماو في شرق افريقيا ضد المستعمرين البريطانيين في الخمسينات من هذا القرن ، عن الحركة السنوسية التي قامت في برقة (ليبيا) في أواخر القرن الماضي لمحاربة الايطاليين المستعمرين ، عن ديانة اخناتون في مصر القديمة وما اليها ، فانه يبدو لي أن كل هذه الحركات تتفق في عدد من الملامح الرئيسية التي نجد مثيلا لها ـ مع بعض الاختلافات ـ في الصهيونية :ـ الأمر الأول هو عدم رضا كل هذه الجماعات أو الشعوب عن الواقع الذي يعيشونه ، ورفضهم لحاضرهم بكل ما يحمل من مظاهر الذل والاستعباد والظلم والتمزق والضياع ، والثورة على هذا الواقع المؤلم

والرغبة في تبديله أو على الأقل تعديله . الأمر الثاني هو الشعور العام بأن هذا الحاضر المؤلم يمثل حالة تدهور وانحطاط وانهيار من الماضي المجيد الذي كان يتسم بالرفعة والتقدم والازدهار ، او بما يسميه والاس الطهارة والنقاء والسمو الاجتماعي ، وأن الوسيلة الوحيدة لتغيير هذا الواقع القائم المؤلم هو الرجوع الى ذلك الماضي المجيد لاستلهامه ، واستمداد بعض المبادىء منه ، واعتبارها مثلا عليا توجه السلوك العام . ولا يلبث هذا الشعور أن يتبلور في شكل موقف محدد ، يتمسك به المجتمع ازاء هذه المثل أو القيم المستمدة من الماضي ، ويعمل على تجسيدها وتحويلها الى أنماط سلوكية ، ويتم بذلك احياء الماضي وتحويله الى حاضر وواقع يحياه الناس ويمارسونه في حياتهم اليومية . واخيرا فان كل هذه الحركات الاحيائية تكتنفها كثير من الشعائر والطقوس المعقدة ، والتعاليم التي كثيرا ما يكون لها صفة السرية ، بحيث يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل ، ويعتبرونها نوعا من التراث الحي في أذهانهم ، وبذلك تلعب دورا هاما في الربط والتوحيد بينهم نظرا لما تخلقه بينهم من علاقات عاطفية تشدهم الى الفكرة الاساسية ، وتضفي عليها في الوقت ذاته طابع الغموض الذي يزيد من قوتها ، إن لم يكن هو المصدر الوحيد الفعال في تلك القوة . وباختصار فانه مهما اختلفت هذه الحركات الاحيائية في تفاصيلها وتنظيماتها ، والأساليب التي تتبعها لتحقيق أهدافها ، فانها كلها تتفق فيما بينها في أسباب قيامها (رفض الواقع والتمرد عليه) ، والاهداف التي ترمي اليها ، (استبدال واقع جديد بالواقع المرفوض بحيث يستمد أسسه ومقوماته وقوته من تراث الماضي البعيد) .

ولم تخرج الصهيونية في الاصل عن ذلك . واذا كانت الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية تكتفي بتعريف الصهيونية تحت مادة Zionism بأنها حركة يهودية تهدف الى حل المشكلة اليهودية وانها أدت في آخر الأمر الى قيام دولة اسرائيل ، فان الاركان الأساسية للحركات الاحيائية تتمثل في الصهيونية في بعث اللغة القومية (العبرية) ، واحياء الثقافة اليهودية ، وانشاء وطن قومي محدد ، والعمل على تنميته والارتقاء به وتحقيق سيادة الدولة القومية . الا أن الصهيونية تختلف مع ذلك عن كل الحركات الاحيائية وحركات التحرر القومي في نقطة جوهرية قلما ينتبه الدارسون اليها ، وهي كفيلة بأن تخرجها عن مجال الحركات الاحيائية بالمعنى الدقيق للكلمة وتسلكها في صف الحركات الاستعمارية . فالشعب أو (الأمة) التي تهدف الصهيونية الى تحريره أو تخليصه من ربقة الواقع المرير ، مسترشدة في ذلك بتراث الماضي القديم ، بكل مافيه من شعائر وطقوس وتعاليم وغيبيات وأساطير ، شعب يعيش في المنفى منذ آلاف السنين ، بعيدا عن الأرض التي تزعم الصهيونية أنها وطنها القومي ، ولا تربط يهود الشتات بتلك الأرض سوى روابط عاطفية يعملون على ايقاظها بشتى الطرق والوسائل ، وذلك بعكس الحال في الحركات الاحيائية الاخرى التي تقوم بها جماعات وشعوب وتنظيمات لها جذور ضاربة وراسخة في الأرض التي يعتبرونها وطنا لهم ، والتي يحاولون طرد الغاصبين المستعمرين منها . فالعلاقة الفيزيقية بين اليهود والوطن الذي يطالبون به علاقة مقطوعة منذ قرون طويلة . ومن هنا كان أحد أهداف الصهيونية لسد هذه الثغرة نقل كل اليهود من مختلف الدول والمجتمعات التي يعيشون فيها بالفعل ، كأقلية دينية أو عرقية لتوطينهم في أرض صهيون ، أي في موطنهم الاصلي القديم . وكانت الصهيونية المثالية تذهب الى ضرورة قيام اليهود في هذا (الوطن القومي) بممارسة الزراعة والحرف اليدوية بالذات باعتبارها أشد الأعمال التصاقا بالارض ، وانها مقياس ودليل على الانتماء القومي ، كما أنها تزيد من الشعور بهذا الانتماء ، وذلك بعكس المهن الاخرى التي اشتهر اليهود بممارستها كالتجارة والربا ، والتي تعتبر أعمالا وممارسات هامشية . ويذكر لنا الدكتور عبدالوهاب

المسيري في الجزء الأول من كتابه « الايديولوجية الصهيونية : دراسة في علم اجتماع المعرفة » ، أنه « مما له دلالته أن الكتاب الاول من المشناه (وهو القسم الأول من التلمود ، أهم كتب اليهود الدينية بعد التوراة) يسمى كتاب (زراعيم) ، أي البذر أو الانتاج الزراعي ، وهو كتاب يعني بالزراعة والحاصلات الزراعية ، كما أن من أهم الأعياد اليهودية عيد (شافوعوت) أو عيد الاسابيع ، وهو عيد الحصاد الذي يأخذ فيه الفلاحون اليهود أول ثمار الحصاد ويقدمونها للهيكل . فالاشتغال بالزراعة (وبكل الحرف) ـ اذن ـ جزء من تجربة اليهود التاريخية » (ص ١٥) .

ورغم ذلك يبقى التساؤل عن السبب في قيام الصهيونية في حاجة الى اجابة أوفى وأكثر تفصيلا . فمع أن مسألة العودة الى أرض اسرائيل (ايرتز يسرائيل) استجابة لتلك العاطفة الدينية ، ورغبة في تحقيق النبوءة الانجيلية القديمة ، هي النقطة المحورية في الموضوع كله ، فليس من شك في أن هناك أسبابا أخرى هامة ساعدت على قيام الصهيونية ، أو حتى استوجبت ظهورها . وهذه أسباب وعوامل تتعلق بالظروف الاجتماعية التي عاش فيها اليهود في الشتات في أوربا من ناحية ، كما أن بعض هذه الأسباب يرجع الى اليهود أنفسهم وأسلوب حياتهم ونمط تفكيرهم ونسق القيم عندهم . وقد يكون من الصعب التعرض هنا لكل هذه العوامل المعقدة ، ولكن حتى العرض السريع الموجز يكفي لاعطاء فكرة واضحة ، وان كانت تنقصها التفاصيل عن الوضع العام والملابسات التي أدت الى ظهور الصهيونية ، واتخاذها في بداية الامر طابعا مثاليا ، جعلها تبدو أقرب في طبيعتها ودعاواها واهدافها الى الحركات الاحيائية .

كان هناك أولا الاضطهاد الذي رزح تحته اليهود خلال معظم تاريخهم وحتى العصر الحديث في أوربا ، والتمييز الذي كانت الشعوب المختلفة تمارسه ضدهم ، والذي اتخذ شكل الظاهرة العامة التي تعرف باسم اللا سامية أو معاداة السامية . ومع التسليم بوجود التفرقة في المعاملة وبتعرض اليهود للأذى والاضطهاد والتعذيب والقتل ، فالأغلب أن اليهود كانوا ولا يزالون يبالغون في ابراز وتضخيم النزعات المعادية للسامية ، واعطائها حجما أكبر من حجمها الحقيقي ، واتخذوا من ذلك وسيلة لابتزاز الضمائر والعواطف لتحقيق مكاسب ومنافع لهم . كذلك ليس هناك أدنى شك في أن اليهود بأسلوب معيشتهم وطريقة حياتهم ، أسهموا في خلق ذلك الجو العام المشوب بالحذر منهم ان لم يكن العداء نحوهم . فلقد كان اليهود حريصين دائما على الاحتفاظ بتميزهم كجماعة عرقية أو ثقافية ، لها كيانها الخاص المستقل عن بقية المجتمع الذي يعيشون فيه . . . كانت لهم مناطق سكناهم واقامتهم المنعزلة ، التي تؤلف مجتمعا مغلقا لا يتفاعل مع المجتمع القومي الذي يؤلف هو جزءا منه . كما كانوا حريصين على الظهور كأقلية لها خصائصها المتميزة ، ووضعها الخاص داخل تلك (المعازل) التي يقيمون فيها ، والتي تعرف عموما باسم الجيتو . ومن الخطأ الاعتقاد بأن هذه المناطق السكنية المنعزلة المغلقة ، التي هي أشبه بالمعازل التي كان المستعمرون البيض يحددون فيها اقامة الاهالي الاصليين في المستعمرات ، كانت أمرا مفروضا على الأقليات اليهودية من جانب (الأغيار) الذين يؤلفون أغلبية السكان . اذ الواقع أن اليهود أنفسهم كانوا هم الذين يعزلون أنفسهم في تلك المناطق السكنية المغلقة (الجيتو) ، حتى يحافظوا على أسلوب حياتهم وعوائدهم وممارساتهم الاجتماعية والدينية ، وبالتالي يحافظوا على كيانهم من الضياع والاندثار عن طريق الاندماج في المجتمع غير اليهودي . فالدين اليهودي اذن مسئول الى حد كبير عن هذه العزلة وقيام الجيتو ، وذلك نتيجة لكل ما فيه من أفكار وشعائر وطقوس وتعاليم معقدة ، تتغلغل الى أبسط أمور الحياة اليومية ،

بحيث ان التمسك بها وممارستها تضفي ذلك الطابع الخاص المميز لليهود عن بقية السكان . وهذا معناه في آخر الأمر ان اليهود لم يكونوا يشعرون بالولاء التام الكامل للدول التي يعيشون فيها مما كان يثير لدى الأغيار كثيرا من الشك والريبة التي انعكست في علاقاتهم ونظرتهم الى اليهود كما تبلورت أحيانا في القوانين التي كانت تميز ضد اليهود . فاللاسامية اذن من خلق اليهود ومن خلق الدين اليهودي الى حد كبير ، وان كان اليهود عرفوا كيف يستغلونها ويسخرونها لصالحهم ويفيدون منها في تحقيق مآربهم . واذا كانت الظروف الصعبة القاسية ، والاوضاع غير الملائمة التي عاش تحتها اليهود في أوربا وروسيا ، لها دخل كبير في قيام الجيتو ، فان رغبة اليهود أنفسهم في الانعزال والتماسك الاجتماعي الذاتي ، والتمايز وتوكيد الذات أو على الأقل المحافظة على الذات - هي التي منعت من قيام تفاعل مؤثر بين اليهود والأغيار ، وأسهمت بالتالي في خلق المشكلة التي كان لابد لها من حل . وكان قيام الصهيونية كحركة احيائية هو أحدى المحاولات لحل تلك المشكلة .

أضف الى ذلك أن الشتات المفروض على اليهود ، يعتبر - في نظرهم - مجرد مرحلة سوف تنتهي بظهور المسيح المنتظر ، أو الماشيح الذي سوف يخلصهم مما هم فيه من ارهاب واضطهاد وسوء معاملة . ومن الانصاف أن نقول ان اليهود ، أو على الأقل الصهيونية المثالية ، كانت تبشر بأنه بتحقيق العودة الى أرض اسرائيل أو الى صهيون ، وتنفيذ برنامجها بالكامل ، فان مشكلة اللاسامية سوف تختفي بشكل تلقائي . فالعداء الذي يحمله الأغيار نحو اليهود منشأه - في نظر دعاة الصهيونية - هو عدم وجود وطن قومي لليهود . وعلى ذلك فان العودة الى أرض الميعاد ، واقامة دولة اسرائيل ، سيكون فيه حل للمشكلة اليهودية برمتها عن طريق تخليص اليهود العائدين من سوء معاملة الأغيار ، بينما تندمج القلة من اليهود الذين يفضلون الاستمرار في الحياة في الشتات في المجتمعات التي يعيشون فيها ، والأكثر من ذلك فان قيام مجتمع يهودي حر ومتميز ومستقل في أرض اسرائيل ، لا يخضع أهله لسلطة وسيطرة غالبية غير يهودية كما هو الشأن في الشتات ، سوف يساعد - في نظر الصهيونية - على تفجر كل القوى الكامنة في الفردية اليهودية التاريخية ، ويؤدي بالتالي الى احياء الثقافة اليهودية القومية ، وظهور نظم اجتماعية يهودية على درجة عالية من التقدم ، بحيث تستطيع أن تحتل مكانة خاصة بين ثقافات ونظم العالم . وسوف تضفي هذه الثقافة على اليهود الذين يستمرون في الشتات مزيدا من القوة والاعتزاز بالنفس ، وتعينهم على المحافظة على هويتهم وذاتيتهم ، حتى في الاحوال التي يحرمون فيها من كثير من الحقوق المدنية ، التي يتمتع بها مواطنو تلك المجتمعات والدول .

فليس ثمة شك اذن في أن مؤسسي ما يسمى بالصهيونية السياسية ، ابتداء من موسى هس Hess الى هرتزل ، وحتى بن جوريون ، كانوا - حسب مايقول الكاتب الاسرائيلي إلون سالمون Elon Salmon الذي يعيش في بريطانيا في الوقت الحالي ، (انظر مقاله عن الصهيونية في مجلة الايكونوميست عدد ديسمبر ١٩٨١) - يعتقدون أنه لن يمكن لليهود تحقيق امكاناتهم وقدراتهم - كشعب وليس فقط كأفراد - الا في وطن قومي خاص بهم ، وتحت مظلة نظم سياسية قومية خاصة بهم أيضا ، وانه اذا كان يتعين على اليهود أن يعيشوا كأمة ، بعد كل هذا التشتت والتفرق وحياة الجيتو ، فان هويتهم أو ذاتيتهم القومية لن تتبلور الا ضمن اطار جغرافي محدد وواضح المعالم ، وان ذلك لن يتم الا في المكان الذي بدأت فيه أصولهم العرقية والثقافية أي أرض اسرائيل . ومن هنا نستطيع أن نفهم السبب في رفض اليهود كل

الاقتراحات التي قدمت اليهم باقامة وطن قومي لهم في مناطق أخرى من العالم غير فلسطين عندما فعلت بريطانيا حين اقترحت عليهم الاقامة في يوغنده . فالدين اليهودي لن يكون له أي معنى على الاطلاق بالنسبة لمؤسسي الصهيونية ، وسيكون مجرد خواء خال من كل مغزى ، ان لم تكن هناك رابطة حية تربطه بالارض أو الوطن القومي الاصلي . . . أرض اسرائيل .

ونستطيع أن نفهم طبيعة الصهيونية كحركة احيائية بطريقة افضل حين ننظر الى الحلول الأخرى التي كان يمكن بها حل المشكلة اليهودية في أوربا ، والتي قابلها اليهود أنفسهم بكثير من المقاومة والرفض . وأهم هذه الحلول بغير شك هو ما يعرف باسم « حركة الانعتاق » أي محاولة تحديث اليهود الاوربيين واخراجهم من عزلتهم ، وادماجهم في المجتمعات الاوربية التي يعيشون فيها ، مع توفير كافة حقوق المواطنة بالنسبة لهم ، وتشجيعهم على التوطن في المناطق الريفية لممارسة الزراعة التي سوف تربطهم بالارض وتعطيهم الشعور بالانتماء للوطن ، والزامهم ازاء ذلك بطبيعة الحال بكل الالتزامات ومسئوليات المواطن العادي ، مثل أداء الخدمة العسكرية . ولم يكن المقصود بهذا الحل اليهود وحدهم ، بل كل الأقليات الاخرى . أي أن هذا الحل كان ينطوي على مبدأ اعتبار اليهود أقلية دينية كغيرها من الأقليات . وقد ظهرت حركة الانعتاق في القرن الثامن عشر الذي هو « عصر التنوير » ، والعصر التي برزت فيه مشكلة اليهود في اوربا بشكل قوي ، نتيجة لتغير الأوضاع والظروف الاقتصادية في المجتمع الغربي ، وما ترتب على ذلك من تغيرات جوهرية في بناء ذلك المجتمع ، بحيث بدا التناقض واضحا وصارخا بين حياة التخلف التي تحياها الأقليات اليهودية في الجيتو ـ محتفظة بأنماط حياتها التقليدية التي لا تتمشى مع ثقافة العصر ـ وبين النظم الاجتماعية الاقتصادية الجديدة المتقدمة ، وأصبحت الجيتو بذلك تمثل جيوبا متخلفة الى حد كبير جدا داخل المجتمع الغربي ، وكان على اليهود أن يختاروا بين الانعتاق بكل ما يعنيه من تحديث واندماج في المجتمع الغربي ، أو يغادروا ويرحلوا الى شرق أوربا التي كانت لا تزال تحتفظ بكثير من ملامح الحياة التقليدية . ومع أن الدعوة الى الانعتاق لقيت قبولا من بعض اليهود في أواسط القرن الثامن عشر ، فيما يعرف باسم حركة التنوير اليهودية (الحسكلاه) فانه كان قبولا محدودا ، لأن التمتع بالحقوق المدنية كان معناه الانتماء للمجتمع الذي يعيش فيه اليهود على حساب الانتماء للقومية اليهودية المجردة ، كما كان يستلزم الفصل بين اليهودية كدين واليهودية كقومية ، وهو الأمر الذي يرفضه معظم اليهود ويقاومونه بشدة . فقبول الانتماء الى مجتمعات أوربا الغربية يعني بالضرورة التخلي عن فكرة الوطن القومي في أرض فلسطين وعن فكرة العودة الى أرض الميعاد ، والتنكر لها بعد أن ظلت تؤلف جانبا جوهريا في مخيلة اليهود طيلة تلك القرون الطويلة . ومن هنا كنا نجد أنه في الحالات التي تَقبّل فيها اليهود فكرة المواطنة ، فانهم ظلوا يعملون في الوقت ذاته ، وبمختلف الأساليب ، على الاحتفاظ بشيء من الاستقلال عن المجتمع حتى يظهروا كعنصر متميز . فقد كانوا يتمسكون مثلا أشد التمسك بالسكنى والاقامة في مناطقهم المنعزلة المغلقة ـ أو في المعازل التي فرضوها على أنفسهم (الجيتو) . بل لقد ذهب بهم الامر الى حد رفض التعليم الرسمي الذي كانت تقدمه الدولة لمواطنيها ، وذلك خشية أن يؤدي هذا التعليم الى ضياع شخصيتهم المتميزة ، وبالتالي القضاء على كيانهم وتماسكهم مع كل ما يترتب على ذلك من الاسراع بعملية اندماجهم في المجتمع والذوبان فيه تماما ، كما كانوا يفضلون دفع بدل نقدي نظير اعفائهم من أداء الخدمة العسكرية وهكذا .

وربما كان الذي زاد من خوف اليهود من حركة التنوير والدعوة الى الانعتاق ، ظهور بعض التيارات النقدية لليهودية

ذاتها كدين من ناحية ، ولسيطرة رجال الدين اليهودي بفكرهم المتزمت وأفكارهم الجامدة التي أدت الى هذه العزلة التي فرضها اليهود على أنفسهم . واتخذت هذه الحركة النقدية شكل الدعوة الى الاصلاح الديني . ومع أن هذا الاصلاح تناول في كثير من الاحيان بعض الامور التي قد تبدو شكلية لأول وهلة ، مثل اسقاط اللغة العبرية كلغة للصلاة ، وامكان اداء الصلاة باللغات الحديثة (الالمانية في هذه الحالة) ، فانها تعرضت لأمور اكثر عمقا وابعد أثرا ، مما اثار غير قليل من المخاوف ، مثل الدعوة الى تفسير الكتاب المقدس على أسس علمية ، والعمل على ابراز وتوكيد الجانب الاخلاقي في الدين اليهودي ، لاظهار النواحي التي تشترك فيها اليهودية مع غيرها من الاديان ، وابعاد كل ما يتعارض مع العقل وهكذا . وكان من الطبيعي أن تقابل حركة الاصلاح الديني اليهودي بكثير من المقاومة ، لأنها قد تنتهي في آخر الأمر الى تفريغ اليهودية من كثير من ملامحها المميزة . وظهرت خطورة هذه الحركة حين وصل الأمر بأصحابها الى ادخال بعض التعديلات الأساسية على فكرة الشتات ذاتها ، والعودة الى أرض الميعاد تحت قيادة المسيح المنتظر أو الماشيخ الذي هو من نسل داود . ولذا رفضت اليهودية الارثوذكسية هذه الدعوة للاصلاح ، كما رفضتها الصهيونية بعد ذلك ، لأنها في جوهرها كانت تعتبر اليهود جماعة دينية لاتؤلف قومية أو أمة متميزة ، وذلك على عكس ما كانت تنادي به الصهيونية . وعلى أية حال فلقد انحسر التيار التنويري في القرن التاسع عشر ، وكان ذلك ايذانا بتقديم وازدهار التيار الصهيوني بكل ما يدعو اليه ويمثله ، وكان هذا أكثر وضوحا بين يهود روسيا الذين أبدوا مقاومة عنيفة لفكرة الاندماج أو الدمج ، خاصة وأنهم كانوا يرزحون هناك تحت ضغوط وعمليات اضطهاد وابادة رهيبة ، مما كان يجعلهم يرون أن لامفر من العودة الى فلسطين كوسيلة أخيرة للحفاظ على حياتهم وكيانهم ، وعلى ذلك يمكن القول أن الصهيونية هي نوع من رد الفعل على حركة التنوير بكل ما كانت تؤدى اليه من انعتاق ودمج * .

ومن الأفكار الهامة الأخرى غير الصهيونية التي طرحت لحل المشكلة اليهودية ، والتي لم تجد قبولا من اليهود ، لأنها لا تحقق لهم حلم العودة (وهي بذلك تخرج عن نطاق الحركات الاحيائية) فكرة « قومية الشتات » التي لم تكن تعطي أهمية لمسألة اقامة الدولية اليهودية المستقلة ، أوحتى لفكرة العودة الى أرض اسرائيل بكل ما تحمله هذه العودة من متطلبات مثل احياء اللغة العبرية . وانما كانت هذه الحركة ترى أن المهم في الموضوع كله هو المحافظة على الطابع اليهودي المميز ،

---

* يقول الدكتور عبدالوهاب المسيري : « ان حركة التنوير ذاتها قد ساهمت بشكل غير مباشر في ظهور الصهيونية . فقد خلقت حركة التنوير والانعتاق طبقة متوسطة يهودية متشربة بالثقافة اليهودية وتدين بالولاء لتراثها الديني الغيبي ، ولكنها في الوقت ذاته مشبعة بالأفكار السياسية والاجتماعية الغربية من قومية الى اشتراكية ، وهذا الازدواج الفكري والتعايش بين نقيضين ، هو الذي أفرز التيارات والزعامات الصهيونية القادرة على التحرك في اطار معتقداتها الصهيونية الغيبية ، والتي تجيد في الوقت ذاته استخدام المصطلحات والوسائل العلمانية .

« وقد انتقد مفكرو حركة التنوير اليهودية الشخصية اليهودية ، بسبب طفيليتها وهامشيتها ، واكدوا أهمية العمل اليدوي والعمل الزراعي ، وطالبوا بتحويل اليهودي الى شخصية منتجة . . وقد بعث دعاة حركة التنوير اليهودية البطولات العبرية القديمة (قبل اليهودية) ـ مثل شمشمون وساؤول ، وذلك حتى تنفض الشخصية اليهودية عن نفسها شيئا من خنوعها ، وتصبح شخصية سوية تمتلىء بالحيوية ، وهذه كلها عناصر ورثها المفكرون الصهاينة .

« ومن أهم نتائج حركة التنوير اليهودية ، التي أدت بشكل غير مباشر الى الاعداد الفكري الصهيوني ، الهجوم على فكرة تقبل المنفى كأمر الهي . فقد نادى دعاة التنوير بأن على اليهود أن يكفوا عن الانتظار السلبي الى أن يرسل الله الماشيح ، وان عليهم أن يحصلوا على الخلاص بأنفسهم . . . ويمكننا القول ان حركة التنوير اليهودية قامت بتحديث فكرة العودة وطرحتها بشكل مغاير للشكل التقليدي وان احتفظت ببعض عناصر الفكرة التقليدية . . . بل يمكننا القول ان الصهيونية هي عودة الى التراث اليهودي والى المعتقدات الدينية اليهودية ، ولكنها عودة غير كاملة ، لان هذا التراث وتلك المعتقدات قد تعرضت للتحديث على يد دعاة التنوير ، فكان على الصهيونية أن تضفي غلالة علمانية عقلانية على المعتقدات الغيبية الاسطورية . . » (عبدالوهاب المسيري) « الايديولوجية الصهيونية دراسة في علم اجتماع المعرفة » الجزء الاول صفحتا ١١٣ ، ١١٤ سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٠ ـ الكويت ديسمبر ١٩٨٢) .

وذلك عن طريق ابراز الوحدة بين الأقليات اليهودية المتفرقة في كل انحاء العالم . وكان سايمون دوبنوف بالذات يفسر « القومية »اليهودية على أنها قومية تقوم وترتكز على أساس من القيم الروحية والثقافية العامة . فهي اذن قومية غير مرتبطة بأرض معينة ، وانها من هذه الناحية أعلى وأسمى من كل أنواع القوميات الاخرى ، لأنها هي في الحقيقة « جوهر القومية » على حد تعبيره . وعلى الرغم من أن هذا الاقتراح كان كفيلا بأن يجنب اليهود شر الاندماج الكلي في مجتمعات الأغيار ويضمن لهم الاحتفاظ بهويتهم وثقافتهم اليهودية ، ويؤدي الى قيام وحدة قومية بينهم في مختلف مناطق العالم ، مما يعني في آخر الأمر تماسكهم وقدرتهم على تطوير ثقافتهم ونشرها والارتفاع بها الى مستوى الثقافات المؤثرة في تاريخ الانسانية ، مع عدم ارتباط هذه الثقافة بمركز حضاري واحد ثابت لا يتغير ، بل يتيح لها مجال التحرك من مركز لآخر عبر العالم كله ، حسب ما تحققه هذه المراكز من تقدم في أي فترة من الفترات . أقول أنه رغم هذا كله فلم يجد هذا الاقتراح صدى قويا لدى اليهود ، لتعارضه مع فكرة العودة الى أرض الميعاد .

وتكفي هذه الأمثلة لتوضيح كيف أن الصهيونية التي حملت لواء الدعوة لتحقيق تلك المطالب والدعاوي اليهودية المثالية ، بكل ما فيها من فكر غيبي وتخيلات أسطورية ، انما كانت تعبر تعبيرا قويا عن آمال وأحلام اليهود من ناحية ، وتحقق كل أركان الحركات الاحيائية المثالية من الناحية الاخرى . ومن هنا أفلحت في التغلب على الحركات والتيارات والحلول الاخرى ، وان تجذب اليها معظم يهود العالم نظرا لأنها كانت تخاطب أحلامهم وآمالهم .

ولسنا نهدف هنا الى الكلام عن الظروف والعوامل التي أدت الى تحول الصهيونية من فكرة مثالية الى منظمة أو مؤسسة استعمارية . فهذه أمور عولجت كثيرا في كل الكتابات العربية والدراسات حولها متوفرة . ولكن هناك نقطة هامة يجدر الاشارة اليها ، وهي أنه الى جانب هذه الصهيونية الاستعمارية التي أدت الى قيام اسرائيل ، توجد صهيونية أخرى غير يهودية ، أو بالأحرى صهيونية مسيحية تنتمى اليها اعداد كبيرة من غير اليهود ، وتتمثل فيم يعرف باسم حركة الاسترجاع المسيحية » ، التي كان يشايعها عدد من المسيحيين « الحرفيين »الذين يأخذون الكتاب المقدس بحرفيته . وتنادى هذه الحركة بضرورة عودة اليهود الى (وطنهم الأم) أي أرض اسرائيل لأهداف مسيحية بحتة . ذلك أن مثل هذه العودة تعتبر في نظرهم شرطا أساسيا لأمكان تنصير اليهود وتحويلهم الى المسيحية ، وخطوة أولى لبداية « العصر » الألفى أي السنوات الألف التي سوف يحكم فيها المسيح الأرض تحقيقا للنبوءة الانجيلية . ومن هنا يمكن اعتبار الصهيونية المسيحية هي أيضا شكلا من أشكال الحركات الاحيائية ، ولكن بمعنى آخر ما دام هدفها هو تخليص اليهود من واقعهم المرير ، والعودة بهم الى حالة من الراحة والسمو ، تستمد اصولها من معتقدات الماضي الغيبية .

ومن الطبيعي أن يثير هذا التساؤ ل عمن هو الصهيوني اذن ؟ وعلى من تنطبق هذه الكلمة من بين اليهودية بوجه خاص ؟

الواقع أن كلمة (صهيوني) خضعت لكثير من التعديل والتغيير ، كما أن لها أكثر من تعريف وتفسير ، ولكن الرأي الشائع هو أن الصهيوني هو اليهودي الذي كان يفكر ويخطط دائما للاقامة في أرض اسرائيل . وعلى ذلك فأن أي يهودي لا يدخل هذه المسألة في حسابه لا يعتبر صهيونيا ، مهما كان تحمسه للصهيونية وللدولة اليهودية ، ومهما بلغت مساندته ومؤازرته لاسرائيل . وقد يكون في هذه النظرة شيء من التبسيط أو حتى التسطيح ، ولكن شرط العودة والاقامة في

أرض اسرائيل هو ركن أساسي وجوهري في مفهوم الصهيوني والصهيونية ، والا لكان من الصعب فهم كل ما ارتكبه اليهود والصهاينة ، من عنف وقتل وتشريد ونهب وحروب ضد شعب فلسطين ، والمجازر التي اقترفوها لكي يطردوا الفلسطينيين من أرضهم حتى يحلوا محلهم . ومع ذلك فمن الصعب التسليم ـ في ضوء التطورات التي حدثت بعد قيام الدولة اليهودية ـ بأن العودة الى أرض اسرائيل واقامة الوطن القومي هناك هو الغاية الأخيرة من الصهيونية . والا لما كان هناك ما يبرر استمرار الحركة الصهيونية بعد قيام تلك الدولة على ما هو حادث الآن . وبقول آخر فانه اذا كان حلم الصهيونية كحركة احيائية هو قيام دولة اسرائيل وتخليص اليهود من شتاتهم ومن نفيهم وغربتهم في الأرض ، وانقاذهم من واقعهم المرير كأقلية مبعثرة في كثير من مجتمعات ودول الأغيار ، فان مجرد قيام تلك الدولة يجب أن يكون هو نهاية الشتات ، ويحتم على اليهود العودة ، وأن مجرد العودة يجب أن يرتبط به اختفاء الصهيونية كحركة احيائية . وكلا الجانبين لم يتحققا في الواقع . فثمة تناقض واضح بين استمرار الشتات وقيام اسرائيل ، كما أن ثمة تناقضا بين قيام اسرائيل وبقاء الصهيونية . ورغم هذه التناقضات فالذي لا شك فيه هو أن من الصعب ان لم يكن من المستحيل أن تستوعب اسرائيل كل يهود العالم حتى ينتهي الشتات ويحقق النبوءة ، خاصة وأن نسبة كبيرة من اليهود لا يفكرون ولا يرغبون في الذهاب الى اسرائيل والاقامة هناك . وهذا معناه أنه ليس ثمة مفر من أن يستمر هذا التناقض ، ومن أن يوجد الشتات واسرائيل معا في وقت واحد رغم تحقق حلم الصهيونية . بل أن ثمة أسبابا عملية تحتم استمرار يهود الشتات لأن ذلك يخدم في حقيقة الأمر أغراض الدولة اليهودية التي تعتمد ـ على الأقل ـ على مؤازرة يهود الشتات لها ماديا ومعنويا . بل ان استمرار اسرائيل في الوجود مرتبط الى حد كبير ببقاء يهود الشتات . وعلى ذلك فاذا كانت اسرائيل تعتبر تجسيدا للحلم الغيبي وتحقيقا للنبوءة الانجيلية ، فانها تعتبر في الوقت ذاته ذراع الصهيونية العالمية وأداتها .

وقد خرجت الصهيونية متمثلة في اسرائيل عن قواعد ومسارات الحركات الاحيائية التقليدية من ناحية أخرى . فلقد لا حظ الون سالمون أنه بعد حرب عام ١٩٦٧ التي تعتبر في نظر الكثير من اليهود نقطة تحول جذري في الصهيونية ـ حدثت تغيرات خطيرة وعميقة في المجتمع الاسرائيلي تتعارض تماما مع الصهيونية المثالية كما تصورها المؤسسون الرواد . فقد بدأ الاسرائيليون يعتمدون بكثرة وبطريقة متزايدة على الأيدي العاملة العربية الرخيصة في الاراضي المحتلة وترفعوا بذلك عن ممارسة الأعمال اليدوية بل واحيانا عن فلاحة الارض مما يتنافى كلية مع الفكرة الاساسية . ولو استمر الأمر على هذا المنوال لأدى ذلك الى وقوع يهود اسرائيل في شرك ممارسة نفس الأعمال الهامشية التي يمتهنها يهود الشتات والتي لا تخلق بين الانسان والارض رابطة متينة تماثل في القوة تلك الرابطة التي تقوم بين العامل أو الفلاح وتلك الأرض . ويشير سالمون من ناحية أخرى الى ازدياد عزلة اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ عن العالم ، وأن هذه العزلة بلغت ذروتها بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ التي كشفت حسب ما يقول ، عن عدم تجاوب حقيقي من العالم مع اسرائيل ، مما دفعها الى الاعتماد بدرجة أكبر على يهود الشتات الذين يمثلون في رأيه الأصدقاء الوحيدين لاسرائيل في عالم يقف منها موقفا عدائيا صريحا . وقد سبق أن أشرنا الى ذلك حين تكلمنا عن التناقض القائم بين وجود اسرائيل واستمرار الشتات ..

والذي يهمنا الآن هو أن اسرائيل لم تعد تعتبر في نظر الكثيرين ، بما في ذلك بعض يهود الشتات أنفسهم ، تجسيدا لأهداف الصهيونية المثالية ، وتحقيقا لذلك الحلم اليهودي القديم بقدر ما هي مركز (الكومنولث) اليهودي ـ ان صحت هذه التسمية ـ ولو أن الكثيرين من اليهود يرفضون مجرد التفكير في وضع اسرائيل من هذه الزاوية خشية

تأليب العالم عليها . ومهما يكن من شيء ، فاذا كانت اسرائيل لا تستطيع الاستغناء عن يهود الشتات ، رغم تعارض ذلك مع الصهيونية ، فان الصهيونية ذاتها بدأت تعكس الآن الدور الاصلي القديم الذي كانت تقوم به . فبعد أن كانت تعمل في البداية على تحويل اليهود الى اسرائيليين أصبحت تعمل الآن على (تهويد) الاسرائيليين عن طريق ربطهم عاطفيا بالشتات وبيهود المنفى الذين تعتمد عليهم في وجودها . وقد أصبح الشتات اليهودي على درجة عالية جدا من الكفاءة والتنظيم رغم وجود تفريعات واتجاهات كثيرة ومتعارضة ولكنها متكاملة . وأخذت الصهيونية تكشف القناع عن وجهها الحقيقي وتظهر كحركة استعمارية تحطم في سبيل تحقيق أهدافها ومآربها وأطماعها كل القيم التي كانت تتظاهر بها وتتخذها ذريعة لتنفيذ سياستها وخططها في الاستيلاء والتحكم والسيطرة والاستبداد .

د . أحمد أبو زيد

* * *

الحركة الصهيونية :
الخلفية التاريخية

عبدالوهاب محمد المسيري

استاذ الأدب الانجليزي والمقارن
بجامعة عين شمس
القاهرة

ظهر مؤخرا كتاب يحمل عنوان رعب يخرج من صهيون (نيويورك ١٩٧٧)(١) تأليف الاستاذ ج . ب . بل ، والمؤلف ، حسب ماجاء في التعريف به على غلاف الكتاب ، كان يعمل استاذاً في جامعة هارفارد وفي معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ، ويعمل الآن في معهد دراسات الحرب والسلم التابع لجامعة كولومبيا ، حيث قام بكتابة دراسته تحت رعاية المعهد المذكور . ويتصور المرء ان هذه الدراسة للارهاب الصهيوني في الفترة من عام ١٩٢٩ ـ ١٩٤٩ ، والتي كتبها عالم غربي كبير ، والتي كتبت تحت رعاية واحد من أهم معاهد البحوث ، ونشرتها إحدى كبار دور النشر (سانت مارتنز ، نيويورك) ستتحلى بقسط معقول من الموضوعية وستلقى الكثير من الأضواء الكاشفة على الموضوع ، خاصة وأن ثمة مسافة زمنية طويلة نسبيا تفصل بيننا وبين الأحداث التي يؤرخ لها الكاتب . ولكن سنكتشف أن الأمر على عكس ذلك على طول الخط ، فالكتاب ، شأنه شأن الغالبية العظمى من الكتب الغربية التي تعرض لهذا الموضوع ، دفاع عن الارهاب الصهيوني ، مغلف تغليفا اكاديميا جيدا ، وموثق بشكل انتقائي يجعل الارهاب الصهيوني ، في نهاية الأمر ، مجرد دفاع عن النفس والصهيونية المعذبة .

ولكن الاعتذاريات الواضحة لا تمثل خطورة كبيرة ، اذ أنها لا تنطلي على أحد ولا يصدقها سوى المؤمنون والمتعاطفون والبلهاء ، ولكن تتمثل الخطورة الحقيقية في الافتراضات الخفية الكامنة في التواريخ الصهيونية ، وفي الدراسات التي كتبت للدفاع عن وجهة النظر الصهيوية أو لتبريرها . ولنأخذ على سبيل المثال هذا الملخص الموجز لأصول الصهيونية كما يتصورها مؤلف الكتاب آنف الذكر :

---

(1) Bower Bell, **Terror Out of Zion : The Violent and Deadly Shock Troops of Israeli Independence, 1929—1949** (New York : St. Martin's Press, 1977).

[« اخذ كثير من الاشياء في التغير مع بداية القرن التاسع عشر ، فقد دعا نابليون اليهود في مارس ١٧٩٩ ليتجمعوا تحت لوائه ويستعيدوا القدس القديمة . ولكن لم تضرب دعوة نابليون هذه أي جذور إلا بعد مرور نصف قرن تقريبا ، اذ ان معظم يهود اوروبا الغربية توقعوا ان يندمجوا في الدول القومية الحديثة باعتبارهم ألمان او انجليز من اتباع العقيدة الموسوية ، بينما حاولت الملايين التي وقعت في شراك مناطق الاستيطان في شرق أوروبا البقاء وحسب . ولكن تيار القومية اليهودية المتردد بدأ يكتسب صلابة وانتشارا كنتيجة لخيبة أمل اليهود ومخاوف يهود الشرق ووقعت تهمة الدم في دمشق عام ١٨٤٠ حين تم القبض على سبعة يهود وتم تعذيبهم بتواطىء واضح من الرهبان الفرنسيسكان الفرنسيين ـ وفي هذا عودة بدائية للاضطهاد على نمط العصور الوسطى . وقد ساءت الاحوال في شرق اوروبا ، وخاصة في روسيا ، فوقع بوجروم (اى مذبحة منظمة ضد اليهود) في اوديسا عام ١٨٧١ ، كما وقعت سلسلة اخرى من المذابح عبر روسيا بعد عشرة اعوام ، بعد اغتيال قيصر روسيا الاسكندر الثاني . ثم وقعت اخيرا حادثة دريفوس عام ١٨٩٤ و ١٨٩٥ والتي كشفت عن وجود نزعة معادية للسامية راسخة في المجتمع الفرنسي الذي كان يفترض فيه انه مجتمع عقلانى ، فقد تم ادانة الكابتن دريفوس بناء على قرائن مختلفة ، مما كان بمثابة ادانة لفرنسا ذاتها بالنسبة لكثير من اليهود . وهنا وجد البعض ان البديل للاندماج او تحمل الأضطهاد هو دعوة نابليون التي كاد يغطيها النسيان(٢) .

هذا التاريخ المصغر (المايكرو) للصهيونية يكاد هو الصيغة الرسمية التي اعتمدتها الحركة الصهيونية لاضفاء الشرعية والمعقولية على البرنامج الصهيوني . وقد وجدت هذه الصيغة ، التي تكاد تكون بديهية ، طريقها الى كثير من الكتب التي تؤرخ للصهيونية سواء في الغرب أم الشرق ر(بما في ذلك الشرق العربي) ـ وماذا يمكن ان يكون أكثر بديهية من هذه الصيغة البسيطة المنطقية (أقلية تقرر الاندماج أو التحمل ، مجتمعات ترفض هذا السلوك الكريم من الأقلية ، الأقلية تعود الى شرنقتها بعد خيبة الأمل ـ ويخرج الأرنب الصهيوني من قبعة الاعتذاريات ـ كرد فعل حتمى ، يخرج وقد اجاب على عدة أسئلة سطحية وترك مئات الأسئلة الأساسية الاخرى دون اجابة . وعلى سبيل المثال لا الحصر : لم ظهرت الصهيونية في الغرب ولم تظهر في الشرق ؟ ولم ظهرت في القرن التاسع عشر وليس في القرن الثامن عشر أو العشرين مثلا ؟ ما هو وضع الاقليات الاخرى في المجتمعات الغربية ، وهل كانوا أحسن حالاً أم أسوأ من اليهود ؟ ما هى طبيعة المجتمعات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ؟ ولم كلف نابليون ـ هذا المعادى للسامية الذي كان يكن الاحتقار لليهود ـ لم كلف خاطره بدعوة يهود العالم للالتفاف حول لوائه لاستعادة القدس ؟ هل غمر حب اليهود قلبه القاسي فجأة ودون مقدمات ؟ هذه كلها أسئلة لا يتوجه اليها « الأرنب الصهيوني » العجائبي من قريب أو بعيد ، وهو لا يمكن ان يتوجه لها لأن دراسة البروفسور بل ، والدراسات الاخرى المشابهة ، تنزع الصهيونية من سياقها الاساسي لتضعها في سياق وهمي مختلف ، اذ بدلا من النظر للصهيونية باعتبارها حركة سياسية وفكرة ، مثل الليبراليه والنازية والعنصرية ، من افراز المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر ، فانه يتم النظر اليها باعتبارها جزءاً مما يدعى بتاريخ اليهود ـ وكأن اليهود ظلوا عبر تاريخهم ، في كل زمان ومكان ، داخل حدودهم اليهودية التاريخية يعانون في صمت ، لا يتخطون هذه الحدود ، الا اذا دعاهم داع مثل نابليون للعودة .

---

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠

ولكننا نرى ان الصهيونية هى في واقع الامر نتاج ظروف عامة وخاصة ، مادية وفكرية ، تعود غالبيتها الى المجتمع الاوروبي في القرن التاسع عشر ، ويعود بعضها الى الوضع المادي والفكرى ايضا للاقليات اليهودية في هذا المجتمع . وهذا المقال هو اساسا محاولة لالقاء الضوء على الظاهرة الصهيونية عن طريق دراسة خلفيتها التاريخية ، بمكوناتها الغربية (العامة) واليهودية (الخاصة) ، اذ انه عن طريق مثل هذه الدراسة سنحدد السمات الحقيقية للظاهرة ونحدد ما هو جوهرى وما هو عرضي فيها . ونحن في دراستنا لهذه الخلفية لن نتعرض بالدراسة للسياق الغربي العام للظاهرة الصهيونية وحسب ، وانما سنتناول ايضا سياقها اليهودي الذي يمنحها كثيرا من خصوصيتها . ويجب ان ننبه الى انه على الرغم من اننا قسمنا السياق التاريخي للظاهرة الصهيونية الى سياق غربي وآخر يهودي ، ثم قسمنا السياقين الغربي واليهود بدورهما الى عوامل مختلفة مثل الثورة الرأسمالية والحركة الرومانتيكية وتخلف اليهود الحضاري ، إلا أنه لا يخفى على القارىء أن مثل هذا التقسيم هو تكتيك منهجي وحسب ، وان كل العناصر في نهاية الأمر مترابطة ومتداخلة تكون كلا لا يمكن فصل اجزائه ، وان بعض مكونات الخلفية التاريخية هي سبب ونتيجة في ذات الوقت ، فعلاقة اجزاء الكل بعضها بالبعض علاقة جدلية فيها أخذ وعطاء وتأثير وتأثر فالحركة الرومانتيكيه هي نتاج الثورة الرأسماليه ، ولكنها ساهمت ولا شك في اشاعة الفردية التي عجلت بانتصار هذه الثورة .

اولا : السياق الغربي للظاهرة الصهيونية

١ ـ الثورة الرأسمالية في اوروبا

يمكننا القول ـ بشىء من التبسيط ـ أنه منذ نهاية القرن الرابع عشر تقريبا بدأت تدخل تغيرات بنيوية عميقة على المجتمعات الغربية ، اذ بدأ النظام الاقطاعي ببنائه الهرمي الثابت يهتز ، واخذت العلاقات بين الطبقات تختل ، وقامت الثورات والحركات الفكرية والاقتصادية المختلفة ـ ابتداء بعصر النهضة ثم الاصلاح الديني ومرورا بعصر الاكتشافات والرأسمالية المركانتيليه وعصر الملكيات المطلقة وحركة التنوير وانتهاء بالثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية والثورة الفرنسية ، والانقلاب الدستورى في انجلترا وبقية اوروبا والحركة الرومانتيكية . واستمرت العملية عدة قرون طويلة (١٥٠٠ ـ ١٨٥٠ اوروبا وربما الى الوقت الحالي) واذ كان المجتمع الاقطاعي المستقر يقف في بداية هذه الفترة ففي نهايتها نجد المجتمع الرأسمالي المنتصر الذي يتسم هو الآخر باستقراره الخاص .

واصطلاح « الثورة الرأسمالية » (الذي استخدمه المؤرخ كنيث نيل كامرون ومؤرخون آخرون)⁽٣⁾ ليس له مدلول اقتصادي وحسب ، وانما له مدلول حضاري كذلك ، ولا يمكن فهم أي ظاهرة غربية في الخمس قرون الاخيرة الا بفهم طبيعة هذه التحولات التي طرأت على المجتمع الغربي على المستويين المادي والحضاري . وبطبيعة الحال لن نتعرض لهذه الظاهرة في حد ذاتها ، وانما سنعرض لها بمقدار ما تلقى ضوءا على الظاهرة موضع الدراسة ، اى الظاهرة الصهيونية .

---

(3) Kenneth Neill Cameron, **Humanity and Society : A World History** (Bloomington : Indiana Univ. Press, 1973), Chap. XI.

والثورة الرأسمالية هي في نهاية الامر ثورة في طريقة الانتاج والتوزيع ، وفي بناء المجتمع وفي علاقة الحاكم بالمحكوم ، فجوهر الاقتصاد الاقطاعي « هو تقسيم الأراضي الداخلة في وحدة اقتصادية الى وحدات صغيرة ، يقوم الفلاحون بزراعتها لحساب مالك الوحدة الكبرى بقوة عملهم وبأدواتهم ، ويحصلون على حاجات معيشتهم في حد الكفاف »⁽⁴⁾ والمجتمع الاقطاعي مقسم تقسيما هرميا صارما ، يعرف كل شخص فيه مكانه ومكانته ، الذي عادة ما يصل اليهما عن طريق الميراث وليس عن طريق الجد والعمل . وقد حددت حقوق وواجبات كل أعضاء الطبقات تحديدا واضحا ، فالنبيل كان يعرف ما ينبغي عليه القيام به (حماية اقطاعية وفلاحيه ، وجباية الضرائب منهم وربما الاشتراك في الحروب الصليبية) ؛ وكذلك كان يعرف الفلاحون ورقيق الأرض واجباتهم وحقوقهم ، وفي الأطراف كان يوجد التجار والصناع وكل الشخصيات الهامشية الأخرى .

ولعل أهم العوامل التي ساهمت في استقرار المجتمع الاقطاعي الأوروبي هو غياب « الانتاج المخصص للتبادل »⁽⁵⁾ اذ أن انهيار الامبراطورية الرومانية أدى بدوره الى انهيار نظام التجارة العمالي الذي انشأته ، وظهر ما يسمى « بالاقتصاد الطبيعي » وهو الاقتصاد الموجه اساسا نحو اشباع حاجات المجتمع وحسب ، ولا يتم التبادل الا في فائض السلع ؛ أي أن عملية التبادل التجاري ليست عملية جوهرية واساسية للنظام ، وانما هى عملية هامشية عرضية . ان انتاج المجتمع الاقطاعي كان انتاجا لقيمة استعماليه ، وليس لقيمة تبادلية .⁽⁶⁾ وقد وصفت الدكتورة بديعة أمين هذا النمط الانتاجي كما يلي :

« ظلت القارة الأوروبية كيانا استهلاكيا بصورة أساسية يصدر العبيد والنساء والصبيان والفراء والسيوف ، ويستورد الأقمشة والحبوب والتوابل وغير ذلك من المنتجات التي تستهلكها بالدرجة الاولى طبقة الاقطاعيين والنبلاء . ومن هنا ، فانه لم يكن هناك ما يستدعي ، وبتعبير اكثر صوابا ، مما يمكن أن يؤدي الى نشوء طبقة تجارية محلية تولد ولادة طبيعية »⁽⁷⁾ .

هذه الصورة المجردة للمجتمع قد لا تطابق الواقع تماما ، ولكنها تقرب لنا بعض السمات الجوهرية لهذا الواقع . واذا أردنا أن نحدد مكان اليهود في هذا المجتمع لوجدناه بطبيعة الحال في الهامش ، اذ ان اليهود ـ نتيجة لظروف تاريخية وحضارية معينة (سنذكرها في النصف الثاني من هذا المقال) ـ اضطلعوا بدور التجارة في المجتمعات الاقطاعية ، ولكن مع حلول القرن الثاني عشر بدأت علامات الانهيار تظهر على المجتمع الاقطاعي ، واستمرت العملية حتى القرن الخامس عشر واكتملت مع حلول القرن التاسع عشر (وان كانت لا تزال هناك جيوب اقطاعية في كل اوروبا) . ويمكن تفسير هذه العملة بمركب متداخل من الأسباب الاقتصادية والسياسية ، من بينها ظهور المدن وازدياد حجم التجارة

---

(٤) كامل زهيري (مشرفا) ، موسوعة الهلال الاشتراكية (القاهرة : دار الهلال ١٩٧٠) « اقطاع »

(٥) ابراهيم ليون ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية . ترجمة وتقديم عماد نويهض (بيروت دار الطليعة) ١٩٦٩) ، ص ٧٨ .

(٦) عبد الوهاب محمد المسيري ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية (القاهرة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٥) « المسألة اليهودية » نقلا عن ليون وآخرين

(٧) بديعة أمين ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٤) ص ٦١

الدولية والصناعات المحلية . وقد شجع هذا كثيرا من الاقنان على الهرب من القرية الى المدينة . وقد ادى ازدياد حجم التجارة الى زيادة ثمن الحاصلات الزراعية ، الامر الذي حفز الكثير من كبار وصغار الملاك الاقطاعيين على اصلاح الاراضي البور للحصول على غلتها . واضطر كثير من الاقطاعيين الى منح الأقنان حريتهم نظير ان يقوموا بالعمل المطلوب منهم . وتزامنت هذه العملية مع الموت الأسود(مرض الطاعون) الذي اجتاح اوروبا وأهلك ثلث سكانها مع نهاية العصور الوسطى ، وبالتالي ازدادت الايدي العاملة ندرة ، وازدادت المدن قوة وازدادت القرية ضعفا مع زيادة عدد الأقنان الأحرار .

وساهمت عدة عوامل سياسية أخرى في عملية اضعاف النظام الاقطاعي ، من بينها الحروب الصليبية التي قضت على الكثيرمن النبلاء الاقطاعيين ، وحرب المائة عام التي ادت الى ثورات الفلاحين وظهور حالة من الفوضى العامة . ولكن لعل أهم الاسباب السياسية هو ظهور الملكيات القومية القوية (خاصة في انجلترا وفرنسا) التي عملت جاهدة على أن يكون لها جيوش نظامية مستقلة عن النظام الاقطاعي (تتكون من جنود من أصول غير ارستقراطية) الامر الذي ادى الى تقوية قبضة الملك ومكنه من أن يكيل الضربات القوية للامراء والاقطاعيين ، وان يصبح « ملكا » بمعنى الكلمة بعد أن كان مجرد كبير الأمراء(٨) . وكثيرا ما تحالف هؤلاء الملوك مع الجماعات الهامشية في المجتمع مثل التجار وسكان المدن لضرب الاقطاع والاقطاعيين .

وما يهمنا في هذه البانورما التاريخية أن نبين أن وضع اليهود المستقر داخل المجتمع الاقطاعي الثابت اهتز ، ولم تعد الأمور محددة المعالم كما كانت من قبل . فبعد أن كان اليهود يشتغلون بالتجارة الدولية ظهرت اتحادات من التجار الدوليين المسيحيين ، مثل العصبة الهانسية ، وهو اتحاد تجاري دفاعي تشكل من بين المدن الساحلية في شمال المانية ، ومثل اتحاد لندن .(٩) كما ظهرت اساطيل تجارية قوية تابعة لجنوة والبندقية . وقد تمتعت هذه الاتحادات والاساطيل (المسيحية) بدعم الدولة مما أضعف من قبضة التجار اليهود على إلتجارة الدولية وأضطروا الى الاشتغال بالتجارة الداخلية ومنها الى الاقراض بالربا . ولكن الجدل التاريخي كان يأخذ مجراه وتظهر طبقات التجار المحليين والمصارف المحلية فيزاحمون التاجر والمرابي اليهودي ثم يحتلون أماكنهما ، وبدأ يفقد اليهودى وظيفته الاساسية في المجتمع الاقطاعي ، وبدلا من ان يلعب دورا مثمرا ، ان لم يكن منتجا ، وجد اليهود انفسهم لا على هامش المجتمع وحسب وانما عبئاً حقيقياً عليه لا دور لهم فيه . ولذا لم يكن من الغريب أن يتم طرد اليهود من فرنسا وانجلترا في القرن الثاني عشر .

وهذه الدورة الناجمة عن تطور المجتمع الغربي من الاقطاع الى الرأسمالية هي ما يمكن تسميته بالمسألة اليهودية . فالمسألة اليهودية ليست نتيجة اضطهاد الأغيار (غير اليهود) لليهود ، وليست هى مؤامرة حيكت خصيصا ضد اليهود ، وانما هي ظاهرة اجتماعية مفهومة ، تشبه في كثير من الوجوه المسألة اليونانية او الايطالية في مصر او المسألة

---

(8) Edward Mcnall Burns and Philip Lee Ralph, **World Civilizations** (New York : W. W. Norton, 1969), Vol. I, pp. 426—427.

(٩) بديعة أمين ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص ٦٣ ـ ٦٤

العربية في افريقيا (ان صح التعبير) . ففي هذه المجتمعات قام اليونانيون والايطاليون والعرب بدور الاقلية التجارية ، وكلهم وقعوا ضحية التطور التاريخي الذي طرأ على مجتمعاتهم . وقد حلت المسألة اليونانية في مصر بأن رحل كثير من اليونانيين الى اليونان او اية بلاد اخرى ، وتبقى من تبقى منهم بعد ان اندمج في المجتمع المصري ، وتقبل وضعه دون تميز حضاري أو مهني . وقد تم نفس الشيء بالنسبة للأقليات اليهودية في انجلترا وفرنسا ، اذ طردت الغالبية العظمى منهم ، وبقى عدد قليل اندمج مع بقية السكان . وكان اليهود المطرودون يحلون مشكلتهم عن طريق التقهقر الى الوراء ، اى بالهجرة الى مجتمعات لا يزال النظام الاقطاعي فيها ثابتا مستقرا . ولعل هذا يفسر انسحابهم الى وسط اوروبا ثم الى شرقها خاصة بولندا . بل انه من المعروف ان اليهود اتجهوا الى بولندا بناء على دعوة من حكامها وتشجيع منهم في القرن الثالث عشر(١٠) ، وذلك لتشجيع التجارة في هذه المملكة الاقطاعية .

ولكن للتاريخ جدله المستقل الى حد كبير عن نوايا الأفراد ومقاصدهم ، اذ ان الدورة الاقتصادية التي شاهدنا حدوثها من قبل في فرنسا وانجلترا أخذت مجراها في بولندا وظهرت - كما هو طبيعي ومتوقع - طبقة من التجار المحليين والمصارف المحلية التي حلت محل التجار والمرابين اليهود . ولعل التجار المسيحيين المحليين تمكنوا من الحلول محل التجار اليهود بسهولة ، لأن انتمائهم الحضاري لمجتمعاتهم لاشبهة فيه ، ولكن الأهم من كل هذا هو نوعية التجارة التي كان يمارسها التاجر اليهودي وتلك التي كان يمارسها التاجر المسيحي المحلي . فالتجارة اليهودية تجارة بدائية (تعتمد على الرأسمال التجاري الربوى) وهو هذا الضرب من التجارة الذي ترعرع في المجتمع الاقطاعي ، « حيث لا يوظف التاجر اليهودي امواله في الانتاج . . . . . ولا يبتاع مواد أولية ، ولا ينفق على صناع الأقمشة ، فرأسماله التجاري ، ليس إلا وسيطا بين منتوجات لا يسيطر عليها ولا يخلق ظروف انتاجها »(١١) . أما الرأسمالى الجديد فهو يقف في وسط العملية الانتاجية ذاتها ، يأخذ المخاطر ويوظف كل امواله في شراء المواد الخام وابتياع العمل اللازم لتحويلها لسلع . والسلع التي يتم انتاجها ليست مجرد سلع ترفيه أو سلع استهلاكية ، بل هي سلع تنتج بغرض بيعها داخل نظام اقتصادي مبنى على البيع والشراء . واذا كان التاجر اليهودي يقف على هامش المجتمع الأوروبي فان التاجر الجديد قد ولد في رحمه (مع الاقتصاد الرأسمالي الجديد) . وكلما ازداد القطاع الرأسمالي قوة ازداد هو قوة معه الى ان حل تماما محل التجارة البدائية ، وتحول اليهود الى جماعة طفيلية ، وطرحت المسألة اليهودية نفسها على اوروبا الشرقية ثم الغربية ، ثم على العالم بأسره .

٢ - الاستعمار

أدت الثورة الرأسمالية (والثورة الصناعية التي تعد أحد مظاهرها) الى سيطرة الانسان المتزايدة على الموارد الطبيعية ، واصبح من الممكن للانسان ان ينتقل من مكان الى مكان في يسر وسهولة حتى تحولت الدنيا بأسرها الى مجرد

---

(10) Solomon Grayzel, **A History of the Jews from the Badylonian Exile to the Present 5728—1968** (New York : The New American Library, 1968), p. 390.

(١١) ابراهام ليون ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ص ٧٥

« قرية عالمية » على حد قول مارشال مالكوهن . اصبح من الممكن للمرء ان ينتقل من لندن الى بومباى في ساعات بعد ان كانت تستغرق تلك الرحلة شهورا او سنين قبل ذلك ، بل وأصبح من الممكن للانسان ان يقطن في أى مكان يختاره (حارا كان أم باردا) اذ أن عنده من الآلات ما يمكنه من السيطرة على بيئته المباشرة . فيبني البيوت ويكيفها ويحتفظ بالاطعمة لمدة طويلة . وكما لاحظنا من قبل غيرت الثورة الرأسمالية وجه الانتاج الاقتصادي من مجرد انتاج استهلاكي الى انتاج سلعي ، اى ان الانتاج من اجل التسويق أصبح عنصرا اساسيا ، وتحرك السوق وعالم التجارة من الهامش الى المركز . وقد فجرت هذه العملية بعض الطاقات الخلاقة في الانسان فقامت الثورة الصناعية وتوصلت اوروبا في تلك الفترة الى مجموعة مذهلة من الأختراعات ، خاصة في مجال الطاقة إذ تمكن الانسان من تسخير الطاقة الطبيعية في خدمته وفي الأغراض الصناعية بحيث اصبحت انتاجية الفرد الواحد في يوم تعادل انتاجية قرية بأسرها في شهر . هذا النمط الانتاجي الجديد خلق رغبة شرهة في الاسواق المحلية ثم المجاورة ثم العالمية ، مما ادى الى ظهور الاستعمار (بأشكاله المختلفة ، المركانتيلية والصناعية) ثم ظهور الامبريالية (وهما مرحلتان من مراحل الثورة الرأسمالية التي تفجرت في اوروبا وامتدت لتشمل العالم كله) . وقد وصلت هذه التطورات الى قمتها عام ١٨٧٠ « حين قامت الاحتكارات الدولية التي تقتسم العالم ، مصادر ثرواته وأسواقه ، فيما بينها » .(١٢) ثم انشأت الجيوش الهائلة وبنيت البحريات الضخمة لتسوية اى خلافات قد تنشأ اثناء عملية التقسيم ، ولضمان الأمن في المستعمرات المفتوحة . وقد تمت هذه العملية تقريبا قبل الحرب العالمية الاولى (ويمكن رؤ ية هذه الحرب كنتيجة لمحاولة الدول الرأسمالية الامبريالية المختلفة اعادة تقسيم غنائمها الآسيوية والافريقية) .

ولا يمكن رؤ ية الصهيونية خارج هذا السياق الاستعماري الامبريالي . فحلم اليهود بالعودة الى ارض الميعاد قديم قدم اليهودية ذاتها . وعلى الرغم من ان الفلسطينيين العرب لم يبدوا أي مقاومة نحو اليهود الذين كانوا يحضرون لفلسطين للصلاة او حتى للاستيطان لأهداف دينية ، بل انهم كانوا يرحبون بهم ، على الرغم من هذا لم يزد « عدد اليهود في فلسطين عام ١٨١٤ عن عشرة آلاف يهودي فقط ، وفي عام ١٩١٤ (لم يزد العدد) عن ٣٥,٠٠٠ يهودي من بين ١٢,٠٠٠,٠٠٠ » يعبرون في صلواتهم ثلاث مرات « عن رغبتهم في العودة الى أورشليم ،(١٣) أي أن حلم العودة ظل له فعالية دينية فردية ولم ينجح في نقل اليهود (والمسألة اليهودية) الى الشرق .

بل ان قضية العودة الفعلية الجماعية لم تكن مطروحة ، أساسا على المستوى الديني ، فعلى الرغم من ان الدين اليهودي ، في احدى صوره ، يؤمن بأنه « في الوقت الذي يحدده الرب وبطريقته ، وعندما يصبح الانسان مؤهلا للتحرر المطلق ، فسوف يعاد اليهودي الى فلسطين »(١٤) ، على الرغم من هذا ، إلا أنه تم تأكيد على أن حلم العودة لن يتم على أيدي الافراد ، بل ان التلمود يقرر في بعض نصوصه أن أي شخص « يعود » الى فلسطين بغرض الاستيطان

---

(١٢)كامل زهيري (مشرفا) :موسوعة الهلال الاشتراكية، امبريالية ،

(١٣) ج . ه . جانسن ، الصهيونية واسرائيل واسيا ، ترجمة راشد حميد (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ١٩٧٢) ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(14) Rabbi Elmer Berger, "The Real Issue in the Arab Israeli—Zionist Conflict," in Garry Smith (Ed.), **Zionism : The Dream and the Reality** (New York : Barnes and Noble, 1974), p. 231.

وليس بغرض التعبد يخالف بذلك الوصايا الربانية .⁽¹⁵⁾ ومع هذا ظهر في الغرب ، مع ظهور الاستعمار والامبريالية ، فكر يبشر بالعودة الجماعية لليهود (« الشعب اليهودي ») ليستوطنوا في فلسطين (« ارض اجدادهم ») . وقد ظهر هذا الفكر أول ما ظهر في صفوف المسيحيين الذين يطلق عليهم اصطلاح « الاسترجاعيين » .

ويعود الفكر الاسترجاعي الى الأسطورة المسيحية عن عودة المسيح المخلص في آخر الأيام ليحكم العالم هو والقديسون لمدة ألف عام يسود فيها العدل والسلام . وحسب ما جاء في هذه الأسطورة لن يتحقق الخلاص ولن يتم الا باسترجاع اليهود لفلسطين (ليتم تنصيرهم) . وقد ظهرت هذه العقيدة ـ التي يطلق عليها أحيانا اصطلاح « العقيدة الألفية » ـ في كتب الأبوكريفا (أي الكتب التي لا يعترف بها اليهود وسفر دانيال) . وبطبيعة الحال لا يهمنا مناقشة مدى صحة هذه الأفكار من منطر ديني مسيحي أو حتى يهودي ، اذ أن ما يهمنا في السياق الحالي ان هذه الأفكار الدينية بدأت تتحول بالتدريج الى ما يشبه البرنامج التبشيري الديني / السياسي في القرن السادس عشر ، وازدهرت في القرنين السابع والثامن عشر (عصر الاكتشافات والرأسمالية المركانتيلية والأشكال الاولى من الاستعمار) ، ثم وصلت الى قمتها فى القرن التاسع عشر (عصر الامبريالية وتقسيم العالم والبحث عن الأسواق ومصادر المواد الخام) ، الى أن نصل الى شخصيات مثل اللورد بالفور صاحب الوعد المشهور ، والضابط البريطاني اورد وينجيت الذي قاد عمليات الارهاب ضد العرب ودرب الصهاينة عليها ، والجنرال سمتس رئيس وزراء جنوب أفريقيا ، ونيستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الامريكي « جيمي كارتر » ، الذي يمكن أن نطلق عليهم كلهم اصطلاح « الصهاينة الأغيار ـ أو الصهاينة غير اليهود » . ويتميز هؤلاء الصهاينة بأن ثمة نزعة استرجاعية قوية في فكرهم تؤثر في توجيههم السياسي العام .

والرؤية الاسترجاعية تنظر لليهود باعتبارهم جماعة دينية / قومية ، فهم شعب الله المختار كما جاء في العهد القديم ، وهم أيضا الشعب اليهودي (بالمعنى السياسي الحديث) . وتتطلب رؤية الخلاص توطين اليهود في فلسطين ، ولكن يمكن لهذا التوطين أو الاستيطان أن يخدم المصالح الربانية والامبريالية في ذات الوقت . فإرتس يسرائيل (أو فلسطين) هي الأرض التي يتحدث عنها الكتاب المقدس ، وهي أيضا البلد الذي يقع في قلب الامبراطورية العثمانية (رجل أوروبا المريض) الذي كان الجميع يتوقعون سقوطه ليرثوه وليملأوا الفراغ الذي كان من المتوقع أن يخلقه اختفاؤه كقوة عظمى) ، وهي كذلك البلد الذي يطل على البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس ومصر وطريق الهند وبوابات الشرق ، وهي الى جانب هذا كله المكان الذي يستوعب المهاجرين اليهود الذين كانوا قد بدأوا في قرع أبواب انجلترا وفرنسا ودول غرب أوروبا الأخرى . في هذا الاطار يمكن فهم سلوك أول صهيوني في التاريخ الحديث وأن ندرك الأسباب الحقيقية وراء رقة قلبه الفجائية ودعوته الكريمة لليهود بالعودة الى بلادهم ، فهو كان يريد توطين اليهود على طريق الهند ليضمن وجود دولة عميلة هناك تحمي مصالحه وخطوط تموينه ، وتدين له بالولاء لاعتمادها الكامل عليه .

وعدد الصهاينة غير اليهود كبير للغاية ويضم شخصيات سوية وغير سوية ، ومن أهم هذه الشخصيات جورج جولر (١٧٩٦ ـ ١٨٦٩) حاكم جنوب استراليا ، الذي بين في خطاب له عام ١٨٥٣ ان استيلاء أي دولة على مصر وسورية

---

(15) Philip Signal, "Reflections on Jewish Nationalism," **Issues**, Vol. XV, (Fall, 1961), pp. 20—21.

(بما في ذلك فلسطين) يهدد تجارة بريطانيا ، ولذلك نادى بأن تقوم انجلتره بتطوير سورية لصالحها وذلك عن طريق نشاط أبناء اسرائيل ومساعيهم (١٦) ويبشير موسى هس الى أرنست لاهاران ، سكرتير نابليون الثالث ، الذي حث اليهود في كتاب المسألة الشرقية ـ اعادة بناء الأمة اليهودية (نشر عام ١٨٦٠) على « أن يعيدوا دولتهم على أسس سياسية وانسانية وليس دينية » . . (١٧) ثم يضيف قائلا ان اليهود سيكونون « بمثابة الوسيط بين أوروبا وآسيا البعيدة ، وذلك كي يمهدوا الطرق التي تقود الى الهند والصين ـ تلك المناطق المعزولة التي يجب أن تعرض للحضارة » (والسلع الرأسمالية التي تساندها الجيوش الامبريالية) .

ويعد الواعظ البروتستانتي هكلر (١٨٤٥ ـ ١٩٣١) من أهم صهاينة الأغيار ومن أكثرهم حماسة لارجاع اليهود الى فلسطين . وقد تعرف هكلر على هرتزل ونشأت بينهما صداقة حميمة ، فقدمه لدوق بادن ، وساعده في محاولاته الدبلوماسية الرامية الى الحصول على تأييد دولة غربية عظمى للمشروع الصهيوني . وقد حضر هكلر مؤتمرا عام ١٨٨٢ لمناقشة امكانية توطين المهاجرين اليهود القادمين من رومانيا وروسيا في فلسطين ، أي حل المسألة اليهودية على حساب الفلسطينيين . ولكن المصطلح السياسي كان يتداخل دائما مع المصطلح الصوفي في عقل الصهاينة غير اليهود ولذا حينما نشر هكلر نفسه كتيبا عن الموضوع ذاته عام ١٨٨٤ تحدث عن « استرجاع اليهود لفلسطين حسب تعاليم الأنبياء » (١٨) .

ويمكننا أن نلاحظ ما يلي على هؤلاء الصهاينة غير اليهود :

١ ـ ان فكرهم جزء أصيل من الحضارة الغربية ككل ، وأن بعث فكرة الاسترجاع يعود الى الثورة الرأسمالية ، باعتبار أن الفكر الاسترجاعي هو فكر استعماري يأخذ شكلا دينيا .

٢ ـ ان الصهاينة غير اليهود قد أخذوا في الظهور مع نهايات القرن السادس عشر وأن أدبياتهم كانت قد انتشرت وشاعت في أوروبا مع منتصف القرن التاسع عشر ، أي قبل ظهور أي فكر صهيوني في صفوف اليهود . ولم تجد هذه النداءات الاسترجاعية صدى كبيرا بين اليهود في بداية الأمر ، ولكن مع تفاقم وضع اليهود في شرق أوروبا وزيادة حدة المسألة اليهودية بدأ يظهر فكر صهيوني بين اليهود أنفسهم يطالب بعودتهم السياسية الى فلسطين باعتبارها أرض الأجداد .

الفكرة الصهيونية اذن حتى كأسطورة دينية / سياسية لا تعود بجذورها الى تاريخ اليهود الوهمي ، وانما تعود الى ديناميات التاريخ الاوروبي الحقيقي ، وحينما ظهر الفكر الصهيوني في نهاية الأمر في أواخر القرن التاسع عشر (بعد عام ١٨٨٢ على وجه التحديد وهو التاريخ الذي أنهى المحاولات الرامية لدمج يهود روسيا في المجتمع الروسي) فانه كان فكرا استعماريا في بنائه ومضمونه . والاستعمار الغربي يهدف الى حل مشاكل الاقتصاد الرأسمالي عن طريق تصديرها للشرق ، فمشكلة الحصول على المواد الخام اللازمة للانتاج ومشكلة الانتاج السلعي كانت تحل عن طريق استعمار

---

(١٦) د . اميل توما ، جذور القضية الفلسطينية (بيروت : مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية بيروت) ص٨

(١٧) لطفي العابد وموسى عنز (ترجمة) وأنيس صايغ (اشراف) الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية (بيروت : مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٠) ص ٣٦ ، سنكتفي بالاشارة لهذا المرجع بالفكرة الصهيونية .

(18) Rapael Patai, (ed.), **Encyclopedia of Zionism and Israel** (New York : Herzl ress and McGraw Hill, 1971), Vol. II, "Heckler.".

الأراضي وتحويلها الى مناجم ومزارع وأسواق . ومن أهم المشاكل التي نجمت عن الثورة الرأسمالية الانفجار السكاني الامر الذي زاد من حدة أزمة البطالة ، وأدى الى ظهور جماعات المتعطلين الذين كان يطلق عليهم اصطلاح « الفائض السكاني » . ولكن الحل الاستعماري كان دائما جاهزا ، اذ قامت أوروبا بتصدير فائضها السكاني الى آسيا وأفريقيا حيث استقر الاوروبيون في جيوب استعمارية استيطانية في الجزائر وجنوب أفريقيا والهند .

والصهيونية هي الحل الاستعماري للمسألة اليهودية ، اذ أنه بعد تفاقمها طرحت عدة في جوهرها حلول ترمي الى « تحديث » اليهود أو اليهودية باعتبار أن أزمة اليهود واليهودية قد نجمت عن ارتباطهم اقتصاديا وحضاريا بالمجتمع الاقطاعي البائد ، وبالتالي كان عليهم أن يعيدوا صياغة أنفسهم حتى يتكيفوا مع المجتمع التجاري الصناعي الجديد الذي ظهر في أوروبا (في غربها في بداية الأمر ثم في شرقها مع حلول القرن التاسع عشر) . وبطبيعة الحال كان هناك الرافضون كلية لأي شكل من أشكال التحديث (مثل الحيديين) ، وكان هناك أيضا دعاة التحديث الكامل (مثل الاندماجيين) .

والصهيونية هي الأخرى كانت احدى الاستجابات اليهودية المختلفة لأزمة اليهود واليهودية في المجتمع الأوروبي الحديث ، وهي الأخرى كانت تهدف الى تحديث اليهود واليهودية بشكل أو بآخر ، ولكن هذا التحديث في تصوري أخذ شكلا سطحيا للغاية ، ولكن ما يهمنا في اطار هذا المقال هو أن نبين أن الصهاينة قد أيقنوا أن الحل الاستعماري لمشاكل أوروبا هو الحل الأمثل ، ولذلك تبنوا هذا الحل وطبقوه على المسألة اليهودية : ويتلخص هذا الحل للمسألة في تصديرها الى آسيا أو أفريقيا أو أي مكان آخر بخلاف أووروبا ، وقد لاحظ جمال حمدان الحقيقة الهامة التالية : « ان الاستعمار كله ما تم الا على يد أوروبا وما تم الا خارجها ولم يحدث في التاريخ الحديث أن استعمر جزء من أوروبا ، باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجي في جبل طارق ومالطة وقبرص . . . لقد كان الاستعمار ـ بوضوح ـ صناعة أوربية مسجلة ولكنها للتصدير الى خارج أوربا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلي بحال (١٩) . ولذا فلم يفكر أحد قط في أن تصدر المسألة اليهودية الى لندن أو باريس ، ولم يفكر أحد قط أن تستقطع منطقة من المانيا ، حتى بعد مذبحة الابادة النازية ، لاقامة الوطن القومي اليهودي فيها ، وانما كان التفكير في مصر وكينيا وقبرص والكونغو وموزمبيق والارجنتين والعراق وليبيا . وفي نهاية الأمر وقعت فلسطين الضحية الفعلية نظرا لبعض العوامل الخاصة بالاستعمار الصهيوني .

وكانت الصهيونية واعية تماما بنفسها كحل استعماري للمسألة اليهودية ولعل المنشور الذي صدر عام ١٩٢١ عن « المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى » بعنوان « الصهيونية : رد على النقد الجديد » ، لعل هذا المنشور يلخص هذا الجانب من الحركة الصهيونية . يبدأ المنشور بتأكيد الحقيقة البديهية التي أثبتتها التطورات اللاحقة وهي أن « الصهيونية لا تتفق ومبدأ تقرير المصير » لأن هذا المبدأ يعني ببساطة تقبل « التركيب العرقي الحالي في كل مقاطعة وبلدة » ثم يسأل المنشور : « هل تم الاعتراف في أي وقت مضى من تاريخ المدينة كله بأن استعمار اقليم متخلف لا يمكن أن يتم الا بموافقة غالبية السكان الحقيقيين هناك ؟ لو كانت الحال كذلك لندر أن يستعمر أي بلد في العالم ؟ » ثم يدافع المنشور عن الفكرة الاساسية الكامنة وراء الاستعمار ، فكرة تصدير المشاكل . « اذا نفذ مبدأ تقرير المصير حتى نهايته المنطقية

---

(١٩) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير القاهرة : دار الهلال دون تاريخ)ص ١٥٠ ـ ١٥١

المجردة وتم استفتاء السكان المحليين لأصبح كل التوسع مستحيلا ولصارت الآن الجماهير الأوروبية المكتظة تختنق وتجوع على هذا الطرف من الأطلسي بينما حفنة من الهنود الحمر لا تزال تطوف طليقة في ساحات أمريكا التي لا حدود لها » (٢٠) . (شبه بن جوريون « المعارك العنيفة التي خاضها المستوطنون الصهاينة ضد الفلسطينيين بتلك التي شنها المستوطنون البيض ضد الطبيعة الوحشية وضد الهنود الأكثر وحشية .) (٢١)

وقد تحدث بنكر عن حله للمسألة اليهودية بنفس المصطلح الاستعماري اذ يقول : « يتوجب علينا أن نرسل اليهود غير المندمجين والفائضين الى مكان آخر » (٢٢) ، فهدف الحركة الصهيونية « هو ايجاد وطن آمن يعيش فيه بأمان هؤلاء اليهود الفائضون الذين يعيشون الآن كطبقة بروليتارية عالة على المواطنين الاصليين » (٢٣) (التأكيد في الأصل) . ثم يضيف « لو تمكنا مثلا من توزيع اليهود على كل أنحاء العالم لأمكن ربما بهذا التوزيع حل المشكلة اليهودية » . . ولكنه يعرف جيدا ان « معظم البلاد المتحضرة (أي الأوربية) سوف لا تقبل بهجرة اليهود الجماعية اليها » ولذا يجب الحصول على « بلد خاص لنا » مثل الولايات المتحدة أو أي ولاية تركية (٢٤) وقد وصف أوسكار رابينوفيتش ، في كتاب هرتزل السنوي ، المشروع الصهيوني بأنه يهدف الى حل المسألة اليهودية عن طريق تحويل « تيار المهاجرين اليهود من انجلترا الى أفريقيا وآسيا » (٢٥) ، والى تدعيم مركز بريطانيا عن طريق « انشاء مركز يهودي للحكم » يطل على الطريق البريطاني الحيوي : لندن ـ سنغافورة ـ ملبورن (٢٦) . وقد وصف هرتزل الفكرة الصهيونية عن حق بأنها « فكرة استعمارية » (ولذا أرسل بمشروعه لسيرسيو رودس » ليضع ختم شرعيته » على هذا المشروع (٢٧) . أما ناحوم سوكولوف ـ المؤرخ الصهيوني ، فقد قرر حسم التناقض بين الصهيونية كحركة بعث روحي والصهيونية كحركة استعمارية بأن قرر أن نكون « صهيونيين في استعمارنا وروحنا وديننا » (٢٨) .

واذا كانت الصهيونية فكرة استعمارية ، فان كل مؤسساتها وممارساتها لا بد وأن تتصف بهذه الصفة الجوهرية . وقد كتب هرتزل مثلا في كتاب **دولة اليهود** عن الشركة اليهودية (٢٩) التي ستقوم بتنفيذ كل من الخطة العملية والمخططات السياسية التي ستعدها الجمعية اليهودية (أي المنظمة الصهيونية) وهذا التصور يشبه الى حد كبير « نسق الاستيطان

---

(٢٠) جانسن ، الصهيونية واسرائيل وآسيا ، ص ٧٢

(21) David Ben Gurion, **Rebirth and Destiny of Israel** (New York : Philosophical Library, 1954), p. 9.

(٢٢) الفكرة الصهيونية ، ص ٩١

(٢٣) نفس المرجع ، ص ٩٤

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٩٢

(٢٥) نفس المرجع ، ص ٩٥

(26) Oskar K. Rabinowicz, "Herzl and England," **Herzl Year Book,** Vol. III, p. 45.

(27) Raphael Patai (Ed.), **The Complete diaries of Theodore Herzl,** (Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. III, p. 11194. From now on, it will be referred to as **Diaries.**

(٢٨) أميل توما ، جذور القضية الفلسطينية ، ص ٥٢

(٢٩)الفكرة الصهيونية ، ص ١١٨

الكولونيالي في الجزائر وروديسيه » . ولذل حينما تأسست بالفعل هذه الشركة أطلق عليها اسم « الشركة اليهودية الاستعمارية (الكولونيالية) (٣٠) (وبنفس الطريقة كانوا يتحدثون عن البنك الكولونيالي ، وعن الصندوث اليهودي الكولونيالي) (٣١) .

والدولة الصهيونية ـ حسب التصور الصهيوني ـ هي تعبير عن جوهرها الاستعماري المتأصل فهي ستكون « امبراطورية بريطانية مصغرة » (انجلترا الصغرى ، على حد قول هرتزل) وستستند عائم صهيون الجديدة الى الغزو الاستعماري وستمتد من جبال الكليما نجارو في كينيا الى فلسطين (٣٢) وتتفق رؤية موسى هيس ، في كتابه روما والقدس ، مع رؤية هرتزل ، وان اختلفت عنها في بعض التفاصيل ، ففكرة هيس الصهيونية هي أيضا فكرة استعمارية ، وهي أيضا تهدف الى حل المسألة اليهودية عن طريق تصديرها . فهو يقول اننا عندما نتكلم عن اقامة مستعمرات في الشرق لا نعني بأن يهاجر يهود الغرب كلهم الى فلسطين « فالدولة اليهودية لا تهدف الى استيعابهم كلهم » ، وانما تهدف الى استيعاب الفائض (أولئك الذين فشلوا في « أن يشقوا طريقهم الى الحضارة الغربية بجهد بالغ ويحققوا لأنفسهم مركزا اجتماعيا ») أما الذين نجحوا في هذه العملية فسوف « لا يتخلوا عن أي نجاح حققوه . . . لأن تضحية ذات نتيجة محددة كهذه هي ضد طبيعة الانسان » (٣٣) ولكن رغم هذا الاتفاق في نقطة الانطلاق يعرف هس جيدا حدود الرؤية والممارسة ، ولذلك فهو لا يتحدث قط عن امبراطورية صهيونية استعمارية ، وانما يتحدث عن مستعمرة أو مستعمرات وحسب ، « ننشئها في أرض أجدادنا بمساعدة فرنسا ، صديقتنا الحبيبة ، المخلص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في التاريخ العالمي » (٣٤) .

والصورة هنا هي صورة فائض يهودي يبحث عن مخرج من مسألته اليهودية فيقدم نفسه لقوة استعمارية تقوم بنقله الى الشرق ، ليستوطن هناك و « ليحل » محل إحدى الشعوب الشرقية ـ نظير أن يصبح الجيب الصهيوني الجديد الدخيل « عميلا » للقوة العظمى التي تقوم بحمايته ، وهذه هي الصورة العامة والكاملة التي تتواتر في الكتابات الصهيونية ، وبالفعل يمكننا القول ان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني هو استعمار احلالي عميل ليس له دينامية مستقلة عن الدولة العظمى التي تتبناه . ولعل هاتين السمتين ، احلاليته وعمالته ؛ هما السمتان الأساسيتان للاستعمار الاستيطاني الصهيوني .

ويمكن بشيء من التبسيط تخيل أنواع الاستعمار المختلفة على هيئة هرم ، لا تنفصل قمته عن قاعدته ، وان كانت تختلف عنه ، ولعل المعيار الكامن في تدرج هذا الهرم هو درجة التشوه التي تلحق بجماعة المقهورين نتيجة للغزو

---

(٣٠) أميل توما ، جذور القضية الفلسطينية ، ص ٥٢

(31) Walter Laqueur, A History of Zionism (New York : Holt, Rinehart & Winston, 1972), p. 108.

(32) Ahmed El—Kodsy and Eli Lobel, **The Arab World and Israel** (New York : Monthly Review Press, 1970), p. 116.

(٣٣) الفكرة الصهيونية ، ص ٤١

(٣٤) نفس المرجع ، ص ٣٦

الاستعماري . اذا قبلنا هذه الاستعارة ، مع علمنا تماما بأنها استعارة تصنيفية وحسب وليست مقولة امبريقية ، فاننا سنجد عند قاعدة الهرم ما يسمى بالاستعمار الجديد ، وهو أن تتحكم القوة العظمى الاستعمارية في مصير الشعب وثرواته عن طريق حكومات عميلة وعن طريق منظمات دولية خاضعة لهيمنة القوة العظمى (كما هو الحال الآن في معظم دول العالم الثالث) . ومثل هذا النوع من الاستعمار يمارس سلطاته بشكل غير مباشر ، ولذلك فالتشوهات التي يلحقها بمجتمع المقهورين قد لا تكون في عظم التشوهات التي قد تسببها أنواع الاستعمار الأخرى . يقع فوق هذا ، في هرمنا الافتراضي ، الاستعمار التقليدي حيث ترسل الدولة الغازية بجيوشها وتحتل بلدا ما لتحويل سكانه الى مصدر للعمالة الرخيصة وللاستيلاء على موارده الطبيعية ولتحويله الى سوق للسلع الفائضة وللاستفادة من وضعه الاستراتيجي (كما كان حال مصر ابان فترة الاحتلال الانجليزي) . ومثل هذا النوع من الاستعمار يلحق كثيرا من التشوهات بالمجتمع المستعمر اذ يفرض ثقافته ويقضي على فرص هذا المجتمع في أن يطور نفسه بشكل طبيعي ويمنع سكانه من أن يسيطروا على مصيرهم . ولكن مع هذا لا يمكن أن تقاس هذه التشوهات بتلك التي يلحقها الاستعمار الاستيطاني (وهو الضرب الثالث من الاستعمار) بالمجتمع المستعمر ، اذ أن الاحتلال هنا يأخذ شكل جماعة استيطانية ، بكل مؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية والحضارية (من أسر وحكومة ونسق قيمي وجيش ولغة) ، تلقى بظلالها الكثيفة على السكان الأصليين ، الذين يتحولون الى عبيد يهاجرون يوميا من قراهم وخيماتهم الى المدينة الاستيطانية أو الى المناجم ليعملوا نظير أجور هي دائما أقل من حد الكفاف ، بينما تعمل الزوجات في أماكن أخرى ، ولا توجد أي مؤسسات حضارية تقليدية أو حديثة لترعى النشء الجديد مما ينتج عنه تشوه كامل لبناء المجتمع الأصلي . وفي قمة الهرم يقع الاستعمار الاستيطاني الاحلالي ، وحسب معلوماتي لا يوجد في الوقت الراهن سوى الاستعمار الصهيوني الذي ينتمي الى هذا النوع وهو يشبه في كثير من النواحي استعمار الرجل الابيض للولايات المتحدة . فالرجل الأبيض هناك لم يهدف الى استغلال الأرض ومن عليها من سكان ، وانما كان يهدف الى استغلال الارض دون سكانها ، ولذا كان لا بد من ابادة السكان الاصليين . وهذا ما حدث في فلسطين اذ لم يقم الصهاينة باستعمار الفلسطينيين وتحويلهم الى عبيد مؤاجرين ، وانما قامت الصهيونية بالاستيلاء على الأساس المادي الذي يستند اليه المجتمع الفلسطيني ذاته ، وأحلت المستوطنين الصهاينة محل الفلسطينيين ، الذين طردوا من ديارهم (ربما لأن الابادة لم تكن مطروحة بسبب الصعوبات العملية ، وان كنا نعرف حالات حاول المستعمر الصهيوني فيها ابادة أعداد من الفلسطينيين ونجح في ذلك الى حد ما ، كما حدث مؤخرا في بيروت . فالهدف من هذه المذبحة لم يكن بأية حال طرد الفلسطينيين وانما الاجهاز عليهم . وبهذا يكون الاستعمار الاستيطاني الاخلالي أكثر أنواع الاستعمار شراسة وضراوة .

ولا بد وأن نبين أن احلالية الاستعمار الصهيوني هي نتيجة حتمية « لصهيونيته » ، بل اننا يمكن أن نعتبر ان الاحلالية والصهيونية هما مترادفان يعبران عن نفس الشيء فالصهيونية كانت تهدف لانشاء دولة يهودية خالصة ، ووجود أي عنصر غير يهودي داخل هذه الدولة سيؤدي الى افشال المشروع الصهيوني من أساسه ، أي أن البرنامج الصهيوني ، لأنه صهيوني ، كان يقتضي ويتطلب احلال اليهود محل العرب ، وليس مجرد استغلال هؤلاء العرب ، ولذا بينما كان الفلاح الافريقي المطرود يستوعب في النظام الاقتصادي الجديد كبروليتاري ، كان الفلسطيني يتحول الى لاجيء - أي انسان منفصل عن أي نمط انتاجي أو علاقات انتاجية (ولعله من أكبر انجازات منظمة التحرير الفلسطينية

انها احتفظت لهؤلاء اللاجئين ـ على الرغم من وضعهم الفريد ـ بهويتهم القومية وباحساسهم بالانتماء لوطنهم الفلسطيني ولأمتهم العربية) .

وكان غالبية الصهاينة مدركين للطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الاحلالية للمشروع الصهيوني ، ولعل شعار « شعب بلا أرض لأرض بلا شعب » هو افصاح عن هذا الاتجاه الاحلالي . والنزعة الاحلالية واضحة في كتابات هرتزل من البداية حينما يتحدث عن استخدام « المواطنين الاصليين » في قتل الثعابين الكبيرة والحيوانات المفترسة الاخرى ثم اعطائهم وظائف في دول أخرى يقيمون فيها بصفة مؤقتة الى أن يتم اختفاؤهم بشكل كامل (٣٥) . وكان اسرائيل زانجويل يرى (عام ١٩١٩) انه يجب أن يتم تدريجيا نقل العرب الفلسطينيين وتوطينهم فيما أطلق عليه المملكة العربية الجديدة الواسعة ، حتى يتسنى تحويل فلسطين الى « وطن قومي يهودي » (٣٦) . وقد كتب وايزمان في أغسطس عام ١٩٤٧ يقول ان نجاح مشروع تقسيم فلسطين يتوقف على « ما اذا كانت الحكومة ترغب بالفعل أو لا ترغب في تنفيذ هذه التوصية الخاصة بنقل العرب » (٣٧) ـ وقد ذكر جوزيف وايتز ، ممثل الوكالة اليهودية المسؤول عن الاستيطان في جريدة دافار (٢٩ سبتمبر ١٩٦٧) انه هو وغيره من الزعماء الصهاينة توصلوا في عام ١٩٤٠ الى نتيجة مفادها انه ليس هناك « مكان يتسع لكلا الشعبين (العربي واليهودي) معا في هذا البلد » وانه لتحقيق الأهداف الصهيونية لا بد وأن تقام دولة غرب نهر الأردن ليس بها عرب ، ولذا كان من الضروري ـ حسب قوله ـ « نقل العرب من هنا ومن الدول المجاورة . . . نقلهم جميعا ، وبعد انتهاء عملية النقل هذه سيكون في مقدور الدولة (الصهيونية) استيعاب الملايين من اخواننا » (٣٨) وقد وافق جميع الزعماء الصهيونيين ، باختلاف اتجاهاتهم السياسية ، على احلالية الاستعمار الصهيوني ، سواء كان سوكولوف الصهيوني السياسي اليميني (٣٩) أو بوروخوف ، زعيم « اليسار » الصهيوني (٤٠) .

وكان كارل كاوتسكي ، المفكر الثوري اليهودي ، من اوائل المفكرين الذين ادركوا الطبيعة الاحلالية للاستعمار الصهيوني في دراسته الشهيرة **هل يشكل اليهود جنسا ؟** اذ تكهن بأن المستوطنين اليهود سيعانون الكثير خلال النضال العربي من اجل الاستقلال ، لأن الاستعمار الصهيوني يدل على نية اليهود على البقاء في فلسطين ليس بهدف استغلال

---

(35) **Diaries,** Vol. I. see entry dated June 12, 1893, p. 80—90, and again on the same day, p. 98.

(36) Cited in Richard Stevens, "Settler States and Western Response", in Abden Jabra and Janice Terry (Eds.), **The Arab World : From Nationalism to Revolution** (Wilmette, I11 : Medina Univ. Press 1971), p. 170.

(37) Erskine Childers, "The Wordless Wish : From Citizens to Refugeed" in Ibrahim Abu—Lughod (Ed.) **The Transformation of Palestine : Essays on the Origin and Development of the Arab Israeli Conflict** (Evanston, I11 : Northwestern Univ. Press, 1971), p. 171.

(38) Machover, "rely to Sol Sten" **Israca,** January 5, 1973, pp. 27—28.

(39) Laqueur, **A History of Zionism, p. 231.**

(40) El—Kodsy and Lobel, The Arab World and Israel, p. 119.

السكان الاصليين وحسب ، بل لطردهم نهائيا ايضا (٤١) . ولا ندري هل كان بن جوريون واعيا بالاساس النظري الذي تنطلق منه الممارسات الصهيونية ، ولكننا نعرف انه ادرك الخاصية الاحلالية للاستعمار الصهيوني بعد انشاء الدولة الصهيونية على الاقل ، اذ اقترح على ديجول أن يتبنى الشكل الاحلالي من الاستعمار الاستيطاني حلا للمشكلة الجزائرية ، فتقوم فرنسا باخلاء المنطقة الساحلية من الجزائر من سكانها العرب على ان يتم توطين الأوروبيين وحدهم فيها ، ثم تعلن المنطقة دولة مستقلة اوروبية بيضاء خالصة لسكانها حق تقرير المصير ، تماما مثل الدولة اليهودية الخالصة (ولكن رد ديجول كان يتسم بالذكاء التاريخي اذ رفض أن يخلق « اسرائيل اخرى » ، على حد قوله) .

هذه هي الخاصية الاولى للاستعمار الصهيوني ، اما الخاصية الثانية فهي عمالة الاستعمار الصهيوني . فالمشروع الصهيوني ابتداء لم يكن من الممكن تنفيذه من الناحية التكنولوجية البحته الا بعد الثورة الرأسمالية التي ربطت اجزاء العالم وحولته الى سوق واحد تقريبا ، متماسكة اجزاؤه ، وهي الثورة التي جعلت عملية نقل الملايين من قارة الى اخرى وتوطينهم أمرا ممكننا . ومن الناحية العسكرية السياسية ، لم يكن من الممكن ان تتم هذه العملية الا بحماية قوة عظمى تضمن للمستوطنين الاوروبيين (الصهاينة في هذه الحالة) قطعة ارض تقتطعها من آسيا وافريقيا ثم تقوم بامدادهم بالسلاح وبالعون العسكري اللازمين لصد هجمات السكان الاصليين .

ولعل عمالة الاستعمار الصهيوني تظهر اكثر ما تظهر في بحثه الدائب ، في المراحل الاولى عن قوة امبريالية ترعاه ، فقد تفاوض هرتزل مع العثمانيين ثم مع الالمان والروس ومع الفرنسيين ، وأخيرا مع الانجليز الذين ادركوا الامكانيات الاستعمارية الكامنة في المشروع الصهيوني ، وقد كللت هذه المساعي بالنجاح ، بعد موت هرتزل ، بصدور وعد بلفور ، وقد اصبحت لندن بعد ذلك هي مقر القيادة الصهيونية ، ولكن مع انتقال مركز الامبريالية العالمية من العاصمة الانجليزية الى واشنطن ، انتقلت القيادة الصهيونية هي الأخرى الى هناك لتضمن ان تكون على مقربة من القوة الاساسية التي ترعاها .

ولم تكن عمالة الاستعمار الصهيوني بأمر خاف على الزعماء الصهاينة . فقد كان هرتزل يرى ان الدولة الصهيونية ستكون بالدرجة الاولى « مستعمرة كبيرة » تدعم النفوذ البريطاني (٤٢) ، بل انها ستكون بمثابة « مستعمرة جديدة غنية » (٤٣) تضاف الى الامبراطورية العتيدة . وقد شارك نورداو في هذا التصور ايضا ، فالدولة الصهيونية ستكون تحت وصاية بريطانيا العظمى ، اما « اليهود (وهو يعني في الواقع الصهاينة) فسيكونون بمثابة حراس على طول الطريق ابتداء من الشرقين الادنى والاوسط حتى حدود الهند » (٤٤) .

ويفهم من كلمات نورداو ان الدولة الاستيطانية والمستوطنين سيقومون على خدمة الامبراطورية . ولكن يبدو ان

---

(41) Karl Kautsky, **Are the Jews a Race?** (New York : International Publishers, 1963), p. 212.

(42) **Diaries,** Vol IV, p. 1309.

(43) **Ibid,** p. 1360.

(44) Address at the Albert Hall, London, July 16, 1920, Max Nordau, **Max Nordau to His People : A Summons and a Challenge** (New York : Scopus Publishing Socity, 1941), p. 209.

المخطط الصهيوني لم يكن يهدف لهذا وحسب ، وانما كان يهدف ايضا الى تحويل كل يهود العالم الى « عملاء » او « تابعين سريين » (على حد قول هرتزل في مذكراته) (٤٥) .

كما أن إحلالية الاستعمار الصهيوني تكمن في صهيونيته ، كذلك نجد أن عمالته لصيقة بشكل عضوي بصهيونيته أيضا . وهذا ما نبه اليه جابوتنسكي ، اذ قال ان فلسطين العربية ستنضم الى بقية العالم العربي ، أما الدولة الصهيونية التي لا تنتمي الى المنطقة ستضطر ان تلجأ لبريطانيا لحمايتها وبالتالي ستكون معتمدة عليها اعتمادا كاملا مما يضمن استمرار التعاون بين الاستعمار الصهيوني العميل والاستعمار البريطاني (٤٦) .

وقد أشرنا من قبل الى ان الاعتماد على قوة استعمارية كبرى كان أمرا اساسيا لتحويل الرؤية الصهيونية الاستعمارية الى حقيقة وذلك لحماية المستوطنين من السكان الاصليين . ولكن يبدو انه في حالة الصهيونية كان من الضروري الحصول على العون الامبريالي لفرض الرؤية الصهيونية على اليهود أنفسهم ، الذين ابدوا معارضة قوية في بادىء الامر ضد الحركة الصهيونية ، وهذا ما اعترف به وايزمان حينما صرح ان وعد بلفور « كان مبنيا على الهواء » فالصهاينة « كانوا يقفون وحدهم على جزيرة صغيرة ـ مجموعة صغيرة من اليهود لها ماضي اجنبي » (٤٧) . وكحل لهذه المشكلة ـ مشكلة الحركة الاستعمارية الاستيطانية التي لا تملك جماهير لنقلها الى فلسطين ـ أقترح وايزمان استراتيجية الهجوم على اليهود من أعلى : أي ان تقوم الحركة الصهيونية بكسب ود القوة الامبريالية ، وبالتالي فانها تكتسب شرعية امام الجماهير اليهودية مما يضطر اليهود المناهضين للصهيونية الى الموافقة على المشروع الصهيوني وعلى الانخراط في صفوف الحركة الصهيونية في الوقت المناسب (٤٨) . ولعل هذا هو السبب ان وايزمان اصر على ان يدرس المشروع الصهيوني لا في ضوء العهد القديم أو الجديد ، وانما « في ضوء المصالح الامبريالية » (٤٩) .

ويبدو ان هذا هو بالفعل ما تم ، ولذلك تحمس حكام الامبراطورية وصدر وعد بلفور وهو الوعد الذي يمنح الصهاينة « حقوق » المستعمرين « وواجباتهم » ويمنح الحركة الصهيونية الشرعية الاستعمارية التي كانت تسعى لها . ولعله ليس من قبيل المصادفة على الاطلاق ان نفس الشخصيات التي جاهدت من أجل صدور وعد بلفور (١٩١٧) هي نفسها التي كانت مسئولة عن صدور قانون اتحاد جنوب افريقيا (١٩٠٩) : وهم لورد ملنر ولورد سلبورن ولورد بلفور وجوزيف تشامبرلين والجنرال سمنس (٥٠) .

---

(45) **Diaries,** Vol. IV, P. 1367.

(46) Cited in Ben Herman, "Zionism and the Lion," in Hal Draper (Ed.), **Zionism, Israel and the Arabs** (Berkely, Calif : Independent Socialist Clippingbooks, 1967), p. 27.

(٤٧) الفكرة الصهيونية ص ٤٥١

(48) Haim Weizman, **Trial and Error : The Autobiography of Haim Weizman** (New York : Harper, 1949), p. 179.

(49) **Ibid,** p. 205.

(50) Richard Stevens, "Smuts and Weizman" in Ibrahim Abu—Lughod and Bahaa Abu Laban (Eds.) **Settler Regimes in Africa and the Arab World : The IIlusion of Endurance** (Willmett, I11 : Medina Univ. Press, 1974), p. 175.

٣ ـ الرومانتيكية (والنيتشوية)

يعد الفكر الرومانتيكي ، الذي كان يشكل الاطار المرجعي العام للفكر العربي في القرن التاسع عشر ، من المصادر الاساسية للفكر الصهيوني . فبعد ان ساد فكر حركة التنوير في اوروبا في القرن الثامن عشر ، وهو فكر أكد اهمية العقلانية ومقدرة العقل على اكتشاف ابعاد الواقع والتحكم فيه ، كما اكد امكانية ان يقوم الانسان العاقل لا بتنظيم بيئته وحسب وانما بكبح جماح عواطفه هو نفسه والسيطرة عليها ، ظهر الفكر الرومانتيكي كرد فعل لهذا الفكر وكتعبير عن تغيرات بنيوية عميقة في المجتمع الغربي ، وكلمة « الرومانتيكية » هي « اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات . . . تتباين في اوقاتها واماكنها ودعاتها » (٥١) . وتعريف الرومانتيكية يقع خارج نطاق هذا البحث ، وهو على اية حال امر عسير للغاية (بل ومستحيل في رأي البعض) . فاذا نظرنا الى استخدام المصطلح في مجال السياسة لوجدنا أنه يستخدم للاشارة لبعض المواقف السياسية التي يمكن اعتبارها تقدمية وثورية ، كما يستخدم ايضا للاشارة لمواقف اخرى محافظة بل ورجعية . وبدلاً من ان نأخذ جانب هذا الاستخدام ضد ذاك ، وكلاهما في رأينا مشروع ، فاننا سنكتفي برصد بعض الجوانب في الحركة الصهيونية التي يمكن تصنيفها على انها « رومانتيكية » أو يمكن رؤية أثر الفكر الرومانتيكي عليها .

أ ـ فكرة العودة

من الافكار الرومانتيكية الاساسية فكرة الهرب من عالم مركب الى عالم بسيط ، من عالم فاسد الى عالم خير ، من عالم المدنية والصناعة والتلوث والفساد الى عالم القرية والطبيعة والنقاء والطهر . والعودة الفكر الرومانتيكي تأخذ اشكالا عدة ، فهناك العودة للطبيعة التي تظهر في الأدب الرومانتيكي ، وهناك العودة للتقاليد القديمة او العودة للجذور او العودة الى عالم ما قبل الصناعة . ومثل هذه العودة الاخيرة عادة مما تكسب مضمونا رجعيا محافظا ، وان لم تكن بالضرورة كذلك .

والحركة الصهيونية هي الاخرى حركة عودة الى بساطه أولى . يقول المفكر الصهيوني ميخاجوزيف بيرديشفسكي : « إن الكون يدل على عظمة الله ، والطبيعة تروي صنع يديه ، لأن الطبيعة هي أم الحياة ومصدر كل الحياة ، إنها منبع الكل . . هي منبع كل ما يحيا وروحه » .

وبعدئذ غنت اسرائيل أغنية الكون والطبيعة ، أغنية السماء والأرض وما عليها ، أغنية البحر وما فيه ، أغنية التلال والمرتفعات ، أغنية الاشجار والاعشاب ، أغنية البحار والجداول . وبعد ذلك جلس كل اسرائيلي تحت كرمته او تينته ، ثم نبتت البراعم على التينة ، وامتد سحر التلال الخضراء الى البعيد (٥٢) . هذه هي اسرائيل الاصيلة في تصور بيرديشفسكي ، ولكن حدث السقوط في إلتاريخ ، اذ قام جيل اثر جيل « يحتقر الطبيعة ويعتقد ان اعاجيب الله ليست

---

(٥١) تعريف شبلي ، معجم الأدب العمي ، ورد في كتاب عبد الوهاب محمد المسيري ومحمد علي زيد مختارات من الشعر الرومانتيكي الانجليزي : النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ص٩

(٥٢) الفكرة الصهيونية ، ص ١٨٦

سوى تفاهات نافلة »(٥٣) . ولذا فطريق الخلاص واضح جلي « ردوا الينا شجراتنا الجميلة وعقولنا الجميلة ! ردوا الينا الكون »(٥٤) .

ونفس النزعة نحو العودة الى البساطة الاولى تظهر في قصيدة الشاعر الصهيوني شاؤ ول تشرنحوفسكي :(٥٥)

فلنكن مثل الاطفال الصغار
مثل قطرة في الفيضان ، او تنهدات البروج ،
لا بحث ، ولا غاية ، ولا قانون ، ولا طغيان ،
مثلما كنا في الايام القديمة ، قبل انْ نتحكم
في الارض والضياء ، قبل ان نصيب الحكمة ،
وقبل ان يرهقنا الأنبياء .

ان العودة للطبيعة هنا هي عودة الى عالم لا حدود له ، وهي عودة الى ما قبل التاريخ اليهودي وقبل ارسال الانبياء الى بني اسرائيل .

واسطورة العودة الرومانتيكية في سياقها الثوري هي استعارة تحطيم للحدود وعودة للاصول الانسانية التي تضم كل البشر ، أي انها استعارة مساواة واخاء . ولكن اسطورة العودة عند الصهاينة تتبنى المصطلح الرومانتيكي لتبرر تمركز الهوية الصهيونية على نفسها . ولعل قصيدة تشرنحوفسكي الشهيرة « امام تمثال أبولو »(٥٦) تبين المضمون السياسي العنصري لأسطورة العودة عند الصهاينة . تبدأ القصيدة بالتغني بأبولو اله الاغريق القدامى ، فهو « جميل كالربيع ، قهر الشمس وعرف اسرار الحياة وفنونها الخفية » . يذهب تشرنحوفسكي اليه باعتباره اليهودي الذي سئم تاريخه الطويل فيقول :

أسجد وانحني امام الخير والسمو
ولكل ما هو مجيد في هذا العالم
لكل ما هو رائع بين المخلوقات
ولكل ما هو متسام في ديانات الكون البدائية .

ولكن بعد قليل نكتشف ان هذا اليهودي المتمرد الذي يعود الى الطبيعة والبراءة انما يعود الى : « رب البرية المليئة بالأسرار ، رب الرجال الذين غزوا ارض كنعان كالعاصفة » في البيت الأخير لا تسمع حفيف اجنحة الطيور ولا ترى العاصفة تتجمع لتطهر الأرض من الاوراق وانما تسمع في الواقع صليل السيوف التي ذبحت الأبرياء في دير ياسين وبيروت » .

---

(٥٣) نفس المرجع ، ص ١٨٧

(٥٤) نفس المرجع ، نفس الصفحة

(٥٥) عبد الوهاب محمد المسيري ، اليهودية والصهيونية واسرائيل : دراسة في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع (بيروت : المؤسسة العربيةللدراسات والنشر ، ١٩٧٥) ص ١٨١

(٥٦) نفس المرجع ، ص ١٩٤

ونفس الغنائية الرقيقة ونفس الحديث عن العودة ، الذي يخبىء الحد الاقصى من العنف ، يظهر في خطاب مارتن بوبر الى غاندي حينما يخبره « ان هذه الأرض تعترف بنا لأنها بواسطتنا تصبح مثمرة ، وبما انها تحمل ثمار النار فانها تعترف بنا » (٥٧) . ثم يدعي بوبر ان الصهاينة انما عادوا لزراعة الارض ولتعليم اخوتهم العرب فنون الزراعة ! ومع هذا في نفس الخطاب يشكك المفكر الصوفي الصهيوني في حق العرب في ملكية فلسطين ، فهم قد اكتسبوا هذا الحق « عن طريق الغزو ثم يضيف : « الارض المفتوحة قد أعيدت الى الفاتح الذي أقام عليها وان الله بانتظار ما سيفعل بها » (٥٨) . وبالتالي حينما يعود المستوطنون الصهاينة يمكن فتح الملفات مرة اخرى . ان استعارة العودة الرومانتيكية تحولت الى برنامج لاغتصاب الأرض ، لأن الاستعارة صفيت من مضمونها الثوري ومن صفتها المجازية وحملت مضمونا حرفيا رجعيا (وهذه سمة اساسية في الفكر الصهيوني ، فكل الاستعارات الدينية مثل فكرة « العودة الى صهيون » تصفى من بعدها المجازي وتفسر بشكل حرفي حتى يمكن تحويلها الى برنامج سياسي ، وبدلا من حب صهيون الديني التقليدي الذي لا يختلف في جوهره من حب المسلم لمكه او المدينة ، يتحول هذا الحب الى ارتباط « عرقي » وقومي وحتمي بفلسطين ، الامر الذي يبرر غزوها والاستيلاء عليها ، وليس مجرد السكنى فيها للتعبد والتبرك) .

ب ـ الاستعارة العضوية

من الافكار الاساسية في الفكر الرومانتيكي فكرة الوحدة العضوية بين كل الاشياء والظواهر وهذه الفكرة المحورية هي ايضا فكرة اساسية في التفكير المحافظ والرجعي الغربي . فالفكر الرجعي الغربي يرى ان الانسان لا وجود ولا هوية له خارج تراثه ، اذ ان ارتباط الانسان بتراثه ارتباط عضوي عميق . كما ان افراد المجتمع الواحد لا يدخلون في علاقات جدلية وانما يدخلون اساسا في علاقات عضوية تتخطى الارادات الفردية ، بل انه حسب هذه الرؤ ية يصبح كل مواطني دولة ما مجرد تعبير عن ارادة هذه الدولة وعن روح القومية التي ينتمون اليها . ومن الواضح ان التفكير العضوي ينكر فكرة الصراع او انه ينظر اليها على انها فكرة هامشية ، كما ان هذا التفكير ينحو نحو الاطلاق لأن الكيان العضوي كيان مكتف بذاته ، تماما مثل الزهرة التي لا تشير الى شيء خارجها .

والفكر الصهيوني (مثل الفكر النازي) تفكير عنصري متطرف . فالتصور الصهيوني لعلاقة اليهودي بأرضه تصور عضوي ضمنا ان لم يكن بشكل صريح فاليهودي الذي لا يعيش في ارض الميعاد يعيش منفيا « منقسم على نفسه موزع الولاء ممزق » (٥٩) ـ اي ان حالة الكمال والتكامل العضوية لا تتم الا بعد العودة . وقد وصف ج . ل هاكومين نيشمان ، اول وزير للشئون الدينية في اسرائيل ، صلة اليهودي بأرضه بأنها صلة « مباشرة ، سماوية وأبدية » لا تشبه صلة الاغيار بها ، فهذه الاخيرة صلة « سياسية وعلمانية وخارجية وعرضية ومؤقتة » (٦٠) (والعلاقة العضوية تتسم

---

(٥٧) الفكرة الصهيونية ، ص ٣٤١

(٥٨) نفس المرجع ، نفس الصفحة

(59) Moshe Pearlman, **Ben Gurion Looks in Talks with Moshe Pearlman** (New York : SIMON AND Schuster, 1965), p. 244, and Ehud Ben Ezer (Ed.) **Unease in Zion** (New York : Quadrangle The N. Y. Times, 1974), p. 72.

(60) Cited in Ben Horin, **Max Nordau : Philosopher of Human Solidarity** (New York : Conference of Jewish Social Studies, 1956), p. 199.

دائما بأنها علاقة داخلية ضرورية وصوفية لانها تستعصي على الفهم التجريبي العادي) . وتبين كلمات الفيلسوف جوردون ان المصطلح العضوي يختلط بالمصطلح الصوفي داخل عقله الصهيوني حين يقول « جئت الى الأرض في منامي ، فرأيتها جرداء ومقفرة ، وقد اعطيت للغرباء فحاق بها الدمار وشاع فيها فساد الحكم الاجنبي . والصلة الوحيدة التي تربط روحي بها والتي تذكرني بأني ولدها وهي امي ، هي ان روحي مقفرة مثل روحها » (٦١) . ان علاقة اليهودي بالارض هي مثل علاقة الابن بامه ، ومن هنا التماثل بينهما . وكل هذه الشواهد تشير الى ان العلاقة بينهما عضوية وانهما ينتميان الى نفس الكل اليهودي المطلق . ولنعود مرة اخرى الى الشعار الصهيوني : « أرض بلا شعب ، لشعب بلا ارض » لنفسره في ضوء الاستعارة العضوية . فاذا كانت العلاقة بين الشعب اليهودي والأرض علاقة عضوية مطلقة ، فعلاقة الاغيار بهذه الارض تصبح علاقة عرضية وتصبح الأرض ولا شعب عليها ، لأن الشعب الوحيد الذي ينتمي لهذه الارض والذي يرتبط بها عضويا هو الشعب اليهودي .

جـ - النيتشوية

وثمة جوانب أخرى عديدة في الفكر الرومانتيكي أثرت في الفكر الصهيوني ولكن بدلا من ذكرها كلها أو معظمها يمكننا أن نبين بعض جوانب التماثل بين الفكر الصهيوني وفكر نيتشه ، فيلسوف الفردية والعدمية الغربية ، والذي تعبر فلسفته خير تعبير عن الاوضاع الحضارية والاقتصادية للمجتمع الغربي في ذروة الثورة الرأسمالية والتوسع الامبريالي ، والذي جسدت فلسفته كثيرا من المواضيع الرومانتيكية حتى انه يمكن اطلاق اصطلاح « رومانتيكي » على جوانب كثيرة من فلسفته (٦٢) . ولم يكن من الغريب أن يتأثر الصهاينة بهذه الفلسفة ، فالصهيونية نشأت في احضان الفلسفة الالمانية المثالية بتقديسها لروح الشعب (الفولك) ولحقوقه المقدسة المطلقة ، وبتأكيدها على فكرة علاقة التربة او الأرض بالدم . والصهاينة ، مثل كثير من يهود اوروبا ، كانت ثقافتهم اساسا المانية . فهرتزل ونورداو كانا يكتبان بالألمانية ويتحدثان بها ، وكانا ملمين بالتقاليد الحضارية الالمانية ويكنان لها الاعجاب أما الزعماء الصهاينة من شرق اوروبا ، ولغتهم كانت اليديشيه ، هي اساسا رطانة المانية دخلت عليها كلمات عبرية ، ولذا كان يدين كثير من يهود شرق اوروبا بالولاء لألمانيا وللحضارة الألمانية . ويظهر هذا الاعجاب بالحضارة الالمانية في كتابات هرتزل ، كما تظهر في توجهه الى القيصر كي يحصل على تأييده للمشروع الصهيوني . بل ان التصور المبدئي للدولة الصهيونية كان هو تأسيس مستعمرة تبسط « المانيا العظيمة » عليها حمايتها (٦٣) . ولعل الولاء الصهيوني للحضارة الألمانية يظهر في م يسمى « بحرب اللغة » في المستوطن الصهيوني ، حين حاول بعض المستوطنين ان يجعلوا اللغة الألمانية هي اللغة الرسمية للدولة الصهيونية بدلا من العبرية . ومما له دلالة أيضا في هذا الصدد ان لغة المؤتمرات الصهيونية الاولى كانت الالمانية .

---

(61) Amos Elon, **The Israelis : Founders and Sons** (New York : Holt, Rinehart & Winston, 1971), p. 115.

(٦٢) المسيري وزيد ، مختارات من الشعر الرومانتكي الانجليزي ، ص ٣٢

(63) Moshe Pearlman, "Chapters of Arab—Jewish Diplomacy, 1918—1922", **Jewish Social Studies**, Vol VI, (April, 1944), p. 128.

ولم يكن الاعجاب من جانب واحد ، فالعسكريون الألمان كانوا يعرفون ان مثل هذه المستعمرة الصهيونية الالمانية يمكنها ان تلعب دورا فعالا في خدمة المصالح الاستعمارية الالمانية ، كما يمكنها ان تستوعب الفائض السكاني اليهودي الذي كان قد بدأ يتسلل الى المانيا من شرق اوروبا . فكان القيصر ويلهلم الثاني يدرك امكانية الاستفادة من « قوة الرأسمال اليهودي العالمي » ومن « عرفان اليهود بالجميل لألمانيا » (٦٤) . وكان بسمارك ايضا يفكر في توطين اليهود في « المنطقة المحايذة لخط بغداد ـ برلين ، حتى يصبحوا اقلية تجارية تصطدم بالسكان المحليين ، فتعتمد على المانيا لحمايتها ، فيكونوا خير ممثل للاستعمار الالماني هناك » (٦٥) . وفيما بعد ابدى النازيون اهتماما كبيرا بالمشروع الصهيوني ، وتعاونوا في وضع هذا المخطط موضع التنفيذ بل انهم درسوا ثلاث خطط اخرى لتوطين اليهود في سوريا واكوادور ومدغشقر (٦٦) .

لم يكن من المستغرب اذن ان يتأثر المفكرون الصهاينة بفكر نيتشه بشكل مباشر كما هو الحال مع برديشفسكي أومارتن بوبر او أحاد هعام وقد اكد هذا الاخير انه لا حاجة لخلق نيتشوية يهودية لأن الجزء العام (في مقابل الجزء الآري) من فلسفة نيتشه موجود في اليهودية ذاتها منذ عدة قرون . بل ان أحاد هعام يرى ان نيتشه حين هاجم اليهودية لم يفهمها حق فهمها وخلط بينها وبين عقيدة اخرى (وهي المسيحية) (٦٧) . ولكن هناك أيضا عديد من المفكرين الصهاينة الذين تأثروا بفلسفة نيتشه بشكل غير مباشر عن طريق تشرب الموضوعات الرومانتيكية النيتشوية المختلفة التي كانت قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من نظرة الانسان الاوروبي للكون في هذه الفترة .

ولعل من اهم الموضوعات في فكر نيتشه معاداته واحتقاره للفكر وتقديسه للفعل والحركة ، حتى لو كانت حركة عمياء ، ولذا كان يمجد الحضارة اليونانية قبل ظهور سقراط ، فهي كانت حينئذ ـ في تصوره ـ حضارة عدمية متشائمة ، ثم جاء سقراط « نموذج الرجل النظري فكان علامة على انحلال الخلق اليوناني ، اذ أخذت قوة الجسد والروح القديمتين يضحى بهما شيئا فشيئا من أجل ثقافة عقلية مشكوك فيها ، وهي تتضمن انحطاطا شديدا في قوى البدن والعقل . لقد جاء العلم مكان الفن ، والعقل بدل الغريزة » (٦٨) وانتصرت الروح الابولونيه على الروح الديونيزية . ويمكننا ان نرى هنا فكرة العودة الرومانتيكية فتمجيد الديونيزية هو في واقع الامر دعوة الى « الاندماج المباشر بالطبيعة التلقائية في

---

(64) Alex Bein, "Herzl and the Kaizer in Palestine," Excerpt from **Theodore Herzl : A Biography**, reprinted in Gordon Levin (Ed.), **The Zionist Movement in Palestine and World Politics, 1880—1918** Lexington, Mass : Heath, 1974), pp. 76—77.

(٦٥) بديعة أمين ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص ١٥٢

(66) Karl A. Schleunes, **The Twisted Road to Auschwitz : Nazi Policy Toward German Jews, 1933—1939** (Urbana, I11 : University of Illinois Press, 1970), pp. 182—184.

(67) "Transvaluation of Values" in Michael Selzer, **Zionism Reconsidered : The Rejection of Jewish Normalcy** (New York : Macmillan, 1970), pp. 157—174.

(٦٨) أحمد امين زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، في جزأين ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧) ص ٣٣٩

صورتها الاولى ، قبل ان يشوهها العقل الخالص ويبعث فيها الثبات والجمود »(٦٩) ويظهر اختفاء العقل وتقديس الفعل وتمجيد العاطفة في التصور النيتشوي للانسان ، فأول تعاليم زرادشت هي : « املأ حياتك بالخطر . شيد مدائنك على مقربة من بركان فيزوف . ابعث بسفائنك الى البحار المجهولة عش في حرب دائمة »(٧٠)

وتظهر كل هذه الموضوعات في الكتابات الصهيونية ، فموسى هس يرى ان عودته لشعبه هي عودة للعاطفة وهرب من عالم العقل البارد : « لقد تبين لي ان العاطفة التي ظننت اني قد كبتها عادت الى الحياة من جديد . تأججت هذه العاطفة نصف المخنوقة في صدري محاولة التعبير عن نفسها(٧١) . هذه العاطفة هي كيان صوفي غامض لا يمكن تصنيفه (التفكير في وطنيتي التي ترتبط بتراث اسلافي وبالارض المقدسة وبالمدينة الخالدة)(٧٢) ان هذه العودة للاصول الصوفية هي خير رادع للعقلانية الهدامة »(٧٣) . ويتغنى تشرنحوفسكي في قصائده باله ديونيزي ، خاصة في سلسلة السونتات المعنونة « الى الشمس » :

أي السبل سأختار ، واي الدروب سأسلك ؟
هل أصب زيتي للرب ، ام سأختار زيوس ،
انني انحني لك في صمت ، انحني في بهجة لأصلي لك
شأني شأن سنبلة ذهبية في حقل مترع بالحبوب . (سونت ١٣)(٧٤)
سأشدو في جوقة اللانهاية ، ولن اكف عن الشدو
ففي قلبي يقطن الندى الذي لا يزال يتساقط فوق التلال . (سونت ٨)(٧٥)

ونفس الدفعة الديونيزية ، والرغبة في العودة الى عالم التلقائية ، يتضح في قصيدة الشاعر الصهيوني بباليك « في الحقل » :

أتى بين القمح واختبيء ،
واغرق بين سنابله واندفع مع سيقانه الوفيرة ، وانجرف مع فيضان امواجها ، واصغي لصمت الغاب واسمع اسرار الدغل ،
وفي هدوء يترامى الى اذني همس الاشجار
فأسمع سر حديث اوراقها(٧٦) .

---

(٦٩) فؤاد زكريا ، نيتشه (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦ ص ٤٥

(٧٠) أحمد أمين وزكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديث ، ص ٣٤٤

(٧١) أنيس صايغ (مشرفا) الفكرةالصهيونية ، ص ٢١

(٧٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة

(٧٣) نفس المرجع ، ص ٢٩

(٧٤) نفس المرجع ، نفس الصفحة

(٧٥) نفس المرجع نفس الصفحة .

(٧٦) نفس المرجعص ٢٠٢

هذه التلقائية والعودة الى الفعل المطلق الذي لا تحده اي حدود عقلانية لها مضمون سياسي يتضح في اقوال وافكار الصهاينة الاخرى . فعلى سبيل المثال حاول الصهاينة احياء تقاليد العنف الجسدي بين اليهود بعد ان اضعفته ـ في تصورهم ـ سنوات طويلة من النفي . وقد رفض بيرد يشفسكي التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود ، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر ، والسيف على الكتاب : « الكتاب ليس اكثر من ظل للحياة ، هو الحياة في شيخوختها . . السيف ليس شيئا مجردا يقف بعيدا عن الحياة ، انه تجسيد للحياة في اعرض خطوطها وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة الى حد كبير »(٧٧) . ولذلك اعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي فركزوا على النقط التي تجلى فيه العنف اليهودي الغريزي ، النقط الديونيزية ان صح التعبير ، مثل ثورة المكابيين او حادثة ماسادا أو وبطولات شاؤل وداود . وقد صور بيريفسكي الامة اليهودية في نشأتها على انها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة ، وهو يعود بخياله الى الايام التي كانت فيها « رايات اليهود مرتفعة كما ينظر الى » الابطال المحاربين اليهود الاوائل »(٧٨) هذا الانسان التلقائي الغريزي الديونيزي يفضل ان يعيش في خطر ، وهذا بالضبط ما حققته الصهيونية للمستوطنين اليهود ـ خيامهم لم تضرب بجوار البركان وانما في فوهته . واذا كان « السيف والقوس هما زينة الانسان » كما يقول الحاخام اليعازر(٧٩) (واذا كان السيف تماما مثل التوراة « قد انزلا علينا من السماء » كما جاء في خطاب لجابوتنسكي الذي القاه على بعض الطلاب اليهود في فيينا) فان كل شيء يصبح مرتكزا عليه . ولذا يقف الانسان النيتشوي الصهيوني حاملا سيفه دائما « هذا هو قدر جيلنا ، وخيار حياتنا . . (ان) سقط السيف من قبضتنا ، نزعت منا حياتنا » (كما قال ديان في جنازة احد اصدقائه الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون) . ان الحياة الصهيونية هي « حياة في خطر » ولذا فالفلاح لابد وان يكون محاربا . والصانع لابد وان يكون مقاتلا ، وكل المؤسسات لابد وان تكتسب طابعا عسكريا . بل ان الافتراض القائم في اسرائيل هو ان حالة الحرب ضرورة حضارية حتى يمكن صياغة الامة اليهودية الجديدة وصياغة الانسان الاسرائيلي . ونفس الوضع امر ضروري بالنسبة ليهود الدياسبورا ، فهم ايضا لابد وان يعيشوا في خطر دائم ، والا ابتلعهم الاغيار ووقعوا ضحايا الاندماج .

ويتسم الفكر النيتشوي بانه فكر يرفض الديموقراطية (« الديموقراطية معناها تقويض المجتمع . . . معناها تقديس الكفاية المتوسطة ومقت التفوق والنبوغ ، معناها الحيلولة دون ظهور العظماء »(٨٠) ولذا فمن وجهة نظر نيتشه تصبح غاية الانسانية « الانسان االأعلى لا الجنس البشري بأسره »(٨١) . « « انني أبشركم بالانسان الأعلى يجب أن يأتي من الانسان ما يفوق الانسان »)(٨٢) . والتفكير الصهيوني تفكير تفكير نخبوي في جوهره ، وهو

---

(٧٧) الفكرة الصهيونية ، ص ١٨٥

(٧٨) نفس المرجع ، ص ١٨٢

(٧٩) نفس المرجع ، ص ١٨٦

(٨٠) أحمد أمين زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، ص ٣٥٩

(٨١)نفس المرجع ص ٣٥١ ـ ٣٥٢

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٣٤٥

نخبوي على مستويين ، بالنسبة لليهود وبالنسبة للعرب . وقد لا يحتاج الموقف النخبوي الصهيوني من العرب الى تفصيل او ايضاح ، فهو امر معروف لدى الجميع ، والممارسات الصهيونية ضد العرب (من طرد وحبس وتعذيب وابادة) كادت تصبح من الاخبار اليومية التي تتناقلها الصحف . ولكن موقف الصهاينة النخبوي من اليهود قد يحتاج لشيء من التفصيل . فالصهيونية تنظر الى الدياسبورا باعتبارها مجرد وسيلة لتنفيذ المخطط الصهيوني (« ان اجل ما في الانسان هو انه جسر لاهدف ، ان ما يحب في الانسان هو انه انتقال وتمهيد »)(٨٣) وقد طرح كلاتزكين هذا التصور حينما اكد ان يهود الشتات ليس لهم سوى فائدة مرحلية ، اذ انهم سيعطون الصهاينة الوقت الكافي لاستخلاص بعض اللبنات « لاستخدامها في اقامة البناء القومي الجديد »(٨٤) ، فالشتات في حد ذاته لا يستحق البقاء ، لكنه قد يكون مفيدا كوسيلة « ان الوجود المرحلي الانتقالي » للشتات هو بالتأكيد « امر له اهمية ، وهذا بالتحديد لأنه وجود مرحلي »(٨٥) بل ان اهارون دافيد جوردون تحدث عن الجاليات اليهودية في الشتات باعتبارها « مستعمرات »(٨٦) تابعة للوطن الأم او الدولة الصهيونية ولكن الكلاسيكية الصهيونية النيتشوية هي مقال الفيلسوف اخاد هعام « اعادة تقييم القيم »(٨٧) (وعنوان المقال ذاته اصطلاح نيتشوي) . وقد اشرنا من قبل لهذا المقال والى ايمان احاد هعام بعدم الحاجة الى « نيتشوية يهودية » وفي مجال تبريره لهذا يقول الفيلسوف الصهيوني ان اليهودية ديانة لا تستند الى فكرة الرحمة ، بمعنى ان اخلاق العبيد المسيحية ، اخلاقيات التسامح والغفران ، ليست من اليهودية في شيء .ثم يشير احاد هعام الى مفهوم « التساديك » (الرجل التقى) في التلمود والمدراش على انه رجل مثل الانسان الاعلى « لم يخلق من اجل الاخرين ، بل ان العالم كله قد خلق من اجله ، فهو نهاية في حد ذاته . ثم يؤكد ان مثل هذه الافكار ليست مجرد تعبير عن رأي فردي وانما هي مباديء اخلاقية يقبلها جميع اليهود ، بل انها هي اساس الوعي القومي اليهودي » .

ويعمق احاد هعام المفهوم النيتشوي الخاص بالانسان الاعلى فيقول اذا كان الهدف من الحياة هو السوبرمان لذلك يجب ان نقبل بان ظهوره رهن بظهور الامة الممتازة او « السوبر امة » . هذه الامة ـ في تصوره ـ هي الشعب اليهودي الواعي بتفوقه على جميع الأمم الاخرى ، وهو الوعي الذي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار . ويحاول احاد هعام ان يضع مضمونا اخلاقيا في هذه البنية الفكرة النيتشوية (بمعنى ان يكون تميز اليهود تميزا اخلاقيا) ، ولكن بنية العنف واللااخلاقية الاساسية في تصوري لم تتغير كثيرا .

وثمة نقط تشابه اخرى كثيرة بين النيتشوية والصهيونية نوجزها فيما يلي دون ان نعرض لها بالتفصيل :

١ ـ النيتشوية مثل الصهيونية ديانة علمانية اولاهوت دون اله ة واذا كان نيتشه قد اعلن موت الله (« نعم لقد مات الله

---

(٨٣)نفس المرجع ، نفس الصفحة

(٨٤) الفكرة الصهيونية ، ص ٢١٠

(٨٥) نفس المرجع ، نفس الصفحة

(٨٦) نفس المرجع ص ٢٦٦

(87) In Selzer, **Zionism Reconsidered** pp. 157—174.

وماتت الالهة جميعا »(٨٨) الا انه احل السوبرمان محل الخالق ، وهذا ما فعلته الصهيونية فهي قد احلت الدولة الصهيونية محل فكرة الله ، فالدولة هي المطلق الوحيد الذي اتفق عليه الصهاينة بجميع فئاتهم .

٢ ـ والنيتشوية هي اساسا ديانة دارونية : « القوة اذن هي الفضيلة السامية ، والعنف هو النقيصة والشر . الخير هو الذي يستطيع ان يحيا ويظفر ، اما الشر فهو ما يخور ويهوي ، هذه هي النتيجة اللازمة لمبدأ تفاني البقاء »(٨٩) (وقد دفع نيتشه هذه الفلسفة لنتيجتها الاخلاقية (او اللاخلاقية) المنطقية ولم يقبل سوى شعار البقاء للاصلح كأساس لأي نسق اخلاقي . وهذه النزعة الدارونية تظهر ايضا في الفكر الصهيوني سواء في موقفه من يهود الدياسبورا ام من عرب فلسطين .

٣ ـ ويمكن ان نشير ايضا الى اهتمام الصهاينة ونيتشه بالمستقبل دون الاهتمام بالحاضر ، وانكارهما لمقولة السعادة الفردية .

ان الفكر الصهيوني ، مثل معظم الحركات الفاشية في الغرب ، تأثر بأفكار نيتشه ، وهو في هذا لا يختلف كثيرا عن الفكر النازي .

٤ ـ العنصرية (ومعاداة السامية)

بينا من قبل ان الثورة الرأسمالية عبرت عن نفسها من خلال الانواع المختلفة من الاستعمار وقد ساند العملية الاستعمارية مجموعة من الاعتذاريات والتبريرات تتسم بالعنصرية ، اذ ان كل هذه الاعتذاريات تفترض ان « عدم المساواة بين الاجناس . . حقيقة تاريخية واضحة » (على حد قول بالفور)(٩٠) فهناك اجناس متفوقة لها كافة الحقوق ، واجناس متخلفة ليس لها حقوق على الاطلاق او لها على الاكثر حقوق محددة .

ويبدو ان النظرية العنصرية الغربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالثورة الرأسمالية ولقد اشار مؤلف مدخل « العلاقات بين الاجناس » في **دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية** الى انه يمكن « القول بان عهد علاقات الاجناس قد بدأ بالتوسع الذي حققته القوى الاوربية الكبرى فيما وراء البحار ابتداء من القرن الخامس عشر فصاعدا »(٩١) (وهذا هو الوقت الذي بدأ فيه ظهور الافكار الاسترجاعية المسيحية) . ولكن هذا الاحتكاك الاولي بين الاجناس لم يتم في اطار التفوق التكنولوجي الاوروبي ، فالمغول في الهند والعثمانيون في البحر الابيض المتوسط كانوا لا يزالوا في قوة اي دولة اوروبية اخرى ، وكان في مقدورهم صد اي هجمات اوروبية . وكان في مقدور الصينيين واليابانيين حتى القرن التاسع عشر ان يفرضوا شروطهم على الاوروبيين الذين يودون دخول بلادهم والاتجار معهم . بل ان افريقيا ذاتها كان بها دول قادرة

---

(٨٨) احمد امين زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، ص ٣٤٤

(٨٩) نفس المرجع ص ٣٣٢

(90) Richard Stevens, "Settler States and Western Response", in Jabra and Terry, **The Arab World**, pp. 167—168.

(91) **International Encyclopedia of Social Sciences**, Vol XII, "Race Relations".

على صد الهجمات العسكرية الغربية ، والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان الامريكتين لأن سكانها الاصليين كانوا قد انقطعوا عن التطورات التكنولوجية التي حدثت في القارات الاخرى ، ولذا كان من السهل على الانسان الابيض المسلح ان ينشيء امبراطوريات غربية هناك ، وبالتالي ظهرت اول نظريات عنصرية في اسبانيا في القرن السادس عشر(٩٢) .

ولكن في منتصف القرن الثامن عشر تغير الوضع وحققت اوروبا تقدما تكنولوجيا جعل جيوشها قادرة على كسب معظم المعارك العسكرية التي قد تدخلها وهنا بدأ الاوروبيون يدركون « تفوقهم » . وبينما كانت احاسيس التفوق في الماضي تستند الى ادعاءات الانسان الدينية او الفكرية عن نفسه ، (وهي ادعاءات فكرية ذاتية واهية) بدأت اوروبا بعد الثورة الصناعية ترى تفوقها مستندا الى الآلات والمدافع . وقد ظل هذا الاحساس في تزايد حتى بداية القرن العشرين حين اصبح « حقيقة علمية » تساندها نظريات مثل نظرية داروين وابحاث « علمية » اخرى وربطت بين الانتماء العرقي والحضارة(٩٣) . وقد بين كاتب مدخل « العنصرية » في **دائرة المعارف البريطانية الجديدة** » انه ليس من المصادفة ان العنصرية ازدهرت في وقت حدوث الموجة الثانية الكبيرة من التوسع الاستعماري الاوروبي والزحف على افريقيا « (حوالي ١٨٧٠) وهي فترة ظهور الصهيونية وبداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين »(٩٤) .

وقد بين المفكر النازي ، الفريد روزنبرج ، اثناء محاكمته في نورمبرج ، ان العنصرية جزء اصيل من الحضارة الغربية الحديثة ، واكد لقضاته العلاقة العضوية بين العنصرية والاستعمار . فاشار الى انه عثر على لفظه « سوبرمان » في كتاب عن حياة اللورد كتشنر ، وهو الرجل « الذي قهر العالم » كما اكد انه صادف عبارة « العنصر السيد »في مؤلفات عالم الاجناس الامريكي ماديسون جرانت والعلامة الفرنسي لابوج . واضاف قائلا ان هذا النوع من الانثربولوجيا العنصرية ليس سوى « اكتشافا بيولوجيا جاء في ختام الابحاث التي دامت ٤٠٠ عام »(٩٥) . ولقد كان روزنبرج محقا في اقواله ، « فالعلم » الغربي في القرن التاسع عشر شغل نفسه بنظرية الاجناس وظهر علماء مثل و . ف ادواردز وروبرت نوكس والمفكر الانجليزي توماس ارنولد (والد الشاعر والمفكر المشهور ماثيو ارنولد) . وقد اثرت افكار نوكس في داروين صاحب نظرية التطور ، التي كان من اليسير على دعاة العنصرية ان يتبنوا منظورها اللااخلاقي (كما فعل نيتشه) وان ينقلوا مفاهيمها من عالم الحيوان الى عالم الانسان لتبرير الغزو والابادة .(٩٦)

ويمكن تلخيص الافكار الاساسية للفكر العنصري الغربي فيما يلي : ـ

١ ـ الحضارات غير الغربية أدنى بكثير من الحضارة الغربية .

---

(92) Pilip D. Curtin (Ed.), **Imperialism** (New York : Walker and Co, 1971), p. XI.

(93) **Ibid**, pp. XVI—XVII.

(94) **New Encyclopedia Britannica**, Vol. XV, "Racism".

(95) **Trial of the Major War Criminals Before the International Military Tribunal : Nuremberg, 14 November, 1945—10 October, 1946** (Nuremberg, Germany : 1947), Vol. XI, p. 450.

(96) Philip D. Curtin (Ed.), **Imperialism**, p. XVI.

٢ ـ الشعوب غير الغربية تختلف عرقيا عن الشعوب الغربية ، وهذا الاختلاف وراثي .

٣ ـ وبما ان الحضارة والعرق هما نفس الشيء فان التخلف الحضاري امر وراثي وبالتالي حتمي(٩٧) .

وقد ظهرت نظريات سياسية عديدة تختلف في درجة عنصريتها ، فمنها من يرى « المتخلفين » على انهم اقرب الى الحيوان منهم الى البشر وبالتالي يجب ابادتهم ، ومنهم من اتخذ موقفا اكثر « رقة » ونظر للمتخلفين باعتبارهم يحتاجون الى رعاية خاصة ولابد وان يؤخذ بأيديهم وان يوضعوا تحت الوصاية وكأنهم اطفال(٩٨) .

ولكن بغض النظر عن مدى قسوة اورقة النظرية ، نجد ان الافتراض الاساسي هو افتراض التخلف الدائم لبعض الاجناس والتفوق الدائم للبعض الآخر ، ولذا كان من الممكن على ماكس نورد او ان يقترح توطين العمال الاوروبيين العاطلين في آسيا وافريقيا ، باعتبارهم من الجنس المتفوق الابيض ليحتلوا مكان « الاجناس الادنى » التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور(٩٩) .

كانت العنصرية اذن من اهم الاطر المرجعية للحضارة والمجتمع الغربي في القرن التاسع عشر . وقد ولدت الصهيونية داخل هذا الاطار وكان لابد وان تتأثر به وتستفيد منه ، فالرجل الابيض المتفوق له حقوق متميزة ، والصهيونية التي تبنت الحل الاستعماري كان لابد وان تتبنى النظرة العنصرية ايضا لانهما وجهان لنفس العملة . . . وبالفعل نجد ان الصهيونية حاولت ان تنظر لليهود باعتبارهم اساسا جزءا من الجنس الابيض المتفوق(١٠٠) وعلى الرغم من ان الترويج لنظرية اليهودي كعضو في الجنس الابيض المتفوق لم تبحث بشكل واع او على نطاق واسع الا انها كانت الفكرة المتضمنة والكامنة في المساعي الصهيونية الأولى .

فهرتزل على سبيل المثال ـ منطلقا من افتراض ان المشروع الصهيوني هو واحد من مشاريع الرجل الابيض الاستعمارية ـ كان يؤكد على ضرورة التنسيق بينها حتى لا تتعارض الحقوق المختلفة « للبيض» مع بعضها البعض . وقد كتب في مذكراته ، قبل ان يجتمع بجوزيف تشامبرلين ـ وزير المستعمرات الانجليزي ـ ، انه ينبغي عليه ان يبين له « بقعة في الممتلكات الانجليزية ليس بها حتى الان بيض » قبل مناقشة ذلك المخطط الصهيوني للاستيطان(١٠١) وافترض اسرائيل زانجويل النقاء العرقي للمشروع الصهيوني ، وحبذ الاستيطان الصهيوني في شرق افريقيا كوسيلة لمضاعفة « عدد السكان البيض » التابعين لبريطانيا هناك(١٠٢) .

---

(97) **Ibid.,** p. XVII.

(98) **Ibid.,** p. XVIII.

(99) Desmond Stewart, **Theodore Herzl** (Garden City, N. Y., Doubledy, 1974), p. 192.

(100) Arthur Ruppin, **The Jews Today** (London : G. Bell & Sons, 1913), pp. 213—214.

(101) **Diaries,** Vol. VI, p. 1361.

(102) Cited by George Jabbour, **Settler Colonialism in Southera Africa and the Middle East** (Beirut : Paletine Liberation Organization Research Center, 1970), p. 28.

والحديث الذي لا ينتهي في الكتابات الصهيونية عن تقدم اليهود وتفوقهم على اهل البلاد الاصليين وعن حقوق اليهود ، لا يمكن فهمه الا في اطار النظريات العنصرية الاستعمارية الغربية . ان عودة اليهود لبلاد الاجداد لن تتم حسب رؤ ى العهد القديم او كتب الابوكريفا او غيرها من الكتب او الاساطير ، وانما سيعود اليهود بصفتهم « ممثلين للحضارة الغربية » سيجلبون معهم العادات الغربية الراسخة مثل النظافة والنظام (والاسلحة الجديدة ؟) « الى هذا الركن الموبوء والبالي من الشرق » (المليء بالمواد الخام والعمالة الرخيصة ؟). ان الدولة الصهيونية ، شأنها في هذا شأن المستعمرات الاخرى ، مثل الجزائر والكونغو وجنوب افريقيا التي ذبح فيها الملايين ، ستشكل « جزءا من جدار الدفاع عن اوروبا في آسيا ، ومعقل للحضارة ضد التخلف والهمجية »(١٠٣) .

ولكن العنصرية الغربية لم تكن موجهة ضد الافريقيين والاسيويين وحسب ، وانما كانت موجهة ايضا ضد اليهود . فالفكر العنصري الغربي يسري فيه تيار قوي معاد للسامية ، بل انه يمكن القول ان الفكر الاسترجاعي المسيحي الغربي (وهو كما بينا ارهاص للفكر الاستعماري) الذي يدعو الى توطين اليهود في فلسطين هو فكر معاد للسامية يطالب بالتخلص من اليهود . ونحن اذا ما نظرنا الى كتابات المفكرين الاسترجاعيين الذين ذكرنا اسماءهم من قبل لوجدنا انهم من كبار المعادين للسامية ، ولعل اهم المفكرين والساسة الاستراجعيين على الاطلاق هو اللورد بالفور . ولكننا اذا درسنا مواقفه وسلوكه السياسيين لاكتشفنا تلازم صداقته الظاهرية لليهود ومعاداته للسامية . ففي عام ١٩٠٧ نجد انه تبنى وناصر مشروع الاستيطان الصهيوني في شرق افريقيا ولكنه في ذات الوقت ايد قانونا يقيد عدد اليهود المسموح لهم بدخول انجلترا(١٠٤) كمهاجرين . ان بالفور كان ينظر لليهود باعتبارهم « جماعة معادية ادى وجودها داخل الحضارة الغربية الى بؤس وشقاء استمر دهرا من الزمن » ، اذ ان تلك الحضارة لا تستطيع طردهم او استيعابهم(١٠٥) . و« ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها » « حسب تصور بالفور ـ ضعيف اذا ما قورن بولائهم لدينهم ولعرقهم » وهذا يعود لطريقة وجودهم وعزلتهم(١٠٦) . ان موقف بالفور من اليهود موقف معاد للسامية فهو يراهم شعبا لا جذور له ولا ولاء محدد له ، ولذا يجب توطينهم خارج الحضارة الغربية .

ان مشروع توطين اليهود في فلسطين هو في واقع الامر مشروع لطرد اليهود من الغرب ، وتصديرهم ضمن ما صدرت اوروبا من نفايات الى الشرق ، اي انه مشروع يتضمن كرها واحتقارا عميقين لليهود . وسنكتشف ان الصهيونية التي تبنت الحل الاستعماري للمسألة اليهودية تبنت ايضا الرؤ ية العنصرية لليهود فالصهيونية على سبيل المثال تنطلق من مقولة غريبة مفادها ان معاداة السامية امر حتمي بل وطبيعي . فاليهود ـ حسب التصور المعادي للسامية والتصور الصهيوني ـ جسم غريب يعيش بين الشعوب الاخرى ، يجب نبذه وطرده . وفي هذا يقول كلاتزكين انه

---

(103) **Diaries,** Vol. I, pp. 343—348.

(104) Stein, **The Balfour Declaration** (London : Vallentine, Mitchell, 1961), p. 149.

(105) Nahum Sckolow, **History of Zionism : 1600—1918** (New York : Ktav Publishing House, 1969), Vol. I, p. 1.

(106) **Ibid.,** p. li.

يستطيع ان يفهم جيدا مشروعية « وعدالة » معاداة السامية باعتبارها بالضرورة عمل دفاعي تقوم به الشعوب ضد شعب وقف في حلقها ، وذلك باعتبار ان اليهود يشكلون امة مستقلة . ثم يخلص كلاتزكين الى انه « اذا لم نسلم بعدالة معاداة السامية ، فاننا نشكر بهذا عدالة قوميتنا نحن ذاتها »(١٠٧) وقد عبر احد مشاهير المعادين للسامية ـ في دراسة له عن كتاب هرتزل **الدولة اليهودية** عن رضاه العميق ان الصهاينة قد اظهروا فهما عميقا وربما علميا لمعاداة السامية فهم لم يعودوا يرون في هذه الحركة ضربا من الجنون او التعصب ، وانما ينظرون اليها باعتبارها « دفاع عن النفس »(١٠٨) .

يرى الصهاينة ان معاداة السامية على أنها أمر طبيعي منطقي ، لأن اليهودي في الشتات شخص غير منتمي ، غريب ، لابد من اعادة توطينه في وطنه القومي ! ولتبرير هذا الموقف كان على الصهاينة ان يبينوا تفوق النموذج القومي اليهودي وان يبينوا تدني وشذوذ النموذج التقليدي ـ ان نموذج يهود الدياسبورا الذين يجب تصفيتهم(١٠٩)وكي يبرر الصهاينة قولهم بشذوذ يهود الشتات فانهم قد اقاموا نقدا متكاملا وتفصيليا للشخصية اليهودية في المنفى « على اساس من الاتهامات »(١١٠) المأخوذة من كتابات المعادين للسامية في الغرب . واليهود في الكتابات الصهيونية مرابون « وشخصيات مريضة» يحيون مثل « الكلاب والنمل » يجمعون المال ويتبعون قيم السوق .

والافتراض الصهيوني فيما يتصل بيهود الشتات هو ـ كما اسلفنا القول ـ ان الصهيونية ستعيد لليهود الحالة الطبيعية . وقد عبر برينر عن هذا الموقف حين حث اليهود على ان « يعترفوا ويسلموا بوضاعتهم منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر » ثم مضى يدعوهم الى البدء من جديد(١١١) .

ويتحول النقد الصهيوني ليهود الشتات احيانا الى تصوير كاريكاتيري . فكلاتزكين مثلا وصف اليهود بانهم شعب « قلق وبلاجذور يعيش حياة زائفة وفاسدة »(١١٢) . واليهودي ـ عند بنسكر وبنص كلماته ـ « ضيف في كل مكان » و « ليس في وطنه في اي مكان » و « ينتقل كشبح من بلد لآخر ، كجسم غريب » ، فهو نصف ميت ، سيطر عليه مرض الترحال(١١٣) . ونجد نغمة واضحة معادية للسامية تميز كتابات اسرائيل سنجر الكاتب الصهيوني فاليهود بالنسبة

---

(107) Jacob Bernard Agus, **The Meaning of Jewish History (London : Abelard Schuman, 1963), Vol. II, p. 425.**

(108) Stewart, **Theodore Herzl,** p. 215.

(١٠٩) انظر « الأيديولوجية الصهيونية « الفكر والممارسة ـ دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة » (تحت الطبع) سلسلة عالم المعرفة حيث يوجد فصل كامل عن هذا الموضوع ومعالجة مستفيضة لبعض الموضوعات التي وردت في هذا المقال.

(110) Yehezkel Kaufman, "The Ruin of the Soul," in Michael Selzer, **Zionism Reconsidered,** p. 17.

(١١١) الفكرة الصهيونية ، ص ٢٠٠

(١١٢) نفس المرجع ، ص ٢٠٩

(١١٣) نفس المرجع ص ٨٢ ـ ٨٤

له شعب « منحط قانط يحيا في القذارة » . وهم « مجموعة من آسيا ، تحيا وسط اوروبا » ، وهم - ككيان مستقل - يمثلون « حدبة واحدة كبيرة »(١١٤) .

وفي مقال بعنوان « دمار الروح »(١١٥) ، جمع كوفمان مجموعة من اوصاف اليهود في الكتابات الصهيونية ، على الوجه التالي :

فريشمان : حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز .
بيرديشيفسكي : ليسوا امة ، ليسوا شعبا ، وليسوا آدميين .
برنر : غجر وكلاب قذرة - كلاب جريحة لا انسانية .
أ . د . جوردون : طفيليات - اناس لا فائدة منهم اساسا
شوادرون : عبيد وبغايا . . احط انواع القذارة . . ديدان وطفيليات بخسة بلا جذور .

ان العنصرية الصهيونية ضد اليهود هي ولاشك شكل من اشكال معاداة السامية التي هي تعبير عن العنصرية الغربية المتأصلة ، والتي كانت تعد مكونا اساسيا للفكر الغربي السياسي في ذلك الوقت .

ثانيا : السياق اليهودي للظاهرة الصهيونية

في محاولتنا لدراسة جذور الحركة الصهيونية حاولنا حتى الان ان نضعها في سياقها الاساسي وهو تاريخ اوروبا في القرن التاسع عشر بكل ابنيته الفكرية والحضارية والاقتصادية . ولكننا مع ذلك يجب الا نهمل الخصوصية اليهودية للحركة الصهيونية ، فهي كانت حركة استعمارية استيطانية إحلالية عنصرية ، ولكنها كانت ايضا حركة توجهت للجماهير اليهودية وتبنت مصطلحا يهوديا وطرحت نفسها على انها حل لمسألة اليهود واليهودية . ودراستنا للعناصر اليهودية في خلفية الصهيونية التاريخية لا يعني باية حال انها ظاهرة فريدة وبالتالي لا تخضع للقانون العام ، وانما تعني انها ظاهرة فريدة لكنها تخضع ايضا للقانون العام (بمقدار ما يمكن التحدث عن قوانين عامة للتاريخ والظواهر الانسانية) . وفي تصورنا ان كل الظواهر تتسم بفرادتها الخاصة اذ قد تدخل فيها عناصر لا تدخل في الظواهر المماثلة ، كما ان الطريق التي تترابط بها عناصر ظاهرها تختلف عنها في الظواهر الاخرى كما تختلف علاقة الجزء بالكل من ظاهرة لأخرى ونفس الوضع ينطبق على الظاهرة الصهيونية . فعلاقة الصهيونية بالثورة الرأسمالية (والامبريالية) تختلف عن علاقة النازية بها ، على الرغم من ان الصهيونية والنازية. ظاهرتان متماثلتان ، وينتميان لنفس التشكيل الحضاري الاقتصادي . ولذا تختلف اعتذاريات الصهيونية عن اعتذاريات النازية ، كما يختلف مجالها واساليبها وتوجهاتها .

وقد بينا من قبل أن الثورة الرأسمالية هى التى تسببت بشكل اساسى فى ظهور المسألة اليهودية ، ولكن يمكن ان نضيف هنا ان الثورة الرأسمالية عبرت عن نفسها فى اشكال مختلفة تختلف باختلاف الظروف الحضارية او الاقتصادية

---

(114) Cited IN M. Selzer, **The Aryanization of the Jewish State** (New York : Black Star, 1968), p. 35.

(115) Kaufman in Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 121,p. m. 7.

والدينية للظاهرة التى تتأثر بها الثورة ، فالثورة الرأسمالية على سبيل المثال تركت اثرا عميقا على طبقة النبلاء المسيحيين وعلى التفكير الدينى المسيحى وعلى الفلاحين المسيحيين وعلى اليهود . فبالنسبة للنبلاء المسيحيين هددت الثورة الرأسمالية مواقعهم فقاوموها كما حدث فى فرنسا ، أو هادنوها كما حدث فى انجلترا . آما با لنسبة للدين المسيحى فيمكن رؤ ية الاصلاح الدينى وظهور البروتستانتيه كتعبير عن هذه الثورة الرأسمالية . اما بالنسبة للفلاحين فقد هاجرت اعداد كبيرة منهم الى المدينة حيث تحولوا الى بروليتاريا ، وعبرت الثورة الرأسمالية عن نفسها بالنسبة لليهود فى شكل المسألة اليهودية والتى لخصناها بأنها هى مشكلة انتقال اليهود واليهودية من مسام المجتمع الاقطاعى وهامشه الى صلب المجتمع الرأسمالى الجديد ، وهى المشكلة ايضا التى كانوا يسمونها Productivi zation of tne Jews اى تحويل اليهود الى قطاع انتاجى ، أوجعل اليهود يكتسبون المهارات اللازمة حتى يتكيفوا مع المجتمع الجديد ويساهموا فيه انتاجيا بدل ان يصبحوا عبئا عليه(١١٦) ان المشكلة ـ بقول آخر ـ كانت مشكلة « تحديث » اليهود واليهودية . ولكن لم طرحت المشكلة نفسها بهذا الشكل ، أى لم وجد اليهود أنفسهم قطاعا غير منتج هامشى فى مجتمع حديث ؟ ولماذا لم تكن مشكلة التاجر اليهودى هى نفسها مشكلة الفلاح المسيحى او التاجر المسيحى ؟ ان الاجابة على هذه الأسئلة لن يتأتى الابحث بعض العناصر التاريخية التى أنفردت بها الأقليات اليهودية فى اوربا (الشرقية والغربية) دون سواها من الاقليات او الطبقات ، واذا ماعرضنا لهذه الاسباب تكون قد اكتملت البانوراما التى تشكل الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية ، بعواملها الاوروبية العامة واليهودية الخاصة :

١ ـ تميز اليهود الاقتصادى والوظيفى :

من السمات العامة لوجود الاقليات اليهودية فى اوربا هو تميز ها الاقتصادى والوظيفى ، فاليهود ـ كما بينا ـ كانوا يلعبون دور التاجر والمرابي . وقد لعب اليهود هذا الدور نتيجة لظروف تاريخية معينة نوجز بعضها وحسب(١١٧) :

(أ) بعد انهيار الامبراطورية الرومانية وانهيار النظام التجارى الذى انشأته انقسم العالم الى قسمين : العالم الاسلامى والعالم المسيحى . وقد تسبب هذا فى صعوبة التبادل التجارى بين القسمين بسبب اختلاف الشرائع . ولذا أصبح اليهود هم حلقة الوصل الوحيدة بينهما . وساعد على ذلك اختفاء الاقليات التجارية الاخرى مثل الفنيقيين وغيرهم .

(ب) ويمكن أن نذكر من بين هذه الظروف كون اليهود اقلية دينية فى المجتمع الاقطاعى المسيحى ، ويبدو أن المجتمعات الزراعية عادة ماتوكل مهمة التاجر الى اقلية تقف على حواف المجتمع وليس فى داخله (ومن هنا كانت المقولة الماركسية الشهيرة ان اليهود يعيشون فى مسام المجتمع الاقطاعى) ولابد ان هذا الامر كان اكثر الحاحا فى المجتمع الاقطاعى الاوربى الذى كان يستمد شرعيته (وبعض قوانينه وجانب من رؤ يته) من الدين المسيحى ، وكان الادلاء بيمين الولاء المسيحى اساسيا للانتماء لنخبته العسكرية الحاكمة .

---

(116) Joseph Mahler, **History of Modern Jewry, 1780—1813** (London : Vallentine, Mitchell, 1971).

(117) Salo W. Baron and Arcadiu Kohn, et al., **Economic History of the Jews,** ed. Nachum Gross (New York : Schocken Books, 1975) and also Abraham Leons' **The Jewish Question.**

(ح) كما أن شبكة الاتصالات العائلية اليهودية الواسعة التى كانت تغطى كل البحر الابيض المتوسط واجزاء اخرى كثيرة من العالم القديم كانت تشكل مايشبه النظام الانتمائى العالمى مماييسر لليهود عملية الاشتغال بالتجارة الدولية والمحلية ، اى أن اليهودى كان له مكانه الواضح والمحدد فى المجتمع الاقطاعى ، وهو دور التاجر ، وان كانت السلع التى يتاجر فيها ليست سلعا اساسية وانما سلع ترفيه وسلع فائضة .

وكما بينا من قبل لم تكن هذه الصورة المجردة ثابتة بل ان ثمة « تاريخ » لهذا « النمط » الاقتصادى لخصناه فى انه الانتقال من التجارة الدولية الى التجارة المحلية ثم الربا ، وهى العملية التى سببها ظهور التجارة (المسيحية) الرأسمالية ونظام المصارف الحديث ، اللذان حلا محل التجارة اليهودية الاقطاعية الطفيلية والربا الطفيلى . وقد تسبب هذا التطور فى ان اليهود اصبحوا ولا دور انتاجى يلعبونه .

ان الثورة الرأسمالية هى التى ادت الى هذا الوضع ، ولكنها لم تكن وحدها مسئولة عن ظهور المسألة اليهودية وانما كان لتميز اليهود الوظيفي والاقتصادي دور فعال ايضا . فالاقطاعي المسيحي كان امامه بديل أو بدائل عديدة من بينها محاربة الاقتصاد الجديد او الانضمام له ، والفلاح المسيحى كذلك كان امامه بدائل ربما قد تكون اقل جاذبية من البدائل المتاحة امام الاقطاعى ولكن مجال الحركة كان مفتوحا امامه . أما اليهودى فكان مسلوب الارادة ـ لاتطرح امامه بدائل تاريخية جديدة ولعل هذا يفسر الاحساس بالبؤس الذى مارسته الجماهير اليهودية مع بداية القرن السادس عشر ، وانتشار الحركات الماشيحانيه بينها ، وهى حركات صوفية تبشر بوصول الماشيح (المسيح المخلص) الذى سيأخذ شعبه المختار ليعود به الى ارض الميعاد ويمكن ترجمة هذا « المصطلح » الصوفى الى مصطلح اكثر نثرية وان نقول الماشيح سيوجد بديلا تاريخيا امام الجماهير اليهودية التى وجدت نفسها فى طريق مسدود . وبالفعل طالبت الحركة الماشيحانية الفرانكية باعطاء ارض لليهود حتى يتمكنوا من الاشتغال بالزراعة وترك التجارة الاقطاعية الطفيلية . وهذا الشعار هو الذى تبنته الحركة الصهيونية فى نهاية الامر وان كانت قد ضمته الى نسقها الفكرى الاستعمارى ، وأصبحت القضية هى العودة لفلسطين للهرب من طفيلية وهامشية الدياسبورا ، من شخصية التاجر والمرابى ، للعمل بالزراعة والاعمال اليدوية المنتجة الاخرى .

٢ ـ التخلف الحضارى والرؤ يه الجيتويه

ولكن التميز الاقتصادى والوظيفى لم يكن وحده كافيا ، اذ كان يمكن لليهود أن يتأقلموا بالتدريج فى المجتمع الجديد ، كما حدث لفئات المجتمع الاخرى ، خاصة وأن عملية التحديث استغرقت فى أوروبا عدة قرون (على عكس الوضع فى العالم الثالث) . ولكن مثل هذه العملية التدريجية لم تتم بالنسبة لليهود ، اذا انعزل اليهود عن التيار الاساسى للحضارة الغربية داخل اسوار الجيتو (١١٨) . ولم يكن هذا الانعزال فى بداية الأمر شيئا سيئا ، بل كان أمرا طبيعيا يطالب به اليهود ، باعتبار ان الفصل بين الطبقات هو السمة الاساسية للمجتمع الاقطاعى . ولكن مع تآكل هذا

---

(١١٨) هذا الجزء منقولا بشيء من التصرف من موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية للمؤلف وقد اعتمد مؤلف الموسوعة على تواريخ اليهود المختلفة .

المجتمع تحول الجيتو من المكان الذى يقطن فيه اليهود ويمارسون فيه استقلالهم الدينى الى المكان الذى يعزل فيه اليهود . وقد تسبب انهيار الاساس الاقتصادى للجيتو فى انهيار معنوى واخلاقى كامل ، كما زاد من حدة اضطهاد العالم الخارجى للقاطنين فيه ، واصبح الجيتو هو المكان الذى « يعزل » ويحاصر اليهود فيه بعد ان كان المكان الخاص المقصور عليهم .

ثم تحول الجيتو الى مكان قذر للغاية تتفشى فيه الامراض وتتراكم فيه القاذورات وتحيط به اسوار وحيطان عالية ، وله بوابة واحدة او بوابتان ويمنع اليهود من مغادرته . وقد تضاعف عدد اليهود فى او اخر القرن الثامن عشر مما ادى الى ازدحام الجيتوات . ومما زاد الطين بلة ان الأرض المصرح لليهود ببناء منازلهم عليها كانت محددة مما اضطرهم فى غالب الامر الى الاتساع الرأسى ، فكانت منازل الجيتو ملاصقة ، كما انها كانت تتميز بارتفاعها الذى يفوق ارتفاع منازل المدينة . وقد تسبب ارتفاع المنازل وتلاصقها الى حجب الشمس من حارات الجيتو فاصبحت لذلك رطبة وغير صحية .

وقد ترك الانحطاط الاقتصادى والمعمارى للجيتو اثرا عميقا على وجدان اليهود القاطنين فيه وعمق من انفصالهم عن العالم الخارجى . ففى الجيتو كان اليهودى يهرب من العالم الخارجى لعالم كان يتصور ان كل ما فيه يهودى خالص ، فقد كان يمارس طقوسه اليهودية بكل حرفيتها وبدون حرج ، ثم يمتنع عن العمل يوم السبت حتى يعجل بعودة الماشيح المنتظر ليقود شعبه لأرض الميعاد ، وحينما كان يحاول اليهودي ان يدرس شيئا فانه كان يذهب الى بيت هامد راش - المدرسة الملحقة بالمعبد اليهودى او يذهب الى المدرسة التلمودية حيث كان لايدرس الا التوراة والتلمود والمدراش ، ولايقترب البتة من تاريخ الاغيار فقد كان كل مايعنيه تاريخ اليهود كما جاء فى كتب اليهود المقدسة . لكل هذا كان يعيش اليهودى نفسيا فى مكان كان يتصور انه « فلسطين » وان كان يعيش بجسده فى احد جيتوات شرق أوروبا أو وسطها .

وحينما كان يتعلم يهودى الجيتو لغة جديدة فانه كان يتعلم لشون هاقودش اى اللسان المقدس او اللغة العبرية ، لأن مجرد النظر الى ابجدية الاغيار كان يعد كفرا ما بعده كفر يستحق اليهودى عليه حرق عينيه ، وكان مجرد التفكير فى دراسة علوم الدنيا مثل الهندسة جهدا لا طائل من ورائه وكفرا تعاقب عليه الشريعة . بل ان الحديث اليومى بين اليهود لم يكن يتم بلغة البلاد وانما برطانة يهودية خاصة تسمى اليديشية ، كما ان الطريقة التى كان اليهودى يطلق بها لحيته وسوالفه وطريقة اغتساله وانواع الطعام التى يتناولها كانت كلها مختلفة عما يتناوله بنو وطنه من الاغيار . ولم يكن يشعر اليهودى بأى أمن خارج اسوار الجيتو ، ففى الخارج كان يوجد عالم غريب ومعاد وشرير ، اما فى داخل الاسوار ، فكان يجد الامن والطمأنينة والثقة والايمان العميق بأنه ينتمى الى الأمة المقدسة والشعب المختار ، وكان يتلقى التأكيدات المختلفة بأن الجيتو هو وجود مؤقت يحفظ الله فيه الأمة وروحها الى ان يحين الوقت الذى يشاء فيه عز وجل اعادة شعبه الى أرضه وحريته . وقد تسبب هذا فى نوع من الانفصام فى الرؤية ، حتى اصبح العداء للاغيار من أهم ميكانزمات الضبط الاجتماعى داخل الجيتو . وقد قدم عصر النهضة وعصر الاصلاح الدينى ثم عصر التنوير فى اوروبا واليهود داخل اسوار الجيتو الاقتصادية والوجدانية والفعلية ، وبقيام الثورة الفرنسية والثورات البورجوازية الاخرى فى انجلترا واوروبا تهدمت اسوار الجيتو وطرح بديل الانعتاق (والتحديث) على اليهود .

وقد واجه اليهود كثيرا من الصعاب فى الانتقال الى العصر الحديث نتيجة لتخلفهم الحضارى ، ومن هنا ظهرت الصهيونية باعتبارها احدى صيغ التحديث ، ولكنها صيغة سطحية للغاية ، تدعى انها تحدث واليهود واليهودية ولكنها فى واقع الأمر قامت بخلق أكبر جيتو فى العالم : الدولة الصهيونية . كما ان الصهيونية فى جوهرها رؤ ية جيتوية متخلفة ، ويمكن ان نلخص بعض نقط التشابه بين الصهيونية والرؤ ية الجيتوية والوضع الجيتوى فيما يلى : ـ

(أ) كان سكان الجيتو ينظرون للعالم الخارجى نظرة شك عميقه ، تستند الى الثنائية الحادة بين اليهود والاغيار . والصهيونية تتبنى هذه النظرة بل ان نظرية الأمن الاسرائيلية وكل الفكر الاستراتيجى الاسرائيلى يصدر عن هذا الشك العميق فى الاغيار .

(ب) ورثت اسرائيل دور الجيتو فى منطقة الشرق الاوسط ، فالجيتو لم يكن منتجا من الناحية الاقتصادية وانما كان يقدم « دورا » وحسب ، دور الوسيط واسرائيل تلعب نفس الدور ، فهى وسيط الدول الامبريالية تقوم بتأديب العرب لحساب من يدفع الثمن .

(ج) لم يكن المرابى اليهودى يستغل الفلاحين وحسب وانما كان يهدد الاساس المادى لوجودهم اذ كان ينزع ملكية الفلاحين بعد دورة الاقراض الطويلة . وقد بينا من قبل احلالية الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى استولى على الاساس الانتاجى للشعب العربى فى فلسطين .

(د) اذا كان الجيتو يتواجد فى هامش المجتمعات الغربية فان الدولة الصهيونية تصر على ان تكون فى الشرق الاوسط جغرافيا دون ان تنتمى اليه حضاريا ، ولذلك فهى توجد ايضا على هامشه .

(هـ) وثمة جوانب جيتويه اخرى عديدة فى الدولة والرؤ ية الصهيونية مثل اعتماد الاقتصاد العسكرى فى اسرائيل على دولة عظمى لحمايتها وتمويلها ، ومثل ايمان الصهاينة بأن كل شىء يباع ويشترى فيقترحون دفع التعويضات للفلسطينيين حتى ينسوا وطنهم ويدفعوا الحوافز والرشاوى لليهود السوفيت حتى يهاجروا الى ارض الميعاد ، كل هذه العناصر تبين ان الصهيونية فى الواقع لم تحدث اليهود وانما نقلتهم الى الشرق الاوسط ليحتفظوا بالمكونات الاساسية للجيتو وللرؤ ية الجيتوية فى شكل دولة عصرية حديثة .

« خاتمـــــــة »

ثمة عناصر اخرى غربية عامة ويهودية خاصة تدخل فى تركيب خلفية الصهيونية التاريخية ، مثل الدين اليهودى ووضع يهود شرق اوروبا فى روسيا القيصرية وفشل هذه الدولة نظرا لأوتوقراطيتها وتخلفها فى مساعدة اليهود فى الانتقال والتكيف مع المجتمع الجديد ، ولكننا حاولنا ان نركز على العناصر الاساسية التى تفسر الظاهرة الصهيونية ككل فى عموميتها وخصوصيتها ، على أمل ان يساهم هذا الفهم فى تحديد معالمها وتعريفها وبالتالى فى النضال ضدها والحاق الهزيمة بها .

النظرية والممارسة الصهيونية
١٩١٧ - ١٩٦٧*

تأليف : آن م . لش
ترجمة : يسر عبد الموجود
محمد جمال إمام

احتفظت الحركة الصهيونية خلال القرن الماضي باستمرارية واضحة في اهدافها وفي الطرق التي تلجأ اليها . اذ أن هذه الحركة حاولت ، منذ البداية ، ان تخلق أغلبية يهودية في فلسطين وأن تنشىء دولة يهودية على اكبر رقعة ممكنة من الأرض . وقد عاقت هذه السياسة بالضرورة السكان العرب الأصليين عن تحقيق أهدافهم القومية وعن انشاء دولة فلسطينية . ولقد فشلت الحركة الصهيونية ـ ومن بعدها دولة اسرائيل ـ في تطوير سياسة بناءة نحو الفلسطينيين العرب وطموحاتهم . وقد حاولت الأغلبية إما أن تتجاهل المشكلة الاخلاقية التي يسببها وجود الفلسطينيين أو حسمها عن طريق القوة ، وهكذا ازدادت المشكلة الفلسطينية سوءاً وتعاظم حجمها ، ولم يتم التوصل الى حل سياسي يناسب احتياجات دوافع الشعبين الفلسطيني واليهودي .

الخلفية التاريخية :

ظهرت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا متأثرة بالجيشان القومي الذي اجتاح القارة الأوروبية . وقد صاغت الصهيونية موقفها المحوري الخاص من التوق اليهودي القديم الخاص بالعودة الى جبل صهيون ، وتلقت قوة دفع كبيرة من ظروف الاضطهاد المتزايدة التي واجهت الجالية اليهودية الكبيرة في روسيا القيصرية .

وقد تطورت هذه الحركة ايضا في وقت استيلاء أوروبا على مناطق كبيرة من الأرض في آسيا وأفريقيا واستفادت من التنافس بين الدول الكبرى الأوربية سعيا وراء النفوذ والتأثير في الامبراطورية العثمانية الآخذة في الانكماش .

---

* سيظهر الأصل الانجليزي لهذا المقال في مجلد عنوانه « اسرائيل فوق فلسطين » تحرير ناصير عروري وتقويم جمعية العرب الأمريكيين خريجي الجامعات الامريكية .

وعلى أية حال كانت هناك نتيجة ترتبت على اقتران الحركة الصهيونية بالتوسع الأوربي وهي أن زعماء الحركات القومية الناشئة في الشرق الأوسط تصوروا الصهيونية على أنها تابعة للاستعمار الأوربي .

زيادة على ذلك أدت التأكيدات الصهيونية الخاصة بالمضمون المعاصر لروابط اليهود التاريخية بفلسطين ، مقترنة بشرائهم للأراضي وهجرتهم الى هذه الأراضي ، الى ادخال القلق على المواطنين العرب في المناطق العثمانية التي تضم فلسطين ، غير ان الهجرة اليهودية التي كانت في نطاق محدود ظلت لا تشكل تهديدا للغالبية من العرب . فالجالية اليهودية كانت تشكل ٦٪ من السكان في عام ١٨٨٠ وكانت تشكل ١٠٪ منهم في عام ١٩٤ ، ومع هذا كانت الأعداد دالة بما فيه الكفاية ، والمهاجرون المستوطنون كانوا صرحاء بدرجة أثارت معارضة الزعماء العرب ودفعتهم الى ممارسة ضغط مضاد على الحكم العثماني لحظر الهجرة اليهودية وشراء اليهود للأرض .

ولقد كتب مهاجر مستوطن صهيوني روسي شاب في عام ١٨٨٢ « : ان الهدف النهائي هو السيطرة على فلسطين ، وأن يستعيد الشعب اليهودي الاستقلال السياسي ـ الذي حرم منه لمدة ألفي عام »(١) . ثم ذهب الى ان هذا الهدف سوف يستكمل بالتطور الزراعي والصناعي وبالوسائل العسكرية ، وتجسدت هذه الاهداف في بيانات الحركة الصهيونية السياسية ، ثم تبلورت في أول مؤتمر صهيوني في اغسطس ١٨٩٧ وسرعان ما تبع هذا التطورات المنظمة الأخرى : انشاء الصندوق القومي اليهودي عام ١٩٠١ ـ وافتتاح المكتب الفلسطيني في يافا عام ١٩٠٧ لمساعدة المهاجرين وشراء الارض وانشاء مدينة كلها من اليهود تسمى تل ابيب عام ١٩٠٩ وانشاء اول كبوتز (المستوطنة الزراعية الجمعية) في العام نفسه .

ولم يحاول الصهاينة ان يهدئوا المخاوف العربية ، فقد كان اهتمامهم منصبا على تشجيع الاستعمار الاوروبي وتقليل العقبات في طريقهم الى ادنى حد . وفي الوقت نفسه تزايد ادراك الامة العربية للتهديد الطويل المدى الذي تمثله الصهيونية . ولقد أبرقت جماعة من الشخصيات البارزة من المسلمين والمسيحيين الى استنبول منذ البداية في عام ١٨٩١ تحث الحكومة على حظر الهجرة اليهودية وشراء الاراضي . وصدرت مراسيم تحظر بشدة شراء الاراضي في سنجق القدس في عقد السنوات التالي(٢) . وعندما صدر قرار للمؤتمر الصهيوني في عام ١٩٠٥ يدعو الى مزيد من الاستعمار الاستيطاني حظرت الحكومة العثمانية كل نقل لملكية الارض الى اليهود في سنجق القدس وولاية بيروت . وبعد الانقلاب الذي قامت به تركيا الفتاة عام ١٩٠٩ استخدم العرب ممثليهم في ـ البرلمان المركزي ونفوذهم في الصحف المحلية لابراز مطالبهم والتعبير عن اهتماماتهم ، ولقد كانوا معارضين بشدة بصفة خاصة للمناقشات التي جرت بين الحكومة العثمانية التي كانت في حاجة ماسة للنفوذ والزعماء الصهاينة في عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ حتى تسمح للتنظيم

---

1. Quoted by David Ben Gurion in **My Talks with Arab Leaders** (New York : Third Press, 1973), p. 2.

2. Neville Mandel "Turks, Arabs, and Jewish Immigration into Palestine, 1882—1914," **St. Antony's Papers,** no. 17 (1965), p. 86.

الصهيوني بشراء اراضي الحكومة العثمانية في وادي بيسان على طول نهر الأردن(٣) . والمجهود الوحيد الذي بذل لعقد اجتماع بين الصهاينة والعرب الفلسطينيين حدث في ربيع عام ١٩١٤(٤) وتصور المصاعب التي واجهت هذا الاجتماع التنافر في آمالهم . لقد أراد العرب ان يزودهم الصهاينة بوثيقة تقرر اشكال طموحهم السياسي الدقيقة واستعدادهم لفتح مدارسهم للعرب ، وفي تعلم العربية والاندماج او التكامل مع السكان المحليين ، ولكن رفض الصهاينة هذا مدركين انهم لا يستطيعون ان يدلوا بأي بيان يرضي العرب الذين يتحاورون معهم .

ومع انتهاء الحقبة العثمانية كانت الصهيونية لا تزال حركة صغيرة تبذل قصارى جهدها ، ولقد كان لها عدد متزايد من المشايعين والانصار في اوروبا وبعض الانجازات العلملية في فلسطين ، غير انه مما عاق نموها معارضة الحكام العثمانيين وغيبة نصير حام اوروبي قوي زيادة على ذلك ، وقد أشار اعلانها الواضح عن هدفها الرامي الى تحويل فلسطين الى دولة يهودية معارضة الغالبية العربية المحلية . ومع هذا فان مستوطني سنوات ١٩٠٠ قدموا النواة لقوة سياسية كبرى ووضعوا برامج سياسية واجتماعية اقتصادية كانت مرشدا هاديا للحركة في عقود السنين التالية عندما اصبحت الظروف اكثر ملائمة .

الحماية البريطانية :

تسبب اعلان وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ ووضول القوات البريطانية الى فلسطين في اعقاب هذا في تحول الموقف السياسي ، فقد أعطى وعد بلفور الحركة الصهيونية كيانها الشرعي الذي بحثت عنه طويلا باقرار تأييد الحكومة البريطانية « لاقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » مع وعد بأن الحكومة « سوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذا الهدف » . ومن الواضح إن التحفظ الذي اضيف والذي جاء فيه انه « لن ينفذ اي شيء فيه اضرار بالحقوق المدنية والدينية للجاليات غير اليهودية الموجودة في فلسطين » تقول أنه من الواضح انه يشكل عقبة تافهة الى حد كبير في وجه الصهاينة ، وخاصة ان هذا النص لا يشير الا الى تلك الجاليات ذات « الحقوق المدنية والدينية » وليست الحقوق السياسية او القومية وقد منح الاحتلال البريطاني ، الذي تم في المرحلة التالية ، بريطانيا القدرة على تنفيذ ذلك الوعد وقدم الحماية الضرورية للصهاينة ليحققوا أهدافهم .

وفي الحقيقة لقد صدقت بريطانيا على وعود ثلاثة متناقضة ومتباينة من اجل مستقبل فلسطين ، لقد كان هناك اتفاق سايكس - بيكو عام ١٩١٦ مع اقتراح من الحكومتين الفرنسية والروسية بأن توضع فلسطين تحت الادارة الدولية ، وتضمنت المراسلات بين الحسين ولورد ماكماهون في ١٩١٥ - ١٩١٦ والتي قامت على أساسها الثورة العربية ما يفيد ان فلسطين ستندرج في نطاق الاستقلال العربي . وعلى العكس جاء وعد بلفور ليشجع استعمار اليهود لفلسطين تحت الحماية البريطانية . ولقد اعترف المسئولون البريطانيون بتنافر هذه الوعود لكنهم كانوا يأملون في إمكان تحقيق « تسوية

---

3. **Ibid.**, pp. 101—2.

4. Neville Mandel, "Attempts at an Arab—Zionist Entente, 1913—1914, "**Middle Eastern Studies**, I (April 1965), p. 263; see also Yaacov Ro'i, "The Zionist Attitude to the Arabs, 1908—1914," **Middle Eastern Studies,** 4 (April 1968), pp. 198—242.

مؤقتة » بين القوى الامبريالية المتنافسة فرنسا وبريطانيا من جهة وبين العرب واليهود من جهة اخرى . وبدلا من هذا أعدت هذه التناقضات السامة لثلاثة عقود من الحكم البريطاني في فلسطين الذي اتسم بالصراع المستمر .

وخلال فترة الانتداب ، سعت بريطانيا الى الحفاظ على أمن الامبراطورية واستبعاد نفوذ المنافسين الأوروبيين عن المناطق الشرقية من حوض البحر الابيض المتوسط والطرق المؤدية الى الهند . وفي سنوات ١٩٢٠ كانت فرنسا هي المنافس الرئيسي ، ولكن مع منتصف سنوات ١٩٣٠ جاء التهديد الاكبر من ايطاليا والمانيا . ومن الناحية المبدئية آمن العديد من رجال السياسة البريطانيين بالفرضية الصهيونية القائلة ان الهجرة اليهودية المنظمة والاستقرار اليهودي على نحو تدريجي سوف يؤدي الى وجود غالبية يهودية في فلسطين الى ان تصبح دولة يهودية مستقلة مع حماية شرعية للاقلية العربية . وقد اهتزت منذ بداية الحكم البريطاني الفرضية القائلةإن مثل هذا المخطط يمكن أن يتحقق دون مقاومة عربية جادة . فبريطانيا وجدت نفسها في وضع شائك لا يحتمل على نحو متزايد وعاجزة عن اغراء اي من العرب او الصهاينة لتغيير مطالبهم ، واضطرت الى جلب المزيد من القوات العسكرية الى فلسطين للحفاظ على الأمن . . زيادة على ذلك فقدت بريطانيا هيمنتها البحرية الواضحة في البحر الابيض المتوسط مع اواخر سنوات ١٩٣٠ عندما تحدت ايطاليا احتكار بريطانيا له . وكانت بريطانيا قادرة خلال الحرب العالمية الثانية على استخدام فلسطين كقاعدة تهاجم منها وتحتل عن طريقها لبنان وسوريا اللتين كانتا في حوزة حكومة فيشي في فرنسا ، وشكلت احتياطيا للمعركة على الارض المصرية ضد قوات المانيا في شمال افريقيا . ومع انتهاء الحرب كانت بريطانيا منهكة حتى أنها لا تستطيع ان تحكم قبضتها على فلسطين في مواجهة التمرد اليهودي على نطاق شامل .

ومن الناحية العلملية كانت المظلة البريطانية هامة بشكل خطير لنمو وتدعيم المستوطن او التجمع الصهيوني (اليشوف) في فلسطين اذا اتاحت له امكانية ان يرسي قواعده ـ الراسخة رغم المعارضة العربية . وعندما تلاشى التأييد البريطاني في اواخر سنوات ١٩٣٠ كانت الجالية اليهودية من القوة بحيث أنها تمكنت من مواجهة العرب بمفردها ، وتمكنت الحركة الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية من ان تلتفت الى الولايات المتحدة ـ القوة الكبرى الناشئة ـ للحصول على التأييد الديبلوماسي على الشرعية .

لقد افترض العرب في فلسطين انهم قد يجنون شكلا ما من اشكال الاستقلال عندما يتحلل الحكم العثماني سواء من خلال دولة منفصلة او مندمجة في الاراضي العربية المجاورة . ولقد تدعمت هذه الامال بالتمرد العربي ودخول الامير فيصل الى دمشق في عام ١٩١٨ واعلان الاستقلال السوري عام ١٩٢٠ . ولكن هذه الامال تبددت عندما فرضت بريطانيا حكمها الاستعماري المباشر وعندما منحت التجمع الصهيوني مكانة خاصة ، زيادة على ذلك تمكنت فرنسا من طرد فيصل من دمشق في يوليو ١٩٢٠ . ولم يكن للتعويض البريطاني تأثير ايجابي على العرب في فلسطين ، اذ اخذ هذا التعويض شكل عروش في شرق الأردن والعراق لعبد الله وفيصل على التعاقب . وفي الحقيقة نجد أن هذا الموقف يبين بوضوح كيف عامل البريطانيون فلسطين بطريقة مختلفة . وقد ازداد الوضع سوءا من جراء الهجرة اليهودية ، اذ ارتفعت نسبة اعضاء المستوطن الصهيوني من ١٠٪ من السكان في عام ١٩١٤ الى ٢٨٪ عام ١٩٣٦ و٣٢٪ عام ١٩٤٧ .

وجاءت ردود العرب على الهجرة اليهودية وشراء الاراضي والمطالب السياسية متناسقة(٥) . فقد اصروا على ان تظل فلسطين دولة عربية لها نفس الحكم الذاتي والاستقلال اللذين منحتهما بريطانيا لمصر وشرق الاردن والعراق . ونادى العرب بأن الارض الفلسطينية لا يمكن ولا يجب ان تستخدم لحل اضطهاد اليهود في اوربا ، وان الآمال القومية اليهودية لا يجب ان تطغى على احتياجاتهم .

وبلغت المعارضة العربية الذروة في أواخر عام ١٩٣٠ : الاضراب العام الذي استمر ستة اشهر في سنة ١٩٣٦ ، ثم تبعه في العام التالي تمرد واسع النطاق في الريف ، ونبع التمرد من اعماق المجتمع الفلسطيني ـ فضم العمال الحضريين الذين بلا عمل والفلاحين المبعدين المتجمعين في المدن والقرويين المثقلين بالديون . وأيد التمرد معظم التجار والمهنيين في المدن الذين خشوا من منافسة اعضاء التجمع الصهيوني ، وقد لعب اعضاء الاسر البارزة دور المتحدثين باسمهم امام الادارة البريطانية من خلال اللجنة العربية العليا التي تشكلت خلال اضراب عام ١٩٣٦ ، غير ان بريطانيا الغت اللجنة في اكتوبر ١٩٣٧ ـ وألقت القبض على اعضائها عشية التمرد .

ولم يكن هناك سوى حزب سياسي عربي واحد من ضمن الاحزاب السياسية العربية كان على استعداد للحد من اهدافه وتقبل مبدأ التقسيم للأرض . وهذا الحزب هو حزب الدفاع القومي بزعامة راغب النشاشيبي (عمدة القدس من ١٩٢٠ الى ١٩٣٤) فقد كان هذا الحزب راغبا في تقبل التقسيم عام ١٩٣٧ طالما ان العرب سيحصلون عى أرض كافية وانهم يمكن ان يندمجوا مع شرق الاردن لتكوين كيان سياسي كبير . على أية حال فان خطة اللجنة الملكية البريطانية ـ والتي اعلنت عام ١٩٣٧ ـ ارغمت العرب على ترك المناطق التي تزرع زيتونا وحبوبا في الجليل ومزارع البرتقال على ساحل البحر الابيض المتوسط وعلى ترك المدن الساحلية في حيفا ، وكان هذا يشكل خسارة كبرى لا يستطيع الحزب ان يقبلها ومن ثم انضم الى حركة الاستنكار العامة للتقسيم(٦) .

وخلال فترة الانتداب كان ٧٠٪ من العرب ريفيين كما كان ما بين ٧٥٪ و٨٠٪ من الأميين ، وكان هناك انقسام داخلي بين المدينة والريف وبين أسر الصفوة وأسر القرويين . وبالرغم من التأييد الواسع للاهداف القومية لم يستطع الفلسطينيون ان يحققوا الوحدة والقوة الضرورتين لمواجهة الضغط المشترك من جانب القوات البريطانية والحركة الصهيونية . وفي الحقيقة ، كان البناء السياسي منهارا في اواخر سنوات ١٩٣٠ عندما جرى الغاء اللجنة العليا العربية وتم القاء القبض على السياسيين المحليين . وعندما بذلت الجهود في سنوات ١٩٤٠ لاعادة تشييد البناء السياسي جاءت قوة الدفع من الخارج من الحكام العرب الذين انتابهم القلق من جراء الظروف المتدهورة في فلسطين وخشوا ارتداد هذا على استقلالهم الذي احرزوه مؤخرا .

---

5. Ann Mosely Lesch, **Arab Politics in Palestine,** 1917—1939 (I thaca, N. Y. : Cornell University Press, 1979), pp. 79—80.

6. **Ibid.,** p 120; Simha Flapan, **Zionism and the Palestinians** (New York : Barnes and Noble Books, 1979), p. 258; Yehoshua Porath, **The Palestinian Arab National Movement, 1929—1939** (London : Frank Cass, 1977), pp. 229—230.

وقد وضع هؤلاء الحكام أهدافهم القومية في المقام الأول ، ولم يقدموا سوى تأييد دبلوماسي وعسكري محدود للفلسطينيين . أما العربّ الفلسطينيون فقد استمروا في المطالبة بدولة تعكس ثقل الغالبية العربية وهي غالبية تقلصت الى ٦٨٪ من السكان عام ١٩٤٧ . وقد رفضوا خطة الامم المتحدة في التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧ والتي تمنح اعضاء التجمع الصهيوني كيان دولة على ٥٠٪ من فلسطين وهي منطقة تضم عددا كبيرا من العرب مضاهيا لعدد اليهود . وعلى اية حال ، كان العرب الفلسطينيون تنقصهم القوة السياسية والقوة العسكرية لتعزيز مطالبهم ، ولم يستخدم الحكام العرب ـ رغم تنديدهم بالتقسيم ـ قواتهم المسلحة الا لحماية تلك المناطق التي خصصتها خطة التقسيم للدولة العربية . وفي ذلك الوقت وقعت اتفاقيات الهدنة في عام ١٩٤٩ ومن ثم تقلصت المناطق العربية الى ٢٣٪ فقط من فلسطين . وقد استولى الجيش المصري على قطاع غزة ، وهيمنت قوات شرق الاردن على جبال الضفة الغربية ، وهرب حوالي ٨٧٠ ألف من مجموع ١,٣ مليون عربي فلسطيني من المناطق التي تحتلها اسرائيل . وقد ضم الامير عبدالله ـ الذي فشل في الحصول على الارض ـ الفلسطينية عام ١٩٣٧ ـ المنطقة التيّ احتلها جيشه وأطلق عليها اسم الضفة الغربية .

الحركة الصهيونية :

ما هي سياسات واعمال الحركة الصهيونية التي أفضت الى هذه العملية الهائلة الهادفة لنقل العرب ؟

تركز الصهيونية اساسا على الحاجة الى الحصول على أغلبية يهودية في فلسطين وعلى كيان دولة دون ان تضع في الاعتبار رغبات السكان العرب . ويشكل عدم الاعتراف بالشعب الفلسطيني « حجر الزواية في السياسة الصهيونية التي بدأها (حاييم) وايزمان ونفذها باخلاص (ديفيد) بن جوريون وخلفاؤه » . وقد تم اتباع هذه السياسة بالرغم من الدليل المتوفر على التشبث الذي ابداه الفلسطينيون بهويتهم القومية في أشد الظروف المناوئة(٧) .

لقد طرح حاييم وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، الحد الاقصى من المطالب امام مؤتمر السلام في باريس في فبراير ١٩١٩ ، وبين انه يتوقع ان يصل ما بين ٧٠ ألف و٨٠ ألف مهاجر يهودي كل عام الى فلسطين . وعندما يصبحون اغلبية فانهم يشكلون حكومة مستقلة وتصبح فلسطين « يهودية كما ان انجلترا انجليزية » . واقترح وايزمان ان تكون حدود الدولة البحر الابيض المتوسط غربا ، وصيدا ونهر الليطاني وجبل الشيخ شمالاً ، وكل الضفة الغربية من خط سكك حديد الحجاز شرقا ، وشريط من سيناء يمتد من العقبة الى العريش جنوبا . وقال « ان الحدود السابق طرحها في خطوطها العريضة هي ما نعتبره جوهريا للأساس الاقتصادي الضروري للبلاد . ويجب ان يكون لفلسطين ـ مخرجها الطبيعي الى البحر والسيطرة على انهارها ومصادر مياهها . وقد جرى تعريف الحدود بعد ان وضع في الاعتبار الاحتياجات الاقتصادية العامة والظروف التاريخية للبلاد(٨) وقد أعطى وايزمان للبلاد العربية منطقة حرة في حيفا وميناء مشتركا في العقبة . وكانت سياسة وايزمان تتفق اساسا مع سياسة زعماء التجمع الصهيوني الذين عقدوا مؤتمرا في ديسمبر ١٩١٨ صاغوا فيه مطالبهم التي تقدموا بها لمؤتمر السلام .

---

7. Flapan, op. cit., p. 12.

8. Quoted in Sami Hadawi, **Bitter Harvest : Palestine 1914—1979** (Delmar, N. Y. : Caravan Books, REVISED EDITION 1979), p. 215; also Flapan, op. cit., p. 46; and J. C. Hurewitz, **The Struggle for Palestine** (New York : Schocken Books, 1976) p. 20.

ولقد اكدت خطة التجمع الصهيوني بشكل واضح على الحاجة الى سيطرة صهيونية على الوظائف الادارية وعلى وصاية قوية ومتحيزة بشكل واضح لتحكم البلاد ابان فترة الانتقال اللازمة لظهور الغالبية اليهودية . وفي نهاية هذه الفترة تكون هناك دولة يهودية بشكل ضمني ، حيث توجد ديمقراطية دستورية يمنح فيها العرب الحقوق الملائمة للاقليات(٩) . وبالرغم من ان مؤتمر السلام لم يحدد مثل هذه الاراضي المتسعة للوطن القومي اليهودي ولم يؤيد هدف تحويل كل فلسطين الى دولة يهودية فانه فتح الباب لمثل هذه الامكانية . ولكن بين عرض وايزمان بوضوح وقوة الاهداف الطويلة الأمد للحركة ، وهذا هو الأمر الأكثر اهمية .

وهذه الاهداف تقوم على اغراض اساسية محددة . أولا ، ان الصهيونية ليست على حق اذا نظر اليها من الداخل فحسب ، بل انها تلبي ايضا الحاجة السائدة بين اليهود .

ثانيا : ان الثقافة الاوربية اكثر تفوقا وسموا من الثقافة العربية المحلية ، وان الصهاينة يمكنهم ان يساعدوا في تحضير الشرق . ثالثا : ان الدعم الخارجي مطلوب من دولة كبرى ، وان العلاقات مع العالم العربي مسألة ثانوية . رابعا : القومية العربية هي حركة مشروعة ، لكن القومية الفلسطينية إما انها غير شرعية او معدومة لا وجود لها . واخيرا اذا لم يستطع الفلسطيون ان يكيفوا انفسهم مع الصهيونية فان الرد المتاح الوحيد هو اللجوء الى القوة وليس التوفيق بين الاهداف .

ويؤمن دعاة الصيونية بان الشعب اليهودي له حق موروث لا يمكن التنازل عنه في فلسطين . وقد عبر الصهاينة الدينيون عن هذا بالمصطلحات الانجيلية وهم يشيرون الى الوعد الإلهي بالأرض لقبائل اسرائيل . ويعتمد الصهاينة الدنيويون اكثر على القول بأن فلسطين وحدها هي التي تستطيع ان تحل المشكلة الناجمة عن التشتت اليهودي وعن معاداة السامية المتطرفة . وذهب وايزمان عام ١٩٣٠ الى ان احتياجات ١٦ مليون يهودي يجب موازنتها ضد احتياجات مليون عربي فلسطيني . « ان وعد بلفور والحماية البريطانية قد رفعا بشكل نهائي فلسطين من سياق الشرق الاوسط وربطتها بالمشكلة اليهودية على نطاق العالم . . وحقوق الشعب اليهودي في فلسطين والتي تم اقرارها لا تعمد على الموافقة ولا يمكن ان تخضع لإرادة غالبية سكانها الحاليين »(١٠) . واتخذ هذا المنظور اقصى اشكاله تطرفا مع الحركة الصهيونية التنقيحية والمراجعة . لقد ألهب مؤسسها فلاديمير جابوتنسكي « المشاعر اليهودية الخاصة بعدالة قضيتهم الى درجة كانوا يتصورون ان كل الحقيقة والعدالة المطلقين في صفهم وحسب »(١١) . وبهذا تم تبريرا اية اعمال تتخذ ضد العرب لكي تتحقق الاهداف الصهيونية .

ثانيا : كان هناك شعور قوي بأن الحضارة الاوربية اكثر تفوقا من الثقافة والعادات العربية . ولقد كتب تيودور هرتزل مؤسس المنظمة الصهيونية في الدولة اليهودية (١٨٨٦) ان ـ الجالية اليهودية يمكن ان تفيد « كجزء من جدار دفاعي عن

---

9. Neil Caplan, **Palestine Jewry and the Arab Question 1917—25** (London : Frank Cass and Company, Ltd., 1978), pp. 24—25.

10. Queted in Lesch, **op. cit.**; pp. 43—44.

11. Flapan, **op. cit.**, p. 117.

اوربا في آسيا ، وموقع متقدم للحضارة ضد البربرية »⁽¹²⁾ ولقد وصفت اراء وايزمان على النحو التالي : « لقد كشف وايزمان عن عقلية القرن التاسع عشر ـ التي تتلخص بايمان رسالة اوربا في جلب الحضارة للشعوب المتخلفة . لقد آمن بشدة ان القضية الصهيونية هي قتال الحضارة ضد الصحراء وكفاح التقدم والفاعلية والصحة والتعليم ضد الجمود والركود . . » ولقد كانت الصورة التي رسمها للعرب هي صورة شعب بدائي متخلف يمكن بسهولة ان يهتز بالقوة والمال والنجاح . لقد كانوا خائنين ومخادعين وتنقصهم القيم الاخلاقية ولا يمكن الاعتماد عليهم في اتخاذ مواقف مبدئية وهم لا يقدرون المثل الأوربية »⁽¹³⁾ .

ولم يفهم ديفيد بن جوريون ، الزعيم العمالي الصهيوني ، لماذا يرفض العرب عرضه لاستخدام التمويل اليهودي والمعرفة العلمية والخبرة الفنية لدى اليهود لتحديث المنطقة⁽¹⁴⁾ ولقد عزا هذا الرفض الى التخلف اكثر مما عزاه الى ان مثل هذا العرض يمثل اهانة لكبرياء العرب وامالهم في الاستقلال .

ثالثا : لقد اعترف الزعماء الصهاينة انهم يحتاجون الى نصير خارجي لكي يضفي الشرعية على تمثيلهم وحضورهم في الساحة الدولية ولتقدم لهم الحماية الشرعية والعسكرية في فلسطين ، ولقد لعبت بريطانيا العظمى ذلك الدور في سنوات ١٩٢٠ وسنوات ١٩٣٠ ، وأصبحت الولايات المتحدة الامريكية الحامي المشير في منتصف سنوات ١٩٤٠ . ولقد أدرك الزعماء الصهاينة انهم يحتاجون الى ادخال تعديلات تكتيكية لأرضاء هذا النصير الحامي ـ مثل التقليل من حدة بياناتهم العامة عن آمالهم السياسية ، ومثل قبول دولة على ارض محدودة ـ بينما يواصلون العمل لتحقيق اهدافهم البعيدة المدى . وجرى تصوير وجود العرب واحتياجاتهم على انها ثانوية . ولم تأخذ الزعامة الصهيونية اطلاقا بفكرة التحالف مع العالم العربي ضد البريطانيين او الامريكيين . بل ان وايزمان بصفة خاصة شعر بالاحرى بأن الجالية اليهودية يجب ان توازن الامبراطورية البريطانية وتحرس مصالحها الاستراتيجية في المنطقة⁽¹⁵⁾ .

ولقد تصور زعماء اسرائيل فيما بعد الدولة اليهودية على أنها وجود استراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الاوسط .

رابعا : تقبل السياسيون الصهاينة فكرة أمة عربية لكنهم رفضوا امة فلسطينية ، لقد اعتبروا العرب المقيمين في فلسطين على انهم يشكلون جزءا صغيرا من الارض والناس من العالم العربي ، وانه تنقصه أية ذاتية منفصلة واية آمال مستقلة . ولقد اراد وايزمان وبن جوريون ان يتفاوضا مع الحكام العرب لكي يحصلا على اعترافهم بالدولة اليهودية في فلسطين مقابل اعتراف الصهاينة بالاستقلال العربي في الاماكن الاخرى ، لكنهما لم يتفاوضا مع السياسيين العرب في فلسطين من أجل استقرار سياسي في موطنهم المشترك .

---

12. Duoted in Arthur Hertzberg, ed., **The Zionist Idea** (New York : Atheneum, 1969), p. 222.
13. Flapan, **op. cit.**, pp. 25 and 39.
14. **Ibid.**, p. 134.
15. **Ibid.**, p. 9.

وفي فترة مبكرة في عام ١٩١٨ كتب وايزمان الى سياسي بريطاني بارز : « ان الحركة العربية الحقيقية تتطور في دمشق ومكة . . . وما يسمى بالمشكلة العربية في فلسطين لن يتخذ الا طابعا محليا محضا ، وفي الحقيقية لا يعد عاملا خطيرا(١٦) .

ويتمشى مع هذا التفكير ان وايزمان التقى مع الامير فيصل في السنة نفسها ، في محاولة لكسب موافقته على دولة يهودية في فلسطين مقابل المساعدة المالية اليهودية لمملكته في سوريا .

وفي عام ١٩٣٩ التقى بن جوريون ووايزمان والزعماء الصهاينة الاخرين مع المسئولين العرب البارزين في إبان انعقاد مؤتمر لندن الذي عقدته بريطانيا للوصول الى استقرار توفيقي في فلسطين . ولقد انتقد الدبلوماسيون العرب من مصر والعراق والسعودية الوضع الاستثنائي الذي منحه وعد بلفور للجالية اليهودية ، واكدوا الغربة الناشئة عن الهجرة اليهودية الواسعة النطاق بين المواطنين العرب واليهود .

وردا على هذا اصر وايزمان على ان فلسطين يجب ان تظل مفتوحة لكل اليهود الذين يريدون ان يهاجروا . وذهب بن جوريون الى ان كل فلسطين يجب ان تصبح دولة يهودية متحدة مع الدول العربية المحيطة . ولقد انتقد المشاركون العرب هذه المطالب لانها تصعد الصراع بدل ان تساهم في البحث عن حل للسلام(١٧) ، كما رفض الحكام العرب المقدمة الصهيونية القائلة ان الكيان العربي يمكن الاعتراف به مع تجاهل الفلسطينيين .

وأخيرا ، ذهب الزعماء الصهاينة الى انه اذا لم يكيف الفلسطينيون انفسهم في تصالح مع الصهيونية فان « اللجوء الى القوة » هو الرد الممكن الوحيد وليست مسألة التوفيق بين الاهداف . ومع اوائل سنوات ١٩٢٠ بعد ان نشبت الاحتجاجات العربية العارمة في يافا والقدس أدرك زعماء الجالية اليهودية ان الهوة بين أهداف الشعبين « يكاد يصعب تخطيطها »(١٨) و « ان اقامة وطن قومي لهم . . . سيؤدي الى صدام مع العرب وهو صدام نفسي لا يمكن تجنبه » . ولقد ادركوا انه من غير الوارد ان توافق غالبية العرب في فلسطين طوعا على تغيير وضعها مع اليهود كأغلبية وأقلية » . وفي الحقيقة حتى في فترة ـ مبكرة في عام ١٩١٩ كتب بن جوريون صراحة :(١٩) « يرى الجميع ان مسألة العلاقات بين العرب واليهود محفوفة بالمصاعب . . . ولكن الجميع غير مدرك على انه لا يوجد حل لهذه المشكلة . لا يوجد حل على الاطلاق . هناك هوة ولاشيء يوجد لسد هذه الهوة . . . . وانا اعرف ان العرب سوف يتفقون على انه يجب الا تعطى فلسطين لليهود . . . ونحن كأمة نريد هذه البلاد ان تكون « بلادنا » والعرب كأمة يريدون هذه البلاد ان تكون « بلادهم » وفي الوقت نفسه اعتقد بن جوريون ان القرار يمكن ان يتخذه مؤتمر السلام وان بريطانيا سوف ترجح كفة

---

16. Letter to Lord Balfour, quoted in **Ibid.**, p. 38 : The discussions with Faysal are described in Lesch, **op. cit.**, pp. 132—134, and Flapan, **op. cit.**, pp. 31—55.

17. Lesch, **op. cit.**, pp. 152—3.

18. Caplan, **op. cit.**, pp. 3—4.

19. **Ibid.**, p. 41.

الميزان لصالح الحركة الصهيونية . وبعد هذا ادركت الزعامة الصهيونية ان على الصهاينة ان يأخذوا زمام المبادرة وان يرغموا العرب على الرضوخ لكيانهم المتنافس . ولقد صرح بن جوريون عام ١٩٣٧ ابان التمرد العربي بقوله« هذه حرب قومية اعلنها العرب ضدنا ، وهذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعدونه اغتصاب اليهود لوطنهم . . غير ان القتال ليس سوى جانب واحد من جوانب الصراع الذي هو في جوهره صراع سياسي .

ونحن من الناحية السياسية المعتدون وهم المدافعون عن انفسهم »(٢٠) وما خلص اليه بن جوريون لم يدفعه الى التفاوض مع العرب الفلسطينيين بل دفعه الى تبني « خط أكثر تصلبا من ناحية الحاجة الى بناء قوة عسكرية يهودية لارغام العرب على الرضوخ »(٢١) .

الصهيونية العملية :

وحتى يمكن تحقيق اهداف الصهيونية وبناء الوطن القومي اليهودي تم اتخاذ خطوات عملية في مجالات متعددة . فتم تشييد الأبنية السياسية التي يمكن ان تمارس مهام الدولة ، كما تم انشاء قوة عسكرية وتطوير الهجرة على نطاق واسع ، كما جرى الحصول على الارض باعتبارها الملكية التي لا يمكن التنازل عنها لتكون ملكية للشعب اليهودي ، كما جرى تقديم الامتيازات . زيادة على ذلك فان اتحاد العمال (الهستدروت) حاول فرض العمالة بقصرها على العمل اليهودي في المشروعات اليهودية وفرض لغة عبرية مستقلة في النظام التعليمي . وقد خلقت هذه الاجراءات كيانا ذاتيا قوميا على التربة الفلسطينية كان مستقلا تماما عن الأمة العربية .

ولقد اقام التجمع الصهيوني مجلسا منتخبا للمجتمع اليهودي وجهازا تنفيذيا واقساما ادارية ومحاكم دينية بمجرد ما تولت بريطانيا السيطرة على فلسطين(٢٢) .

وعندما صدقت عصبة الامم في عام ١٩٢٢ على الانتداب حول للمنظمة الصهيونية مسئولية تقديم النصيحة للادارة البريطانية والتعاون معها . ولم يقتصر هذا على المسائل الاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر في الوطن القومي اليهودي بل امتد الى المسائل التي تمس التطور العام للبلاد . وبالرغم من ان بريطانيا رفضت الضغط لمنح المنظمة الصهيونية نصيبا متساويا في الادارة والسيطرة على الهجرة ونقل ملكية الاراضي فان التجمع الصهيوني قد حصل على مكانة ممتازة تتمثل في تقديم المشورة .

وكان الصهاينة يوجهون انتقادا شديدا للجهود البريطانية الرامية الى انشاء مجلس تشريعي في سنوات ١٩٢٣ و١٩٣٠ و١٩٣٦ : « ففي مرحلة مبكرة تيقن المراقبون الصهاينة ان المطالب الدستورية من جانب العرب لا تكاد تتفق بالمرة مع مطالبهم واحتياجاتهم بل وتشكل « تهديدا » يجب مقاومته »(٢٣) .

---

20. Flapan, **op. cit.**, p. 141.
21. **Ibid.**, p. 142.
22. Lesch, **op. cit.**, p. 46.
23. Caplan, **op. cit.**, p. 148.

وفي عام ١٩٢٣ شارك المستوطنون اليهود في الانتخابات لكنهم شعروا بالارتياح عندما أرغمت المقاطعة العربية بريطانيا على الغاء النتائج . وفي سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٦ عارضت المنظمة الصهيونية معارضة شديدة المقترحات البريطانية لانشاء مجلس تشريعي ، اذ خشي ـ الصهاينة انه اذا ما حصل العرب على اغلبية نتيجة التمثيل العددي ان يحاولوا حظر الهجرة وشراء الاراضي والسياسات الجوهرية الاخرى للصهاينة .

وتجسدت معارضتهم في عبارة تقول ان الفلسطينيين ليسوا ناضجين بما فيه الكفاية كأن يحكموا انفسهم ذاتيا ، وهذا مساو للقول : « الى ان تكون هناك اغلبية يهودية » . وحتى يمكن تدعيم موقفهم تشكلت قوات الدفاع (الهاجاناة) في مارس ١٩٢٠ وقد تبعها انشاء الحرس (هاشومر) في المستوطنات الريفية اليهودية في سنة ١٩٠٠ ، وتكوين فيلق يهودي في الحرب العالمية الأولى . ولقد شعر ايليا هو جولومب رئيس الهاجاناة بأن الفيلق اليهودي يجب استخدامه لحماية فلسطين : « انه يعود العرب على فكرة انه مقدر علينا ان نحكم هذه البلاد وان يبث الخوف فيهم مما يحول بينهم وبين عمل اي شيء ضدنا(٢٤) . وعلى اية حال حلت بريطانيا الفيلق ولم تسمح الا بالمصانع الحربية في المستوطنات وبلجان الدفاع في المناطق التي يختلط فيها اليهود والبريطانيون .

وكانت الهاجاناة قوة غير شرعية تشكلت خلال فترة التوتر اليهودي ـ العربي وافضى هذا الى هجمات عربية كبرى من جانب اليهود في القدس في ابريل ١٩٢٠ .

ولقد قامت الهاجاناة رغم كيانها غير الشرعي بالتوسع وكانت تضم ١٠ آلاف رجل مدرب ومجند و٤٠ ألف احتياطي مع حلول عام ١٩٣٦ . وخلال التمرد العربي في ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ انخرطت الهاجاناة في « الدفاع النشط » ضد الفرق المتمردة ، وتعاونت مع البريطانيين في حراسة خطوط السكك الحديدية وخطوط انابيب البترول الى حيفا ودفاعات الحدود . وتعمق هذا التعاون ابان الحرب العالمية الثانية عندما انضم ١٨ ألف و٨٠٠ متطوع يهودي الى القوات البريطانية ، وعملت وحدات البالماخ من الهاجاناة كفرق كشافة وجنود في سلاح المهندسين في لبنان في ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ . وساعدت تجربة الحرب هذه على تحويل الهاجاناة الى قوة مقاتلة نظامية . وعندما أصبح بن جوريون وزير دفاع المنظمة الصهيونية في يونيو ١٩٤٧ زاد من عملية التعبئة وعملية شراء الاسلحة من الولايات المتحدة الامريكية واوربا . ونتيجة لهذا قفز عدد المجندين الذين تم تعبئتهم الى ٣٠ ألف في مايو ١٩٤٨ عندما اعلنت الدولة ، ثم تضاعف العدد الى ٦٠ ألف مع منتصف يوليو ، وهو ضعف العدد العامل في القوات العربية التي كانت تحارب ضد اسرائيل(٢٥) .

وثمة وسيلة رئيسية لبناء الوطن القومي هو زيادة الهجرة من اوربا على نطاق واسع . وقد نص الانتداب على أن معدل الهجرة يجب ان يتفق مع القدرة الاستيعابية الاقتصادية للبلاد . وفي عام ١٩٣١ أعادت الحكومة البريطانية تفسير هذا لا لشيء الا لتدخل في الاعتبار القطاع اليهودي في الاقتصاد ـ مستبعدة القطاع العربي ـ الذي كان يعاني من بطالة شديدة . ولم يحدث الا في عام ١٩٣٩ ان فرضت بريطانيا حصة محدودة على المهاجرين اليهود . ولقد وجد هذا التحديد

---

24. Quoted in **Ibid.**, p. 34.

25. Nadav Safran, **From War to War** (New York : Pegasus, 1969), p. 30.

مقاومة من جانب اعضاء التجمع الصهيوني مع شعور باليأس لأنه يغلق الباب في وجه اليهود الذين كان هتلر يضطهدهم في المانيا وفي بقية اوربا التي احتلها النازيون .

وتوضح تقديرات عدد السكان الفلسطينيين التأثير المأساوي للهجرة على التجمع الصهيوني هناك . فحسب اول تعداد اجرته بريطانيا (٣١ ديسمبر ١٩٢٢) كان عدد السكان ٧٥٧ ألف و١٨٢ نسمة ، منهم ٨٣ ألف و٧٩٤ نسمة من اليهود ـ (١١٪) ويتبين من التعداد الثاني (٣١ ديسمبر ١٩٣١) ان عدد السكان بلغ مليون و٣٥ ألف و٨٢١ نسمة منهم ١٧٤ ألف و٦ يهودي (١٧٪) ومن ثم نجد ان عدد اليهود قد تضاعف والنسبة زادت من ١١٪ الى ١٧٪ ويمكن أن نعزو ثلثي هذه الزيادة الى الهجرة الخالصة والثلث الى الزيادة الطبيعية(٢٦) .

ولقد تركز ثلثا اعضاء التجمع الصهيوني في القدس ويافا /تل ابيب ومعظم الباقين في الشمال بما في ذلك مدن حيفا وصفد وطبريا .

ولقد تسارع معدل الزيادة في الهجرة في عام ١٩٣٢ وبلغ الذروة في عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ حتى ان العدد الشامل للمواطنين اليهود تضاعف في الخمس سنوات من ١٩٣١ ـ ١٩٣٦ ليصل الى ٣٧٠ الف يهودي وشكلوا بهذا ٢٨٪ اجمالي السكان(٢٧) . ولقد نقص صافي الهجرة الى حد كبير في اواخر سنوات ١٩٣٠ و١٩٤٠ غير ان الحكومة قد عام ١٩٤٦ انه كان هناك حوالي ٥٨٣ الف يهودي من بين حوالي مليون و٨٠٠ الف مواطن او ١" [illegible] ن العدد الاجمالي(٢٨) ، كان هناك ٧٠٪ منهم من سكان الحضر وتواصلت عملية التمركز الشديد في القدس (١٠٠ الف يهودي) ومنطقة حيفا (١١٩ الف يهودي) وتل ابيب ومناطق رام الله (٣٢٧ الف يهودي) .

وكان هناك عدد كبير من السكان الباقين البالغ عددهم ٤٣ الف يهودي في الجليل مع عدد مبعثر في النقب ولم يكن هناك احد من اليهود في الاراضي المرتفعة في الضفة الغربية للاردن .

وقد بدأ اعضاء التجمع الصهيوني في شن حملة شعواء محمومة لشراء الاراضي على نطاق واسع لانشاء مستوطنات ريفية ولتبرير المطالبة بالارض . وقد كان كل ما في حوزة الجالية اليهودية عام ١٩٢٠ حوالي ٦٥٠ ألف دونم (الدونم يساوي تقريبا ربع فدان) وفي عام ١٩٣٠ بلغت المساحة مليون و١٦٤ الف دونم . وفي عام ١٩٣٦ بلغت مليون و٤٠٠ الف دونم وقد قرر الوسيط الاكبر لعملية الشراء (شركة تنمية الارض الفلسطينية) انه في عام ١٩٣٦ تم شراء ٨٩٪ من الاراضي من كبار الملاك « وهم يقيمون اساسا في بيروت » و١١٪ فقط من ـ الفلاحين . وفي عام ١٩٤٧ كان في حوزة الجالية اليهودية ١,٩ مليون دونم . ومع هذا فان هذا لا يشكل سوى ٧٪ فقط من مساحة الأرض الكلية او ما يتراوح ما بين ١٠٪ و١٢٪ من الأرض المزروعة(٢٩) .

---

26. Janet L. Abu—Lughod, " The Demographic Transformation of Palestine," in Ibrahim Abu-Lughod, ed., **The Transformation of Palestine** (Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971), pp. 142—44.

27. **Ibid.**, p. 150; see also Hurewitz, **op. cit.**, pp. 27—28.

28. J. Abul—Lughod, **op. cit.**, p. 153.

29. John Ruedy, "Dynamics of Land Alienation," in I. Abu—Lughod, **op. cit.**, pp. 125—6, 134; Lesch, **op. cit**, pp. 68—69.

ووفق البند الثالث من دستور الوكالة اليهودية كان الصندوق القومي اليهودي مالكا للأرض التي تعد ملكية خاصة بالشعب اليهودي لا يمكن التنازل عنها ولا يسمح الا لقوة اليهودية ان تعمل في المستوطنات(٣٠) .

والنتيجة كما جاء في تقرير اللجنة البريطانية :

« هي ان الارض اصبحت ارضا خاصة باليهود ولم تعد أرضا يمكن للعربي ان يجني منها أية فائدة الان او في المستقبل . ولم يقتصر الامر على فقدانه الامل في تأجيرها او زراعتها ، بل . . . . لقد حرم ايضا للأبد من أن يعمل كأجير على هذه الارض . . ولهذا السبب لا يؤمن العرب بما يدعيه الصهاينة من صداقة وحسن النية وذلك في ضوء السياسة التي تأخذ بها المنظمة الصهيونية عن قصد »(٣١) .

لقد انتقد العرب انتقادا شديدا هذه الدعوى الخاصة بعدم امكانية استرداد الارض وقصرها على اليهود . وعلى سبيل المثال فان حزب الدفاع القومي المعتدل ، ناشد بريطانيا في عام ١٩٣٥ ان تمنع المزيد من بيع الارض قائلين انها « مسألة حياة او موت بالنسبة للعرب فهذا يتضمن نقل ملكية البلاد الى أيد أخرى وفقدان قوميتهم وجنسيتهم . . . فاذا حدث ـ وفقد العرب الارض وانتقلت ملكيتها لليهود فانه لم يعد هناك مجال للتساؤل عما اذا زادت انتاجية هذه الاراضي ام نقصت طالما ان العرب لا يستطيعون استخلاص أية فائدة اخرى منها »(٣٢) .

لقد كانت اقامة المستوطنات تتم في الغالب على اساس اعتبارات سياسية ولقد كان لدى الشركة الفلسطينية لتنمية الارض اربعة معايير تتحكم في عملية الشراء : الملاءمة الاقتصادية للأرض ومساهمتها في تشكيل حاجز صلب لصالح الاراضي اليهودية وتجنب المستوطنات المنعزلة وتأثير شراء الارض على المزاعم السياسية ـ الاقليمية للصهاينة(٣٣) وعلى سبيل المثال فان المستوطنات التي كانت تدعى بمستوطنات « حائط » الدفاع وبرج « المراقبة » والتي شيدت عام ١٩٣٧ قد صممت على نحو يؤمن مناطق معينة من الجليل لاعضاء التجمع الصهيوني اذا ما اخذ البريطانيون بسياسة التقسيم(٣٤) .

وبالمثل تم تشييد احدى عشرة مستوطنة عى وجه العجلة في اواخر عام ١٩٤٦ في محاولة للتقدم بمطلب سياسي في تلك المنطقة العربية الخالصة . ولقد اوضح ايجال ألون قائد البالماخ بجلاء شديد هذا الامر فقال :

---

30. Ruedy, **op. cit.**, p. 130; see also Hurewitz, **op. cit.**, pp. 30—31, 139.

31. Sir John Hope Simpson, **Report on Immigration, Land Settlement and Development,** Parliamentary Papers, Command 3686—87, London 1930, p. 54, QUOTED BY Ruedy, **op. cit.**, p. 130.

32. Quoted in Lesch, **op. cit.**, p. 72; a detailed evaluation of the effect or Jewisn lanq purchases is provided by Yehoshua Porath, **The Palestinian Arab National Movement.., op. cit.**, pp. 80—90.

33. Avraham Granott, **Agrarian Reform and the Record of Israel** (Mystic, Conn.. 1986), pp. 32—35, quoted in Ruedy, **op. cit.**, p. 129.

34. **Flapan, op. cit.**, p. 250.

« ان تخطيط وتطوير المستوطنات الصهيونية الرائدة كانا . . . يتحددان الى حد ما على اساس الاحتياجات السياسية ـ الاستراتيجية . وعلى سبيل المثال كان اختيار موقع المستوطنات لا يخضع فحسب لاعتبارات امكانياتها الاقتصادية بل كان يخضع ايضا واساسا لاحتياجات الدفاع المحلي والاستراتيجية الشاملة للاستيطان (التي كانت تستهدف الى ضمان وجود سياسي يهودي في كل انحاء البلاد) والدور الذي يمكن ان تلعبه مجموعة المستوطنات في المستقبل ربما في الكفاح الحاسم الشامل . وعلى هذا جرى شراء الارض في انحاء نائية من البلاد وعميقا في المناطق الآهلة بالعرب ، واذا امكن بالقرب من الحدود السياسية للبلاد »(٣٥) .

وبجانب شراء الارض حصل رجال الاعمال البارزون اليهود على امتيازات احتكارية من الحكومة البريطانية مما اعطى الحركة الصهيونية دورا هاما في تطور الثروات الطبيعية لفلسطين . وفي عام ١٩٢١ حصلت الشركة الفلسطينية للكهرباء لصاحبها بنحاس روتنبرج على حق احتكار الكهرباء لكل فلسطين فيما عدا القدس . وحصل مويس نوفوميسكي على امتياز تطوير واستخراج المواد المعدنية من البحر الميت في عام ١٩٢٧ . وحصلت الشركة الفلسطينية لتنمية الارض على حق الصرف في مستنقعات شمال الجليل في عام ١٩٣٤ .

وفي كل مرة كان الامتياز يواجه بمنافسة من المطالبين الجادين الاخرين ، ونادى رجال السياسة العرب بضرو تتمسك الحكومة بالسيطرة بنفسها لكي تطور الثروات الطبيعية لصالح البلاد كلها(٣٦) .

وتضمنت مسألة عدم امكان نقل ملكية الارض وقصرها على اليهود في التعاقدات التي كان يوقعها الصندوق القومي اليهودي ان اليهود وحدهم الذين كان يمكنهم العمل في المستوطنات الزراعية اليهودية .

ويعد مفهوما العمل اليدوي و« العودة الى الارض » مفتاحين رئيسيين للمشروع الصهيوني « وسياسة » العمل العبري » (عقودات عيفريت) هذه فرضها الاتحاد العام للعمل اليهودي (هستدروت) الذي تأسس عام ١٩٢٠ تحت رئاسة ديفيد بن جوريون .

ولما كان بعض البناة وزراعي الموالح اليهود يرغبون في تأجير العرب شن الهستدروت حملة لاستبعاد العمال العرب في عام ١٩٣٣ . وقد جرى تجنيد العمال اليهود لحصد الموالح وقامت الوحدات المتحركة بطرد العمال العرب من مواقع البناء والمصانع : « ان جو التوتر والعداء الناجم عن اجلاء العمال العرب بالقوة في المدن والدعاية الحادة التي صاحبت هذه العملية ضخمت من مخاوف العرب الطبيعية من الغالبية اليهودية وحولت الامر الى حالة من الذعر والهلع »(٣٧) .

ولقد كتب زعيم عمالي عربي غاضبا في عام ١٩٣٧ : « ان الهدف الاساسي للهستدروت هو « غزو العمل » ولا يهم عدد العمال العرب المتعطلين ، وليس لهم حق الالتحاق بأي عمل قد يشغله مهاجر يُمكن ان يصل . وليس لعربي حق

---

35. Yigal Allon, **The Making of Israel's Army** (New York : Bantam Books, 1970), p. 7.

36. See Lesch, **op. cit.**, pp. 44, 45 and 57 on the three concessions.

37. Flapan, **op. cit.**, pp. 206—207.

العمل في المشروعات اليهودية »(٣٨) واخيرا ، ان انشاء نظام التعليم اليهودي الشامل باللغة العبرية كان عنصرا جوهريا في بناء الوطن القومي اليهودي . وساعد هذا على خلق روح قومية متماسكة ولغة مشتركة بين المهاجرين المختلفين . وعلى أية حال ، فصل ايضا الاطفال اليهود فصلا تاما عن الاطفال العرب الذين يذهبون الى المدارس الحكومية وزادت من الهوة اللغوية والثقافية بين الشعبين بالاضافة الى ذلك هناك تناقض حاد في مستوى محو الامية : ففي عام ١٩٣١ كان هناك ٩٣٪ من الذكور اليهود (فوق سن السابعة) يعرفون القراءة والكتابة كما كانت النسبة ٧١٪ بين المسيحيين الا انها كانت ٢٥٪ فقط بين الذكور المسلمين . ولقد زاد محو الامية العربية من ١٩٪ عام ١٩٣١ الى ٢٧٪ عام ١٩٤٠ ولم تتجاوز المسألة ٣٠٪ من الاطفال العرب يستطيعون الالتحاق بالمدارس الحكومية والخاصة(٣٩) .

والسياسيات العملية للحركة الصهيونية افضت الى خلق مجتمع يهودي مترابط عميق الجذور مع أواخر سنوات ١٩٤٠ ـ لقد كان للتجمع الصهيوني مؤسساته السياسية والتعليمية والاقتصادية والعسكرية الخاصة موازية للنظام الحكومي . وقللت من اتصالها بالمجتمع العربي واستبعدت العرب في بعض المجالات الرئيسية الهامة . وعلى سبيل المثال نجد ان السكان الحضر واليهود يفوقون بمراحل السكان الحضر العرب على الرغم من ان اليهود كانوا لا يشكلون سوى ثلث عدد السكان . والتحق بالمدارس عدد من الاطفال اليهود يفوقون عدد الاطفال العرب . وكانت الشركات اليهودية تستخدم من العمال سبعة اضعاف ما تستخدمه الشركات العربية . وهكذا نجد ان الثقل النسبي واستقلالية النسبية للتجمع الصهيوني اكبر مما تدل عليه الارقام الصماء . ولقد كان من السهل الانتقال الى بناء الدولة بسبب وجود المؤسسات الاساسية للدولة (قبل تأسيسها ووجود جمهور متعلم متحرك . غير ان الانفصال عن المستوطنين العرب تفاقم وتأكد بسبب هذه السياسات المستبدة المطلقة .

السياسات تجاه المجتمع العربي :

كانت وجهة النظر الرئيسية داخل الحركة الصهيونية هي انه يمكن حل المشكلة العربية عن طريق حل المشكلة اليهودية اولا(٤٠) اذ ان العرب سيواجهوا بالامر الواقع القائم الذي تفرضه الغالبية اليهودية مع مرور الزمن .

ان المستوطنات وشراء الاراضي والصناعات والقوات العسكرية قد تطورت تدريجيا وبشكل منظم منهجي حتى يصبح التجمع الصهيوني قويا لا يمكن اقتلاعه .

وفي خطاب بعث به وايزمان الى ابنه « شبه العرب في فلسطين بصخور الضفة الغربية التي تشكل عقبات يجب اقتلاعها من درب وعر »(٤١) . وعندما صعد العرب الاحتجاجات العنيفة في سنوات ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩

---

38. George Mansur (Secretary of the Arab Labor Federation in Jaffa), **The Arab Worker under the Palestine Mandate** (Jerusalem : Commercial Press, 1937), p. 28, quoted in Lesch, **op. cit.**, pp. 45—46.

39. Lesch, **op. cit.**, p. 56; Hurewitz, **op. cit.**, p. 36.

40. Caplan, **op. cit.**, p. 203.

41. Flapan, **op. cit.**, p. 56.

و١٩٣٦ - واواخر سنوات ١٩٤٠ سعى اعضاء التجمع الصهيوني الى قمعهم بالقوة بدل البحث عن تفاهم سياسي مع السكان الاصليين ، وكانت اية امتيازات تمنح للعرب من جانب الحكومة البريطانية فيما يخص الهجرة او بيع الاراضي او العمل كانت تلقى مقاومة شديدة من جانب الزعماء الصهاينة . وفي عام ١٩٣٦ قرر بن جوريون ان العرب لن يقبلوا بفكرة ارتس اسرائيل اليهودية الا بعد ان يصلوا الى « اليأس المطلق »(٤٢) .

وحتى قبول تقسيم الاراضي قد صدر كاجراء مؤقت : فحق المجتمع اليهودي على كل فلسطين قد لقي سندا ودعما على حساب العرب . وهكذا علق وايزمان عام ١٩٣٧ قائلا : « مع الزمن سوف تتوسع في البلاد كلها . . . وليس هذا سوى ترتيب مؤقت في المدة التالية التي تتراوح ما بين ١٥ سنة و٣٠ سنة(٤٣) . وقال بن جوريون عام ١٩٣٩ :

« بعد ان نصبح قوة كبيرة نتيجة انشاء الدولة سوف نلغي التقسيم ونتوسع في كل فلسطين »(٤٤) .

وقد اتبع الصهاينة في العشرينات طريقة لتقليل المعارضة العربية وهي تقديم العون المالي للاحزاب السياسية العربية والصحف والافراد .

وقد اتضح هذا بأقصى ما يكون في انشاء وتدعيم الجمعيات الاسلامية الوطنية (١٩٢١ - ١٩٢٣) والاحزاب الزراعية (١٩٢٤ - ١٩٢٦)(٤٥) .

وكان متوقعا من هذه الاحزاب ان تكون محايدة او ايجابية ازاء الحركة الصهيونية مقابل ان تتلقى اعانات مالية ومساعدة اعضائها في الحصول على وظائف وقروض . ان انشاء كل فرع (من الجمعية الاسلامية الوطنية) هو مسألة عملية للغاية تتطلب استثمارا اوليا وهبات شهرية منتظمة لتأجير المقار ودفع المرتبات للاعضاء والمنظمين المحليين . . . والتعاطف والولاء من جانب اولئك العرب الذين يلتحقون بها اصبحا يعتمدان اعتمادا دقيقا على تدفق هذه الاعانات(٤٦) .

وقد آزر هذه السياسة وايزمان الذي علق قائلا ان « المتطرفين والمعتدلين سواء خاضعين لتأثير المال والمكافآت »(٤٧) . ولكن ليونارد شتاين عضو مكتب لندن التابع للمنظمة الصهيونية ندد بهذه السياسة . فقد ذهب الى ان الصهاينة يجب ان يبحثوا عن « طريق دائم للتعايش » مع العرب بتأجيرهم في الشركات اليهودية وادخالهم في

---

42. **Ibid.**, p. 152.

43. **Ibid.**, p. 257.

44. **Ibid.**, p. 265.

45. Lesch, **op. cit.**, p. 51; Yehoshua Porath, **The Emergence of the Palestinian—Arab National Movement, 1918—1929** (London : Frank Cass, 1974), pp. 219—21, 229—230.

46. Caplan, **op. cit.**, p. 129.

47. Coment to the British High Commissioner, December 11, 1922, quoted in Lesch, **op. cit.**, p. 52.

الجامعات اليهودية ولقد ذهب الى ان الاحزاب السياسية التي « يكون العرب المعتدلون فيها مجرد جرامافونات عربية تعزف المقطوعات الصهيونية » سوف تنهار بمجرد توقف الدعم المال الصهيوني(٤٨) وعلى اية حال انهت المنظمة الصهيونية هذه السياسة مع عام ١٩٢٧ وذلك لأنها كانت وسط الازمة المالية ولأن معظم الزعماء شعروا بان هذه السياسة غير فعالة .

وذهب بعض الزعماء الصهاينة كمثل شتاين بان على الامة العربية ان تنخرط في الجهود العملية للحركة الصهيونية . وقد عبر حاييم كالفاريسكي ـ الذي دشن سياسة شراء التأييد في عام ١٩٢٣ ـ عبر بوضوح عن الهوة بين هذا المثال والواقع(٤٩) .

والزراعة والفهم المتبادل بين اليهود والعرب سوف يمكن تحققه في النهاية وعلى اية حال ليس هذا القول الا مجرد نظرية . ففي الممارسة لم نفعل ولا نفعل اي شيء من اجل اي عمل مشترك . كم موظف عربي عيناه في البنوك ؟ ولا واحد . كم عربي ادخلناه مدارسنا ؟ ولا واحد . اية بيوت تجارية انشأناها بالاشتراك مع العرب ؟ ولا واحد .

وبعد هذا بعامين عبر كالفاريسكي عن هدفه قائلا : نحن جميعا نعترف بأهمية الاقتراب من العرب ، ولكننا في الحقيقة نزداد بعدا مثل السهم المنطلق . ليست لدينا اية اتصالات . عالمان منفصلان يعيش كل منهما حياته ويحارب الواحد الاخر(٥٠) .

ولقد اكد بعض اعضاء التجمع الصهيوني الحاجة الى العلاقات السياسية مع العرب ـ الفلسطينيين اما لتحقيق تقسيم الاراضي بتفاوض سلمي (كما سعى ناحوم جولدمان) او دولة مزدوجة الجنسية (كما اقترحت جماعتي بريت شالوم وهاشومر هاتزعير) ولكن قلة ذهبت الى الحد الذي ذهب اليه الدكتور يهودال . ماجنس مستشار الجامعة العبرية الذي قال ان الصهيونية تعني ببساطة انشاء مركز ثقافي يهودي في فلسطين . وعلى اية حال ، لم يكن لدعاة انشاء دولة مزدوجة الجنسية الا تأثيراً واهناً على التيارات السياسية ولقوا معارضة شديدة من زعامة الحركة الصهيونية(٥١) .

وفي الحقيقة لم يشعر الزعماء قط انهم الحقوا الضرر بالعرب بالحيلولة بينهم وبين العمل في المستوطنات والصناعات اليهودية او حتى بتفويض كيانهم القائم على الاغلبية . فالمواطنون العرب كانوا يعدون جزءا صغيرا من الامة العربية الكبيرة ومن ثم فان احتياجاتهم الاقتصادية والسياسية يمكن تلبيتها في ذلك السياق الا وسع بدل تلبيتها في فلسطين .

---

48. Letter to the Zionist Organization's political officer in Palestine, June 12, 1923, quoted in **Ibid.**, p. 53.

49. Letter to the ZO's political officer in Palestine, July 2, 1923, quoted in **Ibid.**, pp. 52—53.

50. Quoted in Caplan, **op. cit.**, p. 198.

51. Details on binationalism can be found in Susan Lee Hattis, **The Bi—National Idea in Palestine During Mandatory Times** (Haifa : Shikmona Publishing Company, 1970) and Flapan, **op. cit.**, pp. 163—187.

يستطيع العرب ان ينتقلوا الى أي مكان اخر اذا بحثوا عن الارض ويمكن ان يندمجوا مع شرق الاردن اذا بحثوا عن الاستقلال السياسي .

وقد افضى هذا منطقيا الى مفهوم نقل السكان فقد اقترح وايزمان عام ١٩٣٠ ان مشكلات ثروات الارض غير الكافية في فلسطين وفقر الفلاحين يمكن حلها بنقل العرب الى شرق الاردن والعراق . وقال ان الوكالة اليهودية عليها ان تقدم قرضا بمليون جنيه استرليني للمساعدة في نقل الفلاحين العرب الى شرق الاردن(٥٢) . وبحثت المسألة باستفاضة في مناقشات الوكالة اليهودية عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ بشأن التقسيم . وفي البداية اقترحت الغالبية نقلا اختياريا للعرب من الدولة اليهودية لكنهم ادركوا فيها بعد ان العرب لن يوافقوا اطلاقا على ترك البلاد طوعا ومن ثم اصر الزعماء البارزون مثل بن جوريون على ان - النقل الاجباري ضروري(٥٣) . وقال احد المعلقين الاسرائيليين(٥٤) :

« . . . لقد لعبت فكرة النقل دورا اكبر في التفكير الصهيوني في فترة الانتداب عما يمكن الاقرار به عادة . . . وخطط النقل ظهرت مرارا في المداولات الصهيونية بخصوص المعارضة العربية في فلسطين . . . وقد رفض وايزمان والاخرون هذا الجدل القائل ان فكرة نقل السكان غير اخلاقية . فمثال نقل السكان بين اليونان وتركيا تحت اشراف عصبة الامم قد طرح كسابقة وليس من قبيل الصدفة ان مشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٣٧ قد تضمن فكرة نقل السكان »(٥٥) .

وكانت احدى نتائج القتال من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ انه تم نقل السكان على نطاق اكبر مما كان متصورا عام ١٩٣٧ . لقد تم حل المشكلة العربية عن طريق نقل معظم العرب . وكان هذا اقصى تعبير عن سياسة اللجوء الى القوة .

الفلسطينيون في المنفى :

لقد ادت حرب ١٩٤٨ الى تدمير الأمة الفلسطينية ، فقد هرب حوالي ٧٨٠ ألف عربي من بين ١,٣ مليون عربي (٦٠٪) من الاراضي الاسرائيلية . واكتظ قطاع غزة بحوالي ٢٨٠ الف عربي (ولم يكن السكان المحليون يتجاوزون ٨٠ ألف مواطن) وهرب ٣٥٠ ألف لاجيء الى الضفة الغربية للاردن التي كان بها من قبل ٤٥٠ ألف مواطن . وهرب ١٠٠ ألف على الاقل الى لبنان و٨٠ ألف الى سوريا والبقية تبعثرت في البلاد الاخرى .

وقد اختلف الموقف الذي واجهه الفلسطينيون اختلافا كبيرا في كل بلد . وكان لهذه التجارب المتباينة تأثير على طابع كل فريق من الفلسطينيين . وعلى اية حال ، هناك سمات مشتركة فأولا هناك الصفوة التقليدية التي فقدت مصداقيتها وشرعيتها ، فقد وجه لها اللوم على وقوع الكارثة بسبب عجزها . غير ان القيادة على مستوى القرية ظلت قائمة نسبيا خلال سنوات ١٩٥٠ حيث ان بناءي العشيرة والقرية انتقلا الى معسكرات اللاجئين .

---

52. Flapan, **op. cit.**, p. 69.

53. **Ibid.**, pp. 248—250, 260—261.

54. **Ibid.**, p. 82—83.

55. Bassem Sirhan, "Palestinian Refugee Camp Life in Lebanon," **Journal of Palestine Studies**, IV : 2 (1975), pp. 101—2.

ثانيا ، عانى اللاجئون من صدمات نفسية مماثلة . لقد شعروا بالضياع وفقدان الاتجاه ـ وحرمانهم من حقهم في طرق الحياة . وقد ادى وضعهم الذي لا يستند الى ارض الى تفاقم احساسهم بالاغتراب ونقص الاحترام الذاتي .

لقد انتظر الجيل الاقدم « العودة » بتضرع . اما جيل الشبان فقد نفذ صبره . ثالثا ، ان السلطات في البلاد المضيفة كانت شديدة الشك في اللاجئين وفرضت عليهم رقابة محكمة . وفي اسرائيل اتخذ هذا شكل الحكم العسكري طوال خمس عشرة سنة الامر الذي نظم حركة العرب باحكام وحد من مقدراتهم على الحصول على الاعمال التي يريدونها والتعليم وحال دون ممارستهم لحقوقهم السياسية . اما الفلسطينيون الذين يعيشون في سوريا فقد اتيحت لهم الاعمال والمدارس بجانب المواطنين السوريين واصبح كثير منهم ضباطا في الجيش وعلى العكس من هذا فان السلطات اللبنانية كانت تفرض القيود الشديدة فحرمت اللاجئين من حق الدراسة في المدارس العامة وجعلت من العسير عليهم الحصول على عمل دائم . ودخلت القوات اللبنانية خيام اللاجئين حسبما يتراءى لها لتحافظ على خضوع المستوطنين(٥٦) .

وفي قطاع غزة ، بعد التجربة القصيرة من حكومة كل فلسطين في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، احكمت الحكومة العسكرية المصرية قبضتها على الحكم المحلي والقضاء والتعليم . وحدت من دخول قطاع غزة والخروج منها عن طريق « تصاريح العمل » الحيوية بالنسبة للسكان الذين لا دولة لهم . ولم يحدث الا بعد ان استعادت مصر قطاع غزة بعد الاحتلال الاسرائيلي من اكتوبر ١٩٥٦ الى مارس ١٩٥٧ ان خففت الحكومة من القيود وتم تشكيل جمعية وطنية في تلك السنة . غير ان الانتخابات جرى التحكم فيها بعناية . بالاضافة الى هذا اصبحت غزة ميناء حرا مكنها من التوسع تجاريا وان ظلت فرص التوظف والعمل محدودة للغاية(٥٧) .

اما الموقف في الضفة الغربية فكان اكثرها طبيعية حيث ظلت معظم المدن والقرى على حالها ولم يستقر سوى ثلث اللاجئين في المجتمعات .

زيادة على ذلك فان اللاجئين والمستوطنين الاصليين حصلوا على المواطنة الاردنية بعد ضم الضفة الغربية الى الاردن عام ١٩٥٠ . وقد يسر لهم هذا الحصول على جوازات سفر مكنتهم من السفر الى الخارج بحثا عن العمل والدراسة . كما ان النظام الاردني شغل انظمته الادارية والتربوية النامية نموا سريعا بالفلسطينيين وشجعهم على تطوير المشروعات التجارية والصناعية . غير ان معظم هذه الاعمال اقيم على الضفة الشرقية لا الضفة الغربية . علاوة على ذلك لم يثق النظام اطلاقا بالفلسطينيين بقدر كاف ليضعهم في المناصب الوزارية الحساسة او تعيينهم في مناصب الضباط والطيارين القيادية . لقد كان الجنود البدو من شرق الاردن الذين يقومون بحراسة الضفة الغربية غرباء بالنسبة للفلسطينيين وفي

---

56. The situation of the Palestinians within Israel is detailed in Chapter 2.

57. Sirhan, **op. cit.**, pp. 95, 99—101; Rosemary Sayigh, "The Palestinian Identity among Camp Residents," **Journal of Palestine Studies**, VI : 3 (1977), pp. 9—10, 17.

مقابل هذا كانوا يردون بحدة على اية احتجاجات يثيرونها . ومع هذا ، لوحظت عملية « اضفاء الطابع الاردني » على الفلسطينيين في سنوات ١٩٦٠(٥٨) .

والفترة من ١٩٤٩ حين عقدت اتفاقيات الهدنة حتى عام ١٩٥٦ حين تم غزو سيناء كانت فترة اضطراب بسبب التسلل المتكرر من جانب الفلسطينيين والغارات عبر الحدود في اسرائيل ورد الهجمات القوية من جانب اسرائيل ضد القرى العربية في الضفة الغربية وقطاع غزة . كما ان اسرائيل تعدت على الحدود واحتلت المناطق المنزوعة السلاح على الحدود مع مصر وسوريا ، وانشأت حلقة تخريب وتجسس في القاهرة والاسكندرية في يوليو ١٩٥٤ لتخريب ـ العلاقات المصرية مع بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية .

وفي أوائل سنوات ١٩٥٠ استوعبت اسرائيل تدفقا هائلا من المهاجرين اليهود . وقد بلغ عدد السكان اليهود ٦٨٠ ألف عام ١٩٤٩ ازداد باكثر من الضعف الى مليون و٤٠٤ ألف و٤٠٠ مع عام ١٩٥٢ وكان صافي الهجرة ٦٦٦ ألف . ويكاد نصف هؤلاء المهاجرين يأتون من الشرق الاوسط وشمال افريقيا وخاصة اليمن والعراق والمغرب وتونس . لقد اكتظوا في المدن والقرى العربية المهجورة او معسكرات الترانسيت او المدن الجديدة على طول الحدود او في شمالي النقب وشيدت الحكومة الاسرائيلية حائطا دفاعيا يؤكد الرد المباشر على اي انتهاك عربي . وبالرغم من ان الجيش الاسرائيلي كان اقوى واكثر وافضل تسليحا من القوات العربية فقد شعر الجمهور الاسرائيلي بانهم محاصرون بدول معادية وايدوا اجراءات الردع ومنع اللاجئين الفلسطينيين من العودة الى ديارهم .

ومعظم محاولات التسلل الاول عبر الحدود جاء من جانب اللاجئين الذين حاولوا العودة الى الوطن او استرداد ممتلكاتهم من بيوتهم او قطف محاصيلهم وثمارهم . وبعد هذا انخرطت العصابات المنظمة في اعمال التخريب ضد المستوطنات الاسرائيلية . وقد تمركز الفيلق العربي الاردني اساسا في الاراضي المرتفعة ولم تكن لديه الا امكانية محدودة لمنع التسلل عبر خط الهدنة الجبلي الطويل . وحاولت الحكومة ان تسيطر على الحدود بمصادرة الاسلحة من القرويين ونقل اللاجئين بعيدا عن الحدود (فيما عدا طولكرم وقلقيلية) الى ـ أريحا في وادي الاردن(٥٩) وقد حاول الحرس القومي ، الذي تم تجنيده اعضاؤه من مستوطني قرى الحدود ، منع التسلل وحماية المستوطنين ضد الغارات الاسرائيلية غير ان رجاله كان ينقصهم التدريب ولم يكن لديهم وسائل النقل ولم يعطوا سوى بنادق قليلة .

وتتضح عدم فاعلية وجدوى هذا النظام من هجوم اسرائيل على قرية قبيا في ليلة ١٤/١٥ اكتوبر سنة ١٩٥٣ ردا على قتل امرأة وطفلين في مستوطنة ياهود . فقد قامت الوحدة رقم ١٠١ بقيادة ارسل شارون . بنسف ٤٢ منزلا وقتل اكثر من ستين مواطنا سقطوا في المصيدة ووحدة الحرس الوطني المكونة من ٤٠ رجلا في القرية كانت عاجزة تماما في حواجهة

---

58. Details on Palestinian politics in Jordan can be found in Nasser H. Aruri, **Jordan : A Study in Political Development (1921—1965)** (The Hague : Martinus Nijhoff, 1972); Shaul Mishal, **West Bank/east Bank : The Palestinians in Jordan, 1949—1967** (New Haven : Yale University Press, 1978); and Avi Plascov, **The Palestinian Refugees in Jordan, 1948—1957** (London : Frank Cass, 1981).

59. Plascov, **op. cit.**, pp. 72—77.

الاغتيال الاسرائيلي . وقد عارض موشى شاريت رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد حينذاك العملية (التي كان قد وافق عليها سلفه بن جوريون) وحذر مجلس الوزراء بعد ذلك قائلا : هذا العار سوف يوصمنا ولن تغسله السنون العديدة القادمة »(٦٠) ولقد كانت الغارة على قرية قبيا بالنسبة للاردن نقطة تحول : « لقد كانت هناك مظاهرات عنيفة ، وتم قذف السفارات الغربية بالحجارة وانتشرت صيحة الانتقام »(٦١) .

وقد علق احد المحللين الاسرائليين قائلا :

« ان ما يسمى باعمال الردع الاسرائيلية المتكررة والمعتادة هي أبعد من أن تحقق هدفها بالحيلولة دون وقوع مثل هذه الاعمال وبفرض احكام اشد من القانون والنظام على طول الحدود المشتركة من جانب الفيلق الاردني بل انها ادت الى نتيجة عكسية قد اضرت بالنظام الاردني الذي له مصلحة مباشرة في أن يسود الهدوء الحدود . زيادة على ذلك فان اعمال الردع هذه وخاصة ضد قرية قبيا يوم ١٤ اكتوبر ١٩٥٣ حيث قتل العديد من سكان القرية الذين بلا حول ولا قوة عرضت الحكومة الاردنية لمظاهرات واحتجاجات عنيفة ضد اي خطة لاعادة الاستيطان بالنسبة للاجئين »(٦٢) .

والموقف كان مشابها في قطاع غزة حيث كانت هناك حركة غير مشروعة مستمرة من جانب اللاجئين عبر اسرائيل الى الضفة الغربية وفي اغسطس ١٩٥٣ هاجمت الوحدة الاسرائيلية ١٠١ معسكر اللاجئين في بريج . وفي ذلك الخريف فرضت الادارة العسكرية المصرية عقوبات شديدة على التسلل واغلقت منافذ الطرق الى الحدود ، وقمعت بالقوة المتظاهرين الفلسطينيين الذين طالبوا بالاسلحة واحتجوا على الخطط المصرية الرامية الى نقل بعض اللاجئين الى العريش في سيناء . وفي يناير ١٩٥٥ فرضت الحكومة المصرية منع التجول من غروب الشمس الى الفجر في كل قطاع غزة شرق طريق غزة - رفح وامرت الجيش باطلاق النار على اي متسلل(٦٣) ومع هذا ، فبمجرد عودة بن جوريون الى مجلس الوزراء الاسرائيلي كوزير الدفاع صدق على هجوم عسكري كبير على قطاع غزة وتسببت هذه المذبحة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ في وفاة ٣٩ شخصا وتدمير الامال التي كانت قد انعقدت للوصول الى « تسوية موقتة » مع مصر وعلق موشى شاريت في مذكراته قائلا « ان السفير الامريكي كان يرى ان الخوف قد استولى على العالم العربي بسبب عودة بن جوريون . وقد فسر الهجوم على غزة بانه اشارة الى قرار من جانبنا للهجوم على كل الجهات ولقد خشي الأمريكيون ايضا ان يفضي هذا الى اندلاع القتال من جديد في الشرق الاوسط مما يطيح بكل خططهم . ولهذا يريدون ان يحصلوا منا على التزام محدد بأن مثل هذه الاعمال لن تتكرر »(٦٤) .

---

60. Sharett's diary, October 18, 1953, as quoted in Livia Rokach, **Israel's Sacred Terrorism** (Belmont, Mass. : Association of Arab—American University Graduntes, Information Paper No. 23, 1980), p. 16.

61. Plascov, **op. cit.**, p. 64.

62. **Ibid.**, p. 90.

63. Rokach, **op. cit.**, p. 58.

64. Diary, March 12, 1955, quoted in **Ibid.**, p. 43.

وفي اجتماع مجلس الوزراء يوم ٢٥ مارس اقترح بن جوريون ان تحتل اسرائيل قطاع غزة بعد اعلان ان اتفاقية الهدنة لم تعد صالحة وسيؤدي هذا بمعظم اللاجئين الى الهرب من القطاع الى سيناء او الاردن . ولقد انتقد موشى شاريت ما قاله بن جوريون انتقادا مرا في يومياته « فحتى لو هرب معظم اللاجئين فسيظل عندنا مائة الف منهم في قطاع غزة ومن السهل ان نتخيل الوسيلة التي سنلجأ اليها لكبح جماحهم واية موجات من الكراهية سنخلقها من جديد »(٦٥) . ومضى قائلا « ان مانجحنا في تحقيقه . . . في عام ١٩٤٨ لا يمكن ان يتكرر . . . واليوم يجب ان نتقبل حدودنا الموجودة ونحاول ان نخفف التوتر مع جيراننا لتمهيد الارض للسلاح وتدعيم علاقاتنا مع الدول الكبرى . . . وان احتلال قطاع غزة لن يحل اية مشكلة أمنية فاللاجئون سوف يستمرون في خلق المتاعب نفسها بل اكثر منها ، حيث ستشعل الكراهية من جديد . . . بالاعمال الوحشية التي سنرتكبها ضدهم فيعانون منها اثناء الاحتلال »(٦٦) .

ومع شهر مايو ١٩٥٥ اضطر الضغط العام الحكومة المصرية على ترك وحدات القيادة الفلسطينية تعمل من قطاع غزة وفي سبتمبر وقعت مصر صفقة الاسلحة التشيكية . وبعد هذا ـ بشهرين حل بن جوريون كرئيس للوزراء محل موسى شاريت ، وفي يونيو ١٩٥٦ فقد شاريت منصبه ايضا كوزير للخارجية . وفي ذلك الوقت ، كانت هناك خطط تحت الاعداد لاحتلال قطاع غزة وسيناء ، فقد أدى تأميم مصر لقناة السويس في يوليو الى حصول اسرائيل على تأييد فرنسا وبريطانيا لفكرة الهجوم المسلح ، حصلت على مؤازرة دولية لعمليتها . غير ان الولايات المتحدة الأمريكية حرمت الدول الثلاث من جني ثمار الحرب في اكتوبر ١٩٥٦ ، وكان على فرنسا وبريطانيا ان تخليا منطقة قناة السويس وعلى اسرائيل ان تنسحب من سيناء وقطاع غزة ، ووضعت قوة طوارىء من الأمم المتحدة على الجانب المصري من الحدود لفرض الهدنة .

وظلت الحدود هادئة نسبيا حتى منتصف سنوات ١٩٦٠ . وفي عام ١٩٦٤ تسبب بناء اسرائيل لحاملة مياه لرفع الماء من نهر الاردن لاستخدام المياه في صحراء النقب في اطلاق صيحة الغضب في العالم العربي .

وكان الغرض من حاملة المياه الا ترفع الماء من قطاع النهر الواقع تحت سيطرة الاردن وحسب ، بل كانت ستمكن اسرائيل ايضا من تدعيم سيطرتها على النقب بتوسيع مستوطناتها هناك . واعلنت الجامعة العربية خططا مضادة لتحويل منابع مياه نهر الاردن وبعضها تحت سيطرة سوريا في جبل الشيخ ومرتفعات الجولان .

وفي الوقت نفسه ، انزاح الوهم عن كثير من الفلسطينيين بالنسبة للانظمة العربية التي وعدت بتحرير فلسطين ، لكنها فشلت في اتخاذ خطوات فعالة ضد اسرائيل زيادة على ذلك ، فان الأمل الخاص بالوحـدة العربيـة ومؤازرتها لقضيتهم قد تحطم عندما انحلت الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٦١ بعد مرور ثلاث سنوات فحسب ، واصبحت مصر مشتبكة في الحرب الاهلية في اليمن الشمالية . ومقابل هذا فان الجزائريين نالوا استقلالهم عام ١٩٦٢ بعد تمرد طويل وهذا أوحى الى الفلسطينيين بانهم يجب ان يأخذوا بزمام المبادرة بانفسهم . وفي الواقع تشكلت خلايا الفدائيين

---

65. Diary, March 27, 1955, **Ibid.**, p. 48.

66. Diary, March 29, 1955, **Ibid.**

السرية في اوائل سنوات ١٩٦٠ ، وقامت منظمة فتح التي أسسها المهنيون الشباب من غزة والذين كانوا يعملون في الكويت باول هجوم في اسرائيل في يناير ١٩٦٥ وقاموا بضرب حاملة المياه الوطنية(٦٧) .

ولقد اراد الفدائيون جر العالم العربي الى العمل ، غير ان الانظمة حاولت ان تسرب السخط الفلسطيني الى قنوات ذات شكل أقل حدة وصلابة بانشاء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وقد حضر المؤتمر التأسيسي الذي عقد في القدس ٤٢٢ عضوا من جميع البلاد (فيما عدا اسرائيل) حيث يقوم الفلسطينيون . وقد اشترك فيه العمد الفلسطينيون في الضفة الغربية والممثلون الفلسطينيون في البرلمان الاردني .

وكذلك فعل اعضاء منظمة فتح . ولقد كانت هذه المرة الأولى منذ اواخر سنوات ١٩٣٠ ان تتمكن الصفوة الفلسطينية من الاجتماع ووضع برنامج مشترك تفصيلي . وكانت هذه خطوة حاسمة في عملية اعادة انشاء الهوية السياسية الفلسطينية وتحديد اهدافها .

واتخذت منظمة التحرير الفلسطينية لها ميثاقا لا تهادن فيه مع الاسرائيليين ، وارادت اعادة كتابة التاريخ وسعت الى العودة الى الحالة التي كانت قائمة قبل عام ١٩٤٨ .

وزادت غارات فتح في ١٩٦٥ ـ ٦٦ فعبرت عصابات صغيرة من سوريا عبر الاردن للضرب داخل اسرائيل . وبدل ان ترد اسرائيل ضد سوريا ضربت القرى الاردنية . وجاء أعنف هجوم في ١٣ نوفمبر ٦٦(٦٨) عندما دخلت الوحدات الحربية الاسرائيلية السموع في الحافة الجنوبية للضفة الغربية وقتل الجنود ١٨ شخصا وجرحوا ١٣٠ آخرين وهدموا ١٢٥ منزلا بما في ذلك المدارس والمستشفيات والمساجد . فقامت المظاهرات الحادة في الاردن ضد نقص الحماية الكافية من جانب الحكومة وطالبت بان تتوفر للفلسطينيين الاسلحة لحماية انفسهم . وفي محاولة للملك حسين لصرف الانظار عنه انتقد سوريا ومصر لعدم قيامها بمسئوليتها في الكفاح ضد اسرائيل . واتهم مصر بصفة خاصة بالتخفي وراء قوة حفظ السلام التابعة للامم المتحدة . واعقبت غارات اسرائيل الجوية في أواخر نوفمبر ضد المشروع السوري لتحويل المياه غارات بالمدفعية والطيران في ربيع عام ١٩٦٧ وهي علامة على التصعيد السريع في المواجهة ، وفي يونيو اتخذت مصر خطوات رأت فيها اسرائيل تبريرا للحرب :(٦٩) .

فكان هناك تمركز للقوات في سيناء وسحب قوة حفظ السلام التابعة للامم المتحدة واغلاق مضايق تيران على خليج العقبة (وهو المنفذ الوحيد لميناء ايلات) والانضمام مع سوريا والاردن في وحدة عسكرية .

---

67. On the founding and initial years of Fatah, see Abu Iyad with Eric Rouleau, **My Home, My Land : A Narrative of the Palestinian Struggle** (New York : Times Books, 1981), pp. 27—29, 34—37, 41—44.

68. Shlomo Aronson, **Conflict and Bargaining in the Middle East : An Israeli Perspective** (Baltimore : The Johns Hopkins Press, 1978), p. 59.

69. **Ibid.**, p. 57.

ودفعت هذه التحديات اسرائيل الى شن الهجوم الشامل . وكان لحرب يونيو اثر بعد نقطة تحول : فقد تم احتلال مرتفعات الجولان وسيناء وقطاع غزة والضفة الغربية في حرب دامت ستة ايام . وسقطت كل الاراضي الفلسطينية تحت السيطرة الاسرائيلية واصبح نصف الشعب الفلسطيني تحت حكم اسرائيل . وفقدت الثقة في القوات المسلحة العربية وسيطر الفدائيون على منظمة التحرير الفلسطينية .

●●●

الخاتمة :

لقد تغيرت أرض فلسطين وشعبها في غمار خمسين سنة من اعلان وعد بلفور في ١٩١٧ الى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة . وفكرة الاغلبية اليهودية والدولة اليهودية التي كانت حلما خياليا في ١٩١٧ أصبحت حقيقة بعد ثلاثة عقود من السنين ، وبعد عشرين سنة سيطرت اسرائيل على الاجزاء الباقية من فلسطين ومدت ذراعها الى أجزاء من مصر وسوريا ـ في بحث مستحيل عن الأمن . ولقد فشل زعماء إسرائيل في ادراك ان الأمن لا يمكن ان يتحقق بالوسائل العسكرية وحدها بل يتطلب جهدا خطيرا للتوفيق مع أمال الفلسطينيين والعالم العربي والتأكيد على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة حول اسرائيل الى دولة عسكرية . وقد وضعت حرب ١٩٦٧ اسرائيل وجها لوجه مع المجتمع الفلسطيني وفتحت الطريق امام امكانية حدوث تغيير جذري في ادراك اسرائيل للأمور وفي سياستها . ولكن مع هذا فشلت اسرائيل تماما في ان تستيقظ لتصل الى مستوى ذلك التحدي وانتصر داخلها التيار الذي يدعو الى ضم الاراضي العربية .

❊ ❊ ❊

العرب والصهيونية
البعد الاقتصادى للمواجهة *

جوده عبدالخالق

١ ـ مقدمة :

تسعى الدراسة الحالية الى توضيح نقطة أساسية وهى ان اسرائيل ، كتجسيد للفكرة الصهيونية ، ستسعى بشكل مطرد الى التوسع على حساب الدول العربية المجاورة لها . وهذا صحيح رغم توقيع اتفاق كامب ديفيد واتفاقية السلام مع مصر . فهذه الاجراءات ، من المنظور الاسرائيلي ، لا تعبر عن التزام فعلى بالسلام ، ولكنها وسيلة تكتيكية لتأمين الدولة الصهيونية من الجنوب والغرب حتى تتم المرحلة الراهنة للتوسع نحو الشمال والشرق . وفى هذا الخصوص لا يجب ان تفوتنا دلالة الغزو الاسرائيلى للبنان .

مواجهة الكيان الصهيونى اذن أمر مقدر على العرب ـ شاء منهم من شاء أو أبى من أبى . وعلى ذلك يصبح من الضرورى ان يتهيأوا للمواجهة ، وان يعدوا للأمر عدته ، وألا تخدعهم دعاوى اسرائيل ، أو غيرها ، بضرورة السلام . وعليهم ان يدركوا جيدا أنه اذا سعت اسرائيل للسلام ، فهى انما تريد سلاما بشروطها هى ، اى سلاما فى اطار الهيمنة الاسرائيلية على دول منطقة الشرق الاوسط ومقدراتها .

وعلى هذا فان اسرائيل تلعب دور الشريك الصغير للامبريالية العالمية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ، باعتبارها صاحب اكبر قدر من المصالح الحيوية فى المنطقة (١) وأول مقتضيات التهيؤ المطلوب هو الوعى بالابعاد المختلفة للمواجهة المحتومة .

---

* هذا البحث كتب خصيصا للنشر فى مجلة عالم الفكر

(١) انظر مثلا

George Lenczowski (ed.), United States Interests in the Middle East (Washington, D.C.: American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1973).

ذلك أن هذه المواجهة ، فى التحليل النهائى ، هى مواجهة بين مشروعين : مشروع عنصرى ـ استعمارى هو المشروع الصهيونى ، ومشروع حركة القومية العربية باعتبارها حركة تحرر وطنى ـ اجتماعى . ومن ثم فهى ليست مواجهة مسطحة أو وحيدة البعد ، انما هى متعددة الابعاد : فلها بعدها الاقتصادى والسياسى والعسكرى والاجتماعى والثقافى والعلمى والاعلامى . . الخ . وهذه الابعاد تتداخل وتتفاعل مع بعضها البعض ، بحيث أن أفضل السبل لتناولها هو المنهج الشامل الذي يدرس ظاهرة المواجهة ككل . وهذا بطبيعة الحال يتخطى امكانيات أى باحث فرد او حتى مجموعة قليلة من الباحثين . ومع التسليم بهذا ، فاننا نختار التركيز فى هذه الدراسة على البعد الاقتصادى للمواجهة ، أو بتعبير اكثر دلالة نركز على المواجهة فى بعدها الاقتصادى .

وسوف تنقسم دراستنا الى الاقسام التالية : أولا ، نعرج على الفكرة الصهيونية موضحين الأساس الاقتصادى لها ، ومبينين أن ما عرف باسم « المسألة اليهودية » هو فى الدرجة الأولى نتاج تطور الوضع الاقتصادى فى أوروبا عند تحولها من الاقطاع الى الرأسمالية . يلى ذلك عرض لأهم خصائص الاقتصاد الاسرائيلى . وفى قسم تال نتناول بالتفصيل جوانب البعد الاقتصادى للمواجهة بمقارنة الحجم الاقتصادى للجانب العربي والجانب الاسرائيلي ، ومناقشة امتدادات الكيان الصهيونى خارج حدود فلسطين ، وبالذات فى الدول المتقدمة فى اوربا وشمال امريكا ، ونختتم الدراسة بتناول مضمون ماورد فى الاقسام السابقة بالنسبة لاحتمالات المواجهة بين العرب واسرائيل .

٢ ـ الصهيونية نتاج التطور الرأسمالى :

من المعروف ان اليهود ، منذ أن خرجوا نهائيا من فلسطين فى القرن الثانى للميلاد عاشوا فى مجتمعات مختلفة ، وتشبعوا بالبيئة الاجتماعية والتراث الحضارى لهذه المجتمعات . صحيح أنهم قد حافظوا على درجة من الترابط تصل أحيانا الى حد التقوقع . لكن يجب أن يفهم هذا الوضع فى اطار كونهم اقلية فى المجتمعات التى انتقلوا اليها . ومع ذلك ، فقد تحدثوا لغة هذه المجتمعات ، واكتسبوا عاداتها ، ومارسوا العديد من المهن والنشاطات (٢) . ومن المهم بصفة خاصة أن نشير هنا الى اندماج اليهود فى المجتمع الاسلامى ـ العربي الى الحد الذى تقلدوا فيه أرفع المناصب الرسمية والعلمية .

ومنذ غادر اليهود فلسطين بعد انهيار مملكة سليمان وحتى القرن التاسع عشر ، لم ترتفع الدعوة بين اليهود للهجرة الى فلسطين . لقد ظهرت هذه الدعوة فقط مع ظهور « المسألة اليهودية » خلال القرن التاسع عشر ، ووجدت الصياغة النظرية لها فى الصهيونية ، فمع التطور الاقتصادى السريع فى روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ ، بدأ النظام الاقطاعى يتداعى بسرعة مفسحا الطريق للرأسمالية الناشئة . ومع تحلل النظام الاقطاعى فقد اليهود الروس قاعدتهم الاقتصادية (وكان معظمهم يعملون بالتجارة والحرف الحضرية) ، وفشلوا فى الاندماج فى المجتمع الروسى . من هنا بدأ زحفهم باعداد كبيرة ، وبالذات بعد أحداث ١٨٨٢ فى روسيا ، الى دول وسط وغرب اوربا ، وازاء هذا الطوفان من اليهود

---

(٢) وان ظلت أنشطة التجارة والربا هي الأنشطة المفضلة لدى اليهود ، الى الحد الذي خلده شكسبير في مسرحية تاجر البندقية

الفقراء القادمين من روسيا استشعر اليهود الأحسن حالا فى دول غرب اوربا ، والذين نجحوا فى الاندماج فى مجتمعات هذه الدول ، استشعروا الخطر من هذا التدفق البشرى الكبير . لذلك تحمس كبار الاغنياء اليهود ، أمثال البارون روتشيلد فى باريس لهجرة اليهود الى فلسطين وتقديم الدعم المادى اللازم . وروتشيلد حينما يفعل ذلك فهو لا يصدر عن موقف شخصي بقدر ما يعبر عن مصالح طبقية . تلك المصالح التى عبر عنها هرتسل فى الايديولوجية الصهيونية . او كما يقول الفكر اليهودى الماركسى ابرام ليون :

« وفى الحقيقة ، فان الايديولوجية الصهيونية ، ككل الايديولوجيات ، ما هى الا التعبير المشوش لمصالح طبقة . انها ايديولوجية البرجوازية الصغيرة اليهودية ، المخنوقة بين تصدع الاقطاع وتحلل الرأسمالية » . (٣)

فتطور الاوضاع الاقتصادية فى أوربا ، وبالذات التحول من النظام الاقطاعى الى النظام الرأسمالى ، وعدم قدرة اليهود فى شرق أوربا على الاندماج والتكيف مع هذه التغيرات السريعة ، وخوف يهود وسط وغرب اوربا الذين نجحوا فى الاندماج من هجرة الفقراء من بنى دينهم ، كل هذا هو الذى خلق الايديولوجية الصهيونية .

لكن هذا التطور قد ادى ايضا ، خصوصا بعد خروج الرأسمالية من عقالها وسعيها لتأمين مصادر المواد الخام والطاقة والاسواق ، الى خلق مصالح حيوية للرأسمالية العالمية وللامبريالية فى منطقة الشرق الاوسط بحكم موقعها الجغرافى ، وامكانياتها الاقتصادية والجيوبولينكية . من هنا وجد تزاوج سعيد بين الصهيونية كحركة استيطانية ـ استعمارية وبين الامبريالية العالمية . هذا التزاوج كان ، وسيظل الأساس لارتباط عضوى بين اسرائيل والقوى الامبريالية الكبرى فى العالم . فى ضوء هذا التحليل نستطيع فقط ان نفهم علاقة الحركة الصهيونية العالمية ببريطانيا ، باعتبار الاخيرة هى القوة الامبريالية العظمى فى القرن التاسع عشر . ونستطيع كذلك ان نفهم علاقة اسرائيل بالولايات المتحدة الامريكية منذ انشاء الدولة الصهيونية ، فالولايات المتحدة ، زعيمة التحالف الامبريالى الغربى ، هى اقوى دولة امبريالية من ناحية ، وهى الدولة ذات المصالح الأكبر فى منطقة الشرق الاوسط من ناحية أخرى .

وكما يعرف القارىء بلا شك ، قد لا يكون هذا الكلام جديدا . وهذا صحيح ولكننا نورده هنا كأساس لتحليلنا . لأنه يمدنا بالمنظور الموضوعى ـ التاريخي ، الذى سيرتكز عليه هذا التحليل فى الأجزاء التالية ، والذى سنبنى عليه استنتاجاتنا الرئيسية . من هذا المنظور نوجز مقولتنا فى العبارة التالية : ان الصهيونية حركة سياسية ، ذات اصل اقتصادى ، ولها ايضا مضمونات اقتصادية . وبناء على هذه المقولة نرتب النتائج التالية :

أولا : ان ما بين العرب واسرائيل هو صراع من اجل الوجود ذاته . وهو ليس كما يسميه البعض نتيجة « حواجز نفسية » ، باسقاطها يسقط الصراع بين الطرفين . نقول ان الصراع هنا يدور بين العرب واسرائيل وليس بين العرب واليهود . فالعروبة تعبير ثقافى ـ حضارى ـ عرقى واليهودية تعبير دينى . والعرب يضمون اليهود وغيرهم ، واليهود منهم

---

(٣) انظر مقاله الهام ،

"Zionism: A Marxist Analysis" in Ibrahim Al—Abid (ed.), selected Essays on the Palestine Question (Beirut: PLO Research Center, 1969)

والاقتباس الوارد فى المتن من الصفحات ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

العرب ومنهم غير العرب . انما يقوم الصراع بين العرب بمشروعهم القومى الممثل فى القومية العربية ، وبين اسرائيل كتجسيد للمشروع الصهيونى ـ باعتبار الصهيونية ايدلوجية عنصرية استبعادية (**Exclusionist**) . وفى النهاية اما ان تنتصر حركة القومية العربية ، واما ان تكون السيادة للحركة الصهيونية ممثلة فى اسرائيل . وليس هناك بديل ثالث .

ثانيا : ان الامبريالية العالمية ، وبالذات الولايات المتحدة الامريكية باعتبارها طليعة هذه الامبريالية ، تقف على نفس الخط الذى تقف عليه اسرائيل والصهيونية . وهى تفعل ذلك لا بتأثير الدعاية الصهيونية واللوبى الصهيونى ، وانما تفعله انطلاقا من مصالحها الحيوية فى منطقة الشرق الاوسط . ان الولايات المتحدة حينما تنحاز لاسرائيل لا تفعل ذلك بسبب الضغط الصهيونى ، وانما حماية لما تعرفه على أنه مصالحها الحيوية . ومن هنا فان الصراع العربى ضد اسرائيل لا ينفصل عن الصراع العربى ضد الامبريالية ، وفى الطليعة منها الامبريالية الامريكية (٤) هذا التشخيص للواقع يسقط العديد من التصورات الخاطئة او الساذجة . فهو يسقط التصور القائل بان الولايات المتحدة شريك فى عملية السلام » ، فالاخيرة تقف على الجانب الآخر من الخط الفاصل . وهو يسقط التصور القائل بان الولايات المتحدة تملك ٩٩٪ من اوراق لعبة الشرق الاوسط ، انه من ناحية تسليم العاجزين ـ لانه يمثل قعودا عن الفعل والاكتفاء باستجداء الآخرين ، وهو من ناحية اخرى فهم البسطاء ـ لان الولايات المتحدة لن تستخدم ما بيديها من اوراق لكى تحقق للعرب آمالهم المشروعة والتى تتناقض جذريا مع مصالحها فى الهيمنة .

ثالثا : انه قد آن الاوان لمواجهة بعض المصطلحات المتداولة فى الساحة الفكرية والسياسية . وفى مقدمة هذه المصطلحات مصطلح « التطبيع » فلقد انتشر هذا المصطلح وروج له بعد توقيع مصر لاتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع اسرائيل . بل ان هذه الوثائق تجعل « التطبيع » ركنا اساسيا من اركانها . فهذا المصطلح يعنى الانتقال بالعلاقات بين الطرفين من حالتها غير الطبيعية الى الحالة « الطبيعية » ، وتحديدا ، فان هذا يعنى ان يفتح العرب قنوات الاتصال والتفاعل بينهم وبين اسرائيل فى المجالات المختلفة : سياسية واقتصادية وثقافية . . الخ . بعبارة اخرى فان شعار « التطبيع » يطرح الآن كبديل لشعار « المقاطعة » الذي رفعه العرب منذ اعلان قيام دولة اسرائيل وحتى الآن . وهذا يثير السؤال حول ما هو طبيعى وما هو غير طبيعى . وفى ضوء المقولة السابق تحديدها ، والخاصة برؤيتنا للصهيونية ، فان المقاطعة ، لا التطبيع ، هى الوضع الطبيعى ، اذ لا علاقات مع طرف ينكر امانينا القومية ويحتقر تراثنا القومى ويسعى لبسط هيمنته استنادا الى القوة العسكرية التى توفرها له الامبريالية .

---

(٤) يتبنى المفكرون اليهود غير الصهاينة نظرة مشابهة ، وان لم تكن مطابقة ، لنظرتنا هذه . فالمفكر الفرنسي مكسيم رودنسون يعلن في بحث له رفضه لما يقال من ان الصراع بين العرب واسرائيل هو صراع بين التخلف والتقدم ، او بين الدكتاتورية والديمقراطية ، او بين المجتمعات العربية الرجعية الفاشية والاشتراكية الاسرائيلية . وهو يرى أن الأقرب الى الصحة هو أنه صراع بين الاشتراكية العربية والامبريالية الاسرائيلية ، ويؤكد أنه صراع ضد السيطرة الاجنبية المرفوضة . انظر في نفس المرجع السابق دراسته بعنوان :
"Wrong Concepts on the Arab Israeli Conflict".

وانظر ايضا
موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية ، تأليف واشراف الدكتور عبدالوهاب المسيري (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٥)

٣ خصائص الاقتصاد الاسرائيلي :

حتى نستطيع الالمام بالبعد الاقتصادي للمواجهة بين العرب والمشروع الصهيوني في فلسطين ، علينا أولا أن نلقي نظرة فاحصة على السمات الأساسية المميزة للاقتصاد الاسرائيلي . هذه السمات نلخصها فيما يلي (٥) :

(أ) الاقتصاد الاسرائيلي اقتصاد صغير الحجم . والمعيار الذي نطبقه هنا هو عدد السكان . وقد بلغ عدد سكان اسرائيل ٣٫٨ مليون نسمة طبقا لبيانات ١٩٧٩ (منتصف العام) . وتشير أحدث الأرقام المتاحة الى أن هذا العدد وصل الى ٣٫٩ مليون نسمة بنهاية ١٩٨٠ . وطبقا للبيانات الدولية المقارنة (بيانات البنك الدولي للانشاء والتعمير) ، فان اسرائيل تنتمي الى مجموعة الدول ذات الدخل المتوسط ، والتي بلغ عددها ٦٠ دولة عام ١٩٧٩ . ومن بين هذه الدول جميعا لا نجد سوى ١٧ دولة فقط يقل عدد السكان فيها عن ٣٫٨ مليون نسمة ، والأغلبية الساحقة أكبر من هذا الحجم . هذه الحقيقة لها مدلولات هامة ، اقتصادية وعسكرية . فمن الناحية الاقتصادية ، فان هذا الحجم لا يشكل قاعدة يكفى اتساعها لاستيعاب ناتج الكثير من المشروعات الانتاجية عند حجمها الأمثل . وهذا يعني بالضرورة وكقاعدة عامة ، ان الانتاج في مثل هذا المجتمع « ليس اقتصاديا » بالتعبير الفني ، وهو ما يقتضي تخصص مبالغ كبيرة لدعم المشروعات واعانتها . وهذا بالفعل واقع الحال في اسرائيل حيث ينتشر الدعم للمشروعات في مجالات عدة في الصناعة وغيرها . فعلى سبيل المثال بلغت الاعانات للمشروعات الصناعية أكثر من ٤٠٪ من قيمة الناتج في قطاع الصناعة . (٦) بالاضافة الى ذلك ، يصبح البحث عن « مجال حيوي » خارج حدود الدولة ، لكي يؤمن لها السوق والعمق الاقتصادي اللازم ، مسألة حياة أو موت في المدى الطويل . وسوف نتتبع دلالات هذه النقطة بالنسبة لحالة اسرائيل بتفصيل أكثر فيما بعد . أما من الناحية العسكرية ، فان صغر حجم السكان يحتم بالضرورة بناء استراتيجية عسكرية تقوم على اساس حسم المواجهات العسكرية بسرعة خاطفة . والفرق بين الأداء العسكري الاسرائيلي في حربي ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ خير دليل على ذلك .

(ب) الاقتصاد الاسرائيلي فقير في الموارد : فمساحة اسرائيل حوالي ٢٠ ـ ٢١ الف كيلو متر مربع ، نصفها تقريبا يقع في المنطقة القاحلة في صحراء النقب . هذا يجعل الموارد الزراعية في اسرائيل بالغة المحدودية ، ويخلع على المياه مركزا متميزا في التخطيط الاستراتيجي الاسرائيلي (٧) ، فبدونها لا يمكن مد خط الاستيطان كثيرا خارج المعمور في وسط وشمال فلسطين المحتلة . وطبقا للبيانات الدولية المقارنة (بيانات البنك الدولي المشار اليها آنفا) لا توجد من بين

---

(٥) تظهر دراسة هذه الخصائص بصورة أكثر تفصيلا في بحث المؤلف « دور الموارد الخارجية في دعم اقتصاد اسرائيل » دراسة غير منشورة (١٩٨٢) .

(٦) في عام ١٩٨٠ بلغت مخصصات الاعانات للصناعة ٩١٢١ مليون شيكل اسرائيلي ، وبلغ نتاجالصناعة في نفس العام ٢١٢١٧ مليون شيكل . وبذلك تبلغ نسبة الاعانات للصناعة ٤٣٪ من قيمة الناتج . كما تبلغ نسبة الاعانات ٩٪ من الدخل القومي لنفس السنة ، والذي بلغ ٩٩٥٢٩ مليون شيكل .

(٧) كان لهذا الاعتبار دور حاسم في سياسة الادارة العسكرية الاسرائيلية تجاه الزراع العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة . حول ممارسات اسرائيل في هذا المجال راجع الفصل الرابع من كتاب عاطف قبصي ، الآثار الاقتصادية لاتفاق كامب ديفيد (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٢) . ولا يجب أن ننسى ان اسرائيل قامت من قبل بتغيير مياه نهر الاردن رغم اعتراض الدول العربية وما يسمى « المجتمع الدولي » كذلك فان في مخططات اسرائيل تغيير مياه نهر الليطاني في جنوب لبنان . بل وأكثر من هذا لم تخف اسرائيل اهتمامها بمياه نهر النيل .

مجموعة الدول متوسطة الدخل (التي تنتمي اليها اسرائيل) إلا ثلاث دول فقط تقل مساحتها عن ٢١ ألف كيلو متر مربع . ولضيق الرقعة هذا انعكاسه على تنوع الموارد ، فقد جعل المتاح لاسرائيل من الموارد الطبيعية محدودا للغاية (٨) . وتدفع خاصية ضيق الرقعة وفقر الموارد الاقتصاد الاسرائيلي للبحث عن « بدائل خارج الحدود » . ومن هنا تكون النزعة التوسعية أحد النتائج الموضوعية لخصائص الاقتصاد الاسرائيلي كاقتصاد صغير الحجم فقير الموارد » .

(جـ) الاقتصاد الاسرائيلي استيطاني ـ استزراعي ، فهو يقوم على استيراد البشر والأموال (أو العمل ورأس المال في التعبير الاقتصادي) من الخارج . فبالنسبة لاستيراد البشر ، يكفي أن نعلم انه عند إعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ كان سكانها أقل من مليون . وغداة إعلان تحويل الكيان الصهيوني الى دولة ، تم اصدار ما يعرف بـ « قانون العودة » عام ١٩٥٠ . وبمقتضى هذا القانون تقرر حق الهجرة لليهود اينما كانوا الى اسرائيل ، طبقا لشروط معينة (٩) . وبسبب الظروف التي واكبت إعلان قيام دولة اسرائيل ، وبالذات تناقل الأخبار عن جرائم النازي ضد اليهود ، تدفقت اعداد كبيرة جدا من اليهود الى فلسطين . والجدول (١) يعطي صورة تجميعية وتقريبية عن تطور اليهود في اسرائيل ونسبتهم الى اجمالي سكان فلسطين اسرائيل ، واجمالي عدد اليهود في العالم .

ويكشف هذا الجدول عن عدد من الحقائق ذات الدلالة بالنسبة لاسرائيل

جـــدول (١)

اليهود في فلسطين لاسرائيل والعالم ١٩٤٨ ـ ١٩٨٠

	سكان فلسطين/ اسرائيل (بالالف)		يهود العالم (بالالف)	يهود فلسطين اسرائيل الى يهود العالم (٪)	يهود فلسطين اسرائيل الى الاجمالي (٪)
	الاجمالي	يهود			
	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
١٩٤٨	٨٦٧ر٠	٦٤٩ر٦	١١٣٠٠ر٠	٥ر٧	٧٤ر٩
١٩٥٦	١٨٧٢ر٤	١٦٦٧ر٤	١١٩٤٠ر٠	١٤ر٠	٨٩ر١
١٩٦٦	٢٦٥٧ر٤	٢٣٤٤ر٩	١٣٥٣٨ر٠	١٧ر٣	٩٢ر٤
١٩٧٠	٣٠٠١ر٤	٢٦٧١ر٢	١٤٢٤٠ر٠	١٨ر٨	٨٩ر٠
١٩٨٠	٣٩٠٠ر٠	٣٢٦٤ر٣	١٦٣٢٠ر٠	٢٠ر٠	٨٣ر٧

(٨) فأهم هذه الموارد هو البوتاس . ويوجد الحديد ولكن بكميات قليلة ونوعية منخفضة . وقد انعكس ذلك على الصناعة في اسرائيل ، فأصبحت صناعة صقل الماس اهم صناعات التصدير . ومعروف ان اسرائيل لا تنتج الخام اللازم بل تستورده .

(٩) تستثني هذه الشروط من ارتكبوا أفعالا ضد ما يسمى الشعب اليهودي واولئك الذين يمثلون خطرا على الصحة العامة او على أمن الدولة . وبقي نظام الحصص كوسيلة للتحكم في هجرة اليهود لاغراض سياسية .

Galina Nikitina, The State of Israel (Moscow : Progress Pub., 1973), P.186.

المصادر :

العمود (١) ١٩٤٨ - ١٩٧٠ M. Michaely, **Foreign Trade Regimes and econ. Development : Israel** (New York : NBER, 1975, Table Al.

١٩٨٠ **EIU, QER Israel 1982 Supplement**

العمود (٢) ١٩٤٨ - ١٩٦٦ ، نيكيتينا ، جدول (٢) ص ١٨٨

١٩٧٠ ، بالاسقاط بين ١٩٦٦ و ١٩٨٠

١٩٨٠ مبنية على اساس نسبة السكان اليهود الى اجمالي سكان اسرائيل ٨٣٫٧٪ كما هو وارد في **EIU, QER**

العمود (٣) ١٩٤٨ - ١٩٦٦ نيكيتينا ، جدول (٢) ص ١٨٨

١٩٧٠ ، بالاسقاط بين ١٩٦٦ ، ١٩٨٠

١٩٨٠ ، مبنية على أساس نسبة اليهود في اسرائيل الى اجمالي يهود العالم قدرها ٢٠٪

كمجتمع مستورد للبشر لعل اهمها ارتفاع نسبة يهود فلسطين/ اسرائيل الى يهود العالم من ٧ر٥٪ فقط عام ١٩٤٨ الى حوالي ٢٠٪ عام ١٩٨٠ . ومن المعروف انه من قيام الحركة الصهيونية في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ وحتى ١٩٢٥ لم تتجاوز نسبة اليهود الى اجمالي سكان فلسطين ٨ر٠٪ (ثمانية اعشار الواحد بالمائة) أي أقل من ١٪ . ولم تحدث القفزة الكبيرة في هجرة اليهود الى فلسطين الا تحت ضغط الاضطهاد ومحاولات الابادة التي تعرضوا لها في المانيا تحت الحكم النازي ، حيث ارتفع عددهم من ٠ر١٢٢ الفا عام ١٩٢٥ الى ٢ر٣٥٥ الفا عام ١٩٣٥ (١٠) . ومع ذلك فلم تتعد نسبة اليهود في فلسطين ٦٪ من مجموع اليهود في العالم عام ١٩٤٨ . ولم تحدث القفزة الكبرى في الهجرة الى فلسطين الا بعد اعلان قيام الدولة اليهودية . ومن الجدير بالتأمل في هذا المجال ان نلاحظ ان عدد اليهود الذين هاجروا الى فلسطين قبل عام ١٩٤٧ كانوا حوالي ٣٢١ الفا ، بينما كان عدد من هاجروا خلال الأربع سنوات الأولى من عمر الدولة (١٩٤٨ - ١٩٥١) ٦٦٦ الفا (١١) .

ولم نستطع الحصول على تقدير موثوق به ومقبول لعدد المهاجرين الى اسرائيل منذ انشاء الدولة وحتى الآن . ولكن بعض المصادر تقدر عدد المهاجرين من كل الجنسيات الى اسرائيل خلال الفترة ١٩٤٨ - ١٩٨٠ بحوالي ٧ر١ مليون (١٢) . وهو ما يعادل مرتين ونصف السكان اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ (انظر جدول ١) . وهذا القدر يمثل المجموع التراكمي للمهاجرين الى اسرائيل ، ولا يأخذ في الاعتبار اعداد اليهود النازحين منها ، ومن الجدير بالذكر ان

---

(١٠) مصدر هذه البيانات هو نيكتينا ، ص ١٨٨ .

(١١) يجب مراعاة الحظر في استخدام هذه الأرقام واعتبارها تقريبية - حيث ان البيانات تتضارب في المصادر المختلفة ، ولم يكن لدى الباحث فرصة للاطلاع على المصادر الأولية لحسم مجالات التضارب المذكورة . قارن مثلا : جالينا نيكيتينا ص ١٨٩ ، حيث عدد المهاجرين منذ ١٩٤٨ وحتى ٢١ مايو ١٩٦١ (٦ر٨٨١) الفا ، ومشيلي ، جدول أ - ١ في الملحق حيث يبلغ حجم الهجرة الصافية ٩٠٧١ الفا خلال ١٩٤٨ - ١٩٦١ ، محمد السيد سعيد واميرة سلام ص ١٠٢ و ص ١٤٤ .

(١٢) انظر

EIU, QER Israel, 1982 Supplement

تدفق المهاجرين اليهود الى اسرائيل لم يكن منتظما خلال الفترة المذكورة . فهناك اتجاه هبوطي واضح للهجرة الصناعية في داخله موجات متعاقبة ، على النحو التالي :

موجز الهجرة	مصدرها الغالب
١٩٤٨ ـ ٥١	أوربا والدول العربيـــــة
١٩٥٥ ـ ٥٧	شمال أفريقيـــــا
١٩٦١ ـ ٦٩	أوربا/أمريكا ـ آسيا/أفريقيا
١٩٧١ ـ الآن	أوربا/أمريكـــــا

كما بجدر بالذكر أيضا أن الهجرة الصحافية كانت موجبة دائما على امتداد الفترة ، ورغم التقلب والاتجاه الهبوطي ، باستثناء سنتين فقط هما ١٩٥٣ و ١٩٨١ (١٣) . ورغم كل ذلك ، فقد كانت المحصلة النهائية لعملية استيراد البشر الى فلسطين هي ارتفاع نسبة سكان اسرائيل من اليهود الى اجمالي عدد اليهود في كافة انحاء العالم من ٥ر٧٪ عام ١٩٤٨ الى حوالي ٢٠٪عام ١٩٨٠ .

وفي ظروف شح الموارد الطبيعية وضيق الرقعة الجغرافية لاسرائيل ، فان هذا الاستيراد للبشر على نطاق واسع على النحو السابق توضيحه مشكلة استيعاب حادة في الأحوال العادية . لكنه في حالة اسرائيل الخاصة ، واسرائيل حالة خاصة من نواح كثيرة ، فقد أمكن التغلب على هذه المشكلة عن طريق نهب ثروة السكان الفلسطينيين في البداية عند طردهم عام ١٩٤٨ ، وعن طريق تأمين تدفقات هائلة من الموارد المالية من الدول الرأسمالية في الغرب . ونوضح هذا بعض الشيء .

في كتابه القيم عن الاقتصاد الاسرائيلي (١٤) ، يقدر الدكتور يوسف صايغ مكسب اسرائيل على حساب العرب خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٤ بمبلغ ٢٣٢٣ مليون جنيه استرليني . ويتكون هذا المبلغ جزئيا من قيمة الثروة التي تركها العرب وراءهم والتي قدرت بمبلغ ٧٥٦٫٧٠ مليون جنيه استرليني ، وبيانها كما في الجدول (٢) .

---

(١٣) بلغت الزيادة في عدد النازحين من اسرائيل الى عدد المهاجرين اليها ١٦٠٠ شخص عام ١٩٥٣ ، بينما وصلت هذه الزيادة الى ١١ الف شخص عام ١٩٨١ .

(١٤) راجع يوسف صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي (بيروت : مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٦٦) ، ص ١٠٤ ـ ١١١ . مشار اليه في :
Anglina Helou, Interaction of Political, Military and Economic Factors in Israel (Beirut: Palistine Research Center, 1969), pp. 139 8 151.

جدول (٢)

مكسب اسرائيل من الثروة الفلسطينية عام ١٩٤٨

البند	القيمة بالمليون جنيه استرليني
١ ـ المباني السكنية	١٨١ر٠٠
٢ ـ منشآت اقتصادية (مصانع ، مكاتب ، محلات ، فنادق . . الخ)	٥٩ر٨٠
٣ ـ معدات وآلات الورش والمصانع	١٥ر٠٠
٤ ـ وسائل النقل والمواصلات	١٥ر٠٠
٥ ـ الأثاث والممتلكات الشخصية	٦٢ر٠٠
٦ ـ حيوانات ودواجن	١٠ر٠٠
٧ ـ ودائع بالبنوك وامانات	٢ر٠٠
٨ ـ أراضي	٤٠٣ر٤٠
٩ ـ بضائع ومخزون تجاري	٥ر٠٠
١٠ ـ مستلزمات المكاتب	٣ر٠٠
المجموع	٧٥٦ر٧٠

المصدر : يوسف صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي ، المرجع السابق مباشرة .

كما يتضمن بالاضافة الى ذلك عناصر أخرى هي : مقابل الزيادة في قيمة هذه الأصول مع ارتفاع الأسعار ١٩٤٨ و ١٩٦٤ ، والاستثمار الصافي ، وتقدير الدخل المستحق على هذه الأصول خلال الفترة . وفي تقدير الدكتور صايغ ان هذه العناصر الثلاثة مجتمعة تعادل ١٥٦٦ر٢ مليون جنيه استرليني .

ولا يمكن التقليل من أهمية التحويل المباشر من الثروة بعناصرها المختلفة (مبان سكنية ، منشآت اقتصادية ، معدات . . . الخ » في تسهيل مهمة استيعاب طوفان المهاجرين الى اسرائيل غداة اعلان قيام الدولة . وطبقا لاعتراف دون بيريتز :

« فان الأملاك التي خلفها العرب وراءهم كانت واحدا من أعظم المساهمات في جعل اسرائيل دولة يمكن ان تستمر . . فمن مجموع ٣٧٠ مستوطنة جديدة انشئت بين ١٩٤٦ واوائل ١٩٥٣ ، كان ٣٥٠ مستوطنة منها مقامة على أملاك العرب الغائبين . . وفي عام ١٩٥٤ . . كان حوالي ثلث المهاجرين الجدد (٢٥٠ الف شخص) قد استقروا في

مناطق حضرية تخلى عنها العرب . . وفي عام ١٩٤٩ كان الزيتون المنتج في البساتين التي تركها العرب يمثل ثالث أكبر بنود الصادرات بعد الموالح والماس » (١٥) .

وحتى اذا قصرنا النظر على « النفع » الاسرائيلي الأولي على حساب الفلسطينيين ممثلا في قيمة الثروة والأصول الانتاجية التي أرغم الفلسطينيون على تركها والفرار طلبا للنجاة (١٦) فانه يمكن القول باطمئنان انه لولا هذا النقل القسرى للثورة من الفلسطينيين الى اليهود القادمين ، لكان في حكم المستحيل ان تستطيع اسرائيل استيعاب طوفان الهجرة الذي أعقب اعلان قيام الدولة اليهودية في فلسطين . فخلال الفترة ١٩٤٨ ـ ٥١ تدفق على فلسطين ثلثا مليون يهودي ، وهو رقم يفوق عدد اليهود الذين كانوا موجودين في فلسطين عام ١٩٤٨ (انظر جدول ١) . ورغم ان هجرة هذه الجحافل قد واكبها تدفق الموارد المالية من الخارج على نطاق كبير كما سترى بعد قليل ، الا ان الأصول المادية التي تركها العرب كانت بمثابة الوسيلة الوحيدة تقريبا التي جعلت استيعاب هذا العدد الهائل (١٠٢٪ من السكان اليهود عام ١٩٤٨) أمرا ممكنا . ان هذا بالتحديد هو معنى العبارة التي اقتبسناها من بيريز ، حيث ان عملية اغتصاب ثروة العرب بعد طردهم او اجبارهم على الخروج اتاحت لكل مهاجر يهودي الى اسرائيل الاستيلاء على مال مادي في شكل مساكن ومصانع ومتاجر ومكاتب ومزارع . . . الخ يناهز ١١٣٥ جنيها استرلينيا .

وحتى تتضح دلالة هذا الرقم فاننا ننسبه الى نصيب الفرد من الدخل القومي للفرد في اسرائيل خلال تلك الفترة . فطبقا للبيانات المتاحة ، يبلغ الدخل القومي للفرد في اسرائيل عام (١٩٥٠) ٣٣٦ ليرة اسرائيلية .

ولما كانت الليرة الاسرائيلية تساوي تقريبا الجنيه الاسترليني في ذلك الوقت (وحتى فبراير ١٩٥٢) ، فان تحويل رأس المال من الفلسطينيين الى اليهود يمثل ٣٣٨٪ من الدخل القومي للفرد في اسرائيل عام ١٩٥٠ (١٧) .

٤ ـ العرب والصهيونية والبعد الاقتصادي للمواجهة :

حتى نتمكن من تحديد البعد الاقتصادي للمواجهة ، سوف نعقد المقارنة بين الوزن الاقتصادي النسبي لكل من العرب واسرائيل بالاسترشاد بعدد من المؤشرات . هذه المؤشرات هي : السكان ، الناتج القومي للفرد ، ونسبة تعليم الكبار ، وتوقع الحياة عند الميلاد . ورغم ما يكتنف بعض هذه المؤشرات من غموض ومشاكل في القياس ـ بالذات الناتج القومي للفرد ونسبة تعليم الكبار ـ الا انها تعطينا فكرة عن المركز النسبي لكل من الطرفين . والمفهوم

---

(١٥) هذه الاقتباسات من

Don Peretz, Israel and the Palestine Arabs

ويشار اليه في **Angelina Helou**

(١٦) فلقد اضطر الفلسطينيون تحت وطأة المذابح والتهديد بترك مدن بأكملها مثل حيفا وعكا واللد والرملة وبيسان . . . بالاضافة الى ٣٨٨ مدينة صغيرة والجزء الاكبر من ٩٤ مدينة اخرى . انظر بيريتز ، ص١٤٣ ، مشار اليه في انجلينا حلو .

(١٧) ان المنطق السليم يقضي بمقارنة تحويل رأس المال عام ١٩٤٨ بالداخل في نفس العام . لكن لا توجد لدينا تقديرات للاخير قبل ٩٥٠ . وفي عام ١٩٥٠ بلغ الناتج القومي الاجمالي ٤٦٠ مليون ليرة اسرائيلية وكان عدد السكان ١٫٣٧ مليونا ، فيكون الناتج القومي للفرد حوالي ٣٣٦ ليرة (= حوالي ٣٣٦ جنيها استرلينيا ، طبقا لسعر الصرف آنذاك) . راجع مشيلي ، جدول أ ـ ١ وجدول أ ـ ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٨٨ .

طبعا انه كلما ارتفع متوسط الناتج القومي للفرد او نسبة تعليم الكبار ، او توقع الحياة عند الميلاد ، كلما دل ذلك على حيوية الجسم الاقتصادي للمجتمع محل الدراسة . كذلك كلما زاد عدد سكان البلد ، مع بقاء الظروف الأخرى على حالها ، كلما زادت الكتلة الاقتصادية للمجتمع ، ان جاز التعبير . فمن المعروف ان السكان عنصر حاسم في شئون الحرب والسلم ، وهما طرفا المواجهة ولا ثالث لهما .

والجدول (٣) يعطي بيانات عن المؤشرات السابق ذكرها بالنسبة لمجموعة الدول العربية (وعددها هنا ١٦ دولة) (١٨) . ومن الجدول يتضح عدد من النتائج الهامة . في مقدمة هذه النتائج انه ، بمعيار حجم السكان ، هناك اختلال في التوازن لصالح العرب ، حيث تصل نسبة سكان اسرائيل الى سكان الدول العربية ٢ر٥٪ فقط .

أي أن هناك ٤٠ مواطنا عربيا مقابل كل اسرائيلي . هذا اذا أخذنا الكتلة المجردة او عنصر الكم فقط ، ومنه يتضح التفوق البشري الساحق للعرب .

لكن ادخال عنصر الكيف يغير معالم الصورة كثيرا ، وعنصر الكيف يدخل في مجالات كثيرة . فهناك المجالات المرتبطة بالفرد مباشرة مثل مستوى التعليم وحالة الصحة . وهناك المجالات المرتبطة بالبيئة العامة او الظروف التي يعمل فيها الفرد ، ونعني بذلك تحديداً كيفية اتخاذ القرارات في المجتمع ، وما اذا كان ذلك يتم على أساس ديمقراطي او دكتاتوري . وهنا يجد الباحث أن ادخال هذه العوامل في المقارنة لا يجعل للعرب ذلك التفوق الساحق الذي يظهره عنصر الكم في المعادلة . فنسبة تعليم الكبار في العالم العربي حوالي ٤٠٪ في المتوسط ، بينما في اسرائيل تزيد على ٩٠٪ كما يبلغ توقع الحياة في العالم العربي في المتوسط ٥٥ سنة ، مقابل ٧٢ سنة في اسرائيل (انظر جدول ٣) بالاضافة الى ذلك ، فمما لا شك فيه ان العالم العربي يعاني ، بدرجات متفاوتة ، من الحكم الفردي الدكتاتوري . والحال ليس كذلك في اسرائيل (بالنسبة للسكان اليهود بالطبع) . ويكفي ان نقارن بين عدد الأحزاب وعدد الصحف والمجلات واسلوب تغيير القيادات في كل من الجانبين حتى يتيقن المرء من ذلك (١٩) .

وربما يكون من المناسب ان يتم اجراء تصحيح يأخذ بعين الاعتبار عنصر الكيف باستخدام مؤشر له دلالة أوسع مثل الانتاجية . فاذا كان محور اهتمامنا مؤشر له دلالة اقتصادية اوسع مثل الانتاجية ، واذا كان محور اهتمامنا هو الأهمية الاقتصادية للسكان ، يصبح العامل الأنسب في تصحيح عدد السكان المجرد هو انتاجية الفرد . ولكن نظرا للصعوبات التي تكتنف قياس انتاجية الفرد في أي مجتمع ، وبالتالي صعوبات الوصول الى قياسات للانتاجية قابلة للمقارنة بين البلاد المختلفة ، فاننا سنستعيض عن الانتاجية بمتوسط دخل الفرد . ومرة أخرى نحن نقارن بين « الفرد العربي

---

(١٨) يبلغ عدد الدول العربية ، بمعيار عضوية جامعة الدول العربية ، ٢٢ دولة والعدد المذكور في المتن يمثل أغلب وأهم هذه الدول ، وهي الدول التي توفرت لدينا بيانات عنها .

(١٩) لا يمكن التهوين في شأن الحكم الديمقراطي في حفز همم الافراد والمجتمعات على الفعل القادر والمتميز . وعلى سبيل المثال ، لا يمكن الفصل بين الواقع السياسي والاجتماعي والأداء العسكري للعرب في حروب ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، ١٩٨٢ . اذ ان تحسن اداء العرب نسبيا عام ١٩٧٣ يعزي الى الأخذ بشيء من الديمقراطية في بلد كمصر مثلا ـ بالمقارنة بما كانت عليه الاوضاع عام ١٩٦٧ . كما ان الاداء العسكري والصمود الفذ للمقاومة الفلسطينية في وجه آلة الحرب الاسرائيلية في لبنان عموما وبيروت على وجه الخصوص يقدم دليلا قاطعا على ذلك . لكن لا يجب ان يفهم اننا نفسر الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ بعامل الدكتاتورية وحده .

جـــدول (٣)

العالم العربي واسرائيل : بعض المؤشرات الاقتصادية

الدولـــــة	السكان بالمليون (١٩٧٩)	٪	الناتج القومي للفرد بالدولار (١٩٧٩)	نسبة تعليم الكبار ٪ (١٩٧٦)	توقع الحياة بالسنوات (١٩٧٩)
١ - مصر	٣٨ر٩	٢٥ر٣	٤٨٠	٤٤	٥٧
٢ - موريتانيا	١ر٦	١ر١	٣٢٠	١٧	٤٣
٣ - السودان	١٧ر٩	١١ر٦	٣٧٠	٢٠	٤٧
٤ - اليمن العربية	٥ر٧	٣ر٧	٤٢٠	١٣	٤٢
٥ - اليمن الديمقراطية	١ر٩	١ر٢	٤٨٠	٢٧	٤٥
٦ - المغرب	١٩ر٥	١٢ر٧	٧٤٠	٢٨	٥٦
٧ - سوريا	٨ر٦	٥ر٦	١٠٣٠	٥٨	٦٥
٨ - تونس	٦ر٢	٤ر٠	١١٢٠	٦٢	٥٨
٩ - الاردن	٣ر١	٢ر٠	١١٨٠	٧٠	٦١
١٠ - لبنـــان	٢ر٧	١ر٨	*١٢٠٠	*٧٠	٦٦
١١ - الجزائر	١٨ر٢	١١ر٩	١٥٩٠	٣٥	٥٦
١٢ - العراق	١٢ر٦	٨ر٢	٢٤١٠	*٥٠	٥٦
١٣ - السعودية	٨ر٦	٥ر٦	٧٢٨٠	*٣٠	٥٤
١٤ - ليبيـــا	٢ر٩	١ر٩	٨١٧٠	٥٠	٥٦
١٥ - الكويت	١ر٣	٠ر٩	١٧١٠٠	٦٠	٧٠
١٦ - الصومال	٣ر٨	٢ر٥	**٢٧٠	٦٠	٤٤
مجموع الدول العربية	١٥٣ر٥	١٠٠ر٠	١٥٤٠	٣٩	٥٥
اسرائيل	٣ر٨		٤١٥٠	*٩١	٧٢
اسرائيل الى مجموع الدول العربية(٪)	٢ر٥		٢٦٩ر٥	٢٣٣ر٣	١٣١ر٠

ملاحظات : * تقدير تخميني ** الناتج المحلي الاجمالي للفرد

المصدر : World Bank, **World Development Report 1981 World Development Indicators** (Washington, D. C., August 1981) Table 1.

المتوسط » والفرد الاسرائيلي ، ونكرر انه لا يمكن الفصل بين الفرد والنظام الاجتماعي الذي يحرك هذا الفرد ويحفزه . فاذا أخذنا الفرق بين متوسط دخل الفرد في الحالتين نجد أنه طبقا للبيانات المتاحة (جدول ٣) فان نسبة الناتج القومي للفرد في اسرائيل الى الناتج القومي للفرد المتوسط في العالم العربي حوالي ٢ر٧ : ١ . (٢٠) لذلك يجب ونحن نقارن بين طرفي المواجهة (العرب واسرائيل) ان نضع هذا العنصر من عناصر التفوق الاسرائيلي جنبا الى جنب مع التفوق العربي الساحق من حيث العدد .

وقبل ان نتقدم خطوة أخرى في التحليل ، نتوقف قليلا عن هذه الاستنتاجات حتى لا يساء تأويلها . فهدفنا هو رصد الواقع الموضوعي بأمانة دون القفز فوق هذا الواقع . وبهذا التوجه فان من الأمور الحيوية ونحن نقارن الكتلة الاقتصادية العربية بالكتلة الاقتصادية الاسرائيلية ، ان ننظر الى السكان من منظور الفعالية الاقتصادية وليس من منظور العدد وحده . هذا يطرح قضية الكيف في مواجهة الكم . وطرح هذه القضية أمر غاية في الأهمية ونحن نتحدث عن المواجهة ؛ فنحن لسنا هنا إزاء مقارنة باردة بين مجتمعين ، ولكنا ازاء مهمة تعبوية بالدرجة الأولى . وفي مثل هذه المهام ، فكما انه لا بد من استنفار كل العوامل الحافزة للوثوب والفعل ، فانه لا يجوز أبدا التغاضي عن الواقع أو التهوين من شأن الطرف الواقف على الجانب الآخر من خط المواجهة . بعبارة موجزة ، يجب ونحن نتجنب التهويل في قدرات العدو أن نتحاشى التهوين من شأنه ايضا .

من ناحية أخرى ، يجب ونحن نتحدث عن الطرف العربي أو العالم العربي في مواجهة اسرائيل ، أن نكون مدركين لفارق جوهري بين الجانبين . هذا الفارق يميل لأن يقلل من درجة عدم التوازن بين الكتلة الاقتصادية العربية الكبيرة والكتلة الاسرائيلية الأصغر . ويتمثل هذا الفارق في أن الكتلة الاسرائيلية فعلية بينما الكتلة العربية كتلة احتمالية . (٢١) ونزيد الأمر توضيحا : الكتلة الاسرائيلية فعلية لأن اسرائيل تتصرف ككيان واحد وهي بالفعل كذلك ، بينما الكتلة العربية احتماليةفقط لأن العالم العربي لا زال مجزءا . وسوف تتحول الكتلة العربية الى كتلة بالفعل وليس بالاحتمال عندما يصبح العالم العربي قادرا على التصرف ككيان واحد . هذا يقتضي ، من حيث منهج التحليل ، ان نفرق بوضوح بين اليوم والغد ، أو بين الأجل القصير والمدى البعيد ، فقد يبدو العالم العربي اليوم مجزءا كما ذكرنا ، والاحتمال وارد أن يظل كذلك في الأجل القصير والمتوسط . ولكنا نعتقد أن قوانين الحركة في المدى الطويل هي نحو

---

(٢٠) يجب أخذ هذه الأرقام بالحذر الواجب فبالاضافة الى الاعتبارات المعروفة بخصوص المقارنات الدولية للدخول ، هناك اسباب اخرى للحذر . فبالنسبة لاسرائيل يتمثل جزء كبير من الدخل في تحويلات يقوم بها الامتداد الصهيوني لاسرائيل في الخارج ، وفي الدعم الامبريالي . وهذا يعني ان الناتج القومي للفرد في اسرائيل كما توضحه الأرقام المستفادة من القياسات العادية . ينطوي على مغالاة شديدة في انتاجية الفرد الاسرائيلي . وهذا مثال آخر على خصوصية الحالة الاسرائيلية . وبالنسبة للعرب ، فان جزءا كبيرا من الدخل في الدول البترولية الرئيسية (السعودية ، الكويت ، ليبيا ، العراق) لا يعتبر في الواقع دخلا بل هو تحويل للثروة . وهنا ايضا نجد الأرقام المستقاه من القياسات العادية تنطوي على مغالاة . ومن الصعب التكهن بما ستؤول اليه نسبة دخل الفرد في الطرفين اذا ما اجري التصحيح اللازم .

(٢١) بل أكثر من هذا يرى بعض المحللين في التطورات في مجال الطاقة والعوائد النفطية منذ منتصف السبعينات سببا للتشاؤم بخصوص قرب تحول العالم العربي من كتلة بالفعل الى كتلة بالاحتمال . في تفصيل الفرق بين الامكانيات الاحتمالية والواقع الفعلي ، انظر مثلا د . نادر فرجاني ، هدر الامكانية بحث في مدى تقدم الشعب العربي نحو غاياته (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨١) وقارن

Malcolm H. Kerr & El — Sayed Yssin, Rich and Poor States in the Middle East: Egypt and the New Arab Order (Boulder, Westview Press, 1982)

درجات متصاعدة من التكامل والتوحد . وأحد قوانين الحركة هنا يستمد من طبيعة الصراع مع العدو الصهيوني باعتباره صراع حركتين قوميتين كما ذكرنا . ويمكن ان نتصور وجود علاقة جدلية بين حدة الصراع من ناحية ودرجة توحد العالم العربي من ناحية أخرى . فكلما اشتدت حدة الصراع كلما اتجه العالم العربي نحو التوحد ، وكلما اتجه العالم العربي نحو التوحد كلما اذكى ذلك من حدة الصراع ، . . . وهكذا .

ومن عناصر البعد الاقتصادي للمواجهة أيضا نسبة ما يخصص للانفاق العسكري . فالطبيعة العسكرية للكيان الصهيوني تتبدى من مقارنة الأهمية النسبية للانفاق العسكري في اسرائيل بنظيره في العالم العربي . ونظرا لقلة البيانات في هذا المجال ، فسوف نكتفي بعقد المقارنة بين اسرائيل ومصر ، باعتبار مصر أهم الدول العربية في المجال العسكري . والجدول (٤) يوضح نسبة الانفاق على الدفاع الى الناتج القومي الاجمالي والى النفقات الكلية في الميزانية العامة ، ونصيب الفرد من انفاق الحكومة المركزية على الدفاع . ويتضح من البيانات الواردة في هذا الجدول عدد من الحقائق ذات الدلالة : أولا ، ان الانفاق العسكري يستوعب نسبة من الناتج القومي الاجمالي اعلى بكثير في اسرائيل منها في مصر . فعلى حين يستوعب الانفاق العسكري ، طبقا لبيانات ١٩٧٨ ، نسبة لا تصل الى ٤٪ من الناتج القومي

جدول (٤)

الأهمية النسبية للانفاق العسكري في مصر واسرائيل ١٩٧٨

الدولة	نسبة الانفاق العسكري الى الناتج القومي الاجمالي	نسبة الانفاق العسكري الى ميزانية الحكومة المركزية	نصيب الفرد من نفقات الحكومة المركزية على الدفاع*
مصر	٣ر٧	٨ر٢	١٧
اسرائيل**	٢٣ر٤	٣٥ر٨	٨٦١

ملاحظات : * بدولارات ١٩٧٥ .

** لاحظ ان بيانات اسرائيل الرسمية عن الانفاق العسكري لا تشمل كل الانفاق العسكري فهناك مبالغ كبيرة تدرج في ميزانية الدولة لمشروعات الطرق والمرافق ، وهي مشروعات تخدم المجهود الحربي بالدرجة الأولى ولكنها تصنف في الميزانية ضمن الانفاق غير العسكري . هذا بالطبع خلاف المخصصات السرية للدفاع .

المصدر : World Bank, **World Development Report Development Indicators,** Table 24

الاجمالي لمصر ، نجد ان اسرائيل تخصص للانفاق العسكري نسبة من ناتجها القومي الاجمالي تزيد على ٢٣٪ (٢٢) وثانيها ان نسبة الانفاق العسكري الى ميزانية الحكومة المركزية كما هو واضح في الجدول المذكور تشير الى تفوق اسرائيل أيضا وبشكل ملحوظ . (٢٣) .

أما إذا أخذنا نصيب الفرد من نفقات الحكومة المركزية على الدفاع ، فان عدم التوازن يصل الى قمته ، حيث يصل نصيب الفرد المصري الى ١٧ دولارا فقط ، بالمقارنة بمبلغ ٨٦١ دولارا للفرد الاسرائيلي . فحتى اذا تجاوزنا عن ذلك الجزء من الانفاق العسكري في اسرائيل الذي يتم خارج نطاق ميزانية الحكومة المركزية ، فان ما يخص الفرد من الانفاق العسكري في اسرائيل يصل الى ٥٠ مثلا لما يخص الفرد في مصر ! ولا يعني هذا فقط ان اسرائيل تسعى الى تأمين كم هائل من الأسلحة ، بل أنه يعني أيضا انها تحرص على أن تكون صناعة الحرب لديها من النوع كثيف رأس المال في محاولة محسوبة لتعويض ندرة القوة البشرية . وعلى أساس عدد السكان لكل من البلدين عام ١٩٧٩ (٣٨ر٩ مليونا لمصر و ٣ر٧ مليونا لاسرائيل ، انظر الجدول ٣) نجد ان الانفاق العسكري الكلي في اسرائيل يصل الى ٣١٨٠ مليون دولار مقابل ٦٦٠ مليون دولار في مصر . ومن الطبيعي أن يكون هناك حد أدنى للانفاق على الدفاع لا يمكن النزول عنه في أي مجتمع مهما صغر عدد سكانه ، وهذا ما يفسر ارتفاع الانفاق على الدفاع للفرد في البلاد صغيرة الحجم بمعيار السكان . ولكن هذا في حد ذاته ليس كافيا لتفسير الارتفاع الشاذ في نصيب الفرد من الانفاق على الدفاع في حالة اسرائيل ، بدليل أنها تخصص للدفاع (حسب البيانات السابقة) حوالي خمسة أمثال ما تخصصه مصر - رغم الفارق الكبير في عدد سكان كل منهما ، بل أكثر من هذا ، فان الانفاق على الدفاع للفرد في اسرائيل يبلغ أكثر من ضعف الانفاق على الدفاع للفرد في الولايات المتحدة - إحدى القوتين العظميين . بل إنه اعلى معدل للانفاق على الدفاع في العالم كله ! وهذا يكشف عن الطبيعة العدوانية - التوسعية للكيان الصهيوني .

والنتيجة التي نخلص بها من التحليل السابق هي أن العدو الصهيوني يتفوق عسكريا على مصر ، أقوى الدول العربية ، وبالتالي على العالم العربي كله في ظروف التجزئة العربية الراهنة . ولعل ما قام به مؤخرا في لبنان ينهض دليلا قاطعا على ذلك .

على ان من أهم عناصر البعد الاقتصادي للمواجهة بين العرب والصهيونية الامتداد الصهيوني خارج اسرائيل والعلاقة العضوية بين اسرائيل والقوى الأمبريالية الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية . ان الامتداد الصهيوني خارج اسرائيل هو بمثابة الاحتياطي الاستراتيجي الذي يؤمن لاسرائيل متطلبات الاستمرار والتوسع : البشر والمال . وقد تحدثنا في جزء سابق عن الامدادات البشرية التي تلقاها الكيان الصهيوني وتعرفنا على مصادرها . وفي هذا

---

(٢٢) لاحظ ان هناك جزء من الانفاق العسكري في اسرائيل تقوم به المحليات وبالتالي لا يدخل ضمن النفقات العامة في ميزانية الحكومة المركزية . وبالتالي فان ارقام الانفاق العسكري في ميزانية الحكومة تمثل جزءا فقط من مجمل الانفاق العسكري في اسرائيل . وليست لدينا بيانات تسمح لنا بتقدير ذلك الجزء من الانفاق العسكري الاسرائيلي الذي يتم في اطار المحليات .

(٢٣) بل لقد وصلت هذه النسبة الى ٤٦٪ من الانفاق العام في ميزانية ١٩٧٠/ ٧١ انظر :

D. Horowitz, The Enigma of Economic Growth. A case Study of Israel (New York: Praeger Pub., 1962), Table 19, P. 108.

الجزء نتحدث عن الامدادات المالية . والجدول (٥) يوضح الامدادات المالية من الامتداد الصهيوني لاسرائيل خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٧١ . وهذه الامدادات من ثلاثة أنواع : تحويلات من اليهود في الخارج الى الحكومة الاسرائيلية ، وتحويلات من اليهود في الخارج الى الأفراد في اسرائيل ، وحصيلة بيع سندات الاستقلال والتنمية التي تصدرها الحكومة الاسرائيلية . وخلال الفترة المذكورة بلغ اجمالي الامدادات المالية بأنواعها الثلاثة من الصهيونية العالمية الى اسرائيل حوالي ٥ر٥ بليون دولار منها ٦٤ر٢ بليون دولار تحويلات للحكومة الاسرائيلية ، و ٦٤ر١ بليـون دولار تحويـلات للأفراد ، و ١٨ر١ بليون دولار حصيلة بيع سندات الاستقلال والتنمية . وهذه المبالغ تمثل تحويلا ماليا بواقع ٢٤٥٥ دولار للفرد الواحد في المتوسط .(٢٤) .

ومن المثيران نتفحص النمط الزمني لتدفق هذه التحويلات المالية خلال الفترة .

فاذا تمعنا هذا النمط الزمني نلاحظ انه ليس على وتيرة واحدة ، بل يميل تدفق التحويلات المالية بصفة عامة الى التزايد في اوقات الحروب والازمات التي تحدث في منطقة الشرق الاوسط (٢٥) . وبشكل خاص فان تدفق التحويلات قد تضاعف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ عما كان قبلها فقد بلغ التدفق الاجمالي خلال السنوات الخمس ١٩٦٧ ـ ٧١ حوالى نصف التدفق الاجمالى خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ٧١ كلها ، وبلغ المعدل السنوي للتدفق خلال الفترة التي اعقبت حرب يونيو مباشرة ثلاثة اضعاف التدفق السنوي خلال العقد السابق عليها .

هذا يوضح تماما ماقصدناه بامتدادات الكيان الصهيوني خارج اسرائيل . ففي الاوقات التي تقرر فيها اسرائيل محاربة العرب (وكان هذا هو الحال في كل الحروب باستثناء حرب ١٩٧٣) تهرع الصهيونية العالمية لجمع الاموال وارسالها لاسرائيل لتمويل هذا النشاط العدواني . ويعني هذا بالضرورة انه لو كانت اسرائيل مطالبة بدفـع فاتـورة نشاطهـا العدواني في كل مرة ، لترددت كثيرا قبل ان تقدم على ذلك .

ويقف وراء جمع هذه الاموال عدد كبير من المنظمات مثل المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، واللجنة اليهودية الامريكية ، والصندوق القومي اليهودي ، والصندوق التأسيسي اليهودي ، والنداء اليهودي الموحد ، والنداء الاسرائيلي الموحد ولجنة التوزيع المشتركة ، والمنظمة النسائية الصهيونية العالمية ، والاتحاد العالمي للصهاينة الاشتراكيين والهاداساه(٢٦) . هذه المنظمات تمثل فعلا ، لامجازا ، امتدادات الكيان الصهيوني خارج فلسطين .

اما المصدر الثاني من مصادر الدعم المالي لاسرائيل فيتمثل في حكومات الدول الامبريالية ، وبالذات الولايـات

---

(٢٤) حسبت على اساس متوسط عدد سكان اسرائيل خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ٧١ وهو ٢٤٠ر٢ الفا .

(٢٥) ففي خضم الهجوم الاسرائيلي على سيناء عام ١٩٥٦ ، بلغت حصيلة بيع سندات الاستقلال في الولايات المتحدة في يوم واحد هو يوم ٥ نوفمبر مبلغ ٦٠٠ الف دولار . انظر **The Israeli Economist**، عدد فبراير ١٩٥٧ ، ص ٢٦ تشار اليه في نيكتينا .

(٢٦) للحصول على فكرة موجزة عن كل من هذه المنظمات ، يمكن للقارىء ان يراجع موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية .

جدول (٥)

الدعم المالي الصهيوني من المنظمات والأفراد لاسرائيل

١٩٥٠ - ١٩٧١ (بالمليون دولار)

الفترة	التحويلات للحكومة الاسرائيلية	تحويلات للأفراد	حصيلة سندات الاستقلال والتنمية	الاجمالي	عدد السكان (بالألف)	نصيب الفرد (بالدولار)
١٩٥٠ - ٥٦						
المجموع	٥٤١,٠	١٧٤,٠	٧٤٥,٠٠	٩٦٠,٠		
المتوسط السنوي	٧٧,٣	٢٤,٦	*٤٠,٨	**١٤٣,٠	١٦٦٠,٩	٨٦,١
١٩٥٧ - ٦٦						
المجموع	٨١٩,٠	٦٢٢,٠	٢٩٨,٠	١٧٣٩,٠		
المتوسط السنوي	٨١,٩	٦٢,٢	٢٩,٨	١٧٣,٩	٢٣٠٢,٤	٧٥,٥
١٩٦٧ - ٧١						
المجموع	١٢٢٥,٠	٨٣٩,٠	٦٣٣,٠	٢٦٩٧,٠		
المتوسط السنوي	٢٤٥,٠	١٦٧,٨	١٢٦,٦	٥٣٩,٤	٢٩٢٦,٦	١٨٤,٣
١٩٥٠ - ٧١						
المجموع	٢٦٣٥,٠	١٦٣٥,٠	١١٧٦,٠	٥٤٤٦,٠		
المتوسط السنوي	١٢٠,٦	٧٤,٣	٥٣,٥	٢٤٧,٥		

ملاحظات :

* المتوسط محسوب لفترة ٦ سنوات فقط ، حيث ان الاصدار الاول من سندات الاستقلال كان في مايو ١٩٥١ .

** هذا المتوسط ليس خارج قسمة المجموع (٩٦٠) على عدد السنوات (٧ سنوات) حيث ان المتوسط السنوي لحصيلة سندات الاستقلال والتنمية محسوبة لمدة ٦ سنوات فقط ، كما هو موضح في الملحوظة السابقة .

المصدر : حسبت من مشيلي ، الملحق الاحصائي ، جدول أ - ١ وأ - ١٤ .

المتحدة والمانيا (رغم اختلاف دوافع كل منها) ورغم انه لم يتيسر حصر تدفقات الموارد من هذا المصدر حصرا كاملا ⁽٢٧⁾ ، الا أن ما امكن حصره بالفعل ينهض دليلا على الموقع الخاص الذي تحتله اسرائيل على خريطة الامبريالية العالمية . فبمقتضي اتفاقية التعويضات بين الحكومة الاسرائيلية والحكومة الالمانية ، التي عقدت في سبتمبر ١٩٥٢ ، نص على ان تدفع الحكومة الالمانية للحكومة الاسرائيلية مبلغ ٨٢٢ مليون دولار خلال فترة السنوات العشر ١٩٥٣ ـ ١٩٦٢ كترضية عن الاضرار التي اصابت اليهود على يد الحكومة النازية في المانيا خلال الحرب العالمية الثانية . وقد لعبت الولايات المتحدة دورا اساسيا في توقيع هذه الاتفاقية .

ولايمكن للمرء ان يغالي في أهمية الدعم الذي قدمته التعويضات الالمانية للكيان الصهيوني . فقد جاءت في وقت كان اقتصاد اسرائيل يعاني معاناة شديدة حتى انه كان على شفا الافلاس . ويكفي ان نتذكر ماكتبته مجلة « الاكونوست » اللندنية عن حالة الاقتصاد الاسرائيلي آنذاك . فقد كتبت المجلة تقول :

« ان صعوبات اسرائيل تمثل كابوسا لرجل الاقتصاد . . فالحكومة تواجه موقفا ماليا يكاد يكون ميئوسا منه . . وقد حافظت اسرائيل على نفسها من الغرق باجراءات تراوحت بين الاقتراض والاستجداء » ⁽٢٨⁾

وليس أدل على سوء اوضاع اسرائيل الاقتصادية عام ١٩٥٣ من أن معدل البطالة وصل الى ١٠٪ ممن في سن العمل ، وبلغت الضرائب على الدخل ٢٠ ـ ٥٠٪ ووصل دين اسرائيل الخارجي في نهاية ذلك العالم الى ٤٠٠ مليون دولار⁽٢٩⁾ .

ليس من المغالاة اذن القول ان مدفوعات التعويضات الالمانية لاسرائيل كانت بمثابة طوق النجاة للكيان الصهيوني . لقد انقذته من افلاس وشيك . ليس هذا فقط بل انها مكنت هذا الكيان من التقاط أنفاسه بعد حرب ١٩٤٨ ، والاستعداد للحلقة التالية في سلسلة العدوان على العرب . فقد كان جزء لايستهان به من السلع الالمانية المقابلة لهذه المدفوعات يتمثل في العتاد الحربي من دبابات ومدافع . . الخ ، ذلك العتاد الذي مكن اسرائيل من غزو سيناء في خريف ١٩٥٦ .

ولم يقتصر الدعم الالماني للكيان الصهيوني على مدفوعات الترضية للحكومة الاسرائيلية ، بل كانت هناك تعويضات للأفراد اليهود في اسرائيل على الخسائر التي تعرضوا لها ابان الحكم النازي في ألمانيا ⁽٣٠⁾ . وقد بدأت المدفوعات للأفراد في نفس الوقت الذي بدأت فيه المدفوعات الألمانية للحكومة الاسرائيلية تقريبا . لكنه على حين توقفت الاخيرة عام

---

(٢٧) مثل هذا الحصر يقوم به المؤلف حاليا في دراسة لجامعة الدول العربية ، المشار اليها سابقا .

(٢٨) انظر **The Economist**، عدد ابريل ١٩٥٣ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ مشار اليه في نيكتينا ، ص ٢٠٣

(٢٩) نيكتينا ، المرجع السابق مباشرة .

(٣٠) تعرف المدفوعات للحكومة الاسرائيلية باسم مدفوعات الترضية **Reparations** أما المدفوعات للأفراد فتعرف باسم مدفوعات التعويض **Restitutions** ومغزى التسمية الاولى واضح ، فالحكومة الاسرائيلية ممثلة لما يسمى الشعب اليهودي ، هي التي تغفر للشعب الالماني خطاياه ومقابل اما الافراد اليهود ، فلابد لهم من تعويض آخر .

جدول (٦)

تدفق المساعدات الحكومية الأمريكية لاسرائيل ١٩٤٩ ـ ٧٥

(بالمليون دولار)

	١٩٤٩ ـ ٥٢	١٩٥٣ ـ ٦١	١٩٦٢ ـ ٦٧	١٩٦٨ ـ ٧٥	١٩٤٩ ـ ٧٥
١ ـ مساعدات اقتصادية	٢٢١,٥	٥٦٤,٧	٢٩٦,٥	١٠٥٩,٢	٢١٤١,٩
قروض	١٣٥,٠	٣٠٥,٨	٢٧٢,٠	٥٦٠,٦	١٢٧٣,٤
منح	٨٦,٥	٢٥٨,٩	٢٤,٥	٤٩٨,٦	٨٦٨,٥
٢ ـ مساعدات عسكرية	—	٠,٩	١٣٦,٤	٤٠٧٥,٢	٤٢١٢,٥
قروض	—	٠;٩	١٣٦,٤	٢٤٧٥,٢	٢٦١٢,٥
منح	—	—	—	١٦٠٠,٠	١٦٠٠,٠
٣ ـ مجموع التدفقات	٢٢١,٥	٦٥٦,٦	٤٣٢,٩	٥١٣٤,٤	٦٣٥٤,٤
قروض	١٣٥,٠	٣٠٦,٧	٤٠٨,٤	٣٠٣٥,٨	٣٨٨٥;٩
منح	٨٦,٥	٢٥٨,٩	٢٤,٥	٢٠٩٨,٦	٢٤٦٨,٥

المصدر والملاحظات : حسبت من الجدول ص ١٨ في

USAID, U.S. Overseas Loans and Grants

المشار اليه في حاشية (٣١) ، مع مراعاة ما يلي :

(١) أعيد تقسيم الفترة بحيث تتمشى مع تطور علاقة الكيان الصهيوني بالعرب .

(٢) تم ادماج قروض بنك التصدير والاستيراد ضمن المساعدات الاقتصادية ، بدلا من ظهورها كبند منفصل في المصدر المذكور .

(٣) تم تصحيح بعض الأخطاء الحسابية في المصدر المذكور ، حيث يعطي مجموعا للمساعدات بمختلف أنواعها يساوي ٦٢٩٦,٠ مليون دولار نتيجة أخطاء جمع عدة بنود فرعية .

١٩٦٢ حسب الاتفاق ، لازالت الأولى مستمرة حتى اليوم ، بل انها في تزايد . وقد بلغ مجموع المبالغ التي دفعت حتى (١٩٧١) ١٩١٠ مليون دولار .

ورغم كل ماقيل ويقال عن اهمية المصدر الألماني لدعم الكيان الصهيوني ، فلا شك ان الولايات المتحدة هي المصدر الاول والاهم على الاطلاق . وفي هذا المجال يجب التمييز بين ماتقدمه الحكومة الامريكية نفسها وما تقدمه المنظمات الصهيونية والأفراد . والنوع الاخير سبق الحديث منه ، ونقصر حديثنا هنا على النوع الاول : مدفوعات الحكومة الامريكية . لقد بلغت هذه المدفوعات خلال الفترة ١٩٤٩ ـ ١٩٧٥ ٦٣٥٤,٤ مليون دولار منها ٢٤٦٨,٥ مليون دولارا (٣٩٪) في شكل منح والباقي وقدره ٣٨٨٥,٩ مليون دولارا (٦١٪) في شكل قروض [٣١] وتفصيل هذا المبلغ يوضحه الجدول (٦) ، الذي لايحتاج الى تعليق كثير ، فهو واضح بذاته . ولكن بالنسبة لاغراض بحثنا يهمنا الاشارة الى تطور هذه المساعدات مع تطور علاقة الكيان الصهيوني بالعرب .

فالفترة التي يغطيها الجدول (١٩٤٩ ـ ١٩٧٥) شهدت الحروب الاربع الاولى بين اسرائيل والعرب (باستثناء الحرب الأخيرة في لبنان عام ١٩٨٢) . ومن المهم ان نلاحظ ان الدعم الرسمي الامريكي المباشر (من الحكومة الامريكية) كان متواضعا خلال الفترة التي اعقبت قيام اسرائيل مباشرة . ولعل اهم عناصره منحة قدرها ٨٦,٥ مليون دولار . ويجب ان نتذكر ان هذه المنحة جاءت في الفترة عصيبة للكيان الصهيوني من الناحية الاقتصادية . وباستثناء ذلك فضلت الولايات المتحدة ان تقدم مساعداتها بطريق غير مباشر من خلال الحكومة الالمانية ، ربما لحسابات متعلقة بخطب ود العرب والاحلال محل بريطانيا وفرنسا في الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الثانية . من هنا يجب النظر الى مدفوعات الترضية والتعويضات الالمانية ليس فقط كتكفير عن الذنب الالماني الذي مضى ، ولكن ايضا كتعبير عن الدعم الامريكي الذي سيأتي . ولنتذكر هنا الدور الامريكي الهام في توقيع اتفاق التعويضات الالمانية كما سبق البيان .

لكن الدعم السافر من جانب الحكومة الامريكية لاسرائيل يظهر في حرب ١٩٦٧ . فعلى حين كانت المساعدات العسكرية الامريكية لاسرائيل خلال الفترة (١٩٤٩ ـ ٦٥) ٤٨,٤ مليون دولارا فقط تقفز الى ٩٠ مليون دولارا عام ١٩٦٦ . الا يعني هذا شيئا بالنسبة للدور الامريكي في العدوان الصهيوني على الامة العربية عام ١٩٦٧ ؟ مثال اخر من حرب ١٩٧٣ . فبعد هذه الحرب مباشرة وفي ١٩٧٤ بلغت المساعدات العسكرية الامريكية لاسرائيل ٢٤٨٢,٧ مليون دولارا منها ١٥٠٠ مليون في شكل منح لاترد ! وكان مستوى هذه المساعدات عام (١٩٧٣) ٣٠٧,٥ بليون دولارا فقط . وكلنا يتذكر الجسر الجوي الامريكي لاسرائيل في حرب اكتوبر .

---

(٣١) مصدر هذه البيانات هو

Agency for International Development (ALD(, U.S. Overseas Loans and Grants and Assistance from International Organizations . Obligations and Loan Authorizations July 1, 1945 June 30, 1975., P.18.

ان المساعدات الهائلة التي دفعتها ولازالت تدفعها الولايات المتحدة لاسرائيل ماهي الا استثمار من وجهة النظر الامريكية انها وسيلتها المثلى في تأمين مصالحها في منطقة الشرق الاوسط(٣٢) فاسرائيل هي كلب الحراسة الامين ، وحاملة الطائرات التي لاتغرق ، والذراع الطويلة . هي كل هذا بالنسبة للولايات المتحدة . ولنتذكر جيدا دور اسرائيل في الاجهاز على تجربة التحول الاشتركي والاستقلال الوطني في مصر ، وعلى تجربة بناء قدرة تكنولوجية وطنية في العراق ، وفي التآمر على الثورة الايرانية . لكل ذلك نقول ان الولايات المتحدة الامريكية ، طليعة الامبريالية العالمية تقف مع اسرائيل في مواجهة العرب .

٥ ـ خاتمة واستنتاجات :

حاولنا في هذه الدراسة اقامة الحجة على ان اسرائيل ، بحكم العقيدة الصهيونية الاستبعادية العنصرية (القائمة على فكرة شعب الله المختار » و « التمييز العنصري لليهود ») ، وبحكم معطيات واقعها الاقتصادي في فلسطين ، سوف تسعى دائما نحو التوسع وفرض الهيمنة . وهذا يجعل الحديث عن السلام من جانب العرب مجرد أضغاث أحلام . وذكرنا ان جوهر الصراع بين العرب واسرائيل يكمن في التضاد والتنافي بين المشروع الصهيوني والمشروع العربي وفي تحالف اسرائيل مع الاستعمار . وهذا يسقط كل حديث عن الحاجز النفسي وتطبيع العلاقات ، فلا بديل الا المواجهة على مختلف الاصعدة ـ اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية واعلامية وعلمية وتكنولوجية .

لكن حتى لانظل أسرى في مصيدة رد الفعل علينا أن نحدد لنا هدفا واضحا وأن نسعى الى تحقيقه بكل السبل ومهما كانت التضحيات .

والتشخيص الذي قدمناه في هذا البحث لطبيعة الصراع بين العرب واسرائيل يقدم لنا الأساس المطلوب لتحديد الهدف . وبذلك فاننا نقترح أن يكون الهدف الاستراتيجي للتنازل العربي ضد اسرائيل ـ هو : تصفية وضع اسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية في قلب الوطن العربي (٣٣) . هذا التحديد للهدف يكشف أن صراعنا هو في الواقع مع الكيان الصهيوني في فلسطين وامتداداته خارجها ، ومع القوة الامبريالية الظهيرة لها في أن واحد . بذلك يتحدد الموقع الحقيقي للعرب واسرائيل وامريكا على خريطة الصراع ، فالعرب يقفون في جانب واسرائيل وأمريكا في الجانب الآخر .

أن تحديد الهدف بهذا الشكل يعني أن أبعاد المواجهة متعمدة ومجال تركيزنا هنا البعد الاقتصادي . والحد الادنى الذي

---

(٣٢) في وجهة نظر مشابهة انظر د . فؤاد مرسي ، « اسرائيل والكارتل النفطي العالمي » ، المؤتمر القومي لاستراتيجية العمل العربي المشترك (بغداد ١٩٧٨) ، ص ٣١٨ .

(٣٣) لقد سبق للدكتور اسماعيل صبري عبدالله تحديد صياغة مشابهة للهدف العربي انظر كتابه القيم : د . اسماعيل صبري عبدالله ، في مواجهة اسرائيل ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الوحدة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠) ، بالذات الفصل الخامس بعنوان « استراتيجية للنضال العربي » ، وهو يركز على تصفية وضع اسرائيل كقاعدة صهيونية ، ولكننا نضيف الى ذلك صفتها الاخرى وهي انها قاعدة استعمارية .

نراه ضروريا في هذا المجال هو المقاطعة . لذلك لابد من رفع شعار المقاطعة كبديل لشعار التطبيع ، على أن يفهم من هذا أن المقاطعة لاتقتصر على مقاطعة الشركات التي تتعامل مع اسرائيل فحسب ، كما هو الحال حتى الآن ، ومقاطعة كل طرف يدعم اسرائيل بأية صورة وبالذات كل من يقدم دعما ماديا مباشرا لاسرائيل .

وينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن المواجهة الحقة والفعالة ، حتى في بعدها الاقتصادي ، لها متطلبات أخرى غير اقتصادية وفي مقدمة هذه المتطلبات تغيير موقف النظم العربية من الصراع ، ذلك الموقف الذي دأب على استجداء الولايات المتحدة لكي تضغط على اسرائيل لتقديم التنازلات . ونخشى أن يكون هذا الموقف اكثر من مجرد تعبير عن سوء الفهم لطبيعة الصراع . فالتحليل الوارد في هذا البحث ، وموقف الولايات المتحدة من اسرائيل خلال حرب لبنان لايترك أي مجال للتخمين حول موقع الولايات المتحدة من الصراع ـ ذلك الموقع الذي يحدد موقفها فيه . ان على الجميع في هذه الحالة مخاطبتها باللغة الوحيدة التي تفهمها ـ لغة المصالح الحيوية . (٣٤)

* * *

---

(٣٤) نقطة المصالح الحيوية الامريكية هي احد محاور تقرير معهد بروكنجز عن السلام في الشرق الاوسط والذي يعد الاساس النظري لمبادرة السلام واتفاقية كامب ديفيد . وهو يحدد مصالح الولايات المتحدة في تدفق البترول والتجارة والاستثمارات والاتصالات خلال منطقة الشرق الاوسط (ص ٦) . كما ينص على اطار للسلام يضمن التزام الطرفين بانهاء المقاطعة والحصار الاقتصادي والغاء الحواجز امام انتقال الاشخاص والبضائع ، وتطوير « علاقات طبيعية » في المجالات الاقتصادية والسياسية (ص ١٠) . انظر

The Brookings Institution, Toward Peace in the Middle East :

Report of a study group (Washington, D.C., 1975(.

قضية حدود اسرائيل الآمنة
وتناقضات الدول الاستيطانية

تأليف : نيلز جونسون
قسم الاجتماع والأنثروبوجيا وعلم النفس
الجامعة الامريكية بالقاهرة
ومؤلف كتاب القومية الفلسطينيه وسياسة المعق (بالأنجليزية)

ترجمة : يسر عبد الموجود

من الأشياء المعروفة الآن أن إسرائيل لايمكنها البقاء دون صراع ، وان هذا يرجع الى ضرورة احتفاظها بتأييد وتعاطف الافراد والجماعات فى الخارج . ومما لاشك فيه أن صورة « اسرائيل المحاصرة » هى صورة اساسية بين المتعاطفين مع الصهيونية . ولكنني فى هذا البحث سأذهب الى ان هذا التفسير هو تفسير تغير جزئى وسطحى للغاية لعملية اذكاء وتصعيد الصراع الذى أصبح علامة مميزة للسياسة الاسرائيلية ، خاصة فى السنين الأخيرة .

وسأطرح على وجه التحديد وجهة نظر مفادها أن إذكاء الصراع هو تعبير عن تناقض أساسي بين حالة « الحدود الآمنة » وطبيعة الدولة الاستيطانية مثل اسرائيل . وفى كلمة واحدة ، يمكن القول إن الصراع ضرورى للحفاظ على هويتها كجيب اثنى . والمعانى المتضمنة فى وجهة النظر هذه واضحة ، فاذكاء الصراع ليس استراتيجية عقلانية وانما هو سمة حتمية لدولة إسرائيل الاستيطانية ، والحدود الآمنة مع جيرانها هى بمثابة تهديد لهويتها اكثر من ان تكون ضمانا لها .

ان وجهة النظر التى اطرحها هى بايجاز شديد كمايلى: إن الدولة الاستيطانية الصهيونية ، شأنها فى هذا شأن كل الدول من هذا النوع ، تستند الى افتراض عدم المساواة والاختلاف الاثنى عن السكان التى فرضت نفسها عليهم ، وهذا الاختلاف الاثنى هو سبب وجودها ، ولذا يجب الحفاظ عليه إذا ما أريد لها أن تستمر على صورتها الحالية دون تغيير ، وبالتالى فان هدفا

ملخص :
في هذا المقال ينظر الكاتب الى اسرائيل بوصفها خالقة للصراع ، ويؤكد أن إسرائيل لاتستطيع أن تعيش داخل حدود آمنة ، لأنها لاتستطيع أن تحافظ على ايديولوجية العزلة الصهيونية إلا من خلال الصراع مع جيرانها ، ويشير الكاتب إلى أن ضرورة الحياة فى صراع ليست سمة لاسرائيل وحدها ، ولكنها كامنة فى الطبيعة الاثنية للدول الاستيطانية .

اساسيا من أهداف السياسه التى تتبعها مثل هذه الدولة هو زيادة الخلاف . ويتم هذا عادة عن طريق تبنى أسلوب فى العمل السياسي يزيد م حدة التوتر ، ويؤكد دائما عدم التواصل الادراكى والجغرافى بين الدولة الاستيطانية وجيرانها . وحالة الحدود الآمنة تجعل من الممكن تحاشي مثل هذا الاسلوب فى العمل السياسى ، وهو الاسلوب الذى يقول بعملية الحفاظ على هوية الدولة ، وبالتالى فحالة الحدود الآمنه يتناقض وبشكل مباشر مع طبيعة الدولة الاستيطانية ذاتها .

وحينما نطبق ذلك على حالة اسرائيل فان وجهة النظر التى نطرحها ليس مجرد اعادة لوجهة النظر القديمة الخاصة بفكرة « اسرائيل المحاصرة » ، كما أشرنا من قبل ، وإنما هى سمة مشتركة لكل الدول الاستيطانية وتمتد جذورها في طبيعة الجماعات الاثنية بشكل عام . ولتوضيح وجهة النظر هذه سنناقش الدول الاستيطانية والجماعات الاثنية والدور الذى يلعبه الصراع فيها ، ثم فى النهاية سنناقش سلسلة من الحالات مستقاة من الصهيونية واسرائيل .

الدول الاستيطانية والاثنية

إن الدول الاستيطانية هى نتاج توسع العالم الغربى الصناعي ، ولايمكن فصلها عن الموضوعين الاكثر شمولا ، الامبريالية والاستعمار ، وان كانت هذه الدول تمثل شكلا متطرفا من هذا الأخير . ولايمكن فصل ايديولوجيات هذه الدول عن نظريات الاختلاف والتفوق الحضارى التى تستند اليها الامبريالية .

بما ان الدولة الاستيطانية تستند الى نظرية التباين الثقافى فهى لذلك تأخذ شكلا متطرفا من اشكال الايد يولوجية العرقية تتجسد فى دولة ذات حدود مستقلة . فاذا كان الامر كذلك يصبح من الضرورى مناقشة مسألة الجماعات الاثنية ومشكلات حدود ها ، لأن السياسات المتعلقة بالمحافظة على هذه الحدود هى التى تزودنا بمفتاح لفهم وجهة النظر الاساسية فى هذا البحث .

وقد كانت المجموعات الاثنية ونظرية « الاثنية » (اى العصبية الاثنية او الاحساس بالانتماء لجماعة اثنية ذات ثقافة مستقلة) مثار اهتمام خاص من علمى الأنثرويولوجيا الاجتماعية والاجتماع فى العشرين سنة الماضية . ففى الولايات المتحدة مثلا أفضى النمو السريع للثقافات الفرعية مثل ثقافة جماعات « الشيكانوز » (اى الامريكيين من أصل اسبانى) ، والدور الذى تلعبة هذه الجماعات ومثيلاتها فى الحياة السياسية والثقافية الامريكية ، الى تزايد الضغط على المتخصصين فى مجال العلوم الاجتماعية لتناول قضايا الاثنية . وفى كندا أدى ظهور جماعات الهنود الامريكيين والكنديين من اصل فرنسى ـ كجماعات نشطة سياسيا ـ الى ترويج الاهتمام بهذا الميدان من ميادين البحث . ومع ذلك فان الشعور بالحاجة الى هذا النوع من الدراسات قد ظهر فى العالم الثالث فى عصر ما بعد الاستعمار بشكل اكثر إلحاحاً منه فى أي مكان آخر فى العالم . وقد وجدت دول هذا العالم ـ والتى هى تركة عصر الاستعمار ـ وجدت حدود ها تضم جمعا من البشر بينهم اختلافات واضحة فى اللغة والملبس والبنية الاجتماعية وفى النظرة الى العالم ، ولايجدون ـ بحق ـ سببا ولو ضئيلا لنبذ انتماءاتهم الثقافية لصالح كيان قومى يبدو لهم فى أحسن الأحوال مصطنعا .

أما الجماعة العرقية فيفترض ـ كما تقول أدبيات الانثر وبولوجيا الاجتماعية ـ انها الجماعة التى تتوافر فيها السمات التالية : ـ

وجود ذاتى دائم من الناحية البيولوجية ، وافرادها يتواصلون ويتفاعلون فيما بينهم ويشاركون فى نفس القيم الثقافية الاساسية والاشكال الثقافية الموحدة ، كما أن لها نظاما للعضوية يميزها عن الجماعات الاخرى (بارث : ١٩٦٩ ص ١٦) .

ولكن ذلك التعريف ـ على اية حال ـ تعريف واسع للغاية ، فهويتضمن عناصر كثيرة الى درجة أنه يصبح تعريفا غير مجد من الناحية التحليلية .

ولنأخذ على سبيل المثال فكرة الاشكال والقيم الثقافية المشتركة . ان جماعة أثنية واضحة المعالم الى درجة كبيرة مثل « الصعايدة » المصريين تملك « نموذج مثالى » ـ اختلاف فى اللهجة ، اختلافات فى الملبس ، تفضيلات معينة فى الطعام ، وغيرها من الاختلافات التى تميزهم عن سائر الجماعات الاثنية فى مصر . ومع ذلك فان الصعيدى يظل منتميا لجماعته ومقبولا بين اعضائها على الرغم من قيامه بتغيير ملبسه ولغته وموقفه ، ولذا فالقيم الثقافية بصفة عامة لاتميز وحدها اعضاء الجماعة .

وقد وجد بارث (١٩٦٩ ص ١٠) بؤرة تحليلية مفيدة فى الحدود التى تفصل بين الجماعات الاثنية المختلفة . فبدلا من التركيز على مصنف لكل الاشكال الثقافية التى تشكل خصائص جماعة اثنية ما ، فانه يتمسك بأن تنظر الى حدود تلك الجماعة ، اى الى العلامات الرمزية التى تستخدم خصيصا للتفريق بين الجماعة وغيرها من الجماعات . وذلك لأنه الجيب الاثنى ، بتركيزه على العناصر الثقافية التى تعد جوهرية في تشكيل هويته والتى تبين اوجه التناقض بين هذه الجماعة والجماعات الاخرى يسهل تمييزه وبذا يمكنه الاستمرار فى البقاء .

لهذا السبب فان دارسة الاثنية لابد من ان تنصب على تلك الرموز الثقافية التى تكون موضع تأكيد كى يتسنى الحفاظ على الحد الذى يفصل جماعة ما عن الجماعات الأخرى ، أكثر من كونها دراسة لكل شىء يفترض فيه انه يميز بين خصائص الجماعة المميزة . فالاثنية هى « رمز التناقض »اذا استخدمنا عبارة ديفوز (١٩٧٥ ص ٣٦٣) .

ولنورد مثالا يمكن ان يكون مفيدا فى ايضاح هذه النقطة محل التركيز فى ابحاث الجماعات العرقية :

فقد لاحظ كوهين (١٩٧٦ ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٤) فى اثناء عمله فى منطقة ايبادان أن الاسلام هوأحد الاشكال والقيم الثقافية التى تميز قبائل الهاوسا كجماعة ، وذلك الى جانب الملبس والحرف واللغة . ولكن بعد ان انتشر الاسلام واصبح سمة مشتركة مع بعض الجماعات النيجيرية الأخرى توقف عن ان يلعب وظيفة الحفاظ على حدود الهاوسا كجماعة اثنية . بقى الاسلام اذن من سمات الهاوسا ، ولكن هذه السمة لم تعد تتناقض بحدة مع الجماعات الاخرى التى

تتفاعل مع الهاوسا على اساس منتظم . ولكن تبنى الهاوسا تدريجيا لمذهب التيجانية زودها بمجموعة جديدة بين الرموز التى تميز الحدود بشكل فعال وتقيم التناقض بينها وبين حدود الآخرين : هذه الرموز قد تكون طقوسا دينية خاصة أو طريقة خاصة فى الصلاة ، او قيادات وتقاليد دينية خاصة بل ومساجد مستقلة . فلكى تنتمى لجماعة الهاوسا فلابد ان تبقى مسلما ، ولكن الى جانب ذلك يجب ان تكون بصفة خاصة مريدا تيجانيا .

ان هذا النمط فى علم الاجتماع يتعين ادراك اهميته كجزء من تحليل الدول الاستيطانية ، لأننا لانجد اى دولة استيطانية اقيمت على فرضية التكامل النهائى مع جيرانها ، وانما نجد ان ديناميتها السياسية هى ديناميات الجماعة الاثنية ، إذ يتوقف بقاؤها على تناقضها مع الجماعات الأخرى ، ولكى تستمر فى الوجود فانها يجب ان تدعم الحدود الثقافية والاقتصادية والسياسية التى تجعلها جماعة متميزة .

وهذا التأكيد على العلامات التى تميز الحدود والجيوب الاثنية (مثل الدول الاستيطانية) وعملية الحفاظ عليها ليس شيئا فريدا في الثقافة الانسانية ، وانما هو شيء جوهرى فيها . ويمكننا التوصل الى فهم كاف لعمق الولاء لتلك الرموز الخاصة بالتناقض الاثنى ، وعمق الالتزام بالمحافظة عليها اذا ما القينا نظرة سريعة على المستويات العديدة التى تكون مسألة صيانة الحدود فيها مسألة هامة فى الثقافة الانسانية .

فالثقافة نفسها ليست إلا نظاما يبين الحدود ، ذلك ان الخاصية الفريدة للانسان بوصفه حيوانا هي قدرته على أن ينظم ادراكه للعالم من اجل تصنيفه وترتيبه ، ولهذا السبب يشكل النظام الخاص للمقولات او الواحدات التصنيفية (وهي تعني الحدود المرسومة بين الاشياء في عالم الظواهر) . هذا النظام الذي تتبناه جماعة معينة يشكل ثقافة تلك الجماعة . كما ان هذه الحدود تصبح واقع تلك الجماعة ـ اما العالم كما تدركه الجماعة وكما تفسره وتعمل في إطاره فمن الواضح ان تآكل تلك الحدود الادراكية سوف يسفر عن تآكل فهم الجماعة المشترك للعالم . ويمكن ان يفضي ذلك بدوره الى فوضى اجتماعية . ويمكن عادة منع هذا التآكل او تأخيره عن طريق حماية الحدود باستخدام مجموعة هائلة من الميكانيزمات . وليس مفهوم القدسية إلا واحد من اكثر هذه الميكانيزمات شيوعا ، فهذا المفهوم يحمي الافكار الجوهرية في الثقافة داخل سور من المحرمات « التابو » ـ اي مجموعة من الفتاوي والطقوس التي تجعل من الهجوم على هذ الافكار الاساسية خطأ جسيما لا يمكن اغتفاره .

ولقد قام علم النفس الاداركي باختبار قائمة الميكانيزمات الدفاعية الموجودة داخل الكائنات البشرية والخاصة بالمحافظة على الحدود الأثنية ، وبالتالي على النظام الادراكي العام على مستوى الافراد . وعلى سبيل المثال نجد ان الاطفال الذين تقرأ عليهم قصة تكون شخصياتها متفقة مع النمط العنصري الخاص بهم لا يجدون صعوبة في استرجاع تفاصيل الحبكة ،ة ولكن عندما يقرأ على الاطفال نفس القصة ولكن الانماط العنصرية للشخصيات لا تكون مناسبة لهم فانهم يجدون أنه من الصعب بمكان تذكر الاحداث ، وبعبارة اخرى فان الذاكرة تتعثر عندما تحيط الأخطار بالنظام الادراكي الموجود مسبقا .

وقد ولدت حماية الحدود الادراكية بعض الاشكال الاجتماعية الهامة والمثيرة للاهتمام ، فقد قيل على سبيل المثال ان الكاثوليكية شجعت حركة الرهبانية بوصفها حركة يستطيع المفكرون في اطارها مناقشة المضامين اللاهوتية المعقدة للعقيدة ، بينما يبقون منفصلين عن جماهير المؤمنين التي يمكن ان تكون الافكار الجديدة بمثابة تهديد لهم ، سواء فيما يتعلق بالمؤسسات الفردية او الكنسية ، كما اوضح بيترز (١٩٦٠) ان القبائل الرحالة تظهر عليها اعراض فقدان الذاكرة ، اذ ينسون تفاصيل تسلسل الانساب التي قد تهدد الرواية المقبولة لديهم او المتداولة بينهم حول علاقة القرابة بين مجموعة واخرى . ولذا فانه يتم حماية تقسيمات روابط الدم من خلال ابهام تسلسل الأنساب .

لقد ابتعدت قليلا عن قضيتي الرئيسية ولكن هذا الابتعاد له دلالة هامة ، فالمجموعات الاثنية تؤكد اهمية الحدود الثقافية بينها وبين الجماعات الأخرى ، وهذه الحدود الاثنية تكون عنصرا اساسيا في واقع اعضاء الجماعة . ولذلك تصبح حماية تلك الحدود محط الاهتمام الشخصي بقدر ماهي محط اهتمام الجماعة ، ومن ثم يعد أي تهديد لهذا الاحساس بالتناقض مع الآخرين المشار اليه خطيرا بالنسبة لفهم الفرد للواقع الاجتماعي . ولهذا السبب فليس من الغريب ان نكتشف ان البشر يظهرون الولاء المتطرف بل وحتى التعصب حين تثار مسألة الانتماء الاثني .

الصراع وسياسة التناقض

بعد أن ناقشنا أهمية صيانة الحدود بالنسبة للجماعات الاثنية واعضائها ننتقل الى السؤال الخاص بالصراع في اطار عملية تمايز الجماعات .

ان كل المجتمعات الانسانية تظهر ميلا نحو التعاون والصراع في اطار العلاقات القائمة بين اعضاء هذه المجتمعات والمجموعات المكونة لها . والفصل بين هاتين الظاهرتين (التعاون والصراع) شيء عسير للغاية في واقع الأمر لانهما مترابطتان بشكل جدلي (ديالكتيكي) ، ذلك ان كل نمط من انماط التفاعل يتضمن - بل يولد في الحقيقة - النمط الآخر . فاي شكل من اشكال التعاون بين اعضاء اي مجموعة يؤدي الى استبعاد حتى - قد يكون مقصودا وقد يكون غير مقصود - للآخرين ، وهذا الاستبعاد يتحول بسرعة الى درجة من درجات الصراع .

والنقطة الهامة التي أريد توضيحها هنا هي ان الجماعات الانسانية تعمل بشكل اكثر كفاية لأسباب معروفة - عندما توجد درجة عالية نسبيا من التعاون الداخلي بين الأعضاء . ولكن من ناحية اخرى لايوجد اسلوب اكثر كفاية لزيادة هذا التعاون الداخلي من الصراع الخارجي مع الجماعات الاخرى . فالصراع يشجع تأكيد حدود الجماعة ويقوي ارتباط الاعضاء الافراد بالرموز التي تؤكد التناقض بين الجماعة التي ينتمون اليها والجماعات الأخرى ، ويزيد من قناعة هؤلاء الأفراد بأن تلك الرموز شيء هام . فالصراع اذن يبرز هوية الجماعة ، كذلك التزام الافراد بتلك الهوية . وهنا تكمن مفارقة مثيرة للفضول ، فالمقولات (الوحدات التصنيفية) التي هي في أمس الحاجة الى الحماية ضد التهديد تحظي بتأييد هائل عندما يكون التهديد ماثلا وتضعف عندما يكون التهديد بعيدا .

وقد قدم علم النفس واحدة من أشهر دراسات الصراع كعنصر في عملية الحفاظ على الجماعة في كتاب فيسينجر الكلاسيكي **عندما تتحقق النبوءة** (سنة ١٩٦٥) الذي درس فيه مساعدو المؤلف عقيدة كان يؤمن اتباعها بنبوءات امراة زعمت انها تتلقى رسائل من الفضاء . وقد تنبأت تلك الرسائل بنهاية العالم وهلاك الجميع فيما عدا أتباعها ، وتخلى اولئك الذين انضموا للجماعة عن كثير من متع الحياة المادية وثرواتها لاعداد انفسهم ليوم الطوفان القادم . وقد اعلنت هذه النبية المزعومة عن عدة تواريخ يقع فيها الحدث النهائي العظيم ، وفي كل مرة كان الاعضاء بطبيعة الحال يصابون بخيبة امل .

ومن الواضح ان هذا الشعور قد هدد الجماعة لأن علامتهم المييزة هو الأيمان بنبوءة الهلاك . ومما زاد الطين بلة نشوب الصراع مع الافراد الذين لم ينضموا للجماعة ، والذين كانوا يرفضون سلوك التابعين بشكل جوهري . ومع هذا كانت المحصلة الاخيرة لخيبة الأمل والصراع زيادة ملحوظة في التزام الاعضاء بعقيدتهم ، ودعم العلاقات الحدودية للجماعة ، واتخذ ذلك شكل الفحص المدقق من جانب الاعضاء لمدى ايمانهم الشخصي . وكانت النتيجة التي خلصوا اليها أن النبوءة قد فشلت ، لأنهم هم انفسهم فشلوا ، وان النبوءة سوف تتحقق اذا ماضاعفوا من ايمانهم . في هذه الحالة لم يؤد الصراع الى تعميق التناقض بين الجماعة والجماعات الاخرى وحسب ، وانما ادى ايضا الى ان الاعضاء التزموا بشكل اكثر بعقيدتهم حتى يتطابق سلوكهم بشكل اكثر عمقا مع آمال وقيم الجماعة . هذه اذن هي محصلة من محصلات الصراع الاجتماعية يعرفها كل واحد منا لا من التاريخ وحسب وانما من خلال خبرته الشخصية .

واذا كان المرء يرى أن تلك الظاهرة شائعة بين الجماعات الانسانية بصفة عامة فيكون من الواضح اذن انها ستكون ذات اهمية قصوى (اولية) لدى الجماعات الاثنية التي تكون حدودها جوهر وجودها المستمر كما رأينا .

وهذه في الواقع هي الحالة : فالجماعات الاثنية تستجيب بقوة للتهديد والصراع ، اذ تزداد حيوية وتكتسب مزيدا من الصلابة التاريخية من خلال الصراع ، ويبدو أنها تزدهر من خلال الصراع ، ويزودنا التاريخ الحديث بامثلة عديدة على ذلك ، ويعد النموذج الكردي اكثرها اثارة للاهتمام .

فالاكراد لديهم تاريخ مكتوب يمتد في الماضي الي العصور القديمة ، كما ان لهم لغة مميزة ، ولديهم الملبس الخاص والبنية السياسية والانتاج الادبي الكرديين ، وقد اصبحت مطالب الاكراد منذ القرن التاسع عشر وحتي الآن ـ بالاستقلال الذاتي او الاستقلال الكامل ، واحدة من القضايا السياسية الرئيسية في الشرق الاوسط .

وترجع الصورة الاثنية الرائعة الي كميات الصراع المتزايدة بين الاكراد والدول القومية التي يعيش الاكراد فيها مشتتين(العراق ـ ايران ـ سوريا ـ تركيا ، الاتحاد السوفيتي) .

لقد بقيت الهوية الكردية والانتساب العرقي لها دون تحد ـ بدرجة او اخري ـ حتي القرن التاسع عشر . . بل انها اظهرت مؤشرات علي الذوبان البطيء في الثقافة التركية(لا سيما بين النخبة) حتي بدأت تتهددها المحاولات العثمانية الرامية

لدمج الاكراد وسائر الأقليات بالقوة في دولة اكثر , ,تركية ، ،(كندال ١٩٨٠) وقد شهد القرن التاسع عشر ، نتيجة لذلك ، سلسلة من الثورات الكردية ضد السلطة العثمانية ، وتبعا لذلك نشأت حركة أدبية وصحيفة كردية (كينان ١٩٦٤ص٥) . وتصاعدت الصراعات مع الدول الاخرى ، وتوجت هذه الصراعات بالحرب الطويلة مع العراق طوال العقدين الماضيين ، وعمليات حرب العصابات الاخيرة ضد النظام الايراني الثوري . وكلما تصاعد هذا الصراع فاننا نري تحركا تجاه وحدة سياسية اقوى واكبر بين الاكراد ، كما نرى تأكيدا متميزا على تميزهم العرقي . فالحدود الاثنية اذن قد ازدادت قوة ـ في هذه الحالة ـ بازدياد درجة الصراع .

والآن علينا ان نمضي مع هذه النقطة خطوة اخرى ، فأزعم انه في حالات عديدة تتهدد الجماعات الاثنية من جراء نقص الصراع او النضال لأنهما اكثر الوسائل فعالية في صيانة الحدود الاثنية واستنفار ولاء الاعضاء الى رموز التناقض التي تفصل بين الجماعة والجماعات الاخرى . وثمة احتمال كبير ان تؤدى العلاقات الودية مع الجماعات الاخرى الى استيعاب الجماعة الاثنية وتحللها النهائى . اذن فمن المنطقى ان نتوقع اكتشاف جماعات عرقية تعمل على تصعيد الصراع في الظروف التي لا يوجد فيها سوى قليل او لا يوجد اصلا تهديد قاهر ـ اى انه اذا لم يك ثمة اعداء ، فقد يكون من اللازم اختراعهم .

والأمثلة على ذلك وفيرة ، ويقفز الى الذهن من بينها خلال العقد الماضي الجماعة الأرمنية . فقد ادت مدابح الأرمن في تركيا ، قبيل الحرب العالمية الاولى والتي قتل فيها مليون ونصف مليون ارمنى ، الى تشتيت الأرمن في جميع انحاء العالم . لقد كان الأرمن دائما احدى قسمات فسيفساء الشرق الاوسط ، كما أنهم كانوا دائماً يوجدون في مجتمعات أخرى عديدة ، إلا أن المذابح أجبرت اعداداً اكبر منهم على الهرب من وطنهم بحثا عن الامان . وقد ساعدتهم عقيدتهم الدينية المتميزة ، كما ساعدتهم لغتهم وأدبهم وتقاليد نشاطهم الفكري ، على الحفاظ على هويتهم وتعزيزها .

ولكن بدأ ينمو ببطء في السنوات الأخيرة شعور بين الأرمن بتحلل إحساسهم بالانتماء الاثنى ، فالشبان يظهرون اهتماما اقل بالحفاظ على هويتهم المتميزة ،ويخشى الارمن الانهيار النهائي لحدودهم الثقافية من خلال استيعابهم في المجتمعات الاخرى (سكارتزر ١٩٨٢) . لقد بدأت حدود الاثنية الارمنية تختلط ، اذ لم يعد الأرمن اقلية مضطهدة . ولم يعودوا مشتبكين في صراع مع الآخرين ، فبالرغم من حقيقة أن كل العلاقات الرمزية المحددة للهوية لا تزال مصونة ـ كالكنيسة واللغة وما شابه ـ إلا أن نقص الصراع الحقيقي يبدو سببا حاسما في التدهور المفترض للتميز الأرمني .

وقد كان حاصل ذلك هو التحرك نحو الصراع والعنف . فأخذ رجال العصابات الأرمن يهاجمون الاهداف التركية في اجزاء متعددة من العالم ، واخذت المنظمات الثورية الأرمنية التي تموها الجاليات الأرمنية في المنفى (الشرق الاوسط ، سبتمبر ١٩٨٢) في اصدار بيانات عن نضالها . بينما وضع شعار « الأرمن لن ينسوا ابد » على جدران الحي الأرمني في القدس ، وتمتلىء ادبيات تلك المنظمات بمشاريع اولية لاقامة دولة أرمنية . فمع من تتصارع المنظمات الأرمنية ؟ انها لا تصارع نظاما قائما ، ولكن مع امبراطورية عثمانية انتهى وجودها منذ ما يقرب من ٧٠ سنة مضت .

ان الصراع هنا قد خلقته جماعة اثنية لا بسبب اضطهاد قائم في الوقت الراهن وانما بسبب مذابح وقعت في الماضي ،

وتستخدم ذكرى المذابح كتبرير للعنف دون وجود امل واقعي في القصاص او الحصول على تعويض ما وانما بهدف اعادة تأكيد حدود اثنية ليست مهددة بالفناء البدني وانما بالاستيعاب السلمي ، فتوليد او خلق الصراع هو اكثر الطرق مباشرة لابراز الشخصية الثقافية للمرء لأن نقص الصراع ينذر بكارثة .

وهنا نعود مرة اخرى الى مقولتي الاساسية ، فاذا كان الصراع يرتبط على هذا النحو الوثيق بتقوية الاثنية وحدودها الرمزية الدالة على التناقض ، واذا كان نقص الصراع حول هذه الحدود يعرض استمرار الجماعة للخطر ، فيجب اذن أن نتوقع أن توليد أو خلق الصراع ـ بوصفه وسيلة للحفاظ على شخصية الجماعة ـ يأخذ شكلا متطرفا في حالة الدولة الاستيطانية ذلك النموذج الاولى المثالي للجيب الاثني . ومن بين الاشكال العديدة التي يمكن أن تتخذها هذه الظاهرة يهمنا هنا شكل واحد : عدم التسامح ازاء الحدود الارضية (الاقليمية) الآمنة باعتبار أن تلك الحدود ترمز الى كل من الدولة واثنية الجماعة .

وبطبيعة الحال توجد امثلة عديدة لخلق الصراع في الدول الاستيطانية ، ولكنها لا تتجلى كلها في الالتزام الصارم بحدود جغرافية . وتعد حالة الجزائر الفرنسية مناسبة هنا بوجه خاص ، اذ يبدو واضحا من التحليل التاريخي ان المستوطنين الجزائريين انتهزوا كل فرصة ممكنة لخلق الصراع او تصعيده مع كل طرف كان يهددهم بالدمج الكامل للعرب والبربر في صفوفهم ـ اى كان يهددهم بالاعتداء على حدودهم الاثنية . وقد ربط احد العلماء (ورد في كونفر ١٩٦٦ ص ٦٧) بين عقلية المستوطنين وسكان اسبرطة القدماء الذين عاشوا تحت وهم التهديد ، ولذلك فأنهم خلقوا صراعا حقيقيا . ووصف مصدر آخر استراتيجية المستوطنين بأنها استراتيجية لاستجلاب عداوة الادارة الفرنسية متهمين إياها باضطهاد العرب في الوقت الذي كانوا يخبرون العرب انهم لا يستحقون سوى الاحتقار ، وانهم يجب التحكم فيهم وأن يمنعوا من الاندماج (كونفر ١٩٦٦ ص ٣١) . وهكذا قوبلت اية محاولة يبذلها اى شخص للتعايش السلمي بمعارضة عنيفة ، بل ووصل الامر الى حد التهديد بالثورة العلنية من جانب السكان الفرنسيين ضد الحكومة الفرنسية (كوانت ـ ١٩٦٩ ـ ص ٦) . ويمكن رؤية هذه العملية في جنوب افريقيا تتم على مستويات مختلفة ، فالصراع يتم اذكاؤه بالادعاء بأن جنوب افريقيا هي آخر حصن للقيم المسيحية ومعاداة الشيوعية في القارة الافريقية ، ويتضمن ذلك الادعاء ان اضطهاد السود في جنوب افريقيا ليس اجراء عنصريا ولكنه ذو مضمون دولي ، ومن ثم يضفي الشرعية على عدد كبير من الاجراءات المتطرفة ضد السود والبيض المنشقين في آن واحد . وتقوم الوحشية المنظمة واعمال القتل من جانب قوات الامن الحكومية بتعميق الفوارق بين هؤلاء وبين الجانب الآخر على خط الأبارتهيد (سياسة التنمية المنفصلة للاجناس) .

لقد رأينا إذن أن الاثنية في كل مكان تعتمد في وجودها على صيانة الحدود المميزة ، وان الصراع هو من الوسائل الاساسية في صيانة هذه الحدود ، كما ان الصراع يمكن ان يصطنع أو أن يذكي من اجل تعزيز او اعادة بعث الفوارق الاثنية التي قد تبدأ في الاضمحلال نتيجة لنقص الصراع او التنافس مع الجماعات الاخرى .

ارتكازا على ذلك فانني أزعم ان الدول الاستيطانية لا يمكن ان تقبل حدوداً آمنه أو علاقات ودية مع جيرانها ، لأن مثل هذه العلاقات تقوض الفوارق الاثنية التي هي بمثابة مركز هذه الايديولوجيات .

الصهيونية واسرائيل والصراع

بناء على ما تقدم فان الواضح ان اسرائيل في حاجة للصراع لكي تصون طبيعتها اليهودية الخالصة الانفصالية ، ولقد شجعت الصهيونية من جانبها وعبر تاريخها كله هذا الصراع . وفي هذا القسم سوف اركز على عدد من المصادر المختلفة كي أوضح المستويات المختلفة التي تمت بها عملية توليد الصراع .

لقد كانت الصهيونية دائما ، ومن الناحية التاريخية ، ايديولوجية انفصالية مقصورة على جماعة اثنية واحدة ، ولهذا السبب فقد ساعد ذلك على خلق الصراع مع الآخرين قبل ظهور دولة اسرائيل الى الوجود بوقت طويل . فعندما سمح بقيام المستوطنات الصهيونية لأول مرة في فلسطين العثمانية ـ على سبيل المثال ـ كان احد الملامح مثار الجدل لهذا المشروع هو مسألة الولاء للدولة العثمانية ، ومما لا شك فيه ان السلطان رفض الاسلوب الاول الذي تمت به المحاولات الصهيونية للتعامل معه فيما يتعلق بالاستيطان اليهودي ، لأن هذه المشروعات استهدفت اقامة دولة يهودية ، وكان ذلك بالطبع امرا غير وارد خصوصا في امبراطورية لديها هذا العدد من الجماعات الاثنية المنشقة . ثم اثيرت مسألة ما اذا كان من الممكن ان تمارس اى من المستوطنات الصهيونية الاحساس بالولاء تجاه الدولة العثمانية ، باعتبار ان اقامة دولة كانت هي النية الصهيونية الاصلية ؟ كانت المعارضة العربية واضحة ومنشقة ، فلقد تخوف العرب من ان الهجرة اليهودية سوف تسفر عن فقدانهم للاراضي الزراعية وفقدانهم للسيطرة على التجارة واستيلاء الاجانب عليها ، كما انها سوف تزيد من النفوذ الاجنبي في القطاعات العربية من الامبراطورية (ماندل ١٩٧٦ ص ٣٢ ـ ٥٧ ، والكيالي ، ١٩٧٠ ، ص ٦١ ـ ٨٢) .

بوسع المرء اذن ان يتوقع في مثل هذا الجو من الشكوك وسوء الظن أن يعمل المستوطنون الاوائل في حذر ، وأن يحاولوا تهدئة مخاوف جيرانهم العرب . ولكننا نجد العكس بدلا من ذلك : فقد اكد المستوطنون عزلتهم وتباعدهم عن طريق السخرية من التقاليد العربية المحلية واظهار الرموز التي تعبر عن أمانيهم القومية بشكل بارز كالعلم الصهيوني (رونيو١٩٧٣ ص ٦٢) وبالاستمرار في استنفار حماية القناصل الاجانب . ويوضح كل ذلك نيتهم في الحفاظ على أعلى درجة ممكنه من التناقض مع نظرائهم من سكان نفس الارض ، الامر الذي ادى الى زيادة التوتر بين المستوطنين وبين هؤلاء الذين رأوا فيهم دخلاء معتدين وخطرين ، وكان الاعتماد على القناصل الاجانب بوجه خاص ظاهرة تبعث على الضيق (ميندل ١٩٧٦ ص ٥٢) لانه كان يعني ان المستوطنين يمكن ان يستخدموا سلطة الممثلين الاوروبيين ـ كما هو ثابت في حالة الامتيازات للتحايل على القانون العثماني ، وهو موقف كان يبعث على استياء كبير لدى المواطنين العثمانيين . انه يشير الى ان المستوطنين ينوون ليس فقط ان يبقوا منعزلين عن اولئك الذين يعيشون بينهم في الامبراطورية العثمانية وانما متفوقين عليهم أيضا .

وفي هذه الفترة المبكرة من الاستيطان الصهيوني نجد شكلا آخر من اشكال تصعيد الصراع ، فالقيادة الصهيونية لم تكن راضية ان يشكل المستوطنون جماعات داخل الدول الاخرى او حتى مجرد دولة اخرى من دول الشرق الاوسط . ولذا فقد اوضحت انها تريد ان تلعب عن قصد دور العميل او الوكيل للهيمنة الاوروبية على المنطقة ، وسوف ينجلي ذلك بوضوح عن طريق قيام الدولة في المستقبل بدور كلب الحراسة والدولة العازلة . وبعبارة اخرى فحتى على مستوى النظرية لم تكن الاستراتيجية الصهيونية هي اقامة دولة تحاول تطبيع العلاقات مع جيرانها ، ولكن الهدف بالأحرى كان

هو تشجيع الانعزال ، ومن ثم استثارة مزيد من التوتر عن طريق العمل كأداه واعية للمصالح الاوروبية التي كانت هي أخشى ما يخشاه الشرق الاوسط . ولقد ضمن ذلك منذ البداية ليس فقط صيانة الاثنية من خلال التأكيد على حدود الجماعة ، ولكنه ضمن كذلك ان الدولة اليهودية سوف تكون مصدرا للضيق المستمر في المنطقة ، فقد خطط لاسرائيل أن تكون حد الموس القاطع لحساب المصالح البريطانية في الشرق الاوسط . ولقد لعبت فعلا هذا الدور لحساب الولايات المتحدة بدلا من بريطانيا .

لقد كانت فكرة الدولة الصهيونية العازلة جذابة لكثيرين في بريطانيا ، فسوف تحمي هذه الدولة قناة السويس وتحرس المصالح البريطانية من دسائس تركيا بعد الحرب (رودينسون ١٩٧٣ ص ٥٣) . وكان مفهوم الدولة اليهودية العازلة مغريا كذلك للصهاينة لأنه يضمن لهم تعاطف القوى الاوروبية كما انه سيمنع بصفة مباشرة استيعاب اليهود في الشرق الاوسط الأمر الذي كان يخشاه جابنونسكي وغيره من المنظرين .

واذا كنا قد رأينا ذلك الاتجاه نحو تشجيع الصراع في التاريخ الصهيوني المبكر فانه ترك بصماته في اكبر خاصية تميز السياسة الاسرائيلية الحديثة .

وتظهر الدبلوماسية الاسرائيلية المعاصرة هذه الحقيقة . وهذا نمط رسمته بوضوح دراسة فايز صايغ للمراحل المتعددة لتطور الاتصالات الدبلوماسية الصهيونية . اما الوجهان اللذان يرتبطان بما نحن بصدده فهما ما يسميه صايغ « التصعيد من خلال مراحل » « والخداع الدبلوماسي » . وقد ادى هذان الوجهان للدبلوماسية الاسرائيلية الى صراع متزايد مع مندوبي الدول الاخرى الامر الذي جعل أي تكهن أو توقع عادي لنوايا اسرائيل الدولية مستحيلا ، ومن ثم ادى هذا الى عدم استقرار اى قاعدة معقولة للمفاوضات .

ويعرف صايغ « التصعيد من خلال مراحل » على أنه بلوغ هدف نهائى سبق توضيحه ثم التقدم فورا بمطالب جديدة اكبر تتخذ نقطة بدايتها مطلبا كان يعد في الغالب من قبل « هدفا نهائيا » (صايغ ١٩٦٨ ـ ص ٦٢) . ويتضمن مبدأ الخداع الدبلوماسي التوصل الى اتفاق مع طرف آخر ثم تزييف المعنى الاصلي للاتفاق وتعريف العبارات والكلمات الحساسة بطريقة تحرفها عن معناها الاصلي او معناها المتعارف عليه (١٩٦٦ : ص ٩٦ ـ ٩٧) .

ويمكن رؤية هاتين السمتين في تاريخ اتفاقيات كامب ديفيد ، فحين تم التوصل الى « سلام » مع مصر صعدت اسرائيل صراعها مع الدول المجاورة ، وبعد ان اصبحت حدودها مع مصر « آمنه » تحركت اسرائيل « لتأمين » حدودها مع سوريا بضرب مرتفعات الجولان . وفي الوقت نفسه استمرت اسرائيل في تعريف الحكم الذاتي الفلسطيني بعدة طرق ليس بينها واحدة تحمل شبها مع معنى وروح المصطلح كما يفهم عادة .

وفي ميدان الاتصالات الدبلوماسية الاقل رسمية فاننا نرى درجة عليا مماثلة من اذكاء الصراع ، وهذه هي الحال بوجه خاص في السنوات الاخيرة لنظام حكم مناحم بيجين ، تلك السنوات التي وصل الامر فيها مستويات عليا من الاعتقالات ، اذ يبدو انه يوجد اندفاع شاذ نحو استبعاد اكبر عدد ممكن من اعضاء الجماعة الدولية ، ففي الوقت الذي أصبح فيه النقد لسياسة التوسع الاسرائيلي أكثر حدة من اى وقت ، وفي الوقت الذي لم يعد يمكن لاسرائيل التظاهر بانها دولة محاصرة ، بل وعرفت في الولايات المتحدة نفسها كدولة معتدية ، فان المرء يتوقع أن يجد اجراءات تجميلية من جانب الزعماء الاسرائيليين لاخفاء صورة السياسة التوسعية ، ولكن مع هذا كان ذلك هو بالضبط الوقت الذي سمعنا

فيه بيجين وانصاره ينعقون عاليا بأطماعهم التوسعية ويبعثون شعارات « اسرائيل الكبرى » ومن النيل الى الفرات » . ان توقيت هذا النوع من التصريحات هو ما يجب ان نلاحظه ، اذ عندما يكون اصلاح الامور واصدار النبرات التصالحية هو الذي يخدم مصالح الأمة على أفضل وجه فان اسرائيل تصعد التوتر .

وهذا التصعيد يمتد عادة الى اصدقاء اسرائيل ، ففي السنوات ، القليلة الاخيرة بعد ان اصبح حتى حلفاء اسرائيل غير مرتاحين لعلاقتهم بها ، فان اسرائيل هي التي تجعل العلاقات اكثر صعوبة بدلا من تخفيف التوتر مع اولئك الذين تعتمد عليهم . فبعد مذابح بيروت في سبتمر ١٩٨٢ كانت اسرائيل في موقف الدفاع من الناحية الدبلوماسية ، ومما يلفت النظر بوجه خاص في هذه الحوادث مطالبة الرئيس ريجان بتوضيح دورها في حوادث القتل في صابرا وشاتيلا ، ولكن النتيجة كانت ـ ولعل هذا لم يعد مفاجئا ـ هي اتهام بيجين بأن اى شك في اشتراك اسرائيل في المذابح سيكون مثل « تهمة الدم » ضد الشعب اليهودي (وهي تهمة ان اليهود يستخدمون دماء المسيحيين في صنع خبز عيد الفصح) . لقد كان هذا الاتهام المباشر بمعاداة السامية امرا لا عقلانيا ومدمرا الى درجة انه باغت حتى المحافظين من زعماء يهود بريطانيا والولايات المتحدة .

ان هذه القائمة الطويلة من نماذج التصعيد الاعتباطي دون مسوغ من جانب اسرائيل تصبح لا نهاية لها اذا ما نظرنا الى النزعة العسكرية التي عبرت عن نفسها في العقد الماضي ، بما في ذلك المفاعل الذري العراقي والتأييد الاسرائيلي لسعد حداد ، والتحركات العسكرية غير المباشرة مثل الاسراع في بناء المستوطنات في الضفة الغربية ، وهذه الحوادث معروفة الى حد ان التفاصيل غير ضرورية .

ان نمط السلوك على اية حال لا تخطئه عين ، فاسرئيل بوصفها دولة استيطانية تقوم على ايديولوجية اثنيه لا يمكنها ان تسمح بقيام علاقات آمنة مع جيرانها ، لانها مثل اى دولة من هذا النوع تصون هويتها على افضل نحو ممكن من خلال الصراع . وهذا التناقض بين ادعاء اسرائيل انها لا تريد شيئا سوى الحدود الآمنة من ناحية وبين الضغط من اجل المحافظة على هويتها من الناحية الاخرى يساعدنا على فهم المسار الخاطىء بصورة متزايدة للسياسة الاسرائيلية في الخارج والداخل على السواء . ففي علاقتها مع الدول العربية أظهرت اتجاها متناميا نحو التحدي العلني لمحاولات التفاوض من اجل تسوية اية قضية ، وكلما ابدى العرب رغبة في الحل الوسط أصبح الاسرائيليون اكثر توسعية وبصورة علنية .

ويمكن فهم معنى هذا النمط من السلوك اذا ما اخذنا في الاهتبار وجهة النظر التي ترى اسرائيل على انها دولة تشعر بأن السلام يهدد بقاءها . وفي الداخل هناك استقطاب متزايد في الحياة السياسية ، فاسرائيل مثلها مثل اي جماعة انسانية تشعر بأن هويتها تتآكل ، ينمو فيها اتجاه داخلي للبحث عن الهرطقة ـ اى تحديد قاطع للخط الواقع بين ما هو « معنا » وما هو « ضدنا » . والنتيجة هى ان مدى الاختيارات السياسية المتاحة امام اسرائيل يزداد ضيقا .

ان هذا التحليل تحليل جزئي ، فهناك عدد من الاسباب الاقتصادية والسياسية الكبرى لعدم التوافق بين اسرائيل وحالة الحدود الآمنة : اما وجهة النظر التي شرحناها فهي تستهدف توضيح هذه الظاهرة على المستوى الايديولوجي ، وعلى اية حال فان هذا الاسلوب ليس له اهمية محدودة لانه من النادر أن توجد دول لديها علاقة مباشرة بين الايديولوجية والفعل مثل اسرائيل .

REFERENCES CITED

BARTH, FREDRIK
1969 ethnic groups and bound aries Boston
Cohen, Abner
1976 **Tow — Dimensional Man** Berkeley .
Confer, Vincent
1966, **France and Algeria :THE Problems . of Civil and Political Refor** Syracuse .
Devos , George and lola Romanucci — Rosse(eds)
1975**Ethnic Identity** palo Alto
Festineger, Leon
1956 **When Prophecy Fails** Minneapolis .
AL —KAYYALI , Abd Al — Wahhab
1970 **TARIKH FILASTIN al HADITH** Beirut
Kendal
1980"THE Kurds under the ottman empire" in'gerard chaliand(ed) **People with out a country** London.
Kinnane, Dirk
1964 **THE Kurds and kurdistan** London
Mandel , Neville
1976 **THEArabs and Zionism before World War I** Berkeley .
THE midlle east(magazine)
1982(september) "Armenians Step up Turkish attaacks"
Peterrs , Emrys
1960"The proliferation of segments in the Lineage of the bedouin of Cyrenaica" **Journal of the royal Anthropological Institute** vol . 90 .
Quandt , william .
1969. **Revolution and political leadership :Algeria , 1954 —67** Cambridge, Massachusetts .
Rodinson , Maxime
1973 **Israel :Acolonial Settler — State** ?New York
Sayegh, Fayez
1969 **Zionist Dip lomacy** Beirut
Schartzer , Cynthia
1982 "Ethnic Markes and Boundaries in the Armenian Community in Cairo" M.A. thesis , American University in Cairo

* * *

هتلر والصهيونية
إتفاقية الهعفرا لعام ١٩٣٣

سعد الله حلايا *

في عام ١٨٦٩ ـ عندما كان يجري افتتاح قناة السويس ـ بدأت أيضا لأول مرة أوجه نشاط تيودور هرتزل والحركة الصهيونية برعاية بسمارك وولهام الثاني . والصهيونية مرت في ثلاث مراحل في تطورها ، قامت خلالها بخدمة ثلاث قوى عالمية : **الامبراطورية الألمانية والأمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة** ، كل هذه القوى الاستعمارية كانت تسعى الى التحكم المطلق في أوربا ، ولذا كانت مهتمة بالسيطرة على الشرق الأدنى . وقد تعاون ثلاثة من زعماء الحركة الصهيونية مع الثلاث قوى الآنفة الذكر : هرتزل مع ولهلم الثاني ، ومن ثم رحب به عام ١٨٩٨ في القدس ، ووايزمان ضابط الاتصال مع وزارة الخارجية الانجليزية ، وبن جوريون عميل واشنطن .

ومما لا شك فيه أن الدراسات التاريخية المعاصرة قد ركزت على العلاقة الواضحة بين مروجي الصهيونية والعالم الانجلو ساكسوني . ومع هذا فان هذه الدراسات لم تذكر أي شيء عن التعاون العميق والممتد بين المانيا والصهيونية . ولكن هذا التعاون ـ كما قرره ولهلم الثاني وبسمارك ـ استمر في واقع الأمر مع خلفائهم : هتلر وألمانيا الاتحادية .

ولقد وقع هتلر ـ الذي ربط على نحو منطقي بين معاداة السامية والصهيونية ـ في اوئل سنة ١٩٣٣ اتفاقية هامة مع زعماء الصهيونية العالمية تسمى اتفاقية الهعفرا ، وقد تم تجديد فترة هذه المعاهدة ، ثم اتسع نطاقها لتشمل بوخارست ووارسو ، وذلك بمقتضى الاتفاق الذي تم التوصل اليه مع وايزمان في عام ١٩٣٧ في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في مدينة ايفيان بفرنسا .

---

* قدم هذا البحث في الاجتماع السنوي العاشر لرابطة الخريجين الجامعيين العرب ـ الأمريكيين بديترويت ـ ميتشجان ٢١ ـ ٢٣ أكتوبر ١٩٧٧ . وقد قام بنقله الى العربية محمد جمال إمام .

وتنص المعاهدة على ترحيل حوالي ٤ مليون يهودي من وسط أوربا الى فلسطين ، وتم التوصل بشكل نهائي في اوائل فبراير ١٩١٩ الى اتفاقية سرية بين هتلر وروزفلت تسمى مذكرة روبلي فولثات ، يسمح بمقتضاها لليهود بمغادرة ألمانيا الى فلسطين بشرط أن تسعى الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم الى ترويج الصادرات الألمانية . وزيادة على ذلك توافق برلين على رد قرض صهيونى يصل الى بليون ونصف بليون مارك بفائدة ٤٪ .

وبرغم تهديدات الحرب وردود الأفعال الملتهبة من لندن لم يتوقف التعاون الهتلري ـ الصهيوني ، اذ كان هناك ممثلان من وكالة القدس يقيمان في برلين ، كانا يقومان بتنظيم قوافل اليهود الألمان ، ثم يرسلان بها الى فلسطين تحت حماية الجستابو .

وبعد هزيمة ألمانيا حاولت الولايات المتحدة الأمركية أن تصادر لحسابها المطامع الألمانية في أوربا والشرق على السواء .

وهذه الدراسة تريد أن تؤكد أهمية هذا التعاون بين هتلر والزعماء الصهيونيين في العالم .

اتفاقية الهعفرا مع الصهاينة

حينما بدأ زعماء الاشتراكية الوطنية حياتهم السياسية كان موقفهم نحو اليهودية الدولية يتسم بالود . وحيث انهم كانوا يريدون أن يغادر اليهود المانيا ، كانت فلسطين بطبيعة الحال هي موضع تفكيرهم . وبما أن الصهاينة أنفسهم كانوا على استعداد لتحرير ألمانيا من يهودها . ولما كان هذا هدفا أساسيا للنازية فقد وافق هتلر (الذي كان معروفا بنزعة البرجماتية) على ان يتغاضى عن عقائده وتعاليمه .

وساد الاعتقاد في وزارة الخارجية الألمانية بأن هذا القطاع من اليهود (وفي مقدمتهم الصهاينة) الذين يرفضون الاندماج في المجتمع ، والذين يفضلون أن يروا جميع اليهود وقد أعيد توحيدهم في وطن قومي ، قد تبنوا أهدافا أقرب الى الأهداف الفعلية التي تسعى اليها السياسة الألمانية بالنسبة لليهود .(١)

ولم تقم التنظيمات المختلفة للرايخ الثالث ـ وخاصة وزير الخارجية ووزير الاقتصاد ـ أي علاقات عمل طيبة مع أي من الجماعات اليهودية باستثناء الصهاينة .

---

1. Bulow Schante's memorandum to all diplomatic missions of the Reich n 83—21/28.2, February 28, 1934., Referat Deutschland, Einstellung des Auslandes zur Judenfrage, A. A. Bonn.

(We have used the following abbreviations for simplification)

A.A.	Auswartiges Amt
A.O.	Aus landsorganisation
DGFP	Document on German Foreign Policy
NSDAP	National sozialistishe Deutsche Arbeiter—partei (Nazi Party)
FRUD	Foreign Relations of the United States
RAM	Reichsaussenminister

وفي مايو ١٩٣٣ تم التوصل الى أول اتفاق رسمي بين حكومة هتلر واليهود الفلسطينيين (أي المستوطنين الصهاينة) وبالرغم من أن هذا الاتفاق هو فني أساسا ، إلا أن له بعض الدلالات السياسية .

فقد تسبب يوم المقاطعة في أول ابريل ١٩٣٣ والقوانين التي اعلنت في الشهر نفسه الى حد أكبر ، في دفع آلاف اليهود الى ترك بلادهم . وكانت القوانين المقيدة للهجرة ، سواء في معظم الدول الأوربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، في تلك الفترة صارمة تماما ولكنها على أية حال كانت بالتأكيد أقل صرامة بالنسبة للمهاجرين الذين يستطيعون أن يبرهنوا على ثرائهم . ومع هذا ، لما كانت قوانين العملة الأجنبية في ألمانيا تحد من تصدير الأموال الأجنبية من ألمانيا ، فقد أدى هذا الى كل من كان في مقدوره أن يترك الرايخ كان مضطرا الى أن يترك معظم أمواله . وهكذا سقط كثيرون في الفخ مع اوائل عام ١٩٣٣ . فالثري الذي كان يستطيع بسهولة شديدة أن يحصل على تأشيرة خروج من القنصليات الأجنبية كان يتردد في ترك المانيا تاركا وراءه معظم أمواله ، أما الفقراء الذين لم تكن لديهم ما يحتفظون به في ألمانيا فكان من الصعب عليهم أن يحصلوا على تأشيرة خروج .

ولم تكن فلسطين استثناء للقاعدة ، فالسلطات البريطانية التي كانت تحكم هذه الأراضي ـ بناء على الانتداب من جانب الحلفاء وعصبة الأمم ـ وضعت بالفعل خطة هجرة لليهود كان يسمح بمقتضاها للمهاجرين المعترف بهم كرأسماليين ، أي أولئك الذين كان عندهم الف جنيه استرليني على الأقل ، بدخول فلسطين دون قيود .

وعلى الرغم من التنظيمات الخاصة بالنقد الأجنبي المعمول بها في ألمانيا لم تكن السلطات ترفض ـ بناء على تعليمات من هتلر ـ هجرة اليهود الى فلسطين ، مع السماح لكل مهاجر بأن يحمل معه ألف جنيه استرليني . وكان المقصود بهذا دفعهم الى الهجرة ، ودفعهم بصفة خاصة الى الرحيل الى فلسطين . ومع هذا لم يكن السماح لكل يهودي ثري يريد أن يهاجر الى فلسطين بألف جنيه استرليني حلا مرضيا .

اذ أن آلاف اليهود من اعضاء الجالية اليهودية الألمانية (التي وصل عددها في عام ١٩٣٣ الى أكثر من نصف مليون نسمة كانوا يمتلكون ثروات كبيرة . ولما لم يكن في استطاعتهم أن يأخذوا أموالهم معهم فقد أجلوا رحيلهم المرة تلو الأخرى . ولم يكن هذا التأخير في صالحهم أو في صالح الحكومة الألمانية .

هذه المشكلة المعقدة الهمت يهوديا فلسطينيا يدعى سام كوهين ، مدير شركة هانوتيا للاستعمار ، بفكرة رائعة أدت إلى توقيع اتفاقية الهعفرا .

ففي ابريل ١٩٣٣ استقبل هنريج فولف ، القنصل الألماني في القدس ، سام كوهين الذي اقترح انه يستطيع أن يحول من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا طلبا كان قد قدم به للمعدات الزراعية ومواد البناء .

وحينها أعرب فولف عن دهشته ، شرح له كوهين المسألة قائلا أن مشتريات هانوتيا في ألمانيا يمكن تحويلها من الاعتمادات التي لا يسمح لليهود العازمين على الهجرة بتحويلها الى بلد أجنبي . فبعد وصول المهاجرين الى فلسطين

يدفعون نقدا بالجنيه الاسترليني مقابل قيمة الماركات التي يكونون قد دفعوها لحساب مجمد في برلين (٢) . وفي الحقيقة يعد هذا تحويلا مبنيا على المقاصة ، فلن تدفع ألمانيا أية أموال ، والمهاجرون لن يفقدوا أموالهم . وفهم فولف تماما أن لشركة هانوتيا مصلحة مزدوجة ، فمن جهة لن تضطر الشركة الى أن تدفع ثمن مشترواتها بالعملة الأجنبية ، ومن جهة أخرى ستحث شركة هانوتيا اليهود الأثرياء على الهجرة الى فلسطين . وفي الوقت نفسه بين فولف المزايا العديدة التي ستحصل عليها حكومة الرايخ من مثل هذه الصفقة : التخلص من عقبة اساسية تقف في طريق الهجرة والحصول على مزيد من الطلبات للشركات الصناعية الألمانية التي كانت تعاني من أزمة إقتصادية ، وفوق كل شيء مقاومة المقاطعة المنظمة للمنتجات الألمانية .

وتم ترتيب الصفقة في أقل من شهر ، وبمجرد أن تقبل الألمان مبدأ الاتفاقية مضت الأمور بسرعة . فتوجه سام كوهين الى برلين حيث رحب به مسئولان كبيران من وزارة الاقتصاد هما هانزهارتنشتين ويواكيم فون هاينز ، وذلك في حضور مسئول الماني من وزارة المالية . وفي ١٩ مايو١٩٣٣ أكدت وزارة الاقتصاد ، وبشكل رسمي ، الاتفاق الذي تم التعاقد عليه مع شركة هانوتيا في خطاب ارسلته للشركة المذكورة (٣) . وبمقتضى هذه الاتفاقية وافقت الشركة الفلسطينية على أن تشتري من المانيا المعدات التي كانت قد طلبتها حتى ذلك الوقت من تشيكوسلوفاكيا . وكان من المفهوم أن هذه المواد سيتم حجزها لشركة هانوتيا وبالتالي لن يتم التصرف فيها بالبيع . وبلغت قيمة الصفقة مليون مارك .

ومن الواضح أن هؤلاء المسئولين عن التنظيم الصهيوني العالمي في المانيا ـ الذين لم يكونوا معارضين لمبدأ اتفاق كهذا ـ لم يكونوا متحمسين على الاطلاق ، لأن هذه الصفقة عقدت مع شركة خاصة ذات نطاق محدود . اذ خشوا ألا تكون لدى شركة هانوتيا الاعتمادات الكافية لتنفذ بدقة صفقة تفوق أهميتها السياسية مصالحها التجارية .

وحينئذ شرع فرنر سيناتور ، بالاتحاد الصهيوني العالمي ، وجورج لانداور ، بالوكالة اليهودية ، في القيام بمفاوضات مع وزارة الخارجية الألمانية ووزارة الاقتصاد بشأن الاتفاق المبرم مع شركة هانوتيا (٤) . وفي القدس طلب حاييم آرلوسوروف ، المسئول عن العلاقات الخارجية بالوكالة اليهودية ، من سام كوهين أن يضع الصفقة برمتها تحت رعاية المنظمة . (٥)

وفي الوقت نفسه توجه سام كوهين مرة أخرى الى ألمانيا حيث عقد صداقات جديدة ، ونجح في أن يحسن ظروف اتفاقه الأول مع الحكومة الألمانية الى حد كبير ، وفي ٢٩ يونيو١٩٣٣ لم يؤد استبدال الفريد هوجنبرج بكارل شميث

---

2. Wolff's letter to A. A. n Expf. 1/33, April 25, 1933., Wirtschaft, Deutsch—palastinische Devisenangelegenheiten, Bd. 1, A. A. BONN.

3. Letter n Dev. i 20111/33, May 19, 1933., ibid.

4. Prufer's note, n zu W 3474, May 24, 1934 : Georg Landauer's letter to hartenstein and Schmidt— Roelke (Foreign Office), July 14, 1933., ibid.

5. Ludwig Pinner, Vermogenstransfer nach Palastina, in Zwei Welten, Tel—Aviv, Bitaon, 1962, p. 138.

كوزير للاقتصاد الى أدنى تغيير في السياسة الليبرالية التي اتخذت ازاء المهاجرين الذين يريدون الرحيل الى فلسطين . وفي الوقت نفسه سعى القنصل العام فولف من جديد لأقناع سلطات برلين بأن أي شيء يتخذ لصالح الصادرات الألمانية الى فلسطين سوف يوسع الهوة الكبيرة التي تقف في طريق مقاطعة البضائع الألمانية .

وكانت هذه المواقف ذات فاعلية كبيرة ، حتى إن حجم الاتفاق الجديد مع كوهين وصل الى ثلاثة ملايين مارك . زيادة على ذلك لم تعد شركة هانوتيا مضطرة الى شراء معدات من أجل مشروعاتها الاستعمارية فحسب ، إذ أنه قد أصبح من المستطاع لها أن تعمل كمستورد للسوق الفلسطينية بأكملها ، بل حصل سام كوهين على حق اليهود الذين لم يكونوا يزمعون الاستقرار في التو في فلسطين ـ وان كانوا قد اعربوا عن رغبتهم في المساهمة في تطوير فلسطين وتهيئة وطن لهم ـ حصل لهم على حق إيداع اعتماداتهم في الحساب المجمد لشركة هانوتيا . وهذه الصيغة الصهيونية حتى النخاع وردت في الخطاب المؤرخ ١٨ يوليو ١٩٣٣ والموجه الى سام كوهين من قبل وزارة الاقتصاد الألمانية .(٦)

يتضح من نص هذا الخطاب أن السلطات الالمانية أرادت من سام كوهين أن يقيم علاقات طيبة مع التنظيم الصهيوني . وأكد وزير الاقتصاد ـ انه قد علم بكل سرور عن تأسيس فرع لشركة هانوتيا في مبنى المنظمة الصهيونية في برلين .

ومع هذا ظل مندوبو هذه المنظمة لا يثقون في مبادرات سام كوهين ، ولهذا واصلوا اقناع السلطات في برلين بالسماح لمنظمة صهيونية رسمية بالسيطرة على هذا الاتفاق . وبناء على اصرار جورج لاندارو قرر هانز هارتنشتاين ـ وهو مسئول كبير بوزارة الاقتصاد(٧) ـ وقف تنفيذ الاتفاق الذي ابرم مؤخرا مع سام كوهين ، وطلب المزيد من المعلومات من القنصل الالماني في القدس(٨) . وفي نهاية الأمر اخذ الالمان ـ الذين كان من الواضح انهم يريدون توقيع هذا الاتفاق على وجه السرعة ـ زمام المبادرة لعقد اجتماع يحضره جميع اليهود المهتمين بهذه الصفقة . وافتتح الاجتماع يوم ٧ أغسطس في وزارة الاقتصاد ، وكان حاضرا عن الجانب اليهودي كوهين وماشيتز ، ممثلين عن شركة هانوتيا ، ومندوبو الاتحاد الصهيوني الألماني ، ومسئولان جاءا خصيصا من فلسطين ، وهوفيم ، مدير البنك الانجلو فلسطيني الذي ترتبط مصالحه بالمنظمة الصهيونية ، وروبين وهو عالم اجتماع وأخصائي في استيطان اليهود في فلسطين(٩) .

وفيما يلي بنود الاتفاق التي تم التوصل اليها في الاجتماع : وافق سام كوهين على اعتبار جميع الاتفاقات السابقة على ٧ أغسطس وكأنها لم تكن ، وان تنشأ شركة ائتمانية تحت ادارة هوفين وتحت رعاية البنك الانجلو فلسطيني . وهذه الشركة

---

6. Letter n Dev. I 30293, ibid., DGFP C—I, pp. 661—662.

7. Hartenstein's letter to Schmidt—Roelke, n Dev. I 3128.33, July 22, 1933, Wirtschaft, Deutsch—palastinische Devisenangelegnheiten, Bd. 1, A. A. Bonn.

8. Ulrich's cable to Wolff n 27, July 24, 1933., ibid DGFP C—1, p. 733, n 2.

9. Scheuerl's letter (Ministry of Economy)to A. A., n Dev. I, 36005/33, August 10, 1933. DCFP C—1, pp. 732—735.

عليها ان تدير المصالح اليهودية وان تتفاوض مع المصدرين والشركات الصناعية الالمانية . وقد وصل حجم الصفقة الى ثلاثة ملايين مارك مع امكانية تجديدها ، كما تم الاتفاق مسبقا على اجراءين ، واحد بالنسبة لأولئك اليهـود الذين يريدون الهجرة في التو ، والآخر بالنسبة لمن يريد الهجرة فيما بعد . وتم تبادل خطابات رسمية لتنفيذ القرارات التي تم التوصل اليها(١٠) .

وقد عرفت الاتفاقية ـ وكل محاضرها وملحقاتها باسم اتفاقية « الهعفرا » (وهي كلمة عبرية تعني التحويل) وتكون ايضا الاسم الرسمي للشركة الائتمانية (شركة هعفراه للائتمان ـ والتحويل) ويكون مقرها الرئيسي في فلسطين . والشركة التي تنشأ خصيصا كممثل لها في برلين ستسمى بالتريوPALTREU وهو اختصار PALASTINA TREULTAND stellezun Beratung Deutscher Juden — « ان اتفـاق هوفـين الأول بشأن الهعفرا ـ كما ذكر مسئول كبير في وزارة الخارجية بعد بضعة اشهر ـ كانت له ردود فعل سياسية أكثر أهمية من نتائجه الاقتصادية(١١) . ويمكننا أن نسأل ؟ ما هي ردود الافعال السياسية هذه ؟

في ٢١ اغسطس ١٩٣٣ افتتح المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ أول اجتماع له منذ تولي هتلر الحكم . وكان الموضوع الأول المطروح للمناقشة هو وضع اليهود في المانيا ، وكان هوفين وروبين قد وصلا لتوهما من برلين الى براغ ، وقام عدد كبيرمن اعضاء الوفود بتوجيه اللوم لهوفين وكوهين ـ كبيري المتفاوضين ـ لتعاونهما مع الشيطان ، اذ قوضا ـ من خلال الهعفرا ـ كفاح اليهود ضد السياسة العنصرية للرايخ ، وتبع هذا مناقشات حادة ، غير انه حينما قدم اقتراح خاص بمطالب المنظمة بالمشاركة الفعلية في مقاطعة المانيا ، رفض هذا الاقتراح . ولذا كان من مصادر رضى وزارة الخارجية ان اتفاقية الهعفرا « دعمت وضع الغالبية المستدلة بين اعضاء الوفود »(١٢) .

وبرغم الصعوبات الأولى التي ترجع بصفة خاصة الى تحفظات طرحها هوفين ـ قد تم تأسيس الشركتين اللتين نُصت الاتفاقية على لائحتها الداخلية . واخذ دور سام كوهين في التضاؤ ل بالنسبة للزعماء الصهاينة ، اذ تم استبعاده(١٣) برغم الثقة التي كان يتمتع بها في برلين ، وبرغم ثقة القنصل العام فولف فيه . وفضلت السلطات الالمانية ـ من جهة اخرى ـ ان تجري مباحثات مباشرة مع مسئولي المنظمة الصهيونية والبنك الانجلو فلسطيني(١٤) واصبح اتفاق الثلاثة

---

10. Scheuerl's letter to Hoofien, August 22, 1933., ibid., Hoofien's letter of August 22, 1933., ibid., p. 736 n 8.

11. Bacr's letter to the Ministry of Economy n W 1098 of February 17, 1934., Wirtschaft, Deutsch—palastinische Devisenangelegenheiten, Bd. 3, A. A. Bonn.

12. Ibid.

13. Report on a conversation on March 29, 1934 with Ernest Marcus, Director of Paltreu, n 2492, April 3, 1934., ibid., Bd. 3.

14. Ritter's cable to wolff n 11 of March 27, 1934., ibid.

ملايين مارك المرصودة غير مناسب ، ومن ثم تم تجديده مرة اخرى في ١٣ فبراير ١٩٣٤(١٥) . واصبح التعاون في اطار اتفاقية الهعفرا بين المنظمة الصهيونية وحكومة برلين روتينيا للغاية . وبالرغم من تزايد المعارضة بين الاشتراكيين الوطنيين لتنفيذ اتفاقية تحبذ دون شك العمل الذي قام به الصهاينة في فلسطين ، وبالرغم من بعض التعقيدات الراجعة الى مزيد من القيود على الرقابة النقدية ، فان اتفاقية الهعفرا كانت تتجدد دوريا . ولم يتوقف العمل بهذه الاتفاقية الا عندما نشبت الحرب العالمية الثانية .

هتلر والمشكلة الفلسطينية :

عندما وقعت السلطات الالمانية في اغسطس ١٩٣٣ اتفاقية الهعفرا كان لها هدفان في ذات الوقت : القضاء على المقاطعة التي ينظمها اليهود ضد المانيا في البلاد الاجنبية المختلفة وتسهيل الأمر أمام اليهود في المانيا للرحيل الى فلسطين .

ومع هذا كانت برلين تزداد قناعة ان الهدف الثاني هو الأهم . ومن جهة اخرى ضعفت الى حد كبير نتائج المقاطعة اليهودية ، وأصبح اخراج اليهود هدفاً من الأهداف الكبرى للسياسة الداخلية للنظام الاشتراكي الوطني . غير ان الصهاينة كانوا الوحيدين بين اليهود الذين اخترحوا حلا ايجابيا للمشكلة اليهودية في المانيا ـ وخاصة أنهم كانوا الوحيدين القادرين على تنفيذ هذا الحل . لقد اعطتهم اتفاقية الهعفرا الوسيلة . ومما يدعو للدهشة ان نرى كلّاً من وزير الداخلية ووزير الاقتصاد يتعاونان للمساعدة في تنفيذ اتفاقية الهعفرا وتطوير انشطة المنظمة الصهيونية في المانيا .

وفي اوائل عام ١٩٣٤ أمرت وزارة الخارجية ادارة الرايخ بقطع جميع العلاقات بكل المنظمات اليهودية في البلاد الخارجية ، ولكن مع هذا جرى التمسك الكامل بالعلاقات مع المنظمة الصهيونية . وبالرغم من العداء الذي ابداه REFERAT DEUTSCHLAND (القسم الخاص المسئول عن الشئون اليهودية في وزارة الخارجية) فقد سمح لزعماء الصهيونية الالمانية بمواصلة اقامة علاقات مع زملائهم في جميع انحاء العالم .

وهكذا اكتسبت منظمات الهعفرا مركزا بارزا باضطراد ، بل كانت لها حقوق أفضلية بالنسبة للتجارة الالمانية الفلسطينية . وتمت صادرات البرتقال الى المانيا من خلال وكلاء الهعفرا ، ولقد قرر المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ـ الذي عقد في لوسيرن من ٢٠ اغسطس الى ٣ سبتمبر ١٩٣٥ تحت رعاية الزعماء الصهاينة في المانيا ـ أن يضع كل مؤسسات الهعفرا تحت السيطرة المباشرة للجنة التنفيذية الصهيونية .

وانتقلت الى هذه اللجنة بالتالي الأنشطة التي كان يقوم بها حتى ذلك الوقت البنك الانجلو فلسطيني ، وفي عام ١٩٣٣ بلغت تحويلات الهعفرا ١,٢٥٤,٩٥٦ مارك ، وفي عام ١٩٣٧ بلغت القيمة ٣١,٤٠٧,٥٠١ مارك(١٦) .

---

15. Schuerl's letter to Paltreu n I 5278, February 13, 1934., ibid.

16. See Werner Feilchenfeld, Dolf Michaelis and ludwig Pinner, Haavara—Transfer nach Palastina und Einwanderung deutscher Juden, 1933—1939. (Haavara Transfer to Palestine and Immigration of Cerman Jews, 1933—1939), Tubingen, 1973.

وخول للمنظمة الصهيونية ان تفتح في المانيا مراكز تدريب حرفية وزراعية لكل من يرغب في الهجرة ومن يريد بعض التدريب لكي يبدأ حياة جديدة في الشرق الأوسط ، وقدمت دروساً في العبرية في عدة مدن ، وبعثت الصحيفة الصهيونية جوديش روندشا والأمل في البيوت اليهودية في حياة افضل ، كما سمح وزير الداخلية بسفر وفد من الصهاينة الالمان للاشتراك في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر(۱۷) .

وكتب بولو ـ شوانية الى وزير الداخلية : « لا يوجد أي سبب يدعو الى اعاقة الانشطة الهيونية في المانيا عن طريق اجراءات ادارية ، لأن الصهيونية ليست متناقضة مع البرنامج الاشتراكي الوطني الذي يهدف الى جعل اليهود يغادرون المانيا باضطراد(۱۸) .

اما بخصوص الهجرة الى فلسطين التي ادت لها اتفاقية الهعفرا ، فلقد قام الصهاينة بتأسيس شركة النقل الخاصة بهم ، وكانت تسمى الشركة الفلسطينية للنقل البحري التي قامت بشراء سفينة الركاب الالمانية « هو هنشتين » واعادة تسميتها « تل ابيب » ، وقامت هذه السفينة بأول رحلة لها من ميناء بريمرهافن الالماني الى حيفا في بداية عام ۱۹۳٥ . وفي هذه الرحلة كان مكتوبا على مؤخرة السفينة بالأحرف العبرية كلمة « تل ابيب » « الجديدة بنها كان يرفرف على الساري الصليب المعقوف » .

ولقد كتب أحد المسافرين فيما بعد : « الحروف العبرية والصليب المعقوف كانت تكون خليطا ميتافيزيقيا عبثيا » . وكان قائد السفينة ، لايديج عضوا مسجلا في الحزب النازي(۱۹) .

ومع هذا كانت هناك في المانيا بعض الجماعات التي تعارض بشدة ما يسمى بتأييد الرايخ لفكرة الاستقلال الوطني كما ينادي به الصهاينة ، ومن أهم هذه الجماعات منظمة اوسلاند ، فهذه اللمنظمة في الحزب الاشتراكي الوطني تأسست عام ۱۹۳۰ باسم Auslandorganization لكي تنظم جماعات الحزب الاشتراكي الوطني بين اعضاء الجاليات الالمانية التي تعيش في البلاد الاجنبية . وفي اكتوبر ۱۹۳۳ وضعت هذه المنظمة تحت السيطرة المباشرة لرودلف هس . ولذلك حصلت في فبراير ۱۹۳٤ على مرتبة GAU AUSLAND وكذلك لقب منظمة أوسلاند ، وحصل مديرها ارنست بوهله في الوقت نفسه عى مرتبة GAULEITER وفي ۳۰ يناير ۱۹۳۷ عين بوهله رئيس منظمة الأوسلاند في وزارة الخارجية ، وبعد هذا أصبح وزير دولة ، وهو اللقب الذي كان يرغب فيه الجميع .

---

17. Hering's letter to the Zionist Federation of Germany n I A 416/5012, February 1, 1935., Referat Deutschland, Judenkongresse im Ausland, Bd. 1, A. A. Bonn.

18. Bulow—Schwante's letter to the Ministry of the Interior n zu 83—21 28/8, September 6, 1935., Inland II A/B, Das Judentum in Deutschland, Bd. 3, A. A. Bonn.

19. Winfried Martini, Hebraish unterm Hakenkreuz (Hebrew under the Swastika) in Die Welt, Hamburg, January 10, 1975.

وبطبيعة الحال كانت كل المسائل المتعلقة بالمستعمرة الالمانية في فلسطين من سلطة منظمة الاوسلاند . ومع هذا فان هؤلاء الالمان (الذين كانت غالبيتهم العظمى يكتسبون رزقهم بالعمل في مزارعهم) كانوا معادين دائما لاتفاقية الهعفرا(٢٠) وقد شاركهم في وجهة نظرهم مشاركة تامة والترد وهلة ، الذي حل محل فولف عام ١٩٣٥ كرئيس للقنصلية العامة الالمانية في القدس ، واصبح خصما لدودا لاتفاقية الهعفرا(٢١) .

وعندما قامت منظمة الأوسلاند بالدفاع عن مصالح الالمان في فلسطين قامت بمعارضة اتفاقية الهعفرا منذ اوائل عام ١٩٣٤(٢٢) ولما لم يكن لها آنذاك نفوذ كبير فانها لم تستطيع أن تفرض آراءها على كل من وزارة الداخلية ووزارة الاقتصاد .

ولكن في عام ١٩٣٦ كانت سياسة القسم الخاص المسئول عن الشئون اليهودية اقرب الى سياسة دوهله ومنظمة الاوسلاند . ومن ذلك الوقت استغلت المنظمة نفوذها المتزايد ضد ما اعتبرته الدعم المقدم لليهود الفلسطينيين ضد مصالح الالمان والعرب ، يؤازرها في هذا القسم الخاص المسئول عن الشئون اليهودية والذي كان يتسم بالديناميه .

وعلى أية حال ، لم يكن على برلين ان تتخذ حتى نهاية عام ١٩٣٦ اي قرار بشأن النزاع اليهودي ـ العربي . ولذا لم تكن السياسة المتبعة نحو الصهيونية وبالتالي نحو اتفاقية الهعفرا ـ تعكس بأية حال السياسة الخارجية الالمانية ، وانما كانت تتأثر بالأهداف التي تسعى اليها السياسة الداخلية للرايخ وحسب . غير ان تطور الموقف في فلسطين سرعان ما أرغم الحكومة الالمانية أن تتخذ موقفا محددا بالنسبة لسياستها الخارجية .

سياسة معاداة الدولة اليهودية كمسألة مبدئية والجدل حول الهعفرا

ساد أول اختلاف في الرأي بين المؤسسات الالمانية المختلفة عن مدى فائدة استمرار اتاقية الهعفرا بعد اندلاع الثورة العربية الفلسطينية في ابريل ١٩٣٦ . فقد ادركت وزارة الخارجية في ذلك الوقت أن تدعيم السياسة الصهيونية كأمر واقع قد يجعل العرب يقفون ضد المانيا الهتلرية وهو أمران حدث لن يكون في صالح الرايخ النازي . وقد اعلن دوهله

---

20. Report on a conference at the Ministry of Economy on the Haavara Date January 22, 1938., Chief A. O., Judenstaat, Palastina, Haavara, A. A. Bonn.

21. Dohle's letter to A. A. n S. A. /XV D 1/L/375, January 15, 1936., Pol. VII, Palastina, politische Beziehungen zu Deutschland, A. A. Bonn; also Dohle's letter to A.A. n Polit. 16/37, March 22, 1937., Burò RAM, Palastina, DGFP, D—V, p. 747, n 2.

22. Schwarz's letter to the Ministry of the Interior n 1023/8 dated January 12, 1938., Chief A. O., Judenstant, Palastina, Haavara, A. A. Bonn.

القنصل العام الالماني في القدس ـ في مذكرة مستفيضة بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٣٧ ان « المكاسب التي حققها الالمان . . . قد تنتهي نهاية سيئة بسبب تشجيعنا للهجرة اليهودية(٢٣) .

كانت هذه هي الطريقة التي استقر بها ١٧٢ ألف يهودي في فلسطين ممن هاجروا من المانيا في الفترة بين ١٩٣٣ و١٩٣٧ . ففي عام ١٩٣٥ وحده سجلت السلطات في فلسطين التي كانت تحت حكم الانتداب ـ دخول ٦٥ ألف مهاجر . هذه الهجرة الفجائية سببت قلقا بالغا للسكان العرب الذين كانوا يشكلون غالبية فى فلسطين ، اذ خشوا ان يصبحوا عاجلا أقلية(٢٤) .

ولم يكن الدافع وراء موقف دوهله بطبيعة الحال هو الاهتمام بالعرب بقدر ما كان الاهتمام بالمصالح السياسية لالمانية النازية . ولقد أضاف ان المانيا لا تحتاج لأن تقلق بتاتا بشأن التعاطف الذي يكنه العرب الفلسطينيون لألمانيا ، لأن ما هو مطلوب ليس السياسة العربية النشطة « وانما هو تجنب الترويج الواضح لعملية بناء الوطن القومي اليهودي »(٢٥) . لقد خشي دوهله « أن يتحول المزاج العربي وأن يجري اتهامنا بالمشاركة الفعالة في الكفاح ضد العرب »(٢٦) .

ولقد شاركت السلطات النازية الاخرى دوهله في مخاوفه . فكتب مكتب التجارة الخارجية في منظمة الاوسلاند في الحزب النازي بكل صراحة يقول : « ان اتفاقية الهعفرا للتحويل تعني من الناحية السياسية اعطاء دعم قيم لانشاء وطن قومي يهودي بمساعدة الرأسمال الالماني»(٢٧) .

وقد ادت هذه الحقائق الى قيام قسم « الشئون اليهودية ـ الذي كان يرى ان دولة يهودية في فلسطين اذا تأسست « ستدعم الى حد كبير النفوذ اليهودي في جميع انحاء العالم » بالتقدم باقتراح في ٣ يناير ١٩٣٧ لبحث النقاط التالية :

أ ـ ما اذا كان لا يزال من الملائم حث اليهود الالمان على الهجرة الى فلسطين .

ب ـ ماذا كان الوقت قد حان لتقديم تفسير للحكومة البريطانية بأن المانيا لا ترغب في ان تقوم دولة يهودية في فلسطين(٢٨) .

---

23. Dohle's report dated March 22, 1937. The Chief of the Foreign Affairs Organization in the German Foreign Office, Haavara, 1938, Series 72, Jewish State, Palestine (Political Archives of the Foreign Office in Bonn; quoted by Heinz Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg (Germany's Arab Policy in the Second World War Berlin, 1965, p. 63.

24. **The Refugee Problem** in " **Report of a Survey** ", Royal Institute of International Affairs, London, 1938, pp. 613—614. by 1931 the Jewish.

25. Heinz Tillmann, op. cit., p. 63.

26. Heinz Tillmann, op. cit., p. 65.

27. Memorandum by the Office of the Chief of the Foreign Affairs Organization of the NSDAP, dated June 5, 1937, quoted by Tillmann, op. cit., p. 67.

28. Hinrichs, note n e. o. 83—21 A 9/1, dated January 21, 1937., Inland II A/B, Judenauswanderung—Allg. (Palastinasttat), Bd. 1 a, A. A. Bonn.

هذه المبادرة كان لها قدر كبير من الأهمية وذلك لأنه منذ هذه الساعة سوف تتطور الامور الى أن يصل الامر بوزارة الخارجية ان تعلن ان تأسيس دولة يهودية لا تتطابق مع مصالح الرايخ .

واول شخصية تأخذ بسياسة قسم الشئون اليهودية هذه هو ارنست فون فيز ساكر ، رئيسْ القسم السياسي ووزير الدولة القادم للشئون الخارجية .

فبينما كان فيز ساكر يدافع عن السياسة التي يجب ان تأخذ بها المانيا في المستقبل القريب قال ان الهدف الرئيسي للرايخ لا يزال هو هجرة اليهود . ومع هذا فان على المانيا ألا تعود الى حث اليهود للتوجه الى فلسطين وحسب ، فمن المصلحة الالمانية ان يتشبث اليهود في العالم بدلا من مساعدتهم - حتى ولو بشكل غير مباشر - في تحقيق طموحاتهم القومية .

وفي مايو ١٩٣٧ بدأ قسم الشئون اليهودية اتخاذ اجراء لالغاء اتفاقية الهعفرا ، وقد اجبر هذا الاجراء نيوراث على اتخاذ موقف رسمي ضد انشاء دولة يهودية في فلسطين ، وقد ارسل بولو - شوانته خطابا تم تداوله بحذر كل البعثات الالمانية من ان السياسة الرسمية الجديدة للرايخ يجب اتباعها . ولم يُضع قسم الشئون اليهودية وقتا في قيادة الهجوم النهائي ضد اتفاقية الهعفرا .

كان على قسم الشئون اليهودية في البداية ان يحارب ضد المعارضة في قسم الشئون الاقتصادية الذي كان يعمل من خلال وزارة الخارجية والذي كان يرى ان الاتفاقية الموقعة مع الصهاينة يجب التمسك بها(٢٩) . وهكذا في يوم ١١ يونيو ١٩٣٧ بعث بولو شوانته بمذكرة الى قسم الشئون الاقتصادية يحثه على اتباع التعليمات التي اصدرها نيوراث والآراء التي عبرت عنها منظمة الأوسلاند بخصوص مراجعة اتفاقية الهعفرا أو الغائها(٣٠) . وكان قسم الشئون اليهودية يشعر - كما اشار بولو - سوانته - انه من الممكن زيادة عدد اليهود المهاجرين زيادة كبيرة لا بتبسيط الاجراءات الادارية التي قد تقتضي في بعض الحالات تقديم تضحيات فيما خص تحويل العملة الاجنبية (هعفرا) - وانما بجعل الحاجة الى الهجرة التي يشعر بها اليهود أنفسهم مسألة حتمية « وفي رأيي يمكن ان يتحقق هذا عن طريق قانون اكثر صرامة لليهود (على سبيل المثال بجعلهم يدفعون ضريبة دخل خاصة) وهذا القانون سيرغم اليهود آليا على الهجرة بارادتهم الحرة »(٣١) .

لقد تبنى بولو - شوانته طريقة منهجية اجرائية ، فأرسل الى وزارة الداخلية خطابا للتداول وجهه يوم ٢٢ يونيو الى البعثات الالمانية في الدول الاجنبية . غير ان هذه الوزارة لم تكلف نفسها حتى باعطاء جواب مكتوب . وفي ٨ يوليو أكد هيرنج ، مساعد ستوكارت وزير الدولة ، لمساعد بولو - شوانته ان وزارة الداخلية قررت بصفة نهائية قاطعة استمرار

---

29. Clodius, Note n zu 83—21 A 16/4 dated June 11, 1937., Inland II A/B Judenauswanderung—Allg. (Palastinastaat), Bd. 1 a, A. A. Bonn.

30. Bulow—Schwante's letter to W. and to Kult, n zu 83—21 A 4/6 (227g) dated June 11, 1937., DGFP D. V. p. 749.

31. Ibid.

سياستها في الهجرة كما كان الشأن في الماضي . واذا ارادت وزارة الشئون الخارجية ان تحدث تعديلات ، او اذا كان لها أي اعتراض فان على وزير الشئون الخارجية ان يأخذ زمام المبادرة بالدعوة الى اجتماع يبحث هذه المشكلة(٣٢) . وكما هو متوقع فقد نظمت وزارة الخارجية اجتماعا يوم ٢٩ يونيو أعرب فيه جميع المشتركين عن استعدادهم لتعديل جذري في طريقة تنفيذ اتفاقية الهعفرا ، ولم تجرؤ وزارة الاقتصاد والقسم الاقتصادي في وزارة الخارجية على رفض الحجج التي طرحها قسم الشئون اليهودية ومنظمة الاوسلاند . وتم التوصل بصفة خاصة الى اسقاط المزايا التي تتمتع بها امنظمات المختلفة التي ترغم العرب والالمان ، الذين يعيشون في فلسطين ، على التعامل من خلال الجمعية اليهودية لعقد صفقاتهم مع المانيا . ومن وجهة النظر الاقتصادية البحتة ـ كما اشار مسئول عن الرقابة النقدية ـ « لم تكن صفقات الهعفرا مهمة لألمانيا لأنها لم تدخل أية عملة اجنبية للبلاد(٣٣) .

وعلى أية حال ، انتهى هذا الاجتماع دون نتيجة ايجابية ، غير أن ممثل وزارة الداخلية أصدر بيانا أثار اهتماما بالغا : « منذ بعض الوقت ، عندما طرحت هذه المسألة على الفوهرر قرر الفوهرر أن هجرة اليهود يجب أن تتجه الى فلسطين » واختتم بيانه قائلا : « وليس مطروحا حل المشكلة التي تسببها اتفاقية الهعفرا عن طريق اتخاذ اجراءات تمنع في المستقبل اليهود من الهجرة الى فلسطين » .(٣٤)

وفي اجتماع آخر في ٢١ سبتمبر صحح هيرنج البيانات التي أدلى بها رفيقه ، وقال أن الفوهرر لم يتخذ قرارا عن المشكلة الخاصة بالهجرة الى فلسطين ، وأن أوامره لا تعني سوى حث اليهود بصفة عامة على الهجرة (٣٥) وأضاف هيرنج « وعلى أساس هذه الحقيقة تكون اتفاقية الهعفرا هامة لوزارة الداخلية بالقدر الذي تجعل به أكبر عدد من اليهود يغادرون المانيا » ، فاذا تأكدت وزارته من أن ايقاع الرحيل لن يتباطأ نتيجة القيود المفروضة على أوجه نشاط الهعفرا ، فانه لا يرى اعتراضا على مراجعة هذه الاتفاقية .

وعمل قسم الشئون اليهودية ووزارة الداخلية على وضع خطة جديدة يتم بمقتضاها الاحتفاظ باليهود الأثرياء في المانيا ويتم طرد الآخرين . وهكذا تنتهي اتفاقية الهعفرا من تلقاء نفسها عندما لا يعود هناك يهود أثرياء يريدون الهجرة ، باعتبار أن انهاء اتفاقية الهعفرا هو ميزة أخرى للرايخ .

---

32. Hinrichs, Note to Schumburg n 83—21 A 8/7 dated July 15, 1937., Inland II A/B, Judenauswanderung—Allg. (Palastinastate), Bd. 1 a, A. A. Bonn.

33. Report n zu W III SE 7115 dated August 3, 1937., joined to Benzler's letter n W III SE 7115 dated September 13, 1937., Ha—Pol. Clodius, Palastina, A. A. Bonn.

34. Ibid.

35. Riegner's Report n zu W III SE 7661/37 dated September 25, 1937., Ibid.; Schleicher's Report dated September 23, 1937 joined to Bisse's letter to Bohle n 90 292 WS/HE dated September 29, 1937., Chief A. O., Judenstaat Palastina, Haavara, A. A. Bonn.; Schumburg's Note n zu 83—21 A g 4/10 (427 g), Kult., Fragen der Judenpolitik (Auswanderung nach Palastina), Bd. 1, A. A. Bonn.

وبناء على مبادرة من وزارة الداخلية تم الدعوة لعقد اجتماع آخر في حضور مسئول من وزارة الخارجية لبحث أهمية القوانين الجديدة التي سنت لأرغام اليهود على الهجرة (٣٦) . وأعلن هيرنج بوضوح أنه حسب رأي وزارة الداخلية لم تعد وكالة الهعفرا ذات أي نفع لتنفيذ السياسة الجديدة (٣٧) . ووجدت وزارة الاقتصاد نفسها معزولة تماما في دفاعها عن الهعفرا . ومع هذا ففي ٩ أكتوبر تم الاعتراف صراحة « بضرورة استمرار حث اليهود على الهجرة من ألمانيا بقوة ، وضرورة ممارسة الضغط عليهم على الهجرة الى فلسطين ، حيث أنه لم تتخذ بعد أي قرارات عكسية (٣٨) .

وأرسل مكتب الرقابة النقدية من جانبه ـ برغم الموقف الأخير لوزارة الداخلية ـ مذكرة مطولة الى وكالة خطة السنوات الأربع التابعة لجورنج ، شرح فيها كل المزايا التي تحصل عليها المانيا من اتفاقية الهعفرا سواء بالنسبة للاقتصاد أو الهجرة (٣٩) .

وفي هذه الفترة بدأ تدخل اوتوفون هنتج ، الذي كان قد حل في يوليو ١٩٣٧ محل بلجر كمدير لقسم الشرق الأوسط وبذل عدة مساعي في الماضي الى تهدئة معاداة الصهيونية الواضحة في قسم الشئون اليهودية . وبما أنه لم يكن يؤمن بأنه يمكن تأسيس دولة يهودية في فلسطين في المستقبل المنظور (٤٠) فأنه كان يرى أن اتفاقية الهعفرا لا يمكنها أن تعجل بانشاء مثل هذه الدولة . وسعى بالاتفاق مع مسئولي وزارة الاقتصاد الى تأخير تنفيذ الاجراءات المقيدة لنشاط الهعفرا بقدر الامكان . (٤١)

ويبدو أن اوتوفون هنتج ـ بعد أن وضع هذا الهدف في اعتباره ـ أصر بقوة على أن اتفاق الهعفرا بأكمله يجب عرضه على هتلر . والارجح ان هنتج كان مقتنعا بأن الفوهرر الذي كان يحارب حربا لاهوادة فيها كي يصبح الرايخ خاليا من

---

36. Schumburg's Note to Chief A. O., Pol. IX, Pol. V., dated October 6, 1937. ibid.; Hering's letter n I B 191 g 5012 d dated October 7, 1937., ibid,; Schumburg's Note to Chief A. O. W., Kult., Pol. VII., dated October 8, 1937, ibid.; Hering's letter n I B 191 g 5012 d III dated October 9, 1937., ibid.; Schumburg's Note n zu 83—21 A g 4/10 (421 g) dated October 11, 1937., ibid.

37. Ibid. Schwarz's letter to Chief A. O. n Betr. n 610 joined to Kraneck's letter to Bohle dated October 27, 1937., Chief A. O. Judenstaat Palastina, Haavara, A. A. Bonn.

38. Schwarz's letter to Chief A. O., ibid.

39. Utermoehle's letter dated November 15, 1937 in Utermochle's letter to Hentig n Dev. A 60754 dated December 7, 1937., Pol. VII, Palastina, politische Beziehungen zu Deutschland, DGFP D—V, p. 772.

40. Marginal note dated September 17, 1939 on Schumburg's note n zu 83—24, A. 12/8 dated August 21, 1939., Inland II A/B, Grundung eines Palastinastaates, Bd. 2 A. A. Bonn.

41. Hentig's Note n zu Pol. VII 92/38, January 1938 Pol. VII, Palastina, politische Beziehungen zu Deutschland, A. A. Bonn.; See Ernest Marcus, **The German Foreign Pffice and the Palestine Question (1933—1939)**, in Yad Vashen Studies N II, pp. 179—204.

اليهود - سوف يأمر بجلاء اليهود لأية دولة بما في ذلك فلسطين ، ومن ثم سيقرر ان اتفاقية الهعفرا يجب أن تستمر في اداء أنشطتها ، وكان من المتوقع ألا يشعر مدير قسم الشئون اليهودية بأي ندم لاتخاذه موقف الدفاع عن اتفاقية الهعفرا اذ أنه بناء على حديث مع الفريد رونبرج - رئيس الشئون الخارجية بالحزب الاشتراكي الوطني - عن السياسة التي يجب اتباعها تجاه اليهود أخبره أن هتلر كان قد قرر ضرورة يجب « الاستمرار في تشجيع هجرة اليهود الألمان بكل وسيلة » . (٤٢)

وفي يوم ١٧ ديسمبر جاء في مذكرة سنوكارت وزير الدولة أنه منذ التمرد العربي في فلسطين « ومزايا أجراءات اتفاقية الهعفرا تتأرجح بينما تتزايد مساوئها (٤٣) وكان من رأي سنوكارت أنه اذا لم يكن انشاء دولة يهودية أمر حتمي اذن » فانه يجب الامتناع عن كل شيء من شأنه أن يروج لنمو مثل هذه الصولة » ، ثم أعلن بوضوح : « ليس هناك شك في ان اجراءات اتفاقية الهعفرا قد ساهمت مساهمة كبرى في الاسراع الهائل ببناء المستعمرات الصهيونية في فلسطين » . (٤٤)

وفي النهاية طرحت مخاوف هؤلاء المسئولين (التي كانت متناقضة مع آراء رجال العاصفة والجستابو) أمام هتلر . وقد قرر الفوهرر - كما جاء في مذكرة قسم التجارة السياسية بالخارجية بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٣٨ - ضرورة الاستمرار في اجراءات اتفاقية الهعفرا (٤٥) وهذا الموقف الايجابي الذي اتخذه هتلر بشأن تدعيم الاستيطان الصهيوني في فلسطين دون تغيير بالرغم من الشكاوي المرفوعة من وزارة الخارجية ومنظمة الأوسلاند في الحزب بشأن تزايد عداء الفلسطينيين لألمانيا .

وفي ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ أمر جورنج ، في مؤتمر صحفي بوزارة الطيران ، بالاسراع بكل وسيلة ممكنة بهجرة اليهود . ومع هذا قرر في المؤتمر الصحفي أنه لا يوجد اعتراض على أي خطوات تتخذ لصالح المنظمات الأجنبية المهتمة بهذه المشكلة . (٤٦)

وهكذا نجد أنه بمقتضى الاتفاقية المبرمة بين ألمانيا ولجنة ايفيان (٤٧) ، وبتأييد من جورنج ، التزمت برلين يوم أول

---

42. Clodius, Note, Assistant Director of the Economic Division at the Wilhelmstrasse, in Referat Deutschland n zu 83—24 A g 13/1 (15 g), dated January 27, 1938., Pol VII, Palastina, politische Beziehungen zu Deutschland, Bd. 1, DGFP D—V, p. 784. Also Bisse's letter to Bohle n 3396/8 dated February 1, 1938., Chief A. O., Judenstaat Palastina, Haavara, A. A. Bonn.

43. Kennzeichen J (Mark J), Berlin : Helmut Eschwege, 1966, p. 132.

44. Quoted from Klaus Polkhen, op. cit., p. 68.

45. See Tillmann, op. city., p. 69.

46. Woermann's note n 83—24 B 14/11 dated November 14, 1938 in DGFP D—V. pp. 905—906.

47. See New York Times, February 14, 1939 in DGFP D—V, p. 926, n 2. Also Rublee's letter to Wohlthat of February 1, 1939 in Cilbert's cable to Hull n 89 dated February 3, 1939., FRUS 1939—II, pp.77—81; Inland II A/B, Judenauswanderung—allg., BD. 1., A. A. Bonn. Also Achilles' Memorandum to Roosevelt dated April 28, 1939, ibid., p. 105.

فبراير ١٩٣٩ بالاستمرار بالعمل بمقتضى اتفاقية الهعفرا . وفي ٥ يوليو ١٩٣٩ طلبت وكالة بالتريو (التي كانت تمثل في برلين رئاسة الهعفرا والتي كان مقرها تل ابيب) زيادة حجم التحويلات بمقدار ٧٥٠ ألف مارك على أن تستعمل حتى ٣١ ديسمبر ١٩٣٩ ،⁽⁴⁸⁾ وذلك حسب الاتفاق المبرم في السابق في إطار الاتفاقية . وقد تمت الموافقة على هذا الطلب في ١٢ أغسطس (٤٩) . ومع هذا لم يتردد شومبرج ـ الذي كان يعارضه هنتج ـ من أن يدخل من جديد في ٢١ أغسطس معركة أخيرة ضد هذا القرار (٥٠) .

فقد سمحت وزارة الاقتصاد يوم ٢٢ أغسطس ١٩٣٩ على الرغم من معارضة قسم الشئون اليهودية (٥١) بتحويل مبلغ ١ر٢٠٠ر٠٠٠ مارك لفلسطين حتى ٣١ ديسمبر ١٩٣٩ « لمصاريف الدراسة » (٥٢) وهذا يعني أنه بالرغم من أن شاخت قد ترك وزارة الاقتصاد الا أن الموقف ازاء صفقة الهعفرا لم يتغير على الاطلاق .

وفي عام ١٩٣٩ كانت وكالة بالتريو لا تزال تستخدم ١٥٠ شخصا (٥٣) وبين أول يناير ١٩٣٨ واول سبتمر ١٩٣٩ تم تحويل مبالغ وصلت حوالي ٢٧ مليون مارك (٤٥) .

وتم تحويل حوالي ١٤٠ مليون مارك الى فلسطين بين عامي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ بمقتضى اتفاقية الهعفرا ، وبهذا تمكن المهاجرون اليهود من الحصول على أكثر من ٨ مليون جنيه استرليني . وفي الفترة ذاتها غادر حوالي ٥٠ ألف يهودي المانيا الهتلرية الى فلسطين . (٥٥)

---

48. Ibid. Hull's cable to Taylor and Rublee n 104 dated February 8, 1939, FRUS 1939—II, pp. 84—87.

49. Platreu's letter to the Ministry of Economy, July 5, 1939.,.Inland II A/B, Grundung cines Palastinastaates Bd. 2, A. A. Bonn. Also Landwehr's letter to Paltreu n V Dev. 4 30626/39 dated August 12, 1939., ibid.

50. Schumburg's Note to W., Pol. VII, n zu 83—24 A 12/8, August 21, 1939., ibid; also Hentig's marginal note of September 17, 1939., ibid.

51. Marwede's letter to A. A. n V Dev. 3/1535/39 of February 9, 1939., ibid., Bd. 1. Also Hinrichs' letter to the Ministry of Economy n zu 83—24 A 9/2, February 27, 1939., ibid.

52. Marwede's letter to Platreu n V Dev. 4/27723/39, August 22, 1939., ibid.

53. See Ludwig Pinner and al. op. cit.

54. Ibid.

55. Ibid.

« خاتمـــــة »

إن التساؤل بخصوص العلاقة بين الصهيونية والنازية الألمانية يعد من المحرمات في أعين الزعماء الصهاينة والمدافعين عنهم . ونادرا ما يمكن الحصول على شهادة أو وثائق صادقة خاصة بهذه الأحداث . والبحث السابق يتضمن المعلومات التي تم جمعها حتى يومنا هذا عن بعض الجوانب العامة لهذا التعاون .

وعندما يكشف الغطاء عن قصة التعاون الصهيوني ـ النازي فان المؤرخين عادة ما يقدمون العذر الجاهز مسبقا ، وهو أن هذا الاتصال بالنازي قد تم (لانقاذ ارواح المواطنين اليهود وحسب) . وعلى الرغم من أن الحقائق السابقة تناقض هذه الحجة ، يتبقى حقيقة واحدة فوق أي شك ، وهي أن هتلر كان وظل الضامن الوحيد لتمويلات الهعفرا التي لم تتوقف الا عام ١٩٤١ أي بعد عامين من نشوب الحرب العالمية الثانية (٥٦) ولا يقدم هذا البحث بالضرورة صورة كاملة ، ولن نتمكن من هذا الا عندما تتاح أمام البحث العلمي الأراشيف (وخاصة الموجودة في اسرائيل) التي توجد فيها الوثائق التي تخص هذه الأحداث ولا يصرح لأحد برؤيتها . (٥٧)

* * *

---

56. The emigration of Jews from Germany was only prohibited in 1941 by order of SS Chief Himmler; see Leon Poliakov and Joseph Wulff, Das Dritte Reich und die Juden (**The Third Reich and the Jews**), Berlin, 1955, p. 89, quoted from Klaus Polkchn, op. cit. p. 69.

57. In the book Das Leben DER Juden in Deutschland in Jahre 1933 (**Life of the Jews in Germany in 1933**) by Kurt—Jacob Ball—Kaduri (Frankfurt am Main, 1963) are cited, among others, the following "unpublished sourcer" which are kept in the Yard—Vashem Archives in Jerusalem :
"Contributions to the history of the Haavara Transfers" by Dr. Leo David (YWA 01/277);

"Negotiations with the Gestapo in Berlin about Emigration 1936—1938" (YWA 01/130); and

"Leo Plaut and the Gestapo Chief Diels in Berlin in the Years 1933,34" (YWA 01/229), all in German.

Quoted from Klaus Polkehn, op. cit. p. 55.

شخصيات وآراء

إيجور سترافنسكى
حياته وأعماله
بمناسبة الاحتفال المئوى لمولده

سميحة الخولى

ربما كان القرن العشرون من أغنى عصور الموسيقى الغربية بمؤلفيه ومذاهبه الموسيقية ، ومن بين الشخصيات الموسيقية الكبرى في هذا القرن لا نجد مؤلفا ترك آثارا عميقة على الفكر والابداع الموسيقي مثل ايجور سترافنسكي عملاق الموسيقى الغربية في القرن العشرين والمؤلف الذي يحتفل العالم به هذا العام بمناسبة مرور مائة عام على مولده .

وعندما يكتب تاريخ الفنون التعبيرية في القرن العشرين ، سيكون سترافنسكي على رأس قائمة المفكرين المبدعين في مجالات التأليف الموسيقي للبالية والاوبرا وغيرهما من العروض الموسيقية المسرحية التي أبدعها استجابة لجماليات القرن العشرين ومسايرة لاحتياجاته الفنية والفكرية .

وعندما وافته المنية في السادس من إبريل سنة ١٩٧١ ، عن ثمانية وثمانين عاماً مجيدة ، كان سترافنسكي قد ترك بصماته العميقة على موسيقى القرن العشرين في كل انحاء العالم ، بمؤلفاته الموسيقية الغزيرة البالغة التنوع ، وبأفكاره وكتاباته المنشورة ، والتي ألقت الضوء على حياته (مثل ترجمته الذاتية المنشورة عام ١٩٣٦) وعلى مبادئه الفنية ، في عدد من الكتب ابرزها المجلدات الستة من « المحاورات والمحادثات » التي كتبها سترافنسكي بالتعاون مع صديقه وتلميذه الأمريكي الشاب روبرت كرافت ، والتي سنعرض لها فيما بعد وفي عام ١٩٨٢ يحتفل العالم الموسيقي بالذكرى المئوية لمولد سترافنسكي احتفالاً دولياً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، فسترافنسكي نفسه كان « مواطناً دولياً » ، فهو قد ولد وتربى ودرس في روسيا وعاش وأنتج في سويسرا وفرنسا التي تجنس بجنسيتها ، ثم قضى شطراً كبيراً من حياته الناضجة في الولايات المتحدة وتجنس بالجنسية الأمريكية وتوفي في أمريكا . . . وعندما عاد في

أواخر حياته الى روسيا زائرا وقائدا لبعض مؤلفاته استقبلته روسيا استقبالا حاراً ترحيبا بابنها الفنان العظيم . . وهكذا تعدى سترافنسكي حدود الانتاء لوطن واحد وأصبح طاقة إبداعية دولية ولذلك يحتفل العالم الموسيقي به احتفالاً من أكبر وأشمل ما شهد القرن العشرون على كثرة ما حفل به من ذكريات لعظماء المؤلفين الموسيقيين من أمثال بارتوك وهندمت وكوداي الخ . . . وقد بدأ الاعداد لهذا الاحتفال الموسيقي الدولي بسترافنسكي منذ عام ١٩٨١ ، حيث نشرت طبعات كاملة لمؤلفاته ، ووضعت الاركسترات الكبرى ودور الأوبرا ومحطات التليفزيون أعماله ضمن براجها ، ونشرت كتب وبحوث عديدة عن وثائق حياته ودراسات أسلوبه في المراحل الفنية المختلفة لحياته الطويلة المتجددة ، وجاء هذا كله اعترافا بمكانة سترافنسكي باعتباره علما من أجل أعلام الموسيقى في هذا القرن ، ينبغي لكل مثقف ، أيا كان موطنه ، أن يتعرف على شخصيته وفكره وإبداعه الموسيقي المعبر بصدق عن روح القرن العشرين في الغرب .

ولد ايجور سترافنسكي ٥ يونيه سنة ١٨٨٢ في أورنينباوم قرب مدينة سانت بطرسبورج (لينينجراد حالياً) في روسيا لأسرة ميسورة من أسر الطبقة المتوسطة ، وكان والده فيودور سترافنسكي من ألمع المغنين في أوبرا سانت بطر سبورج الشهيرة ، بل كان مغني « الباص » (وهو أخفض طبقات أصوات الرجال) الأول في هذه الأوبرا ، وكان يؤديها بتمكن جمع بين القدرات الغنائية والتمثيلية ، وهو ما يندر توافره في مغني الأوبرا . ولكن الأب كان عصبي المزاج متباعدا عن أبنائه ، ولم تنشأ بينه وبين أبنائه الثلاثة صداقة حقيقية . أما الأم ، وكانت محبة للموسيقى ، فكانت قليلة التأثير في حياة سترافنسكي في طفولته وصباه ، وهو ما تدل عليه الإشارات القليلة التي جاء فيها ذكرها في ترجمته الذاتية وما يشبهها من كتاباته الأخرى ، وخاصة كتابه « مقدمات وتطورات » الذي أجاب فيه على أسئلة أعدها روبرت كرافت وتناول فيها ذكريات الطفولة والنشأة المبكرة . ويمكن القول بأن سترافنسكي قضى طفولة غير سعيدة عانى فيها من شعور عميق بالوحدة ، ولعل موهبته الموسيقية المبكرة هي التي خففت شعوره بالوحدة وآنسته في سنوات طفولته ثم خلال سنوات صباه .

وكان سترافنسكي قد بلغ التاسعة عندما قررت أسرته أخيراً أن تتيح له فرصة الدراسة الموسيقية على سبيل الهواية ، كما كان شأن أبناء أسر الطبقة المتوسطة في روسيا في ذلك العصر .

وسرعان ما تعلم الصبي قراءة النوتة على يدي معلمة البيانو ، وعندما بدأ يقرأ الموسيقى أتجه بكل كيانه الى هوايتين هما : عزف الارتجالات على البيانو ـ مما كان له أثره في تنمية قدرته المبكرة على ابتكار أفكار موسيقية على البيانو ـ والثانية هي محاولة قراءة « مدونات » الأوبرات التي كانت تزخر بها مكتبة والده الموسيقية ، وحقق في ذلك نجاحا مبكرا بفضل السهولة التي كان يقرأ بها النوتة الموسيقية منذ صغره .

وعندما ذهب بصحبة أسرته الى مسرح الأوبرا ليستمع الى أوبرا « حياة القصير » من موسيقى جلينكا (١) شيخ المؤلفين القوميين الروس ، (وكان

---

(١) رائد المدرسة القومية الروسية . ولد جلينكا ١٨٠٤ وتوفي ١٨٥٧ وتعتبر أوبراته ذات الصبغة « القومية » رائدة في هذا المجال فهو الذي فتح الطريق لاستلهام الموسيقى الشعبية الروسية في مؤلفات فنية .

والده يغني فيها دورا رئيسيا) كانت سعادته بلا حدود لأنه كان قد قرأ مدونتها المختصرة للبيانو (وهي نسخة يعدها المؤلف للغناء والبيانو للتدريب بحيث يعزف البيانو فيها كل الأصوات التي يؤديها الاركسترا) . وكانت تجربته الأولى في سماع أركسترا الأوبرا على الطبيعة ، تجربة مثيرة تحدث عنها في ترجمته الذاتية وقال إنها « تركت إنطباعا لا يمحى ، جعله دائما من أكبر المتحمسين لطريقة جلينكا في التلوين الأركسترا لي البراق » .

وترعرعت موهبة سترافنسكي الصغير بفضل زياراته لمسرح الأوبرا وبفضل الجو الموسيقي الذي قضى فيها سنوات طفولته ، وهو يذكر في إحدى زياراته لدار أوبرا سانت بطر سبورج ، أنه شاهد المؤلف العظيم تشايكوفسكي (١٨٤٠ - ١٨٩٣) معبود الجماهير الروسية وبهر بذلك اللقاء العابر ، وكان ذلك قبيل وفاة تشايكوفسكي بأيام قليلة . ونما معه إعجابه بموسيقى تشايكوفسكي على مر الزمن وترجم هذا الاعجاب ترجمة عملية عندما أعاد صياغة بعض أعماله الأركسترالية ، كما كان في شبابه من أكبر المدافعين عن موسيقاه في مواجهة الهجوم الذي كانت جماعة القوميين « الخمسة » تشنه على تشايكوفسكي وموسيقاه .

* * *

لم يكن سترافنسكي تلميذاً مجتهداً وكانت نتائجه في المدرسة ضعيفة لأنه لم ينجح في التأقلم مع جو المدرسة وظروفها فازداد شعوره بالوحدة مما كان له أثره بلا شك في توثيق صلته بالموسيقى فهي التي كان يجد فيها متنفسه الحقيقي . وبعد سنوات الدراسة الثانوية التحق إيجور بجامعة سانت بطر سبورج لدراسة القانون حيث كانت أسرته تنظر لحماسه للموسيقى على أنه ضرب من الهواية لا أكثر ، وأخيرا وازاء إلحاحه الشديد وافقت الأسرة على أن تدفع له نفقات مدرس يقوم بتدريسه « الهارمونية » وذلك بجانب دراسته المستمرة للبيانو . ولكن سترافنسكي لم يقبل على تلك الدراسة بسرور كاف لأنه وجدها جافة ولأنه كان يفضل أن يحل مشاكله بنفسه من خلال العمل الموسيقي وليس عن طريق حل التمارين النظرية ، أما الكنترابنط (وهو الوجه الآخر لفن ازدواج الأصوات حيث تبحث الهارمونية في مصاحبة الألحان بتآلفات رأسية ، بينما الكنترابنط يبحث في مصاحبة الألحان بألحان أخرى أفقية وفقا لقواعد خاصة) فقد تعلمه سترافنسكي وحده بدون معلم ، وكان يستمتع بلذة التغلب على الصعاب فيه وحل المشاكل الموسيقية بنفسه . . . وهكذا تكونت لديه حصيلة موسيقية طيبة أثناء دراسته الثانوية والجامعية ، أعدته لدراسة البناء الموسيقي وصيغ التأليف الموسيقي form ودراسة التوزيع الاركسترالي Orchestration وعلم الآلات الموسيقية وهي التي درسها بعد ذلك بشكل أكثر جدية .

وجاءت نقطة التحول الحقيقية عندما التقى سترافنسكي في الجامعة بابن المؤلف الروسي الكبير رمسكي كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨) ونشأت بينهما صداقة حميمة . وفي عام ١٩٠٢ القت الأسرتان في ألمانيا في إجازة صيفية ، كعادة أبناء الطبقة المتوسطة ، فذهب ايجور الى المؤلف الكبير والد صديقه ليحدثه عن طموحه الموسيقى وأمله في أن يصبح مؤلفا موسيقيا . فأحاله رمسكي كورساوف الى أحد تلاميذه ليستكمل معه دراساته للهارمونية والكنترابنط بما يؤهله لبدء دراسة التأليف معه ، ولكنه نصحه بألا يلتحق بالكونسرفتوار لأنه أحس أن جو ذلك المعهد لن يلائم سنه المتقدمة نوعا وشخصيته ، وتطوع رمسكي بالاشراف على دراساته الموسيقية بنفسه بعد أن يحصل المعارف الموسيقية المطلوبة لذلك ، وكان هذا في حد ذاته تشجيعا عظيما من مؤلف

اشتهر بصراحته المريرة في ابداء رأيه في أمور الموسيقى . . .

وكانت هناك في روسيا في ذلك الوقت حركة فنية طليعية حمل لواءها سيرج دياجيليف Serge Diaghilev (١٨٧٢ ـ ١٩٢٩) وكرس لها صفحات مجلته الفنية « عالم الفن » للدفاع عن مبادئها الثورية . وكانت الدوائر التعليمية في الكونسرفاتوار شديدة العداء لهذه الحركة الجديدة ـ التي خشيت أن تفسد عقول الشباب ـ ولكن رمسكي كورساكوف بحكمته ، لم يندفع في تيار الرفض لهذه الحركة التجديدية ، وهكذا وجد سترافنسكي في استاذه الشيخ تفتحا وسعة أفق خففت من حدة الصراع بين الأجيال . . وأفسحت أمامه الطريق لنمو فني « صحى » لاتكبله القيود والمحاذير . . .

وعندما كتب ايجور الشاب صوناتته الأولى (في مقام فادييز الصغير) لمس لأول مرة مدى صعوبة التوصل الى بناء (فورم) موسيقى محكم فحملها الى أستاذه الكبير الذي وجهه بطريقة غير تقليدية الى دراسة « البناء الموسيقي » والتوزيع الاركسترالي في آن واحد، فكان يعطيه فصلا من إحدى أوبراته الجديدة ليقوم بتوزيعه لآلات الاركسترا ثم يقارن توزيع طالبه بتوزيعه هو لنفس الفصل ، ويناقش معه أسباب الاختلاف بين التوزيعين ونتائجه . . .

وهكذا نشأت بينه وبين أستاذه صلة حيمة من أفضل ما يقوم بين أستاذ وطالب ، واستمرت تلك الصلة ثلاث سنوات تكونت فيها شخصية سترافنسكي الموسيقية ، وصنعته الموسيقية المبكرة التي دخل بها الى معترك التأليف الموسيقي الذي قرر أن يتخذه طريقا لحياته ومهنة له .

ولم يكن رمسكي كورساكوف هو العنصر الوحيد المؤثر في تكوينه الفني ، بل تأثر كذلك في تلك المرحلة ، بموسيقى تشايكوفسكي وفاجنر وجلازونوف [٢] ، وان كان قد تخلص من تأثير فاجنر في مرحلة مبكرة بل ثار على تلك الهالة المبالغ فيها والتي أحيطت بها أوبرات فاجنر في بايرويت .

وفي عام ١٩٠٦ أنهى سترافنسكي دراسته الجامعية وتزوج من كاترين جابرييل (إحدى قريباته) وأقام معها في ضيعتها في أوستيلوج بالقرب من سانت بطرسبورج ، ولكنه استمر يدرس مع رمسكي كورساكوف فكان يعرض عليه ما يكتبه طالبا نصحه وتوجيهه ، واليه أهدى سيمفونيته الأولى اعترافا بفضله . وقام استاذه بدور هام في إتاحة الفرصة لسترافنسكي لعزف تلك السيمفونية هي ومتتابعة للصوت الغنائي والاركسترا (بعنوان الفون والراعية) اذ عزفها له اركسترا القصر الأمبراطوري وكانت تلك المتتابعة أول عمل لسترافنسكي يسمعه الجمهور في عام ١٩٠٧/٨ في مدينته .

وتحولت الصلة بين الأستاذ والطالب الى صداقة وطيدة فكتب سترافنسكي عمله الأركسترالي « ألعاب نارية » سنة ١٩٠٧ ، لمناسبة زواج ابنة رمسكي كورساكوف وأرسله اليه بالبريد ، ولكن النهاية حانت قبل أن يطلع الأستاذ عليه ، وعندما توفي رمسكي كورساكوف سنة ١٩٠٨ كان سترافنسكي من اوائل المشيعين لجنازته ، كما أنه كتب لتأبينه عملا موسيقيا بعنوان « غناء جنائزي » Funeral Dirge أقامه على فكرة شيقة ، مؤداها أن تتقدم كل آلة من آلات النفخ في الاركسترا لتضع إكليلا موسيقيا (في صورة لحن

---

(٢) جلازونوف مؤلف روسي ولد ١٨٦٥ ودرس على بالاكيريف ورمسكي كورساكوف وغيرهما وتولى إدارة كونسرفتوار سانت بطرسبورج لفترة ، وله سيمفونيات عديدة وموسيقى للباليه وكونشرتات للفيولينة وتوفى ١٩٣٦ في باريس .

خاص) على جثمان المؤلف الراحل وتعزفه مع خلفية مرتعشة من أصوات الكورال وبقية آلات الاركسترا . . . ونجح هذا العمل نجاحا كبيرا ولكن سترافنسكي نفسه كان يعزو ذلك الى جو الحزن المسيطر على الحاضرين لحفل التأبين .

وبدأت مؤلفاته تأخذ طريقها الى الجمهور الروسي وعزفتها الأركسترات فلفتت اليه الأنظار . وكان في تلك الفترة قد تعرف على سيرج دياجيليف ، ذلك الفنان الموسوعي الثقافة والمنظم العبقري الذي كان له فضل الريادة في عالم البادية في اوائل القرن ، اذ أنه كان وراء أهم عروض البالية الكبرى في مطلع القرن فهو الذي كان يكلف أفضل المؤلفين الموسيقيين بكتابة موسيقاها (من أمثال ديبوسي ورافيل ودي فاليا ثم سترافنسكي) وكان يحشد الطاقات التشكيلية والمسرحية والراقصة لتقديمها في أفضل صورة في أنحاء أوربا بفرقته الشهيرة « فرقة الباليه الروسية » . وكان لهذا التعارف فضل كبير في تشكيل مستقبل سترافنسكي الموسيقي وقامت بين الرجلين صداقة عميقة لم تتأثر كثيرا باختلاف السن أو الطبيعة أو اختلاف الرأي .

●●●

سترافنسكي ودياجيليف :

ففي إحدى الحفلات التي عزفت فيها موسيقى سترافنسكي في روسيا ساقت له الأقدار سيرج دياجيليف الذي كان في طليعة الركب الفني الأوربي ، فكان كل عمل جديد للبالية تقدمه فرقته يمثل اتجاها جديدا في الموسيقى أو التشكيل أو الرقص أو تصميم الرقصات واستطاع دياجيليف ، بحاسته الفريدة في كشف العبقرية ، أن يستشف من أعمال سترافنسكي المبكرة أنه أمام طاقة موسيقية فذة ، وأعجب بصفة خاصة بقدرته الفائقة على التلوين الاركسترالي ، وهي السمة التي بدأ يتفوق فيها حتى على استاذه ، وفي سبيل استكشاف أبعاد الطاقة الكامنة عند المؤلف الناشيء عهد اليه دياجيليف بالتوزيع الاركسترالي لمقتطفات من موسيقى شوبان وجريج فوجد عنده معينا موسيقيًا غزيرا فقرر أن يكلفه بكتابة موسيقى لباليه « روسي » كبير .

وكان أول مشروع كبير كلفه به هو تأليف الموسيقى لباليه يقوم على أسطورة روسية عن العصفورة النارية أو « الطائر الناري » كما اشتهر L'Oiseau de feu وعهد دياجيليف الى ميخائيل فوكن Fokine بابداع تصميم الرقصات لهذا الباليه ، بينما كلف باكست Bakst بتصميم المناظر المسرحية والملابس له . وتم إنجاز الباليه وقدم للجماهير سنة ١٩١٠ بنجاح فوري واسع ، وبهذا الباليه خطا سترافنسكي أولى خطواته على طريق الشهرة الأوروبية ، وكان مقدرا له أن يسير في هذا الطريق طوال نصف قرن أو يزيد بخطى مطردة واسعة .

ويرجع نجاح موسيقى باليه « الطائر الناري » الى أن قصته المأخوذة عن الفولكلور الروسي قد أتاحت للمؤلف الموسيقي فرصة طبيعية لاستلهام ألحان وايقاعات الموسيقى الفولكلورية (الشعبية) الروسية فيما يسمى « بالاسلوب القومي » ، والذي ابدع فيه مواطنوه من الجيل السابق أعضاء جماعة « الخمسة » الشهيرة وهم بورو دين وبالاكيريف وموسورسكي ورمسكي كورساكوف (٣) ولكن سترافنسكي كان أكثر جرأة وابتكارا في الأسلوب القومي من الوجهة

---

(٣) العضو الخامس هو سيزاركوي Cui وكان ناقدا أكثر منه مؤلفا .

الهارمونية ، كما أن قدرته الفذة على التلوين الاركسترالي المتألق البراق بدأت تظهر في موسيقى هذا الباليه . ويحرص سترافنسكي في مذكراته على التعبير عن عرفانه لقائد الاركسترا الفرنسي جابرييل بييرنيه Pierne الذي قاد الاركسترا في العرض الأول للباليه في باريس .

وقد حظى باليه « الطائر الناري » باعجاب فوري من الجماهير وخاصة من جيل الشباب مما شجع سترافنسكي على المضي في تحقيق خططه المقبلة في مجال التأليف للباليه .

وقد بلغ من نجاح موسيقى « الطائر الناري » أن مؤلفها صاغها بعد ذلك في متتابعتين للكونسير وجدتا طريقهما الى قاعات الموسيقى بنجاح باهر ، وفي اعتقادي أن هذه الموسيقى هي أفضل بطاقة للتعرف على جانب محبب وسلس من موسيقى سترافنسكي ، ولها تسجيلات متعددة من عزف اركسترات وقادة من كل أنحاء العالم .

مولد فكرة باليه بتروشكا وقربان الربيع : يحدثنا سترافنسكي في مذكراته عن رؤيا طافت بخياله بينما كان يكتب الصفحات الأخيرة من مدونة الطائر الناري اذ تخيل طقوسا وثنية قديمة رأى فيها شيوخا حكماء يجلسون في دائرة يرقبون فتاة شابة ترقص حتى الموت لأنهم قرروا تقديمها قربانا أو ضحية لاله الربيع .

وكانت هذه هي الفكرة التي قام عليها الباليه الثالث لسترافنسكي بعنوان « قربان الربيع » ، ولقيت هذه الفكرة ، كموضوع لباليه جديد ، استحسانا عظيما من دياجيليف ومعاونيه ، وكذلك من صديقه المصور نيكولاس روريش N. Rocrich ، غير أن ظروفا خارجية أجلت تنفيذ فكرة هذا الباليه بعض الوقت .

واراد سترافنسكي أن يتهيأ نفسيا لهذا الباليه الجديد الكبير ففكر في كتابة عمل موسيقى « بحت » للبيانو والاركسترا يقوم فيه البيانو بدور رئيسي أي « قطعة للكونسير » Konzertstuck (وهي أشبه بفكرة الكونشرتو للبيانو والاركسترا ولكنها أكثر تحررا من صيغة الكونشرتو) ومن أطرف ما جاء في الترجمة الذاتية مما يلقى ضوءا هاما على اسرار الابداع عند سترافنسكي في تلك الفترة ما كتبه عن عمله في تلك القطعة للكونسير . فمن كتاباته عرفنا كيف تومض الأفكار الموسيقية في ذهنه وكيف تتطور منذ مولدها الى اكتمالها . . فما كان ليخطر ببال أي مؤرخ أو ناقد أن فكرة الباليه الثاني له ، بتروشكا ، قد تمثلت له من خلال تأليفه لقطعة من الموسيقى « البحتة » وأن الشخصية الهزلية للدمية الخشبية (القراجوز) الروسية الشعبية قد طرأت له أثناء عمله في بناء تآلف Chord هارموني (مجموعة ثلاثية أو رباعية من الأصوات تسمع معا في تركيب خاص) وهو تآلف « مزدوج المقام » bitonal يجمع بين عناصر من مقام دو الكبير ومقام فاديز الكبير في آن واحد هكذا : نموذج رقم (١) .

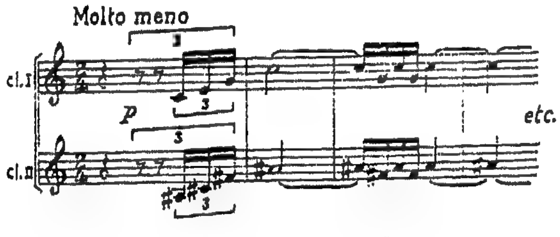

تآلف « بتروشكا » المزدوج المقامات .

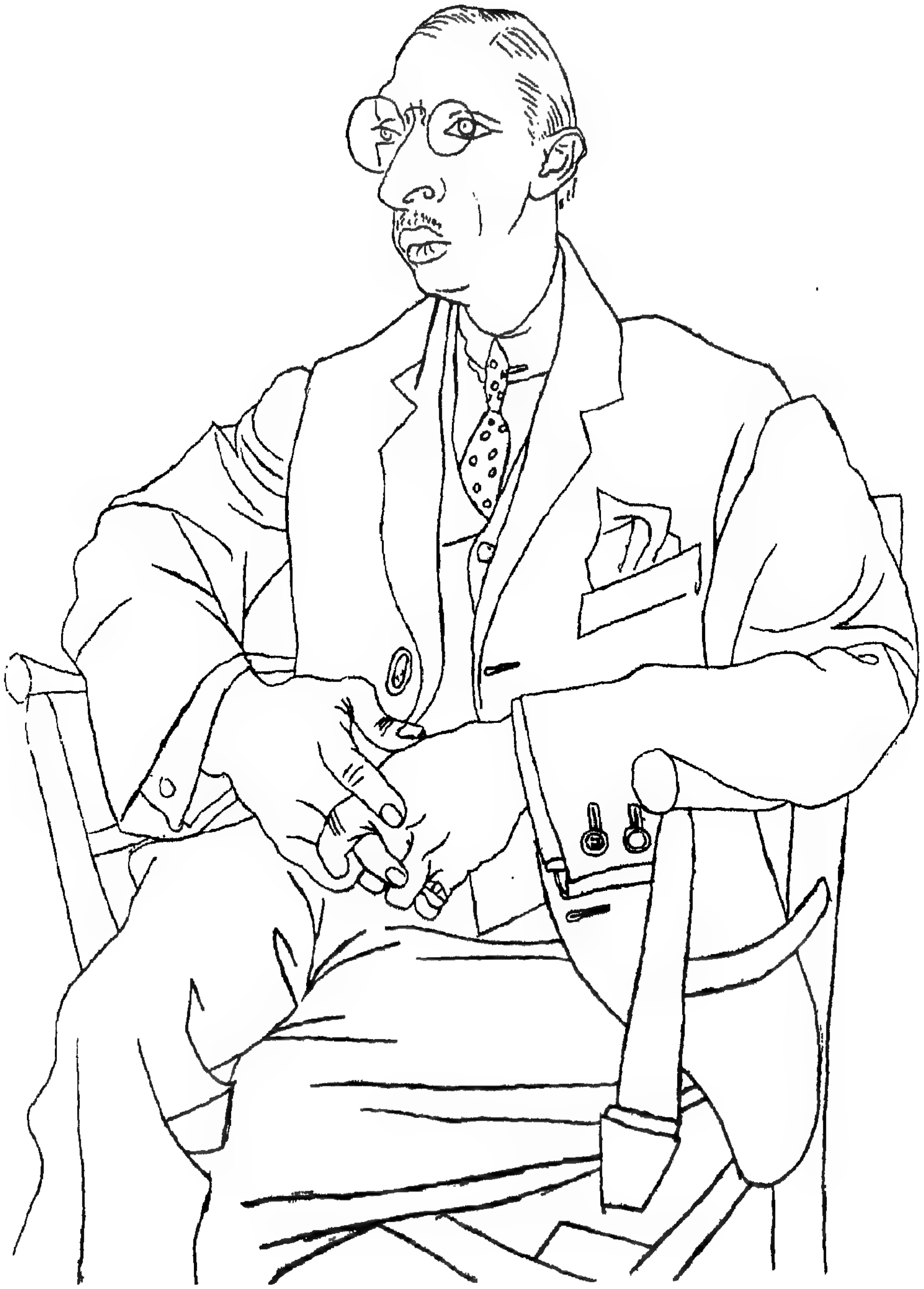

سترافنسكي

وكان هذا التآلف بأصواته الكروماتية المتنافرة هو الذي أثار خيال المؤلف فتمثل شخصية بتروشكا بازدواجيتها (التي تجمعُ بين صفات الدمية الخشبيةَ والصفات العاطفية الانسانية) من خلال هذا التآلف المزدوج المقام والذي عرف بعد ذلك باسم تآلف بتروشكا ، فالروس كانوا يعتبرون « بتروشكا » الدمية رمزا للانسان الروسي العادي المغلوب على أمره ، وهكذا تحولت قيمة موسيقية بحتة الى فكرة مسرحية ، وهكذا ولدت فكرة الباليه الثاني لسترافنسكي باليه Petrouch ka الذي تقع أحداثه في ساحة سوق شعبي في أحد الميادين ، وتصطرع فيه عواطف الحب (بين بتروشكا ودمية راقصة) والغيرة ، وينتهي بتروشكافيه نهاية حزينة ، ولكن شبحه يعود للظهور في ختام الباليه موحيا بأنه يرمز لقيمة لا تموت .

ولقيت فكرة باليه بتروشكا ترحيبا من فرقة الباليه الروسية وعلى رأسها دياجيليف الذي كلفه بتأليف الموسيقى للباليه ، واصطبغت موسيقاه بطابع « واقعي » وجاءت أقل ارتباطا بالملامح القومية من موسيقى الطائر الناري ، ولكن السمة المشتركة فيهما هي براعة استخدام المؤلف للوحة الألوان الاركسترالية استخداما تلوينيا يضيف للعرض المسرحي الراقص قيمة تعبيرية ممتازة .

وقدمت فرقة دياجيليف باليه بتروشكا في باريس سنة ١٩١١ ولقي منذ عرضه الأول ، نجاحاً كبيرا . ويحرص سترافنسكي على أن يعزو القدر الأكبر منه الى فن نيجنسكي الراقص الشهيروالذي أدى دور بتروشكا أداءا لا يبارى ، وكذلك للراقصة الشهيرة كارسافينا التي قامت بدور الدمية الراقصة ، ولا ينسى المؤلف فضل بنوا Benois الذي كان لتصميمه البارع للمناظر المسرحية والملابس فضل كبير في نجاح بتروشكا . وفي اعتقادي أن المستمع العادي يستطيع أن يجد متعة موسيقية كبيرة في الاستماع الى موسيقى بتروشكا ، وعلى عكس الطائر الناري ؛ فان سترافنسكي لم يقم باعداد نسخة خاصة من الموسيقى لتعزف في حفلات الكونسير ، بل تقدم موسيقى بتروشكا بنفس نصها الأصلي ولكنه ، كعادته ، قد راجعها مرة أخرى سنة ١٩٤٧ لتنقيح بعض ملامح التلوين الاركسترالي وتدعيم الكتابة الكنترابنطية فيها .

وعاد سترافنسكي بعد عرض بتروشكا من سويسرا ، التي قضى فيها فترات طويلة ، الى ضيعته في أوستيلوج ليتفرغ تماماً لكتابة موسيقى باليه « قربان الربيع » أو تكريس الربيع Le Sacredu Printemps ولكنه كعادته أيضا شغل نفسه على سبيل الترفيه بتلحين بعض الأغاني وبتلحين كانتاته « غنائية » بعنوان « ملك الأفلاك » وأهداها الى ديبوسي رمزا لتقديره واعجابه بفنه ، وكانت تربط بين المؤلفين صداقة جميلة رغم اختلاف السن .

ووجد سترافنسكي في صديقة روريش ، بخبرته الكبيرة في الموضوعات الوثنية السلافية القديمة عونا على وضع سيناريو للباليه الجديد ، وكان روريش قد صمم المناظر والملابس لرقصات « البولوفتسي » Polovtsian Dances الشهيرة في أوبرا إيجور لبورودين . واستقر السناريو في عدة مشاهد من فصلين الأول : عبادة الأرض : ويضم مقدمة ورقصة المراهقات ورقصة الاختطاف ورقصة الربيع الدائرية ومباريات القبائل المتنافسة ثم موكب الحكيم الشيخ ورقصة عبادة الأرض ويختتم هذا الفصل برقصة الأرض . أما الفصل الثاني فعنوانه « الضحية » The Sacrifice ويبدأ برقصة الضحية المختارة ثم رقصة استحضار الأجداد ثم طقوس الأجداد وأخيرا رقصة التضحية التي ترقص فيها الفتاة المختارة حتى الموت قربانا للأرض لكي تزهر في الربيع .

ورغم أن موضوع الباليه قديم يكاد يعود الى عصر ما قبل التاريخ الا أن المؤلف لم يتعمد استخدام أي لحن شعبي روسي في موسيقاه اللهم الا لحن استهلال الفصل الأول الذي تعزفه آلة الفاجوط في منطقة عالية جداً .

أسلوب سترافنسكي في باليه قربان الربيع :

والأسلوب الموسيقي الذي كتب به سترافنسكي موسيقى هذا الباليه التاريخي ، الذي أصبح الآن من عيون كلاسيكيات القرن العشرين ، أسلوب كان عندئذ شديد الغرابة والجدة فهو يعتمد على أفكار موسيقية قصيرة محدودة النغمات يداولها ويكررها كثيرا مع إعادة ترتيب مكوناتها بالتكرار أو المحاكاة imitation بايقاعات غير رتيبة ولا منتظمة النبرات ، وتتغير الأزمنة الموسيقية بسرعة كبيرة طوال الموسيقى تغييرا لم تعهده الموسيقى من قبل مثال 2,8 3,16 2,16 3,16 2,16 وهكذا (كما في رقصة الضحية) . وهذه الضغوط الايقاعية الحادة غير المنطقية تضفي على الموسيقى توترا حاداً مثيرا ، ويزيد من حدة الخشونة أن المؤلف استخدم عدة تآلفات هارمونية بأسلوب طرقي « إيقاعي Percussive »، واستخدم تآلفات متعددة المقامات » نموذج رقم ٢ تصدم الأذن بمجموعات أو « عناقيد » من الأنغام تجمع بينها انصاف أصوات ذات وقع شديد الخشونة وخاصة على الأذن المعتادة على سماع التآلفات الكلاسيكية أو الرومانتيكية . وجاء هذا الاتجاه الجديد ، استجابة مذهب « الحوشي » Barbarism الذي ظهر في الموسيقى في مطلع القرن العشرين بتأثير الحوشية في الفن التشكيلي .

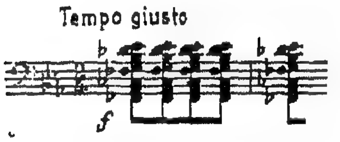

أحد التآلفات « الطرقية » وهو متعدد المقامات من باليه « قربان الربيع » .

وهكذا تبلورت سمات جديدة في أسلوب سترافنسكي في موسيقى هذا الباليه لم تكن معتادة ولا مألوفة على نطاق واسع من قبل وأهمها إزدواج المقامات وتعددها ، واستثمار التنافر dissanance كقيمة موسيقية جديدة ذات تأثير تعبيري خاص ملائم لهذا الموضوع ، بقدر ما هو مساير لاتجاه عام في موسيقى القرن العشرين . ويضاف الى ذلك كل لمسات بالغة الجرأة والطرافة في التلوين الأركسترالي .

الاركسترا في باليه قربان الربيع :

كتب سترافنسكي موسيقى هذا الباليه لأكبر أركسترا سيمفوني ظهر في مؤلفاته : فالمألوف أن تكون آلات النفخ الخشبية في الاركسترا أزواجا أي آلتان من آلات الفلوت ومثلها من الأوبوا الخ ، إلا أن سترافنسكي تخطى هذا التلوين تماما وكتبه لأركسترا يتألف من خمس آلات من كل نوع ! فآلات الفلوت فيه خمس ، وهذا رقم قياسي ، ثلاث منها فلوتات عادية والرابعة آلة فلوت بيكولو (أحَدّ الطبقات) والخامسة « فلوت آلطو » وهي آلة نادرة الإستعمال جداً وتضفي تلوينا غير مألوف . وبالنسبة للأوبرا كذلك هناك خمس : أربع منها أوبوا والخامسة « كورآنجليه » ، وهكذا بالنسبة لآلات الكلارينت ، التي أدخل منها ثلاثا عادية والرابعة « كلارينت بيكولو » (وهي آلة غير مستعملة الا في حالات نادرة) والخامسة « باص كلارنيت » ، أي أنه جمع بين أقصى الحدة وأقصى الغلظ في كل لون من ألوان الصوت في آلات النفخ الخشبية . أما الآلات النحاسية فقد توسع فيها سترافنسكي كثيراً لأن

الأركسترا يحتوي على ثماني آلات من نوع الكورنو ، وهذا ضعف العدد المألوف . ولعل أهم ما أدخله سترافنسكي من تطور على تكوين الاركسترا في باليه قربان الربيع هو في قسم الآلات الايقاعية التي زاد حجمها وعددها الى حد أصبحت معه تكون « مجموعة رابعة » وهامة من الآلات في الأركسترا (بالاضافة الى مجموعة الوتريات ومجموعة النفخ الخشبي ومجموعة آلات النفخ النحاسي) فقد بلغ عدد آلات الايقاع في هذه الموسيقى ما لم يبلغه في أي عمل أركسترالي من قبل فغير خمس آلات تمبال اوتمباني وطبلة كبيرة (جران كاسا) وآلات تام تام ومثلثا وصاجات نحاسية كبيرة ورقا هذا بالاضافة الى آلات « أمريكية لاتينية » نادرة الاستعمال مثل آلة .

وهكذا جاءت موسيقى باليه طقوس الربيع (أو الربيع السحري اذ التزمنا بالترجمة الحرفية للاسم الروسي الأصلي) غاية في الجدة والجرأة والطرافة ، وفي الوقت نفسه غاية في الصعوبة والتعقيد ، سواء بالنسبة لقائد الاركسترا أو عازفيه .

* * *

المؤلف الموسيقي ومبتكر الرقصات :

أصر دياجيليف على أن يصنع من راقص فرقته الأول نيجنسكي Nijinsky مبدعا ومصمما لرقصات الباليه وهي مرتبة تتطلب خبرات عميقة بالموسيقى والتشكيل وقدرات إبداعية غير عادية ، لأن مبتكر الرقصات يقوم بتحويل الموسيقى المسموعة الى رقصات متكاملة ومعبرة عن جو الموضوع في تشكيلات جمالية متماسكة ومنوعة ومقنعة مسرحيا . ومتناسبة في الوقت نفسه مع أسلوب الموسيقى وطبيعة موضوع الباليه .

ويبدو أن الراقص الشهير لم يمتلك كل هذه الطاقات الابداعية التي اراد دياجيليف أن يدفعه اليها ولذلك تعرض العمل لهزات عديدة جعلت سترافنسكي يكتب عنه في مذكراته قائلا : « اكتشفت أثناء محاولتي لشرح البناء التفصيلي لموسيقى الباليه لنيجنسكي ، انه لا بد لي من أن أعلمه أوليات الموسيقى ومعنى الايقاع والزمن والقيم الايقاعية وما الى ذلك . . ! وكان الفتى المسكين يجد صعوبة بالغة في تذكر كل هذا فكان تخيله للحركات المصاحبة للموسيقى ناطقا بعدم الانسجام بينها وبين جو الموسيقى وعدم تطابقها مع التقسيمات الايقاعية للموسيقى أو زمنها . . ولذلك كان العمل يتقدم بسرعة السلحفاة وأخذت المشاكل تتفاقم ، واضطرني هذا الجو الملبد الى السفر من كلارينس (سويسرا) إلى المدن الأوروبية العديدة التي كانت تعرض فيها فرقة الباليه الروسية وذلك لمتابعة التدريبات التي طال أمدها كثيراً » .

ويستطرد سترافنسكي قائلا : « ولا أريد أن ألقى أي ظلال تسيء إلى قدرات فنان موهوب قدير مثل نيجنسكي بعد رحيله ، ولكن الأمانة التاريخية تقتضي منا أن نضع حداً فاصلا بين قدراته كفنان « يؤدي » الرقص وبين قدراته « كفنان مبتكر مبدع للرقصات » .

فضيحة العرض الأول لباليه قربان الربيع :

وأخيرا وبعد جهود مضنية من قائد الاركسترا بييرمونتيه Pierre Monteux ومن كل المشاركين في الباليه تقرر تقديمه في افتتاح مسرح الشانزليزيه في باريس يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٤٣ .

ولنا أن نتصور الجمهور الباريسي الذي يحضر عروض فرقة الباليه الروسية فهو عادة يمثل أعلى الطبقات

سترافنسكي أمام آلة البيانو ، آلته المفضلة للتأليف الموسيقي

الاجتماعية وأكثرها تأنقا وبذخا ، ولكنه ليس بالضرورة أثقف جمهور ، فهو عادة ما يكون جمهورا محافظا يميل الى المألوف المستقر .

ويبدأ عرض الباليه ويبدأ القسم الأول من الباليه بلحن من آلة الفاجوط في منطقة شديدة الارتفاع من صوت تلك الآلة ، وهو لحن ملفت للسمع بطابعه المأساوي العميق وكأنه آت من أعماق تاريخ سحيق ويشترك الأركسترا بعد ذلك في عزف المقدمة الموحية بجو غابة مظلمة فتؤدي آلات النفخ الخفيضة أصواتا نائحة متحشرجة وكأنها صرخات طيور برية أو حفيف زواحف ، وتتشابك أصوات الموسيقى في نسيج هيتيروفوني Heterophonic (غير متجانس النغمات) (٤) عجيب ، وتحوم في نطاق صوتي ضيق بتكرار دائب ، ثم تتفجر الموسيقى من كافة قوى الاركسترا بعنفوان باهر في « رقصة المراهقات » التي تثير المستمع بنبراتها العنيفة ذات الضغوط غير المنطقية ، وكأنها دقات طبول القبائل المتوحشة ، بالحاح أشبه بجو « الزار » ثم تعلوا أصوات آلات الكورنو النحاسية الثمانية . بصرخات متوترة غير منتظمة وكل هذا في تجمعات إيقاعية مركبة دائمة التغير . وفي كل هذا الاقون الاركسترالي لا تكاد الأذن تلتقط الا شذرات صغيرة من الألحان في تكرار ملح . وبعد هذه الرقصة العنيفة تأتي رقصة الاختطاف التي تبلغ فيها الموسيقى ذروة من الاثارة والانطلاق لم تألفها الموسيقى الفنية من قبل . . . وعلى المسرح ظهر الراقصون بملابس خشنة لاتمت لعالم الخيال الرومانسي المرتبط بأغلب الباليهات ، وكانت حركات الراقصين والراقصات حادة الزوايا ، بعيدة عن مفاهيم الرشاقة أو الجمال أو الفخامة المألوفة في الباليه . . وهكذا كان باليه « قربان الربيع » بكل عناصره بمثابة صدمة كهربائية للجمهور فتحت صفحة جديدة في تاريخ الموسيقى والباليه في القرن العشرين . . .

وبدأت ضحكات الاستهزاء تتعالى من بعض الحاضرين من مقدمة الفصل الأول وكلما اشتدت حدة الطرقات الايقاعية وعنف التنافر الهارموني ، ازداد توتر أعصاب الجمهور ، وتحولت الضحكات الى صرخات وهياج أدى ببعض الحاضرين الى الاشتباك بالأيدي ! واستخدمت السيدات الأنيقات حقائب اليد في معاركهن دفاعا عن كل ما تعودنه وألفنه في الباليه والموسيقى من مفاهيم جمالية اعتقد الحاضرون أن هذا الباليه قد أهدرها جميعا . . . ! وسادت فوضى عنيفة ووقف نيجنسكي بين الكواليس يصرخ بأعلى صوته لكي يسمع الراقصون على المسرح « عد » النبرات التي يرقصون عليها ، وفي غمرة هذه الثورة وقف بعض الفنانين المقدرين لقيمة هذه الموسيقى ومنهم ديبوسي ورافيل يصرخون في محاولة فاشلة لاسكات « الأغبياء الذين يحتجون ضد هذه الموسيقى الرائعة » . . .

أما الجمهور العادي ، وهم الأغلبية الساحقة ، (وانضم اليه موسيقيون لهم شأنهم مثل المؤلف الفرنسي كاميل سان صانص) فقد كانوا يدافعون عن حسهم الفني ضد هذا الهجوم القاسي على كل أوليات الجمال في الموسيقى والباليه ، وضد « هذا السلوك الموسيقي الوحشي » الذي بدا لهم وكأنه يتعمد تحطيم كل القوانين الايقاعية والهارمونية المعروفة في الموسيقى ، ليشعر المستمع أنه بازاء فوضى موسيقية شاملة . . . !

---

(٤) الهيتيروفونية هي نسيج موسيقى ينتج عن أداء عدة آلات وأصوات لنغمة واحدة معا ولكن مع شيء طفيف من الاختلاف في التفاصيل المرتجلة ، وهي موجودة بكثرة في الموسيقى الشعبية والشرقية ثم اتبعها بعض المؤلفين المجددين في الغرب في هذا القرن كبديل للهارمونية أو البوليفونية في نسيج الموسيقى الفنية .

ومع ذلك فان سترافنسكي كان قد بذل جهدا خارقا لكي يصل الى تحقيق هذه المؤثرات الصوتية الغريبة والتي تمثلها في خياله بكل دقة ثم جهد لكي يدونها على الورق بحساب صارم دقيق ، وبسيطرة مذهلة على كل عناصر النسيج والتلوين الاركسترالي . . . ، وهو ما تأكد للعالم الموسيقي بعد ذلك باعوام قلائل بعد أن هدأت أصداء فضيحة العرض الأول لباليه « قربان الربيع » ، وانفصلت هذه الموسيقى المبهرة عن عرض الباليه (والذي أعيد تصميم رقصاته بطريقة أخرى) وأصبحت عملا موسيقيا من كلاسيكيات القرن العشرين ، بحيث لا يخلو منه ربرتوار أي اركسترا كبير اليوم ويدرسه طلاب التأليف والقيادة والتحليل الموسيقي كنموذج رائع لفن موسيقي جديد وجد له اتباعا ومقلدين كثيرين .

وجدير بالذكر هنا أن بداية العقد الثاني من القرن العشرين كانت من الفترات الحافلة بالتجديدات الثورية في الموسيقى المعاصرة فكان شونبرج وغيره يواجهون العالم الموسيقي باتجاه جديد في الموسيقى هو اللا مقامية Atonality وظهرت التعبيرية Expressionism في أوبراته في تلك الفترة كما كان بارتوك يصدم أذواق الجماهير بعمله المسمى قلعة ذي اللحية الزرقاء « Blue Beard's Castle وكان انطون فون فيبرن Webern في بداية الطريق حيث كتب الباساكاليا ثم « ست مقطوعات للاركسترا » بأسلوب صفوف الأصوات . .

ومن بين هؤلاء جميعا لم تسلط الأضواء على مؤلف موسيقي مثلما سلطت على سترافنسكي ، الذي أصبح بعد باليه قربان الربيع أشهر مؤلف موسيقي في أوربا كلها في مطلع القرن العشرين واقترن اسمه بالاتجاه البارز لرفض الرومانتيكية ، وأصبح على رأس قائمة المناهضين للرومانتيكية ، والثائرين على « العذوبة والحلاوة والوصف » في الموسيقى ، والرافضين « للرقة المرضية » للموسيقى التأثيرية على حد سواء . وتزعم سترافنسكي موك الطليعة الموسيقية في أوربا وأصبح الرائد والقدوة لجيل الشباب من المؤلفين .

● ● ●

سترافنسكي في أوربا :

وكان تعاون سترافنسكي الوثيق مع دياجيليف دافعاً له للانتقال الى أوربا هو واسرته ووالدته ، حيث أصبح كثير الأسفار لمصاحبة فرقة الباليه في رحلاتها الفنية الواسعة ، في السنوات السابقة لقيام الحرب الأولى ، فهو قد سافر معها الى روما وبرلين وبودابست وفيينا ولندن كما ذكرنا ، وكان موطن إقامته في تلك الفترة في سويسرا (كلارينس) ، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى لم يتمكن هو وأسرته من العودة الى روسيا . وبعد ذلك بسنوات قليلة قامت الثورة الروسية سنة ١٩١٧ فانقطعت موارده المالية التي كانت تأتيه من ممتلكات الأسرة في روسيا . وواجه سترافنسكي لأول مرة تحدياً جديداً ، هو ضرورة الاعتماد على فنه في كسب عيشه ، ووفق في مواجهة هذا التحدي . فهو من أسعد المؤلفين الموسيقيين حظا من هذه الناحية اذ لم يتعرض في حياته لضائقة مالية حقيقية ، كما أنه لم يقاس من الانكار أو عدم الاعتراف بنفسه ، والذي هو قدر كل المؤلفين الموسيقيين المجددين في كل العصور .

وكان سترافنسكي في أول الأمر ينوي العودة الى وطنه ، بعد قيام الثورة ، ولكنه عاد وقرر البقاء في أوربا . وابتداء من عام سنة ١٩٢٠ انتقل الى فرنسا

وكانت أغلب إقامته فيها حتى أنه حصل على الجنسية الفرنسية وبقي بها الى عام ٣٩/٤٠ حين قامت الحرب العالمية الثانية .

مرحلة ما بعد القومية والحوشية :

وكان سترافنسكي قد وصل في موسيقى باليه قربان الربيع الى نهاية طريق موحش وغير مطروق ، وشعر أنه ليس هناك الكثير مما يمكن إضافته في هذا الاتجاه ، وانتهت بهذا الباليه ـ ثم بالأوبرا الراقصة « الزفاف » Les Noces سنة ١٩١٧ صلته المباشرة بالموسيقى والبيئة الروسية والفولكلور الروسي ، كمصدر من مصادر فنه ، وبعبارة أخرى انتهت تلك الفترة التي اصطلح النقاد على تسميتها بالفترة الروسية في انتاج سترافنسكي .

وكان المؤلف قد بدأ يضيق بمستوى أداء الاركسترات لمؤلفاته للباليه ، وخاصة عند سفر فرقه الباليه الى مدن أخرى غير العواصم الأوروبية الكبرى حيث كان يتعذر على أركستراتها أن تؤدي موسيقاه الصعبة أداء موسيقيا مقنعا له ، وقد دفعه هذا الى الاتجاه وجهة فنية أخرى فوضع نصب عينيه هدفا جديدا وهو التوسع في المؤلفات الموسيقية البحتة ، لكي لا يظل انتاجه الموسيقي معتمدا كلية على عروض فرقة الباليه ، خاصة وأن النفقات الباهظة لعروض الباليه أصبحت تشكل عائقا حقيقيا يحول دون التوسع في ذلك المجال .

اتجه سترافنسكي اذن الى كتابة أعمال مسرحية لمجموعات جديدة وصغيرة من الفنانين ، وبعد أوبرا الثعلب Renard التي كتبها سنة ١٩١٥ وكل شخصياتها من الحيوانات ، دفعته الأوضاع الاقتصادية الناجمة عن الحرب ـ والتي حددت كثيرا من نشاط فرقة دياجيليف ـ الى التفكير في أعمال مسرحية تعتمد على عدد صغير من المؤدين ومجموعات محدودة من الآلات الموسيقية ، بحيث يمكن للعرض المسرحي أن يطوف بسهولة من بلد لآخر ، وان يقدم على أي مسرح أو حتى على منصة عادية . . وهذه القيود العملية البحتة هي التي الهمت (اذا صح لنا ذكر الألهام في مجال الحديث عن سترافنسكي) في العمل الموسيقي الفريد « قصة جندي » L'Histoire du Soldat سنة ١٩١٧ وهو يحكي بالرقص والإيماء قصة جندي هارب من الخدمة العسكرية يلتقي بالشيطان ويعقد معه صفقة عجيبة . وتعاون مع سترافنسكي في هذا العمل العجيب صديقه الشاعر راموز Ramuz . وكان هذا العمل الفني نقطة تحول هائلة في موسيقى سترافنسكي ، لأنه اتجه الى الاقتصاد الشديد والى التعبير الموسيقي بمجموعة تكاد تكون مجرد هيكل عظمي لاركسترا صغير ، يتولى تقديم الموسيقى للراقص والراقصة ، بينما يجلس « الراوي » على المسرح . ويتكون هذا الاركسترا المصغر من سبع آلات اختارها المؤلف بمنطق فني بارع لكي تقدم طرفي النقيض في الحدة والغلظ من كل النوعيات المختلفة للآلات وهي : فيولينه وكنتر باص من الوتريات ، وكلارينت وفاجوط من آلات النفخ الخشبية ، وكورنيت وطرومبون من النحاسيات ، مع مجموعة من آلات الايقاع المنوعة يتولى عزفها موسيقى واحد .

● ● ●

تأثير موسيقى الجاز :

ثم جاء عمله الموسيقي التالي : راجتايم Ragtime سنة ١٩١٨ امتدادا لفكرة مجموعات الآلات

الصغيرة فهو مكتوب لمجموعة صغيرة من إحدى عشرة آلة موسيقية وهو من أول مؤلفاته المتأثرة بوضوح بموسيقى الجاز . « والراجتايم » نوع من الموسيقى يرجع الى أصول أفريقية انتقل مع الرقيق إلى أمريكا وأخذ ينتشر فيها بين البيض ، منذ أواخر القرن الماضي ، وهو من المصادر الأولى لموسيقى الجاز Jazz، وأهم ما يميزه كثرة استعمال « السنكوب » (أي قلقلة الضغوط عن مواضعها الطبيعية في الموسيقى) .

ولكن سترافنسكي لم يستمر طويلا في إدخال تأثيرات موسيقى الجاز في مؤلفاته بعد أن سمع عدة مجموعات تعزف موسيقى الجاز وأدرك أن جوهر هذه الموسيقى فيما يرتجله العازفون وأنها « تعزف » بأفضل مما تكتب . ولعل أفضل ما كتبه في هذا المجال « مقطوعاته الثلاث للكلارينت بدون مصاحبة » والتي كتبها سنة ١٩١٩ .

ومن الطريف أن نذكر أن مقطوعة راجتايم هذه نشرت في فرنسا في إعداد اللبيانو سنة ١٩١٩ وكان بيكاسو هو الذي رسم لها الغلاف . وقد نشأت بين سترافنسكي وبيكاسو علاقة صداقة وثيقة ترجع إلى أن هناك تشابها كبيرا بين إنتاج وحياة كل منهما في ابتكاره وجرأته وكذلك في اهتمام كل منهما باعادة صياغة أعمال فنية لفنانين آخرين ، وهذا ما نلمسه في مرحلة متأخرة في أعمال عديدة كتبها سترافنسكي على مؤلفات من برجوليزي وباخ وتشايكوفسكي وجيزوالدو ، بينما قام بيكاسو ، في مرحلة متأخرة أيضا ، بشيء مشابه بالنسبة للوحات جرونيفالد وفيلاسكويث وكراناخ وآنجر ، وكلاهما كان يستخدم إبداع الفنانين القدامى كذريعة لابداع تنويعات مبتكرة .

●●●

الكلاسيكية الحديثة New Classicism

تعد قومية الطائر الناري الرومانتيكية ، وواقعية بتروشكا ، وحوشية « الساكر » ، تحول سترافنسكي منذ سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، الى موقف فكري وجمالي جديد تماما في موسيقاه ، وان لم يكن جديدا في الموسيقى الغربية في ذلك الوقت .

بدأ سترافنسكي في فترته السويسرية (١٩١٤ - ١٩٢٠) اتجاها جديدا يتمثل الموسيقى كفن قائم بذاته ولغة تعتمد على نفسها وتتعامل بقيمتها الموسيقية البحتة ، التي لا صلة لها بالتعبير الذاتي العاطفي ولا بالايحاء أو الوصف . . . هذا الموقف الموضوعي العقلاني في الموسيقى هو الذي اصطلح النقاد في القرن العشرين على تسميته باسم « الكلاسيكية الحديثة » ، لأنه يعتمد على نفس القيم الكلاسيكية من وضوح الخطوط والتماسك البنائي والتحفظ العاطفي ، وأن كان يختلف عن كلاسيكية القرن الثامن عشر في استخدام لغة هارمونية حديثة ، تستفيد من الخبرات الهارمونية التي اكتسبتها الموسيقى حتى القرن العشرين .

وربما جاء هذا الاتجاه التجريدي المحافظ عند سترافنسكي كرد فعل لفترة ارتباطه بالمسرح والفنون التشكيلية والراقصة (في عمله مع فرقة دياجيليف) ، ولكنه على كل حال قد صادف هوى خاصا في نفس سترافنسكي فهو بطبيعة شخصيته ومزاجه أقرب الى هذا الاتجاه . وقد كتب سترافنسكي في هذا الاتجاه - الذي انعكس في عناصر جوهرية من أسلوبه الموسيقى - عددا من المؤلفات الموسيقية البحتة الهامة نذكر منها على سبيل المثال « السيمفونيات لآلات النفخ » Symphonies for Wind Instruments التي كتبها سنة ١٩٢٠ وهي ليست « سيمفونية » بالمعنى الكلاسيكي ولكن كلمة « سيمفونيات » هنا تستخدم بالمفهوم الأصلي وهو

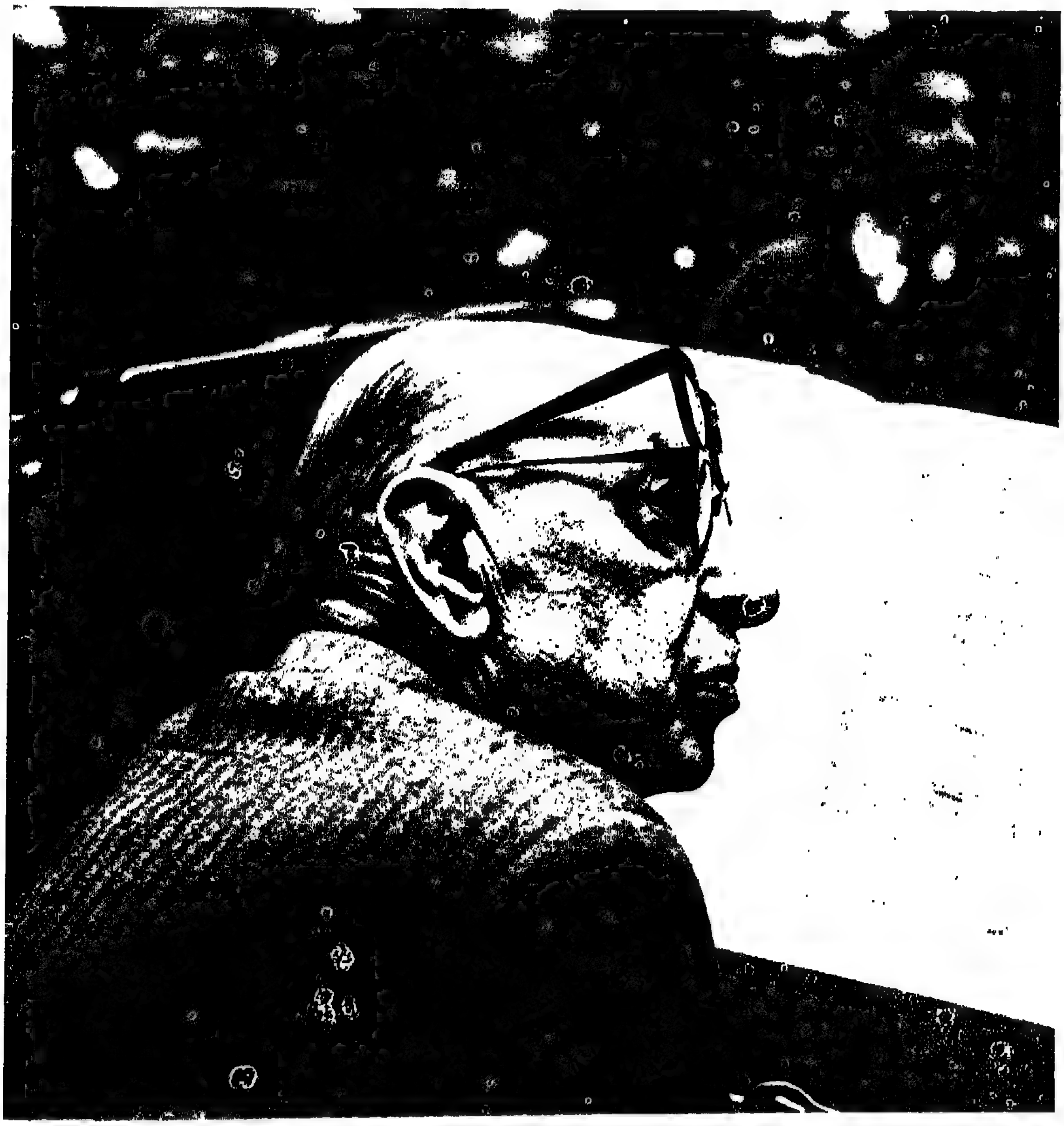

سترافنسكي في فترة استراحة أثناء قيادته للأركسترا في أحد مؤلفاته .

« العزف معا » . وقد كتبها سترافنسكي تلبية لتكليف من إحدى الدوريات الموسيقية الفرنسية تخليدا للمؤلف الفرنسي كلود ديبوسي (والذي كان قد توفي سنة ١٩١٨) . وكان سترافنسكي قد أهدى اليه في بداية حياته كانتاته « ملك الأفلاك » ورد ديبوسي باهداء إحدى مقطوعاته للبيانو الى سترافنسكي ، الذي حزن كثيرا لموته . وهذا عمل عجيب في بنائه الموسيقي وفي تكوين الاركسترا الذي يؤديه ، فهو مؤلف من ثلاثة مجموعات من آلات النفخ الخشبية بالاضافة الى أحد عشر آلة نفخ نحاسية (٢٣ عازفا) ويغلب على الأفكار الموسيقية في هذا العمل الطابع الدياتوني ولكن مع استخدام تعدد المقامات (البوليتونالية) .

والجدير بالذكر أن سترافنسكي كان شديد الحرص على أداء هذه السيمفونية دون أي انفعال عاطفي ، ولذلك قامت مشادة فنية حامية بين المؤلف وبين سيرج كوسيفتسكي قائد الاركسترا لأن الرنين الصوتي جاء مفككا وغير مقنع في أول عزف . وقد قام سترافنسكي - كعادته ، بمراجعتها مرة أخرى سنة ١٩٤٧ ، وبصفة عامة ظل هذا العمل نموذجا منعزلا من بين سيمفونيات سترافنسكي .. وفي نفس تلك الفترة تقريبا كتب سترافنسكي موسيقى أخرى للباليه ، بناء على طلب دياجيليف ولكنها كانت تختلف كثيرا عن كل ما سبق فهي تعتمد على الحان اختارها دياجيليف سترافنسكي من موسيقى مؤلف إيطالي نابوليتاني هو برجوليزي (١٧١٠ - ١٧٣٦) ، وهي قائمة على أساس بعض الحان (٥) صوناتات التريو التي لم تكن قد نشرت من قبل والتي اختارها دياجيليف كأساس لموسيقى باليه أخذ فكرته عن الكوميدياد اللارتي القديمة .

باليه بولشينيلا :

أما الموسيقى فقد كانت مثلا موفقا تماما لموقف سترافنسكي « الكلاسيكي الحديث » لأنها جاءت تزاوجا فريدا بين عقليتين وعصرين موسيقيين ، فهو تزاوج أثمر عملا يحمل ملامح « أبويه » معا ، حيث كتب سترافنسكي مجموعة تنويعات على ألحان برجوليزي السلسلة اللطيفة ، وحرص على المحافظة على روح تلك الألحان ولكنه ألبسها ثوبا هارمونيا معاصرا ، اذ استخدم فيها كذلك تعدد المقامية (بوليتونالية Polytonality) وأضفى عليها من تلوينه الأركسترالي الحريف المميز ثوبا عصريا محببا وكان دياجيليف موفقا في اختيار بيكاسو ليقوم بتصميم المناظر المسرحية والأزياء لهذا الباليه بينما قام ليونيدماسين Leonide Massine بتصميم الرقصات لباليه بولشينيلا .

وأثارت موسيقى « بولشينيلا » جدلا كبيرا ، مثل الكثير من أعمال سترافنسكي ، وهاجمه الأكاديميون لجرأته وتحرره في معالجة ألحان برجوليزي ، وكان رده القاطع على هذا انه بث الروح في شذرات منسية كان من حسن حظها أنها نجحت من براثن العلماء « والمتحذلقين » ، وأنها أتاحت له أن يكشف عن التقارب الروحي بينه وبين مؤلفها » . . . وقد أعاد سترافنسكي صياغة الموسيقى كعمل منفرد للتشللو والبيانو ، ثم كمتابعة أركسترالية وكلاهما واسع الانتشار .

وبعد ذلك ببضع سنوات كتب مؤلفنا موسيقى لباليه

---

(٥) يثار جدل تاريخي كبير حول صحة نسبه بعض الأعمال لبرجوليزي بالذات ، سواء المنشورات أو المخطوطة ، ولكن هذا لا يقلل من قيمة عمل سترافنسكي الذي اتخذها « منطلقا » لكتابة مجموعة تنويعات شيقة .

« قبلة الجنية » Le baiser la fée على موسيقى لتشايكوفسكي سنة ١٩٢٨ ولكنها لم تكن من الاحكام والتوفيق مثل موسيقى بولشينيلا ، ونذكر من باليهات هذه الفترة كذلك آبولوموزاجيت (أي رئيس ملتهما الفنون muses التي تظهر منها في الباليه : كاليوبي رمز الشعر ، وبوليهمنيا رمز الايماء وتريسيكور رمز الرقص) .

واستمر سترافنسكي بعبقريته الباحثة القلقة ، يطرق مجالات متنوعة في التأليف ، فكتب أوبرا هزلية بعنوان « مافرا » على قصة للأديب الروسي بوشكين ، وهي « أوبرا بوفا » (هزلية) عاد فيها بوضوح الى النمط الايطالي (والروسي) نمط أوبرا (النمر) المنفصلة والآريات الواضحة ، وهي على كل حال وان لم تكن من أعماله الهامة فانها على الأقل تعتبر بداية اتجاه هام للتلحين في الأوبرا تطور فيما بعد . وكان عمله التالي « أوديب الملك » **Oedipus Rex** ، سنة ١٩٢٧ عملا مسرحيا فريدا في نوعه فهو يجمع بين فكرة الأوبرا والأوراتوريو في تناول عناصري وقد كتبه جان كوكتيو Cocteau عن تراجيدية سوفوكليس المعروفة ، وطلب سترافنسكي أن تكون كلماته باللغة اللاتينية ليضفي على عمله المسرحي الابتعاد الكافي عن الحياة اليومية ولكي يتمكن من تلحين الكلمات تلحينا مقطعيا syllabic . وهذا العمل مكتوب لكورال واركسترا وهو يقدم على المسرح بملابس ولكن دون حركة . ولا شك أن هذا العمل الدرامي الجليل من أهم مؤلفات سترافنسكي بل أنه كان بداية لأسلوب موسيقي فيه كثير من الجلال والوقار والعمق وله تأثير درامي هائل ، ليس في عرضه المسرحي فقط ، بل وعندما يقيَّم في قاعة موسيقى كما كان الحال بالنسبة لعرضه الأول على مسرح سارة برنار في باريس تحت قيادة المؤلف نفسه . وقد احتضنته فرق الأوبرا الأوروبية وأصبح الآن من أبلغ الأعمال الموسيقية المسرحية تأثيرا في هذا العصر .

ومنذ أوائل العشرينيات وباتجاه سترافنسكي نحو هذا الاتجاه « الكلاسيكي الحديث » بدأت أعماله الموسيقية البحتة تتزايد عددا وأهمية في الوقت الذي أخذت فيه موسيقى الباليه تقل وتتباعد نسبيا ـ ومن مؤلفاته الموسيقية للآلات برز « الكابر تشيو » Capriccio للبيانو والاكسترا سنة ١٩٢٩ والذي عزف فيه المؤلف البيانو الانفرادي وقاده إرنست آنسرميه Ernest Ansermet أكثر قادة الأركسترا في القرن العشرين ارتباطا بسترافنسكي ونشرا لموسيقاه . وتبعه كونشرتو الڤيولينة والأركسترا سنة ١٩٣١ والذي يعد عمله الوحيد الكبير لهذه الآلة ، ثم الكونشرتو لآلتي بيانو سنة ١٩٣٥ (لآلتي صولو) وكان يعزفها هو وابنه ، وكان قد كتب قبل ذلك سنة ١٩٢٤ كونشرتو البيانو الأول وكثيرا ما كان يطوف في رحلات فنية يعزف فيها البيانو المنفرد في هذه الأعمال كما كان يقود مؤلفاته عبر أوربا وأمريكا . ولا يفوتنا هنا أن نذكر في مجال البيانو « صوناتة البيانو» سنة ١٩٢٤ « وسيرينادة » لنفس الآلة أيضا .

ومن مؤلفاته ، ذات الطابع الخاص الثمانية Octet لثمانية آلات تنفخ سنة ١٩٢٣ وهي من أعمال موسيقى الحجرة التي يتجلى فيها اهتمامه الكبير بصيغ عصر الباروك التي تحمل ملامح أساليب باخ وفيفالدي تتناول الآلات في مجموعات متقابلة أشبه بروح الكونشرتو جروسو Concerto grosso بعيدا عن التظليل الرومانتيكي في الاداء . ومنها كذلك الكونشرتو الأبنوسي Ebony Concerto الذي كتبه سنة ١٩٤٥ لفرقة وودي هيرمان للجاز Woody Herman (وهو من المؤلفات التي كتبها في أمريكا) ونحن نذكره هنا نظرا للمجموعة الغريبة من الآلات التي

تناولها فيه ولانه امتداد لتناوله السابق لموسيقى الجاز في مقطوعة الراجتايم .

ومن أعماله المسرحية الطريفة في الثلاثينيات عمل يمزج بين الأوبرا والباليه والألقاء (أوبرا - باليه) باسم بيرسيفون Persephone على كتيب (لبرتو) لأندريه جيد Andre gide عرض على المسرح لأول مرة سنة ١٩٣٤ وأتبعه في عام ١٩٣٧ بباليه « لعب الورق » Jeux de Cartes كان من أواخر ما كتب من موسيقى للباليه أثناء إقامته في أوربا .

غير أن أعظم مؤلفاته هذه السنوات الأخيرة من إقامته في فرنسا واوسعها انتشارا ، « **سيمفونية المزامير** » Symphony of Psalms التي كلف بتأليفها للموسم الخمسيني لأركسترا بوسطون السيمفوني وان كانت قد عزفت لأول مرة في بروكسل سنة ١٩٣٠ بقيادة آنسرميه ، وهو عمل ديني جليل يكشف لنا عن جانب هام في شخصية سترافنسكي الانسان والفنان هو جانب الشعور الديني العميق الذي ظهر هنا لأول مرة ، ثم ظهر في أعمال أخرى كتبها في أواخر الخمسينات مثل النشيد القدسي Canticum Sacrum سنة ١٩٥٦ والعمل المسمى Threni أو مراثي أرميا سنة ١٩٥٨ . ومع ذلك فليس في موسيقى سترافنسكي كلها ما يعادل سيمفونية المزامير في جلالها وتماسكها الكنترابنطي الرائع ، وفي التزاوج البارع بين الكورال والاركسترا والتعامل معهما على قدم المساواة . وقد اختار لها مجموعة اركسترالية غير عادية لكي يضفي على السيمفونية ذلك الطابع الديني العتيق الملائم لنصوص التوراة وليعبر بها عن خشوع المذنب في صلواته (المقدمة) وشعور الرضى عند العفو (وهو قسم يتكون من فوجه مزدوجه) Double fugue ثم صلوات الحمد والشكر والتمجيد لله في الختام . وقد استغنى المؤلف تماما في الاركسترا هنا عن آلات الفيولينه والفيولا والكلارينت ، واسلوب الكتابة الموسيقية يغلب عليه الطابع الكنترابنطي وأن كان الايقاع فيها شيقا .

●●●

ختام الفترة الأوروبية :

كان سترافنسكي دائما يشعر بارتياح كبير في فرنسا ويجد في جوها الفني ما ينعشه ويدفعه للابتكار ولذلك قرر الاقامة فيها هو واسرته وكان في بداية إقامته محتفظا بالجنسية الروسية ولكنه حصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٩٣٤ ولقد شهدت فرنسا أهم انتصاراته الفنية ففيها خرجت أعظم أعماله لحيز الوجود : من الطائر الناري وبتروشكا وقربان الربيع الى مافرا واوديب الملك وبولشينيلا . . .

وفي سنوات الفترة الفرنسية استقرت مكانته الفنية أوروبيا ودوليا بما لا يدع مجالا للشك في أنه من أعظم مؤلفي القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم فعلا ، وتقاطرت عليه الدعوات لزيارة مدن أوربا وأمريكا لقيادة الاركسترا في مؤلفاته ، وأحيانا لعزف البيانو المنفرد في أعماله لتلك الآلة .

وليس هناك ما هو أبلغ تعبيرا عن مكانة سترافنسكي في ختام الفترة الأوروبية من كلمات كتبها الناقد الموسيقى لجريدة التايمز البريطانية عندما عزفت في لندن في الثلاثينات جاء فيها « إن موسيقى « الساكر » (قربان الربيع) لتحتل في القرن العشرين نفس المنزلة التي تحتلها سيمفونية بتهوفن التاسعة (الكورالية) في القرن التاسع عشر ! » وهذا ما أكدته العروض المنهالة عليه من شركات الاسطوانات ودور النشر الموسيقية في أنحاء اوربا وأمريكا .

ولقد كان سترافنسكي محظوظا في صداقاته في تلك الفترة وان كان أكبر مشجع ومناصر له وهو دياجيليف ، قد توفي في أواخر الثلاثينات بعد أن تعرضت صداقتهما لشيء من الفتور . وفي باريس التقى مؤلفنا كذلك بمواطنه المهاجر لباريس ، سيرج بروكوفيف ولعل الشيء الوحيد الذي لم يحققه سترافنسكي في باريس هو الفوز بعضوية « الأكاديمية » وكان قد رشح لها أكثر من مرة .

وعندما تدهورت الظروف السياسية سنة ١٩٣٩ بدأ يشعر بالقلق وزاد قلقه عندما فقد والدته ثم زوجته الأولى وإحدى بناته خلال بضعة شهور متعاقبة ولذلك عقد العزم على مغادرة أوربا التي بدأت ترزح تحت تهديد الحرب العالمية الثانية .

سترافنسكي في العالم الجديد :

جاءت دعوة جامعة هارفارد له لكي يقدم فيها ستة محاضرات فرجحت قراره بالسفر للولايات المتحدة التي وصلها في خريف ١٩٣٩ وهناك ألقى محاضراته الستة بعنوان « شاعريات الموسيقى » Poetics of Music وكان قد كتبها بالفرنسية (بمعاونة رولان مانويل) وقد نشرت تلك المحاضرات بعد ذلك في كتاب بنفس العنوان ، كتب مقدمته المؤلف الفرنسي الشهير داريوس ميلو Milhaud . أقام سترافنسكي أول الأمر في ماساشوستس ثم في ولاية كاليفورنيا . وفي عام ١٩٤٥ تزوج هناك للمرة الثانية من أرملة روسية وممثلة هي « فرادي بوسيه Vera de Bosset ثم حصل هو وزوجته على الجنسية الأمريكية . ويبدو أن هذه الخطوة أثارت ضده بعض أصدقائه السويسريين والفرنسيين ولكنه كان محتاجا للهدوء والأمان لكي ينطلق في ابداعه الموسيقي . واختار الاقامة في لوس انجيليس لأسباب صحية ، وقد كانت داره في هوليوود ملتقى لأصدقائه من الأدباء والمصورين والموسيقيين مثل ناديا بولانجيه المؤلفة الفرنسية ، والكساندر تانسمان المؤلف البولندي المهاجر ، وآلدوس هكسلي وغيرهم . وفي هذه الفترة كذلك تعرف عليه الموسيقي الأمريكي الشاب روبرت كرافت والذي تكونت له مكانة في أسرة سترافنسكي وفي حياته الموسيقية أقرب ما تكون لعلاقة التبني ، وهو الذي أجرى معه الحوار والمناقشات في الكتب الستة التي تعد مرجعا هاما لفكره ومبادئه وآرائه الموسيقية .

أهم المؤلفات في مطلع الفترة الأمريكية :

ذهب سترافنسكي للولايات المتحدة ومعه حركتان من السيمفونية في مقام دو الكبير Symphony in C، وظل يكتب مؤلفات « بحتة » أغلبها للآلات وقلة منها للباليه ، وكلها كانت تتبع المذهب « الكلاسيكي الحديث » . وتدل سيمفونيته في مقام دو وماتلاها على أنه قرر العودة مرة أخرى الى مفهوم المقام الواضح tonality وهو الذي تسابق أغلب مؤلفي القرن العشرين في إلغائه والقضاء عليه ، وكان هو نفسه قد تخلى عنه الى حد ما ، في باليهات الفترة الروسية ، وخاصة « الساكر » ، ولذلك تحتل السيمفونية في مقام دو مكانة هامة في إنتاجه الأمريكي هي « وسيمفونية الحركات الثلاث » التي كتبها سنة ١٩٤٥ . وقد قام سترافنسكي نفسه بقيادة أركسترا شيكاجو السيمفوني في عزفه الأول للسيمفونية في مقام دو .

ومن الأعمال اللامعه في هذه الفترة موسيقى باليه أورفيوس (٦) التي كتبها سترافنسكي عام ١٩٤٨

---

(٦) كثيرا ما أثارت أسطورة « أورفيوس » خيال الموسيقيين منذ مونتفردي في القرن السابع عشر وجلوك في القرن الثامن عشر فقد كتب كل منهما أوبرا على هذه الأسطورة اعتبرت من الأعمال التاريخية الهامة في الموسيقى .

لأسطورة أورفيوس ويوريديشي الشهيرة والتي عالجها فنانون متعددون في مجالات الأوبرا والباليه في عصور تاريخية مختلفة وبأساليب شديدة التباين ومع ذلك فإن سترافنسكي وفق في هذه الموسيقى في كتابة نص بالغ الاقتصاد والتركيز ـ وهما من السمات التي يضعها نصب عينيه في تلك الفترة ـ وعبر عنها بنسيج موسيقي شفاف وتكوين أركسترالي متحفظ ينطق بوضوح الخط « الكلاسيكي » وبقدرة المولف الفائقة على التعبير البليغ داخل الحدود الفنية التي يضعها لنفسه باختياره . والموسيقى مكتوبة ببساطة واقتصاد فهي خالية من كل « الزخارف » وابتعد ، في التلوين الأركسترالي فيها ، عن كل الألوان اللامعة أو البراقة . وتعتبر موسيقى هذا الباليه قمة في الجمع بين التحفظ الكلاسيكي والصدق الانساني في التعبير . ومن أعماله الكثيرة في هذه الفترة كذلك « السيمفونية ذات الحركات الثلاث » **Symphony in three movements** وفيها اختط المؤلف لنفسه نهجا غير تقليدي لا يطابق الصيغة المألوفة في تصميم حركات السيمفونية إذ أنه تعمد كتابتها من حركات ثلاث وليس من أربع حركات كما هو المألوف .

والحركة الأولى هي أكثر الحركات طموحا ولكنها ليست في قالب الصوناته المعروف بل هي مكتوبة من ثلاثة أقسام داخلية يختلف النسج الموسيقي فيها فالأول والثالث مكتوبان بأسلوب هارموني بينما القسم الأوسط قد كتب بأسلوب تشابك الألحان الكنترابنط ، ومن الطريف أن المؤلف لم يحدد لها بالاصطلاحات الايطالية الشهيرة طابعا خاصا واكتفى بذكر سرعة المترونوم . ويغلب على الفكر الموسيقي هنا بعد الثالثة والسادسة التي تشكل نواة لحنية ينبثق عنها النسيج الموسيقي في الحركة الأولى كلها .

والحركة الثانية أشبه بانترمتسو رقيق تكاد تنقسم فيه آلات الأركسترا الى مجموعة كبرى تقابلها مجموعة صغيرة من الآلات المنفردة (٧) . قوامها آلات الفلوت والهارب ، ولكي يحافظ المؤلف على هذا الطابع الرقيق أسكت آلات النفخ النحاسية والايقاع كلية في الحركة الثانية البطيئة .

أما الحركة الثالثة فتستهل بلحن جليل يقدمه الاركسترا بكامل أقسامه ويعود للظهور في ختامها . وتجد الحركة ذاتها في بناء ثلاثي يمكن اعتبار أقسامه « تنويعات » على لحن الاستهلال وهي تتخذ صورة الفوجه **fugue** في القسم الثالث والأخير ، حيث يعالج المؤلف نفس اللحن الاستهلالي بأسلوب الفوجه الكنترابنطي المتشابك . وهذا كله يدلنا على إصرار المؤلف على تجنب الصياغة التقليدية وتسلسل الحركات في كتاباته السيمفونية الناضجة . انظر النموذج الثالث

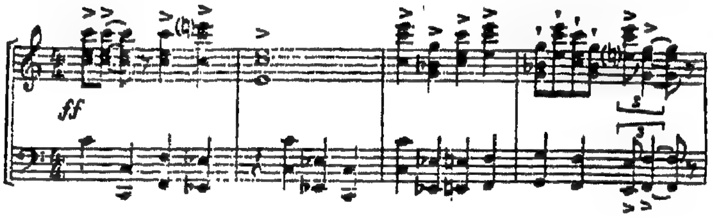

نموذج من السيمفونية ذات الثلاث حركات : لحن الاستهلال للحركة الثالثة .

---

(٧) المجموعة الصغيرة هنا أقرب إلى ما يسمى الكونشرتينو في مؤلفات الكونشرتو جروسو من عصر الباروكه .

أوبرا جديدة :

وفي الخمسينات الف سترافنسكي أوبـراه الكبيـرة « نهاية داعر » سنـة ١٩٥١ The Rake's Progress التي كانت آخر وأهم أعماله الأوبرالية للمسرح ، وموضوعها مأخوذ عن مجموعة صور للفنان الانجليزي هوجارث Hogarth التي صور فيها مشاهد من حياة شاب داعر عاش في لندن في القرن الثامن عشر وقد كتب اللبرتو لها الشاعر الانجليزي أودين Auden وشستر كالمان . ولحنها سترافنسكي على نفس النمط الأيطالي الذي نعرفه في بعض أوبرات موتسارت ، من أوبـرا « الأغاني المنفصلة » والتي يشغل فيها الريستاتيف الجاف (المصحوبة بعزف من الهاريسكورد) حيزا هاما في الوصل بين الفقرات الغنائية الأنفرادية أو الكورالية وهكذا عاد سترافنسكي في هذه الأوبرا الى تمجيد « المغنين » والغناء فهي لا تتطلب من المغنين قدرات تمثيلية بقدر ما تتطلب قدرات صوتية بارعة . وبالرغم من هذا البناء الخاص فان تأثيرها الدرامي يجعل منها عملا من أكبر أوبرات هذا القرن .

سترافنسكي والموسيقى الدوديكافونية :

ومرة أخرى فاجأ سترافنسكي العالم الموسيقي كله بتحوله ، بعد منتصف القرن الى الموسيقى الدوديكافونية ، أو بعبارة أدق « موسيقى صفوف الأصوات » Serial Music وهو الأسلوب الجديد الذي كان آرنولد شونبرج قد ابتكره ووضع قواعده العقلية الصارمة منذ عام سنة ١٩٢٣ ثم تبناه وأبدع فيه تلميذاه الكبيران آلبان بيرج وآنطون فون فيبرن كل باسلوبه الشخصي المتميز . ولقد ظل العالم الموسيقي كله يعتقد أن شونبرج وسترافنسكي يمثلان طرفي النقيض في الموسيقى لأن سترافنسكي كان ينظر لهذه الطريقة بشيء من التعالي ، والواقع أن سترافنسكي عندما تحول الى موسيقى الصفوف الاثني عشرية (الدوديكافونية Dodecaphony) كان متأثرا في ذلك بموسيقى فيبرن وحده بعد استماعه الى رباعيته الوترية مصنف رقم ٢٢ ، وكان هو (سترافنسكي) في تلك الفترة مشغولا بالبحث في موسيقى عصر النهضة الذي أنجب أعظم عباقرة الكنترابنط ، ويبدو أنه وجد في المذهب الاثنى عشري امتدادا عصريا للفكر الكنترابنطي الصارم لذلك العصر ، ومن هنا جاءت مؤلفاته ابتداء من عام ١٩٥٢ **نقطة تحول ثالثة** وجوهرية . وفي هذا العام كتب كانتاته على نصوص انجليزية قديمة كلها مكتوبة بأسلوب صفوف الأصوات وأن لم يكن يلتزم دائما بصف مؤلف من اثنى عشر صوتا ، ولهذا يفضل أن نسميها عنده موسيقى صفوف الأصوات السيريالية وليس الموسيقى الاثنى عشرية) .

ومن أغلب الوقائع في تاريخ الموسيقى أن شيخا تعدى السبعين من عمره يجد في نفسه الجرأة والرغبة في تغيير أسلوبه الموسيقي الذي حقق له كل شهرته الدولية تغييرا جوهريا بمثل هذه الأهمية . . وهكذا تمثل فترة الخمسينيات في حياته مرحلة التحول الثالثة ، فبعد البدائية الحديثة New Primitivism الذي انضوى تحته انتاج الفترة الروسية ، وبعد الكلاسيكية الحديثة New Classicism الذي كتب به مؤلفات الفترة الأوروبية والسنوات الأولى من الفترة الأمريكية تحول سترافنسكي الى صفوف الأصوات ، ولم يعبأ بالاعتراضات من الجماهير ولا من النقاد وبدأ يجرب هذه الطريقة الجديدة في عمله « الكانتاته » وكذلك السباعية Septet الثلاثة وتريات وثلاثة آلات نفخ وبيانو وكلاهما أنجز في عام ١٩٥٢ .

ومن أعماله الغنائية الهامة « الغناء الديني للقديس

مرقص » سنة ١٩٥٦ وهو عمل كبير للكورال والاركسترا .... Canticum Sacrum قدم لأول مرة في كنيسة القديس مرقص بالبندقية (وكان قد كتب بتكليف من مهرجان الموسيقى المعاصرة في البندقية) وأصر المؤلف على تقديمه مرتين في تلك الحفلة الأولى التي قادها بنفسه . ثم في عام ١٩٥٧ كتب موسيقى لباليه كلاسيكي الموضوع بعنوان « آجون » Agon وهي كلمة إغريقية معناها مباراة وفكرة الباليه فعلا قائمة على مباراة في الرقص . والموسيقى فيه تكاد تكون هيكلا عظميا أشبه بكتابات القرن السابع عشر .

وأخيرا وليس آخرا نذكر الأوبرا التلفيزيونية « الطوفان » **The Flood** التي كتبها للتلفيزيون البريطاني سنة ١٩٦٢ ثم قدمت على مسارح الأوبرا الأوروبية وقد اعد كتيبها مساعده روبرت كرافت عن موضوع مأخوذ عن العهد القديم وسار فيه بأسلوب مسرحيات الغوامض (٨) الانجليزية في القرن الخامس عشر وما قبله .

ومن الأعمال التي كلفه راديو هامبورج بكتابتها في تلك المرحلة المتأخرة عمل كورالي بعنوان « دموع » **Threni** أو « مراثي النبي أرميا » للأصوات المنفردة والكورال والأركسترا . وعندما قدم هذا العمل في مهرجان فنيسيا سنة ١٩٥٨ أثار اهتماما بالغا بما حققه فيه مؤلفه من تعبير مركز ولكن باستخدام وسائل موسيقية مقتصدة . وقد أخذت مؤلفاته منذ بداية الستينات طابعا دينيا غنائيا باستثناء « التنويعات » للاركسترا والتي كتبها احياء لذكرى صديقه آلدوس هكسلي وعزفت لأول مرة سنة ١٩٦٦ ثم حولت الى باليه بنفس العنوان ـ باستثناء هذا العمل فان أغلب مؤلفاته الأخيرة كانت ذات صبغة دينية .

وجاءت النهاية صباح ٦ إبريل سنة ١٩٧١ بعد مرض طويل قضى بسببه فترة عصيبة في المستشفى في نيويورك وكانت وصيته أن يدفن بجوار صديقه دياجيليف ، فنقل جثمانه من نيويورك حيث وافته المنية ـ الى البندقية حيث أقيم القداس الجنائزي على روحه وأقام المثال الايطالي جياكومو مانتشو Mantzu تمثالا له ليوضع على قبره .

وقد كانت سنوات حياته الأخيرة حافلة باقصى ما يطمع فيه الفنان من التبجيل والتقدير فقد منحته أمريكا ميدالية ذهبية ودعاه الرئيس كينيدي لزيارة البيت الأبيض وانهالت عليه مظاهر التكريم من بريطانيا وفنلندا والدنمارك ودعاه اتحاد المؤلفين الموسيقيين في الاتحاد السوفيتي لزيارة روسيا في إجازة (ولكنه لم يزرها الا زيارة واحدة) . وشهد سترافنسكي بنفسه من آيات التكريم ما أدفأ سنوات شيخوخته فقد كان الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين احتفالا على مستوى فني مرموق اذ نظم اركسترا نيويورك الفلهارموني مهرجانا لموسيقاه استغرق عشرة أيام في أحدث واجل قاعات الموسيقى في نيويورك بمركز كنيدي للفنون .

ومن الطريف أنه جاء الى مصر في رحلة خاصة حرص فيها على إخفاء شخصيته وزار معالمها الأثرية تحت اسم مستعار وكان ذلك في عام ١٩٦٢ .

ومن البديهي أننا لسنا بصدد تقديم حصر شامل لأعمال سترافنسكي الموسيقية (التي بلغ عددها مائة وتسعة) ولكن هدفنا من هذه الاطلالة العامة على حياة سترافنسكي وعالمه وموسيقاه أن نقرب هذا المؤلف العظيم للقاريء والمستمع العربي وأن نضع بين أيديه تسلسلا تاريخيا لمراحل تطوره وابداعه لكي يتابع بعض انتاجه الموسيقي المذهل كما وكيفا ، فلا شك أن إيجور سترافنسكي الذي يحتفل العالم بذكرى مرور مائة عام على مولد عبقرية كبرى في الموسيقى الغربية في قرننا .

---

(٨) **Mystery Plays** وهي مسرحيات دينية كانت تدرس بها قصص التوراة وحياة المسيح في الكنيسة وكان يدخلها قدر من الغناء والموسيقى .

المراجـــع

أولاً : كتابات سترافنسكي :

— Chronicles of my life, London, Gollancz 1936.

— An autobiography, New York, Simon, Schuster 1936.

— Poetics of music, Cambridge, Howard University Press 1947.

— Conversations with Igor Stravinsky by I.S. and Robert Craft, London, Faber 1959.

— Memories & commentaries by I.S. & R.C.
London, Faber & Faber 1960.

— Expositions & developments by I.S. & R.C.
London, Faber 1962.

— Dialogues & a diary by I.S.& R.C.
London, Faber 1968.

— Themes & Episodes by I.S. & R. C.
New York, Knopf 1966.

— Retrospectives & conclusions by I.S. & R.C.
New York, Knopf 1969.

— Themes & Conclusions : by I. Stravinsky.
London, Faber 1972.

ثانياً : كتب عن سترافنسكي وموسيقاه :

— Stravinsky the composer & his works.
by Eric Walter White, London, Faber 1979.

— Stravinsky with pictures & documents.
by Vera Stravinsky & Robert Craft
London, Hutchinson 1978

— Perspectives on Schoenberg & Stravinsky by Benjamin Berotz & Edward Cone.
O. U. P. London 1969.

— Souvenirs sur Igor Stravinsky by C. Ramuz.
Editions Mermod Lausanne 1929.

— Stravinsky und Sein Jahrhundert by Hans H. Stuckensmidt, Berlin—Dahlem, Akademie der Kunste 1957.

المراجع العربية :

معهد الفنون	الجزء الثاني : موسيقى القرن العشرين ـ د. عواطف عبد الكريم .
الزمن ونسيج النغم	د. ثروت عكاشة
موسيقى القرن العشرين	سلسلة أحاديث للبرنامج الثاني ـ د. سمحة الخولي
سترافنسكي	مجموعة مذكرات للكونسرفتوار ـ د. سمحة الخولي

بعض كلاسيكيات الرفض اليهودى للصهيونية

هدى عبد السميع حجازى

في اغسطس عام ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيوني الاول في بازل في سويسرا وحضره ١٩٧ مندوبا يمثلون منظمات صهيونية مختلفة . وقد جرى وصف حماس الأعضاء بأنه كان « يفوق الوصف »(١) لأن « الشعب اليهودي في الدياسبورا كان يمارس الشعور بالقوة والحرية لأول مرة » ، وتصرف المندوبون ـ حسب ما جاء في المرجع الذي نقتبس منه ـ وكأنهم أعضاء في « برلمان أمة عظيمة ذات سيادة » . واحتفاء منهم بهذه المناسبة المهيبة ارتدوا الملابس الرسمية والتي كانت تتكون من معطف طويل ورباط عنق أبيض . وقال أحد الحاضرين معلقا : « ان هذا اليوم تحيط به هالة من الدلالة الأسطورية والمجد » . أما هرتزل نفسه ، نجم هذه المناسبة ومؤسس الحركة الصهيونية ، فقد دون في يومياته هذه الكلمات : « ان كان لي أن الخص مؤتمر بازل في عبارة واحدة . . . لقلت في بازل خلقت الدولة اليهودية » .

ولكن هرتزل مع هذا أضاف في يومياته أنه « لن يجرؤ على اذاعة هذه الكلمات « لأنه لو فعل » لقوبلت بالسخرية من الجميع . « فلم هذا التحفظ إذن ؟ الاجابة على هذا السؤال ليست بعسيرة ، فالمناسبة المشار اليها لم تكن هامة في حينها . فهذا « البرلمان » المهيب اجتمع في كازينو للقمار ؛ وارتدى المندوبون معطفا طويلا ورباطا أبيض للعنق ، لأن بطاقة الدعوة اخبرتهم أنهم لن يسمح لأحد بالدخول إلا اذا ارتدى الملابس الرسمية ؛ ولم يكن مكان انعقاد المؤتمر ذاته ، في مدينة بازل ، من اختيار الصهاينة ، اذ وقع الاختيار في بادىء الأمر على مدينة ميونخ ، ولكن اللجنة التنفيذية لجمعية الحاخامات في المانيا اعترضت على عقد المؤتمر هناك ، الأمر الذي اضطر الصهاينة الى ان يحملوا

---

(1) Michael Selzer, **The Wineskin and The Wizard : The Problem of Jewish Power in the Context of East European** Jewish History (New York : The Macmillan Company 1970), PP. 165—166

رحالهم . بل ان نجم المناسبة والعقل المدبر وراءها وصف أعضاء البرلمان بأنهم « جيش من الشحاذين أنني أقود جيشا من الصغار والشحاتيه والمغفلين » واذا ما نظرنا الى قائد الشعب اليهودي الجديد لوجدنا أن انتماءه لليهود واليهودية أمر مشكوك فيه . وقد وصفت حنا أرنت المفكرة اليهودية الألمانية الأصل (٢) الفئة التي ينتمي اليها هرتزل بأنها أساسا مجموعة من المثقفين اليهود المندمجين الذين تسبب اندماجهم في انفصالهم عن جماعاتهم اليهودية ، ولكنهم مع هذا ـ بسبب تزايد معاداة السامية ـ لم يتمكنوا من الاندماج في المجتمعات الاوروبية . وقد تجسد هذا الوضع في موقف كوميدي حدث في مؤتمر بازل وذلك حينما قرر هرتزل الاقتراب من الجماهير التي يحاول قيادتها ، وذلك بأن يقرأ في خطابه الافتتاحي عبارة دينية بالعبرية . ولكن نظرا لجهله بالعبرية واليديشيه كتبت له هذه العبارة بحروف لاتينية واضحة ، ولابد انه بذل جهدا جهيدا لقراءتها (٣) .

يبين مؤلف المرجع الذي نشير اليه ، البروفسور مايكل سلزر ، وهو عالم اجتماع يهودي من اصل باكستاني يعيش الآن في الولايات المتحدة ، انه ثمة صورتين مختلفتين للمؤتمر الصهيوني الاول ، فهناك الصورة « المعلنة » والرسمية والمتداولة وهي صورة مليئة بالانتصار والثقة بالنفس ، صورة الحركة الصهيونية كتجسيد لآمال الشعب اليهودي وصورة القيادة الصهيونية باعتبارها نخبة تعبر خير تعبير عن هذه الآمال . ولكن هذه الصورة « الخفية » ، ويمكن ان نقول التي تمثل جزءا هاما وأساسيا من الحقيقة ، وهي صورة المؤتمر الذي ليس له علاقة كبيرة باليهود أو اليهودية ، والذي يضم بعض العناصر الهامشية التي ليس لها انتماء واضح او محدد سواء للمجتمع الأوروبي أو الأقليات اليهودية . ولقد كانت الصهيونية حريصة كل الحرص على الترويج للصورة الاولى دون الصورة الثانية ، لأنها ـ أي الصهيونية ـ تطرح نفسها على أنها التعبير الحقيقي والوحيد عن تطلعات الشعب اليهودي ، وأنها المنظمة التي حولت هذه التطلعات الى برنامج سياسي قابل للتنفيذ ، ثم وضعته بعد ذلك موضع التنفيذ بالفعل . وهذه الصورة قد بلغت من الشيوع درجة كبيرة ، حتى ان الجميع ـ الصهاينة واعداؤهم ـ يتقبلونها وكأنها حقيقة بديهية . ولكن الدارس الموضوعي والمدقق سيكتشف أن حقائق التاريخ لا تتفق البتة مع هذه « الحقيقة البديهية » وان الامور اكثر تركيبا من ذلك بكثير .

ولنبدأ ببديهية أخرى ينساها البعض ويتناساها معظم الصهاينة ، وهي ان الدولة القومية الصهيونية لا تضم كل اعضاء « الشعب اليهودي » ولا أغلبيته ولا حتى نصفه ، وانما اقلية صغيرة لم يهاجر كل اعضائها لفلسطين لأسباب ايديولوجية قومية . فبعض اليهود هاجر الى فلسطين للاستيطان فيها لأسباب دينية (وهو ما يطلق عليه اليشوف أو المستوطن القديم) . وقد هاجر معظم يهود البلاد العربية (وهم يشكلون الآن حوالي نصف سكان اسرائيل) لأسباب اقتصادية سعيا وراء الرزق أو لأسباب سياسية ، كما يهاجر اليهود السوفيت في الوقت الراهن لنفس الاسباب . ولذلك حينما تتاح لهؤلاء المهاجرين فرصة الفرار من أرض الميعاد الى أرض

---

(2) Hannah Arendt, ‘ZIONISM Reconsidered, in M. Selzer (d,) Zionism Reconsidered (New york : The Mamillan ca, 1970) PP. 213—250.

(3) Selzer, The Winesbin and the Wizard and the Wizard, P. 160

الفرص الاقتصادية في الولايات المتحدة فأنهم يفعلون ذلك دون تردد . إن وجود الاغلبية الساحقة من اليهود (او الشعب اليهودي على حد قول الصهاينة) في خارج فلسطين (أو الوطن القومي) واستعذاب اليهود لحياة المنفى منذ آلاف السنين وحتى الآن ، قبل وبعد انشاء الدولة الصهيونية ، يدل على أنه لا الحركة الصهيونية ولا الدولة الصهيونية تعبر عن آمال اليهود . وان « اليهود » ، سواء في الشرق أو الغرب ، لم يتقبلوا الصهيونية تقبلا أعمى ، وانما كانت تختلف استجاباتهم لها باختلاف الظروف والانتماء الحضاري أو الطبقي . فهناك بطبيعة الحال اليهود الصهاينة المؤمنون بالصهيونية الذين تخدم هذه الحركة مصالحهم الاقتصادية أو النفسية والحضارية ، ولكن هناك أيضا أولئك اليهود الذين يحاولون التملص من الصهيونية ، واولئك الذين يتحفظون عليها ، وهناك كذلك الذين يرفضونها رفضا كاملا عن وعي أو عن غير وعي .

ولعل من أهم محاولات التملص هو ما يسمى « بصهيونية الدياسبورا » [4] وهو اصطلاح متناقض مع نفسه إلى أقصى حد . فالصهيوني هو الشخص الذي يؤمن بأن اليهود يكونون شعبا مثل كل الشعوب وأن فلسطين او اسرائيل هي وطنه القومي ، ولذا يكون من واجب اليهودي الصهيوني أن ينهي « غربته » وان يهاجر الى وطنه القومي في أول فرصة قد تسنح له . فالفكر الصهيوني يضع الوطن القومي في مقابل المنفى ، فيرى ان الوطن القومي جدير بالبقاء أما المنفى والشتات فلابد من تصفيتها ، او الاحتفاظ بهما كشيء تابع باعتبار ان الدولة الصهيونية هي بمثابة المركز لحياة اليهود داخل وخارج فلسطين . ولكن يهود الدياسبورا لا يقبلون هذا التعريف الصهيوني الذي يضعهم في المرتبة الثانية ، ولذلك فقد ظهرت صيغة تحاول ان تقبل القيم الصهيونية « القومية » ولكنها تجعل فعاليتها تنطبق على المستوطن الصهيوني وحسب ، أما بالنسبة ليهود الدياسبورا فيمكنهم أن يحيوا حياتهم كأنجليز في انجلترا او امريكيين في الولايات المتحدة دون أن تتحكم في سلوكهم السياسي او الفردي القيم الصهيونية السياسية أو الاخلاقية . وهذه الصيغة الجديدة صيغة انتهازية « نصف صهيونية » - ان صح التعبير - ولذلك فهي لا يمكن اعتبارها من اشكال الرفض اليهودي للصهيونية . ولكنها مع هذا شكل من أشكال التململ ومحاولة التملص من الصهيونية التي أحكمت قبضتها على يهود العالم ، كما اننا سنلاحظ ان مواقف الرفض اليهودية الكاملة للصهيونية قد تبنت هذه الصيغة نصف الصهيونية للأفصاح عن نفسها دون استفزاز المؤسسة الصهيونية .

واشكال الرفض اليهودي الكامل للصهيونية تختلف في كثير من تفاصيلها وفي بعض منطلقاتها الفلسفية ، ولكنها تتفق كلها على رفض مفهوم الشعب اليهودي بالمعنى السياسي وعلى رفض الرؤية الصهيونية ليهود الشتات . ويمكن تقسيم اتجاهات الرفض الى الاقسام الأربعة التالية :

اولا : الرفض الديني للصهيونية

ينطلق الرفض الديني اليهودي للصهيونية من عدة افكار (أو عقائد) جوهرية في الدين اليهودي ، ولعل

---

[4] - لطفي العابد وموسى عنز (ترجمة) ، د. أنيس صايغ (اشراف) الفكرة الصهيونية : النصوص الإساسية (بيروت : مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٠) . أنظر على سبيل المثال المختارات من كتابات براندیس (٣٨٥ - ٣٩٤) وهوراس كالن (٣٦٥ - ٤٠٤) ومناحيم كابلان (٤٠٥ - ٤١٦) وأبا هيلل سيلفر (٤٦١ - ٤٧٢) لتعريف اصطلاح « صهيونية الدياسبورا » ولتقسيم أشكال الرفض اليهودي للصهيونية أنظر د. عبد الوهاب محمد السيرى (مؤلف ومشرف) ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥)

الفكرة الأساسية التي يرتكز اليها الرفض الديني للصهيونية هي فكرة الشعب اليهودي بالمفهوم الديني . وتعرف ادبيات جماعة النصاطوري كارتا(٥) (وهي جماعة يهودية معادية للصهيونية) الشعب اليهودي بأنه ليس شعبا بالمعنى المتعارف عليه ، وانما هو اساسا جماعة دينية ظهرت الى الوجود منذ ثلاثة آلاف عام . ويستمد هذا الشعب وجوده من ميثاقه مع الخالق وهو ميثاق دائم لا يمكن فصمه . وحسب هذا الميثاق يلتزم كل اليهود بالتوراة وتعاليمها والتي يقوم الحاخامات بتفسيرها كل في جيله . ان اليهود بهذا المعنى ليسوا شعبا بالمعنى السياسي وهم ليسوا عنصرا مستقلا (كما زعم هتلر) وانما هم أولا وأخيرا جماعة دينية .

على العكس من هذا يرى الصهاينة ان اليهود إن هم إلا شعب مثل كل الشعوب يجب أن يحملوا السلاح ويلجأوا للعنف ، وان يكون عندهم جيوش وبحرية وطيران وعلم خاص لهم ، كما يؤمن الصهاينة أن اليهود يجب ألا يخضعوا الا للقانون العلماني ، اما القانون الديني فيجب ان يطويه النسيان . بل ان الصهاينة ينكرون الطبيعة المقدسة للتوراة وينظرون اليها (والى الكتب الدينية اليهودية الاخرى) باعتبارها نوعا من انواع الفلكلور الذي يجب الحفاظ عليه باعتباره فلكلور وحسب .

ويرى الصهاينة أنه من الممكن أن يبقى الانسان يهوديا بشكل عام حتى لو لم يمارس أي شعائر دينية يهودية مثل الامتناع عن العمل يوم السبت او الالتزام بقوانين الطعام (مثل عدم اكل لحم الخنزير) او اتباع التشريعات الخاصة بالزواج . واليهودي الخير لم يعد هو اليهودي التقي الذي يتبع تعاليم دينه وينفذها ، وإنما هو اليهودي الذي يدفع بسخاء للدولة الصهيونية . وليس هناك ما يبعث على الدهشة في هذا الوضع فمؤسسو الحركة الصهيونية رفضوا الدين اليهودي ولم يلتزموا قط بتعاليمه أو قيمه الأخلاقية .

وعلى الرغم من أن عقائد اليهود تشير الى انهم « شعب الله المختار » إلا أن الهدف من هذا الاختيار ـ حسب التفسير الديني الصحيح ـ ليس هو تمكين اليهود من السيطرة على العالم ، وانما العكس . فقد اصطفى الله اليهود ليقوموا على خدمته في الدنيا وبهذه الطريقة يقومون على خدمة الجنس البشري بأسره . بل أن الاختيار يفرض على اليهودي واجبات أكثر مما يمنحهم من حقوق . فترى الشريعة اليهودية ان هناك سبعة قوانين اساسية ملزمة لكل البشر كي يصبحوا بشرا ؛ وهناك عشرة قوانين (الوصايا العشر) ملزمة لأتباع الديانات التوحيدية (الاسلام والمسيحية) . ولكن اليهودي وحده عليه الالتزام بـ ٦١٣ قانونا ذكرت في

---

٥ ـ اعتمدنا على المراجع التالية :

(a) Jews not Zionists (Newyork : American Neturei Karta, n. d)

(b) Emil Marmortein, Heaven at Bay : **The Jewish Kvltvkampf in the Holy Land (London : Oxford University Press, 1969.**

(c) Yerach miel Domb, "Netvrei KARTA" IN Selzer, Zionism Reconsidered, PP, 23—48

(d) INTERVIEW WITH Rabbi yosef Becher in Arab Perspective (Nwe york, May 82),

ومنشورات جماعة الناطوري كارتا المختلفة .

التوراة . وهذه القوانين ملزمة لكل يهودي ولد لأم يهودية او اعتنق اليهودية .

تتحول فكرة الاختيار الديني عند الصهاينة الى افكار عنصرية سياسية ، فيصير العنصري اليهودي عنصرا متفوقا ، ويمنح هذا التفوق اليهود حقوقا معينة تجب حقوق الآخرين ، ولذا يصبح من حقهم الاستيلاء على فلسطين وطرد العرب . وبدلا من أن يخضع اليهودي لقوانين ديانته فان عليه ان يخضع للقوانين العلمانية السائدة بغض النظر عما اذا كانت تتفق مع القوانين الاخلاقية أم لا . واذا كان المتدينون ينظرون الى اللغة العبرية باعتبارها لغة دينية يحرم استخدامها في الشئون الدنيويه ، فان الصهاينة قد جعلوا منها لغة الحديث اليومية في الوطن الصهيوني ثم جعلوها اللغة الرسمية للدولة .

أما عن علاقة اليهودي بأرض الميعاد فيؤكد هؤلاء اليهود الرافضون للصهيونية ان اليهودي المتدين يتجه بعواطفه وقلبه لهذه الارض (صهيون ، او آرتس يسرائيل ، أو أرض الميعاد المقدسة) وخاصة لمدينة القدس ، فهم يذكرونها في صلواتهم عدة مرات كل يوم . ولقد تلا اليهود هذه الصلوات آلاف السنين ، ولكن هذه الصلوات لا علاقة لها بالصهيونية او بفكرة العودة الصهيونية . فنفى اليهود من أرض الميعاد هو من الاوامر الربانية التي لا يمكن مخالفتها او التمرد عليها ولذا لا يملك اليهودي المتدين الا ان يستمر في صلواته الى ان يستجيب الله الى دعائه ويأمر بعودة اليهود .

ويناقش اليهود المتدينون فكرة أمن اليهود ، فالصهيونية تدعي انها تحمي أمن اليهود بعد أن فقدوها في الشتات لمدة آلاف السنين ، وأنها بعثت الروح العسكرية في اليهود مرة اخرى مما جعل اليهود يستعيدون احترامهم لأنفسهم واعتدادهم بها . يرى اليهود المتدينون على العكس من ذلك ان الله اصطفى اليهود ، شعب الله المختار ، لا لأنهم شعب متعجرف او جماعة منتصرة وانما لأنهم اكثر الناس تواضعا . اما بخصوص أمن اليهود فيبين اليهود الارثوذكس ان عدد اليهود الذين قتلوا في الأعوام القليلة الماضية ـ في حروب اسرائيل ـ يفوق بكثير عدد اليهود الذين قتلوا في أي مكان آخر . ان أمن اليهود يكمن في امكانية تصالحهم مع الدول التي يعيشون بين ظهرانيها . وقد قال النبي إرميا ، منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة ، « لنسع الى ما فيه خير المدينة (أي البلد الذي تعيش فيه) ، ولتصل للرب من أجلها ، لأنه في خيرها ستحيا أنت حياة طيبة » فتصور ان الدولة الصهيونية ذات الجيوش الصهيونية يمكنها ان تحمي اليهود هو تصور خاطىء من اساسه . بل ان الجيتو الصهيوني الكبير يحتاج الى دعم يهود المنفى لحماية امنه أكثر من احتياج يهود المنفى اليه .

ويذهب اليهود المتدينون الى أكثر من هذا ، اذ يوجهون الاتهام للحركة الصهيونية بأنها حركة معادية للسامية . فالدولة الصهيونية تدعي انها دولة كل اليهود ، وأن اليهودي يتوجه بولائه للدولة اليهودية وليس للدولة التي يعيش فيها ، وبالتالي تخلق هذه مشكلة ازدواج الولاء وتدعم من الاتهامات المعادية للسامية . وبما ان الصهيونية تزدهر بازدهار معاداة السامية فهي تروج لها ، بل إن الصهيونية تحاول ان تقوض من وضع اليهود اينما وجدوا حتى تضطرهم للهجرة لاسرائيل . وقد قامت الحركة الصهيونية بتنفيذ هذا المخطط في عديد من الدول ، ومثال على ذلك هو حرق معابد اليهود في العراق في اوائل الخمسينات . وقد ظهر أن الذي أضرم هذه الحرائق لم يكن « اعداء اليهود » وانما مبعوثون صهاينة نجحوا بالفعل في اجتثاث جماعة يهودية تعود جذورها الى آلاف السنين . ومن الحقائق غير المعروفة التي يروج لها اليهود المتدينون ان الصهاينة قد تعاونوا مع النازيين حتى يصفوا يهود شرق

اوروبا باعتبار ان جماهير شرق أوروبا اليهودية كانت هي القاعدة العريضة التي يستند اليها الرفض الديني للصهيونية ، ووجود مثل هذا الرفض على مستوى جماهيري واسع كان سيسحب من الصهيونية أي شرعية . ويشير المصدر الذي نقتبس منه الى كتاب الحاخام وايسماندل من هاميتزار وكتاب خيانة تأليف بن هخت ، وكلاهما يتناول موضوع التعاون بين النازيين والصهاينة .

واذا كان اليهود المتدينون يرفضون الايديولوجية الصهيونية ، فهم بالتالي يرفضون الدولة الصهيونية ويرون في قيامها خيانة للشعب اليهودي الذي ظهر كجماعة دينية في سيناء . ويقوم بعض المتدينين اليهود بحرق علم اسرائيل في حفل سنوي يقام في بروكلين في نيويورك .

وقد قامت عدة جماعات يهودية دينية لمعارضة الصهيونية لعل من أهمها جماعة أجودات اسرائيل (أي جماعة أو وحدة اسرائيل) التي تأسست في بولندا عام ١٩٢٢ لتناهض الاتجاهات العلمانية ، خاصة الصهيونية ، بين اليهود . ولا يؤمن اتباع اجودات اسرائيل الا بالتوراة وتعاليمها لحل مشاكل اليهود واليهودية . وقد حاربوا بضراوة ضد الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية . وبعد صدور وعد بلفور قدموا احتجاجا الى عصبة الأمم ضد الهيمنة الصهيونية على اليهود في فلسطين ، كما انهم رفضوا الانضمام الى الفاند ليومي او اللجنة القومية ـ وهي الكيان السياسي الصهيوني الذي كان من المفروض ان يضم كل اليهود . وفي عام ١٩٢٧ طلبت عصبة الأمم رسميا من سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين أن يكون لليهود المتدينين الحق في الا ينضموا لهذه اللجنة (وان لم تعطهم الحق في ان يكون لهم كيانهم السياسي المستقل) . وقد ظل الصراع بين الأجودات والصهاينة مستمرا حتى ان قوات الهاجاناه قتلت زعيم الأجودات الحاخام دي هان في يونيو ١٩٢٤ (وبالطبع الصقت الجريمة بالعرب ، ولم يكشف السر الا بعد انشاء الدولة) .

ولكن الحركة الصهيونية نجحت مع هذا في استيعاب الاجودات بعد عام ١٩٤٨ ، ولذا فهذا الحزب الديني لا يرفض الدولة الصهيونية بشكل مبدئي في الوقت الراهن وانما يحاول ان يفرض عليها مبادىء الشريعة اليهودية . وحينما تتحدث الصحف الآن عن اليهود المتدينين المتشددين الذين يصرون على التوسع الصهيوني او على الاحتفاظ بالمستوطنات (كما حدث في ياميت) فهي في الواقع تتحدث عن اعضاء الأجودات اسرائيل بعد ان انخرط اعضاؤها في سلك الصهيونية وانسحبوا من صفوف المعارضة .

ويمثل المعارضة الدينية الحقيقية الآن جماعة الناطوري كارتا (آراميه : نواطير المدينة) . وقد اتخذت الجماعة هذه التسمية من قصة وردت في التلمود أتى فيها أن أحد الحاخامات ارسل اثنين من حوارييه لجماعات اليهود المقيمين في الارض المقدسة ليرى ما اذا كانت لديهم معاهد لدراسة التوراة أم لا ؟ ولكنهما لم يجدا لا معاهد ولا طلبة ، فطلبا من اهل المدينة المقدسة ان يرسلوا لهما « الناطوري كارتا » أو « نواطير » أي « حراس المدينة » ، فأتوا لهما برجال الشرطة . وبعد عرض الأمر على الحاخام قال : « هؤلاء ليسوا حراس المدينة ، وانما هم مخربوها » اذ ان حراس المدينة الحقيقيون هم هؤلاء الذين يجلسون في المعابد والمعاهد الدينية ليصلوا أو يدرسوا التوراة . ومنظمة الناطوري كارتا منظمة دولية تضم اليهود المتدينين في الولايات المتحدة وكل أنحاء العالم الذين يعارضون الصهيونية والدولة الصهيونية بشكل مبدئي لا مهادنة فيه ولا مساومة . ومن الصعب تقدير عدد اعضاء هذه المنظمة ولكن يوجد أكبر تجمع لهم في حي بروكلين في نيويورك وفي حي بناي براك في

القدس (يبلغ عدد كل تجمع بين ٦٥ ـ ٦٧ الف) . كما توجد جماعات أصغر عددا في لندن وانتورب ومونتريال . ومن المشاكل التي يواجهها اليهود المتدينون المعادون للصهيونية أنهم يعارضون فكرة التنظيم ذاتها ، فهم يرون أنفسهم على أنهم جماعة دينية ، وبالتالي فهم ينظرون الى فكرة التنظيم السياسي باعتبارها فكرة غربية بل ومعادية لهم (على عكس الصهاينة الذين قاموا من البداية بتنظيم أنفسهم تنظيما دقيقا واستغلوا الضغوط الدولية خير استغلال) .

ومع هذا بدأت الناطوري كارتا في الآونة الأخيرة في تنظيم نفسها وتوجيه نشاطها ، كما انها بدأت تتعامل مع وسائل الاعلام والمنظمات الدولية المختلفة ، فأصبح لها مراقب في هيئة الأمم ، وقد قامت بدور فعال اثناء مناقشة قرار هيئة الأمم الخاص باعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية ، كما أنها تقوم الآن بدور تربوي واسع في صفوف اليهود وغير اليهود . وهي تدعو لاسقاط دولة اسرائيل واقامة دولة فلسطينية في كل الاراضي الفلسطينية وتدويل القدس ، وتعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية على انها الممثل الوحيد والشرعي للشعب الفلسطيني .

ثانيا ـ الاندماجيون

•ينطلق اليهود الاندماجيون من افتراض فلسفي ـ ديني يشبه من بعض الوجوه افتراض اليهود الارثوذكس ، وهو ان اليهودية هي اساسا انتماء ديني وليست انتماء قومي ـ سياسي . فحسب رأي كلود مونتفيور(٦) ـ العالم الديني اليهودي ـ يعد الدين امرا في غاية الخطورة والاهمية بحيث انه يملأ حياة المشتغلين به ، فلا يترك لهم اي وقت للأشتغال بأي شيء أخر سياسيا كان أو قوميا ، وبذا أصبح اليهود « مملكة من الكهنة » . وهذا الاصطلاح الأخير له معنى روحي ديني وحسب ، لانه لو لم يكن الامر كذلك لأصبح اصطلاحا متناقضا لأقصى حد . وعلاوة على هذا يرى مونتفيور ان رؤية اليهودية العالمية والشاملة جعلت من الصعب عليها أن تظل عقيدة قومية يحتكرها عنصر او جنس لنفسه ، ولذا فقدت الأمة التي تؤمن بها هويتها كأمة بالمعنى السياسي وتحولت الى جماعة دينية . وقد دعم هذا الاتجاه ايمان اليهود بأن الله واحد وانه رب للعالمين لا يتحيز لشعب على حساب الآخر .

ويؤمن الاندماجيون بأن الدولة القومية الحديثة ـ خاصة الدول الديمقراطية في أوروبا الغربية ـ قد اتاحت الفرصة لأول مرة في التاريخ لكل اعضاء الاقليات والطبقات (بما في ذلك اليهود) أن يصبحوا مواطنين لهم كافة الحقوق وعليهم كافة الواجبات ، وانهم عليهم ان يغتنموا الفرصة وان يطرحوا جانبا أية انتماءات قومية او « طائفية » فرعية قد تتعارض مع انتمائهم القومي الاساسي ـ أي أن حل المسألة اليهودية لا يكون إلا عن طريق الاندماج والمزيد من الاندماج ـ ومن هنا كان التعارض الكامل بين دعاة الاندماجية والصهيونية ، ومن هنا كانت معارضة الصهاينة لسياسة الاندماج التي تجعل خلاص اليهود وغير اليهود منوط بسياسة التنوير العامة . ويرى الفيلسوف اليهودي الامريكي موريس كوهين ان فلسفة الاندماج تعود الى الفيلسوف سبينوزا الذي بين ان اليهود ، مثل كل الجماعات الانسانية الاخرى ، يرتبطون بوشائج المعاناة ، وأنه كلما ازدادت الامم استنارة وازالت القيود المفروضة على اليهود سيتبنى هؤلاء عادات الحضارة الغربية ، وبذا ستحل المسألة اليهودية .

---

(6) Clavde G. Montefior, "Nation or Religiovs Commvnity," in Selzer Zionism Reconsidered, PP. 49—64.

ولكن يبين موريس كوهين(٧) ان عملية تحرير اليهود لم تبدأ الا في القرن التاسع عشر ، وعلى الرغم من ان اليهود تبنوا مثل الليبرالية العقلانية الا انه لم يتم تحريرهم الكامل ولم يمنحوا كافة حقوقهم الا مع نهاية القرن التاسع عشر . ولذلك اعتنق بعض اليهود مثل القومية الرومانتيكية التي بدأت في المانيا كرد فعل لمثل الثورة الفرنسية الليبرالية العقلانية المستنيرة . وقد أدى هذا بدوره الى انتشار الفكر الصهيوني الذي يستند الى مقولات النظرية العرقية . ولكن الصهاينة بدلا من أن ينصبوا الجنس النيوتوني جنسا أسمى فأنهم يضعون اليهود في نفس المكانة المتفوقة باعتبارهم الشعب الذي له « روحه » الفريدة التي لا يمكن أن تعبر عن نفسها الا في فلسطين ومن خلال اللغة العبرية .

والمفكرون الاندماجيون يقرأون التاريخ اليهودي قراءة مختلفة عن قراءة الصهاينة له وينظرون للمصير اليهودي نظرة مختلفة . فهانز كوهن ـ (٨) المؤرخ الامريكي اليهودي وصاحب العديد من الدراسات في ظاهرة القومية ـ يرى انه لا توجد حضارة عظيمة لم تتأثر بالحضارات الاخرى وتقتبس منها سواء في مجال الدين او اللغة او القوانين او العادات . وهكذا كان اليهود ، فهم قد بلغوا درجة عالية من الامتياز بعد ان تركوا فلسطين واختلطوا بالشعوب الأخرى ، ومن هنا ظهرت بينهم اسماء المشاهير أمثال هايني وماركس وبرجسون . أن « العودة للاصل » ليست بالضرورة شيء ايجابي يزيد من درجة الابداع . فالفرنسيون لم يضرهم كثيرا انهم تخلوا عن لغتهم الاصلية الغالية وتبنوا لغة الغزاة الرومان . بل أن مصدر التشريع الأوروبي كله هو القانون الروماني ، وهو قانون فرض فرضا من الخارج على أوروبا ولم ينبع من داخلها .

ويبين هانز كوهن انه ثمة تيارين متعارضين داخل اليهودية : تيار قومي وآخر معاد للقومية ، فقد جاء في التوراة أن زعماء الشعب اليهودي ذهبوا الى النبي صوميل وطلبوا منه أن ينصب عليهم ملكا ـ أى انهم كانوا يطلبون أن يكونوا مثل كل الأمم ، وان يكون لهم حكومة مثل كل الحكومات ودولة مثل كل الدول . وحينما رفض النبي ان يفعل ذلك ، اخبره الله أن يساير اليهود لأنهم بإصرارهم على أن يكونوا مثل كل الشعوب الأخرى لم يرفضوا صمويل وانما رفضوا الله ذاته ـ فهم يودون ان يكونوا خدما للدولة بدلا من ان يقوموا على خدمة الله . وقد اسس اليهود دولتهم بالفعل ، ولكن الأنبياء اخذوا موقف المعارضة منها فقام ارميا بالهجوم عليها كما قام عاموس باعادة تفسير فكرة الشعب المختار حسب اسس جديدة ، فالاختيار حسب تفسيره لا يعني ان الله قد منح اليهود حقوقا خاصة ، ولا يعني ان انتصارهم على الآخرين أمر أكيد ، وانما يعنى ان الله سينزل بهم أشد العقاب اذا ارتكبوا اى خطايا حتى ولو كانت عادية « اياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم » عاموس ٣ /٢) . بل ان عاموس كان راديكاليا في تفسير فكرة ارض الميعاد ذاتها ، فحسب رؤيته لا يوجد أي فرق بين بني اسرائيل والاجناس الاخرى (« ألستم لي كبني الكوشيين يا بني اسرائيل . . الم اصعد اسرائيل من ارض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير» (عاموس ٩ /٨) : ان مساعدة الله اليهود على الخروج من ارض مصر ليست قاصرة على اليهود ، فالله يساعد كل

---

(7) Morris Cohen, "Zionism or Liberalism" in Ibid pp. 65—72

(8) Hons Kohn, "Zion and the Jewish National I jea" in Ibid pp. 175—212

الشعوب ، لا يميز بين شعب وآخر . وقد جاء في سفر اشعيا هذه الرؤية العالمية الشاملة لمستقبل يضم كل البشر : « في ذلك اليوم تكون سكة من مصر الى آشور فيجيء الأشوريون الى مصر والمصريون الى اشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . . . مبارك شعبي مصر وعمل يدي أشور وميراثي اسرائيل » (أشعياء ١٩ / ٢٥) .

ويذكر كوهن ايضا في مجال تقديم رؤية اندماجية للتاريخ اليهودي حادثة يُفنه ، وذلك حين قام الحاخام يوحنان بن زكاي بالهرب من اورشليم اثناء حصار الرومان لها واقام مدرسة تلمودية في يفنه وذلك حتى يضمن الايباد كل الفقهاء والحاخامات ، ولا يبقى منهم أحد يحمل مشعل الشريعة وينقلها ويفسرها للشعب بعد سقوط اورشليم . وبعد هروب يوحنان بن زكاي ـ من وجهة نظر هانز كوهن ـ تخلى عن فكرة الدولة اليهودية ، ويثبت ان الدولة في تاريخ اليهود ليست سوى ظاهرة عرضية ، أما اليهودية كدين وكتراث حضاري فهي ظاهرة فريدة مستمرة تضرب بجذورها في عالم الروح اليهودية . والهدف من هذه القراءة للتاريخ اليهودي هو اثبات ان الرؤية الصهيونية لليهود واليهودية متناقضة مع تجربة اليهود التاريخية ومع القيم الاخلاقية والدينية التي تدافع عنها اليهودية كدين .

ويظهر التناقض بين الصهاينة والاندماجيين بشكل جلي في موقفهم من معاداة السامية . فبينما يرى الصهاينة أنه مرض أزلي أو جرثومة حتمية خبيثة يصاب بها كل الاغيار في كل زمان ومكان ، ينظر اليها الاندماجيون بشكل عقلاني على انها مرض اجتماعي يتغير بتغير الظروف . وبالتالي اذا ازدادت المجتمعات الانسانية استنارة وعقلانية خف خطر معاداة السامية . وبالتالي فالحرب ضد معاداة السامية لا بد وأن تأخذ شكل تحالف بين كل القوى العقلانية والمستنيرة في المجتمع ، فهي ليست حرب يهودية ضد الأغيار وانما هي حرب التقدم ضد التخلف والليبرالية ضد التعصب . ويتهم الاندماجيون الصهاينة بأنهم في الواقع حلفاء ذاتيون وموضوعيون للمعادين للسامية ، ويؤكدون أن كلا من الرؤية الصهيونية والرؤية المعادية للسامية ينبعان من نفس التصور لليهودي واليهودية . وقد لاحظ كلود مونفيور بأن الرؤية الصهيونية ضارة تماما بالمصالح اليهوديةوأن المعادين للسامية متعاطفون تماما ودائما مع الصهيونية . ويثيركوهن قضية تعارض الصهيونية مع حقوق اليهود . فالصهيونية لا تطالب بالحرية الفردية لليهود وانما تطالب بالاستقلال الجماعي لهم وبحقهم في الهجرة ، وهذا أمر يتنافى مع التقاليد الليبرالية التي لا تتعامل الا مع الأفراد كأفراد ولا تتعامل إلا مع حقوق الأفراد داخل أوطانهم ، وبالتالي فالطرح الصهيوني لقضية الحقوق اليهودية يضر بهذه الحقوق وبحقوق كل يهودي يرغب في البقاء في وطنه وفي الحصول على حقوقه السياسية والمدنية .

وتاريخ معارضة الاندماجيين للصهيونية طويل ويعود الى الايام الاولى للحركة الصهيونية . ولعل من أهم الشخصيات اليهودية المعادية للصهيونية السير ادوين مونتاجو ، وهو الوزير اليهودي الوحيد في وزارة سير لويد جورج (التي اصدرت وعد بالفور) . وقد عارض السير مونتاجو الفكرة الصهيونية معارضة قوية(٩) وبين ان فلسطين قد يكون لها وضع خاص وأهمية خاصة بالنسبة لليهود ، ولكنها لها وضع مماثل واهمية مماثلة بالنسبة للمسيحيين المسلمين . وقد كتب السير مونتاجو مذكرة سرية ، بعث بها لرئيس الوزراء ولكل اعضاء

---

(9) Tahseen Basheer (d.) Edwin montagv and the Balfovr Declaration (New york : Arab Leagve Office, n. d)

الوزارة ، بين فيها ان الصهيونية « عقيدة سياسية مضللة ، لا يمكن لأي مواطن محب لوطنه » ان يدافع عنها . وقد اوضح مونتاجو في المذكرة بعض نقط الانطلاق التي يدافع عنها الاندماجيون ، فأنكر وجود أمة يهودية ، اذ ان عملية العودة الى فلسطين ـ حسب التصور اليهودي الحق ـ لا يمكن ان يقوم بها اليهود بمحض إرادتهم وإنما يجب ان تتم بمشيئة الله . ولأنه لا يوجد أمة يهودية لذا لا يمكن تأسيس دولة يهودية ولا يمكن تشكيل جيش يهودي او فرقة عسكرية يهودية خاصة ملحقة بالجيش الانجليزي . (وقد كانت الحركة الصهيونية في ذلك الوقت قد بدأت في محاولتها ـ التي كللت بالنجاح في نهاية الامر ـ لأنشاء فيلق يهودي يضم المهاجرين اليهود من شرق اوروبا ، تحارب الى جانب القوات البريانية لتأكيد الهوية اليهودية المستقلة) . وقد قال مونتاجو في مذكرته السرية ان تأسيس مثل هذه الفرقة يعنى ان أخاه وابن اخيه سيضطرون الى الخدمة العسكرية جنبا الى جنب مع اناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التي يتكلمانها ـ اى الانجليزية .

وقد اكد مونتاجو في مذكرته ان وعد بالفور ينطوي على كره عميق لليهود وعلى موقف معاد للسامية وانه سيضفي شرعية على المحاولة الرامية لطرد اليهود من بلادهم واعادتهم الى وطنهم الاصلي » : « عندما يصبح لليهود وطن قومي فسوف يتبع هذا بالتأكيد زيادة هائلة في الدعوة لحرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين ، وسوف تصبح فلسطين جيتو لكل يهود العالم ـ سيصبح جميع اليهود غرباء » باعتبارهم من مواطني تلك الدولة اليهودية التي ستنشأ في فلسطين . ولذلك قال انه يفضل حرمان كل صهيوني من حق التصويت بدلا من حرمان اليهود من جنسيتهم ، وانه يميل الى اعتبار المنظمة الصهيونية منظمة غير شرعية لأنها تعمل ضد المصلحة البريطانية القومية » .

هذا وقد حذفت عبارة من وعد بالفور وأضيفت أخرى لتأكيد بعض المفاهيم التي يؤمن بها اليهود الاندماجيون ، فحذفت عبارة « العرق اليهودي » وحلت محلها عبارة « الشعب اليهودي » . كما أضيفت الاشارة الى ان وعد بالفور لا تؤثر في الوضع السياسي أو الحقوق التي يتمتع بها اليهود في اي دولة اخرى ـ اى ان وعد بالفور لم يعد يجسد فكرة الشعب اليهودي الصهيونية ، كما تم الاعتراف الضمني بوجود يهود في كل انحاء العالم لكل هويته ولكل حقوق قومية مختلفة . وقد كان سيرادوين مونتاجو من أهم الشخصيات التي ضغطت على الحكومة البريطانية لتعديل وعد بالفور ، وكان يساعد في هذا المنظمتان اليهوديتان الرئيسيتان في انجلترا .

وقد قامت شخصيات يهودية ومفكرون يهود آخرون بالدفاع عن وجهة النظر الاندماجية ، وأسست عدة منظمات بهدف الحرب ضد الصهيونية بشكل واع ولنشر المثل الاندماجية ، ومن أهم هذه الجمعيات المجلس الامريكي لليهودية الذي تأسست عام ١٩٤٣ كرد على برنامج بلتيمور الصهيوني والذي اعلن فيه الصهاينة لأول مرة عن عزمهم انشاء دولة في فلسطين وليس مجرد وطن قومي . وضم المجلس عددا كبيرا من الحاخامات المؤمنين باليهودية الاصلاحية (وهي مذهب يحاول تخليص اليهودية من اى نزعة قومية) . وقد اصدر المجلس منشورا يستنكر المحاولات الرامية الى فرض علم يهودي وجيش يهودي ودولة يهودية في فلسطين وفرض جنسية مزدوجة على يهود امريكا والى تعميق الخلاف بين الامريكيين اليهود وبقية الشعب الامريكي ، والى وضع اليهود داخل مخططات صهيونية لممارسة الضغوط الدولية السياسية . وقد استنكر المجلس ايضا محاولة الصهاينة فرض عقيدة القومية اليهودية والظهور بمظهر المتحدث باسم كل اليهود .

وقد شن المجلس حملة عنيفة ضد الصهيونية اثناء مناقشة مسألة فلسطين في الامم المتحدة عام ١٩٤٧ . وبعد اعلان دولة اسرائيل قام المجلس بجهود مكثفة لتأكيد ان يهود امريكا ليسوا مواطنين في الدولة الصهيونية الجديدة وانما هم مواطنون امريكيون أولا وأخيرا . ويعد الحاخام المربرجر المفكر والنظر الاساسي لهذه الجمعية ، ولذلك حينما اتخذت موقفا مهادنا من الصهيونية اضطر الى الاستقالة وكون جمعية صغيرة تسمى « بدائل امريكية يهودية للصهيونية » .

والتيار الاندماجي لا يزال قويا للغاية في العالم الغربي على الرغم من عدم وجود منظمات اندماجية ذات قاعدة جماهيرية عريضة ، وتظهر قوته في أن عدد المهاجرين من الولايات المتحدة الى اسرائيل صغير بشكل مضحك (اذ لا يزيد احيانا عن ثلاثة الاف ، وذلك بعد الحوافز والمغريات) ، كما أن انتشار صهيونية الدياسبورا هو تعبير عن انتصار التيار الاندماجي . فصهيونية الدياسبورا هي في الواقع تعبير عن رضوخ جزئى من جانب الصهيونية لتقبل يهود المنفى للمثل الاندماجية . فصهاينة الدياسبورا هم يهود مندمجون في مجتمعاتهم ، يتمتعون بكافة الحقوق ويضطلعون بكافة الواجبات المفروضة على المواطنين الأخرين ، ولكنهم يعتنقون الصهيونية في موقفهم من المستوطن الصهيوني وحسب وليس في موقفهم من مجتمعاتهم ومن انفسم . وهذا حل وسط يفيد الصهاينة في عملية جمع التبرعات والضغط السياسي على الولايات المتحدة وغيرها من الدول عن طريق الأقليات اليهودية فيها ، ولكن هذا النوع من الصهيونية لا يمكن ان يخرج عن هذا النطاق الضيق المحدود بتاتا الى نطلق الرؤية المتكاملة للعالم التي تتحكم في سلوك اليهود ، اذ تظل الرؤية المتكاملة هي الرؤية الاندماجية . فالصهيونية بذلك تصبح الجزء الصغير الذي يرضى التعايش داخل الكل الاندماجي الاكبر لأسباب عملية محضة .

ثالثا : الرفض الاشتراكي للصهيونية

يشترك الرفض الاشتراكي للصهيونية مع اشكال الرفض اليهودية المختلفة في كثير من المفاهيم . فعلى سبيل المثال يرى الاشتراكيون اليهود الرافضون للصهيونية أن اليهود لا يشكلون جماعة قومية مستقلة وانما هم اقلية دينية وحسب ، وأن حل المسألة اليهودية بالتالي لا يكون عن طريق الهجرة الى « الوطن القومي » وانما يكون عن طريق ثورة اجتماعية شاملة تغير البناء الطبقي للمجتمع وتحل كل مشاكل الطبقات الكادحة والاقليات المضطهدة . اى ان اليهود الاشتراكيين يرفضون الوجود المستقل لليهود ، والوجود المستقل لأى مسألة يهودية . ويعد كتاب ابراهام ليون ـ المفكر اليهودي الاشتراكي الذي ولد في بولندا ونشأ في بلجيكا ـ المفهوم المادي للمسألة اليهودية(١٠) من أهم وثائق الرفض اليهودية الاشتراكية للصهيونية . يؤكد ليون في بداية كتابه ان دراسة التاريخ ليست مسألة اكاديمية وانما هي مسألة مرتبطة بمحاولة فهم وضع اليهود في القرن العشرين . ثم يحاول بعد ذلك تحطيم كثير من الاساطير والاوهام التي تحيط باليهود وبتاريخهم . واولى هذه الاساطير هي ما يسمى بالتاريخ اليهودي فيشير ليون لى ان ماركس لا ينطلق من الدين اليهودي لتفسير تاريخ اليهود ، بل العكس يفسر تاريخ اليهود انطلاقا من « اليهودي الواقعي » ، أي من دور اليهود الاقتصادي والاجتماعي .

ويعرض ليون لفكرة البقاء والاستمرار اليهودي ، وهي فكرة يروج لها الصهاينة اذ يدعون ان اليهود كانوا

---

١٠) ابراهام ليون ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩) .

يكونون امة مثل كل الامم ، ولكن الرومان الحقوا باليهود الهزيمة مما ادى الى تشتيتهم . وعلى الرغم من ذلك قاوم اليهود الاندماج القومي والديني بضراوة لسبب إحساسهم القومي العميق وشعورهم الاخلاقي المتفوق ، وفشلت كل المحاولات الرامية الى تنصيرهم . ومع سقوط الامبراطورية الرومانية ازداد اليهود عزلة ودفعتهم الاضطهادات الدينية الى العمل بالتجارة والى الانسحاب داخل الجيتو . وقد كان أملهم الوحيد خلال الايام المظلمة التي دامت ألفي سنة هو الرجوع الى وطنهم الاصلي . يرد ليون على هذا التاريخ الصهيوني لليهود بذكر بعض الحقائق التي اهملت او شوهت . فالشتات اليهودي لم يكن نتيجة غزو أو قهر وانما هو امر تم تلقائيا نتيجة لظروف تاريخية وجغرافية محددة اذ يبين ان الطبيعة الجبلية الجرداء لفلسطين وتوسطها العالم القديم ادى الى اشتغال اليهود بالتجارة وبالتالي الى تشتيتهم ، ولذا كان ما يزيد عن ثلاثة ارباع اليهود يقطنون خارج فلسطين قبل سقوط القدس في أيدي الرومان . فقد كان يوجد في الشتات حوالي ثلاثة ملايين ونصف في حين لم يبق في فلسطين اكثر من مليون . وكان اهتمام يهود الشتات بالمملكة اليهودية في فلسطين ثانويا الى اقصى حد . ولم يتم بقاء اليهود برغم تشتتهم وانمابسببه ، لو لم يحدث التشتت ، ولو بقي اليهود في فلسطين لأختلطوا بالأمم المختلفة واندمجوا فيها وتبنوا عقائدها وعماداتها ، « ولو استمر سكان فلسطين الحاليين يحملون اسم اليهود ، لكان الشبه بينهم وبين العبرانيين القدماء ، كالشبه بين سكان مصر وسوريا واليونان واسلافهم القدامى . وادى انهيار الامبراطورية الرومانية الى انحلال جميع الشعوب ، اما اليهود فقد تمكنوا من البقاء ، لأنهم استمروا ـ في العالم البربري الذي خلف روما ـ في حمل آثار التطور التجاري الذي ميز العالم القديم » .

ويوجه ليون سهام نقده لفكرة الشعب اليهودي فيقول ان اليهود قد ارتبطوا (في اوروبا بالذات) بمهمة التجارة والربا حتى اصبحوا يشكلون مجموعة اجتماعية حضارية لها دور اقتصادي متميز ، وبتعبير آخر اصبحوا يشكلون ما يشبه الأمة ـ الطبقة ـ اى أنهم طبقة اجتماعية اقتصادية لها بعض خصائص الامة (لغة خاصة وتراث ديني مستقل) . وهذا التطابق بين الطبقة والشعب (او العرق) ليس أمراً استثنائيا قاصراً على اليهود ، ففي مجتمعات ما قبل الرأسمالية كانت تتميز الطبقات الاجتماعية ، غالبا ، بطابع قومي أو عرقي .

وهكذا تسقط الاساطير الصهيونية الاساسية الواحدة تلو الاخرى ـ اسطورة الشتات اليهودي القسري واسطورة البقاء والاستمرار اليهودي الواعي واسطورة الشعب اليهودي الواحد ، فهي كلها ظواهر لها جذورها التاريخية الخاضعة للدراسة والتقنين ، ولها ما يناظرها بين الشعوب الاخرى . ثم يعرض ليون لظروف اليهود في العصور الوسطى والى ظهور المسألة اليهودية ، ويبين أن الصهيونية لم تولد في الماضي السحيق في وعي اليهود او داخل احساسهم بالمأساة وانما ولدت داخل الظروف التي ادت ايضا الى ظهور المسألة اليهودية . والصهيونية في رأيه هي ايديولوجية البورجوازية اليهودية الصغيرة المختلفة بين الاقطاعية المنهارة والرأسمالية الآخذة في الانحطاط ، وهي ايديولوجية قومية ولكنها لم تظهر في عصر ازدهار الرأسمالية ، مثل القوميات الاوروبية الاخرى ، وانما ظهرت في عصر انحطاطها في عصر الامبريالية . ففي عصر ازدهار الرأسمالية كانت البورجوازية اليهودية قابلة للاندماج وبعيدة كل البعد عن الصهيونية ، ولكن في عصر انحلال الرأسمالية ، عصر العمالة الفائضة وتجمد التطور الرأسمالي ، ظهرت معاداة السامية وظهرت الصهيونية كدعوة قومية . وهنا تكمن القضية الرئيسية في وجه تحقيق

اهداف الصهيونية ، فانحطاط الرأسمالية ، الذي يشكل مرتكز تطور الصهيونية ، هو في نفس الوقت سبب استحالة تحقيقها . فأزمة الرأسمالية هى التي تخلق الدافع نحو الهجرة اليهودية وهي في ذات الوقت توصد الابواب دونهم بأسره قد تم تقسيمه بين الدول الامبريالية المختلفة كما انتشرت الصناعة في كل بقاع الأرض » ويشير ليون الى تصاعد الاحساس القومي عند العرب نتيجة لنمو فلسطين الاقتصادي الأمر الذي أدى الى صعود رأسمالية وطنية ، ولذا كان من الحتمي ان تتعاون الصهيونية مع الامبريالية . ولكن علاقة الامبريالية بالصهاينة ستظل دائما علاقة عملية . ويبين ليون ايضا ان الدولة الصهيونية قد تحل مشكلة بعض اليهود الذين استوطنوا فيها ولكنها عاجزة تماما عن حل ما يواجهه يهود الشتات من مشاكل . وفي ختام دراسته يرى ليون ان الحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية هو ثورة اشتراكية شاملة تغير صياغة المجتمع الانساني بأسره . ولكن مع هذا يرى ان نتيجة تلك العملية ستؤدى الى القضاء على الشعب / الطبقة او اليهودية التاريخية .

ولاتوجد منظمة مستقلة تعبر عن الرفض الاشتركى اليهودى للصهيونية ، ولكن هناك شخصيات يهودية اشتراكية عديدة (روجيه جارودى ، وما كسيم رود نسون ، ايزاك دويتشر) أخذت مواقف مناوئة للصهيونية وكتبت العديد من الدراسات التى تفضح الموقف الصهيونى . كما توجد اعداد كبيرة من اليهود فى داخل الاحزاب والمنظمات الاشتراكية المعادية للاستعمار والصهيونية ، تعبر عن موقفها من خلال هذه الاحزاب والمنظمات . .

رابعا : قومية الدياسبورا

يختلف دعاة قومية الدياسبورا عن كل اتجاهات الرفض السابقة فى أنهم يؤمنون مع الصهاينة بتفرد وضع اليهود بل وأحيانا تفوقهم ، كما ان الصهاينة ودعاة قومية الدياسبورا يرفضون الاندماج حلا للمسألة اليهودية (على عكس المتدينين والاندماجيين والاشتراكيين الذين يقبلون بصيغة ما من صيغ الاندماج) . ولكن مع هذا ثمة اختلافات جوهرية وعميقة بين الدعوة لقومية الدياسبورا والدعوة الصهيونية . ومرة اخرى نجد ان الخلاف الاساسى يدور حول مفهوم الشعب اليهودى .

ويعد فيلسوف قومية الدياسبورا الاساسى هو المؤرخ الروسى اليهودى سيمون دوبنوف وقد شرح رأيه فى الفكرة القومية بشكل عام وفى القومية اليهودية على وجه التحديد فى مقال شهير له بعنوان « عقيدة القومية اليهودية » (١٨٩٧)(١١) . يميز دوبنوف بين ثلاثة مراحل مختلفة فى تطور النموذج القومي ، فأولى هذه المراحل يسود فيها النموذج القبلى او العرقى (وبعد هذا النموذج نتاجا مباشرا للطبيعة) . ويسود هذا النموذج حينما يترك الاصل والمناخ المشترك والارض المشتركة أثرهم على السمات الجسدية والعقلية لأعضاء جماعة معينة الى ان تنشأ الامة بالمعنى البيولوجى . ولكن حتى فى هذه المرحلة يتطاحن أثر الحضارة المادية مع أثر الطبيعة ويأخذ اثر الطبيعة فى التناقص ويزداد أثر العناصر الحضارية . وبزيادة التفاعل بين المؤثرات الحضارية والطبيعية تظهر انواع من الفردية اكثر تركيبا ، ويأخذ الصراع من اجل البقاء شكلا جماعيا . ممايؤدى الى ثبات بعض العادات والعقائد والمواقف . ولكن من أهم العناصر التى تظهر فى هذه المرحلة اللغة المشتركة التى تربط بين مختلف اعضائها الجماعية وتفصلهم عن الجماعات الاخرى . ثم يتم الانتقال من الحضارة المادية (اللصيقة بالطبيعة) الى الحضارة الروحية (التى تبتعد

---

(11) Simon Dvbnow, "The Doctrine of Jewish Nationalism," in Selzer, Zionism Reconsidered) pp. 131—156.

عنها) الأمر الذى يؤدى الى ظهور النموذج الثانى اى نموذج الحدود السياسية او النموذج المستقل ، وفى هذه المرحلة تتحول الارض من مجرد جزء من البيئة الطبيعية الى عنصر سياسى يوحد القبائل المختلفة . ثم تظهر سلطة سياسية تخضع الدولة كلها لقوانين ثابتة وتحمى حدودها ضد الامم المعادية ، ثم يظهر مفهوم الوطن ومفهوم المواطن الذى له حقوق وواجبات محددة وتظهر ايضا الارادة القومية الواعية .

وعبر التاريخ ابتلعت بعض الدول الكبرى دولا صغيرة ، ونتيجة لذلك فقدت الأمم المقهورة ـ التي لم يكن قد تطورت شخصيتها السياسية الحضارية بما فيه الكفاية ـ بعض أو كل سماتها ، ثم اندمجت كلية في الدولة الغازية . ولكن ثمة أمم قوية من الناحية الحضارية والروحية تحتفظ بهويتها حتى تحت ظروف الهزيمة السياسية وذلك بسبب مقدرتها على تنظيم حكمها الذاتي الجماعي بما يتفق مع تقاليدها التاريخية وحاجاتها الداخلية ، وفي هذه المرحلة يظهر بوضوح النموذج الثالث وهو النموذج الحضاري التاريخي أو الروحي . وثمة شعوب كثيرة فقدت حريتها السياسية ولكنها بقيت على أرضها ، هذه الشعوب تقف شاهدا على مدى قوة الارادة القومية وعلى مدى عظم رصيدها من الطاقة الروحية . ولكن حينما يفقد شعب استقلاله السياسي ثم يفقد أرضه أيضا ، وحينما تجتثه عواصف التاريخ وتحمله بعيدا عن وطنه وتشتته وتبعثره في بلاد غريبة ، بل وحينما يفقد هذا الشعب لغته المشتركة ثم يستمر في البقاء على الرغم من كل ذلك فان هذا يدل على اصرار عنيد من جانب هذا الشعب على الاحتفاظ بتطوره المستقل ـ ان مثال هذا الشعب قد وصل الى المرحلة الحضارية التاريخية الحقة . ولا يوجد أي شعب فقد حريته السياسية ثم أرضه واستمر في البقاء سوى الشعب اليهودي . ولكن دوبنوف يسارع بالقول انه يجب ألا ينظر الى هذه الظاهرة التاريخية على أنها « معجزة » ، فالشعب اليهودي قد مر بكل المراحل التي مرت بها الشعوب الأخرى . ولكن نظرا لظروفه التاريخية الفريدة فاقت العناصر الروحية العناصر المادية والسياسية .

ثم يقدم دوبنوف قراءة للتاريخ اليهودي (لا يختلف كثيرا عن قراءة الاندماجيين) ليدلل على صدق نظريته . فالشعب اليهودي ـ حسب تفسيره ـ كان يتكون أساسا من مجموعات سامية مختلفة كانت تسمى « أبناء اسرائيل » ، ولكن بعد أن غزت هذه القبائل أرض كنعان حصلت على أرض خاصة بها تظهر هيكل التنظيم القبلي أثناء فترة حكم القضاة ، ووصل تاريخ اليهود الى مرحلة الوحدة أثناء حكم الملوك . . . لكن أثناء هذه المراحل ذاتها ظهرت اليهودية كقوة توحيد روحية ، كما ظهرت فكرة الله الواحد . وحينما بدأت امبراطوريات الشرق الاوسط الكبيرة تهدد الدولة اليهودية قام الأنبياء بالتبشير بفكرة الأمة الروحية ، وبأن فقدان الدولة لا يهدد شعبا تربطه أواصر روحية قوية (وهنا يذكر دوبنوف حادثة يفنه التي ذكرها هانز كوهن ، والتي تذكرها معظم تواريخ اليهود المعادية للصهيونية ، وتؤكد أهميتها لأنها تدل على أن الهوية اليهودية يمكنها أن تعبر عن نفسها خارج اطار الدولة) ـ وبعد أن فقد اليهود دولتهم فقدوا أيضا أرضهم ، وأصبحوا أمة بلا دولة ولا أرض ـ أصبحوا شعب الكتاب وأمة الروح . ولكن هل أدى هذا الى اختفاء هذا الشعب ؟ يرد دوفنوف على ذلك بالنفي ، اذ أينما وجد اليهود في أعداد كبيرة كونوا مركزا للتعبير عن الطاقة القومية الروحية ، وهذا المركز كان بمثابة بؤرة تتجه نحوها بقية الأقليات اليهودية في العالم (الأقل قوة وعددا) . ان تاريخ اليهود لم يتوقف بعد سقوط أورشليم على يد الرومان وانما استمر على شكل قومية الدياسبورا ، فظهر أول مركز للدياسبورا في بابل (من

القرن الخامس الى القرن الحادي عشر) ثم اسبانيا (من القرن الحادي عشر حتى الخامس عشر) ثم المانيا وبولندا (من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر) ، وقد تنبأ دوفنوف بانتقال هذا المركز الى الولايات المتحدة (وقد أثبتت الأيام صدق نبوءته) ان دوفنوف يؤمن بوجود وحدة ما بين اليهود ولكنها وحدة مبنية على التنوع ، فكل حضارة يهودية تختلف عن الحضارات اليهودية الأخرى باختلاف ظروفها التاريخية والسياسية والجغرافية .

ويفرق دوبنوف بين الأنانية القومية والفردية القومية فالأنانية القومية تسعى الى الهيمنة على الآخرين والى فرض حضارتها عليهم فهي نفي للحرية والارادة ، وهي ضرب من ضروب العدوانية والصراع ، انها امبريالية قومية . أما الفردية القومية فتعني أن الأمة تحاول الحفاظ على أصالتها وعلى استقلالها الروحي الداخلي والخارجي ، وهي تعبير عن ارادتها في أن تبقى كما هي وان تدافع عن شخصيتها الجمعية ، وهذا لا يتناقض بتاتا مع قيم الليبرالية والعقلانية . ان مبدأ الحرية يتضمن مبدأ المساواة ، مما يضع حدودا على مبدأ الحرية . وكل الجماعات القومية الحضارية ، بغض النظر عن حجمها أو وضعها السياسي ، متساوية في الحقوق وليس لدى أي قومية الحق في أن تكبت حرية قومية أخرى . هذا هو معنى الفردية القومية . ان رؤية دوبنوف لتاريخ الجماعات اليهودية رؤية عميقة لا تنزع اليهود من وجودهم التاريخي المتعين ، وانما تقبل هذا الوجود وتجعل منه نقطة انطلاقها . ولذلك نجد أن برنامجه الاصلاحي لا يهدف الى اصطناع لغة جديدة مثل العبرية ، وانما يطالب بتطوير اللغة اليديشية والاهتمام بآدابها باعتبار أن هذه اللغة هي لغة الحديث الفعلية للملايين من يهود أوروبا ، وبدلا من نفي الدياسبورا وتصفيتها طالب دوبنوف بالاهتمام بها ومساعدتها على الاستمرار ، بل انه كان يرى ان تاريخ اليهود هو أساسا تاريخ الشتات ، وأن تصفية هذا الشتات هو بمثابة هدم لليهود واليهودية . وغني عن الذكر ان فكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين تكون بمثابة المركز السياسي والثقافي لكل يهود العالم هي فكرة مجردة يرفضها دوفنوف وكل من يدين بفكره .

ولا توجد أي منظمات يهودية تدافع عن قومية الشتات وعن حق يهود الشتات في تطوير تراثهم وشخصيتهم المستقلة ، وإن كان يوجد مفكرون يهود كثيرون يتبنون هذا الموقف عن وعي أو عن غير وعي . ويمكن اعتبار آ . ف . ستون(١٢) ـ المفكر والصحفي الأمريكي ـ من المفكرين المدافعين عن وجود اليهود في الشتات بشكل واع . ففي مقال له عام ١٩٦٧ عبر ستون عن تشاؤمه بخصوص مستقبل قومية أهل جزيرة ليليوت الأقزام (أي اسرائيل) ، وقارنها بموقف يهود الشتات وخلص الى أن الضرب الأول من القومية هو نتاج اهتمام ضيق بمصير ورفاهية قبيلة واحدة ، أما الاهتمام بالشتات فيستند الى رؤية أكثر اتساعا وشمولا . ولذلك بدلا من أن يطالب ستون بتصفية الوجود اليهودي في الاتحاد السوفيتي أو تهجير اليهود الى أرض الميعاد ، وبدلا من التهييج ضد الاتحاد السوفيتي يقترح حث الاتحاد السوفيتي على القضاء على معاداة السامية وعلى منح اليهود السوفيت نفس الحقوق الخاصة بالاستقلال وحرية التعبير التي يمنحها لغيرهم من الجنسيات المختلفة . ويؤكد ستون ان الصهاينة لم يتفقوا معه في المنهج لأن الصهيونية تزدهر على الكوارث اليهودية ، أو أنه بدون هذه الكوارث فانه لن يقوم لها قائمة . ثم يهاجم ستون الدولة الصهيونية لاضطهادها الفلسطينيين ولانكارها حقوقهم .

---

(12) I. F. stone, For a New Approach to the Israeli—Arab Conflict" in Gary Smith, (Ed) Zionism—The Dream and the Reality : A Jewish Critiqve (New york : Barnes and Noble, 1974), pp. 197—216

ويمكن أن نضرب مثلا آخر على قومية الدياسبورا بالحاخام الأمريكي يعقوب نيوزنر ففي خطاب ألقاه على احدى الجمعيات اليهودية رفض المفهوم الصهيوني لاسرائيل باعتبارها المركز الروحي ليهود العالم . وينطلق نيوزنر من تعريفين للشعب اليهودي أحدهما ديني وثقافي والآخر سياسي وقومي . وهويرى أن الدولة اليهودية قد يكون لها مركزية في حياة اليهود الزمنية التاريخية ، ولكنها لا مركزية لها في حياة اليهود المتعينة كأناس « يعيشون ويعانون ، يولدون ويموتون ، يفكرون ويشكون ، يربون أطفالهم ويقلقون عليهم ، يحيون ويعملون ، فطالما أن اليهود بشر ويعيشون في ظل ظروف انسانية مستقلة ، فانه لا الصهيونية ولا دولة اسرائيل يمكنهما أن يكونا بمثابة محور لحياتهم » كما أكد الحاخام نيوزنر ان الصهيونية ليس لديها ما تقوله بالنسبة لقضايا الحياة الثابتة الخالدة ، لأنها ـ أي الصهيونية ـ لم تثر قط مشكلة الوجود اليهودي كما عبرت عنها اليهودية . (١٣) .

ورفض الحاخام نيوزنر للصهيونية في كتابه المعنون **اليهودية الامريكية مغامرة في المعاصرة** (١٤) عميق للغاية اذ أنه يرى أن الصهيونية أخذت تصبح تدريجيا بديلا زائفا للدين اليهودي واحتكرت لنفسها مصطلح اليهودية ورموزها الدينية ، ولذا يعتقد الكثيرون ان الصهيونية واليهودية هما نفس الشيء وكنتيجة لهذا يفشل كثير من يهود أمريكا في ممارسة أي نوع من أنواع التسامي الديني الروحي ، لأنهم يركزون كل اهتمامهم على قطعة أرض لا يعيشون فيها . . . وثمة فارق شاسع بين أن يحلم المرء بأرض توجد في السماء ، في نهاية الزمان وأن يحلم بأرض بعيدة كل ما فيها خير ـ ولكن مع هذا يمكن للانسان أن يذهب اليها ان أراد » ـ أي أن صهيون بالنسبة ليهود أميركا لم تعد حلما دينيا وانما أصبحت تذكرة ذهاب وعودة الى اسرائيل لمدة أسبوعين .

ويعتبر الحاخام نيوزنر نفسه « صهيونيا » ، ولا ندري بأي معنى من المعاني يمكن لمفكر يهاجم المفاهيم الصهيونية الأساسية بهذه الجدة أن يستمر في تسمية نفسه صهيونيا . ولكن رؤية قومية الدياسبورا ، مثل الرؤية الاندماجية ، قد استوعبت هي الاخرى داخل اطار صهيونية الدياسبورا ، وهذا ما كان يعنيه الحاخام نيوزنر نفسه حينما تحدث عن مركزية الدولة الصهيونية في حياة اليهود السياسية وحسب ، وهامشيتها في حياتهم الروحية ، فهو بذلك قد قسم حياة اليهود والشتات الى قسمين : قسم سطحي « صهيوني » ، والقسم الآخر وهو الكيان اليهودي الحقيقي ، فيقع خارج نطاق المثل الأعلى الصهيوني . ويمكننا القول ان الرؤية التي تتحكم في وجدان معظم يهود العالم هو ثمرة تزاوج سطحي بين الرؤية الصهيونية العلنية والرؤية الرافضة للصهيونية الكامنة ، وبالتالي يمكن ليهودي من نيويورك أن يذهب للاجتماعات الصهيونية المختلفة وأن يرفع علم اسرائيل على سيارته ويرسل بشيكه الى الجباية اليهودية الموحدة وأن يضع نجمة داود في سترته ويرسل بخطاب لممثله في الكونجرس الأمريكي يطلب منه أن يتخذ موقفا ممالئا لاسرائيل ولكنه في ذات الوقت يندمج في مجتمعه الامريكي اندماجا كاملا ويتبنى المثل الأمريكية ويركب السيارة الفارهة ويعيش في الضواحي ، كما يمكنه أن يطور هويته اليهودية المستقلة داخل اطار الحضارة الأمريكية ذاتها فيدرس العبرية أو اليديشية . وان كان كاتبا فانه يكتب قصة أو قصيدة أمريكية لها ملامح يهودية أمريكية محددة دون الالتزام بأي مثل صهيونية وبدون التمحك بأرض الميعاد . ان الرفض اليهودي للصهيونية بأشكاله المختلفة لم يختف عن مسرح الأحداث وكل ما حدث أن بعض هذه الأشكال أخذت صورة غير مباشرة وغير واضحة ، ولكنه من الهام للغاية ألا نتقبل الادعاء الصهيوني بأن الصهيونية أصبحت تتحدث باسم كل يهود العالم وانما تعبر عن رأيهم ، فالرفض اليهودي للصهيونية ، سواء كان واضحا أم كامنا ، لا يزال من أهم المؤثرات في السلوك اليهودي في العالم .

---

(13) "Israel not Spiritval Center : (Jacob Nevsner," The Jewwish Past, Sept. 13, 1974.

(14) Review by Allen Brownsfèld, Brief, Avtvmn—Winter, 1972.

توظيف الشخصية الدينية في الأدب لخدمة الفكرة الصهيونية

احمد حماد

مدرسة الادب العبري الحديث بجامعة عين شمس

في بداية القرن الثامن عشر ، وعلى وجه التحديد في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، وبعد فترة طويلة من التدهور ، ظهرت بين اليهود حركة ثقافية ـ اجتماعية ، متأثرة الى حد كبير بأفكار فلاسفة التنوير الأوروبي . وتدعى هذه الحركة لدى اليهود باسم « حركة الهسكالاه » .

والهسكالاه ، كما تبناها أبوها الروحي موسى مندلسون ، تعتبر حركة احياء للثقافة اليهودية ، ولكن سرعان ما نما فيها الجانب السياسي والاجتماعي ، وتمثل ذلك في الرغبة في التحرر السياسي ، والتي انتصرت على الرغبة في الاحياء الثقافي .

ولقد هدفت الهسكالاه ـ كحركة سياسية ـ الى إلغاء القوانين الخاصة باليهود ، وتعاونت في ذلك مع المحاولات التي قام بها فريدريك الأكبر ويوسف الثاني لدمج اليهود في الحياة العامة في الدولة والعمل في خدمتها ، كما شجعت اللقاءات الثقافية بين اليهود وغير اليهود ، وحاولت من جهة اخرى أن تنشر آراءها بين الجماهير اليهودية المتحفظة وان تقيم مجموعة من المدارس المتطورة .

وكان لنتائج حركة الهسكالاه آثار بعيدة المدى ، فقد مهدت الطريق من ناحية ـ الى حركة الاصلاح الديني ، على الأخص في غرب أوربا . ومن ناحية اخرى ، أثارت الثورة ضد نظام الحياة في الجيتو اليهودي ، وكذلك الثورة التي وجهت فيما بعد ضد الهسكالاه نفسها بعد الفشل الكبير الذي أصابها في أعقاب الاضطراب في روسيا عام ١٨٨١ ، عندما ضاع الأمل في الاندماج والذوبان في الشعب الروسى ، وهذه الثورة كانت النبع الاساسي الذي انبثقت عنه الحركة الصهيونية فيما بعد .

ومع بداية حركة الأحياء القومي في أعقاب

اضطرابات ١٨٨١ ، بدأت فترة جديدة في تاريخ الادب العبري ، وهى فترة الاحياء القومي ، وهي تختلف عن فترة الهسكالاه من حيث المفهوم ، فهي حركة قومية تهتم بنزوح اليهود الى فلسطين ، وكذا من حيث اللغة والأسلوب .

وقد قامت هذه الحركة على أنقاض حركة الهسكالاه ، بعد انتكاستها الكبرى ، وتحول معظم أدباء الهسكالاه الى القومية ، بعد أن اصيبوا بالاحباط لعدم تمكنهم من تحقيق أهداف الهسكالاه . وقد ساهم في ابراز هذا الاحباط عدة عوامل داخلية وخارجية . وتتلخص العوامل الداخلية في ابتعاد اليهود تدريجيا عن اهداف الهسكالاه ، بعد أن اتضح لهم انها لا تعبر تعبيرا حقيقيا عن مطالبهم الجماهيرية ، خاصة وأن هذه الحركة تحولت في المرحلة الاخيرة منها الى حركة برجوازية ، تخدم أهداف السلطات السياسية للبلد الذي يعيشون فيه ، وتمالىء نظام الحكم على حساب مطالب اليهود .

وتتلخص العوامل الخارجية في عدم ثقة الحكام في اليهود ، وانتشار موجة ما يسميها اليهود بالمذابح ، والتي اجتاحت أوربا في نهاية القرن الماضي .

وهكذا قامت الحركة القومية بين اليهود ، تدعو الى ابراز كيان مستقل لليهود يتجلى في قوميتهم اليهودية ، بعد أن فشلوا تماما في الاقتناع باهداف الهسكالاه .

وجاءت أول دعوة صريحة للبحث القومي اليهودي في الكتاب الذي أصدره ليون ينسكر والمعروف باسم التحرر الذاتي ، حيث وجه الدعوة في هذا الكتاب بصراحة مطلقة للهجرة الى فلسطين وانشاء الكيان اليهودي على أرضها .

ثم جاء اليعازر بن يهودا ليخرج بهذه النظرية من حيز الأفكار الى حيز التنفيذ ، حيث هاجر فعلا هو وأسرته الى فلسطين وأجبر أفراد أسرته هناك على التحدث باللغة العبرية فقط دون غيرها من اللغات ، وكانت دعوة اليعازر بن يهودا هذه ، نقطة تحول في الفكر القومي اليهودي ، فبعد أن كانت قاصرة على الأعمال الادبية والأفكار المطروحة على صفحات الكتب والمجلات ، بدأت من بعده الصورة القومية تأخذ طابعا سياسيا لممارسة الضغوط على الشعوب الأوروبية لتحقيق هذه الأمنية اليهودية الى أن تم لهم في النهاية في منتصف القرن العشرين ، الحصول على الأرض التي يمارسون من فوقها قوميتهم .

وعن دور الأدب في هذه الحركة ، فيمكن القول ان بيرتس سمولنسكين (١٨٤٢ - ١٨٨٥) هو أول من أرسى أسس هذه الحركة أدبيا ، فقد قدم لنا في قصصه وصفا دقيقا للواقع الذي يعيشه اليهود في روسيا ، وهز صوره الاتجاه الرومانسى القديم الذي اسسه افراهام مابو(١٨٠٨ - ١٨٦٨) واوضح في أواخر الستينات وخلال السبعينات من القرن الماضي خطورة التطرف في الهسكالاه الذي يؤدى الى التطبع بالطباع الروسية وأيضا الى صرف النظر عن الولاء اليهودي بصورة عامة .

وفي الحقيقة ، فان دعوة سمولنسكين للقومية ، والتي تبنتها جريدته « الفجر » لم تكن وليدة صدفه ، كما انها لم تكن نتاج فكر يهودي خالص ، وانما تأثرت بظهور الحركات القومية في المجتمعات الأوربية ، والتي كان ظهورها بمثابة ظاهرة عمت أوربا بأسرها ، واثرت على اليهود تأثيرا لا يقل عن تأثيرها العميق على كل الشعوب الأوربية .

وفي خلال هذه الفترة بدأ الادباء اليهود يؤمنون بالفكرة القومية ويروجون لها في الأروقة اليهودية .

وأخذت هذه الحركات تتبلور وتعرض أهدافها بوضوح بعد أن أصدر موشيه هيس كتابه الشهير « روما وبيت المقدس » الذي دعا فيه الى ضرورة تحول اليهود بكل كيانهم وجوانحهم نحو بيت المقدس لاحياء مجدهم القديم على هذه الارض .

وقد لا نكون مغالين اذا قلنا بعد ذلك أن الادب العبرى طوال هذه الفترة التاريخية كان تعبيرا صادقا عنها ، وبمعنى أصح ، فان الأدب العبرى هو الذي نمى هذه الحركة وطورها ، ولولاه لما كانت هذه الحركة ولا كان الوجود اليهودي في فلسطين ، ولتغير وجه التاريخ اليهودي تغيرا كليا .

وبعد أن تم انشاء الدولة اليهودية في فلسطين عام ١٩٤٨ ، حدثت تغيرات جوهرية في النظرة الاخلاقية والفلسفيه لليهود ، كما أدى الى تغيير في العلاقات بين الطوائف اليهودية في البلاد المختلفة ، والى تغييرات في الوظيفة الرئيسية للدين اليهودي في حياة اليهود .

●●●

يقول سيمون هالكين :

« اننا لا يمكن ان ننكر ان الادب العبرى ساهم في تثبيت فكرة ان اليهود هم شعب الله المختار . كما انه رسم الولاء اليهودي وطهارته ونقائه . كما سجل حب اليهود للتوراة ورفع من شأن اليهودية في التاريخ الانساني (١) .

ولكن هذا لا يعنى أن استخدام شخصيات العهد القديم كمادة للانتاج الأدبي قد لقى تأييدا مطلقا ، بل على العكس لقد كانت هناك حملة شديدة ضده .

وعلى الرغم من التأييد والمعارضة لاستخدام المادة الدينية في الأدب ، فاننا نرى أن هناك أهمية خاصة لاستخدام الشخصيات الدينية في الادب الحديث ، على الأخص في الشعر .

ولعل أبرز توظيف للموضوعات الدينية ، جاء حينما اراد الشعراء العبريون التعبير عن الواقع اليهودي المعاصر لهم . فلم يجدوا خيرا من الشخصية الدينية يعبرون بها عن ذلك حتى يكونوا في منأى عن أى لوم يوجه اليهم ، سواء من السلطات السياسية للبلد الذي يعيشون به أو من الجماعات اليهودية المتطرفة .

فنحن مثلا نجد قنسطنطين آبا شابيرا (١٨٧٥ ـ ١٩٤٣) يحاول ان يشبه فترة الشتات الأوربي بفترة السبي البابلي ، بما فيها من آلام وعذاب ، فنراه يفتتح ديوانه (٢) بقصيدة يظهر فيها آلامه ومصدر هذه الآلام (٣) ويحاول الشاعر فيها ان يذكر اليهود بماضيهم في عصر داود ، وكيف ان داود رد عنهم كل غاز وصان كرامتهم ، وهو بذلك يحث اليهود في الشتات على أن يبرز منهم من هو مثل داود ليرفع عنهم الظلم ويقودهم نحو الخلاص الذي ينشدونه .

وفي مجموعته الشعرية الثانية (٤) ، نجد الشخصية الرئيسية عنده هي شخصية راحيل التي تبكي ابناءها .

---

(١) Halkim , Simo[illegible] , Modern Hebraw Literature , Trends and Values Scnocken Books .N .Y .I 1970 . P . 171 .

(٢) ديوان : « من نبوءات شعبي » .

(٣) داود ملك اسرائيل حي وموجود .

(٤) قصائد اسرائيل .

وهى هنا ترمز للحزن العميق الذي يعيشه اليهود في الفترة التي عاشها شابيرا ، حيث كانوا قد بدأوا يتطلعون الى الأمل في الخلاص والعودة الى فلسطين . والشاعر في هذه القصائد لا يحدثنا عن نفسه ولا يتحدث عن الآخرين المعاصرين له ، وانما يغوص بنا في أعماق التاريخ اليهودي ليذكرنا بشخصيات لها قد سيتها بالنسبة لليهود . والشاعر لا يختار شخصياته اختيارا عشوائيا ـ وانما اختار شخصيات تحمل الأسى بين طياتها شخصيات ترمز للبكاء . واراد الشاعر هنا أن يعرض أطلال الماضي اليهودي لكي يذكر اليهود به ويقارن بينه وبين واقعهم الذي يحيونه .

ونظراً لأن حياة اليهود في الجيتو اليهودي كانت تتسم بالتدين ، فقد استغل الشعراء هذه الخاصية وحاولوا أن يدلفوا من خلالها الى قلوب العامة من اليهود ، لكى يؤثروا عليهم وينقلوا اليهم أفكارهم . واصدق مثال على ذلك يهودا ليف جوردون(١٨٣٠ ـ ١٨٣١) في قصيدته داود وبرزيلاى . ففي هذه القصيدة يروج جوردون لفكرة ان الحياة بآمالها وخيرها لم تعد صالحه للمسنين . وان الامل في حياة افضل يتعلق بالشباب . فهم وحدهم القادرون على صنع مسقبل باسم لليهود .

كما نجد أيضا ميخا ليفنزون (١٨٢٨ ـ ١٨٥٢) يستخدم قصيدته « ياعيل وسيسرا » للتعبير عن فكرة خاصة عنده ، فهو يلتقط قصة ياعيل التي كان اليهود في عصرها يئنون تحت سيطرة سيسرا ، وعاشت ياعيل فتره اضطهاد وذل مع شعبها الى أن وقع سيسرا في يدها ، فقررت الانتقام منه ، ولكن انتقامها من سيسرا ليس انتقاما شخصيا وانما هو انتقام انتقمت لكل الشعب منه .

ولعل أبرز توظيف لاستخدام الشخصية الدينية هو توظيفها لاذكاء روح البطولة والروح القومية لدى الشباب اليهودي في العصر الحديث .

ويتجلى ذلك بصورة واضحة في التركيز البالغ من كل الشعراء المحدثين تقريبا على ابراز شخصية شمشون ، وذلك في الأوقات التي كان يخوض فيها اليهود حروبا علنية أو حروبا خفية ضد أعدائهم ، سواء في الشتات أو في فلسطين .

ونحن نجد نفتالى هيرتس (١٧١٥ ـ ١٨٠٥)يستخدم شخصية موسى في محاولة لعرض الشخصية الدينية العبرية بكل اعجازها وبكل عظمتها في وقت كان اليهود فيه في امس الحاجة الى دافع نفسي يلهمهم استكمال المسيرة ، فحياة اليهود في السبي والمعاناة التي كانوا يعانونها ، دعت الى استخدام قصص الأنبياء الذين قاموا بأعمال خارقة في سبيل شعوبهم وفي سبيل اعلاء كلمة الرب .

وقد عبر فيزل عن ذلك في ديوانه الذي يحتوى على ثماني عشرة قصيدة دينية يتحدث فيها عن المعجزات التي فعلها الرب مع اليهود أثناء خروجهم من مصر الى ان وصل بهم الى سيناء .

مفهوم الاختيار بين صهيونية الدياسبور او الصهيونية الروحية

يمكننا أن نعثر في ديوان اسحق لمدان (١٨٩٩ ـ ١٩٥٤) على اربع قصائد دينية أراد ان يعبر بها عن رأيه في الحياة اليهودية وفي طبيعة التاريخ اليهودي .

فقد تناول لمدان شخصية ابراهيم وشخصية يوناه ، كما تناول شخصية يعقوب في قصيدتين .

وفي هذه الشخصيات الثلاث يرسم لمدان شخصية اليهودي المختار ، وهو الاختيار لاداء رسالة دينية ، فالنبي يوناه كان أحد الشخصيات اليهودية التي لم ترحب بحمل الرسالة فهو يقول :

لا اريد أن أكون انسانا مكروها ومطرودا في أرضك(٥)

وهو في ذلك يشبه يعقوب في قصيدة « استيقظ يعقوب » ، حيث يريد البساطة والحياة العادية :

اريد للقلب ان يغنى
ان أشعر بالراحة
أشعر بالجوع .
أشرب من جرة ماء .

وهذا من وجهة نظر لمدان تعبير عن الرفض اليهودي رفض صهيونية الدياسبورا لفكرة الاختيار ، انهم يريدون ان يحيوا الحياة ببساطتها وطبيعتها كما تعيشها الشعوب الاخرى . وهذا الرفض تكرر كثيرا لدى انبياء العهد القديم .

وفي قصيدة « لأن الشمس كانت قد غابت » يخبره بقول في البيت الاول مخاطبا الرب على لسان يعقوب :

« اين انا ياحبيبي الرهيب ، الذي احاطني بالظلمة والظلمة وهنا واضح انها ليست الظلمة الطبيعية التي تأتي ليلا ، حيث ان يعقوب شعر بها فجأة . ان الظلمة هنا صنعت خصيصا ليعقوب حتى يمكن أن تصل الرسالة . وربما يرمز لمدان هنا بالظلمة الى ذاك التخلف الفكري الذي عاشه اليهود في عصر الشاعر .

يعقوب في هذه القصيدة يرفض حب الرب له ، المفروض عليه رغم انفه ، حيث يقول :

اتركني لم أعد اريد السير رغم انفي
نحو مشنقتك المحبة ، يا حبيبي ومخادعي

وفي هذه القصيدة يبدو الرب وكأنه يشغل وظيفة شخص قوى مرعب ، غير مرغوب في وجوده .

لقد عرف يعقوب وضعه الخاص ، عرف أن الرب قد اختار شعبه ، ولكنه يخاف من هذه العلاقة مع الرب ، يخاف ان تؤدي الى رفض الانسان له ، ذلك انه قال حينما ناداه الرب :

لا ، لا اريد أن آتي لأسمع
ولا اريد أن اكون مرة اخرى
مكروها من الانسان ، محبوباً من الرب .

وفي الحقيقة فان لمدان ليس هو الاديب الوحيد الذي ناقش فكرة الاختيار الالهي لشعب اسرائيل ، فهذه الفكرة كثيرا ماترددت في الأعمال الأدبية اليهودية واختلفت فيها وجهات النظر ، كل تعبر عن التيار السياسي الذي تنتمي له .

فما هو أحاد هاعام (١٨٥٦ - ١٩٢٧) ، ممثل الصهيونية الروحية ، يتمثل هذا الاختيار لديه على أنه علاقه نبوية خاصة في الوجود اليهودي (٦) حيث يقول ان الاختيار انما هو لتحقيق العدالة المطلقة في العالم ، حيث يكون اليهودي نموذجا لباقي العالم .

وهذا التخيل الايجابي الذي رسمه آحادها عام للوجود اليهودي والاختيار اليهودي ، غير واضح في

---

(٥) اسحق لمدان ، بعليه عقرئيم . تل ابيب ١٩٤٤ ص ٢١ .

(٦) كل كتابات أحاد ها عام ، المركز الروحاني . دار نشرد فير تل ابيب ١٩٧٠) .

اعمال لمدان . فـان الاختيار في رأى أحـادها عـام هو اختيار لليهود كي يعانوا من اجل فكرة عظيمة ، وهي العدالة ، ولمدان هنا عـلى العكس من أحادهـا عام لا يعرف لماذا الاختيار ؟ ومع ذلك لا يسلم بسهولة .

أما اكثر وجهات النظر اقترابا من وجهة نظر لمدان في الاختيـار اليهودي ، هى وجهـة نـظر الاديب الالمـاني اليهـودي ، ريتشارد ، بيبـر هوفمـان ، في مسـرحيتـه الشعرية « حلم يعقوب » .

فلو اننا قارنا بين العملين لوجدنـا أن هناك عـلاقة واضحة بين كل منهما ، فان المختار في نظر هوفمان عبارة عن شخصية مترددة في قبول هذا الاختيار ، تماما كما في قصيدة لمدان فيعقوب لدى هوفمان يقول :

اريد ان أحمل (اليهوديه) كتاج ، لاكثير
لماذا اختارنا دون أن يسألنا
اذا كنا نريد الاختيار أم لا (٧)

وفي هـذه المسرحيـه يسمـع يعقـوب النقـاش بـين صموئيل والملائكة ، وأخبرته الملائكة انه اذا وافق على الاختيار فانه سيكون انسـانا ابـديا ، ولكن صمـوئيل غضب لان ما يبدو على أنه مباركة يمكن ان ينقلب الى لعنـة ، وقـالت المـلائكـة انـه سـوف يكـون « ضيـاء للشعوب » ولكن صموئيل قال ان هـذا من شأنـه أن يتضمن المعاناة وأنه بمثابة دعوة للحقد ، وبما انها رغبة الاله . . فانك ستكون مؤمنا بالرب ومكروها من العالم كله(٨) .

ويكاد هذا هو نفس ما قاله لمدان في قصيدته :

لا اريد ان اكون ـ مرة أخرى .
محبوبا من الرب ، مكروها من الناس .

ولكن وجهة نظر هوفمان في الاختيار اليهودي تركز على ان يعقوب سيكون بمثابة كبش فداء . فان الاختيار في نظره اختيار من أجل بقية الشعوب ، وقد قبل يعقوب في النهاية الاختيار ورحب به .

دع الله يلق علي ما يريد
مثل الملابس التي ارتديها ،

ان هـوفمان اعتبـر الاختيار هـو الوجـود اليهـودي نفسه ، ولكنه ليس كذلك لدى لمدان .

ففي قصيدة لمدان كان يمكن ان يكون يعقوب سعيدا لو أن الرب حدثه علنا ، في وضح النهار ، ولكنه اختار الـظلمة ، والـظلمـة هنـا رمـز للرعب ، ولهـذا قـال يعقوب :

اذا كان عندك ما تقوله لي ، فلتكن رسالة حب
انشرها تحت قدمي مثل العشب الأخضر
كسجادة الربيع الخضراء .
انشرها على العالم ، دع كل انسان يسمعها .

كما يقول أيضا :

« دعني أنضم الى صغار العالم
وكررها ثانية
سأمضي في دروب الحياة ، لا ابالي مثلهم جميعا
اكون واحدا مثل الجميع .

---

(٧) Lion , I . Yudkin . Isaak Lamdan : A study in Twentietn Century Hebrew Poetry . (London :East and West Library 1977 . P . 244 .

(٨) Ibid . P . 245 .

ان ما يريد لمدان أن يعبر عنه هنا ، على لسان يعقوب شارحا نظرة صهيونية الدياسبورا ، هو رفض الطبيعة الخاصة للشعب اليهودي .

ويعقوب لمدان مثله مثل يعقوب هوفمان ، لا يريد احلاما ، احلاما خادعة كما دعاها ، فهذه الاحلام شبيهة عن السماء .

آه يا حلم المن ، ياسراب
انه يتركني خالى الوفاض ، يجعلني صفر اليدين .

وهذا التعبير « من السماء » استعمله الشاعر حاييم نحمان بباليك (١٨٧٣ - ١٩٣٤) بسخريه في قصيدته « موتى الصحراء الأخر » ، كي يصف الروحانية الوهمية التي عاشها اليهود فترة طويلة .

لا ، لا اريد خبزا وهميا مثل المن والسلوى
يمكنك ان تأكل خبز العمل الشاق .
ثمار العمل العادي(٩)

والفقرة الأخيرة في قصيدة لمدان ، يعود بنا فيها الشاعر الى الفقرة الأولى ، حيث يعود الى الظلام مرة أخرى ، والى خوف يعقوب لأنه سيتحدث معه ثانية ، ويستمر في احتجاجه ضد الرب الى النهاية .

اتركني ، ليكن نور
فلتشرق شمسك يا الهى

فالضؤ هنا هو الامل ، وهو نقيض الظلام ، ويعقوب يستخدم هنا كلمة العهد القديم التي استخدمت في قصة الخليقة ، حيث قال الرب : « ليكن نور فكان نور »(١٠)

ولما كان الضوء عنصرا ايجابيا في قصة الخلق ، فان الادب العبري بصفة عامة ، والصهيوني بصفة خاصة ، يستخدمه أيضا عنصرا ايجابيا ، فها نحن نجد أن يعقوب يطالب بالضوء وملحقاته ، الشمس والنهار ويحتج على الرب الذي أخفى هذه الأشياء الايجابية . ان الانسان العادي يتمتع بالضوء ، ويعقوب هنا يريد ان يكون انسانا عاديا يتمتع بالضوء هو الآخر . لا يريد اى علاقة غير عادية بينه وبين الرب . ويصيح أمام الرب صيحة أخيرة - في البيت الاخير .

لا اريد بعد أن آتي ،
لا اريد ان اسمع .

وهناك قصيدة أخرى لنفس الشاعر ، عن يعقوب أيضا ، ولكنها عن موقف آخر من حياته ، وهو قصة صراعه مع الرب في مخاضه نهر اليبوق(١١) .

وفي هذه القصيدة نجد الشاعر يعيش في حالة صراع ، يعد انعكاسا للصراع الذي دار بين الصهيونيين الممثلين لصهيونية الدياسبورا وباقي الاجنحة في الحركة الصهيونية . ويتجلى هذا الصراع هنا بين الايمان بالرب والعبء الذي فرضه الرب على الشعب اليهودي ، والذي يعبر عنه في القصيدة بالمناجاة الليلية بينه وبين الرب ، ولكنه حينما ينبلج الصبح ، ويعيش الشاعر الحياة اليومية العادية يصدم بواقع آخر غير ذاك الذي وعده به الرب في المساء . وبالتالي فانه يصاب بخيبة الأمل في هذا الوعد . انه لا يريد أن يكون منتصرا ، اذا كان سيعيش هذا الصراع النفسي ، واذا كان الأمر كذلك فالهزيمة خير ، حتى يهدأ بالًا ويرتاح قلبه .

---

(٩) كل كتابات حاييم نحمان بيالك . دار نشر دفير . تل ابيب ١٩٧٢ .

(١٠) سفر التكوين . الاصحاح الاول . آى ٣

(١١) سفر التكوين الاصحاح الثاني والثلاثون آيه ٢٨/ ٢٩ .

إهزمنى مرة واحدة ، واتركنى ارتاح فى الصباح
كما يرتاح كل المنهزمين .

وإذا كان لمدان رفض هذا الصراع مع الرب الذى يتوج فى النهاية بالوعد الالهى ، فهناك شاعر آخر هو اهارون سيطلين ، يرسم لنا نفس المشهد ، ولكن من وجهة نظر أخرى ، فيقول ان هذا الصراع لم يكن صراع اعداء بقدر ما كان صراع أحبة .

وقام احد هما على الآخر كما لو كان يعانقه
بقبلات حب قويه كانا يتصارعان
وكانا جسداً واحدا فى صراعهما

وكأن الشاعر هنا قد قرأ قصيدة لمدان السابقة ، ويعارضه فى الأفكار ويرد عليه ، فها هو لمدان يقول :

« اذا كان هذا هو الحب ، فاكرهنى ياحبيبى
واتركنى أنضم الى صغار العالم

فيرد عليه سيطلين بقوله :

ياويلتاه ، ياحب الرب للانسان ،
ان البوتقه لن تخمد النيران .
الرب الذى يشكر الانسان فى قلبه .
يحاربه من فرط حبه .

ويختتم الشاعر قصيدته بدعوة صريحة منه الى قبول العهد مع الرب ، حيث أن قبول هذا العهد سيؤدى الى الفجر ، حيث اشراقة النور والحياة .

وإذا كان هذا هو مايقصده الشاعر فعلا ، فهو على النقيض تماما من لمدان فى نظرته للاختيار اليهودى . فهو هنا فى النهاية يقبل الاختيار بينما يظل لمدان حتى النهاية رافضا لفكرة الاختيار .

وهناك شاعر آخر ، بنيامين جون ، يتناول نفس الواقعة ، ولكنه يريد أن يعبر بها عن قبول العهد وعبور النهر الى حياة جديدة ، أى العبور على يد الصهيونيه الى الحياة الجديدة فى فلسطين .

والفكرة الرئيسية التى تدور حولها هذه القصيدة ، هى خوف يعقوب امام مخاضة النهر ، خوف من الماضى والحاضر فى آن واحد . انه فى الماضى كان مخادعا ، حيث خدع اباه وسرق البركة :

« انه فى مقابل خراف مشوية .
باركنى أبى . (١٢)

ولكن يعقوب ما زالت تطارده هذه اللعنة

« ما فعلته مع أبى
فعلته ليئة معى

ان يعقوب فى هذه القصيدة يعيش لحظات رعب حقيقية . ووقوفه امام مخاضة نهر اليبوق فى محاولة عبورها ، انما هو بالنسبة له عبور من اليأس الى الأمل ، عبور من حياة مليئة بالكذب والخداع الى حياة أخرى طاهرة . ولكن :

« عجزت ساقاى .

انه مازال يعيش لحظة القلق ، بين الماضى والمستقبل انها لحظه اختيار صعبة . ولكنه يقرر فى النهاية ان يعبر الى حياة نقية طاهرة ، حيث قابل أخاه ومضى الى حياة مستقبلة طاهرة نقية ، على ارض فلسطين ، بعد ان قبل العهد من الرب ، وانتقل من الشتات الى الاستقرار الصهيونى .

---

(١٢) بنيامين جون ـ « خوف يعقوب » .

مفهوم الخلاص :

لقد كتب دافيد فريشمان (١٨٥٩ - ١٩٢٢) ، قصيدة باسم « طبقين » يدور محورها عن قصة هجادية عن موسى ، حينما كان طفلا فى قصر فرعون ، وبينما كان فرعون يداعبه مديده ورفع التاج من على رأسه ، فاعتبر ذلك فألا سيئا ، الا أنهم لكى يتأكد وا من انه يعى ما يفعل وضعوا أمامه طبقين ، احدهما به جمر ملتهب والآخربه ذهب خالص ، فمد موسى يده الى طبق الجمر بعد ان اوصته الملائكة بذلك كان هذا سببا فى انه كان يتلعثم فى النطق بعد أن حرقه الجمر .

وهنا نجد ان دافيد فريشمان يشبه نفسه كداعية سابق من دعاة الهسكالاه بموسى فى أخريات أيامه ، وهو يلقى بوصاياه على يشوع ، فموسى هنا هودا فيد فريشمان نفسه ، أو بالأحرى هو جيل ماقبل الصهيونيه الذى وقف الشباب امامه ليتسلم لواء الدعوة لليهودية . ولكن موسى - جيل ماقبل الصهيونية ، يقدم نصائحه ليسوع ، الشاب ، جيل الصهيونيه ، ويعظه بألا يفعل مافعل .

وعلى كل فان هذه القصيدة تعتبر من أكثر القصائد الصهيونية تعبيرا مباشرا ، كما أنها تحمل فى طياتها دعوة صريحة لاستعباد البشر والى اتباع كافة الوسائل نحو الوصول الى الهدف .

وفى هذه القصيدة نجد أن الجيل القديم من اليهود مصر على ألا يخذله الشباب اليهودى ويتخلى عن حمل الامانه ، اى لواء الدعوة للصهيونيه .

لااستطيع ، من الآن لم أعد استطيع العمل
ولكنك انت ياتلميذى موفور الصحة
وروحك تفيض بدم الشباب .
جسدك غض !! اورثنى
واعبر نهر الاردن . . . مالك ارتعدت ؟
لاتجعلنى ارى أن سلامى قد ضاع منى .

فى هذه الفقرة الثانية نجد ان الشاعر لا يثق ثقة مطلقة فى الشباب اليهودى « مالك ارتعدت » . وقد وضع الشاعر ثلاث نقاط قبل هذه الجملة للدلالة على ان هناك حوار ما دار بينهما ، ارتعد بعده الجيل الشاب لسماع هذه الأفكار . ان الجيل الشاب لايريد ان يرث القديم ، ولايريد ان يعبر الاردن . وعبور الاردن هنا هو عبور نحو تحقيق الهدف اليهودى المتمثل فى الصهيونية ، فعبور نهر الأردن هو تجسيد لحلم الصهيونية بانشاء وطن قومى وها نحن نجد الجيل القديم يستعطف الجيل الشاب لقبول العبء .

« لاتجعلنى ارى ان سلامى قد ضاع منى » .

وهناك احساس لدى الجيل اليهودى القديم بالفشل . انه لم يستطع حتى هذه اللحظة ان يحقق هدفه ، لم يحول الاحلام الى حقيقة ، وبالتالى فانه ينصح الجيل الشاب بالا يتخذه مثالا له . ان الجيل القديم يعتقد ان السماء قد وهبت الجيل الشاب فرصة عظيمة لم تمنحها لمن سبقوه ، وبالتالى لايجب عليهم ان يضيعوها :

« لا تأخذنى مثالا لك .
فأنا رجل أحلام .
رؤاى واحلامى
انتهت ، زالت - ولكن انت
أمطرت عليك السماء هبات عظيمة
فى يدك مصيرك ، والمستقبل الآن
ولانك رجل عمل ، عامل وقوى
فان آلام الحالم بالزهور ، ويقبض الريح
غريبة عنك وعجيبة .

ثم يبدأ الشاعر بعد ذلك فى سرد القصة المجادية ، مؤكدا أن موسى ـ الذى يمثل جيل ماقبل الصهيونية (الهسكالاه) قد اختار طريقا خاطئا ، لقد اختار الجمر ، وبالتالى فان وصيته لتلميذه ـ الجيل الجديد من اليهود (الصهيونية) الا يقع فى نفس الخطأ ، وعليهم أن يختاروا الطريق الاخر ، الطريق الذى سيؤدى بهم الى عبور الآمال وتحقيقها .

« قم انت واعبر نهر الاردن
وانه بحكمه آخر أعمالى

وتبرز النعرة العنصرية فى هذه القصيده بصورة جلية . ان عبور نهر الاردن بالنسبة لهم رمز ـ رمز للعبور نحو الآمال . ولكن النصيحة التى يوجهها الشاعر للجيل الجديد ويركز عليها دائما هى استخدام العنف ، واستخدام كافة الوسائل للوصول الى الهدف ، ذلك لان الهسكالاه ، فى رأيه ، فشلت فى تحقيقه ،

« فانا عرفتك ، لا يضعف فيك قلبك
لرؤية رجل فاشل
فقط ، لاتختر طبق الجمر

والشاعر يعظ الجيل الجديد من اليهود (الصهيونية) باختيار طبق الذهب ، واستخدام القوة :

بيدك القوية ، وبيأس قلبك
تعرف كيف تثقل نيرهم
فيكونوا عبيدا لك الى الابد
يلعقون لعابك .
فقط ، لاتختر طبق الجمر
« ستسير مختالا على رؤوس الفقراء
ويكثر عبيدك ويكون لك اماء .
وحينما تختار طريقا غير طريق الهسكالاه ،
« حينئذ ستنجح ، وستسوس البؤساء بالقوة
ستوبخهم فينسوا آلامهم
ستوبخهم فينسوا ثأرهم

والشاعر فى نهاية القصيدة يشد من ازر جيل الصهيونيه ، ويحثهم على عدم التراجع عن الطريق السليم الذى اختاره لهم ، حتى اذا كان هناك بقية من ضعف فى داخلهم ، ليحطموها ويواصلوا السير نحو الهدف .

« واذا كان هناك قبس واحد فى قلبك
أوحينما تنتابك الهواجس
حينئذ ، دمرها أيضا .
ولاتكن مثلى أبدا .

ولأن فريشمان عاش فى فترة انتقالية فى الادب العبرى ، وهى فترة لم تكن قد تبلورت فيها الاهداف بعد ، حيث كان هناك انتقال من فكر الهسكالاه الى الفكر القومى ، فلا تكون مغالين اذا ما قلنا أن هذه الفترة كانت بالنسبة للادب العبري فترة قلق ، فهو لا يعرف اين كان يسير والى اين تأخذه الرياح . ويؤكد ذلك قصيدة أخرى لفريشمان باسم « موسى » ، حيث يشير فيها ، مشبها موسى بالهسكالاه ، الى انها رجل مريض لم يفعل شيئا طوال ياته .

أعبثا كنت
كرست كل أيامى لشعبى
ولم أفعل شيئا

ان الهسكالاه قدمت لليهود الصحوة والانتفاضه نحو الهدف ، ولكنها فى رأى فريشمان لم تؤد الى شىء ، لقد تركت الشعب يترنح بين الماضى والمستقبل .

أخرجت شعبى من العبودية .
العبوديه التى كرهتها .

ولكنى لم ادخل شعبى هذا
الى الحرية .

ويرى فريشمان انه كان من الخير لحركة الهسكالاه ألا تبرأ طالما انها لم تؤد الى نتيجة فعليه لنقل اليهود الى الحريه الحقة .

« لم يحتل لهم ارضا أخرى
من الخير له ان لم يبدأ
خير الا يخرجهم من العبودية
اذا لم يستطع أن يمنحهم الحرية .

وهناك شاعر آخر ، اسحق كسنلسون ، يرى ان هذا هو قدر الهسكالاه ، فقد رها أن تشير الى الهدف ، مثلما فعل موسى حينما وقف فوق الجبل ورأى فلسطين ، ولكن لايجب أن يشرع فى الوصول اليه ، لان هذه مهمة الجيل التالى :

اعترف اننى لااستطيع
ان احلق مثل هذا الطائر
الى ارض الظباء (١٣)

التحفيز البطولى فى الفكر الصهيونى :

لاشك ان شمشون منذ أقدم العصور وحتى الآن يرمز الى البطولة والفداء وانكار الذات . وهذه الشخصية ، التى لعبت دورا بارزا فى الوجدان اليهودى فى العصور القديمة ، اختلفت طريقة تناولها ، أدبيا ، من عصر لآخر فشعراء الهسكالاه الذين استخدموا هذه الشخصية لم يجدوا فيها ما يغريهم يتناولها ، فربما كان فى هذه الشخصية مايبعد شعراء الهسكالاه عنها نظرا للطبيعة الخاصة لحركة الهسكالاه . فهذه الشخصيه تحمل فى طياتها مفهوم الانتقام بعد الغش والخداع الذى تعرضت له ، وما كان من الممكن لحركة الهسكالاه ، ان تتناول هذا الموقف خاصة وانها تدافع عن الانفتاح والتسامح مع الشعوب الاخرى التى يعيش اليهود بين ظهرانيها ، اذن فهذه الشخصية لاتخدم أهداف الهسكالاه .

ولكن شعراء الصهيونيه كانت لهم نظرة خاصة بهم نابعة من الفكر الفلسفى لهذا العصر ، فالعصر عصر احياء القوميات ، واليهود يبحثون لأنفسهم عن قومية ، فتذكر الشاعر العبرى فى هذه الفترة ، شمشون ، ولكنه تذكره من خلال زاوية معينة تطابق أهداف العصر وأهداف الحركة . لقد تذكره فى أيامه الأخيرة وهو فى غزة يتطلع الى الارض الفلسطينية وكله حسرة عليها .

فنرى شاعرا مثل يعقوب فيخمان (١٨٨١ - ١٩٥٨) يقول ان شمشون ، الذى يمثل فى نظره الجيل الذى قاربت شمسه على الغروب ، كان يشتاق كثيرا الى أرض الفلسطينيين بكل بهائها وعظمتها ، بكل حقولها الواسعة وحدائقها الغناء . ولكنه ما أن وضع قدمه فيها حتى شعر بالغربة ، وأحس بالحنين الى وطنه ، فمهما قدمت له هذه الارض من خيراتها فلن تغنيه ابدا عن الحنين لأرضه ووطنه الذى تربى فى ربوعه .

حينما كنت شابا أخذ قلبى بمشهد السهل
احببت أتساع أفقه الازرق
الذى تغرب وتضيع الشمس داخله

كنت طفلا حينما أحببت أن تطأ قدماى
عشب حقولها الندى
ان اشعر بسجادتها الخضراء النابتة

---

(١٣) اسحق كسنلون « موسى على جبل عباريم » .

بطراوة هذه الارض المباركة
تحت قدمى الساخنة
كم أخذت عيناى المشتاقة
بعظمة حقولها ، بسنابلها المرتفعة
التى تهتز فى ضوء الشمس
كبيارق الأمل .

فالشاعر هنا يقول انه حينما كان شاباً ، تاقت قدماه ان تطأ هذه الارض القريبة التى حسنت فى عينيه ، والتى نظر الى حقولها على انها بيارق الامل بالنسبة له . ولكنه ما أن عاش فيها حتى بدأ يشعر بالغربة . ولكن العمر تقدم به ، فهو لم يعد قادرا على العمل بمفرده ويريد ان يسلم الراية للجيل التالى له :

وانا ـ هذا قدرى ان أحمل الى وادى
الاغراب ثمار خيالى ، ابدد قواى
وانا على حقول الاغراض ، يصعب على
ان أحمل بقايا قواى بمفردى

ومامن فتى فى كل آلاف الاسباط ، احاربه
من أجل أن يشرب كل القوة
التى جمعتها وحفظتها له
من أجل أن أعطيه كل حبى

اما شعراء فلسطين ، فقد اختلفت نظرتهم عن نظرة الهسكالاه والقومية ، فشعراء فلسطين ليس لديهم ما يضحون من أجله ، وليست هناك مغريات تخدعهم ، فقد تحقق الهدف . واستقروا فى فلسطين ، فليس هناك من داع للتغنى باستخدام القوة والى التحذير من الغش والخداع ، فقد استخدم هذا الجيل قصة شمشون ليعبر بها عن مضمون آخر نابع من البيئة المحلية ومن الظروف المحيطة بهم فى وضعهم الجديد . لقد وصلوا الى الهدف ، ولكن الهدف كان سرابا ، خدعة ، فانهم لم يصلوا الى الراحة المنشودة والاستقرار الدائم ، فحياتهم دائما مليئة بالقلق ، نتيجة لعدم استقرار الحياة بالنسبة لهم فى فلسطين .

***

من الشرق والغرب

الإسلام والتنمية الاقتصادية

محمد شوقي الفنجري

المستشار بمجلس الدولة
واستاذ الاقتصاد الاسلامي المنتدب بجامعتي الازهر
والرياض

تمهيد

١ ـ الاسلام والمشكلة الاقتصادية :

التنمية الاقتصادية ، هي من أهم الاصول واولى المبادىء التي جاء بها الاسلام في المجال الاقتصادي . ذلك ان الاسلام ومنذ ظهوره من أربعة عشر قرنا ، وضع المشكلة الاقتصادية ، وهي مشكلة الفقر والتخلف ، منذ البدء وقبل ان تتطور الاحداث وتفرض المشكلة نفسها ، حيث يجب ان توضع في الاساس والمقدمة .

٢ ـ الصيغة الاسلامية للتنمية الاقتصادية :

والتنمية الاقتصادية في الاسلام ، هي تنمية متكاملة بمعنى الشمول والتوازن ، بهدف تنمية الانسان نفسه . ولعل أدق وصف لدولة الاسلام : أنها دولة التنمية الاقتصادية الشاملة لكل من التقدم المادي والروحي ، والمتوازنة لكل من كفاية الانتاج وعدالة التوزيع ، مستهدفة بذلك تنمية الانسان نفسه ليكون بحق خليفة الله في أرضه .

ومن ثم فان قيمة أي حكم في أي بلد اسلامي ، هو بقدر ما يحققه من تنمية متكاملة : سواء من الناحية المادية والروحية ، أو من ناحية الكفاية والعدل أي كفاية الانتاج وعدالة التوزيع . وإنه بهذا المعيار المحدد ، تتبين صلاحية أو فساد الحكم القائم في أي مجتمع اسلامي ، وهو ما عبر عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله (ان الله استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ونوفر لهم أمنهم ، فان لم نفعل فلا طاعة لنا عليهم) .

٣ ـ الاسلوب الاسلامي لتحقيق التنمية الاقتصادية :

والتنمية الاقتصادية في الاسلام ، هي مسئولية الفرد والدولة معا . ولعل ذلك مما يميز الاقتصاد الاسلامي

ويبرز تفرده عن الاقتصاديين السائدين الرأسمالي والاشتراكي ، وذلك في مجال التنمية الاقتصادية ، كما هو شأنه في سائر المجالات الأخرى .

اكثر من ذلك فان الاسلام في اعترافه بالملكية سواء كانت خاصة أو عامة ، وفي نظرته اليها وتنظيمه لها ، إنما اقامها باعتبارها وسيلة إنمائية أي حافزا من حوافز التنمية . وعليه فان الملكية سواء كانت خاصة أو عامة وباعتبارها في كلتا الصورتين على نحو ما سنبينه ، امانة ومسئولية واستخلافا ، بحيث تسقط شرعيتها اذا لم يحسن الفرد أو الدولة استخدام هذا المال استثمارا او إنفاقا في مصلحته ومصلحة الجماعة .

٤ ـ الضمانات الاسلامية لنجاح التنمية الاقتصادية واستمرارها :

واذ اعتبر الاسلام تنمية الانسان ليكون بحق خليفة الله في أرضه بقوله تعالى (اني جاعل في الأرض خليفة) (١) ، وهو غاية حياته وسبب وجوده بقوله تعالى (هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها) (٢) أي كلفكم بعمارتها ، وهو في نفس الوقت سبيل سعادته في الدنيا والآخرة بقوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) (٣) ؛ فقد حرص الاسلام على إيجاد أو توفير ضمانات أو ركائز لتحقيق هذه التنمية واستمرارها . لعل أبرزها إيجاد ملكية عامة تساند التنمية ، وترشيد الاستهلاك ، وتوجيه الفائض الاقتصادي لأغراض التنمية ، وتطلب المشاركة الشعبية في عمليات التنمية الاقتصادية ، ومراعاة أولويات التنمية بتقديم الأهم فالمهم ، والأخذ بالأساليب العلمية والتقنية الحديثة الملائمة للمجتمع . . . الخ .

ولعل اكبر ضمان لنجاح جهود التنمية الاقتصادية واستمرارها ، هو ارتفاع الاسلام بالتنمية الى مرتبة العبادة ، بل هي في نظره من أفضل ضروب العبادة ومن أقوى علامات الايمان والتقوى . وان التنمية الاقتصادية اليوم ، وقد اشتدت الفجوة بين الشعوب المتقدمة والشعوب النامية ومنها الامة الاسلامية عامة والعربية خاصة ، تتطلب تعبئة جميع المواطنين لها بحيث نعلنها حربا مقدسة ضد التخلف الذي هو أبرز صور المنكر في العصر الحديث ويؤدي الى الكثير من المساوىء الاجتماعية والانحرافات الخلقية .

٥ ـ المفكرون المسلمون أول من عالج قضايا التنمية الاقتصادية :

ولاهمية التنمية الاقتصادية المتكاملة ، في نظر الاسلام ، والتي تستهدف رقي الانسان ماديا وروحيا ، وكفاية وعدلا ؛ كان المفكرون المسلمون منذ ظهور الاسلام ، اول من عالج قضايا التنمية الاقتصادية ، وان جاء ذلك بين ثنايا كتب الفقه المختلفة وجوانب الهوامش والمتون .

أكثر من ذلك فان أولى المؤلفات العلمية في مجال التنمية الاقتصادية ، كانت لعلماء مسلمين سبقوا العلماء الأجانب بعدة قرون ، أمثال الامام ابويوسف في كتابه الخراج ، والرائد الاقتصادي ابن خلدون في مقدمته المشهورة باسمه ، والفقيه الاقتصادي ابن الدلجي في كتابه الفلاكه والمفلوكون اي الفقر والفقراء .

٦ ـ ضرورة عقد مؤتمر قمة عربي وآخر اسلامي للتنسيق بين خطط التنمية ومعالجة عوائقها :

ولقد آن الأوان لعقد مؤتمر قمة عربي وآخر اسلامي

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم ٣٠ .

(٢) سورة هود ، الآية رقم ٦١ .

(٣) سورة الاسراء ، الآية رقم ٧٢ .

للتنسيق في خطط التنمية الاقتصادية على المستويين العربي والاسلامي ، من أجل البناء المشترك والمتكامل للوطن العربي ككل والعالم الاسلامي ككل .

وتزداد اليوم اهمية مثل هذا المؤتمر او ذاك التنسيق وضرورته الملحة ، أن اكثر ما تعانيه كل دولة عربية أو اسلامية على حدة من عوائق التنمية ، تجد حله متوافرا ومتواجدا لدى الدولة الاخرى . ونخص بالذكر على سبيل المثال قضية الأمن الغذائي ، والمشكلة السكانية ، وقضية الانفاق العسكري المتزايد ، ومشكلة التمويل ، وقضايا التعليم والكفاية البشرية . . . الخ .

وعلى ضوء هذا التمهيد ، نعالج ما تقدم باختصار شديد ، في الفروع التالية :

الفرع الاول : الاسلام والمشكلة الاقتصادية .

الفرع الثاني : الصيغة الاسلامية للتنمية الاقتصادية .

الفرع الثالث : الاسلوب الاسلامي لتحقيق التنمية الاقتصادية .

الفرع الرابع : الضمانات الاسلامية لنجاح التنمية الاقتصادية واستمرارها .

الفرع الخامس : المفكرون المسلمون اول من عالج قضايا التنمية الاقتصادية .

الفرع السادس : ضرورة التنسيق في خطط التنمية على المستويين العربي والاسلامي .

الفرع الاول
الاسلام والمشكلة الاقتصادية

١ - إهتمام الاسلام بالجانبين المادي والروحي على قدم المساواة :

لقد جاء الاسلام بمنهج كامل للحياة ، يهتم بالجانب المادي في حياة البشر بقدر ما يعني بالجانب الروحي . ذلك لانه لا قوام لجانب دون آخر ، وكلاهما يتأثر بالآخر ويؤثر فيه .

فاذا كان حقا ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، فانه أيضا بدون الخبز لا يستطيع ان يحيا الانسان .

٢ - الاسلام يضع مشكلة الفقر والتخلف في المقدمة والصدارة :

لذلك وضع الاسلام المشكلة الاقتصادية ، وهي مشكلة الفقر والتخلف ، وذلك منذ البدء وقبل ان تتطور الأحداث وتفرض المشكلة نفسها ، حيث يجب ان توضع في الاساس وفي المقدمة . ومن قبيل ذلك انه اعتبر المال زينة الحياة الدنيا وقوام المجتمع ، وانه نعم العون على تقوى الله ، وان طلب المال الحلال فريضة وجهاد في سبيل الله (٤) .

أكثر من ذلك ، لقد ساوى الاسلام بين الفقر والكفر ، ولم يستعذ الرسول صلى الله عليه وسلم من شيء بقدر استعاذته من الفقر ، فيقول عليه السلام (كاد الفقر ان يكون كفرا) (٥) ، ويقول (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر) فلما سأله احدهم : أيعدلان ، قال : نعم . (٦)

---

(٤) انظر كتابنا « الاسلام والمشكلة الاقتصادية » ، طبعة سنة ١٩٧٨ ، ص ٤٩ وما بعدها ، لناشره مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة .

(٥) اخرجه الطبراني في الأوسط ، والسيوطي في الجامع الصغير .

(٦) اخرجه ابو داود والنسائي وابن ماجه .

٣ ـ ارتباط العبادة بتأمين الناس في حياتهم المعيشية :

ذلك ان الاسلام حين طالب الناس بالعبادة وذكر الله تعالى ، علله في القرآن بقوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٧) وان موسى عليه السلام حين دعا الله بقوله (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) (٨) قرنه بقوله (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) (٩) .

أكثر من ذلك ، اعتبر الاسلام مجرد ترك أحد الأفراد المجتمع ضائعا او جائعا هو تكذيب للدين نفسه ، فيقول تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) (١٠)

الفرع الثاني
الصيغة الاسلامية للتنمية الاقتصادية

نستطيع أن نلخص الصيغة الاسلامية للتنمية الاقتصادية بأنها تنمية شاملة ، ومتوازنة ، غايتها الانسان نفسه ليكون بحق خليفة الله في أرضه .

١ ـ فأما انها تنمية شاملة :

فذلك لانها لا تستهدف رقي الانسان ماديا فحسب ، وانما روحيا بصفة أساسية .

والروحانية في الاسلام ، ليست كما يتصور البعض مسألة ميتافيزيقية أو غيبية ، وانما هي العمل الصالح ايمانا بالله واعتبارا ومراعاة له تعالى ، سواء كان ذلك الايمان او تلك المراعاة والاعتبار المتأصلة في العقل والنفس ، والمتمثلة في النشاط والسلوك ، مردها خشيته تعالى والخوف من عقابه ، او كان مردها ابتغاء مرضاته والفوز بجنته .

فالاسلام كما سبق أن أوضحنا بكتابنا ذاتية السياسة الاقتصادية الاسلامية ، لا يعرف الفصل بين ما هو مادي وما هو روحي ، ولا يفرق بين ما هو دنيوي وما هو أخروي . فكل نشاط مادي أو دنيوي يباشره الانسان ، هو في نظر الاسلام عمل روحي أو أخروي ، طالما كان مشروعا وكان يتجه به الى الله تعالى (١١) . فالله تعالى ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه ، اي ليعملوا عملا صالحا ، والايمان في الاسلام ليس ايمانا مجردا Abstracte ولكنه ايمان محدد Concreteمرتبط بالعمل الصالح .

وان مبدأ الشمول في التنمية الاقتصادية الاسلامية ، يقتضي ان تضمن التنمية كافة الاحتياجات البشرية من مأكل وملبس ومسكن ونقل وتعليم وتطبيب وترفيه وحق العمل وحرية التعبير وممارسة الشعائر الدينية . . . الخ ، بحيث لا تقتصر التنمية على اشباع بعض الضروريات او الحاجيات دون الاخرى .

ومن هنا لا يقبل الاسلام تنمية رأسمالية تضمن حرية التعبير ولا تضمن لقمة الخبز ، كما لا يقبل اشتراكية تضمن لقمة الخبز وتقتل حرية التعبير .

٢ ـ واما انها تنمية متوازنة :

فذلك لانها لا تستهدف الكفاية فحسب اي زيادة الانتاج بقوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم

---

(٧) سورة قريش ، الآية رقم ٣ ، ٤ .

(٨) سورة طه ، الآية رقم ٢٥ ، ٢٦ .

(٩) سورة طه ، الآية رقم ٣٣ ، ٣٤ .

(١٠) سورة الماعون ، الآيات من ١ الى ٣ .

(١١) انظر كتابنا « ذاتية السياسة الاقتصادية الاسلامية واهمية الاقتصاد الاسلامي » ، طبعه سنة ١٩٧٨ ، ص ٥٤ وما بعدها ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة .

ورسوله والمؤمنون) (١٢) ، وانما تستهدف اساسا العدل اي عدالة التوزيع بقوله تعالى (أعدلوا هو أقرب للتقوى) (١٣) ، بحيث يعم الخير جميع البشر أيا كان موقعهم في المجتمع وأيا كان مكانهم في الكون . ذلك ان هدف الاسلام من التنمية الاقتصادية ، هو ان يتوافر لكل فرد ، أيا كانت جنسيته أو ديانته اي بصفته انسانا ، حد الكفاية لا الكفاف اي المستوى اللائق للمعيشة بحسب زمانه ومكانه لا مجرد المستوى الادنى اللازم للمعيشة ، بحيث يستشعر نعم الله وفضله ، فيتجه تلقائيا الى حمده وشكره تعالى وعبادته . ذلك الحمد والشكر الذي يعبر عنه في الاسلام بالقول والامتنان فحسب وانما اساسا بالعمل والاخلاص فيه لقوله تعالى(اعملوا آل داود شكرا) (١٤) ، وتلك العبادة التي لا تتمثل في الاسلام بالصلاة والتوجه الى الله فحسب وانما اساسا بخدمة الغير ومد يد المعونة لكل محتاج لقوله تعالى (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف او إصلاح بين الناس) (١٥) .

فالاسلام كما سبق أن أوضحنا بكتابنا « الاسلام والمشكلة الاقتصادية » اذ يتطلب زيادة الانتاج يستلزم في نفس الوقت عدالة التوزيع ، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر . فوفرة الانتاج مع سوء التوزيع هو احتكار واستغلال لا يسلم به الاسلام ، كما ان عدالة التوزيع دون انتاج كاف هو توزيع للفقر والبؤس مما يرفضه الاسلام (١٦) .

ومن ثم لا يقبل الاسلام تنمية رأسمالية تستهدف تنمية ثروة المجتمع دون نظر الى توزيع هذه الثروة . واذا كانت التنمية الاشتراكية تؤكد العلاقة بين أشكال الانتاج والتوزيع ، الا أنها ترى ان نظام التوزيع يتبع دائما شكل الانتاج ، في حين يرفض الاسلام هذه التبعية بحيث أيا كانت أشكال الانتاج السائدة فانه يضمن اولا حد الكفاية لكل فرد وذلك كحق الهي مقدس يعلو فوق كل الحقوق ثم بعد ذلك يكون لكل نصيبه تبعا لعمله وجهده ، وبحيث اذا لم يتوافر حد الكفاية لكل مواطن وهو ما لا يكون الا في ظروف استثنائية كمجاعة او حرب التزم الجميع بحد الكفاف (١٧) .

وان مبدأ التوازن في التنمية الاقتصادية ، يقتضي ان تتوازن جهود التنمية . ومن ثم فانه لا يقبل في الاسلام ان تنفرد بالتنمية المدن دون القرى ، او ان تستأثر الصناعة بالتنمية دون الزراعة ، او ان تتجاوز نسبة الزيادة السكانية معدلات التنمية ، او ان تقدم الكماليات او التحسينات على الضروريات او الحاجيات ، او ان تسبق الصناعات الثقيلة او المستوردة الصناعات الاستهلاكية او المحلية ، او ان يركز على البناء والتشييد دون توفير المرافق العامة والتجهيزات الاساسية . . . الخ ، الاخطاء العديدة التي وقعت فيها مختلف الدول العربية والاسلامية ، مقلدة دون وعي تجارب شرقية او غربية ، غافلة او جاهلة الصيغة الاسلامية بضرورة التوازن الانمائي .

---

(١٢) صورة التوبة ، الآية رقم ١٠٥ .

(١٣) سورة المائدة ، الآية رقم ٨ .

(١٤) سورة سبأ ، الآية رقم ١٣ .

(١٥) سورة النساء ، الآية رقم ١١٤ .

(١٦) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية ، مرجع سابق ، ص٥٨ .

(١٧) انظر المرجع السابق ، ص ٧٥ وما بعدها .

ولا شك ان التنمية الاقتصادية غير المتوازنة التي نراها في أغلب دول العالم الاسلامي مركزة على جزء من الاقتصاد القومي دون بقية الأجزاء ، هي تنمية مشوهة ، بل هي في حقيقتها تنمية للتخلف اذ تزيد من تدهور بقية الأجزاء .

٣ ـ واما ان غايتها الانسان نفسه ليكون بحق خليفة الله في أرضه ، فذلك ما يحدد بواعث او غاية التنمية الاقتصادية الاسلامية وآثارها .

ففي التنمية الرأسمالية ، الباعث هو تحقيق أكبر قدر من الربح ، مما يؤدي عادة الى الانحراف بالانتاج عن توفير احتياجات المجتمع الضرورية مع وفرة انتاج السلع الكمالية التي يطلبها الاغنياء والمترفون ، وما يصاحب ذلك من سيادة المادة ومختلف المساوىء الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الغربية .

وفي التنمية الاشتراكية ، الباعث هو سد احتياجات الدولة وفق اطماع وسياسات القائمين على الحكم لا وفق احتياجات ورغبات المواطنين انفسهم ، مما يهدد كلية حرية الفرد ويجعل منه مجرد ترس او اداة لا غاية .

اما التنمية الاسلامية فباعثها ليس الربح شأن التنمية الرأسمالية ، ولا أهواء القائمين على الحكم شأن التنمية الاشتراكية ، وانما هو توفير حد الكفاية لكل مواطن ليتحرر من أية عبودية او حاكمية إلا عبودية وحاكمية الله وحده .

فغاية التنمية الاسلامية هو الانسان نفسه لا تستعبده المادة شأن التنمية الرأسمالية ، ولا يستذله الغير شأن التنمية الاشتراكية ، وانما محررا مكرما يعمر الدنيا ويحييها بالعمل الصالح ليكون بحق خليفة الله في أرضه .

الفرع الثالث

الاسلوب الاسلامي لتحقيق التنمية الاقتصادية

يقوم الاسلوب الاسلامي لتحقيق التنمية الاقتصادية على أساس تعاون الفرد والدولة معا لكل مجاله ، بحيث يكمل كلاهما الآخر ولا يغني احدهما عن الآخر . ومن هنا كان اعتراف الاسلام بالملكية المزدوجة الخاصة والعامة ، كلاهما على قدم المساواة يتحملان معا مسئولية التنمية . اكثر من ذلك فان الاسلام في اعترافه للملكية سواء كانت خاصة او عامة ، وفي نظرته اليها وتنظيمه لها ، انما اقامه باعتبارها وسيلة انمائية اي حافزا من حوافز التنمية .

١ ـ ففي الاقتصاد الرأسمالي : التنمية هي في الاساس مسئولية الفرد أو القطاع الخاص .

بخلاف الاقتصاد الاشتراكي . فان التنمية هي في الأساس مسئولية الدولة أو القطاع العام .

اما في الاقتصاد الاسلامي : فانها في الاساس مسئولية الفرد والدولة معا اي القطاعين الخاص والعام ، لكل مجاله بحيث يكمل كلاهما الآخر ولا يغني أحدهما عن الآخر ، وبحيث لا تزداد أو تقل مسئولية أي منهما إلا بقدر ما تتطلبه طبيعة وظروف التنمية في كل مجتمع .

٢ ـ ازدواج الملكية في الاسلام :

ومن هنا كان من اهم الأصول الاقتصادية الاسلامية ، على نحو ما سنعرض له في مطلب مستقل ، مبدأ ازدواج الملكية الخاصة والعامة ، يساهمان معا على قدم المساواة في عمليات التنمية ، كلاهما كأصل وليس استثناء ، وكلاهما يكمل الآخر فلكل مجاله بلا تعارض او اصطدام حيث لا تقوم الدولة الا بأوجه النشاط

الاقتصادي التي يعجز او يقصر الافراد عن القيام بها كمد السكك الحديدية وتعمير الصحاري وصناعة الاسلحة . . . الخ .

٣ ـ شرعية الملكية باعتبارها وسيلة انمائية :

واننا نسجل بحق ان الاسلام في اعترافه للملكية سواء كانت خاصة أو عامة ، وفي نظرته اليها وتنظيمه لها ، انما أقامه اعتبارها وسيلة انمائية اي حافزا من حوافز التنمية ، بحيث تنتفي او تسقط شرعية الملكية سواء كانت خاصة أو عامة اذا لم يحسن الفرد أو الدولة استخدام هذا المال استثمارا أو إنفاقا في مصلحته ومصلحة الجماعة . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير سيدنا عمر بن الخطاب حين قال لبلال وقد أعطاه الرسول أرض العقيق : (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك لتحجز عن الناس وانما اقطعك لتعمل ، فخذ ما قدرت على عمارته ورد الباقي) .

ومن هنا ندرك :

(أ) لماذا نهى الاسلام بشدة لا مثيل لها عن اكتناز المال وحبسه عن الانتاج والتداول بقوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (١٨) ، ويقول الرسول عليه السلام (من جمع دينارا أو تبرا أو فضة ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كنز يكوى به يوم القيامة) (١٩) .

(ب) ومن هنا ندرك ايضا لماذا ينهى الاسلام بشدة بالغة عن صرف المال بغير حق في ترف أو سفه حتى أنه وصف المترفين بالمجرمين بقوله تعالى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) (٢٠) ، ووصف المبذرين بأنهم اخوان الشياطين بقوله تعالى : (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) (٢١) ، وكيف أنه أجاز الحجر على السفيه .

(جـ) ومن هنا ندرك كذلك لماذا لا يسلم الفقهاء للحاكم بنزع الملكية الخاصة أو التأميم أو التوسع في الملكية العامة ، الا بقدر ما تقتضيه المصلحة العامة واخصها العمران والتنمية الاقتصادية ، ويعبرون عن ذلك بان (الامام مخير فيها تخيير مصلحة لا تخيير شهوة) .

(د) ومن هنا ندرك أيضا لماذا ربط الاسلام بين الايمان والانفاق في سبيل الله أي في سبيل المجتمع وتغييره . بل انه جعل ذلك الانفاق أو التعمير هو علامة الايمان والتقوى ، وهو شرطه الأساسي حتى انه ما من آية أو حديث نبوي يتكلم عن الايمان والتقوى الا ويقرنه بالانفاق في سبيل الله أي في سبيل المجتمع وتنميته .

ولقد عبر القرآن الكريم عن الفائض الاقتصادي ، الذي هو مصدر تمويل عمليات التنمية الاقتصادية ، بتعبيرات العفو والفضل ، وهو كل مازاد عن الحاجة بغير سرف أو ترف . ودعا الى ضرورة انفاقه كله في سبيل الله ، أي في سبيل المجتمع وتنميته ، بل جعل ذلك كما اسلفنا علامة الاسلام وشرط الايمان .

---

(١٨) سورة التوبة ، الآية ٣٤ و ٣٥ .

(١٩) الجامع الصغير للسيوطي .

(٢٠) سورة هود ، الآية ١١٦ .

(٢١) سورة الاسراء ، الآية ٢٧ .

الفرع الرابع

الضمانات الاسلامية لنجاح التنمية الاقتصادية واستمرارها

١ ـ اعتبر الاسلام تعمير الكون وتنمية الانسان ليكون بحق خليفة الله في ارضه بقوله تعالى (اني جاعل في الارض خليفة) (٢٢) ، هو غاية خلقه ووجوده بقوله تعالى (هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها) (٢٣) أي كلفكم بعمارتها . فلم يخلق الله الانسان في هذه الدنيا عبثا أو لمجرد أن يأكل ويشرب ، وانما خلقه لرسالة يؤديها ، هي أن يكون خليفة الله في أرضه : يدرس ويعمل ، وينتج ويعمر ، عابدا الله شاكرا فضله ، ليقابله في نهاية المطاف بعمله وكدحه بقوله تعالى (ياأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه) (٢٤) . بل لقد جعل الاسلام صدق الكدح أو بطلانه هو سبيل سعادة المرء او شقائه في الدنيا والآخرة ، بقوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) (٢٥) .

٢ ـ ولقد بلغ حرص الاسلام على التنمية الاقتصادية وتعمير الدنيا ، ان قال الرسول عليه الصلاة والسلام (اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ أي شتلة ـ فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر) (٢٦) ، ويقول عليه السلام (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو بهيمة الا كان له به صدقة) (٢٧) .

ومن هنا فقد سخر الله تعالى للانسان كل ما في السموات والارض بقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه) (٢٨) . ودعاه الى الانتشار في الارض يحييها وينعم بخيراتها ويسبح بحمده بقوله تعالى (فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (٢٩) ، وقوله تعالى (ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش) (٣٠) اي هيأ لكم السيطرة على الأرض عن طريق تعميرها وتنميتها .

٣ ـ ومن هنا كان حرص الاسلام على توفير ضمانات أو ركائز لتحقيق هذه التنمية واستمرارها . لعل أبرزها مما نعرض له فيما يلي ، الارتفاع بالتنمية الاقتصادية الى مرتبة العبادة والفريضة ، وتطلب المشاركة الشعبية في عمليات التنمية ، والأخذ بالأساليب العملية والتقنية الملائمة ، وترشيد الاستهلاك ، وتوجيه الفائض الاقتصادي لأغراض التنمية ، ومراعاة أولويات التنمية بتقديم الأهم فالمهم ، والمعالجة الجذرية لمعوقاتها خاصة ما تعلق بالامية والانفاق العسكري المتزايد . . . الخ .

اولا : الارتفاع بالتنمية الاقتصادية الى مرتبة العبادة :

١ ـ لعل اكبر ضمان لنجاح التنمية الاقتصادية

---

(٢٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٣٠ .

(٢٣) سورة هود ، الآية رقم ٦١ .

(٢٤) سورة الانشقاق ، الآية رقم ٦ .

(٢٥) سورة الاسراء ، الآية رقم ٧٢ .

(٢٦) اخرجه البخاري واحمد بن حنبل .

(٢٧) اخرجه البخاري ومسلم .

(٢٨) سورة الجاثية ، الآية رقم ١٣ .

(٢٩) سورة الجمعة ، الآية رقم ١٠ .

(٣٠) سورة الاعراف ، الآية رقم ١٠ .

واستمرارها ، هو ارتفاع الاسلام بالتنمية الى مرتبة العبادة . اذ لم يكتف الاسلام بالحث على العمل والانتاج بقوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) (٣١) ، وقوله عليه الصلاة والسلام (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) (٣٢) ؛ بل اعتبر العمل في ذاته عبادة وان الفرد قريب من الله ومثاب على عمله الصالح في الدنيا والآخرة بقوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) (٣٣) ، وقول رسوله الكريم (العمل عبادة) وقوله عليه الصلاة والسلام (ما عبد الله بمثل عمل صالح) وقوله (من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له يوم القيامة) (٣٤) . وروي ان الرسول عليه الصلاة والسلام قبل يدا ورمت من كثرة العمل وقال (هذه يد يحبها الله ورسوله) (٣٥) .

٢ ـ ولقد سوى الاسلام بين المجاهدين في سبيل الدعوة الاسلامية وبين الساعين في سبيل الرزق والنشاط الاقتصادي بقوله تعالى (وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله) (٣٦) . أكثر من ذلك ، اعتبر الاسلام السعي على الرزق وخدمة المجتمع وتنميته أفضل ضروب العبادة : فقد ذكر للنبي عليه السلام رجل كثير العبادة فسأل من يقوم به ، قالوا : أخوه ، فقال عليه السلام (أخوه أعبد منه) (٣٧) . وقد أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام (لا تفعل فان مقام احدكم في سبيل الله ـ أي في خدمة المجتمع وتنميته ـ أفضل من صلاته في بيته ستين عاما) (٣٨) ، ويقول عليه السلام (لكل امة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) (٣٩) .

٣ ـ ونخلص مما تقدم ان التنمية الاقتصادية فى الاسلام ، هى فريضة وعبادة ، بل هى من افضل ضروب العبادة . وان المسلمين قادة وشعوبا مقربون الى الله تعالى ، بقدر تعميرهم للدنيا وأخذهم بأسباب التنمية فى مختلف صورها . ولقد لخص سيدنا عمر بن الخطاب نظر الاسلام الى العمل والتنمية بقوله (والله لئن جاءت الأعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة) (٤٠) .

ثالثا : تطلب المشاركة الشعبية في التنمية واعتبارها من قبيل الجهاد المقدس :

١ ـ ان التنمية الاقتصادية ليست عملية فنية يكتفي فيها بمجرد إعداد خطط التنمية ، ثم متابعة تنفيذها لدى القطاع الخاص او العام . وإنما هي اساسا عملية جماهيرية ، إذ تتطلب تعبئة جميع المواطنين لها بحيث تكون مطلبا شعبيا ملحا يعي كل فرد مسئوليته المحددة

---

(٣١) سورة التوبة ، الآية رقم ١٠٥ .

(٣٢) متفق عليه .

(٣٣) سورة الشورى ، الآية رقم ٢٦ .

(٣٤) اخرجه الطبري في الاوسط .

(٣٥) مسند الامام زيد .

(٣٦) سورة المزمل ، الآية رقم ٢٠ .

(٣٧) الجامع الصغير للسيوطي .

(٣٨) اخرجه الحاكم في المستدرك .

(٣٩) اخرجه الحاكم في مستدرك .

(٤٠) انظر الدكتور سليمان الطماوي في كتابه عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة ، الطبعة الاولى سنة ١٩٦٩ ، لناشره دار الفكر العربي القاهرة .

فيها ويدرك حقوقه المؤكدة من نجاحها فلا يكفي ان تتوافر ارادة التغيير وتنمية المجتمع والارتفاع بمستواه ، لدى بعض القيادات الخاصة ، وانما أن يتحول ذلك الى ارادة شعبية . ولا شك أن من أهم عوامل نجاح التنمية في كثير من البلاد النامية ، أن الأساليب المستخدمة لم تستطع ان تحرك الأمة كلها لمواجهة معركة التخلف ، إذ لا أحد يستطيع أن يقود التنمية لصالح الشعب دون إسهام من الشعب نفسه .

واذا كنا نقول بضرورة تعبئة الجهود الشعبية للتنمية الاقتصادية ، فان ذلك لا يكون بالتلقين والشعارات كما هو حاصل في بعض الدول النامية والتي يغلب عليها عادة الاتجاهات المتسلطة ودكتاتورية الحكم . وانما تتم تعبئة هذه الجهود الشعبية بالمشاركة الفعلية في مشاكل المجتمع ، وذلك بفتح باب الحوار والمناقشة فيها بحرية وصدق ، والاستماع الى مختلف أوجه النظر المعارضة ، بحثا عن حلول سليمة يقتنع ويلتزم بها الجميع .

٢ ـ والمشاركة الشعبية في التنمية ، هي في نظر الاسلام غاية ووسيلة في آن واحد ، استنادا الى عموم قوله تعالى (وشاورهم في الأمر)(٤١) ، وقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم)(٤٢) . ولقد ثبت ان المشاركة الشعبية في التنمية الاقتصادية ، هي عصب استراتيجية التنمية ، وذلك بخروج المواطن العادي من السلبية التي كان يفرضها عليه وضعه الهامشي في المجتمع .

واذا كانت مشكلة التخلف في مختلف صوره ، هي من أولى المشكلات التي تواجه الشعوب العربية والاسلامية اليوم ، فانه لابد من تعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف من أجل التنمية . ونرى لذلك ضرورة ربط التنمية بفكرة الجهاد المقدس تفجيرا للطاقات المختزنة في الفرد المسلم وتحقيقا للتنمية الشاملة باحالتها الى ممارسة دينية وواقع ايماني . ذلك ان قوام المجتمع الاسلامي ، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله تعالى (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)(٤٣) . والأمر بالمعروف يتضمن في رأينا بصفة اساسية تحقيق التنمية الشاملة والنهي عن المنكر يشمل اساسا القضاء على اهم صورة الا وهو التخلف والفقر الذي يؤدي الى الذلة والمسكنة والى الكثير من المساويء الاجتماعية والانحرافات الخلقية .

فلا بد ان نعبيء النفس بكافة وسائل الاعلام من صحافة واذاعة وتليفزيون ومساجد . . . الخ ، ونعلنها حربا مقدسة ضد التخلف ومن أجل التنمية الشاملة . ولابد ايضا من الاسراع الى وضع خطط محددة تعهد الى مختلف قطاعات الشعب خاصة الموظفين وطلاب الجامعات وافراد القوات المسلحة ، وكذلك مختلف النقابات والجمعيات والنوادي ، من اجل القضاء على معوقات التنمية وهي الامية المتفشية بالوطن العربي والعالم الاسلامي ، ومن اجل القيام بمشاريع انمائية بالجهود الذاتية ، ذلك ان الدولة وحدها عاجزة عن محو الامية ، او القيام بكافة المشاريع الانمائية . ولاشك انه لتحقيق ذلك لابد من القدوة من جانب القادة والمسئولين ، ولابد ان يكرس العمل السياسي جهوده لدفع حركة التنمية وحشد مختلف الطوائف الشعبية للمشاركة الفعلية في البناء والتعمير ، وان يعيش المجتمع كله في مناخ التنمية .

---

(٤١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٥٩ .

(٤٢) سورة الشورة الآية رقم ٣٨.

(٤٣) سورة آل عمران ، الآية رقم ١١٠ .

٣ ــ وتبدو اليوم اهمية وضرورة ما تقدم ، ان التحدي الذي تلقاه من قبل اسرائيل وغيرها ، ليس تحديا حربيا فحسب ، وانما هو اساسا تحد حضاري . فاسرائيل ومن هم وراءها ، ينشدون التمكن من العالم الاسلامي ، ويهدفون الى السيطرة الاقتصادية على المنطقة العربية . ومعركتنا مع اسرائيل ليست مقصورة على إزالة آثار العدوان ، وانما هي تتصل بتخلفنا الحضاري وما يتطلبه من ضرورة التنمية العاجلة ، والتي يجب ان نجند لها كافة قوى وامكانيات الشعوب العربية والاسلامية . ولندرك جيدا ان الخطر الحقيقي الذي نواجهه ، ليس قوة اسرائيل ومن وراء اسرائيل ، وانما هو تفرق العرب والمسلمين ، الى جانب تخلفهم رغم ما لديهم من امكانيات بشرية ومادية غير محدودة . ولاشيء أقام اسرائيل وطمع فينا العدو ، سوى تفرقنا وتخلفنا . فجهادنا المقدس اليوم ، هو جهاد ضد التفرقة ، وهو جهاد ضد التخلف ومن اجل التنمية الشاملة ، وصدق الله العظيم في قوله (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)(٤٤) ، وقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)(٤٥) .

ثالثا : الأخذ بالأساليب العلمية والتقنية الملائمة :

١ ــ يوجب الاسلام إتقان العمل وتحسين الانتاج كما وكيفا ، ويعتبر ذلك أمانة ومسئولية وقربة بقوله تعالى (ولتسألن عما كنتم تعملون)(٤٦) وقوله تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)(٤٧) . كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)(٤٨) .

وانه لإتقان العمل والانتاج ، يتعين اتباع أدق وأحدث الأساليب العلمية في الانتاج ، وصدق الله العظيم (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(٤٩) ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام (قليل العمل مع العلم كثير ، وكثيره مع الجهل قليل)(٥٠) ، وعنه صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)(٥١) ، وقوله عليه السلام (مداد العلماء احب الى الله من دماء الشهداء)(٥٢) .

٢ ــ والأخذ بالاساليب العلمية في العمل والانتاج كالتزام اسلامي لضمان نجاح التنمية الاقتصادية ، هو ما يطلق عليه بالاصطلاح الاجنبي تكنولوجيا Technologia وبالاصطلاح العربي تقنية بمعنى اتقن العامل الامر واحكمه ومنها التقن وهو حسن الاداء والسيطرة على الشيء .

وعليه فانه لا يقصد بالتكنولوجيا او التقنية الحديثة ، كما تصور البعض خطأ ، نقل او استيراد أحدث الآلات والمعدات ، ولا حتى كيفية تركيبها وتشغيلها ، وانما الأخذ بالأساليب العلمية التي تتناسب مع بيئة معينة لتحقيق أكبر استفادة من عوامل الانتاج المتوافرة بها . فالتكنولوجيا او التقنية المطلوبة هي التي تتناسب مع واقع المجتمع واحتياجاته ، اذ ما يصلح لمجتمع معين لا يصلح لمجتمع آخر يختلف عنه في ظروفه وبيئته .

---

(٤٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠٣ .
(٤٥) سورة الأنفال ، الآية رقم ٦٠ .
(٤٦) سورة النحل ، الآية رقم ٩٣ .
(٤٧) سورة الكهف ، الآية رقم ٣٠ .
(٤٨) اخرجه البيهقي .
(٤٩) سورة الزمر ، الآية رقم ٩ .
(٥٠) السيوطي في الجامع الصغير .
(٥١) نفس المرجع .
(٥٢) نفس المرجع .

ومتى كان المعول عليه ، هو ظروف كل مجتمع ، خاصة من حيث نوعية ثرواته وموارده الطبيعية المتوافرة ، ومن حيث كثافته السكانية وكفاية افراده ، ومن حيث احتياجات المواطنين الاساسية وأذواقهم ، فإن هذه الظروف هي وحدها التي تحدد التكنولوجيا او التقنية المطلوبة . فهناك التكنولوجيا التي تعتمد على البترول فتناسب دولة كالسعودية ، او على القطن فتناسب دولة كمصر . وهناك التكنولوجيا التي تعتمد على كثرة الأيدي العاملة مع قلة المهارة كصناعة النسيج ، او التي تعتمد على قلة الايدي العاملة مع ارتفاع المهارة كصناعة الآلات الحاسبة . ولعل ذلك يكشف لنا سبب فشل تجربة استخدام الجرارات المستوردة في الزراعة بمصر ، لعدم ملاءمة بعضها لظروف الزراعة المصرية ولاستخدام معظمها بما لا يزيد عن نصف طاقتها ، ولم تتحسن الصورة الا بتصنيع بعض تلك الجرارات محليا .

فليس بشرط ان تكون التكنولوجيا الحديثة المتقدمة ، افضل من التكنولوجيا التقليدية المتطورة . ذلك ان التقدم التكنولوجي او التحديث لا يعني هجر اساليب الانتاج القديمة بل دراستها والكشف عن امكانيات تطويعها ، ولنضرب مثلا بصناعة النسيج او السجاد او الاحذية ، فانه يفضل الكثير فيها منتجات شغل اليد على منتجات الصناعة الآلية .

كذلك من الخطأ الكبير ان يتصور البعض ان التقدم التكنولوجي مجاله الالكترونيات او الكمبيوتر او الذرة او الفضاء ، بل الامر مرده الى ظروف كل دولة . ولاشك انه في بلدٍ كمصر يعتبر اكتشاف اسلوب فعال وعملي للقضاء على البلهارسيا ، او اسلوب جديد للمقاومة البيولوجية لدودة القطن ، او تكنولوجيا جديدة للري توفر استخدام المياه مع زيادة المحاصيل ، هي تكنولوجيا ذات وزن عالمي لا تقل اهمية عن إستخدامات الذرة او التفوق في الفضاء(٥٣) .

ومؤدى ما تقدم ان التكنولوجيا او التقنية ، لا تعني مجرد شراء او استيراد احدث الاجهزة والادوات ، ولا حتى التدريب على تشغيلها ثم التوقف اذا لحقها عطل فني او نقصها قطعة غيار ، وانما هي معرفة نظام هذه الاجهزة وطريقة صنعها والسيطرة عليها ، اذ المعول عليه هو ممارسة وبناء التكنولوجيا وليس شراء او استيراد منجزاتها ، وعلى نحو ما يقول المثل الصيني (لا تعطني سمكة ولكن علمني كيف اصطاد) . كذلك لا تعني التكنولوجيا او التقنية ملاحقة احدث صورها ، وانما اختيار ما يتناسب وظروف كل بلد وموارده الطبيعية وطاقاته البشرية واحتياجاته الفعلية ، اي المعول عليه هو ما اصطلح بالتعبير عنه « التكنولوجيا الملائمة » Oppropriate Technology اذ جوهر القضية كما عبر عنه البعض هو « بناء هيكل انتاجي يتسق مع واقع المجتمع واحتياجات المواطنين فيه »(٥٤) ، وبمعنى آخر عبر عنه البعض وهو « ان التنمية الاقتصادية في كل بلد هي الكفيلة بخلق التكنولوجيا وليس العكس »(٥٥) . ذلك انه بحسب مشكلات كل مجتمع ومقتضيات تنميته ، تكون الحلول العلمية المناسبة اي التكنولوجيا الملائمة .

٣ ـ واذا كنا نرى ان التقدم التكنولوجي او التقني ، بمفهومه الصحيح ، لا يشتري او يستورد ، وانما يستنبت

---

(٥٣) انظر الدكتور اسماعيل صبري عبد الله نحو نظام اقتصادي عالمي جديد ، لناشره الهيئة العامة المصرية للكتاب ، طبعة سنة ١٩٧٦ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٥٤) انظر الدكتور اسماعيل صبري عبد الله ، ص ٢٢٠ من كتابه المعنون (نحو نظام اقتصادي عالمي جديد) ، مرجع سابق .

(٥٥) انظر الدكتور يوسف ابراهيم يوسف ، ص ٥١٥ من رسالته للدكتوراه عن المنهج الاسلامي في تحقيق التنمية الاقتصادية ، والتي اشرفنا على اعدادها ومناقشتها بكلية التجارة جامعة الازهر في شهر مارس ١٩٨٠ .

داخل ارض الوطن وفقا لمشكلاته واحتياجاته وتبعا لتطوره ، فان ذلك يتطلب تقدما او مناخا علميا ، اذ كما عبر بحق البعض ، « ان التقدم التقني هو نتيجة للتقدم العلمي وليس العكس »(٥٦) .

وليس من سبيل ، في وطننا العربي وعالمنا الاسلامي ، لتحقيق التقدم العلمي ، المؤدي بدوره الى التقدم التقني ، الا بأمرين متوازيين :

أولهما : مكافحة الامية المتفشية بين العرب والمسلمين والتي تبلغ نسبتها بحسب احصائيات الامم المتحدة اكثر من ٨٠٪ من المواطنين .

فانه لا يكفي الوف الخريجين من الجامعات العربية والاسلامية ، ووجود مئات العلماء ، ممن يمثلون قطرة من بحر الملايين الاميين ، ولكن يتعين ان يشمل التعليم اغلبية الناس الذين ادى جهلهم الى سلبيتهم وتهميشهم في الحياة . ولاشك ان من اهم معوقات التنمية والتخلف التقني الذي يعاني منه العرب والمسلمون والعالم الثالث اجمع ، هو سيره في طريق التبعية والاسر التكنولوجي للدول المتقدمة ، هو ظلمة الجهل وتفشي الامية خاصة الوظيفية .

ثانيهما : ربط التعليم العام والجامعي خاصة بواقع المجتمع وتكريسه لخدمة احتياجاته وتطوره ، وان تقوم بمختلف دول الوطن العربي والعالم الاسلامي مراكز معلومات وأكاديميات العلوم والتكنولوجيا ومعامل تجريبية لاختيار التقنية الملائمة لظروف كل بلد واحتياجاته .

ومؤدى ما تقدم ان المعول عليه هو الانسان في وطننا العربي وعالمنا الاسلامي ، اذ الأفراد في كل مكان بالعالم يتساوون تقريبا من حيث قدراتهم الفطرية ومواهبهم الطبيعية ، ولا تتميز دولة عن أخرى الا بحضارتها تبعا لانتشار التعليم فيها وما يتوافر لديها من اكاديميات وعلماء .

رابعا : ترشيد الاستهلاك ، وتوجيه الفائض الاقتصادي لاغراض التنمية :

١ ـ ان التنمية تفترض ان يقتطع المجتمع من استهلاكه الحالي ليستثمر الفائض في زيادة طاقته الانتاجية ، وهو ما يسمى في الاصطلاح الحديث بالتكوين أو التراكم الرأسمالي .

والاسلام يقوم على ترشيد الاستهلاك بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)(٥٧) . كما أنه يلعن المبذرين بقوله تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين)(٥٨) ، بل يعتبر كل من يسيء إستخدام المال الزائد عن احتياجاته وكفايته ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم باصطلاح العفو او الفضل ويعبر عنه في الاقتصاد الوضعي باصطلاح الفائض الاقتصادي ، بأنه سفيه يجوز الحجر عليه بقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما)(٥٩) . أكثر من ذلك فان الاسلام لا يكتفي باعتبار السفه وصرف المال في غير موضعه رذيلة محرمة ومفسدة ممنوعة ، بل هو في نظره تهلكة حقيقية وانتحار بطيء ، لقوله تعالى (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا

---

(٥٦) انظر الدكتور علي بن طلال الجهني في بحث له بجريدة الشرق الاوسط في يونية سنة ١٩٨٠ بعنوان (التقنية بين الحقيقة والاوهام) .

(٥٧) سورة الفرقان ، الآية رقم ٦٧ .

(٥٨) سورة الاسراء ، الآية رقم ٢٧ .

(٥٩) سورة النساء ، الآية رقم ٥ .

بأيديكم الى التهلكة) (٦٠) وقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من اخذ من الدنيا اكثر من حاجته ، أخذ حتفه وهو لا يشعر) (٦١) .

٢ ـ فترشيد الاستهلاك والاكتفاء بما عبر عنه فقهاء الشريعة باصطلاح حد الكفاية أي المستوى اللائق للمعيشة ، وبالتالي توجيه الفضل أو الفائض الاقتصادي الى التنمية ، هو في الاسلام موقف ديني وسلوك اجتماعي .

وهناك تبدو لنا اهمية القدوة من جانب القادة والمسئولين ، من اجل اعمال هذا المبدأ الاقتصادي الاسلامي والالتزام به تلقائيا . وهو الموقف الذي عبر عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين حرم على نفسه عام المجاعة ان يأكل لحما ، وقال كلمته المشهورة (كيف يعنيني امر رعيتي اذا لم يمسني ما يمسهم) (٦٢) . ولقد حدث ان أنكر رضي الله عنه على عامله باليمن حللا مشهرة ودهونا معطرة ، فلما عاد اليه في العام التالي أشعث مغبرا عليه اطلاس بالية ، قال له : لا ولا كل هذا (٦٣) . وكلنا يعلم كيف ان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يعيش عيشة رفاه ، حتى اذا تولى الخلافة واصبح مسئولا عاش عيشة تقشف ، لا لشيء الا ليعطي شعبه المثل والقدوة وليعمل الجميع على ترشيد استهلاكهم والاكتفاء بما ارتضاه لهم الاسلام وهو حد الكفاية اي المستوى اللائق للمعيشة دون سرف أو ترف .

ولا شك ان موقف الفئات الغنية من رفض ضبط الاستهلاك ، لا يعتبر موقفا لا اسلاميا فحسب ، وانما يتسم ايضا بدرجة كبيرة من قصر النظر يكاد يبلغ حد العمى الاجتماعي ، وهم في الواقع كما ورد في القرآن الكريم يلقون بأيديهم الى المفسدة والتهلكة الحقة .

٣ ـ هذا وان ضبط الاستهلاك يجب ان يكون عاما ، فلا يقتصر على الأفراد ، بل يتناول الحكومات . وانه مما يرثى له حقا ان تتورط حكومات المجتمعات النامية خاصة الفقيرة ، فيما يسمى بمشروعات الهيبة او مركبات النقص ، وذلك كاقامة قصور فخمة تتجاوز احتياجاتها وكتشييد مطارات حديثة تفوق طاقاتها ومعداتها مقتضيات حركة النقل فيها .

كذلك فانه مما يجب التنبيه اليه ، ان ترشيد الاستهلاك ، يرتبط ارتباطا وثيقا بترشيد الانتاج بمعنى تحسينه . فكم عانينا في مصر من المنتجات التي انخفض فيها مستوى الجودة ، خاصة في الملابس والاقمشة الشعبية والتي كانت تتلف بسرعة ، فزاد الاستهلاك بدون مبرر وكان واقع الأمر جهدا ضائعا ومالا فاقدا .

خامسا : الالتزام بأولويات التنمية والمعالجة الجذرية لمعوقاتها :

١ ـ ولعل من أهم الضمانات الاسلامية لتحقيق التنمية الاقتصادية واستمرارها ، ما أجمع عليه فقهاء الاسلام من تقديم الضروريات على الحاجيات ، وتقديم الحاجيات على التحسينات ، وهو ما نعبر عنه في الاصطلاح الحديث بأولويات التنمية . بل ان الضروريات في الاسلام ليست في مرتبة واحدة ، فلا

---

(٦٠) سورة البقرة ، الآية رقم ١٩٥ .

(٦١) رواه البزاز .

(٦٢) انظر عبقرية عمر ، للاستاذ عباس محمود العقاد ، طبعة دار المعارف ، ص ١١٧

(٦٣) نفس المرجع .

يراعى ضروري اذا كان في مراعاته اخلال بضروري اهم منه ، وبالمثل الحاجيات والتحسينات . الأمر الذي نعاه القرآن الكريم بقوله تعالى (وبئر معطلة وقصر مشيد) (٦٤) .

وتطبيقا لهذا المبدأ فان المرافق العامة كتعبيد الطرق وتوفير المياه والكهرباء والهاتف . . . الخ مما اصطلح عليه بالتجهيزات الاساسية Infrastructure مقدم على انشاء المصانع . وان انشاء المصانع التي تنتج الاحتياجات الأساسية للجماهير كالسلع الغذائية والملابس مما اصطلح عليه بالصناعات الاستهلاكية ، مقدم على الصناعات الثقيلة . كما ان الصناعة الثقيلة التي تقوم على الموارد المحلية ، مقدمة على التصنيع الذي يقوم على الموارد المستوردة ؛ بمعنى ان تكون الموارد الطبيعية المتاحة ، هي القاعدة الصلبة التي ينمو عليها الانتاج ويتشعب ، وانها وحدها التي تحدد أولويات الصناعات الثقيلة . كذلك يجب ان ندرك جيدا ان كل استثمار في تطوير الريف والمدن الصغيرة ، يوفر استثمارات هائلة يفرضها تضخم واكتظاظ العواصم والمدن الكبيرة ، بل ودون عائد مناسب ، ان لم يكن زيادة في افساد البيئة وتضييق واتلاف لاعصاب الناس بسبب الازدحام .

٢ ـ ومادمنا نتكلم عن أولويات التنمية ومعوقاتها ، فان الامر يتطلب مراجعة جذرية للتعلم خاصة الابتدائي والمتوسط ، بحيث لا يستمر كما هو حاصل الى اليوم ، مجرد حلقة من سلسلة متصلة الحلقات تؤدي بالضرورة الى الجامعة . بل يجب ان يكون تعليما مستقلا هدفه محو الامية خاصة الوظيفية ، واكتساب قدرات انتاجية وخلق عمالة مدربة . ولن يتحقق ذلك الا بتغيير برامج الدراسة الابتدائية والمتوسطة ، بحيث يكون هدفها تنمية ملكات الصبي الجسدية والعقلية والنفسية ، وتأهيله للعمل اليدوي والذهني في آن واحد ، والا تظل المدرسة في عزلة عن البيئة المحيطة بها في الأرياف أو الاحياء بل تعاون وتشارك في انواع النشاط الاقتصادي السائد بالريف أو الحي زراعيا كان أو صناعيا أو تجاريا .

وهنا ننبه ونؤكد بان اهم عنصر من عناصر التنمية الاقتصادية ، ليس هو عنصر المال أو التراكم الرأسمالي أو الفائض الاقتصادي ، ولا هو عنصر الارض أو الموارد الطبيعية ، وانما هو عنصر العمل التقني أو العمالة المدربة أو الكفاية البشرية . لقد أتت الحرب العالمية الثانية ودمرت معظم مصانع اوربا واليابان وجردتها من كل امكانياتها المادية ، ومع ذلك فان نموها الاقتصادي ، فاق كل خيال بسبب كفايتها البشرية . وان أغلب دول افريقيا وآسيا غنية بالثروات والموارد الطبيعية ، ولديها كثرة سكانية ، وبعضها كالدول المنتجة للبترول لديها فائض اقتصادي ضخم ، ولكنها جميعا متخلفة اقتصاديا بسبب افتقارها للكفاية البشرية والعمالة المدربة . **وهذا يبين لنا ان اولى ما يجب الاهتمام به لتحقيق أية تنمية اقتصادية هو التعليم خاصة الفني ، ولا شك ان اكبر سبب لتخلف العالم النامي هو تفشي الامية خاصة الامية الوظيفية** . وليس أدل على اهتمام الاسلام بمكافحة الامية في عصر الجهالة والجاهلية ، ان اول كلمة في القرآن الكريم هي اقرأ ، وانه كان يفتدي الاسير الكافر اذا علم عشرة أميين .

٣ ـ كذلك يتصل بأولويات التنمية ومعوقاتها قضية الجيش والانفاق العسكري المتزايد . ولا شك ان

---

(٦٤) سورة الحج ، الآية رقم ٤٥ .

الاسلام يتطلب القوة العسكرية ويستلزم التدريب والاعداد ، ولو في وقت السلم بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٦٥) .

ولكن نقطة الخلاف هو ان يظل الشعب كما هو الجاري حتى اليوم متفرجا ، وان يلقى بعبء الدفاع على جيش متضخم هو عالة في الانتاج . لذلك نرى ان تكون جيوشنا النظامية المتفرغة بأقل عدد مناسب وعلى أعلى مستوى من الكفاية ، وبحيث يتولى الجيش النظامي بكل دولة عربية أو اسلامية مسئولية تدريب الشعب كله على فترات دورية منتظمة ، بحيث يمكن ان يكون الشعب بأسره جيشا عند اللزوم ، وهو ما كان يحصل في العهد الاسلامي الاول .

كما انه ليس هناك ما يمنع ان يشارك الجيش النظامي ببعض أجهزته وفروعه كسلاح المهندسين وسلاح الاطباء ، في عملية التنمية الاقتصادية ذاتها . وكم كانت فرحتنا عقب حرب ١٠ رمضان سنة ١٣٩٣ الموافق ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، حين صدرت التعليمات في بعض الدول العربية كمصر ، بأن يكون التدريب العسكري مادة أساسية بالمدارس والجامعات ، وان يشارك الجيش بامكانياته الضخمة المعطلة في عمليات التنمية الاقتصادية . ولكن الأمر شأن الكثير من أوجه الاصلاح في الدول النامية لا يتجاوز الكلام ولا يخرج الى حيز التنفيذ ، وليس من سبب في نظرنا سوى استهانة وتقصير القادة والمسئولين عن تسيير الأمور .

الفرع الخامس

المفكرون المسلمون اول من عالج قضايا التنمية الاقتصادية

١ ـ عالج الفقهاء القدامى قضايا التنمية الاقتصادية ، مبينين بجلاء انها ليست عملية انتاج فحسب ، وانما هي عملية كفاية في الانتاج مصحوبة بعدالة في التوزيع . وانها ليست عملية اقتصادية بحتة ، وانما هي عملية انسانية تبتغي تنمية الانسان وتقدمه بشقيه المادي والروحي .

ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية لقضايا التنمية الاقتصادية في الاسلام ، أو بصدد تتبع أفكار الفقهاء القدامى واجتهاداتهم في قضايا التنمية ، وما هي في نظرهم أولويات التنمية الاسلامية ، وما هي ضماناتها ، وطرق تمويلها . . . الخ مما لا تتسع له دراساتنا الحالية .

وانما كل ما يهمنا هنا إبرازه ، هو ان التنمية الاقتصادية قد شغلت المقام الأول من فكر المسلمين القدامى ، وان بحثت تحت لفظ عمارة الارض لقوله تعالى (هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها) (٦٦) ، أي كلفكم بعمارتها . واصطلاح عمارة الارض يشمل مضمون التنمية الاقتصادية وزيادة ، اذ يقول سيدنا علي بن ابي طالب في كتابه الى واليه بمصر (وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن طلب الخراج من غير عمارة أخرب البلاد) . بل يلخص سيدنا عمر بن الخطاب مهمة القادة واساس

---

(٦٥) سورةالأنفال ، الآية رقم ٦٠ .

(٦٦) سورة هود ، الآية رقم ٦١ .

الحكم في عبارة جامعة مانعة بقوله رضي الله عنه : ان الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم . . . ونوفر لهم حريتهم ، فان لم نفعل فلا طاعة لنا عليهم . فتأمين الناس في معاشهم وفي حريتهم ، هو قوام الحياة واساس الحكم ، وهو ما اصطلح عليه في الاسلام بضمان حد الكفاية وضمان الشورى وحرية الكلمة . وما مشكلة الدول النامية وازمة بل وتخلف شعوبها ، الا لافتقادها هذين العنصرين الاساسيين ، وذلك بجهل وانحراف قادتها الذين اغرقوها بالشعارات والمظاهر بدلا من العمل والتنمية وبالوصاية والتسلط بدلا من الشورى والحرية .

٢ ـ واذا كنا اليوم ندرك أن التنمية الاقتصادية تعني توفير ما اصطلح عليه بالفائض الاقتصادي واستخدامه في زيادة قدرات المجتمع الانتاجية ، بحيث لا ينتج التخلف الا عن فقدان المجتمع لفائضه الاقتصادي أو تبديده في مصارف غير انتاجية أو في استهلاك بذخي أو ترفي .

فلقد نبه الى ذلك القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا معبرا عن الفائض الاقتصادي باصطلاح العفو أو الفضل ، واعتبر التبذير سفها والترف اجراما ، ودعا الى صرف كل من زاد عن الحاجة او الكفاية بغير سرف أو ترف ، في سبيل الله أي في سبيل المجتمع وتنميته ، بل جعل ذلك كما أسلفنا علامة الاسلام وشرط الايمان .

ومن هنا فقد وضع القرآن الكريم منذ البدء حكام المسلمين وفقهاء الشريعة والشعوب المسلمة ، على الطريق الصحيح لتحقيق ذاتها وتنميتها ليكونوا بحق كما أراد لهم الله خلفاءه في أرضه . وتحقق للمسلمين الاوائل تقدمهم وانطلاقاتهم يوم التزموا بذلك الهدى القرآني ، وانتكسوا يوم حادوا عنه . وما سر ما تستمتع به اليوم الدول المتقدمة ، الا لاهتدائها منذ عهد ليس ببعيد الى هذا السبيل ، وستنتكس بدورها يوم تحيد عنه .

٣ ـ ولذلك لا نعجب أيضا ان كانت اولى المؤلفات الاقتصادية العالمية في مجال التنمية الاقتصادية ، هي لكتاب مسلمين سبقوا الكتاب الاجانب بعدون قرون . ونخص بالذكر الرائد الاقتصادي ابن خلدون الذي عالج مختلف قضايا التنمية الاقتصادية في مقدمته سنة ٧٨٤هـ المشهورة باسمه تحت عنوان الحضارة وكيفية تحقيقها .

وان كتاب الخراج للامام ابويوسف المتوفي سنة ١٨٢هـ/ ٧٦٢م ، يعتبر على نحو ما سبقت الاشارة اليه قمة في بحوث التنمية الاقتصادية ، رغم انه وضع أصلا للخليفة هارون الرشيد لتنظيم الخراج . وأننا نجد الفقيه الاقتصادي احمد بن الدلجي في كتابه الفلاكة والمفلوكون أي الفقر والفقراء ، يتعرض في القرن الخامس عشر الميلادي لقضية الفقر أي بتعبير آخر لقضية التنمية الاقتصادية ، وذلك بتفصيل واحاطة وعمق نادر بحسب زمانه .

الفرع السادس

ضرورة التنسيق في خطط التنمية على المستويين العربي والاسلامي

١ ـ تواجه الدول العربية خاصة والاسلامية عامة ، عقبات ومشكلات عديدة ، عند تنمية مجتمعاتها تنمية مستقلة ، وذلك لافتقادها منفردة لبعض مقومات التنمية . في حين تتوافر لها هذه المقومات وهي مجتمعة في

وطن عربي أو اسلامي كبير ، فما ينقص احداها من موارد طبيعية أو رأس مال أو قوى عاملة أو خبرات فنية . . . الخ يتوافر بكفاية لدى البعض الآخر .

ولعل في ذلك حكمة كبرى من الله تعالى ، لتسعى الدول والشعوب نحو تحقيق التعاون والتكامل فيما بينها ، لا الاختلاف والصراع . وكما لا يوجد انسان يستطيع ان يستغني عن معاونة الآخرين في سد احتياجاته وتكامله معهم ، فان الامر كذلك بالنسبة للدول ، لا يمكن لاحداها الاستغناء عن الدول الأخرى بتبادل المنافع والتكامل مع بعضها . **ويأتي شقاء الفرد ، وشقاء الدول ، وكافة الازمات من افتقاد هذا التعاون والتكامل .**

وعلى المستوى العربي ، على سبيل المثال ، نجد مصر لا تملك من مقومات التنمية سوى القوى البشرية ، والسودان والصومال لا تملك سوى الموارد الطبيعية ، ودول الخليج لا تملك سوى رؤوس الأموال الفائضة . وهذه الوفرة لدى البعض ، والندرة لدى الآخر ، هي سنة الله التي لن تجد لها بديلا ، وذلك بهدف تحقيق التعاون والتكامل فيما بينها ليسبغ الله عليها نعمته ، والا حقت عليها نقمته وظلت تدور في حلقة التخلف والضياع الجهنمية المفرغة ، لا يخرجها منها سوى ما أراده لها الله من التعاون والتكامل . وكذلك الأمر بالنسبة للعالم الاسلامي ، والعالم أجمع .

لذلك يتطلب الامر عند وضع خطط التنمية ، التنسيق بين امكانيات كل بلد عربي أو اسلامي بحيث يكمل كل منها الآخر ، وهو ما يحقق أكبر استفادة من إمكانيات كل دولة عربية أو اسلامية دون فاقد أو ضائع ، وهو في المحصلة يدفع بعجلة التنمية في الوطن العربي والعالم الاسلامي . كما انه يؤدي في النهاية الى الوحدة العربية والتضامن الاسلامي والتعاون العالمي . **فليس هناك أي تناقض بين الوحدة العربية ، وبين التضامن الاسلامي ، وبين التعاون العالمي ، بل كل منها هو خطوة اساسية لتحقيق الأخرى ، وذلك طالما كان هناك تنسيق دقيق للتعاون والتكامل لا للتصارع والتناقض . وحينئذ يسود العالم امله المنشود في الحياة المثلى والذي لخصه القرآن الكريم في اصطلاحي** « التعاون » و« العزة » بقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٦٧) ، وقوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٦٨) .

٢ ـ وما احوجنا اليوم الى احصائيات دقيقة ودراسات علمية في هذا المجال ، والى المبادرة بوضع خطط تنمية واضحة المعالم والقسمات ، تحدد منها ما تلتزم بتحقيقه كل دولة عربية أو اسلامية ، بحيث يتم التعاون والتكامل بينها لا الفرقة والتضارب .

ولعل الخطوة العملية لذلك هو عقد مؤتمر قمة اقتصادي عربي وآخر اسلامي ، يتصدى لمناقشة برامج

---

(٦٧) سورة المائدة ، الآية رقم ٢ .

(٦٨) سورة المنافقون ، الآية رقم ٨ .

تنمية على اساس علمي ورؤية واقعية لنقط الضعف والقوة ، من أجل البناء المشترك والمتكامل للوطن العربي ككل ، والعالم الاسلامي ككل (٦٩) .

٣ ـ لقد سبق ان اعدت الامانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية بجامعة الدول العربية ، وكذا الامانة العامة لمؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية دراسات مفصلة لتحقيق التنمية الاقتصادية والتكامل في الوطن العربي ككل والعالم الاسلامي ككل . وذلك بدءا من تنظيم التبادل الاقتصادي العربي أو الاسلامي ، وتعاون الاجهزة والمنظمات الاقتصادية المتخصصة العربية أو الاسلامية ، الى انشاء بنوك وصناديق مالية عربية وأخرى اسلامية لتمويل المشروعات العربية والاسلامية التي ثبتت جدواهاالاقتصادية ، الى مباشرة بعض هذه المشروعات على المستويين العربي والاسلامي .

ولكن حتى الآن مازالت جهود التنمية الاقتصادية على المستويين العربي والاسلامي محدودة وقاصرة ، ومازالت استراتيجية هذه التنمية غامضة وغير منسقة . إذ لا يكفي مجرد الغاء الجمارك أو فتح الحدود أو إقرار مختلف التسهيلات ، وإنما يتعين أساسا التنسيق للاستفادة من عوامل الانتاج المتوافرة على المستوى العربي والاسلامي .

ان العالم العربي خاصة والاسلامي عامة ، يتمتع منذ حرب ١٠ رمضان و٦ اكتوبر بفرصة تاريخية بحكم ثرواته الطبيعية وواقعه الجغرافي . وان هذه الفرصة قد لا تستمر طويلا ، وبالتالي فاما أن نستفيد منها أو أن تضيع . وانه من أكبر الحرام أن تظل فوائض البترول العربية الضخمة ببنوك اوروبا وامريكا ، بل ويأكلها التضخم وتدهور الدولار ، بينما في السودان والصومال ملايين الأفدنة من الأراضي الصالحة للزراعة ولا تزرع ، وهي لا تحتاج في تقدير بعض المسئولين الا لنحو عشرة مليارات دولار سنويا لمدة عشر سنوات لاستثمارها ، **بحيث تصبح سلة الغذاء ليس للأمة العربية وحدها ، وانما للعالم أجمع** (٧٠) .

ان التنسيق في خطط التنمية الاقتصادية على

---

(٦٩) لقد انعقد في شهر يوليو سنة ١٩٨٠ بعمان ، مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد العرب ، وانتهى الى قرارات عديدة يمكن تلخيصها في عبارة مجملة هي : ان التنمية الاقتصادية والتكامل الاقتصادي العربي هو السبيل الفعال لتحرير فلسطين ، وان السياسة والاقتصاد وجهان لعمله واحدة . كما أوصى بعقد مؤتمر القمة العربي العاشر بعمان في شهر نوفمبر سنة ١٩٨٠ ، بحيث يكون بمثابة أول مؤتمر قمة عربي اقتصادي ، بهدف الخروج بالقرارات من نطاق الدراسة والتوصية الى نطاق العمل والتنفيذ .

كما انعقد ايضا في شهر يوليو سنة ١٩٨٠ بعمان ، المؤتمر الطارىء لوزراء خارجية الدول الاسلامية وذلك لبلورة استراتيجية اسلامية تجابه كلا من التخلف الاقتصادي والسرطان الاسرائيلي . وقد أوصى بعقد مؤتمر القمة الاسلامي الثالث بمكة المكرمة في شهر ديسمبر سنة ١٩٨٠ .

واذا كان الشغل الشاغل للمؤتمرات المشار اليها هو قضايا التخلف والاراضي الاسلامية المحتلة في فلسطين والقدس وأفغانستان ، فان من أقوى الأسباب للتعجيل بحل هذه القضايا هو تنمية القوى الاقتصادية العربية والاسلامية ، والتنسيق بينها كقوة اقتصادية عالية ضاغطة .

(٧٠) ان المنطقة العربية وحدها تزيد مساحتها على مساحة اوروبا كلها حيث تبلغ ٣ مليارات فدان ، ولا تتجاوز المساحة المزروعة فيها ١٢٠ مليون فدان (نحو ٥٠ مليون هكتار) ، أي بواقع فدان لكل مواطن اذا اعتبرنا عدد العرب حاليا نحو ١٢٠ مليون نسمة ، مما يضطر الوطن العربي الى استيراد أكثر من ٥٠٪ من احتياجاته الغذائية من خارج المنطقة العربية وستزيد هذه النسبة بزيادة الكثافة السكانية .

في حين ان المساحة التي يمكن زراعتها نحو ٦٠٠ مليون فدان ، خلاف نحو ٨٠٠ مليون فدان للمراعي والغابات في الوطن العربي يمكن الاستفادة منها ، الأمر الذي يمكن معه تحقيق الأمن الغذائي ليس للأمة العربية أو الاسلامية فحسب وانما للعالم أجمع .

المستويين العربي والاسلامي ، هو المخرج الوحيد لمواجهة التخلف الذي يعانيه الوطن العربي والعالم الاسلامي وحل مختلف مشكلاته ، ذلك ان ما تفتقده احدى هذه الدول من عناصر القوة والتنمية يتواجد بوفره لدى الأخرى . اكثر من ذلك فان هذا التنسيق وما يصاحبه من تكامل اقتصادي ، هو الحل العملي لتحقيق الوحدة العربية والتضامن الاسلامي المنشودين ، ولن يتحقق ذلك في اعتقادنا الا عن طريق مؤتمرات قمة اقتصادية وليس على مستوى أدنى ، ذلك ان الامكانيات متوافرة ، والدراسات العلمية مستوفاة ، والأجهزة والمنظمات العربية والاسلامية المتخصصة كثيرة ، ولا ينقصنا سوى ارادة الحسم .

* * *

الشعر الشعبى الساخر
فى عصور المماليك*

محمد رجب النجار

---

* ظهر القسم الأول من هذا البحث في العدد الثالث المجلد الثالث عشر صفحات ٦٣ - ١٤٦ .

٨/١ رثاء الحيوان السياسي

من أكثر أغراض الشعر العربي طرافة رثاء الحيوان ، ووجه الطرافة الذى يعنينا هنا أن هذا الرثاء غالبا ما يكون رمزيا . . ويكون الحيوان رمزا لموضوع سياسي ، ما كان بمقدور الشاعر أن يصرح به ، حتى لايقع تحت طائلة غضب الخليفة أو السلطان . ومن أشهر النماذج القديمة في ذلك قصيدة أبي بكر العلاف البغدادى ، أحد ندماء الامام المعتضد بالله ، وهى مرثية طويلة في رثاء هر ، وقد وصفها ابن خلكان بأنها « من أحسن الشعر وأبدعه » وعددها خمسة وستون بيتا ، وروى معظمها وكذلك رواها الدميرى . . . ومطلعها :

ياهر فارقتنا ولم تعد   وكنت عندى بمنزل الولد
فكيف ننفك عن هواك وقد   كنت لنا عدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرسنا   بالغيب من حية ومن جرد

وفيها يتحدث ابن العلاف (ت ٤١٨ هـ) عن بطولة هذا الهر ، وشجاعته في مواجهه خصومة . . حتى كادوا له« وساعد النصر كيد مجتهد » فسقط في أيديهم ، وقتلوه في غير رحمة ، ثم يحذر خصومه من « وثبة الزمان » و « عاقبة الظلم لا تنام وان تأخرت » ثم يتوجه باللوم الى الهر نفسه حين تسلق « برج الحمام » حتى « لقي الحِمام » وما كان اغناه عن ذلك كله وهو الذي يعيش « في نعمة وفي دعة وقد نقل الدميري عن معاصري ابن العلاف بانه « كني بالهر عن ابن المعتز حين قتله المقتدر ، فخشي من المقتدر ونسبها الى الهر وعرض به في ابيات منها » . وقيل « انما كنى بالهر عن المحسن بن الوزير ابي الحسن علي بن الفرات ايام محنته لأنه لم يجسر ان يذكره ويرثيه »(١٥٠) وعلى الرغم مما في هذه القصيدة من فكاهة وهزل ، فان المسحة العاطفية الغالبة عليها هي الحزن والأسى . .

هذا الرثاء السياسي تحول على يد الفنان الشعبي في عصور المماليك الى سخرية خالصة . . وهزل خالص . . وفكاهة خالصة دون ان يغيب الرمز او يضيع في زحمة الاحداث والطرائف ، ومن اشهر نماذج الرثاء التي وصلتنا كاملة من العصر المملوكي قصيدة في رثاء الفيل « مرزوق » الذي كان يتباهى به السلطان الناصر فرج . . . وهو فيل عظيم الخلقة ـ كما وصفه ابن اياس وعلى ظهره صندوق خشب يجلس عليه فيه نحو عشرة جنود يضربون بالكثوسات (موسيقى السلطان) وكان من جملة الهدية التي أرسلها اليه تيمورلنك عقب ان دمر الاخير معظم مدن الشام (سنة ٨٠٣هـ) وفعل جنده بها اعظم

---

(١٥٠) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٤٠٢ ـ ٤٠٤

الاهوال ، ومنها دمشق التي أباحها تيمور لنك لجنده ثمانين يوما فعلوابها وبأهلها ما شاءت لهم بربريتهم المتوحشة ، وقد وصف المؤرخون هذه المأساة بانها « من اعظم فتن قرن الثمانمائة » كل هذا والناصر فرج متقاعس عن الخروج للحرب مشغول بالراح وحب الملاح على حد تعبير ابن اياس « وحتى ذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة » فلما تحرك بجيوشه الى الشام حدث ان داهم المرض تيمور فانسحب بجيوشه من الشام بعد ان « تركها اطلالا بالية ورسوما خالية لا ترى بها دابة تدب ولا حيوان يهب » غير ان جيوش السلطان الناصر فرج كانت قد لحقت بها . وبدلا من ان ينقض على تيمور المريض وجيشه المنسحب بادر فقبل صلحا مخزيا عرض عليه ، وآثر العودة بين سخط الخاصة وغضب العامة الى القاهرة متباهيا بجملة الهدايا التي اهداها له تيمور ومن جملتها هذا الفيل مرزوق ، وشاءت سخرية الاقدار ان يموت ذلك الفيل عقب وصوله بمدة وجيزة شر ميتة حين كان هذا الفيل في نزهته اليومية بصحبة رجال السلطان نحو بولاق ، اذ يحدث ان يدوس الفيل على « بجمون » عند مكان اسمه « قنطرة الفخر فانخسف به البجمون وغاصت رجله فيه الى فخذه فلم يقدر احد من الناس ان يخلصه فاقام على ذلك ساعة ثم مات » او بالاحرى لم يشأ احد من العوام ان ينقذه فقد رأوا فيه رمزا لهذا الصلح المزري ورأوا فيله رمزا لجور السلطان ، اذ كان يخرج به رجاله فيجبرون الناس على دفع الاموال بالباطل ويهددونهم بالقائهم تحت قدميه بغير تميز بين غني وفقير بما في ذلك فقراء الصوفية الذين اهينوا على ايديهم فاستحقوا ان يدعوا عليهم حتى استجاب الله لهم فكانت ميتة الفيل على هذا النحو الشنيع في الوقت الذي عجز فيه جند السلطان ـ على كثرتهم ـ عن انقاذ مرزوق الذي يموت بين ايديهم ، على حين تلوثت « الى الغاية » ملابسهم المزركشة الجميلة . . . « فلما اشيع ذلك في القاهرة خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه وقد غلقت الاسواق في ذلك اليوم بسبب الفرجة وكان يوما مشهودا ، وقد رثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف » الذي نعرف فيما بعد ان هذا الزجال هو ناصر الدين الغيطي وقد كان العامة يترنمون بها ويغنونها في الطرقات :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللي جرى — الفيل وقع يوم الاتنين في القنطرة
لما افلسوا غلمان الفيل — رامو الجزاف
خدوه وراحوا صوب بولاق — يجبوا المطاف
رأوا شيخ من اهل الله — ما فيه خلاف
جو يا خدوا شاشو منو بالزنطرة — دعا على الفيل اتقنطر في القنطرة

* * *

قالوا بانوا في البجمون   مغروس يصيح
قلت حتى اروح ابصر   ان كان صحيح
آجي الاقي الفيل ميت   ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره مستظهره   لما وقع يوم الاتنين في القنطرة

●●●

واولاد ديار مصر السادة   حولو زمر
يتعجبوا من هذا الفيل   اللي انحصر
رأوا دموع عينو تجري   مثل المطر
ولو جعير والعالم دول متفكره   لما وقع يوم الاثنين في القنطرة

●●●

فقلت لو يا فيل مرزوق   يا اسود دغوش
اين حرمتك بين العالم   وانت تهوش
وكنت يا فيل السلطان   زين الوحوش
وكنت بالاعجاب تزهو في المخطرة   وقد بقيت اليوم مطروح في القنطرة

●●●

والفيل لسان حال ناطق   للناس يقول
كم كنت ادور في الزفة   فوقي طبول
وكنت أنا أدور في المحمل   ولي قبول
كني عروسه حين تجلى في المنظرة   واليوم كان اخر مشيي في القنطرة

●●●

وقالت الفيلة مراتو   من لي معين
سهم الفراق قد صاب قلبي   يا مسلمين
ونا غريبة هندية   قلبي حزين
وكان هذا الفيل زوجي لا معيره   اليوم كان آخر عمرو في القنطرة

●●●

وعيطت حتى أبكت   جيرانها
من كتر ما ناحت ناحوا   لأحزانها
من نارها صارت تلطم   بودانها
حتى الزرافة جاءت متحسرة   تبكي على الفيل اللي مات في القنطرة

• • •

لما ظهر دا في شعبان   آخر رجب
لاحت لنا فيه نجمه   لها ذنب
فقالت العالم اجمع   دا لو سبب
وايش دلايل ذي الكوكب يا من دري   دلت على الفيل اللي مات في القنطرة

• • •

يا ناصر الدين من عمري   ادر الدخول
والناس تقول اني قيم   صاحب قبول
لما هلك ذا الفيل مرزوق   فصرت أقول
تعا اسمعوا يا الله يا ناس اللي جرى   الفيل وقع يوم الاتنين في القنطرة

لقد كان الفيل في نظر « اولاد مصر السادة » رمزا لبطش السلطان وجوره ولغرور مماليكه وغلمانه الذين ساموا الناس سوء العذاب وهم « يجبون المطاف » فلما سقط مرزوق سقطت معه « حرمته من العالم » على الرغم من « تهويشه وجعيره » على حين ذهب الخيال الشعبي يتخيل امرأة الفيل « الهندية » وهي تندب زوجها لا معيره وتنوح وتلطم بودانها دون ان يأبه بها الا جيرانها وزرافة جاءتها متحسرة (من المماليك) ، اما العوام فقد راحت تطلع فوق ظهره مستظهرة مستنصرة في موقف المتفرج ، على حين ان المماليك عجزوا عن انقاذ فيل السلطان الذي كان يتيه به عجبا وتدق الكوسات عسكريا من فوق ظهره وتوطأ الناس تحت أقدامه الثقيلة اذا لم تدفع ما يقرر عليهم من اموال بالباطل ، الامر الذي دفعهم الى الشماتة واعلان سخريتهم من هذا المصير المأساوي الذي دلت عليه نجمة لها ذنب(١٥١) يعلق رشدي صالح على هذه القصيدة الزجلية بقوله « انها واحدة من هذه المنظومات التي انشأها العامة في نقد السلطتين الزمنية والروحية . . . وانت ترى في هذا الزجل سخرية من السلطان نفسه ويصور لنا

---

(١٥١) بدائع الزهور ٢٩٨ - ٢٩٩

الشاعر عجز الفيل الذي راح ينخرط في بكاء الضعفاء ويرسل جعيرا عظيما وهو بهذا يمس السلطان نفسه(١٥٢) .

واذا كان رثاء الشاعر الشعبي للفيل مرزوق وأشباهه من حيوانات السلطة ينطوي على روح الشماتة والعداء فثمة حيوان شعبي ظل اثيرا لدى الشعراء والعوام وهو الحمار الحيوان الوحيد الذي سمح لابناء الشعب مهما علا شأنهم بركوبه دون الخيل والبغال التي كانت مقصورة على رجال السلطة وحدهم في ضوء النظم الطبقية السائدة ولهذا فليست محض مصادفة ان يتخذ الشاعر الشعبي من موت الحمار موضوعا شعريا رائجا في هذا العصر ، وليست محض مصادفة كذلك ان يعني بعضهم بجمع مراثي الحمير في مجلدة جيدة(١٥٣) بعد ان ارتقى معظمهم بالحمار الى مرتبة الكائن العاقل والصديق الكامل فراح يناجيه ويبثه آلامه ويشكو له همومه ، فاذا مات راح يرثيه ويرثي من خلاله موت احلامه وموت اماله وينعي جده العاثر ويندب حظه الضائع ويكبر فيه ذكاءه الذي لا ينفذ ، ويبكي فيه مواهبه التي لم تقدر ويستبكي القيم والمثل العليا التي ماتت ـ مثله ـ ايضا وهو في هذا كله انما يلقي بمسئولية موته ـ وحمار هذا العصر لا ينفق الا بسبب جوعه وجوع صاحبه دائما ـ على كاهل السلاطين والوزراء والامراء الذين يرمز اليهم الشاعر حينئذ ، وبعد ان يطفح به الكيل بالكلاب ، فاذا ما وضعنا في الاعتبار ان الشاعر يربط ـ من حيث الاسباب والنتائج بين حاله وحال حماره ، حق لنا القول : ان الشاعر الشعبي انما كان يرثى ذاته وينعي عصره قبل ان يرثي حماره وينعي واقعه البائس .

كان رثاء الحمار قبل هذا العصر موضوعا انسانيا قبل ان يكون موضوعا سياسيا كما كان الشأن في عصر المماليك ، فقد سبق لابن عنين (توفي سنة ٦٣٠هـ) الشاعر المتمرد الساخر المشهور بقصيدته الهجائية الساخرة المطولة التي تتألف من خمسمائة بيت سماها مقراض الاعراض في نقد عصره سياسيا وهجاء الطبقة الحاكمة وعلى رأسها صلاح الدين والوزراء والامراء والقضاة ، ونحا في ذلك كله منحى شعبيا ساخرا توسل فيه بالفاظ العامة وعباراتهم ونعوتهم في الثلب والسباب على نحو خادش للحياء(١٥٤) الامر الذي ادى الى ان حكم عليه صلاح الدين بالنفي ـ الى الهند ـ مدى الحياة . .. قد سبق له ان رثى حماره رثاء جادا نبيلا . . بعد ان ايس من معاصريه وفقد الثقة بهم . اما البهاء زهير (توفى سنة ٦٥٦هـ) فقد مضى يرثى بغلته ـ وكان بمقدوره امتلاكها في زمن الدولة الايوبية ـ رثاء هزليا

---

(١٥٢) الأدب الشعبي ، ١ : ١٠٤ والفنون الشعبية ص ٨٢

(١٥٣) الغيث المسجم ٢ : ٢٣٥

(١٥٤) ديوان ابن عنين ص ١٧٩ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ٤ : ١٠٦ ، وتاريخ ابن الورى ٢ : ٢٤٠ .

شعبيا ليست وراءه رموز سياسية او اقتصادية او اجتماعية(١٥٥) كما كان الشأن في عصور المماليك حيث برز في هذا الشعر السياسي الرمزي الشاعر الشعبي المتحامق ابو الحسن الجزار الذي كان فارس هذه الحلبة بغير جدال حيث ذكر الصفدي ان « بعض الافاضل قد حكوا له انه جمع في مراثي حمار ابي الحسن الجزار مجلدة جيدة »(١٥٦) لم يصلنا للاسف الا ما نهلت منه كتب الادب منها هذه القصيدة في رثاء حماره : . . .

ما كل حين تنجح الاسفار   نفق الحمار وبارت الاشعار
خرجي على كتفي وهاء انا دائر   بين البيوت كأنني عطار
ماذا عليَّ جرى لأجل فراقه   وجرت دموع العين وهي غزار
لم انس حدة نفسه وكأنه   من ان تسابقه الرياح يغار
وتخاله في القفر جنا انما   ما كل جن مثله طيار
واذا اتى للحوض لم يخلع له   في الماء من قبل الورود عذار
وتراه يجري رجله في زلة   برشاشها يتنجس الخطار
ويضيق في وقت المضيق فيلتوي   فكأنما بيديك منه سوار
ويسير في وقت الزحام برأسه   حتى يحيد امامك الحضار
لم ادر عيبا فيه الا انه   مع ذا الذكاء يقال فيه حمار
ولقد تحامته الكلاب واحجمت   عنه وفيه كلها تحتار
راعت لصاحبه عهودا قد مضت   لما علمن بأنه جزار
. . . . . . الخ(١٥٧)

هذا هو حمار الجزار الذي نفق فبارت الاشعار بموته فحق له ان يبكي عليه بدموع العين ومأساته انه مع ذا الذكاء يقال فيه حمار مع انه يعرف هدفه جيدا ! ، وكيف يواجه المواقف الصعبة ، وهو لايؤذي في طريقه الا « الخطار » اي رجال الامن !! ، حتى « تحامته الكلاب واحجمت عنه » خشية صاحبه الجزار !! ونستطيع ان ندرك معنى الكلاب عند الجزار حين نقرأ له :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ   ـت ، حفاظا وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجيـ   ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

---

(١٥٥) ديوان البهاء زهير ص ٢٧٧

(١٥٦) الغيث المستجم ٢ : ٢٣٥

(١٥٧) نفسه وانظر مطالع البدور ٢ : ٢٠٢ حيث أخذنا بروايته في بعض الأبيات .

طفق الجزار بعد ذلك يتلقى « التعازي » في فقيده الغالي « من الشعراء المعاصرين وعلى رأسهم البوصيري الذي قال ساخرا :

فلا تأس يا ايهذا الاديب   عليه فللموت ما يولد
اذا انت عشت لنا بعده   كفانا وجودك ما نفقد

وواساه شاعر اخر بقوله :

مات حمار الاديب قلت لهم   مضى وقد فات فيه ما فاتا
من مات في عزه استراح ومن   خلف مثل الاديب ما ماتا

وهو رثاء تشيع فيه روح السخرية والتهكم اكثر مما تشيع فيه روح الحزن بطبيعة الحال ، ويقابل الجزار ـ بتحامقه المعروف ـ هذه الروح الساخرة بمثلها . اذ يحدث ان بعضهم رآه ماشيا عقيب موت حماره ، فتهكم عليه فقال الجزار :

كم من جهول رآني   امشي اطلب رزقا
وقال لي صرت تمشي   وكل ماش ملقى
فقلت مات حماري   تعيش انت وتبقى⁽¹⁵⁸⁾

والطريف ان هذا الحمار نفسه يوم كان حيا ، كان موضع سخرية صاحبه ايضا :

هذا حمار في الحمير حمار   في كل خطو كبوة وعثار
قنطار تبن في حشاه شعيرة   وشعيرة في ظهره قنطار

كذلك كان شأن السراج الوراق ـ احد شعراء التحامق في مدرسة الجزار ، وصديقه الاثير ـ حين نفق حماره اثر سقوطه في بئر فراح يتلقى فيه العزاء شعرا ، وكان ممن رثاه الوزير الشاعر الصاحب بهاء الدين بن حنا الذي كان قريبا من العامة فقال :

يفديك جحشك اذ مضى مترديا   وبتالد يفدي الاديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا رأى   تبنا وراح من الظما كالتالف

---

(١٥٨) الغيث المسجم ٢ : ٢٤٥

ورأى البؤيرة غير خاف ماؤها   فرمى حشاشة نفسه لمخاوف
فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم   هذي المكارم لا حمامة خاطف
قوم يموت حمارهم عطشا   ازروا بحاتم في الزمان السالف

فهو اذن مات من الجوع ومن عجز صاحبه عن توفير القوت او حتى الماء بعد ان ماتت فضيلة الكرم في ذلك الزمان . . كما يقول ابن حنا ، فينتهز السراج الفرصة ، ويلقي بتبعة ذلك على ضيق ذات اليد . . حيث لا وظيفة عنده ولا مال لديه فيقول في قصيدة طويلة منها :

ولكم بكيت عليه عند مرابع   ومراتع رشت بدمعي الذارف
يمشي على عسري ويسري صابرا   بمعازف تلهيه دون معالف
وقد استمر على القناعة يقتدى   بي وهي في ذا الوقت جل وظائفي
ودعاه للبئر الصدي فاجابه   واعتاقه صرف الحمام الازف
وهو المدل بألفة طالت وما   انسى حقوق مراتعي ومآلفي
وموافقي في كل ما حاولته   في الدهر غير موافقي ومخالفي
دوران ساقية لطاحون ونقل   الماء في شات ويوم صائف
لكن بماء البئر راح بنقلة   قتلته شومات بموت جارف
. . . . . . (١٥٩)

فالحمار الفقيد اذن قد انتحر يأسا من حياة لم يعد يجد فيها ما يسد به رمقه ويقيه شر الجوع . . . وهو اذا كان قد تخلص من حياته بسبب قطرة ماء فلأن صاحبه نفسه لم يعد يجدها وليس لأنه بخيل كما يزعم الشاعر الوزير ابن حنا ، فهو عاطل عن الكسب مع قدرته عليه في ظل وزارته الميمونة ، فمن اين له ان يقيم اوده بله حماره الضحية .

وكذلك كان شأن ابن دانيال الذي سار على خطى هذه المدرسة في التحامق غير انه هذه المرة اتخذ من « البرذون » موضوعا لرثائه الساخر (وكانت الخيل والبغال مقصورة في عصره على طبقة الحكام فاتخذ منها رمزا دالا على المماليك) والبرذون هو « التركي من الخيل وخلافها العراب » (١٦٠) فرثى عجزه وجبنه في احدى تمثيلياته الظلية (طيف الخيال) وسخر كذلك من صاحبه الامير وصال الذي لا يقل

---

(١٥٩) فوات الوفيات ٢ : ٣١٧

(١٦٠) المنجد في اللغة ، مادة بَرْذَ

عن برذونه ضعفا وجبنا (وهو هنا رمز للخليفة العباسي العاجز الذي كان العوبة في يد سلاطين المماليك) قال :

قد كمل الله برذوني لمنقصة وشأنه ، بعدما ابلاه بالعرج
أسير مثل اسير ، وهو يعرج بي كأنه ماشيا ينحط من درج
فان رماني على ما فيه من عرج فما عليه ـ اذا مت ـ من حرج

فلما شاع نبأ موت هذا البرذون التركي « برز مرسوم المقر الصاحبي الفخري » لتعويض الامير وصال عنه ولكنه لا يلبث ان يتلكأ في ذلك ، فيكتب اليه الامير وصال قصيدة ينعي فيها برذونه « الفقيد » ويسخر فيه عجزه وجبنه ، ويطلب اليه ان يبادر بتحقيق وعوده ، فيقول ابن دانيال على لسانه في قصيدة طويلة مطلعها :

أيا وزيرا اعيذ منصبه من الأعين بآية الحرس

ومما جاء فيها :

دع ما حكوه عن وقعة الجمل وخذ شرح وقعة الفرس
برذون سوء والناس تعرفه ذا عرج ، بل اصم ذا خرس
يرفس من كثرة الذباب الى ان يخاله معشر من الشمس
وربما اوحلته بولته فان يبل في التراب ينغرس
وان يسسه الغلام يحتك بالحيطان حتى كأن لم يسس
يخاف من رؤية الذباب فما يأكل قضما الا مع الغلس
اذا رآه كلب عوى قرما وثبا عليه في زي مفترس
يحسبه جيفة وحسبي من ركوبه انني على نجس
حاز جميع الامراض قاطبة ولم يفته منه سوى الضرس
فانعم بتعويضه عليّ فلي وعد مولاي ما اظنه نسي
....
فانني ذلك الملجي بشكرك ولكنني اخو فلس

واخيرا ينعم الوزير على الامير وصال بطرف كامل الظرف ، أي ببغل قوي ولكن شتان بين هذا البغل التركي والخيول الكريمة المشهورة عند العرب كاليحموم والورهاء والشقراء والغبراء وهي مقارنة ذكية تشير الى الفروسية العربية في عصور مجدها الغابرة(١٦١) .

في ضوء هذا العرض لرثاء الحيوان الرمزي يمكن القول بان الفنان الشعبي اتخذ من رثاء الفيل معادلا موضوعيا لرثاء عصر الهزائم امام تيمورلنك ، ومن الحمار معادلا موضوعيا لرثاء ذاته ونعى واقعه الاقتصادي والاجتماعي ، ومن البغل معادلا موضوعيا للسخرية من دور المماليك في احياء الخلافة العباسية احياء شكليا يتوقف عند حدود استعطائه برذونا لا يقل بؤسا عن راكبه بعد ان « حال به الحال ومال المال وذهب الذهب وسلب السلب وفضت الفضة » على حد تعبير ابن دانيال وهو يمهد لاعلان افلاس الامير وصال الذي افترست الايام فرسه العربية الاصيلة ولم يعد يركب الا هذا البرذون الكسيح ، ولعل خير ما نختتم به هذه الفقرة ذلك المواليا الذي يجسد فيه الفنان الشعبي مأساة الشعب العربي بعامة تجسيدا رمزيا ساخرا وردده العامة وراء ابن سودون حين قال :

الثور والبقرة دي العام ومن قبله
في مصر والشام مع غزة مع الرملة
هذيك تحبل وتولد عجل او عجلة
وذاك في الساقيا يأكل بفرقلة

وليت الامر وقف عند هذا الحد فاذا ما اعترض هذا او ذاك ـ وهو المعادل الموضوعي هذه المرة للشعب المغلوب على امره ـ كان نصيبه الموت وحق لابن سودون ان يرثيه هذا الرثاء المر بهذا المواليا « الممعن في السخر الى درجة المأساة » :

ليش يا بقيري انا اسمعك تقول امبوه
كمن ابنك خدوه الناس وما حبوه
يا بخت ذا اكلوه من عظم ما حبوه
ما عاد يحتاج لأمه ولا لمبوه(١٦٢)

---

(١٦١) خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ص ١٦٧ ـ ١٧١

(١٦٢) الأوزان الموسيقية في أزجال ابن سودون ص ٨٠ وثمة تغيير طفيف في رواية كتاب هز القحوف انظر ص ٩٧ ، والفرقلة أداة تشبه السوط ، لضرب الحيوانات وكلمة « كمن » بمعنى لأن

أجل ما اصدق مقولة عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن ولاية مصر وتباهى بواليه الجديد ابي سرح قائلا « قد درت تلك اللقاح بعدك يا عمرو » فكانت اجابة عمرو في سخرية عبقرية« نعم وهلكت فصالها » .

ثانيا ـ الشعر الاجتماعي :

في ضوء البطش السياسي ، وفي ضوء هذا الحكم العسكري الاقطاعي ، وفي ضوء هذه الاقلية الارستقراطية المملوكية التي استأثرت لنفسها بالسلطة والثروة والنفوذ لأكثر من ستة قرون ، يمكن ان يتجلى لنا مدى القهر الاجتماعي الذي لحق بالشعب العربي الى الحد الذي لم يعد تتوفر له فيه ابسط حقوقه المشروعة كالمأكل والمسكن والملبس وغيرها ، الى درجة الحرمان والموت جوعا وعريا على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة ، الامر الذي انعكس في الادب الشعبي العربي ـ شعره ونثره ـ صرخة انسانية عالية هي صرخة الفقراء والجياع والمشردين على نحو لم يعرفه الادب العربي كله في سائر العصور .

ومها كان من شأن هذا التصوير الساخر لحياة الشعب الاجتماعية فسوف يبقى لهذه السخريات دلالالتها السياسية والاقتصادية قبل كل شيء مثلما كانت لها دوافعها وبواعثها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولا سيما في فترات التمزق السياسي والتحول التاريخي والاضمحلال الحضاري وفي هذا الفصل الذي سيخلو من المادة التاريخية مكتفيا بما تقدم منها ـ نركز على الجانب الادبي مباشرة مكتفين بعرض النماذج الكثيرة التي سوف نضطر اضطرارا الى اختصارها او حذف بعضها مع الاحالة الّيها في مظانها الاصلية ، ولن نتدخل هنا الا بالقدر الذي تمليه طبيعة العرض او التصنيف ولكن علينا ان نشير الى ان موقف الشاعر الشعبي ظل ثابتا واصيلا . . . فهو قد وقف موقف الرافض تارة والمتمرد الساخر تارة أخرى ، اذ شتان ما بين اقلية تستأثر لنفسها بكل شيء من المال والنفوذ والسلطة وبالطعام الهنيء والعيش الرغيد وسكنى القصور الفخيمة ، وبين اغلبية شعبية كبيرة لا تمتلك قوت يومها ولا تنعم بشيء مما تصنعه بأيديها او تنتجه بعرقها ووصل بها الحال الى اقصى درجات الحرمان ، فراحت تكتفي بوصف الاطعمة الفاخرة التي حرمت منها وتصف بؤس لبسها وبؤس مأكلها وبؤس مسكنها ، واذا كنا هنا في غير حاجة الى تبيان ما للسخرية من علاقة وثيقة بشتى الظواهز الاجتماعية فانه من حقنا ان نشير هنا الى انه لا يوجد عصر ادبي من عصورنا الادبية الطويلة الممتدة كان احفل بقضايا العدل الاجتماعي ومحاربة القهر الاجتماعي مثلما فعل الادب الشعبي عامة والساخر خاصة في العصور المملوكية .

واذا كانت هذه هي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية عند عامة سكان العاصمة والمدن فكيف يكون الحال عند اهل الريف وسكان القرى ؟ طويلة هي الاجابة ولكن ثمة معادلة مادية او « خراجية » تجيب عنها فيما يشبه اللغز الذي اسهب في شرحه المؤرخون والادباء المعاصرون ، وعلى رأسهم ـ على سبيل المثال ـ المقريزي في كتابه الرائد « اغاثة الامة بكشف الغمة » ، والسبكي صاحب « معيد النعم ومبيد النقم » ، والشربيني في رائعته « هز القحوف في شرح قصيد ابي شادوف » . . وكما اسهب فيه المؤرخون والادباء المحدثون . . . اما المعادلة التي اشرنا اليها فهي تتعلق بخراج اهل الفلح والزراعات والحرث وسكان القرى والارياف ، اي بالنشاط الزراعي عامة وقياس الارض وتصنيفها وتسجيلها وتقدير درجة خصوبتها لوضع الخراج عليها وتوزيع هذا الخراج على المماليك وحدهم الى غير ذلك من شئون تتعلق بالارض الزراعية ـ في مصر والشام ـ وهو ما اصطلح على تسميته في ذلك العصر باسم الروك وفي أيام كبار سلاطين المماليك كان يترك للرعية نصيبا ولو ضئيلا . . ولكن في عهد ضعاف السلاطين ـ وما اكثرهم ـ جاروا على هذا النصيب وضموه لانفسهم . . كان روك مصر آنذاك اربعة وعشرين قيراطا يفترض ان توزع على هذا النحو تقريبا : اربعة للسلطان وعشرة للجند وعشرة للرعية ، ولكن الذي يحدث عادة ان ضعاف السلاطين اما جشعا واما خوفا وارضاء لنهم الامراء والجند الذي لا يحد يعيدون توزيع الروك على هذا النحو وتلك هي المعادلة الدالة في الموضوع : اربعة للسلطان وعشرة للامراء وعشرة للاجناد ، وهو في توزيع اخر احد عشر قيراطا للجند وثلاثة عشر قيراطا للسلطان ، اما الرعية في الحالين فنصيبها هو التراب او بالاحرى القيراط الخامس والعشرون ومكانه مملكة السماء على حد تعبير احد العلماء المحدثين ، وكان طبيعيا في مثل هذا المجتمع ان تلحق الاوبئة الفتاكة والطواعين المدمرة بالفقر والجهل والبؤس ، وكان طبيعيا ايضا ان تتفشى فيه تيارات سلبية كثيرة ومفاسد اجتماعية اكثر تدميرا . . وكان طبيعيا كذلك ان يواكب الشعر الشعبي الساخر ذلك كله(١٦٣) وكان طبيعيا ايضا ان يكون تصوير الشاعر الشعبي لهذه الحوادث الاجتماعية والاقتصادية نابعا احيانا عن صداها العميق في نفسه وانفعاله به ـ ذاتيا ـ ولكنه ـ بحسه الشعبي وحدسه الجمعي ـ كان يلتقط دائما ما استقر في اعماق الجماعة التي يعيش بينها ويعاني مثلها من مشاعر ومعاناة فيبرزها مجسمة امامها في صورة ادبية تروعهم وتشعرهم انه ينطق عما في قلوبهم وبذلك تندمج الذات في الموضوع وتلك سمة فنية طاغية على هذا الشعر الاجتماعي .

---

(١٦٣) حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكى في دراسات المحدثين انظر على سبيل المثال :

ـ الأدب في العصر المملوكي ١ : ٤٧ ـ ١٠٤

ـ تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادى ص ٣٨٣ ـ ٤٩٥

ـ المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك

٢/ ١ وصف الأطعمة

من الموضوعات الكبرى التي استأثرت بجانب كبير من الشعر الشعبي في تلك العصور ، الطعام والحرمان منه ، والاشتهاء اليه ، فالشعراء من العامة ، فقراء مثلهم يعانون مثلهم ، ولكنهم اكثر وعيا ، ـ وأكثر احساسا بالظلم ، وأعمق شعورا بمظاهر الحرمان الذي طال أمده ، بعد أن استأثر سلاطين المماليك وأعوانهم بكل خيرات البلاد ، ولم يتركوا لأهلها غير فتات ، ومن ثم لا غرو أن يتمرد الشاعر الشعبي ، في سخرية لاذعة ، على هذا الواقع المتناقض ، على نحو ما تمرد : شعراء العصور السابقة (١٦٤) وان بزهم وتفوق عليهم كثيرا .

على الرغم من أن الحروب الخارجية كانت قد استنفدت خزينة الدولة في أوائل العصر المملوكي فان الحرمان ، كان مقبولا آنذاك . . فقد دار أغلب شعر الطعام حول افتقاد الحلوى وبخاصة في شهر رمضان ، حيث العادات والتقاليد الشعبية التي غرسها الفاطميون كانت قد استأصلت في الناس وأقرهم عليها سلاطين بني أيوب وسلاطين المماليك من بعد ، ومع كثرة الضرائب وارتفاع الأسعار ، أصبح إحياء بعض هذه العادات مقصورا على الاغنياء والأثرياء . . وبدأت تتبخر أحلام الفقراء في شرائها ، والاكتفاء أحيانا بالنظر اليها ومداعبتها . وهي معروضة في المحلات ، ولكنه اكتفاء العاجز ، ومداعبة المحروم . .

ورائد هذه الحلبة بغير منازع في أوائل هذا العصر هو أبو الحسين الجزار ، الذي أفرد بابا في شعره للحديث عن « الكنافة » والقطايف الرمضانية وعلى الرغم من انه موضوع قد ذكره بعض الشعراء قبل عصر الجزار ـ فانهم بعده قد طرقوه بشدة وأكثروا فيه ، الأمر الذي دفع إماما جليلا كالسيوطي الى جمعه في مجلدة كبيرة سماها « منهل اللطايف في الكنافة والقطايف » .

يقول الجزار عند ما حل به شهر الصوم ، وقد وقف أمام « دكان الكنافة » :

ما رأت عيني الكنافة الا   عند بياعها على الدكان
ولعمري ما عاينت مقلتي قطـ   ـرا سوى دمعها من الحرمان
وكم ليلة شبعت من الجو   ع عشاء اذا جزت بالحلواني
حسرات يسوقها الطرف للقلـ   ـب فويل للفكر عند العيان
كم صدور مصففات وكم من   شبك دونها وكم من صواني

---

(١٦٤) انظر كتاب : أثر المعدة في الأدب العربي . بهيج شعبان ، بيروت سنة ١٩٦٦

ولكن هذا المشتاق الهائم في غرام الكنافة ، قد يصبر ويتحمل « أيام المخلل » ولكن من أين لزوجته أن تصبر وتتحمل ، ورائحة الكنافة تصدم أنفها في الافطار والسحور ، فيعمد الى الشكوى والتحامق كعادته حتى يتحاشى تقريع زوجته ، فيقول :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر　　وجاد عليها سكرا دائم الدر
وتباً لأيام المخلل إنها　　تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
أهيم غراما كلما ذكر الحمى　　وليس الحمى الا القطارة بالسعر
واشتاق ان هبت نسيم قطايف السـ　　ـحور سحيرا وهي عاطرة النشر
ولى زوجة إن تشتهي « قاهرية »　　أقول لها : ما القاهرية في مصر

ثم يعمد الى تحامقه في نص آخر ، مؤكد أن اقصى أمانيه هو حصوله على الكنافة والقطايف ، فيقول :

تالله ما لثم المراشف　　كلا ولا ضم المعاطف
بألذّ وقعا في حشا　　ي من الكنافة والقطايف (١٦٥)

ومع ازدياد الأوضاع الاقتصادية سوءاً لم تعد الكنافة أملا يراود الفقراء في رمضان ، فقد أصبح تناولها ترفا ، ولكن الطعام قليل ، والنفوس صابرة ورمضان على الأبواب ، فهل أرفق بعسرهم ؟ يعطينا شرف بن أسد المصري ذلك الشاعر الشعبي الماجن الظريف على حد تعبير الصفدي الذي وصفه بانه « كان عاميا مطبوعا ، قليل اللحن ، ويمتدح الأكابر ويستعطي الجوائز ، وصاحب نوادر وامثال وله شعر كثير من البلاليق والازجال والموشحات وغير ذاك » ، وقد توفي سنة ٧٣٨ هـ ، يعطينا صورة طريفة لرمضان في فصل الصيف ، حيث القيظ والعسر معا في بليقة طويلة مطلعها :

رمضان كلك فتوة　　وصح دينك عليه
وانا في ذا الوقت معسر　　واشتهى الارفاق بيه
حتى تروى الأرض بالنيل　　ويباع القيراط بذرى
وأعطيك الدرهم ثلاثة　　وأصوم شهرين وما أدرى
وان طلبتني ذا الوقت　　فانا أثبت عسرى
فامتهل وأربح ثوابي　　لا تربحني خطية

---

(١٦٥) المغرب في حلى المغرب ١ : ٣٢٥-٣٢٦

ثم يشرع في تحامقه مهددا رمضان بعدم الاعتراف بدَيْنه عليه .. بل هو مستعد لان « ينكر ويحلف » ثم هو فوق ذلك مستعد للهرب في كنيسة ، من رمضان دون أن يدفع له دينه حتى يمضي الشهر ، فيعود مع عيد شوال :

واهرب واقعد في قمامة   أو في قلالى بوشيه
وأجي في عيد شوال   واستريح من ذي القضية

وثمة حلول أخرى يقترحها الشاعر ، من أطرفها تقسيط صومه ، نصف يوم في كل يوم : الى أن يختتم قصيدته بقوله معتذرا :

وجميع كلامي هذا   بطريق الضحكية
والله يعلم مافي قلبي   والذي لي في الطوية(١٦٦)

ولكننا ، بعد انتهاء عصر السلاطين العظام ، وانهيار النظام النقدي ، وتوالى المجاعات والاوبئة وبخاصة في القرن التاسع الهجري ، وازدياد الفتن والثورات وما رافقها من فوضى واضطراب في الأحوال الاقتصادية والادارية والداخلية ، واهمال الأرض الزراعية وزيادة الضرائب (١٦٧) وما أدى اليه ذلك من بطالة وعجز عن الكسب ، سواء في الأرياف حيث كان الكثيرون يهربون إلى المدينة وخاصة القاهرة أم في المدن نفسها ، حيث كان قد أصابها نفس الانهيار الاقتصادي في التجارة الداخلية والصناعة الحرفية (وبالمناسبة فمعظم شعراء العصر المملوكي من الحرفيين الصغار) .. وعندئذ جأرت أصوات الشعراء بالشكوى التي امتدت حتى نهاية الحكم العثماني ، وقد برز في هذه الفترة شاعران كبيران في الأدب الشعبي ، هما فارسا الحلبة في هذا المضمار ، أحدهما هو ابن سودون (١٦٨) (توفي سنة ٨٦٨ هـ) والآخر هو الشيخ عامر الانبوطي (توفي سنة ١١٧١ هـ) الذي ترجم له الجبرتي (١٦٩) كما برز الى جانبهما شعراء شعبيون آخرون لم يؤثر عنهم سوى نماذج محدودة ذكرها لنا ابن اياس ، أحدهم ـ مجهول الاسم ـ قد رثى الخبز ، « لما عز وتشحط » في مجاعة سنة ٨٥٣ هـ التي اشتد أثناءها وباء الطاعون « وغلا سعر كل شيء وحتى روايا الماء .. وعم الغلاء » ومطلعها :

قسما بلوح الخبز عند خروجه   من فرنه وله الغداة فوار

---

(١٦٦) فوات الوفيات ٢ : ٣٨١ ـ ٣٨٢

(١٦٧) انظر تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادى ص ٣٨٣ ـ ٤٩٥

(١٦٨) انظر في ترجمته : الأدب العامي في مصر ص ٢٠٩ ـ ٢١٦ ، ومقدمة ديوانه « الأوزان الموسيقية في أزجال ابن سودون » ص ٣ ـ ٨ بقلم المحقق . وشذرات الذهب لابن العماد ٧ : ٣٠٧ ـ ٣٠٨

(١٦٩) عجائب الآثار ٢ : ١٩٠ ـ ١٩٢

ذكر ابن اياس ثمانية أبيات منها ، تختلط فيها أماني الجياع بأحلام الفقراء على نحو ساخر (١٧٠)

والشاعر الآخر ، هو الشيخ حسن شمة ، الذي ذكر له الجبرتي « مواليا مشهورا بين الناس وهو نوع من « القرقيا » (١٧١) أى الموال الساخر أو الهزلي : هو

قالوا : تحب المدمس ؟ قلت : بالزيت الحار
والعيش الابيض تحبه ؟ قلت والكشكار
قالوا : تحب المطبق ؟ قلت : بالقنطار
قالوا : اش تقول في الخضارى ؟ قلت عقلي طار ؟

فهو يشتهي الفول المدمس ولو بالزيت الحار (زيت السمسم) والخبز الأبيض ، وغير الأبيض الذي لم تنتزع نخالته ، ويشتهي المطبق أيضا (وهو نوع من الفطير) الى الغاية . . الطريف أنه ـ وهو المحروم الجائع ـ لا زال محتفظا بعقله ، حتى اذا ما عرض عليه لحم طيور الخضارى كان طبيعيا أن يطير عقله وليس في الأمر مبالغة ، فقد حكى المؤرخون أن بعضهم إبان المجاعات كان يتشهى النظر الى الخبز فاذا رآه سقط ميتا ، ومن طريف ما يذكر أن شاعرا آخر يرد على صاحب الموال السابق « في التو واللحظة بقوله :

قالوا تحب المدمس قلت بالمسلى
والبيض مشوى تحبه قلت والمقلى

ولكنها تبقى اماني المحرومين وأحلام الجائعين .

اما ابن سودون الذي كان يعمد الى قالب القصيد في وصف الطعام ، والقوالب الشعبية الغنائية في وصف الحلوى ، فهو أحد فرسى هذه الحلبة كما قلت ، حتى وصفه أحدهم بانه « ذو خيال جائع » (١٧٢) « وهو وصف ساخر ولكنه أصاب المحزّ كما يقولون ، فديوانه المعروف بنزهة النفوس ومضحك العبوس » يقوم في معظمه ، شعرا ونثرا ، على اشتهاء الأطعمةوالأشربة التي كان معاصروه محرومين منها ولا أظن شاعرا آخر في العربية تصدى لتلك المعالجة الساخرة لهذا الموضوع أو أوقف معظم شعره شوقا واشتهاء مثل ابن سودون على نحو ما نرى في قوله :

ترى يشتفى يوما مشوق وجائع ألمت به من ذا العنا وجائع

---

(١٧٠) بدائع الزهور ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(١٧١) عجائب الآثار ٢ : ٢٦٠

(١٧٢) الأوزان الموسيقية ص ٨٤

ويحظى ولو في النوم ما دام عائشا   بوصل فرج طال منه التقاطع
حكت خد معشوق حمارة لونه   ومنه كخد الصب أصفر فاقع
ومن لى بما وردية قد ترادفت   لقمقمة تبكى عليها المدامع
على وجهها كم من قلوب تكسرت   وأني لها بالجبر من بعد طامع
وبدرية الوز الذي قد ترافعت   على صحن رز تحتها بتواضع
تجرى الحشا جريا لنحو صحونها   فيعطفني شوقا لصبري رافع

وبعد ذلك يتحدث عن مصه للأصابع التي تلمس الأوز ، وما أجمل تشبهه لذلك بقوله (فكأني للأصابع راضع) ويستمر في ذكر الأطباق الجرجانية وحلاوة الرغيف الأسيوطي وبعد ذلك يذكر القلقاس فيقول :

لمثلك يا قلقاس قلبي رايد   وما بشرتني بالوفاء الأصابع

ثم تختتم الشاعر قصيدته بمناجاة القلقاس الذي يشع نورا من أثر السمن في الصحون وباشتياقه أيضا الى الملوخية ، فيقول :

أفي ظلمات الجوع أترك حائرا   ونورك بالأدهان في الصحن ساطع
وليس يا ملوخيا بليا تزكلشت   يرى منك يا أم الوشام تمانع
مجمعة الأحباب شملي مشتت   وصحنك ـ غبنا ـ شمل غيري جامع
أثرت بقلبي عامل الشوق والجفا   وطال به للعالمين تنازع
فياليت كُبّا كبتين ثلاثة   بحلقي من المامونيّات طوالع
ليقصر عن قلبي تطاول جوعه   وتوصله بعد القطوع شبايع

ويعلق باحث حديث على هذه الأبيات بقوله : إن الملوخية تجمع شمل الأحباب وهي غبنا جمعت شمل غيره ، على حين تركت شمله مشتتا ، ومن هم هؤلاء الغير سوى أولئك الحاكمين من السلاطين والأمراء الذين ينعمون برغد العيش ، على حين أن الشعب وابن سودون من جملة أفراده يتضورون جوعا وسغبا (١٧٣) .

---

(١٧٣) الجمّال ، الأدب العامي ص٢١٣ ـ ٢١٤ ومصادر النقل الخطية للنص عنده ، نقلا عن مخطوطة ابن سودون : قرة الناظر ق ٣٨ ص ١ ـ ٢ وقد وردت كلمة فرج في النص وهي تعني الفروج من الدجاج ، والتقاطع التخاصم ، وام الوشام وجممة الاحباب من الكنى الساخرة للملوخية وتزكلشت بمعنى تزركشت ومن معانيها الطرب والغناء أيضا .

واذا كان شعراء الطعام فقد فقدوا « لذيذ الفعل » وحرموا من الطعام ، فلا أقل من أن يسروا عن أنفسهم « بلذيذ القول » ويتغنوا « بلذيذ الكلام » وقد أدرك ابن سودون معنى هذا « التعويض الفني » فراح يقول : (١٧٤)

يا واصف الأكل كفيت الملام   أكرر على سمعي لذيذ الكلام
وعن غني في الورى ، معلنا :   « ما طاب وقت قد خلا من طعام »

وبعد أن يناجي عددا من الاطعمة والفواكه ، يتوسل الى اشهاها لقلبه قائلا :

لا تقطع الوصل - حبيبي - وقم   زرني ، ولو بالطيف عند المنام
يامن تحاشى قلبه عن نوى   قم طيب العشاق في ذا المقام

ومن الجدير بالذكر ، أن معظم شعراء الطعام الذين تغنوا بلذيذ الطعام ، غناء العاشق المحروم أدركوا أن وصال هذا المحبوب ، محال عمليا ، فأكثروا من التمنى عليه أن يزورهم طيفه ، في المنام فيما يمكن أن يعد تعويضا فنيا ونفسيا ، حيث تتوق نفوسهم في آفاق لا تحد الى صنوف الأطعمة ـ والفواكه والحلوى والأشربة ، فيكون ذلك بمثابة تعويض لهم في الخيال عما لا يسعهم تحقيقه في الواقع حسب نظرية آدلر المعروفة .

فاذا ما تركنا قصائده وانتقلنا الى منظوماته وأزجاله الشعبية المغناة ، فقد كان ابن سودون نفسه ملحنا ، وعلى دراية كبيرة بالأوزان الموسيقية ، وجدناها من الكثرة بمكان وأمعن في السخرية وأبلغ في الدلالة .

مثال ذلك موشحته الرائعة التي سماها « هكذا حال الفقير » وهي التي يقول في نهايتها بعد أن حرم منها في الدنيا : (١٧٥)

يا أهلى عند موق   كفنوني بالكنايف
واجعلوا السكر حنوطي   واعملوا البانيد لفايف
وانفشوني في المنيفيش   وادفنوني في القطايف
وان دفنتوا لى مويزات   مع عسل مصرى تريرى
فانا ما انغاط ولا شئّ   هكذا حال الفقير

---

(١٧٤) الأوزان الموسيقية من ٩١ ـ ٩٢

(١٧٥) الأوزان الموسيقية ، انظر الموشحة الكاملة ص ١٩

ومن ذلك قوله بعنوان « صلوا على البشير » (١٧٦) :

بالفستق المقشورى   والسكر المخيوري   حشو القطايف يعمل   بالمسك والبخور
يا صاحب القطايف   اتيت باللطايف   كن يا حبيبي طايف   بالله حول دورى
ويا طعام حامض روح لا يرحم الله فيك روح   كن في المزابل مطروح   للبعث والنشور
ويا عزيزي أصفر   مالى أراك موقر   لحضرتي قوم زهر   بالفستق المنشور
يا فيل يا زرافه   لو كان لكم ظرافه   كنتوا تجوا كنافه   بالسمن والقطورى

ويحفل ديوان ابن سودون بعدد كبير من المواليا في مناجاة الطعام منها :

رأيت في النوم عسل والموز فيه قد عام
كنو سمك في برك والقلب لو قد هام
طلبت أنا أمسكو استنبهت ، آه مادام
ضحكت علىّ ، بقيت أبكى عليه في المنام (١٧٧)

وقوله :

يا موز مقشر على قطر النبات مطروح
أوحشتنى لي زمان قلبي عليك مقروح
أهلا وسهلا بمعشوق العوين والروح
يامن أتى بو ، وصل إحسانك ، ارجع روح (١٧٨)

ونمضي مع ابن سودون فنحاول أن نختار من مائدته الوهمية نموذجا آخر ، فما أكثر صنوف الطعام الوهمية التي أعدها وقدمها ، تقديما فنيا رائعا ، في أوعية أو قوالب نظمية شعبية رائجة على أنغام الموسيقى ، إذ من عادته في ديوانه أن يذكر اسم اللحن الموسيقى الذي ينبغي أن يصحبها أو تغنى فيه (١٧٩) ونؤثر أن نختار منها نصا من هذه النصوص الكثيرة (١٨٠) التي اختلط فيها ترنمه بالطعام مع تغنيه بالعشق والهيام ، فتأخذ طابعا غزليا طريفا فلا تدري هل الطعام رمز للحبيبة أم الحبيبة رمز

---

(١٧٦) نفسه ص ٣٥

(١٧٧) نفسه ص ٧٨

(١٧٨) نفسه ص ٧٩

(١٧٩) انظر في الأوزان الموسيقية ، على سبيل المثال ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٦ ، وغيرها

(١٨٠) انظر في الأوزان الموسيقية على سبيل المثال ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٦٥

للطعام ، والشيء المؤكد أنهما شيء واحد مهما أوهمنا في بعض النصوص بعكس ذلك ، والشيء المؤكد أيضا أنهما رمز للجوع المادي والروحي الذي يعاني منه الشاعر ، ويعانيه معه أبناء شعبه ، فيقول في قصيدة زجلية له بعنوان « قل للذي لا مني في حب من أهواه » (١٨١) وهي من وزن أو ضرب السيكا ، مادمنا قد أشرنا الى ألحانها الموسيقية :

قل للذي في المشبك المحشى   يا أشكع العقل والله ما أسلاه شيّ
وكيف أسلاه وفيه سكر   بماء الورد يتخمر
وفيه الفستق اتبخر   فيا لله ما احلاه
ما أحلى شرابه ، سكر لبابه   من قد أتى بو يا مرحبا بو
قم ودني يا خليع البحر في الشختور   والموز في القطر ، لو مهما تفشخ نور
وخلي الموز يكون أصفر   وكان في شرابه نوفر
لو رشيت عليه سكر   أنا مانغاظ ولا رُدّ و
رد انت عنو ، مني ومنو   هاتو بصحنو ، أريك فنو
يا قطر بسك تغيب ، أنا أريد بسَّك   حسك لغيرى تروح ، هو يعدمك حسك
وانا اخبيك في قلبي   واخفيك عن جميع صحبي
فقم واقعد الى جنبي   تراني المقال صادق
صادق بحبك ، سايق لقربك   إن جيت وإلا فالله يحبك

ومن ذلك قوله على ضرب السيكا أيضا قوله في قصيدة بعنوان « أيها الساقي بدا ضوء الصباح » وفيها يشير الى احتكار السلطان وكبار الأمراء صناعة السكر في مصر ، ويسخر من أحلامْ الجياع والفقراء التي تقف عند حد الفرجة ، ويتحسر لو أن هذا السكر بلا ثمن ، ولكن ماذا يفعل وهو المفلس لا شيء أمامه الا البحر ، بحر النيل ، فليعب منه ما يشاء ، فليس ماؤه محجورا مثل السكر وليمنح أمثاله من الفقراء المفلسين ما يشاء ، ومعه « دستور » أي إذن ، ويالها من سخرية مريرة « فما عليه منّاع » هو الآخر :

في الجزيرة معصرةفيها قصب   يعصروه مقشور
يعملوه جلاب وسكر شيء عجب   ما أبركه فى الدور
آه لو إنه مالو ثمن   ما بقيت أنا مقهور

---

(١٨١) الأوزان الموسيقية ص ٤١ - ٤٣ وكلمة شختور الواردة في النص هى القارب الصغير للنزهة

انظر السكر صحيح وأرجع أنا   بقليب مكسور
يا مفليس رح واقنع بالنظر   لاتكن طماع
وانظر البحر باامواجه انحدر   ماعليه مناع
خذ وفرق وملأ عبك لا امتناع   ليس ماه محجور
فاعمل انا فيه بالباع والذراع   ومعك دستور

ويبدو أن الجوع والحب لا يلتقيان ، فليس من حق الجياع والفقراء أن يحبوا ، حتى يكونوا عرضة لبطش نسائهم فيما يبدو . . إذ تصادفنا بعض النصوص في ذلك ، من مثل هذا المواليا : (١٨٢)

عشقت ذليت وحك الجوع جسمي حك   وصمت عامين ، لما صمت يوم الشك
وحق من لو الجبال الراسيات تندك   يستاهل العاشق المفلس طريحه سك

ولكن الحب من نصيب الأثرياء فقط ، كما في هذا المواليا (١٨٣)

اللى معو مال ، لو طلب الثريا نال   واللى بلا مال ، صكوه الملاح بنعال
وان كان معك مال ، هاتو تبلغ الآمال   ما كان معك مال ، طردوك الملاح في الحال

وعلى الرغم من أننا سنقف عند عامر الانبوطي الفارس الآخر في هذه الحلبة في الفقرة التالية (رقم ٧/٢) بشىء من التفصيل فاننا نؤثر ان نختار له هنا بعض النصوص من مثل قوله :

أناجر الضأن ترياق من العلل   وأصحن الرز فيها منتهى أملى
أكلى غداء وأكلي في العشاء على   حد سوى ، اذ اللحم السمين قلي
فيم الاقامة بالأرياف لا شبعى   فيها ولا نزهتي فيها ولا جذلى
ناء عن الأهل خالي الجوف منقبض   كمعدم مات من جوع ومن قشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمنى   ولا كريم بلحم الضأن يسمح لي
طال التلهف للمطعوم واشتعلت   حشاشتي بحمام البيت حين قلى
أريد أكلا نفيسا استعين به   على العبادات والمطلوب من عملى
والدهر يفجع من مطاعمه   بالعدس والكشك والبيسار والعسل
ناديت هيا ولا تبطى بغرفك لى   فانه خلق الانسان من عجل
. . . . . . (١٨٤)

---

(١٨٢) هز القحوف ص ٧٩

(١٨٣) هز القحوف ص ٩٣

(١٨٤) عجائب الآثار ٢ : ١٩٠ - ١٩١

ومن قوله أيضا :

اجتنب مطعم عدس وبصل   في عشاء فهو للعقل خبل
وعن البيصار لا تعن به   تمس في صحة جسم من علل
واحتفل يالضأن إن كنت فتى   زاكى العقل ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت   أكلها ينفى عن القلب الوجل
...... (١٨٥)

ومن رباعياته المشهورة التي حفظها معاصروه :

أكلك من الضان رطلين   يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يا زين   دا الأكل منه تعاسه

فهو يحذر من أكل الكشك ويدعو الى تناول لحم الضأن فان لم ييسر فلا بأس من :

أكل المطبق مع الفجر   بالشهد والسمن سايح
اللى يجيبه له أجر   في جنة الخلد رايح

ومادام الامر كذلك ، وسمح له بتناول لحم الضأن ، فانه يتوسل الى الطباخ :

يا طباخ الضأن اشتد   واغرف أواني وسيعه
عامر قد أتى ولو يد   في الأكل ديما وسيعه

ذلك أنه عانى الأمرين من أكل العدس والكشك والفول ، أو الفجار الثلاثة كما أطلق عليهم فيقول محذرا :

العدس والكشك والفول   الأكل منهم شماتة
يصبحوا الشاب مخبول   قطعوا الجميع التلاتة

ويوصي بعدم تناولها ، والا فقد الانسان آدميته :

أوصيك لا تأكل الفول   يورث لقلبك قساوه
وتقطع نهارك كما الغول   تايه وعندك غشاوه

---

(١٨٥) عجائب الآثار ٢ : ١٩١

وانما المأمول ـ من الله تعالى ـ في نظره أن يحقق رجاءه في :

خشاف ومشمش وأعناب والشرب منهم دوايا
من بعد ماكل كباب يا رب حقق رجايا
. . . . . . (١٨٦)

ترى أكان هذا اللون من الشعر نوعا من التسامى على حرمان حقيقي كان يعاني منه المجتمع العربي ، أم كان صرخة حقيقية للجياع والفقراء في تلك العصور أم كان للوجهين معا ؟ إن الصورة لم تكتمل بعد .

٢/٢ وصف الملابس

اتخذ بعض الشعراء الشعبين المتحامقين في العصر المملوكي من الملابس موضوعا آخر لسخرياتهم وفكاهاتهم ، فعلى حين كان السلاطين والأمراء والمماليك يتبخترون كالطواويس في طول البلاد وعرضها بملابسهم العسكرية والمدنية المزركشة ، وبخاصة في المناسبات الدينية والقومية والعسكرية ، كان العامة لا يجدون ما يسترون به أجسادهم ، وإن وجدوه فهو لا يعدو أن يكون أسمالا بالية مزقتها يد البلى . . وعلى الرغم من أن هذا الموضوع الشعرى ليس جديدا في الأدب العربي فان الجديد في هذا المجتمع الطبقي أن الملابس والأزياء والخلع صارت رموزا طبقية ، اذ كان من المظاهر الأساسية للفصل بين الطبقات في ذلك العصر الحرص على التفرقة بينها في الزي ولونه ونوع الدابة التي يركبها الفرد ، وحجم عمامته وغير ذلك ، لمعرفة مكانة الفرد في المجتمع والدلالة على حيثيته وتحديد طبقته ومهنته وعقيدته وديانته . (١٨٧)

وفرسان هذه الحلبة ، الذين عنيت كتب الأدب والتاريخ بأشعارهم في هذا المجال هم أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق وابن دانيال . . فيشرع الجزار يقارن بين عريه في فصل الشتاء علي حين كانوغيره من الطامعين وشذاذ الآفاق الذين سيطروا على مقدرات الأمور في بلاده يرفلون في أفضل أنواع الثياب ، وأغلاها ثمنا ، كالصوف والحرير الفراء السنجابي ، ويتباهون بها ويجعلون منها شارات

---

(١٨٦) نفسه ٢ : ١٩١ - ١٩٢

(١٨٧) انظر : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٢٠٦ - ٢٢٢ وانظر ايضا كتاب الملابس المملوكية تاليف أ . ماير

تميزهم وتعلي من قدرهم وتؤكد انتماءاتهم السلطوية ولا يرضون بغيرها بديلا ، على حين أن أقصى أماني الشاعر ، مجرد ثوب ، أي ثوب يقي جسده برد الشتاء فيقول :

أتلقي الشتا بجلدي وغيري   بتلقاه بالفرا السنجابي
وأود المشاق والقطنّ والصوف   وغيري لم يرض بالعتابي
ونهار الشتاء أطول عندي   من نهار الصيام في شهر آب
لو يراني عند الغدو عدوي   لرثى لي ورق مما يرى بي
اذ يرى سائر المفاصل مني   راقصات إذْ صفقت أنيابي

ويروى ابن صصري في كتابه الدرة المضيئة « بليقا » طويلا في هذا المعنى لواحد اسمه الحكري مطلعه :

الشتا هجم عليه ، كنت غارق في منامي
قمت قوم عليه ثاير ، استخبا في عظامي
الشتا طلب وجاني في غمام بوجه عابس
دق كوس الرعد برقو وحمل راجل وفارس
لحقتني منه زمعه صرت واقف قرن يابس
بقت أسناني تطقطق ، صرت غتمى في كلامي
وقوامي كان مقوم ، انعوج مني كلامي

الى أن يقول إن الشتاء بالنسبة للفقراء لا يقل بطشا عن شدة السلطان عليهم ، وانه مثلهم لا يقوى الا على العامة ، أما أرباب الثراء والنفوذ ، فهو أجبن من أن يواجههم ، ثم يقول :

الشتا شدة وسلطان لا يطاق ولا يعاند
اقتصد حربى وجاني قلت لو حين جاني قاصد
يا سقيع إيش ذى السقاعة جيتنى يا برد بارد
ما أنا يا بزد قدك ، لا يغرك من لثامي
انا قد أرميت سلاحى ، جِرْنى وارْعَ ذمامى
يا شتا قويت علينا ، ما تروح تقوى على أصحاب
القماش التقل والجوخ وفرا ألوان وسنجاب

قال رحت أقوى عليهم كركبونى من ورا الباب
دخلوا جوا البشاخين صرت حاير في الظلام
في الزقاق ، اصفر علىّ الريح ، كنى في الظلمة حرامى (١٨٨)

ولا ندرى ماذا حدث لهذا الشاعر بعد ذلك ، كل الذي ندريه أن شاعرنا الآخر الجزار ، عندما دهمه الشتاء بادر فهرع شأنه شأن غيره من العامة وأصحابه ـ مثلهم مثل الكلاب الضالة ـ الى مستوقد الحمام حتى تتدفا أجسادهم « بالنوم في الزبل » المشتعل على الرغم من « وقع الندى » الثلجى الذي يشبه « وقع المقارع » حتى فقد السيطرة على جسده من شدة البرد ، فغدا كمجنون فقد بقايا عقله ، وياله من موقف ممض في الجسد والنفس معا ، وتتكامل حينئذ أبعاد هذه اللوحة الفنية الساخرة التى بدأها متحامقا كعادته ، يوم أن غسل ثوبه اليتيم ، وارتدى بدلا منه بيته ، ولكن قسوة الشتاء كانت أقوى من أن يتحملها فهرع الى المستوقد :

لبست بيتى وقد زررت أبوابي   عليّ ، حتى غسلت اليوم أثوابي
وقد ازال الشتا ما كان من حمقى   دعني ، فمستوقد الحمام أولى بى
أنام في الزبل كى يدفا به جسدى   ما بين جمرية ، ما بين أصحابى
أو فوق قدر هريس بت أحرسها   مع الكلاب على دكان غلاب
ما كنت أعرف ما وقع المقارع أو   قاسيت وقع الندى من فوق أجنابي
وما تراقصت الأعضاء في جسدى   الا وقد صفقت بالبرد أنيابى (١٨٩)

ومن قوله أيضا في وصف الملابس معارضته الهزلية الرائعة لمعلقة امرىء القيس الشهيرة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهى المعلقة التي يبدو فيها هذا الملك الضليل امرؤ القيس كملوك المماليك ، إذ ربى مثلهم في ماء النعيم وظله ، وفي عزّ الملك وجبروت السلطة . . . وهو مثلهم أمير مدلل مترف لا هم له الا إشباع نزواته . . وهذا يعنى أن اختيار الجزار لمعلقة بطلها على هذا النحو ، ربما كان اختيارا مقصودا للمقارنة بين الثراء الفاحش الذي يتقلب فيه المماليك والفقر المدقع الذي تعانى منه الرعية ، فيقول متلاعبا

---

(١٨٨) المغرب ١ : ٣٣٤ والدرة المضيئة ص ٧٢ ـ ٧٣

(١٨٩) الأدب العامي في مصر ص ١٩٦ ، ومصادر النقل الخطية هناك

بأسماء معشوقات امرىء القيس الذي كان يزجي فراغه متقلبا بين أحضانهن ودفء نهودهن ، وليس مصادفة أن يجعل الجزار الضرب العروضي تاما في معارضته :

قفا نبك من ذكرى قميص وسروال   ودراعة لى قد عفا رسمها البالى
وما أنا مَنْ يبكى لأسماء ، إن نأت   ولكنني أبكى على فقد أسمالى
ولو أن امرأ القيس بن حجر رأى الذي   أكابده ، من فرط همى وبلبالي
لما مال نحو الخدر خدر عنيزة   ولا بات إلا وهو عن حبها سالى
ولى من هوى سكنى « القياسر » عن هوى   بتوضح فالمقراة أعظم أشغالي
ولا سيما والبرد وافى بريده   وحالى على ما اعتدت من عسرة حالى

واذا كانت أقصى أماني امرىء القيس أن يستعيد مجد أبيه في الملك الذي فرضه على القبائل العربية بالقوة والبطش حتى ثارت عليه وقتلته ، فان أقصى أماني شاعرنا في استعادة المجد القديم لشعبه ولشخصه هو أن يحصل على « جوخه » من صوف خشن « كانت هى رداء عوام مصر لاتقاء البرد الشديد » (١٩٠) وليس فرجية أو جبة مما ترتديه الخاصة التي يتمنى لها الشاعر أن تفقدها حتى تعرف معنى العرى الذي يتوشح به العامة فيقول :

ترى هل يراني الناس في فرجية   أجرّ بها تيها على الأرض أذيالي
ويمسي عدوى غير خال من الأسى   اذا بات من أمثالها بيته خالى
ولو أننى اسعى لتفصيل جبة   (كفانى - ولم أطلب - قليل من المال
ولكنني أسعى لمجد بجوخة   (وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي)

غير أنه من المؤكد أن أمثاله لن يدركوا مثل هذا المجد ، وأنى لهم ذلك في ضوء هذا الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يحكم عصره ومجتمعه ، وعندئذ يفيق من أحلامه - فقد كان عاريا - على هول هذا الواقع ، ساخرا :

وكم ليلة استغفر الله بتها   بخدور بقٍّ بين ورد وجربالى
تبطنت فيها بدر تم مهفهف   ولم اتبطن « كاعبا » ذات خلخال (١٩١)

---

(١٩٠) انظر معجم دوزى مادة « جبه » و « جوخه » ص ١٠٧ - ١٠٨ ومادة فرجية ص ٢٦٥ وانظر أيضا كتاب الملابس المملوكية ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥

(١٩١) الأدب العامى ص ١٩٥ ومصادر النقل هناك

ترى هل كانت هذه الكاعب ذات الخلاخيل هى مصر التي ترسف في القيود ، وقد حرم من خيراتها بنوها ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فالجزار كثيرا مـا يعمد الى التـلاعب اللفظي والتـوريات الـواعية والتشبيهات الرامزة على نحو ما نرى في نصوص تالية ، وغير خاف أن امرأ القيس يأتى هنا رمزا ذكيا ساخرا لحال السلاطين او الملوك من المماليك الذين سيطرت عليهم أحلام مجد ضائع ، وان الجزار لا يتحدث عن معاناته الفردية بل عن معاناة الأغلبية الشعبية الفقيرة في عصره . . غامزا لامزا في الوقت نفسه بالوزراء والفقهاء ورؤ ساء ونظار الجيش الذين كان يخلع عليهم السلاطين في كل مناسبة المزيد من « الفراجي والجبب المثمنة » (١٩٢) دون أن يستشعروا شيئا من معاناة العامة ، فلم ير فيهم الشاعر إلا أعداء له ولشعبه ، وأيا ما كان الأمر فان معارضة الجزار ، لامرىء القيس صاحب أشهر معلقة في تراثنا الأدبي تستدعي بالضرورة مقارنة ـ واعية أو غير واعية ـ بين حال الشاعرين ، أو بالأحرى بين حال الجزار شاعرنا الصعلوك ، الجائع العارى ، وبين امرىء القيس هذا الأمير الطائش ، أو الملك الضليل ، كما أطلق عليه ، وجىء به هنا رمزا لكل الأمراء اللاهين والملوك ، الجائرين من المماليك ، وهي مقارنة غير عادلة بالطبع ، يتبين فيها مدى الغبن الذي ألم بشاعرنا ، ولكن ذلك واقع عصره كما يقول ، ومن هنا يتضح لنا ـ من خلال أسلوب التحامق الذي استتر وراءه ـ سهام النقد التي وجهها الى أفراد الهيئة السياسية في عصره ، والطريف أنه يبقى مع ذلك وجه شبه بين الشاعرين ، اذ يجمع بينهما البكاء ، وهنا تبدأ المفارقة الكبرى ، فالشاعر الأمير يبكى نأي حبيبته « أسماء » أما شاعرنـا فيبكى « أسماله » أي ملابسه المهترئة البالية ، وشتان بين الموقعين ، ويمضي الجزار في تحامقه مؤكدا أن الحب ليس من حق الجياع والفقراء والمعسرين ـ من أمثاله ولا سيما أن الشتاء على الأبواب ، وتمضى سخرياته تشق طريقها في القصيدة ـ من خلال المقارنات المستمرة ـ حتى تصل ذروتها الدرامية حين ندرك أن « المجد المؤثل » الذي يسعى اليه الجزار هو الحصول على جوخه من ذلك الصوف الخشن الذي كان يأنف الخاصة من ارتدائها ويستهجنون من يرتديها (١٩٣) . . وهو لا يفكر في الحصول على « جبة » أو « فرجية » فهو يعلم أن تحقيق ذلك الطموح مستحيل تماما كطموح امرىء القيس في استرداد ملك ابيه الضائع ، ومن هنا يمكن القول إن أمرأ القيس كان رمزا مركبا في هذه المعارضة الهزلية .

ويستمر الجزار بعد ذلك ، وراء شعره في وصف « نصفيته » المخضرمة أو البالية ، وهى نوع من الملابس « الفوقانية » وتصنع من قماش رخو (١٩٤) ويؤكد في وصفه لها أن الأيام قد ظلمتها حكما

---

(١٩٢) الفرجية ثوب فضفاض هفهاف ، وكانت تطلق على الجبة أيضا ، وعموما فهي من ملبوسات طبقة العلماء والوزراء والقضاة من رؤساء ديوان القلم ، أما الجبب فهي رداء الهيئة العليا الرسمية من رجال الدين والوزراء ورؤساء القضاء ونظار الجيش وكتبة أسرار السلاطين انظر معجم دوزى ص ١٠٧ ، ٢٦٥ والملابس المملوكية ص ٩١ ـ ٩٢

(١٩٣) معجم دوزى ص ١٠٨

(١٩٤) الملابس المملوكية ص ٤٦

فأضحت في العذاب الأليم من غير زلة أو خطأ كما يقول ، ومع ذلك فنصيبها - كلما غسلها - « الدق والعصر » وهى توريات لاذعة تشير إلى بعض أنواع العقوبات التي ابتدعها الحكام لاستخلاص الأموال ، ولكن « نصفيته » على ضعف حالها صامدة « لا تقر بعملة » ومن أين لها ذلك وصاحبها هو الفقر بعينه ، فكان ذلك داعيا لها لأن تبكي على ما مضى من عهود النعيم والرخاء ، في أيامها الخوالى وماضيها التليد ، حيث لا « بقعة » أو « رقعة » تدنس شكلها الجميل ، يقول الجزار في بعض أبيات هذه القصيدة التي وصفها الصفدى بأنها تحتوى « على عدة توريات لا يخفى حسن موقعها » (١٩٥) .

لى نصفية تعد من العمر   سنينا ، غسلتها ألف غسلة
لا تسلني عن مشتراها ففيها   منذ فصلتها نشاء بجملة
نشف الريح صدرها بالارا   ذيب فباتت تشكو هواء ونزله
ظلمتها الأيام حكما فأضحت   في العذاب الأليم من غير زلة
كل يوم تكابد العصر والد   ق مرارا ، وما تقر بعمله
أين عيشى القديم وذاك التيـ   ـه فيها وخطرتي والشملة
حيث لا في أجنابها بقعة قـ   ـط ، ولا في أكمامها قط وصله
قال لى الناس أطنبت فيها   بس أكثرت ، خلها فهي بقله

إن الجزار شأنه شأن معظم الشعراء الشعبيين ، اتخذ من نصفيه مشجبا ، يشجب به حاضره ، حتى لا يفطن جلادوه ، فيفتكون به ، ثم يعود فيطنب في رثاء ذلك الماضي البعيد الذي عاشته نصفيته ويدعو الى المقارنه بين هذا الماضي بأمجاده ، والحاضر بآلامه ، وهى مقارنة ساخرة من شأنها أن تدفع المتأمل الواعي الى تجاوز ذلك الاطار الفني المتحامق الى مغزاه أو مضمونه الذي يصب في الحاضر ، ولا سيما إذا عرفنا أن هذه الأبيات في وصف هذه النصفية بين ماضيها وحاضرها منتزعة من قصيدة طويلة في « اليأس من هذا الزمان وشكوى أهله وذم السفلة اللئام الذين ارتفع قدرهم في غفلة منه » ومطلعها :

ضاق صدرى مما أطالب دهرى   ببلوغ المنى ، ويظهر مطله
والى كم ذا أذمّ زمانى   قتلتني صروفه ألف قتله

ويمضي الجزار فيتخذ من عريه مجالا لفضح عصره فيقول متهكما (١٩٦)

بت وأثوابي ككتب   مزقتها الأرضه
فعورتي مكشوفة   وسترتي مقرضه

---

(١٩٥) الغيث المسجم ١ : ١٤٥ وانظر أيضا القصيدة في المغرب ١ : ٣٠٤

(١٩٦) نفسه

ولهذا لاغرو أن يمضي ـ في لحظة يأس ـ آيسا من كل إصلاح ، ساخرا من نفسه ، فيقول (١٩٧)

لى من الشمس خلعة صفراء   لا أبالى إذا أتاني الشتاء
ومن الزمهرير إنْ حدث الغيم   ثيابي وطيلساني الهواء
بيتي الأرض والفضاء سو   ر مدار ، وسقف بيتي السماء

.... الى أن يقول :

آه واحسرتي لقد ذهب العمر   وحظى تأسف وعناء
كلما قلت في غد أدرك السوء   ل ، أتاني غد بما لا أشاء
لست ممن يخص يوما بشكوا   ه ، لأن الأيام عندى سواء

والطريف أن « جوخة » الجزار التي شكا أمرها منذ قليل ، سوف تعرف طريقها بعد ذلك الى شاعر آخر اذ ينقل الصفدي من خط السراج الوراق ، احد شعراء مدرسة التحامق ، وصديق الجزار ، قوله في وصف « جوخته » من قصيدة طويلة « كلها بديعة » كما وصفها (١٩٨)

هذا وجوختي الزرقاء تحسبها   من نسج داود في سرد واتقان
قلبتها ، فغدت اذ ذاك قائلة   سبحان ربى ، بلى قلبي وأبلاني
إن النفاق لشيء لست أعرفه   فكيف يطلب مني اليوم وجهان
لو أن صاحبها الجزار أبصرها   عليّ ، أبصر لبدا فوق جربان

أما ابن دانيال ، فيصف ملابسه المرقعة من كل شكل ولون حتى غدا فيها كالبهلوان فيقول :

هذا ولى ثوب تراه مرقعا   من كل لون مثل ريش الهدهد

وذلك في قصيدة طويلة سنعرض لها في فقرة تالية (٧/٢) لتشعب موضوعاتها ، ولكن نختم حدثينا عن الملابس بمقطوعة ساخرة من نظمه قالها « لغزا » في « سرموزه » (١٩٩) وهو نوع من

---

(١٩٧) المغرب ص ٣٠٩

(١٩٨) الغيث المسجم ١ : ١٤٥

(١٩٩) سرموزة ، كلمة فارسية الأصل ، تطلق على نوع من الأحذية القصيرة التي تسمى بالنعل انظر معجم دوزى ، مادة السرموزة ص ١٦٧ وكتاب الملابس المملوكية ص ١٢٩

الأحذية الجلدية القصيرة يشبه النعل ، ويعمد ابن دانيال في نظمه الى التعمية تحقيقا لعنصر الفكاهة ، فيقول (٢٠٠)

وجارية هيفاء ممشوقة القد   لها وجنة أبهى احمرارا من الورد
من اليمنيات التي حُرٌّ وجهها   يفوق صقالا صفحة الصارم الهندي
وثيقة حبل الوصل منذ صحبتها   فلست أراه قط منتقض العهد
وفي وصلها أمسى الشقاء ميسرا   وجاوز في تيسيره غاية الجهد
ولم أرَ زَوْجًا قبلها كل ساعة   على الترب ألقاها معفرة الخد
ومن عجبي أني إذا ما وطئتها   تئن أنينا دونه أنةُّ الوجد
مباركة عندي ولا برحتَ إذًا   مدورة الكعبين شؤما على ضد

مرة أخرى ، انها أحلام العراة الحفاة .

٣/٢ وصف الدور :

من أبرز أغراض الشعر الاجتماعي في هذا العصر ، وصف المنازل والديار ، وقد وقف عندها الشاعر الشعبي طويلا ، وأفرد لها القصائد الطوال في وصفها ، واذا كان الشاعر العربي القديم قد وقف ـ عندها ـ يبكيها ويستبكيها لهدف وجداني ذاتي قوامه الحب والحنين والذكرى وكوامن الشجن القديم ، فان الشاعر الشعبي في عصور المماليك قد بكى أيضا المنازل واستبكى الديار ، ولكنه كان يفعل ذلك لغرض مختلف تماما ، فهي عنده تجسيد حي لحاضر بشع وواقع مرعب ، هي عنده « خرابات » وجحور وكهوف ومقابر ،فرض عليه أن يعيش فيها ، وهي عنده « متاحف » لكل حشرات الدنيا الطفيلية التي تكالبت عليه ، تكالب حشرات السلطة ، لامتصاص دمه ، وقد تآزر الجميع عليه ، حتى بات عاجزا عن مقاومتها والتمرد عليها . . ولكنه لم يفقد الأمل في فجر جديد ، يخلصه من براثنها ويحميه من عدوانها ، واذا ما تجاوزنا اطار الصياغة الساخرة ، وجدنا المضمون ينطوي على تصوير دقيق لحياة الأغلبية الشعبية المغمورة في بؤسها وضياعها ، في فقرها وحرمانها ، على حين كان الجلادون يسكنون القصور الشامخة التي أسهب المؤرخون في وصف فخامتها ، مؤكدين في الوقت نفسه أن كثيرا منها قد شيدت دعائمه على الظلم ، والاغتصاب والمصادرات ودماء العوام أثناء تسخيرهم في أعمال البناء .

---

(٢٠٠) فوات الوفيات ٢ : ٣٨٤ والغيث المسجم ٢ : ٢٢٦

وفرسان هذه الحلبة من الشعراء كثيرون ، لا نملك إلا أن نختار منهم ، ولنبدأ بتلك القصيدة الرائعة للأديب الشاعر كمال الدين بن الأعمى ، على بن محمد (توفي سنة ٦٩٢ هـ) صاحب المقامة البحرية التي وصف فيها الفقراء المجردين ، أى المكدين ، وكان مقرئا في إحدى الترب (٢٠١) وقد قال يذم دار سكناه :

دار سكنت بها أقل صفاتها   أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد   والشر دانٍ من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته   كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى   غنت لها رقصت على نغماتها
رقص بتنغيص ، ولكن قافه   قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عيـ   ـن الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها   فينا ؟ واين الأسد من وثباتها ؟
وبها من الخطاف ما هو معجز   أبصارنا عن حصر كيفياتها
وبها خفافيش تطير نهارها   مع ليلها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت   عنه العتاق الجرد في حملاتها
فترى أبا مروان منها هاربا   وأبا الحصين يروغ عن طرقاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت   في أرضها وعلت على جنباتها
لوشم أهل الحرب منتن فسوها   أردى الكُمَاةَ الصِّيدَ عن صهواتها
وبنات وردان وأشكال لها   مما يفوت العين كنه ذواتها
وبها قراد لا اندمال لجرحها   لا يفعل المِشْراط مثل أداتها
أبدا تمص دماءنا فكأنها   حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليماني ما   قد قلَّ ذر الشمس عن ذراتها
لا يدخلون مساكنا ، بل يحطمو   ن جلودنا ، فالعقر من سطواتها
ولها زنابير تُظَنُّ عقاربا   لا برء للمسموم من لدغاتها
وبها عقارب كالاقارب رُتّع   فينا حمانا الله لدغ حُمَاتها
فكأنما حيطانها كغرائب   اطلعن أرؤسهن من طاقاتها
كيف السبيل الى النجاة ولانجا   ة ولا حياة لمن رأى حيَّاتها

---

(٢٠١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ٥ : ٤٢١ وفوات الوفيات ٢ : ١٦٣ ـ ١٦٧

السم في نفثاتها ، والمكر في   فلتاتها ، .والموت في لفتاتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها   والضيف لا ينفك من صعقاتها
والبوم عاكفة على أرجائها   والدود يبحث في ثرى عرصاتها
والنار جزء من تَلَهُّب حرها   وجهنم تُعْزَى الى نفحاتها
شاهدت مكتوبا على أرجائها   ورأيت مسطورا على عتباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا   تلقوا بأيديكم الى هلكاتها
أبدا يقول الداخلون ببابها   يارب نج الناس من آفاتها
قالوا : اذا ندب الغراب منازلا   يتفرق السكان من ساحاتها
وبدارنا ألفا غراب ناعق   كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبرا لعل الله يعقب راحة   للنفس إن غلبت على شهواتها
دار تبيت الجن تحرس نفسها   فيها وتندب باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفردا والعين من   شوق الصباح تسح من عبراتها
وأقول : يا رب السموات العلى   يا رازقا للوحش في فلواتها
اسكنتنى بجهنم الدنيا ففي   أخراى هب لى الخلد في جناتها
واجمع بمن أهواه شملى عاجلا   يا جامع الأرواح بعد شتاتها

واعتذر عن نقل هذه القصيدة نقلا شبه كامل ، فهي تغرى بالنقل كاملة ، وهو أمر لم يفلت منه القدماء فدونوا القصيدة كاملة ، وهي التي كانت محفوظة أيامهم ، ويرددها الناس بين ظهرانيهم (٢٠٢)والطريف كذلك أن ابن الاعمى انتقد حمامات العامة في شعره أيضا ، فقال (٢٠٣)

ان حمامنا الذي نحن فيه   قد اناخ العذاب فيه وَخَيَّمْ
مظلم الارض والسما والنواحى   كل عيب من عيبه يتعلم
حرج باباه كطاقة سجن   ....
وله مالك غدا خازن النيـ   ـران بل مالك أرق وأرحم
كلما قلت قد أطلت عذابي   قال لى : اخسأ فيه ولا تتكلم
قلت لما رأيته يتلظى   ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

---

(٢٠٢) انظر الشذرات والفوات ، الصفحات نفسها ، وانظر ايضا المستطرف للابشيهي ٢ : ٤ - ٥

(٢٠٣) الشذرات والفوات ، الصفحات نفسها

أما أبو الحسن الجزار ، الذي عاش بدايات الدولة المملوكية . . فكان أهدأ نبرة من ابن الاعمى فلجأ في وصف داره الخربة الآيلة الى السقوط ، الى أسلوب التحامق كعادته فقال (٢٠٤)

ودار خراب بها قد نزلت   ولكن نزلت الى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة   محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أني أكون   بها ، أو أكون على القارعة
واخشى بها أن أقيم الصلاة   فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت « إذا زلزلت »   خشيت بأن تقرأ « الواقعة »

أما ابن دانيال ، فهو يحذو حذو ابن الاعمى في قصيدته ، وكانا متعاصرين والجدير بالذكر ، أن ابن دانيال يسوق قصيدته على لسان الأمير وصال (بطل التمثيلية الظلية طيف الخيال ، بعد ان حال به الحال ، ومال ، وذهب الذهب وفضت الفضة ، وهو هنا ممثل للعنصر العربي ورمز للخليفة العباسي المغلوب على أمره) فقال في مطلعها (٢٠٥)

أمسيت أفقر من يروح ويغتدى   ما في يدى من فاقتى الا يدى
في منزل لم يحو غيري قاعدا   فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة   ومخدة كانت لأم المهتدى
ملقى على طراحة في حشوها   قمل شبيه السمسم المتبدد
والبق أمثال الصراصر خلقة   من فنهم في حشوها أو منجد

وهي قصيدة طويلة ، تسير على هذا المنوال ، غير اننا نرجىء الحديث عنها الى فقرة قادمة (٢/٧)وحسبنا هذا الاستشهاد ، لنختار واحدة أخرى لابن دانيال أيضا ، وقد قالها كذلك على لسان الأمير وصال أثناء الحوار الذي دار بينه وبين شقيقه طيف الخيال ، حين سأل :

« ما فعل ريشك ورياشك ؟ وأين أثاثك وقماشك ؟ » فيتنفس الأمير وصال الصعداء على حد تعبير ابن دانيال وينشد :

لم يبق عندى ما يباع ويشترى   الا حصيرا قد تساوى بالثرى
وبقية النطع الذي لعبت به   أيدى البلى لما تمزق وانهرى

---

(٢٠٤) خزانة الأدب للحموى ص ٣٠٩

(٢٠٥) وفاة الوفيات ٢ : ٣٨٦ وخيال الظل ص ١٦٥ ـ ١٦٧

نطع يريق دمي عليه بَقُّهُ   حتى تراه وهو أسود أحمرا
في منزل كالقبر كم قد شاهدت   فيه نكيرا ، مقلتاي ومنكرا
لو لم يكن قبرا لما أمسيت نسيا   فيه حتى أنني لم أذكرا
والقبر أهنأ مسكنا ، إذ لم يكن   مع ضيق سكناه ، أطالب بالكرا
لا فرق بين ذوى القبور وبين مَنْ   لا رزق يرزقه سوى العيش الـ . . .
أف لعمر صار في ريعانه   مثلى يود بأن يموت ويقبرا

وعندئذ تزداد نبرة السخرية ارتفاعا إلى حد الهجاء المباشر للناس (البخلاء) وللمكان الذي ضاق عن رزق أهله ، وينعي القيم والمثل العليا ، ثم يختتم القصيدة يائسا من كل إصلاح ، فهذا حظه العاثر في ضوء أوضاع عصره السائدة فيقول (٢٠٦)

ومن البلية أن رزقي بينهم   نزر ، وربما غدا متعذرا
فلئن ذممت من لا يرعوى   ولئن شكرت شكرت من لم يشكرا
فلأصبرن على الزمان واني   لأخو الشقاء صبرت أم لم أصبرا

ويعلق باحث على هذه القصيدة فيقول « إن هذا التحامق الذي يضحك به ابن دانيال ، أهل عصره ، لا يجعلنا نضحك قدر ما نقرأ فيه تاريخا للعصر الذي قيل فيه ، ونشاهد فيه تصويرا للحياة السياسية . . والرمز في ذلك ينجي الرجل من غضب السلطان وسيفه » . (٢٠٧)

أما آخر الشعراء الذين برعوا في هذا الضرب من الشعر في وصف بيوتهم هذا الوصف الكاريكاتيري الساخر ، فهو جعفر بن محمد البيتي السقاف ، أديب الجزيرة العربية في القرن الحادى عشر الهجري ، كما أطلق عليه الجبرتي مستشهدا له بقصيدة طويلة (٥٣ بيتا) في هذا المعنى ، وفيها عمد الى الاغراب في الخيال والبراعة في التصوير الساخر ، كما فعل ابن الاعمى وابن دانيال بحيث جاءت القصيدة متحفا حيا للهوام والحشرات ، التي تعيش في هذه الأماكن ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض عليها ، والسقاف يتميز ببراعة الحواس اللاقطة في وصف هذه الهوام والحشرات بأصواتها وألوانها وحركاتها وآفاتها ، وعلى الرغم من حرصه على أن يأتي وصفه لكل نوع منها ، على شكل مشهد سينمائي ، أو بالأحرى لقطة فيلمية في فيلم كارتوني ساخر ، تتابع عرضها في هذه (القصيدة - الفيلم) ، إذا جاز هذا التعبير ، وقد تميز هذا العرض الساخر بايقاعه السريع وموسيقاه الصاخبة وهو

---

(٢٠٦) انظر القصيدة كاملة في خيال الظل ص ١٧١ - ١٧٢

(٢٠٧) الأدب العامي في مصر ص ٢٠٤

في كل ذلك لا يختلف عن ابن الاعمى أو ابن دانيال كثيرا ، ولكن الجديد الدال الذي أتى به هنا هو أنه لم يصف بيتا على غرارهما ، بل وصف مدينة بأكملها بعيدة عن العاصمة هى مدينة ينبع ومرساها (ميناؤها) واذا كان وصف الشعراء السابقين لبيوتهم قد أكد أنها تصلح لأي شيء إلا سكنى الآدميين فكذلك فعل السقاف في ينبع ، فاذا هى لا تصلح لاقامة بشر فيها ، وذلك من طول إهمال المسئولين لها ، ومن ثم فهو سيتوجه اليهم ـ بطريق غير مباشر ـ بالنقد والتجريح ـ لعله يلفت نظرهم الى هذا المرفأ التجارى المهم ، ومما جاء في مطلع هذه القصيدة :

رأى البق من كل الجهات فراعه   فلا تنكروا اعراضه وامتناعه
ولا تسألوني كيف بت فانني   لقيت عذابا لا أطيق دفاعه
نزلنا بمرسى ينبع البحر مرة   على غير رأي ما علمنا طباعه
نقارع من جند البعوض كتائبا   وفرسان ناموس عدمنا قراعه
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه   رأيت جرىء القلب فيه شجاعه
وجندا من الفيران في البيت كُمَّناً   متى وجدوا خرقا أحبوا اتساعه
ومن حط شيئا في جراب وبطه   فما رام عند الفأر إلا ضياعه
وسُربة قمل تنبرى إثر سُربة   خفافا إلى مص الدماء سراعه
ينازعها البرغوث لحمى فليته   رضى بتلاقى واكتفينا نزاعه
فلو يجد الملسوع من عُظم مابه   من الصخر درعا لاستخار ادراعه
فرب قميص كان شرا من العرى   إذا ضمه الملتاع زاد التياعه
كأني وصى للبراغيث قائما   أقيت به أيتامه وجياعه

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن حشرات أخرى ، مبينا ما تصيب به الانسان من أذى ويتحدث كذلك عن دورات المياه فيها ، ومساكنها ومآكلها ومطاعمها ومشاربها ، في أبيات لا نستطيع الاستشهاد بها على الرغم من إطارها الساحر ، فهي تثير الغثيان . . حتى ان الشاعر اعتذر بقوله :

فلا تعذلوا المسكين إن عيل صبره   وأظهر من جور الزمان انفجاعه
فقد مارس الأهوال في أرض ينبع   ووطأ فوق الغانيات اضطجاعه

ومن هذه الأهوال :

اذا رنَّم الناموس حولى أعلَّنى   وصدع قلبي بالسجوع وراعه

وانْ مص من دمي وطار تبعته   الى فائت منه أرجي ارتجاعه
عدمت غناء مثل أنغام سجعه   فما كان أشنى سجعه وابتداعه
ضعيف قوى لا يستقر من الأذى   وأضعف منه من يرجى اصطناعه

وصب السقاف جام غضبه بعد ذلك على نائبها ، الذي رمز اليه بكلب من الأعراب ، ووصفه بالجلافة والخشونة ، خلْقا وخلُقا ، وأنه مرتش من حزب الشيطان ، فقال :

وكلبا من الأعراب يعوى كأنه   يريد إذا لاقى الأمين ابتلاعه
براه إله الخلق للناس نقمة   وَقَدّ من الصخر الأصم طباعه
فلا رحم الرحمن أرضا يحلها   وباعد عنا بالسنين انتجاعه
ومن كل جبار عنيد يرى الورى   عبيدا لديه والبقاع بقاعه
شقى عصى الرحمن في كل أمره   ومال الى شيطانه وأطاعه

ولا يملك الشاعر الا أن يرفع شكوى لرعاة الوقت التي أتاح لها اهمالهم أمثال هذا النائب الذي فعل بالرعية ما يفعله السبع بالنعاج ، ويالها من مقارنة أليمة ، ولكنها صادقة ، فقال :

فقل لرعاة الوقت ان نعاجكم   أتاح لها ريب الزمان سباعه

ثم تحدث بعد ذلك عن سوء الأوضاع الادارية والامنية في المدينة مظهرا روح السخرية والشماتة ، فيما حل بهم في عهد هذا النائب وأمثاله ، فكلهم قوم سوء (٢٠٨) . وتجدر الاشارة الى أن هذا الأديب الشاعر له كذلك رسالة نادرة على شكل مقامة ساخرة طويلة ، ومع ذلك فقد أوردها الجبرتي كاملة (٢٠٩) .

٢/ ٤ تيارات سلبية :

في هذه العصور التي اثقلتها وطأة الحروب الخارجية والفتن الداخلية المدمرة وتردي الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والعجز عن مقاومتها او تغييرها ، تباينت ردود الفعل عند ابناء المجتمع العربي بعضها كان قد اتخذ شكلا سلبيا او هروبيا ـ هو الذي يعنينا في هذه الفقرة فيما عرف اجتماعيا باسم تيارات المجون والتهتك والخلاعة ـ التي تجاوزت حدها البريء الى حد الشذوذ الجنسي

---

(٢٠٨) عجائب الآثار ٢ : ٣١٢-٣١٤

(٢٠٩) عجائب الآثار ٢ : ٣٢٢-٣٢٩

او الانهماك في الخمر والحشيش والانغماس في تيارات صوفية عاطلة او ادعاء النبوة احيانا او الجنون احيانا اخرى وادعاء الحمق والبله والغفلة في القول والسلوك اكثر الاحايين او الخروج على القانون وغير ذلك من التيارات الاجتماعية المتناقضة او السلبية التي وقف الشاعر الشعبي من معظمها موقفا ايجابيا رافضا ، فسخر منها ودعا الى القضاء عليها باعتبارها امراضا اجتماعية تنخر في جسد مجتمع مريض اساسا . . ووقف الشاعر الشعبي في معالجتها موقفا جادا تارة وموقفا ساخرا تارة اخرى ولكنه في الحالين متهكم شديد التهكم وايا ما كان الامر فليس من المبالغة في شيء حين نقول ان الادب العربي لم يعرف عددا من شعراء المجون والخلاعة او الحمق والتحامق والتهك والخراع ووصف مجالس الخمر والحشيش وشعر الشذوذ الجنسي قدر ما عرف في هذا العصر من شعراء ، وان هذا الشعر نوعان : بعض هذا الشعر كان دعوة صريحة الى الانغماس في هذه التيارات وهذا هو النوع الاول ، وان بعضه كان حربا ضارية على هذه التيارات وهذا هو النوع الاخر ، وعلى الرغم من اننا لن نقف عند النوع الاول الا في حدود مثال او مثالين في مجال التمهيد للنوع الاخر فهو يستحق دراسة قائمة بذاتها اكبر من ان تستوعبها هذه الفقرة من ناحية ، ولا يعد ادبا رافضا او ايجابيا ـ هو الذي تعني به هذه الدراسة ـ من ناحية اخرى ، فان ثمة ملاحظة عابرة تقال في هذا المقام وهي ان النوع الاول شاع ـ اكثر ماشاع ـ في الشام البعيد عن العاصمة على حين شاع النوع الاخر ـ اكثر ما شاع ـ في مصر لاسباب معروفة ولا مجال لذكرها الآن ولكن لنقف عند نماذج منها :

ولنبدأ بتيار الخلاعة والمجون

حذا اصحاب هذا التيار حذو الشعراء الرسميين او الذاتين السابقين او المعاصرين من مثل ابي نواس وابي الرقعمق وابي الشمقمق وابن حجاج وابن سكرة وابن منير وابن قسيم الحموي وعرقلة الدمشقي ، وابن الساعاتي والشرف الانصاري والشاب الظريف والتلعفري وابن نباته وصفي الدين الحلي ممن تحول اللهو والمجون عندهم الى غرض شعري مستقل افردوا له فصولا في دواوينهم وهي فصول تغلب عليها الروح الشعبية لفظا واسلوبا وخيالا فكان ان تناقلها معاصروهم وغنوها في مجالس لهوهم وسمرهم(٢١٠) وينفرد بعضهم بدواوين شعرية كاملة في « الهزل والمجون » منها ديوان « نهج

---

(٢١٠) حول تراجم هؤلاء الشعراء ، ومذاهبهم في المجون والخلاعة واللهو انظر :

أدب الدول المتتابعة ص ٢١١ ـ ٢٧٢ ـ ٣٠٣ ـ ٣٣١ ـ ٣٧٣ ـ ٤٤٥ ـ ٥٦٥ ـ ٥٦٢
ـ الأدب في العصر المملوكي ٢ : ١٠٥ ـ ٢٤٦
ـ الأدب في العصر الايوبي ٢٢٩ ـ ٣٠٩
ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ١٠٢ ـ ١٠٦

الوضاعة » لابي الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي (توفي سنة ٦٤٨هـ) وكان حكيما « متقنا للصناعة الطبية حسن النادرة كثير المداعبة محبا للهو والمجون محبا للشراب وكان يعرف صنعة الموسيقى . . . وله ديوان شعر سماه نهج الوضاعة اتى فيه بكل غريب وقد وضعه لاولى الخلاعة » وللباهلي « ايضا ارجوزة هزلية طريفة اسمها « معرة البيت » ذكر فيها ما ينال الانسان من المضرة والغرامة اذا عمل ندوة للندماء وما كان يترك الخلاعة والمجون حتى في اشد المواقف جدية كالرثاء حيث يخلط فيها الجد بالهزل ، وله ايضا المقصورة الهزلية التي عارض بها مقصورة ابن دريد معارضة هزلية طريفة وفيها يدعو الى الانغماس في الخلاعة والمجون وهي التي ورد فيها هذا البيت الذي جرى مجرى الامثال الشعبية(٢١١) : ـ

وكل ملموم فلا بد له   من فرقة لو لزقوه بالغرا

ومنها ديوان « سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون » ، للشاعر نور الدين محمد بن عبد العزيز المعروف بالاسعردي وكان الغالب عليه المجون وافرد هزلياته في هذا الكتاب وضم اليه اشياء من نظم غيره وكان ماجنا خليعا توفي بدمشق سنة ٦٥٦هـ (٢١٢) .

ومنها ديوان ابن شكر المعروف بابن الصاحب الذي « كان نادرة زمانه في المجون والهزل وانشاد الاشعار والبليقات وكان قد تمفقر في آخر عمره واطلق طباعه على التكدي » وادعى الجنون بسبب هزائمه السياسية ومن شعره : ـ

يا نفس ميلي الى التصابي   فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملي من سكر يوم   ان اعوز الخمر فالحشيش

والطريف ان الصراع بين الخمر والحشيش الذي كان قد ادخله المتصوفة الى العالم العربي كان

---

(٢١١) انظر في ترجمته ونماذج من شعره :

- عيون التواريخ ٢٠ : ٤٧
- عيون الانباء ٢ : ١٤٩ ـ ١٥٥
- وفيات الاعيان ١ : ٢٧٤
- شذرات الذهب ٥ : ٢٤١
- مرآة الزمان ٨ : ٧٨٤

(٢١٢) انظر في ترجمته : عيون التواريخ ٢٠ : ١٨٩ - فوات الوفيات ٢ : ٣٢٩ ـ ٣٣٤

- شذرات الذهب ٥ : ٢٨٤

موضوعا اجتماعيا وادبيا طريفا طرقه معظم الشعراء . . . وكان ابن شكر من انصار الحشيش ومن قوله في ذلك عندما حرمه بعض الفقهاء :

في خمار الحشيش معنى مرامي   يا اهيل العقول والافهام
حرموها من غير عقل ونقل   وحرام تحريم غير الحرام

واطرف من ذلك ان ابن تغري بردي وهو يترجم لابن شكر (في حوادث سنة ٦٨٨هـ) ينتصر للحشيش في ضوء قوله « واحسن ما قيل في هذا المعنى قول القائل ولم ادر لمن هو » :ـ

وخضراء ما الحمراء تفعل فعلها   لها وثبات في الحشى وثبات
تؤجج نارا في الحشى وهي جنة   وتروي مرير الطعم وهي نبات

والخضراء هي الحشيشة وينسب الى ابن دانيال قوله : ـ

قل للذي ترك الحشيشة جاهلا   وله بكاسات المدام ولوع
ان المدامة لو اردت تطوعا   لهي المحرم والحشيش ربيع(٢١٣)

في الوقت الذي كان يدعو فيه انصار الخمر الى احياء المذهب النواسي كاملا . كما في قول بعضهم :ـ

انا نائب الشرع النواسي   دعني وباطيتي وكاسي
اهوى الغزالة كاعبا   واهيم بالظبي الخماسي
من كل معتدل رشيق الـ   ـقد ممشوق خلاسي
لكن لافلاسي حببت السـ   ـامري بلا مساس
لي منزل لاشيءُ فيـ   ـه ، كأنه كيسى وراسي(٢١٤)

ويدعو اصحاب هذا المذهب الى هجاء الحشيش ومتعاطيه كما في قول الشاب الظريف :

ما للحشيشة فضل عند آكلها   لكنه غير مصروف الى رشده
صفراء في وجهه خضراء في فمه   حمراء في عينه سوداء في كبده(٢١٥)

---

(٢١٣) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ ـ ٣٨٠ وعيون التواريخ ٥ : ٢٣١

(٢١٤) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ١٠٢ ومصادر النقل الخطية هناك .

(٢١٥) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٨١

وايا ما كان من امر هؤلاء الخلعاء والماجنين الذين امتلأت كتب التراجم والتاريخ والادب باخبارهم وشعرهم في الخمر والحشيش والشذوذ الجنسي والشعر الاباحي فاننا نكتفي في هذا المقام بالاشارة الى قصيدة زجلية طويلة تعكس الى حد كبير فلسفة هذا التيار ـ واسلوب اصحابه لشاعر شعبي اسمه علي ابن عبد العزيز بن جابر المغربي البغدادي الذي كان « من اظرف خلق الله تعالى واخفهم روحاً » على حد تعبير ابن شاكر(٢١٦) الذي وصفه ايضا بانه صاحب « القصيدة الدبدبية المشهورة » وقد توفي سنة ٦٨٤هـ ، ويمكن لنا ان نصف هذه القصيدة الزجلية بانها كانت تعد مع الدبدبية بمثابة « دستور الخلاعة والمجون في هذا العصر ».

والجدير بالذكر انه هذه الدبدبية التي وصفها ابن شاكر بانها « غاية وطويلة جدا ذكر فيها فنونا » تبدأ برفض الواقع السياسي والعسكري والعلمي والادبي والفكري الذي ال الى هذه الحال الاسيفة اثر تدمير بغداد وسقوط الخلافة العباسية تحت جحافل التتر البربرية ثم يدعو بعد ذلك اهل عصره الى الانضمام اليه فيما سماه « بمواكب الهذيان » التي يقودها وشعاره او مذهبه :

وان سألت مذهبي   فمذهبي المجرب
آكل ما يحصل لي   ورغبتي في الطيب
واشرب الماء ولا   ارد ماء العنب
والبس القطن ولا   اكره لبس القصب
وان ركبت دابة   او لا فنعلي مركبي
وكل قصدي خلوة   تجمعني مع الصبي
في البيت او في روضة   ازهارها كالشهب
ونجتلي بنت الكروم   او بنيء العنب
ونبتدي نأخذ في الـ   شكوى وفي التعتب
حتى اذا ما جاء لي   برشف ذاك الشنب
حكمته في الرأس اذ   حكمني في الذنب

ويبدو الجانب الهزلي في هذه القصيدة المطولة في ذلك العرض الجنسي الفاحش الذي كان يضحك معاصريه ويعجبهم ويصادف هوى في ذوقهم ومزاجهم ثم يبرز الشاعر تقي الدين ـ وهذا لقبه ـ مذهبه او فلسفته ثانية في قصيدته الزجلية الاخرى .

---

(٢١٦) فوات الوفيات ٢ : ١١٢

الوقت يا نديمي   قد طاب واعتدل
والشمس مذ ليالي   قد حلت الحمل
فانهض الى الحميا   واستنهض الصحاب
فالبدر والثريا   الكأس والحباب
والوقت قد تهيا   ومجلس الشراب
فيه كل ما يريده   فانهض على عجل
انهب زمان وصلك   وانه الذي نهاك
واسعد بقرب خلك   وابلغ منه مناك
فبعد يوم لعلك   لا تستطيع ذاك
والتذ فالليالي   ما بيننا دول
لقمة تكون حنظل   واخرى تكن عسل
ما لك كدا محير   لا تهتدي لطريق

ثم يدعو الى ممارسة الشذوذ الجنسي على نحو ما يفعل السلاطين والامراء . . ثم يختتم هذا الشاعر البغدادي الظريف قصيدته بوصية داعرة(٢١٧) . سرعان ما تجد صداها عند شاعر موصلي اخر هو ابن دانيال ، فيملأ تمثيلياته الظلية التي وصلتنا بشيء كثير جدا من هذا الشعر الداعر الذي شاع شيوعا كبيرا في مصر والشام وبغداد آنذاك ، مع شيوع الحشيشة وانتقالها من بيئات المتصوفة الى البيئات الشعبية حتى بات تعاطي الحشيش داء او مرضا اجتماعيا وبات مدمنوه موضع السخرية على نحو ما نرى عند ابن سودون صاحب ديوان « نزهة النفوس ومضحك العبوس » هذا الشاعر الماجن الذي كان « يتعاطى التمسخر مع الاراذل ـ وراج امره بالمجون »(٢١٨) وقد توفي بالشام سنة ٨٦٨هـ . ومن شعره في ذلك : ـ

يا قاتلا لحشيشة فقتلت يا   مشكاح ، انت القاتل المقتول
إن شئتها تحييك ، احسن قتلها   واستكثرن ، فلا يفيد قليل
مهما انبسطت بها ، فعيشك طيب   كم عاش فيها بالهنا مسطول
اسمع اخي فوائدا صحت ، فعن   اهل التجارب ، كل ذا منقول(٢١٩)

---

(٢١٧) انظر فوات الوفيات ٢ : ١١٢-١١٨
(٢١٨) انظر ، الضوء اللامع ٥ : ٢٢٥
شذرات الذهب ٧ : ٣٠٧-٣٠٨
(٢١٩) الأوزان الموسيقية ص ٩٢

ولابن سودون أزجال ومقطعات شعرية اغلبها على وزن « المواليا » في ذلك ، منها :

يا من على البسط بعد الكوز ما قد مال
قم روح لمقصف ابو خالع بلا اهمال
زقزق على بندقه حتى يطير المال
وايش ما انصرم جدد ، ودولاب حشيش عمال

وقوله : ـ

يا ما احسن البحر والواحد حداه مسطول
قاعد على جنب شختورة عليه دلول
حداه عشيو قشيطة فوقها عسلول
يقتل شوية ، ويبلع ، ينقلب مقتول

او كما يقول : ـ

بلعت يوم بندقة في لونها خضرة
رأيت بياض عيني قد صارت عليه حمره
وصرت عابر وخارج بيتنا ما ادره
ونا ما بقشع شيء ، جوه ولا بره

ويمضي ابن سودون ، فيكثر من ذكر الحشيش والمر في شعره على هذا النحو الساخر وغير الساخر ويتباله كثيرا ، فيعمد الى المجون حتى كاد يقتصر على المجون والخلاعة⁽٢٢٠⁾ . فضلا عن الهزليات التي ستعرض لها في فقرة تالية⁽٧/٢⁾ .

ويتجاوز الشعر الشعبي الساخر تصوير هذه الظاهرة الى الوقوف عند ظاهرة اخرى ، تبدو ظاهريا على النقيض منها تماما وهي ظاهرة التصوف التي شاعت في هذا العصر شيوعا كبيرا كذلك . وأياما كان القول في اسباب شيوعها او استقطاب السلطة لابنائها واقطابها وتعدد طرائقها وآثارها الايجابية والسلبية⁽٢٢١⁾ . فان ثمة ملاحظتين هنا احداهما تنتهي الى ان التصوف في جانبه الايجابي ـ نوع من

---

(٢٢٠) نفسه ص ٧٩ ، وانظر أيضا الصفحات : ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢

(٢٢١) حول التصوف في هذا العصر بين الايجابية والسلبية انظر على سبيل المثال :

ـ تاريخ مصر الاجتماعي ٤٩١ ـ ٤٩٣
ـ المجتمع المصرى ١٦٢ ـ ١٧٥
ـ الحركة الفكرية في مصر ص ٩٥ ـ ١٤٦
ـ حضارة الاسلام ص ٢١٥ ـ ٢٢٨
ـ الأدب في العصر المملوكي ١ : ١٩٣ ـ ٢١٧
ـ الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجرى ، على صافى حسين ـ دار المعارف ـ ١٩٦٤ القاهرة

التعبير الجماهيري عن الاحتجاج على رفاهية الطبقة الحاكمة من خلال تمجيد الفقر والتلقب بالفقراء وملوك الآخرة ، والملاحظة الاخرى ان هذا التصوف سرعان ما انكفأ ـ في جانبه السلبي ـ الى الارتباط بالسلطة او العيش عالة عليها على احسن تقدير في الخوانق التي اكثر منها السلاطين الذين تبنوهم ودفعوهم الى بث الزهد بين العامة والانصراف عن الدنيا وشئونها (في المال والسياسة) حتى ينعم بها المماليك وحدهم ، واذا كان بعض اقطاب الفريق الاول الايجابي يمثلون التصوف في اسمى معانيه وكان اغلبهم من المغرب العربي وشمال افريقيا والاندلس فان بعض اقطاب الفريق الاخر ـ السلبي ـ كانوا يمثلون التصوف في اقصى تطرفه الى درجة الزندقة والالحاد ، وكان معظم اقطاب هذا الفريق من عجم المشرق ، ومن صفوفهم ازدهرت في مصر طائفة اطلق عليها المجاذيب او الدراويش الدوارين او الراقصين ، واشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بافعالهم الغريبة التي زعموا انها من الدين وهم الذين استقدموا الحشيشة معهم وروجوا لها بين صفوفهم واستقروا في الخوانق التي انشأها لهم السلاطين الايوبيون والمماليك وبرغم الشروط الدقيقة التي وضعت للالتحاق بهذه الخوانق فانه كثيرا ماكان يتساهل الامراء والنواب بشأنها اذا كان الصوفي اعجميا ـ ما دام يعرف كيف يأكل الارز المفلفل والرقص واللواط في المردان(٢٢٢) . وقد وصف السبكي اعضاء هذا الفريق بانهم « قوم اتخذوا من الخوانق ذريعة للباس الزور (الصوف المرقع) واكل الحشيش والانهماك على حطام الدنيا لاسترهم الله وفضحهم على رؤوس الاشهاد »(٢٢٣) . ولهذا لا غرو ان يحمل الفقهاء والمتصوفة من الفريق الاول على هؤلاء حملة شعواء يتهمونهم بكل الموبقات وفي ذلك قدر كبير من الصحة في ضوء ما رواه لنا المؤرخون من نماذج ادعت التصوف زورا وبهتانا ، وما قاله الادباء والشعراء فيهم من هجاء ساخر وبخاصة هذا الذي قيل في دراويش العجم الذين عرفوا بالقلندرية في مصر ويتميزون بهيئتهم القبيحة اذ يحلقون رؤوسهم ولحاهم وشعر حواجبهم ، كما يزيلون رموش اعينهم فيبدون في صورة مزعجة تشبه المجانين ويزعمون ان ذلك ضرب من التقوى والعبادة وقد شاهدهم الشاعر الشعبي الظريف علي بن جابر في بغداد ايضا فوصف هيئتهم القبيحة وملابسهم المزرية وانغماسهم في الحشيشة وزندقتهم وخلاعتهم وشذوذهم ، وطرائفهم ومصطلحاتهم في الاستجداء باسم التصوف والدين وذلك في قصيدة شعبية طويلة تكتفي منها بهذا الجزء :

لا بد تظهر بين الناس قلندري محلوق الراس
تلبس عوض دا الكتان حلتك من صوف الخرفان او دلق او تصبح عريان

---

(٢٢٢) انظر فوات الوفيات ١ : ١٨٤

(٢٢٣) معهد النعم ص ١٧٩

تغدو تدور مع اجناس محلقين الروس اكياس
ما يعرفوا الا الخضرة والبنك لا شرب الخمرة مثقالها بألفي جره
وعندهم منها اكياس دانق يقاوم سبعين كاس
من قبل ما تغدو مسطول تهتم في امر المأكول وتطلع السوق بالكشكول
تطلب على الله من رواس وباقلاني مع هراس
لمن لقينا قلنا اي حال خويدان درويشتان همه عن بيان سركدان
يدعون لك وقت الاغلاس فهم صحيحين الانفاس
وتنقد العالم جيد يقول لذي المال اي سيد نريد كرامة للمسجد
رطيل شيرق في الجلاس لنشغله بين الجلاس
كأنكم بي يا خلان وانا مجرد كالشيطان فقد قوي عندي ذا الشان
...... (٢٢٤)

وعندما ينشيء الملك الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس المشهور « يقرر بها جماعة افاقية قاطنين بها ، ليس لهم حرفة » على حد تعبير ابن اياس ، فان ابن المعمار ، يعرف ان هؤلاء المتصوفة ابعد الناس عن الاسلام ، ومع ذلك فالسلطان متعصب لهم ، فلا يملك الا ان يسخر قائلا(٢٢٥) :

قد صار في الخانقاه عرف من فعلهم وهو شر عادة
لا يدفعون النصيب فيها الا لمن يترك الشهادة

ومن افعال بعض اولئك المجاذيب ان يركب الواحد منهم في قفص على رأس حمال ، ويضع على رأسه شرطوط طويل جدا . كان يشبه الشربوش في اول امره(٢٢٦) ، مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة ، فقال احد الشعراء موشحة طويلة في وصف هيئتهم جاء فيها :

جتنا عجم من جوا الروم صور تحير فيها الافكار
لها قرون مثل التيران ابليس يصيح منهم زنهار(٢٢٧)

---

(٢٢٤) انظر النص كاملا في فوات الوفيات ٢ : ١١٥ - ١١٦

(٢٢٥) بدائع الزهور ص ١٣٨

(٢٢٦) انظر الملابس المملوكية ص ٥١ ، ومعجم دوزى ص ١٨٤

(٢٢٧) النجوم الزاهرة ٨ : ١٧٠

وما اكثر ما سجلت لنا كتب الادب والتراجم والاعلام والتاريخ من شعر في هجاء هؤلاء الاعجام من سدعي التصوف ، وقد يتمادى بعض المتصوفة في غلوة فيدعي النبوة . وهنا لا يملك الشاعر الشعبي الا ان يدعو وزير البلد الى قتله فالامر جد خطير . ومن ذلك قول بعضهم في « المواليا » مؤرخا لهذه الحادثة على طريقة حساب الجمل(٢٢٨) :

واحــد ظــهــر وادعى انــه نـبي مـن حق
وانــو عــرج للســما وانـو اجتمـع بــالحق
وابليس ضلوا وصــدوا عن طـريق الحق
قم يــا وزيــر البلد ، واحكـم عــلى قتـله
اهــل العلوم ارخـوا : هــذا كفـر بــالحق

ذلك ان الحركة الصوفية في مجملها كانت قد تدنت في اخر العصر المملوكي وابان الحكم العثماني تدنيا فظيعا وتحول كثير من افرادها الى مشعوذين ودجالين ومشعبذين يشتغلون بالسحر والكيمياء . والغريب ان بعض السلاطين لجشعهم قد آمن بقدرتهم على تحويل النحاس الى ذهب ودعا بعضهم الى قصره « ليطبخ له كيمياء » وانفق عليهم الاموال هباء فيجد الفنان الشعبي الفرصة سانحة امامه ليقول :

كــاف الكنــوز وكــاف الكيـميـاء مـعـا   لا يـوجـد ان فـدع عن نفسـك الــطمعـا
وقــد تحــدث قــوم بــاجــتـمــاعــهـا   ومــا اظنـهـما كــانــا ولا اجتـمـعــا(٢٢٩)

ويروي الجبرتي نماذج اخرى من مدعي الولاية كذبا ومينا الذين يزعمون انهم من اصحاب الخوارق مثل هذا الافاق الذي كانت لديه عنزة يزعم انها تتكلم وتعرف الغيب حتى تمكن الوزير من ذبحها وتقديمها له ـ دون ان يدري ـ في وليمة كان قد دعاه اليها . وكان ذلك فرصة سانحة للشعراء للتندر وذكر لنا الجبرتي نماذج من هذا الشعر الساخر(٢٣٠) . نؤثر ان نتركه لنختتم هذه الفقرة بتلك الحكاية الحقيقية التي رواها لنا ابن تغري بردي ، حين قال : « وفي هذه الايام من سنة ٧٥٢هـ ادعى رجل النبوة وان معجزته ان ينكح امرأة فتلد من وقتها ولدا ذكرا بخبر بصحة نبوته فقال بعض من حضر : انك لبئس النبي فقال على الفور لكونكم بئس الامة . فضحك الناس من قوله فحبس وكشف عن امره

---

(٢٢٨) عجائب الآثار ٢ : ٨ ـ ٩

(٢٢٩) بدائع الزهور ص٦٣ ، ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٢٣٠) عجائب الآثار ٣ : ٢٥ ـ ٢٦

فوجدوا له نحو اثني عشر يوما من حين خرج من عند المجانين(٢٣١) ». واغلب الظن ان مثل هذا النموذج المتحامق او الماجن كان ابعد الناس عن الجنون .

يبقى ان نشير الى شيوع ظاهرة اللصوصية في هذا العصر او البطولة خارج القانون متجاوزين بالطبع اللصوصية الرسمية مشيرين فقط الى كثرة الطوائف التي اتخذت من اللصوصية اسلوبا لها في الحياة من مثل الحرافيش والعياق والفدوية والمناسر والزعار والشطار والعيارين والجعيدية والبدورة وحشرات الحسينية او فتوات الحسينية وغيرهم ، ولنا في هذه الطوائف جميعا دراسة مطولة في تاريخها وآدابها الشعبية الساخرة(٢٣٢) حيث كانت تحظى بتعاطف شديد من العامة لأنها صادرة من بينهم ولذلك تغني « الشعر الشعبي ببطولاتهم ونكتفي هنا بمثالين مما كانت العامة تنشدهما : اولهما هذا الموال او المواليا :

افدي للص غدا بين الورى يا زين
هجام في الليل شاطر ما يخاف الحين
ينشل ببطء ، حقيقة ، صدق ما هو مين
ويمسح الكحل سرعة من سواد العين(٢٣٣)

والآخر هذه الاغنية التي يسخر فيها اللص من « اهل وده » من لصوص السلطة ، عندما أقاموا عليه وحده الحد :

افديه اقطع يشدو : « ساروا ولا ودعوني »
ما انصفوا اهل ودي واصلتهم قطعوني(٢٣٤)

٢/ ٥ السخرية الذاتية :

لقد عانى الشعراء في هذا العصر من الفقر كما لم يعان شعراء العصور السابقة وقد ذهبت محاولاتهم سدى في التكسب بالشعر ، وابى بعضهم ان يتسول بشعره فآثر الفقر والكرامة ولكن نفوسهم ظلت ممرورة ناقمة ، فشرعوا يهجون الممدوحين في عصرهم على هذا النحو الحاد الذي تزعمه السراج الوراق والجزار وابن دانيال يقول السراج : -

---

(٢٣١) النجوم الزاهرة ١٠ : ٢٦٩ ـ ٢٧٠

(٢٣٢) حكايات الشطار والعيارين ص ١٧٨ وما بعدها

(٢٣٣) الدرة المضيئة ص ٩٧

(٢٣٤) النجوم الزاهرة ٨ : ١٩٥

مالي اذل وللقناعة عزة   انجو بها من ذلة وهوان
واصون وجهي ان يذل لاوجه   منحوتة من عالم الصوان
والقوم كالاصنام والاسلام نزهني   عن الاصنام والاوثان(٢٣٥)

وراح يهجو عصره ، متهما اياه بأنه عصر وبيء اي موبوء :

وتفاقم الداء العضال فخلقنا   بلغ الجذام وعصرنا عصر وبي(٢٣٦)

ذلك ان الممدوح لاه عنه بنوبي كليل الهجر والصد غارق في شهواته فيقول : ـ

اراه يصد عني وهو لاه   بنوبي كليل الهجر والصد
فان لم يرعني لبياض لوني   فيرعاني لحظي وهو اسود

ويعزو الجزار ذلك الى انقلاب المعايير فيقول : ـ

اشكو لعدلك جور دهر جائر   فضلت به فضلاؤه الجهال
منعت به عقلاؤه اذ قسمت   بالجور في انعامه الانفال(٢٣٧)

اما ابن دانيال فيؤكد انه لا مكان للشعراء عند هؤلاء الجهال فيقول : ـ

قد عقلنا والعقل اي وثاق   وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلي   فاضلا عند قسمة الارزاق(٢٣٨)

ومن ثم فلا معنى للعقل والفضل ، فليزم اذن الحمق او التحامق وكان هذا فعلا نهجه واسلوبه في الحياة على نحو ما فعل الجزار والسراج الوراق واضرابهما ايضا من شعراء التحامق والمجون في هذا العصر . . . فكان ان جأر معظمهم بالشكوى مما الم بهم من فقر وسوء حال ، وكان ان انعكس تمردهم على هذا الواقع الذي لا يملكون تغييره على شكل سخرية لاذعة او تهكم مرير او نقد جارح على نحو ما رأينا في الفقرات ـ السابقة وكان ايضا ان سخروا من انفسهم او بالاحرى من اسمائهم والقابهم وحرفهم التي افردنا لها هذه الفقرة . .

---

(٢٣٥) نفسه ٢ : ٢٢٤
(٢٣٦) نفسه ٢ : ٢٢٤
(٢٣٧) الغيث المسجم ٢ : ١٣٠
(٢٣٨) نفسه ٢ : ١٢٧

فالجزار الذي ساءه انقلاب المعايير راح يشكو زمانه :

لا تسلني عن الزمان فاني   قد بدت لي اضغانه وحقوده
زمن لان عطفه عند غيري   وهو عندي صعب المراس شديده
كيف يبقى الجزار في يوم عيد النـ   ـحر رهن الافلاس والعيد عيده
يتمنى لحم الاضاحي وعند   الناس منه طريه وقديده

ويؤكد ان هذا زمان لا تنفع فيه حرفة الجزارة ولا مهنة الادب :

اصبحت في امري ولا   اشكو لغير الله حائر
ولكم يذكرني الشتا   ء بأمره ولَكَمْ اكاسر
واللحم يقبح ان اعو   د لبيعه والشعر بائر
يا ليتني لا كنت جز   ارا ولا اصبحت شاعر(٢٣٩)

لكنه اخيرا يستقر في مهنة الجزارة فهي وحدها التي تحفظ كرامته « وبها اضحت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت ارجو الكلابا » ويشرع يفتخر بها متباهيا :

حسن التأتي مما يعين على   رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ كان في جزارته   يعرف من اين تؤكل الكتف

بل يمضي معارضا احمد الكندي (المتنبي) على هذا النحو الساخر :

فان يكن احمد الكندي متهما   بالفخر يوما فاني لست اتهم
فاللحم والعظم والسكين تعرفني   والخلع والقطع والساطور والوضم

يشير الى قول (ابي الطيب) :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويا لها من مقارنة تدين العصر قبل ان تدين الجزار(٢٤٠) .

ولا يخجل الجزار ان تكون حرفته موضع سخرية خصومة من الشعراء او مداعباتهم وما اكثر ما قيل

---

(٢٣٩) المغرب ١ : ٣٠٠-٣٠١

(٢٤٠) انظر الغيث المسجم ٢ : ٤٣٢ - ٤٣٣

في هذا وابرز الامثلة على ذلك قول مجاهد بن سليمان الخياط (توفي سنة ٦٧٢هـ) الذي وصفه ابن شاكر بانه « من كبار ادباء العوام[٢٤١] » . من قصيدة له يهجو بها الجزار :

ان تاه جزاركم عليكم   بفطنة في الورى وكيس
فليس يرجوه غير كلب   وليس يخشاه غير تيس

وينقل ابن خلكان هذه الابيات للجزار الذي استحسن ذلك ، ثم انشد :

الا قل للذي يسأ   ل عن قومي وعن اهلي
لقد تسأل عن قوم   كرام الفرع والاصل
يريقون دم الانعا   م في حزن وفي سهل
ومازالوا لما يبدو   ن في بأس ومن . بذل
يرجيهم بنو كلب   ويخشاهم بنو عجل[٢٤٢]

ويتخذ صديقه النصير الحمامي (توفي سنة ٧٠٨هـ) ايضا من حرفته في الحمام موضوعا لسخريته فيقول :

ومذ لزمت الحمام صرت فتى   بها يداري من لا يداريه
اعرف حر الاشياء وباردها   وآخذ الماء من مجاريه[٢٤٣]

ويقول ايضا :

لي منزل معروفه   ينهل غيثا كالسحب
اقبل ذا العذر به   واكرم الجار الجنب

والطريف انه كان يدعو اصحابه الى الحمام ويحببه اليهم بالشعر . وكذلك يفعل السراج الوراق الذي يروي له الصفدي نماذج اخرى[٢٤٤] وكذلك يفعل ابن دانيال الكحال (طبيب العيون) بحرفته فيقول هاجيا عصره :

يا سائلي عن حرفتي في الورى   وصنعتي فيهم وافلاسي
ما حال من درهم انفاقه   يأخذه من اعين الناس

---

(٢٤١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٢ : ٢٩٩ النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤٢
(٢٤٢) الغيث المنسجم ١ : ١٠١ - ١٠٢
(٢٤٣) نفسه ٢ : ٤٣٣
(٢٤٤) نفسه ٢ : ٤٣٣ - ٤٣٤

وتكمن النكتة في تلك التورية اللطيفة التي اعجبت القدماء(٢٤٥) . في قوله « اعين الناس » وهو لا يعني صنعته الكحالة ولكنه يعني المعنى البعيد الذي يكمن في هذا القول الشعبي الدارج الذي يؤكد الاغتصاب واخذ درهمه عنوة من ايدي معاصريه . .

ويعمد ابن دانيال الى هذا الاسلوب مرارا وهو لا يخفي فقره بل يتعالى عليه ويسخر منه كما في قوله ، موريا :

ما عاينت عيناي في عطلتي   ادبر من حظي ولا بختي
قد بعت عبدي وحماري وقد   اصبحت لا فوقي ولا تحتي(٢٤٦)

ويتعالى قبله السراج الوراق ، فيقول هازئا بفقره :

بعت خفي في ارضكم من حراف   حف بي او اصارني للتحفي
ثم اتبعته ندامة نفس   احوجتني لأكل خفي وكفي(٢٤٧)

وكان قبل ذلك قد باع حماره وحذاءه :

قالوا وقد ضاعت جميع مصالحي   لهموم نفس ليت لا حملتها
قد كان عندك يا فلان صريمة   فأجبتهم بعت الحمار وبعتها

ويورد له الصفدى نماذج اخرى على هذا النحو (٢٤٨) والطريف أن هذا الشاعر اتخذ من لقبه وحرفته موضوعا كبيرا لشعره الساخر . حتى قال له بعض القدماء « لولا لقبك لراح نصف شعرك » ويحكون له في ذلك نوادر وطرائف ، وأشعارا من مثل قوله :

أثنى على الأنام أنى   لم أهج خلقا ولا هجانى
فقلت لاخير في سراج   ان لم يكن دافىء اللسان

وقوله :

ولست متهما قول السراج اذا   ما قال من قلق فى قلبى النار

---

(٢٤٥) انظر : الدرر الكامنة ٣ : ٣٨٢ ، النجوم الزاهرة ٩ : ٢١٥ ، بدائع الزهور ص ١٣٢ ، فوات الوفيات ٢ : ٣٨٧

(٢٤٦) فوات الوفيات ٢ : ٣٨٦ ، الغيث المستجم ١ : ١٤

(٢٤٧) الغيث المستجم ١ : ١٤٦

(٢٤٨) الغيث المستجم ١ : ٢٦٤

وقوله :

يريد وني رطب اللسان ومن   رأى سراجا غدا رطب اللسان بلا دهن

وقوله :

وعمم نور الشمس رأسى فسرنى   وما ساءنى أن السراج منور

وقوله : فها أنا شاعر سراج   فاقطع لسانى أزدك نورا

وقوله : الحمد لله زادنى شرفا   كنت سراجا فصرت فانوسا

وما أكثر ما قيل في لقبة وحرفته (٢٤٩) .

والطريف أن بعض الشعراء يتخذ من حرفته ـ لعدم تقدير البعض لها ـ موضوعا لبعض ألغازه الساخرة ، على نحوما نقرأ قول القائل مفتخرا :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم   دأب ، وسل عنهم ان رمت تصديقى
تضيىء بالدم إشراقا عراصهم   فكل أيامهم أيام تشريق

واذا بهذا القائل هو الجزار نفسه الذى راح يفتخر بانتمائه الى أسرة يعمل أبناؤها في الجزارة (٢٥٠) .

ونقرأ قول القائل أيضا وهو بدر الدين بن الصاحب :

أنا ابن الذى بالليل تسطع ناره   كثير رماد القدر لعبء يحمل
يدور بأقداح « العوافى » على الورى   ويصبح بالخير الكثير « يفول »

وتكون إجابة اللغز : بائع الفول الفقير . وليس سيد القوم كما قد يتوهم من البيت الاول فهو كثير رماد القدر ، ليس لأنه سيد القوم ، بل بحكم المهنة ، وتقوم التعمية في البيت الثانى في « العوافى » ، « ويفول » التى تشير في معناها القريب الى بث التفاؤل ، وفي معناها البعيد المراد الى بيع الفول (٢٥١) .

يعب هذا اللون من السخر الذاتي عند الشعراء الذى يتوسل بأسمائهم والقابهم وحرفهم وحظوظهم وافلاسهم ، دورا حيويا في « إنكار الواقع » المرير الذى يعانون منه والاستعلاء عليه ، غير أنه ينطوى ، في الوقت نفسه ـ على نزعة عدوانية ، تتجه في صميمها نحو ظروف العصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية البالغة التناقض .

---

(٢٤٩) الغيث المستجم ٢ : ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ومطالع البدور ١ : ٩١ والنجوم الزاهرة ٨ : ٨٤

(٢٥٠) الغيث المستجم ١ : ١٠٢

(٢٥١) مطالع البدور ١ : ٢٣

٦/٢ المعارضات الساخرة

أُدب المعارضات الشعرية فن قديم فى التراث العربي ، وقد ظل فنا يتوسل أو يقوم على المحاكاة الجادة للأعمال الشعرية الكبرى ، حتى بداية عصر المماليك ، وعلى الرغم من وجود نماذج محدودة من المعارضات الهزلية في كتب التراث الادبى كانت تقال على سبيل المداعبات الشعرية . . **فانه يمكن القول بأن أدب المعارضات الساخرة فن أدبى مملوكى ، راج أمره في هذا العصر رواجا كبيرا ، في الشعر بألوانه المختلفة ، والنثر بانماطه المتعددة ، لأسباب سياسية واجتماعية وأدبية كثيرة** ، وقد بلغ من ذيوع هذا اللون من الأدب الساخر أن تخصص فيه شعراء وأدباء ، وأن الأمر تجاوز معا رضات الأعمال الأدبية الموروثة الى الأعمال الأدبية المعاصرة ، حتى توارت المعارضات الجادة في الظل باستثناء معارضة فن مملوكى آخر هو فن المدائح النبوية الذى ظل رائجا كذلك لرواج عيون القصائد النبوية ، وعلى رأسها بردة البوصيرى التى عارضها وشطرها أكثر من أربعمائة شاعر حتى مجيء الحملة الفرنسية الى مصر .

وأدب المعارضات الساخرة ، يقوم على المحاكاة الهزلية ، ويتوسل فيه صاحبه بمستويين من مستويات اللغة ، هما المستوى الفصيح الذى يحاكى فيه النص الاصلى بلغته الرفيعة ، بل قد يلجأ الى تضمين مفرداته وتراكيبه الموروثة ذاتها ، والآخر هو المستوى العامي الذى يستخدم المفردات والتراكيب والعبارات الدارجة والألفاظ السوقية الشائعة في لغة الحياة اليومية ، ويسير المستويان جنبا الى جنب ، في القصيدة الوحدة ، فتبدو المفارقة جلية ، ولما كان الأديب المعارض يعمد الى اعتماد نفس البحر الشعرى ونفس القافية الى جانب المفردات والتعابير الرفيعة فان ثمة مفارقة تنشأ بالضرورة بين موضوعى القصيدتين . . وشتان بين موضوع « جليل » جاد اكتسب قدرا من قداسة الموروث ووقاره ، وبين موضوع ساذج « هازل » مستحدث اكتسب شيئا من حيوية الواقع اليومي وسذاجته وحماقته . وهذه المفارقة بين الجليل الموروث والساذج المستحدث من شأنها أن تثير الضحك والهزل والعبث والفكاهة والسخرية - تبعا للمنظور النفسى للمعالجة - في أدب المعارضات الساخرة . وتتجلى براعة الشاعر أو الأديب فى هذا الفن فى قدرته على تقليد الأصل ، ويتوقف نجاح المعارضة - حينئذ على مدى اقترابها من هذا الاصل ، وذيوعه ، والبيئة التي ذاع فيها . فالمعارضة الساخرة للشعر الكلاسيكى والأخلاقى والتعليمي - على سبيل المثال - تجد نجاحا كبيرا في بيئات الأدباء والفقهاء والطلاب أكثر مما تلقاه في غيرها من البيئات . فهي بيئات يغلب عليها الفقر من ناحية ، والوقار والتزمت من ناحية أخرى ، ومن ثم فالمعارضات الساخرة التي تتمحور حول الفقر - قضية القضايا في هذا العصر ، وتتوسل بالمحاكاة الهزلية أو الساخرة ، تظل تشكل فنا أثيرا لدى تلك الطبقات ، مما أدى الى رواج هذا

الفن في هذا العصر رواجا كبيرا . وان لم تحتفظ المصادر الأدبية والتاريخيه الا بنماذج محدودة منه - قياسا الى ما أشارت اليه من نصوص - ذكرتها على سبيل المثال لا الحصر . ذلك أنه كان في نظر الحكومات الأدبيه آنذاك شعرا سوقيا لا يستحق الذكر . وقد أطلق القدماء على هذا الفن أحيانا مصطلح « العكس والقلب » أو فن « المقلوب » لأن صاحبه - من حيث الموضوع - يعمد الى قلب النصوص الأدبيه الجادة الى هازلة ، كما يعمد - من حيث التعبير - الى قلب معجمها الفنى من مفردات وتراكيب رصينة وصور فنية رفيعة . . الى معجم « سوقي » في الفاظه وتراكيبه وصوره . اذا صح أنه ثمة معجم شعرى رفيع وآخر غير رفيع ، وهذا المعجم السوقي - اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير - ينتهى بنا وبالنص الأصلى الذى نحفظه عادة الى معنى جديد مغايرله في مبناه ، مما يؤدى الى اهدار القياس كما يقول علماء الضحك والفكاهة ، وتتحقق حينئذ المفارقة المقصودة .

وقد انبثق هذا التيار ، تيار المعارضة الساخرة ، من تيار المجون السابق ، فمن أقدم النصوص التي قيلت فى القرن السابع الهجرى تلك المعارضة الساخرة التى قالها الباهلي في رثاء طبيب يهودى يدعى « المفشكل » وكان لا يزال حيا :

ألا عد عن ذكرى حبيب ومنزل   وعرج على قبر الطبيب المفشكل
فيارحمة الله استهيني بقبره   وكوني عن الشيخ الوضيع بمعزل

وفيها يقول : -

وكبكبه في قعر الجحيم بوجهه   كجلمود صخر حطه السيل من عل
لقد حاز ذاك اللحد أخبث جيفة   وأوضع ميت بين ترب وجندل
سأسيل من بطني عليه مدامعي   وأوردها من مائها شر منهل(٢٥٢)

وسرعان ما تلقف شعراء التحامق في العصر المملوكى هذا اللون من الشعر الساخر فازدهر على أيديهم ، وكتبوا فيه المقطعات الشعرية والقصائد الطوال معا . ومن مقطعات الجزار التى عارض بها هذا البيت المشهور للمتنبى ، أحمد الكندى :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

---

(٢٥٢) عيون الأنباء ٢ : ١٥٢ - ١٥٥

قوله (٢٥٣) :

فان يكن أحمد الكندى متهما   بالفخر يوما فانى لست أتهم
فاللحم والعظم والسكين تعرفنى   والخلع والقلع والساطور والوضم

واذا كان الشعر الشعبي الاجتماعي في هذه العصور المملوكية قد قيل في تصوير مظاهر الفقر ، قضية القضايا - التي كان يعاني منها الشعب العربي ، على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة ، فان المعارضات الهزلية أو الساخرة قد تمحورت حول هذه القضية نفسها ، وقد تمثل ذلك في كثرة ما قيل من معارضات في الطعام واللباس والسكن ، تتسم بالسخر والبراعة في تصوير معاناة الناس اليومية ، من جوع وحرمان وتشرد وبؤس وفاقة . ان اتساع الهوة بين أقلية ارستقراطية عسكرية تمتلك كل شيء ، وأغلبية شعبية مقهورة على نحو لم تعرفة العصور السابقة ، لهو واحدة من أكبر المتناقضات في هذا العصر . . لقد استأثر المماليك بالقصور الفخيمة والبساتين الغناء ، وأفخر الاثاث واثمن الرياش ، وأندر الحلى والجواهر ، وأبهى الثياب وأشهى الطعام وأطيب الشراب ، حتى عرف عصر المماليك بأنه عصر ازدهار فنون العمارة ، والأزياء والحلى ، كما عرف ايضا هذا العصر بتكالب هذه الطبقة على فنون الطعام ، وانشاء المطابخ السلطانية الكبيرة ، على حين كان أبناء البلاد يتضورون جوعا . . ويعيشون في مساكن لا تليق بالآدميين ويرتدون أزياء بالية ، تكشف من عوراتهم أكثر مما تستر . . الامر الذي كان يستدعي بالضرورة مقارنة حادة بين هذه الاقلية المسيطرة وتلك الاغلبية اليائسة التي ظلت تجتاحها الاوبئة والطواعين والفتن والمجاعات في هذه العصور كما لم تجتحها في اي عصر آخر .

لقد كانت مساكن العامة مأوى فطريا اثيرا لكل الحشرات والهوام (والجراثيم) وتنافس بعضها البعض على امتصاص دم ساكنيها من العامة وروحهم على حين كانت طبقة المماليك تمتص عرقهم وجهدهم .

لقد كان ابن دانيال بحسة السياسي الناضج وبرؤيته الشعبية الواعية في تمثيلياته الظلية من اكثر الشعراء الذين اتخذوا من بيوتهم دليلا ماديا ملموسا على سوء الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية فاكثر من وصفها وتصويرها على نحو ما رأينا في فقرة سابقة (٢/٣) وعلى نحو ما نرى في هذه المعارضة الساخرة التي عارض فيها معلقة طرفة المشهورة التي مطلعها :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

---

(٢٥٣) الغيث المسجم ٢ : ٤٣٢ - ٤٣٣

فقال ابن دانيال :

امسيت افقر من يروح ويغتدي   ما في يدي من فاقتي الا يدي
في منزل لم يحو غيرى قاعدا   فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة   ومخدة كانت لأم المهتدي
ملقى على طراحة في حشوها   قمل شبيه السمسم المتبدد
والبق امثال الصراصر خلقة   من منهم في حشوها او منجد
يجعلن جسمي وارما فتخاله   من قرصهن به ندوب المجلد
وترى براغيثا بجسمي علقت   مثل المحاجم في المساء وفي الغدْ
وترى البعوض يطير وهو بريشة   فاذا تمكن فوق عرق يفصد
والفأر يركض كالخيول تسابقت   من كل جرداء الاديم واجرد
يأكلن من خشب السقوف شبيهة   فارات نجار حددن بمبرد
وترى الخنافس كالزنوج تصففت   من كل سوداء الاهاب واسود
دهم اذا طردت ارتك لجاجة   في طردها والويل ان لم تطرد
ولربما اقترنت بصفر عقارب   قتالة مثل الحمام الركد
وتقيم لي عند المساء زبانها   فاراه وهو كاصبع المستشهد
هذا وكم من ناشر طاوي الحشا   يبدو شبيه القاتل المتزرد
وكذلك الجرذون صوت مثله   في مسمعي شبه الزناد المصلد
وكأن نسج العنكبوت وبيته   شعرية من فوق مقلة ارمد
وكانما الزنبور البس خلعة   موشية اعلامها بالعسجد
مترنم بين الذباب مغرد   لا كان من مترنم ومغرد
واذا رأى الخفاش ضوء ذبالة   عندي اضر بضوئها المتوقد
حشرات بيت لو تلقت عسكرا   ولى على الاعقاب غير مردد
هذا ولي ثوب تراه مرقعا   من كل لون مثل ريش الهدهد
لولا الشقاوة ما ولدت فليتني   اذ كان حظي هكذا لم اولد
ولكيف ارضى بالحياة وهمتي   تسمو وحظي في الحضيق الاوهد
.... الخ(٢٥٤)

---

(٢٥٤) خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ص ١٦٥ ـ ١٦٧

ومن اشهر المعارضات الساخرة التي وصلتنا ـ من ايام السيادة العثمانية معارضه السقاف التي مرت بنا في الفقرة (٢/٣) التي وصف فيها دور المدينة كلها . وصور ما فيها من بؤس وتعاسة ومطلعها : ـ

رأي البق من كل الجهات فراعه   فلا تنكروا اعراضه وامتناعه

وفيها كان يعارض ابن النحاس الشاعر(٢٥٥) .

كذلك كانت الثياب المهلهلة البالية موضوعا لمعارضات الشعراء على نحو ما مر بنا من قبل في الفقرة (٢/٢) في قصيدة الجزار :

قفانبك من ذكرى قميص وسروال   ودراعة لي قد عفا رسمها البالي

اما اشهر المعارضات الشعبية الساخرة التي ظلت حية حتى وقت قريب فهي معارضات الطعام التي تخصص فيها شاعر شعبي اسمه عامر الانبوطي استطاع ان يحفر اسمه في ذاكرة التاريخ ، فقد احتفى به الجبرتي ورأى فيه فارس الحلبة في هذا اللون من الشعر . . وهو يترجم له قائلا « انه شاعر مفلق هجاء لهيب شرارة محرق كان يأتي من بلده يزور العلماء والاعيان (في القاهرة) وكلما رأى الشاعر قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية الى الهزل والطبيخ فكانوا يتحامون عن ذلك وكان الشيخ الشبراوي يكرمه ويكسيه ويقول له : يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتي الفلانية وهذه جائزتك ومن بعده الشيخ الحفني كان يكرمه ويغدق عليه ويستأنس لكلامه وكان شيخا مسنا صالحا مكحل العينين دائما عجيبا في هيئته » ويستشهد الجبرتي بمطالع قصائده في الهزل والطبيخ دون ان يعني بتسجيلها كاملة فهي كانت مشهورة محفوظة عند الناس من ناحية وهي مطولات بلغ بعضها الف بيت على نحو ما نرى في معارضته لالفية ابن مالك في النحو الشائعة في بيئات الفقهاء والمدرسين وطلبة العلم ـ وجلهم من الفقراء ـ فكانوا يقبلون عليها كما يقبلون على غيرها تعبيرا عن الم الحاجة من ناحية ، وترويحا عن انفسهم من وقار العلم وتزمت الاساتذة وجمود الدرس من ناحية اخرى . . يقول الجبرتي :

ومن نظمه الفية الطعام على وزن الفية ابن مالك في النحو واولها :

يقول عامر هو الانبوطي   احمد ربي لست بالقنوط

---

(٢٥٥) انظر عجائب الآثار ٢ : ٣١٢ ـ ٣١٤ وفتح الله بن عبد الله بن النحاس شاعر سورى ولد في حلب ونشأ بدمشق ، وعاش في القاهرة ، ثم استقر أخيرا في المدينة المنورة حيث توفي بها سنة ١٠٥١ هـ . مال الى التصوف ، وله ديوان شعر تغلب عليه النزعة الصوفية والأخلاقية والوعظية وقد التقى بالسقاف في المدينة .

وفيها يقول : ـ

واستعين الله في الفية   مقاصد الاكل بها محوية
فيها صنوف الاكل والمطاعم   لذت لكل جائع وهائم

ومنها : ـ

طعامنا الضاني لذيذ لنهم   لحما وسمنا ثم خبزا فالتقم
فانها نفيسة والاكل عم   مطاعما الى سناها القلب ام

ومنها : ـ

والاصل في الاخباز ان تقمرا   وجوزوا التقديد اذ لا ضررا
فامنعه حين يستوى الخرفان   ...   ...   الخ(٢٥٦)

واذا كانت الفية النحو قد ظلت لقرون كثيرة دستورا للنحو والنحاة فكذلك ظلت الفية ابن الانبوطي في الطعام دستورا يترنم به الجياع والمحرومون . . وقلدها كثير من المدرسين انفسهم وطلبة العلم وكنا نردد شيئا منها في البيئات الازهرية حتى وقت قريب .

لم يكن الشعر التعليمي وحده هو الذي عارضه هذا الانبوطي بل عارض معاصريه وفاقت معارضاته اشعارهم حتى « تحاموه واغدقوا عليه واكرموه حتى لا يزفر قصائدهم » العقيمة . . كذلك لجأ الانبوطي الى معارضة غرر الشعر العربي التي كانت ذائعة في عصره . . ولا سيما الشعر الاخلاقي والوعظي وهو نوع من الشعر الخطابي الذي يرسم فيه صاحبه دستورا اخلاقيا قوامه التغني بالفضائل والوصايا الدينية والمثل الانسانية العليا . . وهو دستور يغلب عليه طابع تحذيري من الانغماس في متع الحياة ونعيمها الفاني . ويعمد فيه صاحبه ايضا الى تعرية الضعف الانساني في البشر ازاء حتمية الفناء والحساب في نبرة وعظية قوامها الترهيب لا الترغيب ولكن شاعرنا الشعبي ـ حين يعمد الى معارضتها ـ يزيل عنها ما فيها من توتر ورهبة وخوف ويعبث بما فيها من مثل وقيم مؤكدا ان الحياة اهون من كل هذا الجد الثقيل وأن مواجهتها الحقيقية تكون باللامبلاة لا بالمبالاة بها . والاستعلاء عليها لا بالانغماس فى همومها . بالعب من متعها لا بالزهد في نعيمها المشروع . . في الوقت الذى كان المماليك ينهلون ـ بل يغتصبون ـ من نعيمها المشروع أحيانا وغير المشروع اكثر الأحايين . . ووجه السخرية في الأمر أن العلماء والفقهاء والمتصوفة الذين كانوا يروجون للشعر الأخلاقي ، هم من الفقراء ، وبدلا من أن يقوموا بدورهم في القيادة الروحية لشعبهم ، راحوا يرددون على مبسامعهم هذا النوع من الشعر الذى

---

(٢٥٦) عجائب الآثار ٢ : ١٨٩ ـ ١٩٠

يدعو الى الزهد والحرمان ، في بيئات الفقراء والمحرومين والجياع أصلا . . والطريف أن الانبوطى حين راح يدعو للأخذ بنصيب من متع الحياة المشروعة ، أكد ان هذا هو السبيل الوحيد للقيام بواجباته الدينية الشرعية ، اذ لا ايمان لجائع أو محروم ، واذا كان الطعام الدسم يؤدى الى اكتساب الصحة ، فان المأكولات (الفول والكشك والبيسار) تؤدى تلقائيا الى المرض .

ومن أشهر قصائد الشعر الاخلاقى التى كان يرددها العلماء والفقهاء في عصره « لامية الطغرائى » المعروفة بلامية العجم ، ومطلعها :

أصالة الرأى زانتى عن الخطل   وحلية الفضل زانتنى لدى العطل (٢٥٧)

فعارضها الأنبوطى ، بقصيدة مطلعها :

طناجر الضأن ترياق من العلل   وأصحن الرز فيها منتهى أملى

ومثلما هى ـ طناجر الضأن ـ سبيله الى الشفاء والعافية ، فهى أيضا سبيله الى أداء العبادات والفروض الشرعية على وجهها الصحيح ، وهى كذلك سبيله الى العمل والانتاج :

أريد أكلا نفيسا أستعين به   على العبادات والمطلوب من عملى

وهو يشير الى تردى الوضع الاقتصادى والنفسى في الريف ، فيقول مستنكرا ومشيرا الى طعام أهل الريف :

فيم الاقامة بالأرياف لا شبعى   فيها ولا نزهتى فيها ولا جذلى
ناء عن الأهل خالى الجوف منقبض   كمعدم مات من جوع ومن قشل
والدهر يفجع قلبى من مطاعمه   بالعدس والكشك والبيسار والعسل (٢٥٨)

---

(٢٥٧) انظر ، الغيث المستجم ١ : ١٦ ومن المعروف أن هذه القصيدة قد نظمها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ الشاعر العميد أبو اسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني المعروف بالطغرائي في وصف حال الدنيا وشكاه الزمان . . وقد توفي سنة ٥١٤ هـ

(٢٥٨) عجائب الأثار ٢ : ١٩٠ ـ ١٩١ والقشل : البرد

كذلك عمد الأنبوطى الى لامية ابن الوردى « المشهورة » وهى كذلك قصيدة وعظية روج لهاالعلماء والفقهاء آنذاك ومطلع هذه اللامية التى عرفت ايضا بقصيدة « نصيحة الاخوان » : (٢٥٩)

اعتزل ذكر الأغانى والغزل   وقل الفصل ، وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا   فلأيام الصبا نجم أفل
واهجر الخمرة ان كنت فتى   كيف يسعى في جنون من عقل

وهى قصيدة تذكرنا بهذا الفقيه الجليل الذى رأى غلاما صغيرا يعبث في صناديق القمامه بحثا عن طعام ، والفقيه ـ ذو الكرش الضخم ـ يراقبه عن كثب ، حتى اذا ما وجد الصغير الجائع كسرة خبز يابسة راح يلتهمها في نهم ، بادر الفقية فاقترب منه على حذر ـ حتى لا تتدنس ثيابه النظيفه ـ وراح ينصحه أولا بتلاوة البسملة قبل أن يضعها في فمه ، بحسب مقتضى الشرع الشريف . . ويالها من نصيحة غالية في مثل هذا الموقف !!

أياما كان الأمر ، فقد كان الأنبوطى أكثر ذكاء ووعيا وأبعد انسانية وأعمق شعورا من هذا الفقيه المندهش الصامت اذ قال في معارضة ابن الوردى ، بطريقته الساخرة في « الهزل والطبيخ » :

اجتنب مطعوم عدس وبصل   في عشاء ، فهو للعقل خبل
وعن البيصار لا تعن به   تمس في صحة جسم من علل
واحتفل بالضأن ان كنت فتى   زاكى العقل ، ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت   أكلها ينفى عن القلب الوجل

. . . الخ (٢٦٠)

لم تقف معارضات الأنبوطى عند حدود الشعر الرسمى ، التعليمى أو الاخلاقى ، بل عارض أيضا الاشعار الشعبية الذائعة في عصره التي تتمحور حول الاخلاقيات والوعظيات والزهديات ، مثل

---

(٢٥٩) ابن الوردى شاعر ومؤرخ ، ولد في معرة النعمان ، وتوفي بحلب سنة ٧٤٩ هـ وتجدر الاشارة الى أن قصيدة ابن الوردى قد اشتهرت بين العامة والخاصة اشتهارا حتى شُكَّ في نسبتها الى ابن الوردى ، ولذلك ألحقها جامع الديوان المطبوع في آخر الديوان . انظر القصيدة كاملة في الديوان المطبوع ص ٣٣٨ ـ ٣٤١ يبقى أن نشير الى أن ابن الوردى اشتهر باعتباره شاعرا شعبيا أكثر منه شاعرا ذاتيا .

(٢٦٠) عجائب الآثار ٢ : ١٩١

رباعيات ابن عروس التى كان يحفظها العامة عن ظهر قلب (٢٦١) فأنشأ الانبوطى ـ على غرارها ووزنها ـ رباعيات شعبية في « الهزل والطبيخ » على نحو ما مر من قبل ـ من شواهد في الفقرة (٢/١) صاغها على شكل وصايا ساخرة من مثل قوله :

أوصيك لا تأكل الفول يورث لقلبك قساوة
تقطع نهارك كما الغول تابه وعندك غشاوه

ويؤكد الجبرتى بعد عدد من الشواهد ، أن الانبوطى ، له قصائد وأزجال شتى من هذا الطراز » (٢٦٢) .

يبقى أن نشير الى أن الشعر « الحلمنتيشى » الذى شاع في النصف الأول من القرن ، العشرين ، فى العالم العربي ، ولا سيما مصر ، يعود في نشأته وجذوره وتقاليده الفنية الى أدب المعارضات الهزلية الذي شاع وازدهر في عصور المماليك . وكلاهما عالج قضايا عصره ومشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن أعلام هذا الادب في عصرنا الشاعر حسين شفيق المصرى ، صاحب أشهر مجموعتين من أدب المعارضات ، احداهما التى عارض فيها المعلقات وسماها « المشعلقات » والأخرى « المشهورات » التى عارض فيها عيون القصائد المشهورة (٢٦٣) ومن هؤلاء الأعلام أيضا الشاعر محمد مصطفى حمام ، وبيرم التونسى ، وعبد الحميد الديب وغيرهم .

كذلك ثمة فن شعبى آخر شاع في البيئة المصرية هو فن « الادباتية » كما يسميه أحمد تيمور باشا ، وبلغ أوجه على يد الأديب الشعبي العظيم عبد الله النديم ، يمكننا العودة بجذوره الى أدب المعارضات أو فن المقلوب ، أكثر مما نعزوه الى أدب الكدية كما ذهب بعض الباحثين (٢٦٤) .

---

(٢٦١) ابن عروس من أشهر نماذج أبناء الليل (اللصوص) في التراث الشعبي في صعيد مصر ، وقد صورته حكايات الشطار على أنه « لص شريف » احترف اللصوصية للانتقام من الظالمين ، عاش في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجرى على أرجح الاقوال . ظل يحترف قطع الطريق أكثر من ثلاثين عاما ، متحديا السلطة الرسمية وخارجا على القانون ، حتى تاب في أواخر عمره ، وتحول الى زاهد ، ومن أهل الطريق ، طريق السالكين ، وكان ينظم الشعر الشعبي ، على شكل « رباعيات » تتغنى بمكارم الأخلاق والمثل العليا والقيم النبيلة ، في نبرة وعظية وحكمية عالية ولا تزال أشعاره محفوظة ، يرددها الناس شفويا في صعيد مصر حتى اليوم .

لمزيد من التفاصيل ، انظر ـ حكايات الشطار والعيارين ص٢٥٢ وما بعدها ، الأدب الشعبي ١ : ١١٦ ـ ١٢٠ ، ١٩٢ ـ ١٩٤ ، ألوان من الفن الشعبي ص ٥١ ـ ٥٢ ، أدب الشعب ص ٨٣ ـ ٩١ .

(٢٦٢) عجائب الآثار ٢ : ١٩٢

(٢٦٣) عن الأدب الحلمنتيشى في العصر الحديث ، مفهومه وقضاياه ونماذج منه ، انظر مجلة الهلال ، مقال « الضحك في الشعر الحلمنتيشى ، بقلم كمال النجمى ، العدد السادس يونيو ١٩٧٨ ، ص ٥٢ ـ ٥٧ وانظر النماذج أخرى في هذا العدد أيضا ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٣ ، ٣٤ وقد سبق نشر هذا المقال نفسه في عدد آخر من الهلال ، أغسطس ١٩٦٦ ص ١١٠ ـ ١٢٠ وانظر أيضا كتاب : مطالعات وذكريات ، للعوضى الوكيل ، ص ١٩٣ ـ ٢٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ .

(٢٦٤) انظر كتاب ألوان من الفن الشعبي ، ص ٧٤ ـ ٨٣

واذا كان هذا اللون من الشعر ينحو منحى السخر المأساوى ، ويكاد ينجم عن حس مأساوى كان ينبغى أن يثير الدموع ، فاننا سوف نلتقى في الفقرة القادمة بلون آخر من السخر « الملهاوى » نجا من براثن هذا الحس المأساوى، الى الحس الملهاوى ، ومن ثم فهو أكثر فكاهة ، وأبعث عليها لأنه أدخل في الاستحالة والعبث واللاواقعية والتهويل والمبالغة والمفارقة .

٢/٧ ابن سودون وتيار العبث الاجتماعي

هذا تيار آخر من تيارات الرفض والتمرد الاجتماعي ، شاع في العصر المملوكى ، وبلغ أوجه عند ابن سودون . . وهو تيار قوامه التحامق والعبث والتهريج والمحاكاة والخراع والهراء اللفظى والاحلام والأوهام ، ويتوسل بادعاء المعرفة الزائفة والمماحكات الزائفةوالمديح الزائف والتعظيم الزائف والأسلوب البطولى الزائف وافتعال البطولات الزائفة وابداء الدهشة دائما من « اللاشىء » ويعمد الى اثارة ضجة كبرى حولها . ومن ثم فهو من هذه الناحية خلو من أى معنى أو منطق بالمفهوم التقليدى ، بل هو ثورة على عقم الفكر نفسه ، وقد انتهى به ـ بالفكر ـ الأمر في أحسن أحوالى الى « تحصيل الحاصل » في هذه العصور الحافلة بالعجائب ، الى درجة انها لم تعد من العجائب فى شىء ، فأصبحت الحياة عبثا وعبثا بلا معنى وبلاغاية وبلا تنظيم ، غرائبها وعجائبها بدهيات ، وبدهياتها ومسلماتها عجائب وغرائب . وهذا هو قمة العبث الاجتماعي بعينه في نظر شعراء هذا التيار الشعرى الذي صدر في أساسه من شعور كامن بانعدام المعنى وتفاهة الحياة وعقم التفكير وسخف الصراع وعبثية الغاية والوجود .

وقد بدأ هذا التيار عند « ذى الرقاعتين » أبي الحسن علي بن عبد الواحد المعروف بصريع الدلاء أو قتيل الغوانى (٢٦٥) ، الذي اشتهر في عالم الادب بمقصورته الهزلية التى عارض بها مقصورة ابن دريد ، يقول في مطلعها :

من لم يرد أن تنتقب نعاله   يحملها في كفه اذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله   فلبسه خير له من الحفا
من دخلت في عينه مسلة   فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحم يسود فمه   وراح صحن خده مثل الدجى

---

(٢٦٥) شاعر مجون نشأ في بغداد ومات بمصر سنة ٤١٢ هـ له ديوان شعر ، غلب عليه طابع الهزل والمجون ، انظر ترجمته في وفيات الأعيان . وفوات الوفيات ٢ : ٤٦٩ ـ ٤٧١ وابن كثير ١٢ : ١٣ وشذرات الذهب ٣ : ١٩٧ وحسن المحاضرة ص ٢٥٧ .

من صفع الناس ولم يدعهم أن يصفوه فعليهم اعتدى
من ناطح الكبش يفجر رأسه وسال من مفرقه شبه الدما
من أكل الكرش ولا يغسله سال على شاربه ذاك الدوا
من طبخ الديك ولا يذبحه طار من القدر الى حيث يشا
من شرب المسهل في فعل الدوا أطال ترداداً الى بيت الخلا
من مازح السبع ولا يعرفه مازحه السبع مزاحا بجفا
من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حد سوا
والدرج يلفى بالنشا ملصقا والسرج لا يلزق الا بالغرا
والذقن شعر في الوجوه نابت وانما الاست التى تحت الخصا
فاستمعوها فهى أولى لكم من زخرف القول ومن طول المرا (٢٦٦)

ويمضى هذا التيار وئيدا . وان ظل أقرب الى تيار الهزل والمجون بالمعنى العام حتى يتلقفه شاعر مجونى آخر، وهو تقى الدين علي بن جابر المغربي ، البغدادى (المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) فينشىء القصيدة الدبدبية المشهورة التى بلور فيها شيئا من ملامح هذا التيار في هذه القصيدة التي وصفها ابن شاكر بانها « غاية » وانها « طويلة جدا ذكر فيها فنونا » . وان لم يدون منها إلا أولها :

أى دبدبة تدبدبى انا على بن المغربى

وهو مطلع ردد في بعض الروايات على هذا النحو :

ددِ دبى ددِ دبى أنا على بن المغربى

ويمضى بعد هذا البيت بداية جادة تنطوى على التنظيم أو الفخر الذى لا نلبث أن نكتشف زيفه بعد قليل :

تأدبى ويحك في حق أمير الادب
وأنت يا بوقانة تألفى تركبى
وأنت يا سنباجقى يوم الوغى توثبى
وأنت يا عساكرى يوم اللقا تأهبي
ها قد ركبت للمسير في البلاد فاركبي
ها قد برزت فاركبى في ألف ألف مِقْنَب (٢٦٧)

---

(٢٦٦) وفات الوفيات ٢ : ٤٦٩ - ٤٧٠ والبيتان الأول والثاني من هذا المطلع غير مستقيمى الوزن .

(٢٦٧) مقنب : الجماعة المسلحة من الجند .

ويهيأ الينا أننا متأهبون لمعركة عسكرية كبرى ، فاذا بنا - اثر هذا الاسلوب البطولى الزائف - نكتشف أننا ماضون الى « موكب للهذيان » كما يسميه :

أنا الذي أسد الشرى   في الحرب لا تحفل ب
اذا تمطيت وفرقـ   ـعت عليهم ذنبي
أنا الذي كل الملوك   ليس تخشى غضبي
فمن رأى للهذيا   ن موكبا كموكبي

ويبدأ أصحاب هذا الموكب برفض العلوم الأدبية والعقلية (ممثلا في الخلافات المنطقية العقيمة بين النحاة ، ورفض القيم الجادة والمثل العليا التي يتغنى بها الأدب الرسمى) فيقول ابن المغربي : -

أنا امرؤ أنكر ما   تعرف أهل الأدب
مولى كلام نحوه   لا مثل نحو العرب
لكنه منفّرد   يلفظه المهذب
يصافع الفراء في النحو   بجلد ثعلب
ويقصد التثليث في   نتف سبال قطرب

وفي ضوء الجزء القليل الذي سجله لنا ابن شاكر بعد ذلك ، عن « مذهب » انصار هذا التيار ، وقد مر بنا من قبل (الفقرة ٢/٤) فانه يمكن القول بأنه مذهب يصدر عن نزعة متشائمة أو عدمية ، على نحو ما نقرأ في آخر الجزء القصير الذي اكتفى به ابن شاكر :

والتذ فالليالى   ما بيننا دول
لقمة تكون حنظل   وأخرى تكون عسل
مالك كذا محير   لا تهتدى للطريق (٢٦٨)

ويعد ابن دانيال واحدا ممن رفدوا هذا التيار العبثى في تمثيلياته الظليةونكتفى له هنا بقصيدته العبثية الطويلة التي جاءت على لسان احدى شخصياته الظليةومطلعها :

قل لوالي الفسوق والأدبار   عضد البله عمدة الفجار
والذي قد غدا سفينة جهل   وله من قرونه كالصواري
أنا أشكو من زوجة صيرتني   غائباً بين سائر الحضار

---

(٢٦٨) فوات الوفيات ٢ : ١١٧ : ١١٨

وبعد هذا التقديم الذي يدعى فيه الحمق ، إذ ليس ثمة أحمق من زوج يشكو زوجة حمقاء لوالي الفسوق والأدبار ، فهو لا بد منتصر لها . . لهذا لا غرو أن ينتهي الأمر بالزوج نفسه إلى الحمق والجنون الذي جسده ابن دانيال في هذا المديح الزائف والتعظيم المنحرف للذات :

اين مخ الجمال من طبع مخي   في التساوي وأين مخ الحمار
غفر الله لي بما رحت للبحـ   ـر من البرد أصطلي بالنار
وتجردت للسباحة في الآ   ل لظني به الزلال الجاري(٢٦٩)

أو في هذا الأسلوب البطولي الزائف ، بعد ما شاهد خياله في زير للماء فظنه عياراً مختبئاً ، فصاح على زوجته في بطولة زائفة :

أين ترسي وأين درعي الحقيني   أمّ عمرو بصارمي البتار
إن مت كنت في الغزاة شهيداً   أو أعش كنت أشطر الشطار
ثم أثخنت ذلك الزير ضرباً   بحسامي حتى هوى لا نكسار

فإذا انتهى من تلك المعركة الوهمية عمد إلى الفخر بذكائه وعبقريته المزعومة :

أنا لو رمت للعلاج طبيباً   ما تعديت دكة البيطار
بعد ما كنت من ذكائي أدري   أن بابي من صنعة النجار
أحزر البيض قبل ما يكسروه   أن فيه البياض فوق الصفار
وبعيني نظرت كوز نحاس   كان عندي أقوى من الفخار
وكثير مني على شيب رأسي   حفظ هذي الأشياء مثل الكبار

والجدير بالذكر أن ابن دانيال يشجب عبثية الفعل أو المصير ، وعجز الانسان وغياب الاختيار :

ولكن قد عصبت رجلي برؤيا   أوطأتني شسّاً على مسمار
ولكم رمت قلع ضرس ضروب   بعد ما ضر غاية الاضرار
فإذا بي قلعت بعد عنائي   واجتهادي القويّ من أوزاري
روحي حزتها لطحن فمازلـ   ـت ضلالاً أدور حول المدار
وأنادي وقد سئمت من الركض   إلى أين منتهى مضماري
أنا اختار لو قعدت من الجهد   ولكن أمشي بغير اختيار(٢٧٠)

---

(٢٦٩) الآل : السراب

(٢٧٠) انظر بقية النص في خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ص ١٧٩ ـ ١٨٢

ولكن هذا التيار العبثي الذي نشأ في أحضان مدرسة الهزل والمجون سرعان ما انفصل عنه ، وبلغ أوجه على يد الشاعر الشعبي الكبير ابن سودون ، الذي آثرنا اسمه عنواناً دالاً على هذه الفقرة في العبث الاجتماعي .

ويعد ابن سودون الذي ولد في القاهرة سنة ٨١٠ هـ ونشأ بها حتى هاجر إلى دمشق ومات بها سنة ٨٦٨ هـ ، واحداً من أكبر الزجالين الساخرين في التراث العربي بعامة . أخذ عن علماء عصره ، وتفنن في العلوم ، وعمل إماماً وواعظاً في بعض المساجد ، وله نظم فائق في المديح النبوي ، ولكنه ظل فقيراً معوزاً مملقاً ـ فما كان منه إلا أن راح يتعاطى التمسخر مع الاراذل في مصر ، فتبرأ منه أبوه ، فهرب إلى دمشق ولزم طريقته وتعانى الأدب فبرع فيه ، وشارك في بعض الغزوات والحروب . . عمل حائكاً مرة ووراقاً مرة أخرى ، أثقلته بعد أن تزوج ـ مطالب الحياة ونفقة العيال وفشل في كسب قوته مراراً من عدة حرف أخرى . . هذا هو مجمل أقوال المؤرخين في ترجمة ابن سودون . فكان كما يقول ـ « أن احترف الخراع » (٢٧١) . فراج حاله واشتهر أمره . يقول في مقدمة ديوانه انه « قد ثنى عنان قريحته إلى نوع من أنواع الخراع فغدت في ميادينه تجول وتلقى الناس فيها ذلك بالقبول ، فصرت أشهر من علم » . (٢٧٢) . ويعرف السخاوي ـ وكان معاصراً له أسلوبه في التعبير وفلسفته في الحياة بأنها « طريقة هي غاية في المجون والهزل والخراع والخلاعة ، فراج أمره فيها جداً ، وطار اسمه بذلك ، وتنافس الظرفاء في تحصيل ديوانه »(٢٧٣) . وأنه بالجملة كان من أعاجيب الزمان(٢٧٤) .

ومن حسن الحظ أن تصلنا نسخة كاملة من ديوانه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » ، وكان قد جمعه بنفسه سنة ٨٥٤ هـ ، وقام بتبويبه على هذا النحو . . . ثم قسمته شطرين : الشطر الأول يشتمل على المدح والغزل وغيرهما من الجديات ، ! والشطر الثاني يشتمل على أنواع من الأقاويل الهزليات ، وفيه خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، والباب الثاني في الحكايات الملافيق ، والثالث في الموشحات الهبالية ، والرابع في دوبيت الزجل وأنواعه من المواليا والخامس في الطرف العجيبة والتحف الغريبة ، وسميته (قرة الناظر ونزهة الخاطر)(٢٧٥) ولم يزل كذلك إلى سنة ٨٥٦ هـ ، فورد من القاهرة (إلى دمشق) طائفة من الأعاجم لحنوا أقوالاً وطافوا يقولونها في الشوارع

---

(٢٧١) الخراع بضم الخاء لغويا جنون الناقة ، والخراعة على وزن الخلاعة ومعناها .

(٢٧٢) انظر الأدب العامي في مصر ص ٢١٠ ومصادر النقل المخطوطة هناك .

(٢٧٣) الضوء اللامع ٥ : ٢٢٥

(٢٧٤) شذرات الذهب ٧ : ٣٠٧

(٢٧٥) توجد منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٩ أدب

واستحلاها الناس منهم ، فسألني بعض الأخوان أن أنظم طرفاً من هذا النمط ، ففعلت ، فانتشر ذلك وانبسط ، فجعلت له عند ذلك ـ بالكتاب وصلاً ، وأفردت له في آخره فصلاً »(٢٧٦) .

وأياما كان الامر ، فقد كان ابن سودون « شخصية طريفه في أدبنا الشعبى » على حد تعبير أستاذنا **الدكتور شوقي** ضيف الذي كان معجبا بابن سودون ، ورأى فيه « جحا مصر في عصره ، ووصف أسلوبه المميز في فكاهاته بأنه يعتمد على المفارقة المنطقية » فهى المفتاح الذي ينصب منه نغم الهزل عنده ، وكان يسلك الى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هى أن يقف بين يديك موقفا جادا ، يريد أن يروى لك بعض العجائب ، ولكنه لا يبدأ في ذكرها حتى تحس تباينا ونبوا وشذوذا عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل في الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك ، فقد كنت على استعداد لكى تستمع الى اشياء غريبة فاذا بك تستمع الى بدهيات مسرفة في البداهة ، ومن هنا يأتي الضحك (٢٧٧) . وقريب من هذا التفسير يذهب العقاد ، فيرى أن قوام السخرية عند ابن سودون تتأتى من أسلوبه المميز الذي يعمد فيه الى « تحصيل الحاصل » والحذلقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف (٢٧٨) . غير أن هذا التفسير ليس كافيا لأن « يتنافس الظرفاء ، ونحوهم في تحصيل ديوانه » في مصر والشام ، وانما كان ابن سودون صاحب موقف ملتزم من قضايا عصره ، قوامه الشعور بالعبث الكامن في كل شىء في عصره ، فما الفائدة من الوعى والشرف والاستقامة والعلم والكرامة والقيم والمثل العليا ؟ في الوقت الذي بارت فيه أشعار الجديات على حد تسميته ـ وتحولت جماهير الشعر الرسمى أو التعليمى التى أتيح لها قدر ضئيل من المعرفة في المساجد والمدارس الى جماهير سو فسطائية بتأثير رجال العلم وفقهاء الدين الذين انصرفوا عن رسالتهم الحقيقية في الابتكار والاجتهاد ، وهى رسالة من شأنها أن تحقق لهم الزعامة الروحية والدينية الحقة في قيادة هذه الأمة نحو الخلاص . . ولكنهم آثروا الانصراف الى الجمود والعقم ، ولم يعد العلم لديهم الا متونا وشروحا وذيولا . . ولم يعد الدين عندهم الا قضايا فقهية سطحية أقرب الى الألغاز منها الى أى شىء آخر . . يجترون فيها أقوال ـ القدماء المتضاربة أو المتناقضة ويغرقون أنفسهم ـ وجمهورهم معهم في سرد البدهيات العلمية والفقهية التى لا تغير من أمر الواقع شيئا . على حين أن قضايا الامة في الحرية والعدالة ورفع الجور عن الرعية

وقد قسم بعض الباحثين المحدثين(٣٣) مؤلفات المقريزى الى قسمين : كتب موسوعية ضخمة، واخرى تخصصية صغيرة . القسم الاول بعضه عنى فيه المقريزى بالتاريخ العام ، مثل كتاب (الخبر عن البشر) وكتاب (الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الاسلامية) وكتاب (امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاحوال والحفدة والمتاع) . والبعض الآخر ركز فيه المقريزى على تاريخ مصر الاسلامية ، وتراجم المشاهير من اهلها وابنا ئها . ومن هذا البعض كتاب (المقفى الكبير) فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب (درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة) وهذان الكتابان فى التراجم ، خصص اولهما لتراجم البارزين من أهل مصر ، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربى الاسلامى . ـ والثانى خصصه المقريزى لتراجم المشاهير من معاصريه .

أما فى تاريخ مصر السياسى ، فقد ألف المقريزى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه : الاول كتاب (عقد جواهر الاسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط) ويعالج تاريخ مصر الاسلامية حتى بداية العصر الفاطمى . والثانى كتاب (اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا) ، وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية . أما الثالث فهو كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد أرخ فيه المقريزى لمصر منذ بداية الدولة الايوبية حتى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ (٣٤) . وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة التى خصصها المقريزى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الاسلامية ، يكملها الكتاب الذي أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية فنية . . بكل معاني الكلمة .

أما عن الكتب التخصصية الصغيرة ، فانها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلا منها عبارة عن رسالة قيمة عالج فيها المقريزي مشكلة من مشاكل التاريخ أوجانبا مهملا من جوانبه أوطرفة من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة احس بوجودها في عالم الفكر والمعرفة (٣٥) وإذا كانت موسوعات المقريزي ومؤلفاته الكبيرة تموج بتفاصيل احداث التاريخ واعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والامراء والعلماء والتجار ، فان كتبه الصغرى لاتتسع لكل ذلك .ولذا نجدها تتصف بالتركيز والايجاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة في التاريخ الاسلامي . فكتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) يعالج مشكلة قديمة في التاريخ . وكتاب (الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام) وكذلك كتاب (الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة) يعالجان بعض الجوانب المهملة في التاريخ الاسلامي . اما كتاب « الذهب المنبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك »

---

(٣٣) جمال الدين الشيال : مؤلفات المقريزى الصغيرة ـ بحث فى كتاب (دراسات عن المقريزى) الذى سبقت الاشارة اليه ـ ص ٢٣ وما بعدها .

(٣٤) يقع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى أربعة أجزاء ضخمة ، وقد تم تحقيقه ونشره فى اثنى عشر مجلدا ، كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وكل قسم فى مجلد قائم بذاته . وقد حقق الجزءين الأول والثانى فى ستة مجلدات استاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)
وقمنا نحن من بعده بتحقيق الجزءين الثالث والرابع ـ حتى نهاية الكتاب ـ فى ستة مجلدات أخرى ، صدرت عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢)
وللأسف لم نعثر على الكتاب مكتملا بأجزائه الأربعة ومجلداته الاثنى عشر فى احدى مكتبات دولة الكويت ، فاضطررنا أثناء كتابة هذا البحث الى الرجوع فى الجزءين الثالث والرابع الى صورة ميكروفيلم نحتفظ بها للمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٣٧ . وأشرنا الى ذلك فى مواضع البحث .

(٣٥) هى بهذه المجموعة من مؤلفات المقريزى ، زميلنا الراحل وأخونا الكبير المرحوم جمال الدين الشيال ، اذ عكف على تحقيق ونشر بعضها فى سلسلة صدرت بعنوان مكتبة المقريزى الصغيرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) كذلك كتب بحثا بعنوان (مؤلفات المقريزى الصغيرة) سبق أن اشرنا اليه .

وكتاب تراجم ملوك الغرب » فيعرِّفان بمجموعة من ملوك الاسلام ربط بينهم نشاط واحد او ركن واحد من اركان الدولة الاسلامية البعيدة .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ماقصد به المقريزي القاء الضوء على بعض الاوضاع المعاصرة . مثل كتاب « البيان والاعراب بمن نزل أرض مصر من الاعراب » وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة في مصر على ايام المؤلف . بل ان المقريزي تناول في بعض هذه الكتب جوانب من العلوم البحتة ، فهو في كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الاجسام المعدنية » يتكلم عن المعادن والاجسام المتولدة من الابخرة والادخنة المحتبسة في الارض ويفرق بين المعادن القابلة للطرق ـ وهى الذهب والفضة والنحاس الرصاص والحديد والاسراب والخارصين ـ والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها ـ كالزئبق ـ او الاجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق ، مثل اليواقيت والشب والنوشادر .

ومن أمثلة هذا النوع من الكتب ـ أو الرسائل العلمية ـ التي ألفها المقريزي كتاب (نحل ابر النحل) ، الذي يتعرض بالشرح فيه للنحل وانواعه ومراحل نموه وطباعه والوانه وأحجامه ، ثم ينتقل الى بيوت النحل أو خلاياه ، فيتكلم عن مواضعها في الجبال والسهول وانواعها ، ويصف أشكالها وطريقة العمل فيها . وبعد أن يوضح الآفات التي يتعرض لها النحل ، ينتقل الى عسل النحل وانواعه وفوائده والوانه ، ويربط ذلك كله بالزهور التي يعيش عليها النحل واثر كل منها في نوع العسل الذي يخرجه .

والمقريزي عندما يتكلم في هذه الكتب العلمية عن جانب معين من جوانب العلوم لايفوته ان يربط كلامه بالحياة الواقعية والاقتصادية . فهو في كلامه عن المعادن يشير الى مالها من أهمية اقتصادية في حياة الناس .

وعندما يتكلم عن النحل يوضح القيمة الاقتصادية للعسل ـ وبخاصة في العصور الوسطى ـ وكيف انه يشكل مصدرا هاما لايرادات الدولة ، لانه يدخل في المعاملات السلطانية والجهات الديوانية . هذا فضلا عن الشمع الذي يستخرج من بيوت النحل ، وماكان له من دور كبير في الحياتين العامة والخاصة ، بوصفه المصدر الاساسي للاضاءة عندئذ ، حتى ان سوقا كبيرا من أسواق القاهرة ـ عرف باسم سوق الشماعين ـ تخصص في تجارة الشموع وحدها .

على أن أهم مؤلفات المقريزي الصغيرة ـ في نظرنا ـ هو دون شك كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، نظرا لماله من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، ولأن المقريزي ضمنه كثيرا من الآراء والنظريات التي سبق بها عصره بكثير . وفي هذا الكتاب يتعرض المقريزي لتاريخ المجاعات والاوبئة التي اصابت مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦ ـ ٨٠٨ هـ) والتي فقد في الطاعون الذي صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦ هـ ـ ويبدو أن هذه المحنة التي ابتلى بها المقريزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور ، حتى أنه ماكاد ينكب على تأليفه عقب وفاة وحيدته ، حتى فرغ منه بعد قرابة العام ، وعندئذ يقول عن نفسه انه عكف على « ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة » .

وترجع أهمية كتاب « اغاثة الامة » الى انه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى . ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقريزى كثيرا من الاوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الازمات الاقتصادية التى تحل بالبلاد الى تلك الاوضاع والتصرفات . وفى الوقت نفسه نرى المقريزى يحلل تلك الازمات تحليلا اقتصاديا يجمع بين العمق والايجاز ، ويشرح مالها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

على أن عظمة المقريزى وزعامته لمؤرخى عصره لاتنبع من كثرة مؤلفاته وتنوع مواضيعها ، ومثابرته على الكتابة والتأليف ، بقدر ماتنبع من منهجه فى كتابة التاريخ . ونستطيع أن نحدد اركان هذا المنهج فى الجوانب الآتية : ـ

أولا : أمانة العرض ، والقدرة على التجرد من الاهواء ، وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير .

واذا كانت الامانة صفة لازمة لكل عالم ، فانها ألزم للمؤرخ منها لاى عالم آخر . والمؤرخ عند ما يروى رواية عن الغير ينبغى أن يحافظ عليها كما هى . واذا روى بعض مشاهداته عليه أن يكون دقيقا فيما يسجله ، لان هذه الرواية او تلك ستكون مع الايام سجلا ومرجعا يعتمد عليه اللاحقون . وربما ضاع الاصل الذى استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التى سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا على التاريخ . والمؤرخ شاهد على الناس ـ الموتى والاحياء ، شاهد على الماضى والحاضر ، والشهادة فى الاسلام لها اصولها وآدابها(٣٦)

وبمقارنة كتابات المقريزى بما دونه غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده اكثرهم اعتدالا ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات . هذا بالاضافة الى أنه فى كتابته للتراجم والسير نراه دائما متحكما فى قلمه ، يحترم الصغير والكبير سواء ، عفيف اللفظ والكلمة . حتى فى نقده لمن يستحق النقد يبدو المقريزى متحرزا منضبطا يخشى الله فيما يقول ، ولايتخذ من التاريخ اداة لتجريح الناس ونهش اعراضهم والكشف عن خباياهم .

ولايخفى عنا أن المقريزى عاش فى عصر كثر طواله التحاسد بين العلماء ، وتعرض بعضهم لبعض بالذم والاساءة . ولكن المقريزى ظل بعيدا عن الخوض فى ذلك المستنقع ، مكتفيا عند الشروع فى تأليف كتاب بأن يدعو الله « أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما اعوذ به من تطرق أيدى الحساد اليه والجهلاء ، وان يهدينى فيه ـ وفيما سواه من الاقوال والافعال ـ الى سواء السبيل »(٣٧) .

وحسبنا الفارق بين هذا النهج المعتدل ، وبين ما كان عليه مؤرخ آخر معاصر كالسخاوى ، وصفه معاصره السيوطى بأنه ألف تاريخا « ملأه بذكر المساوىء وثلب الاعراض » (٣٨) وقال عنه ابن اياس انه « الف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس » (٣٩) .

---

(٣٦) سورة المائدة ، ١٠٨ وسورة البقرة ، ٢٨٢ .

(٣٧) مقدمة كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى ، ج ١ ص ٣ (بولاق)

(٣٨) السيوطى : الكاوى على السخاوى (مخطوط بدار الكتب المصرية ـ ١٥١٠ أدب)

(٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ (طبعة القاهرة)

ثانيا : لم يكتف المقريزى بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه . وانما عرف عنه التدقيق وحب الاستقصاء والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الاحداث . يقول المقريزى عن نفسه ـ عند ذكر بعض الاحداث « فكثر تعجبى من ذلك ، وما زلت أفحص عنه على عادتى فى الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على . . » (٤٠)

وهذه الصفة المتأصلة فى المقريزى ، والتى يلمسها الباحث فى كتاباته تجعله يسمو فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، بل واللاحقين حتى اوائل القرن الماضى . ذلك ان الغالب على المؤرخين عندئذ هو ان يسرد الواحد منهم احداث التاريخ مكتفيا بما يصل الى علمه عن طريق النقل والسماع . واذا كان المؤرخ أمينا أسند الرواية الى من نقلها عنه ، وربما فعل ذلك خشية الله او حتى يتحلل من مسئولية وتبعة ما يرويه ولا نقول ان المقريزى تجرد من هذه النزعة او تخلى عن هذا الاسلوب ، فقد لجأ فى سرده أخبار السلف الى الاعتماد على روايات السابقين ، وكثيرا ما اشار اليهم حفظا لحقوقهم وتمسكا بامانة النقل والرواية . ولكن المقريزى كان لا يكتفي بذلك ، وانما كثيرا ما يحرص على ان يقف امام الرواية التاريخية ليناقشها ويفندها ، مقارنا اياها بغيرها ، مستقصيا اسبابها ، محاولا تعليلها . وفى هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرهفة لدى المقريزى ، وقدرته ـ لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب ـ بل ايضا على التحليل والتفنيد والتعليل . ويتضح هذا الاتجاه فى كافة مؤلفات المقريزى ، سواء كتبه الكبيرة المليئة بالاحداث ـ كالسلوك او كتاب المواعظ المشحون بذكر الآثار والمعالم العمرانية ، فضلا عن كتبه الصغيرة ـ مثل « اغاثة الامة » او فى مقالاته ورسائله العلمية مثل كتابه عن المعادن وكتابه عن النحل . . وغيرها .

ثالثا : عدم الاسراف فى الاستطراد . والمقصود بالاستطراد الانتقال من موضوع الى ثان ثم الى ثالث لأتفه الأسباب وأوهى المناسبات . وربما تنبه الكاتب بعد فترة ـ قد تطول او تقصر ـ الى انه ترك موضوع حديثه الاصلى وبعد عنه ، فيعتذر للقارىء ، واحيانا يستغفر الله ويعوذ به من الشيطان الرجيم الذى صرفه عن قصده ، وبخط عريض يقول « نعود الى ذكر كذا . . (٤١) وبذلك يصحح مساره ، ولكنه لا يلبث ان يقع فى المحظور من جديد ويعود الى الاستطراد بعد قليل .

ومن المؤرخين المعاصرين من يحاول ان يبرر جنوحه نحو الاستطراد ، فيدعى انه تعمد ذلك . للترويح عن القارىء وابعاد السأم عنه اذا هو ظل منكبا على قراءة موضوع واحد ، او انه قصد اتحاف القارىء ببعض الطرائف لينشط فكره ويسرى عنه .

ومهما يقل من اننا نجد احيانا فى استطرادات السابقين من المؤرخين معلومات جديدة ، قد يفوق بعضها فى مضمونه ما يحويه المتن الاصلى من معلومات ، فان منهج البحث العلمى السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر فى موضوع معين ، والوصول الى الحقائق والنتائج عن أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل اخرى بعيدة عن موضوع البحث الاساسى ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الأهمية والخطورة . وفى ذلك يقول ابن النديم ـ صاحب الفهرست ـ

---

(٤٠) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ

(٤١) انظر على سبيل المثال كتاب : الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، للنويرى السكندرى

من علماء القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) : « النفوس تشرئب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات . . » .

ونلمس استقامة منهج المقريزى وعزوفه عن الاستطراد فى كافة مؤلفاته الكبيرة والصغيرة . ويبدو أنه أدرك ما تعانى منه الكتابة التاريخية من تطويل ومط يعرضها للمسخ ويفسد صورة التاريخ ، بدليل ما ذكره فى مقدمة موسوعته « المواعظ والاعتبار » من أنه حرص على أن يكتب كتابه هذا « من غير اطالة ولا اكثار ، ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين . . » وفى هذا يبدو اعتدال المقريزى وتمسكه بالطريق الوسط ، فلا اطالة واستطراد ولا ايجاز ولا اختصار .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الاشارة الى ان تنوع الموضوعات التى حواها كتاب « المواعظ والاعتبار » لا ينبغى أن تفسر بأنها نوع من الاستطراد ، لأن طبيعة دراسة الخطط وما يرتبط بها من آثار ومنشآت وأخبار مؤسسيها ومنشئيها ، وما شهدته من أحداث خاصة وعامة . . كل ذلك فى بلد عريق مثل مصر يتمتع بتاريخ حافل ، وفى مدينة خالدة مثل القاهرة اسهمت منذ مولدها بسهم وافر فى النشاط الحضارى لدولة الاسلام . . كل ذلك جعل لكتاب المواعظ وضعا خاصا لان طبيعة موضوعه تتطلب تنوع الموضوعات وتشعبها .

رابعا : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته . ذلك انه مما يؤخذ على كتابة التاريخ فى تلك العصور ، ان المؤرخين تمشوا مع الاوضاع التى تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وبالتالى فانهم ركزوا فى تدوين التاريخ على تسجيل اخبار الحكام وما كان يجرى فى القصور ، مع التطرق أحيانا الى أخبار الاعيان والمرموقين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم . أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجرى فى الاسواق والحارات ، وما دار خارج الحواضر والمدن من ريف وبادية . . فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة الا بالقدر الذى يمس سير الحكام والاعيان . ويتضح ذلك من اسماء وعناوين الكتب التاريخية فى تلك العصور مثل « الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين » و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » و « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » .

ولم يكن باستطاعة المقريزى أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه ، وصار يعبر عن وجه من فكره وعقليته . ولكننا نجده فى كتابته للتاريخ يذكر الحكام والسلاطين والامراء ، ولا يهمل الاشارة الى عامة الناس والشعب . وعندما أراد اسما لحولياته الشهيرة اختار أن يسميها « السلوك لمعرفة دول الملوك » فهو لم يختص الملوك وانما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير واذا كان قد اختص الحكام والخلفاء والملوك بكتاب ، فانه اختصهم بالذكر فى كتاب اكثر ارتباطا بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتابا صغيرا اسماه « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

ولم يكن المقريزى يكتب للخاصة وحدهم ، وانما كان يكتب للعامة أيضا . وبعبارة اخرى فانه حرص على أن يجد الجميع فى كتاباته غذاء وسلوى . يقول عن كتابه « المواعظ والاعتبار » ما نصه « وانى لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى

عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامى و الصعلوك ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى . وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك . ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . . »(٤٢)

خامسا : عدم مداهنة الحكام . ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التى ابتلى بها التاريخ على مر العصور هى مداهنة كثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، فيبرزون ما لهم من محاسن ويتسترون على ما لهم من عيوب ، ومن اجل ذلك ربما يقلب بعضهم الحق باطلا والباطل حقا . والمعروف أن المقريزى دون مؤلفاته فى القرن التاسع الهجرى ، أى فى عصر اختلت أمور طبقة المماليك الحاكمة ، واهتز نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غيرما كانت عليه فى القرنين السابقين . ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وانما آثر فى مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها : واختار المقريزى أن يقضى المرحلة الاخيرة من حياته عاكفا فى بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف والكتابة (٤٣) . ولم يترك داره الا ليتجه الى مكة حيث اقام مجاورا بضع سنوات قليلة ، واصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها الى القاهرة مكبا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقريزى لنفسه أن يكون عبدا للسلطان أو أسيرا للوظيفة ، الامر الذى جعله حرا فيما يكتبه . وبالتالى فانه لم يكن يتحرج من نقد الاوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن اوجه الفساد فى جهاز الدولة ، والقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام . من ذلك انه فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباى وتطرفه فى سياسة الاحتكار وانزال المظالم بالتجار « حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته » (٤٤) وفى حوادث سنة ٨٣٤ هـ ينتقد بشدة الخلل الذى أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الامر واستخفاف العامة براعيها » . . . (٤٥) وهكذا نلمس فى المقريزى قلما منطلقا وفكرا حرا .

على أن أهم ما امتاز به منهج المقريزى فى كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع ان يتذوق القارىء اللماح فى كتاباته طعما جديدا ليس له نظير فى كتابات كثيرين من مؤرخى العصور الوسطى بوجه عام .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقريزى بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية فى صلته بابن خلدون وتأثره به . . ذلك أنه من المعروف أن المقريزى كان واحدا من تلاميذ ابن خلدون المقربين اليه ، الملتصقين به ، المتأثرين بآرائه وأفكاره . وعندما يشير فى كتاباته الى ابن خلدون ، فانه يقول « قال لى شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله تعالى . . » (٤٦)

---

(٤٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٣

(٤٣) يقول السخاوى فى ترجمته للمقريزى « وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر فى سنة عشر وعاد معه . وعرض عليه قضاؤها مرارا فأبى » الضوء اللامع ج ٢ ص ٢١ ـ ترجمة رقم ٦٦

(٤٤) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٢ هـ (تحقيق الباحث ونشر مركز تحقيق التراث بالقاهرة)

(٤٥) المصدر السابق ـ حوادث سنة ١٨٣٤ هـ .

(٤٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق)

ولكن علينا أن نذكر أن عظمة ابن خلدون فى الفكر الاقتصادى الاجتماعى تنبع ـ بصفة رئيسية ـ من فلسفته لهذا الفكر فى مقدمته الشهيرة . فاذا تركنا المقدمة وعكفنا على دراسة تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر) فاننا لا نجد اثرا واضحا قويا لتطبيق الفكر على الواقع التاريخى . حقيقة ان ابن خلدون استشهد فى نظرياته التى اتى بها فى مقدمته بأمثلة عديدة من واقع التاريخ ، ولكنه عندما انتقل الى تسجيل الاحداث التاريخية فى الاجزاء التالية من كتابه ، غلب على منهجه طابع السرد التاريخى ، ولم يحاول ـ الا نادرا ـ الوقوف امام الاحداث ليفسرها فى ضوء النظريات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التى سبق ان اتى بها فى مقدمته . ومن هنا كانت اهمية ابن خلدون فى مقدمته اكثر منها فى تاريخه .

اما المقريزى ـ وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بآرائه ـ فانه فى رأينا فاق استاذه فى الجانب التطبيقى . ومهما يقل من ان المقريزى استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ ، فانه لا بد وان يكون لديه هو نفسه الاستعداد والحاسة التى جعلته يطور تلك الجوانب ويجيد تطبيقها فى تسجيل احداث التاريخ . وبعبارة اخرى ، فاننا نرى من المبالغة أن ننسب كل ما نلمسه فى كتابات المقريزى من اتجاهات اجتماعية واقتصادية الى مجرد تأثره بأستاذه ابن خلدون وآرائه ، دون ان نعمل حسابا لفطرة المقريزى واستعداداته العقلية والنفسية . ففى حقل الدراسات التاريخية بالذات لا يكفى التعلم لكى يخلق من المتعلم مؤرخا ناجحا ، وانما لا بد من حسن الاستعداد وتوافر الحاسة التاريخية المرهفة عند من يريد أن يبرز فى حقل التاريخ . والمتتبع لكتابات المقريزى المدقق فى عباراته ، المتأمل فى آرائه وأفكاره ، يلمس حاسة تاريخية مرهفة نابعة من داخله مكنته من ربط الاسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والادارية . . كل ذلك فى يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل . ان تلاميذ ابن خلدون الذين التقوا وأعجبوا به وأخذوا عنه كثيرون ، ولكن أحدهم لم يصل الى ما وصل اليه المقريزى من تفوق وابداع ، والسر فى ذلك يرجع الى المقريزى نفسه وليس الى ابن خلدون .

وعندما نقول ان المقريزى تمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة بين ثنايا كتاباته التاريخية ، فان علينا ان نذكر أن مؤلفات المقريزى الرئيسيه ارتبطت أساسا بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وارتباطه بها ، وحبه لها ، وحرصه على تسجيل تاريخها واخبارها فقال « هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامّتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . ولازلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . . » (٤٧) وهكذا فاننا فى كلامنا عن الاتجاهات واللمسات الاجتماعية والاقتصادية فى كتابات المقريزى ، علينا ان نوضح من البداية انها ترتبط اساسا بمصر .

ومن ناحية اخرى فاننا عندما نقول ان الحاسة الاقتصادية والاجتماعية عند المقريزى برزت فى علاجه لتاريخ مصر ، فاننا نذكر مرة أخرى بأنه عاش فى عصر سلاطين المماليك ، وانه اختص هذا العصر بالذات بقسط كبير من عنايته .

---

(٤٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢ (بولاق)

وقد سبق أن أوضحنا أن مصر فى ذلك العصر كانت قلب العالم الاسلامى النابض بالحياة والتيارات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرها .

وكان من الطبيعى أن يحظى النشاط الاقتصادى بالذات بعناية خاصة من الباحثين فى عصر سلاطين المماليك ، وهو العصر الذى تميز بازدهار التجارة والانتعاش الاقتصادى والثراء الفاحش . ذلك ان قيام دولة سلاطين المماليك جاء مصحوبا بتسلط التتار على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب ، واهمها طريق الخليج وطريق سمرقند البري الى بغداد ، والطريق الممتد الى حوض نهر الفولجا وجنوب روسيا . ونجم عن هذه الظاهرة انه لم يسلم من سيطرة التتار على طرق التجارة الكبرى بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر فكانت توابل الشرق وحاصلاته تصل الى ميناء عيذاب او القلزم ، ومنهما تنقل عبر صحراء مصر الشرقية الى مجرى نهر النيل ، لتتجه فيه الى موانى مصر على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط . وهناك ينتظرها تجار ايطاليا والغرب الاوربي ليحملوها الى بلادهم .

وقد ترتب على هذه الاوضاع الجديدة التي ألمت بطرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى أن احتكر سلاطين المماليك تجارة الشرق ، لانه لم يعد هناك طريق آمن بعيد عن عبث التتار سوى الطريق المار بدولتهم واراضيهم . وهكذا جنى سلاطين المماليك ثروة طائلة وتحكموا في اثمان كثير من السلع وبخاصة التوابل والفلفل ، واكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى - كالخانات والفنادق والوكالات التي تستقبل التجار على اختلاف أجناسهم ومللهم ، والبضائع على تنوع اصنافها والوانها . هذا في الوقت الذي حرصت القوى التجارية الكبرى - وبخاصة في ايطاليا وجنوب اوروبا - على تدعيم علاقاتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك وحماية مصالح تجارها ورعاياها ، فاكثرت من عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع سلاطين المماليك لهذا الغرض ، كما سبق أن اشرنا .

واذا كان بعض مؤرخي مصر في عصر سلاطين المماليك قد اشاروا الى النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، فان اشاراتهم جاءت عابرة سريعة متناثرة ، وربما غير مقصودة ، يغلب عليها الطابع العشوائي . فهي تأتي بين ثنايا سردهم للأحداث السياسية دون أن تكون هدفاً في حد ذاتها . أما المقريزي فله مكانة خاصة لانه افرد للحياة الاقتصادية أجزاء معينة من مؤلفاته مستهدفاً اياها بالذات . وجاء ذلك اما في صورة كتب قائمة بذاتها او في صورة فصول وابواب مستقلة داخل الموسوعات التي دونها ، وبخاصة كتاب (المواعظ والاعتبار) . هذا الى أن المقريزي عايش مرحلة خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، وهي مرحلة الخلل في اجهزة دولة دخلت فعلا مرحلة الخريف من عمرها ، فرأى بعينيه ولمس بحاسته التاريخية المرهفة عظمة النشاط الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وبداية الانحراف في اوضاع الدولة من ناحية اخرى ، مما مكنه من المقارنة والنقد ، حتى وضع يديه على اسباب الداء وحاول ان يقترح العلاج .

وهكذا نستطيع أن نصنف جهود المقريزي في علاج التاريخ الاقتصادي لمصر في عصر سلاطين المماليك في قسمين : القسم الاول ينصب على موارد الثروة في مصر - زراعية وصناعية وتجارية وما يرتبط بها من وصف للمؤسسات

الاقتصادية من ناحية ونشاط اقتصادي واسع من ناحية اخرى والقسم الثاني عبارة عن دراسات ناقدة لمظاهر وأسباب عدم الاستقرار الاقتصادي ، الذي اخذت تعاني منه دولة سلاطين المماليك في عصر المقريزي بالذات .

اما عن موارد الثروة في مصر ، فالمعروف عن هذا البلد انه ظل طوال تاريخه يعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة ، وعلى نهر النيل في نشاطه الزراعي ، لذلك نرى المقريزي يركز عند كلامه عن الحياة الاقتصادية في مصر على أهمية نهر النيل ، وماله من مزايا وصفات ، فيقول ان شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه ، ويذكر بعض الاحاديث النبوية في فضل نهر النيل وبركته ، ويشير الى فيضان نهر النيل وزيادته ، ثم الى المقاييس المقامة عليه لقياس منسوب المياه فيه ، والى الخلجان التي تخرج من نهر النيل لتحمل الماء فيها « يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل » ويوضح ان هذه الخلجان مرتبطة بمجموعة من الجسور تفتح عندما يفى النيل . وتنتهي زيادته في وقت الفيضان .

وينتقل المقريزي بعد ذلك الى « ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا » ويتتبع خراج مصر من عهد الى آخر ، حتى بلغ خمسة ملايين دينار في عهد الافضل ـ ابن امير الجيوش بدر الدين الجمالي ـ في العصر الفاطمى . وهنا يوضح المقريزي حقيقتين على جانب من الاهمية أولاهما أن كتاب الخراج في مصر كانوا غالبا من النصارى الاقباط لخبرتهم في أمور المحاسبة من جهة ودرايتهم بأوضاع البلاد من جهة اخرى . أما الحقيقة الثانية فهي أن الدورات الزراعية وما يرتبط بها من تحديد مواسم الزراعة ومواقيتهاوالاجراءات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بها ظلت تتم وفق التقويم القبطي ـ وهو الامر المتعارف عليه بين المزارعين في مصر حتى اليوم نظرا لارتباط هذا التقويم بالشمس وثباته وعدم تعرضه للتغييرات التي يتعرض لها التقويم الهجري المرتبط بالقمر(٤٨) .

ويوضح المقريزي أن مصر لم تعرف النظام الاقطاعي في حيازة الارض وزراعتها حتى نهاية العصر الفاطمي ، فيقول « واعلم انه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما قبلها من دول أمراء مصر ـ لعساكر البلاد اقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية »(٤٩) ومن الثابت أن صلاح الدين هو أول من طبق هذا النظام في مصر ، فوزع اراضي مصر الى اقطاعات بين الامراء مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية واعداد الجند والفرسان اللازمين للقتال ، وبذلك أقام جيشا كبيرا بأقل نفقات ممكنة(٥٠) .

ويوضح المقريزى حقيقة خطيرة ، هى أن أرض مصر الزراعية صارت كلها فى عصر سلاطين المماليك لطبقة الحكام من المماليك انفسهم ، فقسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، واختص الامراء بعشرة قراريط ، والاجناد بعشرة قراريط (٥١) على ان زمام الارض فك وعدل اكثر من مرة فى عصر سلاطين المماليك ، وهى العملية التى اطلق عليها اسم (الروك) ويشير المقريزى الى الروك الحسامى الذى اجراه السلطان

---

(٤٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٤ (بولاق)

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥٠) يذكر أبو شامة (كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٦) أن صلاح الدين قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) « باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد »

(٥١) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٨ (بولاق)

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، والروك الناصرى الذى تم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥)م(٥٢) اما الامراء المسنون الذين لا يتحملون تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة ، يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقريزى انه جاء وقت غدت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » .(٥٣)

ويتكلم المقريزى عن مال مصر ـ اى دخلها ـ فيقسمه الى قسمين : مال خراجي ومال هلالى فالمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يجبى من الفلاحين على سبيل الهدايا العينية ، مثل الغنم والدجاج والكشك ، وغير ذلك « من طرف الريف » أما المال الهلالى ، فيقصد به المقريزى الضرائب والمكوس غير الشرعية وقال ان « اول من أحدث مالا سوى الخراج بمصر هو أحمد بن محمد بن مدبر ، لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين . . » (٥٤) وقد عرف المال الهلالى فى أول الامر بالمرافق والمعاون ولكن كثيرا من الحكام الذين تعاقبوا على مصر رغبوا عن المال الهلالى ، لما فيه من خروج على الشرع ، وتحميل الناس والرعايا اكثر من طاقتهم . ومن هؤلاء احمد بن طولون الذى اسقط المرافق والمعاون بعد ان بلغت حصيلتها فى مصر على عهده مائة الف دينار كل سنة ويمضي المقريزى فى هذا البيان الطريف ، فيقول ان الاموال الهلالية اعيدت فى ايام الدولة الفاطمية عندما ضعفت الدولة واهتز كيانها الاقتصادى واشتدت حاجتها الى المال . وظلت هذه الاموال قائمة حتى الغاها صلاح الدين ، وكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك(٥٥)

ومع قيام دولة سلاطين المماليك عاد المال الهلالى الى الظهور تحت اسم « الحقوق والمعاملات » على أن بعض سلاطين المماليك ـ اعتبارا من الظاهر بيبرس ـ اتجهوا نحو ابطال هذه المكوس وان كان يبدو ان ابطالها تم تدريجيا ويذكر المقريزى « أن آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغانى وضمان القراريط فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على بد الملك الاشرف شعبان ابن حسين » (٥٦) ويشرح المقريزى ضمان الاغانى ، فيصفه انه كان بلاء عظيما وانه عبارة عن أخذ مال ـ او ضريبة ـ من النساء البغايا ، فاذا دفعت احداهن المال المقرر الى الضامنة ، وسجلت اسمها عندها ، لا يستطيع احد منعها من مزاولة الفاحشة ومن ناحية اخرى ، كان لا يجوز لاحد اقامة فرح باغان دون دفع رسوم معينة لضامنة الاغانى « ومن فعل فرحا باغان او نفس امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » أما ضمان القراريط فيعرفه المقريزى بأنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا ، عن كل الف درهم عشرون درهما(٥٧) .

اما عن الصناعة ، فيستفاد مما ذكره المقريزى فى سياق وصفه لأسواق القاهرة تنوع الصناعات وكثرتها مع جودتها . ومن أهم هذه الصناعات صناعة الشمع الذى كان يباع بسوق الشماعين ، وصناعة المعادن ـ ومنها الحلى الدقيقة ـ مثل

---

(٥٢) المصدر السابق ـ نفس الجزء والصفحة .

(٥٣) المصدر السابق (ج ١) ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ١٠٣ ـ ١١١ (بولاق)

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٥٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة

« الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك » وكانت تباع فى سوق القفصيات حيث كان يضعها الباعة فى أقفاص صغار من حديد مشبك ليعاينها المشترون ـ ويرتبط بالمعادن أيضا صناعة الاسلحة ـ كالقسى والنشاب والزرديات ـ وكانت كلها تباع بسوق السلاح . اما المهاميز فكانت تصنع وتباع بسوق المهامزيين . ويقول المقريزى انه ادرك الناس « وهم يتخذون المهماز كله ـ قالبه وسقطه ـ من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة »(٥٨) هذا عدا سوق الخراطين الذى كانت تصنع وتباع فيه السكاكين ونحوها (٥٩) .

كذلك انتعشت فى مصر فى ذلك العصر صناعة التكفيت وهى تطعيم معدن بمعدن آخر . ووجد لهذه الصناعة بالقاهرة سوق كبير هو سوق الكفتيين ، وصفه المقريزى ، فقال ان به « عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت . ولا بد ان يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شىء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس ، او من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . . (٦٠)

ومثل هذا يقال عن صناعة الجلود ، فقد وصف المقريزى سوق اللجميين بالقاهرة فقال انه كانت تصنع وتباع فيه « آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، ويرتبط بها السروج التى كانت تصنع من أصفر وأزرق . اما القضاة ورجال العلم والدين فكانوا يفضلون السروج السود التى تصنع من الجلد البلغارى الاسود » ومن الجلد البلغارى ايضا كانت تصنع الأخفاف الممتازة التى يلبسها السلطان والامراء فى اقدامهم(٦١)

أما صناعة الأخشاب فقد تنوعت ، فمنها ما يرتبط بالابواب والنوافذ ومنابر المساجد ومعظمها كان يحلى بالحفر ، ومنها ما يرتبط بالصناديق والاسرة والخزائن ـ وكثير منها مطعم بالعاج ـ وكانت تباع فى سوق الصنادقيين بالقاهرة (٦٢)

واشتهرت فى مصر عدة مراكز لصناعة المنسوجات والاقمشة ، منها تنيس ودمياط . ويصف المقريزى تنيس فى صدر الاسلام بأنها كانت مدينة كبيرة « بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، كما يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لايدخل فيه من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير اوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة . . وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان ـ يبلغ الثوب منه ـ وهو ساذج بغير ذهب . مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط (٦٣) واما الثياب المصنوعة فى الاسكندرية فقد وصفها المقريزى بأن « لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار

---

(٥٨) المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ (بولاق)

(٥٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٦١) المصدر السابق ، ص ٩٨

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٦٣) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٧٦ (بولاق)

الارض » (٦٤) وتشهد اسماء بعض الأسواق فى عصر المقريزى ـ كسوق الجوخيين وسوق الشرابشيين ، وسوق الحريريين وسوق الغرايين . . على نشاط وتجارة الاقمشة وما يرتبط بها من ملابس وفراء واجواخ (٦٥)

وهناك صناعات اخرى غذائية متفاوتة الاهمية ، اشار اليها المقريزى ضمن تتبعه للنشاط الاقتصادى فى مصر ، ولعل اهم هذه الصناعات صناعة السكر . يذكر المقريزى انه كان فى سمهود سبعة عشر معصرا لعصير القصب كما كان فى ملوى عدة معاصر (٦٦) وكان يرتبط بهذه المعاصر ـ التى انتشرت فى كافة انحاء البلاد ـ مطابخ لصناعة السكر الذى اشتد الاقبال على استهلاكه نتيجة لحياة الترف التى اشتهرت بها مصر فى تلك العصور . ولا ادل على كثرة استهلاك السكر لعمل الحلوى عندئذ ، مما ذكره المقريزى من أن استهلاك السكر على ايام السلطان الناصر محمد بن قلاون بلغ فى شهر رمضان وحده ـ من عام ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قنطار ، قيمتها ثلاثون الف دينار منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية (٦٧)

ومهما يكن للزراعة والصناعة من شأن فى الحياة الاقتصادية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، فانه مما لا شك فيه ان التجارة كانت المصدر الاول للثراء الكبير الذى اتصف به ذلك العصر ، والذى مكن سلاطين المماليك من تحقيق مشاريعهم الكبرى فى الخارج والداخل . ويشير المقريزى ـ بين ثنايا كتاباته ـ الى مدى عناية سلاطين المماليك بتشجيع التجارة عن طريق تأمين الطرق ، وتوفير السلامة للتجار ، واقامة المؤسسات التجارية فى المدن لينزل فيها التجار الوافدون على البلاد ، ويباشرون منها نشاطهم ومعاملاتهم التجارية . من ذلك ما يذكره المقريزى عن تودد السلطان المنصور قلاون الى القوى الاسلامية فى حوض البحر الاحمر ـ مثل ملوك اليمن وأمراء الحجاز ـ واكرامهم وارسال الهدايا اليهم ، ليسهلوا مرور التجار ببضائعهم الى مصر . (٦٨) هذا بالاضافة الى ما يذكره المقريزى عن حرص سلاطين المماليك على سلامة طرق التجارة وتأمينها حتى أنه عندما اشتد القتال فى صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، وادرك السلطان المنصور قلاون ما يترتب على ذلك من تهديد لأمن القوافل التجارية المتجهة من عيذاب الى وادى نهر النيل ، اصدر السلطان اوامره الى الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على اخرى ، خوفا من فساد الطريق » (٦٩) .

وهناك اشارات عديدة فى مختلف مؤلفات المقريزى توضح دور مصر فى التجارة العالمية ، وانها كانت مقصد التجار من الشرق والغرب . من ذلك ما يقوله من أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يردون فى البحر الى عيذاب ، ثم يسلكون صحراء مصر الشرقية الى قوص ، ومنها يتجهون فى النيل الى القاهرة يحملون احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو

---

(٦٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٣

(٦٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٨ ـ ١٠٣

(٦٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

(٦٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣١ (بولاق)

(٦٨) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

(٦٩) نفس المصدر والجزء ـ ص ٧٠٠

ذلك(٧٠) ويبدو أن طريق عيذاب ـ قوص أهمل بعد طرد الصليبيين من الشام وزوال خطرهم عن شمال البحر الاحمر ، فصارت المتاجر تأتى فى البحر الاحمر الى القلزم ، ومنها بطريق القوافل الى القاهرة . أما من ناحية الجنوب ، فكان ثغر مصر الرئيسى على النيل مدينة اسوان التى قال عنها المقريزى ان « بها تجارات وبضائع تحمل منها الى النوبة » (٧١) على أن ثغر اسوان لم يكن باب مصر الوحيد على افريقية فى ذلك العصر وانما كانت هناك نسبة كبيرة من تجارة مصر مع غرب افريقية وبلاد السودان الغربى وافريقية الوسطى ، تصل الى مصر بالقوافل عن طريق الصحراء الغربية الى قوص او الى الجيزة ، وهناك طريق شهير كان يسلكه الحجاج والتجار من بلاد السودان الغربى الى مصر ـ هو طريق غات ـ يبدأ من مدينة غات فى حوض نهر النيجر ، وينتهى عند الاهرام بالجيزة . وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم او الكارمية نسبة الى مملكة الكارم ، كما عرفوا باسم التكرور نسبة الى مملكة التكرور ، وهما من ممالك السودان الغربى الاسلامية ، فى ذلك العصر (٧٢) وكان هؤلاء التجار يجلبون الى دولة سلاطين المماليك بضاعة من أخطر البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك واستمدوا منها ثروتهم ، وهى التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل . . وكلها أصناف اشتد تهافت الاوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الاثمان المرتفعة (٧٣) . يقول المقريزى « كان تجار الكارم بمصر حينئذ فى عدة وافرة ، ولهم أموال عظيمة » ، كذلك اشار المقريزى الى ان سلاطين المماليك كانوا يقترضون المال منهم احيانا ، اذا اضطرتهم الظروف الى ذلك » (٧٤) ، ولا أدل على ازدياد ـ حجم جالية التكاررة بمصر من أنهم ابتنوا مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، غدت مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، ويذكر المقريزى ان الخيرين من اثرياء التكاررة اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات (٧٥) .

ومن ناحية اخرى ، فان بعض التكاررة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر وهؤلاء حظوا بعطف سلاطين المماليك ، حتى أن المقريزي ذكر أن الملك السعيد بركة خان ـ ابن السلطان الظاهر بيبرس « عمل للتكاررة خوانا حضره كثير من أهل الخير »(٧٦) .

أما تجارة مصر مع اوربا ودول حوض البحر المتوسط ، فكانت أهم ثغورها دمياط و الاسكندرية . وقد ظلت دمياط ميناء مصر الاول على البحر المتوسط ـ أو بحر الروم ـ طوال الشطر الاول من العصور الوسطى ، الامر الذي عرضها لعدة هجمات صليبية ، وبخاصة بعد طرد الصليبيين من الشام . ويذكر المقريزي أنه بعد حملة لويس التاسع على

---

(٧٠) المقريزي : المواعظ ، ج ١ ص ٣٠٢

(٧١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩٧

(٧٢) ونرجح أن تكون تسمية ساحل مصر على النيل باسم بولاق الدكرور نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق نهر النيل الى ساحل بولاق (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٣٠٢) ويذكر المقريزي .
(كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٢٦) أن ساحل بولاق كان يعرف باسم منية بولاق ثم عرف ببولاق التكروري بعد أن نزل هناك الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير .

(٧٣) انظر ترجمة التاجر الكارمي عز الدين عبد العزيز بن منصور الكوطى ، المتوفي سنة ٧١٣ هـ (المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ، حوادث سنة ٧١٣ هـ ، ص ١٣٢)

(٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ١٠٣

(٧٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٦٥ (بولاق)

(٧٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٤٩

مصر ـ وهي الحملة التي انتهت بسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) ـ « اتفق أرباب الدولة بمصر ـ وهم المماليك البحرية ـ على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان واربعين وستمائة ، حتى خربت كلها ومحيت آثارها »(٧٧) وقد شيدت مدينة دمياط الجديدة في الداخل ـ بعيدة عن شاطيء البحر ـ فتقف المراكب التجارية بحذائها « وينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم ، واحدها جرم »(٧٨) . ويبدو أن هذا الاجراء لم يؤثر في مكانة دمياط التجارية فاستمرت تقصدها سفن التجار الاوربيين ، ووجدت بها جاليات كبيرة لهم ، حتى أخذت الاسكندرية تحل محلها تدريجيا ، لتصبح في القرن التالي ميناء مصر الاول على البحر المتوسط . وقد زار المقريزي دمياط واعجب بمنشآتها ، وقال ان دمياط الجديدة المستحدثة « صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الاعظم ، ومن ورائها البساتين . وهي احسن بلاد الله منظرا »(٧٩) .

واما الاسكندرية فقد وصفها المقريزي بأنها « من أعظم مدائن الدنيا » وأفاض في سرد تاريخها القديم منذ الاسكندر الاكبر . وقد ازدادت مكانة الاسكندرية التجارية في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر للميلاد ـ مما عرضها للحملة الصليبية التي شنها عليها بطرس لوزجنان ملك قبرص سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥) م . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تؤثر في مكانة الاسكندرية ، بل على العكس ضاعفت من عناية سلاطين المماليك بها وتحولت الى نيابة يحكمها نائب عن السلطان بعد أن كانت ولاية على رأسها وال . وعلى أيام المقريزي في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر للميلاد ـ شهدت الاسكندرية أزهى أيامها بسبب رواج تجارتها ، وصارت تقصدها سفن التجار البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم .(٨٠) .

وقد فضل التجار الاوربيون الاقامة في المدن التجارية والثغور ، حيث كان لكل جالية اجنبية قنصل يشرف على مصالح افراد الجالية ، كما اتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افراد الجالية . وتمتع التجار الاوربيون داخل فنادقهم بقدر كبير من الحرية ، فسمحت لهم حكومة دولة سلاطين المماليك باستحضار الخمور اللازمة لاستهلاكهم وانزالها في فنادقهم ، بعد دفع الضرائب الجمركية المستحقة عليها . ويبدو أن التجار الاوربيين أسرفوا في استحضار الخمور ، اذ يروي المقريزي أن السلطان الصالح اسماعيل حاول منعهم من احضار الخمور الى ثغر الاسكندرية . ولكن حاكم الثغر اعترض على هذه الفكرة وقال ان الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمور تبلغ اربعين الف دينار(٨١) .

هذا عن التجارة الخارجية ، اما التجارة الداخلية ، في ضوء كتابات المقريزي ، فمن الواضح انها انتعشت في عصر سلاطين المماليك لا رتباطها بالتجارة الخارجية ، من ناحية وبحالة الرواج الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر

---

(٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣ (بولاق)

(٧٨) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٢٢٤

(٧٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨٠) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٧٧ وما بعدها

(٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٩٤

سلاطين المماليك من ناحيّة أخرى . وتشهد على ذلك كثرة الاسواق والقياسر التي عددها المقريزي ووصفها اوصافا تنم عن الانتعاش والازدهار والرواج الذي صار مضرب الامثال . ويكاد المقريزي لا يذكر مدينة كبرى من مدن مصر الا ويشيد بأسواقها العامرة . فاذا تعرض المقريزي لاسواق القاهرة ، أسهب في تعدادها ، وأفاض في وصفها ، معبرا ليس فقط عن تاريخ كل سوق بل أيضا عن ما رآه بنفسه بوصفه شاهد عيان .

من ذلك ما يقوله المقريزي في وصف سوف القصبة « وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والامتعة ، تبهج رؤ يتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الانواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص »(٨٢) واذا تكلم المقريزي عن القياسر ، اشار الى جمال بنائها ، وكثرة ما فيها من حوانيت وتنوع ما فيها من بضائع(٨٣) اما الفواكه على اختلاف أنواعها ـ سواء المحلية او الواردة من بلاد الشام ، فقد خصص لها فندق دار التفاح ـ تجاه باب زويلة ـ وبه « عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤ يتها وشم عرفها الجنة ، لطيب وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدها واحتفافها بالريا حين والازهار ، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس . . . »(٨٤) وقد شيدت للتجار المسلمين الوافدين من خارج البلاد الوكالات والخانات لينزلوا فيها ومعهم بضائعهم واموالهم تحفظ فيها ، حتى ينجزوا معاملاتهم .

ومن أشهر هذه الوكالات في عصر المقريزي وكالة قوصون ، التي يقول فيها « هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وقد أدركنا هذه الوكالة . وان رؤ يتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . . »(٨٥) .

هذه هي بعض الملامح التي نستخلصها من كتابات المقريزي عندما يصف النشاط الاقتصادي ومظاهره في مصر الاسلامية ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . على أن المقريزي لم يقف عند ذلك الحد ، وانما انتقد كثيرا من الاوضاع الاقتصادية التي لمسها في عصره ، والتي لم يرض عنها واعتبرها مظهرا للتردي وسببا للفساد الذي أخذ يستشري على أيامه . ذلك ان المقريزي المؤرخ ـ كما سبق أن أشرنا ـ عايش فترة انتقال خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فرأى آيات من أمجاد هذه الدولة ـ سجلها بأمانة واخلاص ـ ورأى بذور الخلل ، وقد أخذت تتطرق الى اجهزة الدولة ، وعلى رأسها الجهاز الاقتصادي ، وكان أن حرص على أن يضع يده على الداء ويصف العلاج ، فعبر بأمانة عن أسباب الخلل الاقتصادي ، وانتقد بشدة كثيرا من الاوضاع التي رآها بعينيه ولمسها بنفسه .

واذا كان صدق الحاسة الاقتصادية عند المقريزي ، جعله يدرك خطورة العامل الاقتصادي واهميته في تشكيل حياة

---

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥ (بولاق)

(٨٣) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٨٦ وما بعدها

(٨٤) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٩٣ وما بعدها

(٨٥) المصدر السابق ـ نفس الجزء والصفحة

البلاد والعباد ، فان هذه النظرة الثاقبة لم تبد فقط في شتى كتاباته ، وانما بدت أشد ما تكون تركيزا ووضوحا في كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » ذلك أن المقريزي دون كتابه هذا من منطلق اقتصادي بحت ، وفي ظل ظروف .. اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنا باهظا ترك أعمق الاثر في نفسيته ووجدانه ـ ونعني بهذه الازمة المجاعة التي حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتي ٧٩٦ ، ٨٠٨ للهجرة ، وما صحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة المقريزي ووحيدته ، وهكذا فان المقريزي عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية في كتابه « اغاثة الامة » وبحث في أسباب الداء، وفتش عن الدواء ، انما كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل مارآه بعينيه ، وما أحسه بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

وقد بدأ المقريزي كتابه هذا(٨٦) بالاشارة الى ان من أجل نعم الله ـ عز وجل ـ على الانسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس أسباب ما نزل بهم من محن ، ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها . ثم يوضح ذلك فيقول ان المحنة التي سبقت الاشارة اليها ، والتي تحت وطأتها وضع كتابه هذا ـ طال أمدها ـ وحل فيها بالناس من أنواع البلاء والعذاب مالا يوصف ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل في الخلاص منها . ويصف المقريزي هؤلاء القانطين بـأنهم « بأسباب الحوادث جاهلون ، ومن روح الله آيسون » . **ومن هذا المنطلق استهدف المقريزي من تأليف كتابه « اغاثة الامة » أنْ يوضح حقيقتين كبيرتين :ـ**

الاولى : « الأسباب التي نشأ منها هذا الامر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع » .

والثانية : « ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء » .

ويحاول المقريزي أن يخفف من وقع الأزمة على معاصريه ، فيوضح أن الانسان كثيرا ما يبالغ في الازمات التي يعاني منها في حاضره ، ويتصورها أثقل وطأة من كوارث الماضي كما يتوهم المستقبل أفضل من الحاضر « فلذلك لا يزال الحاضر أبدا منقوصا حقه مجحودا قدره ، لان القليل من شره يرى كثيرا . . » وبهذه العبارة يضعنا المقريزي أمام حقيقة كثيرا ما تغيب عنا ، وهي اننا نبالغ في الصعوبات التي نواجهها في حاضرنا لانها ملموسة ، ونتصورها أفدح مما تعرض له السابقون في الماضي ، وانه لا يمكن ان يحدث في المستقبل ما يماثلها في قسوتها . ولذا فان الحاضر دائما « منقوصا حقه مجحودا قدره » على حد تعبيره .

ويخلص من ذلك الى أن الأزمة المعاصرة التي دفعته الى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقسى من غيرها ، وأن بدت كذلك في نظر المعاصرين . ذلك ان (القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، اذ مقاساة اليسير من الشدة اشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . .)(٨٧)

---

(٨٦) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ تحقيق الاستاذين المرحوم محمد مصطفى زيادة والمرحوم جمال الدين الشيال ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦

ولكي يبرهن على سلامة وجهة نظره يتتبع الازمات الاقتصادية التي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك الى ما قبل طوفان نوح عليه السلام ، ويتدرج الى ان وصل الى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام . وفي ظل الاسلام حدثت اول أزمة اقتصادية بمصر في سنة سبع وثمانين للهجرة ، ووالي مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان - الذي وليها من قبل أبيه الخليفة عبد الملك - « فتشاءم به الناس ، لانه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر » .

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقريزي نفسه ، عدّد هذا المؤرخ نحوا من عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت في شدتها ، أرجع معظمها الى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها الى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والامراء ، وما صحب ذلك من نهب الاسواق واختلال الاوضاع الاقتصادية(٨٨) وفي جميع الحالات وصف المقريزي بايجاز ما كان يحدث في تلك الازمات أو الغلوات من ارتفاع في الاسعار ، ونقص في الاقوات ، وما كان يصحب ذلك غالبا من انتشار الطاعون والاوبئة الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

ومما يسترعي الانتباه ان المقريزي عندما عدد في كتابه « اغاثة الامة » ما حل بمصر من الغلوات(٨٩) وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأوبئة ، فانه لم يشر الى الوباء الاسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم « الموت الاسود » Black Death ويعلل الاستاذان الجليلان اللذان قاما بتحقيق كتاب « اغاثة الامة » ذلك بأن المقريزي قصر بحثه في هذا الكتاب على أخبار الاوبئة الناجمة عن أسباب داخلية - قصور النيل وسوء الحكم في مصر - في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وفد على البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الاقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غربا . واستمر هذا الوباء - الذي اجتاح الشرق الاوسط واوربا - نحوا من قرنين من الزمان حصد فيهما عددا يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها(٩٠) .

ومع ذلك فان المقريزي تعرض لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » عن أثر هذا الوباء(٩١) « . . . وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة الاف الى خمسة عشرة ألف الى عشرين الف نفس في كل يوم . . . وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون واكثر . . . وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا . . . . .

ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع . وزهد أرباب الاموال في اموالهم وتوقفت الاحوال بالقاهرة

---

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٣

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٧ - ٤١

(٩٠) عن هذا الوباء وانتشاره واثره انظر :-

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى - الجزء الأول - ص ٥٧٥

(٩١) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حوادث سنة ٧٤٩ ه ، الجزء الثاني ص ٧٧٠ - ٧٨٥

ومصر . وابطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز . . . . وبطلت الافراح والاعراس من بين الناس . . . » وفي ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :ـ

فهذا يوصي باولاده — وهذا يودع اخوانه
وهذا يهيء اشغاله — وهذا يجهز اكفانه
وهذا يصالح اعداءه — وهذا يلاطف جيرانه

وفي تتبعنا للمقريزي وهو يسرد اخبار الازمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر نلمح اشارات عابرة بين ثنايا السطور توضح ما كان يتمتع به هذا المؤرخ من حاسة تاريخية مرهفة ، وقدرة على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها . فهو لا يقتصر على السرد ، وانما يعلق احيانا بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الاحداث ، مبديا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة . ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن المقريزي أبدى الملاحظات الآتية :ـ

١ ـ أن قصور النيل كان يصحبه فورا الغلاء وارتفاع الاسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات . يقول المقريزي في حديثه عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧ هـ ما نصه « فارتفعت الاسعار ، ووقفت الاحوال في الصرف ، فان الدراهم المعاملة(٩٢) كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزايدة والقطع ، فتعنت الناس فيها . وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهما منها . فتزايد سعر الدينار الى ان كان في سنة سبع وتسعين كل اربعة وثلاثين درهما بدينار . وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم في الصرف . . . . »

٢ ـ وكما هي العادة ـ في كل زمان ومكان ـ كثيرا ماكان التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة . من ذلك ما يذكره المقريزي عند وصفه للغلاء الذي حدث سنة ٦٩٦ هـ على عهد السلطان العادل كتبغا « وكثرت ارباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الاقل من السوقة ربحا في اليوم ثلاثين درهما . وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ، طول الغلاء . . » ولم يفت المقريزي أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزله الله بهم ـ عقوبة لهم ـ حتى « اصيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال ـ من الامراء والجند وغيرهم في مدة الغلاء ، اما في نفسه بآفة من الآفات ، او باتلاف ماله التلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به . . . »(٩٣) .

٣ ـ ان بعض هذه الغلوات بلغ درجة من القسوة والشدة جعلت الناس يأكلون القطط والكلاب « حتى قلت الكلاب ، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير » بل يذكر المقريزي ان الحال تزايد احيانا « حتى أكل الناس بعضهم

---

(٩٢) يقصد بالدراهم المعاملة ما كان منها مضروبا حسب قوانين الدولة القائمة ، متداولا بين الناس بقيمته الرسمية . انظر كتاب « اغاثة الامة » للمقريزي ص ١٤ حاشية ٣ . وكذلك ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨ ، dozy : supp. dict arabe

(٩٣) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣٦ - ٣٧

بعضا ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم احد القوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه »(٩٤) ويقول في وصف غلاء سنة ٥٩٦ هـ « وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع فكان الاب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا . والمرأة تاكل ولدها »(٩٥) ومهما يكن في هذه الاوصاف من مبالغة غير مستساغة ، فانها تشير الى مدى قسوة تلك الازمات .

٤ ـ لم يفت المقريزي أن يشير الى ان هذه النكبات الاقتصادية التي حلت بالناس منذ أقدم العصور « انما تحدث من آفات سماوية » وان الله سبحانه وتعالى جعلها عقوبة للبشر « اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم »(٩٦) ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الاولى الذي حاول به المعاصرون ـ حكاما ومحكومين ـ تعليل المحن التي نزلت بهم . ولذلك كثيرا ما كان الناس في تلك الازمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام الى اصدار الأوامر باراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهارا للتوبة(٩٧) .

٥ ـ ولكن الشعب ـ مع ايمانه بالله وقضائه ـ لم يعف الحكام من مسئوليتهم ازاء هذه المحن . وكان يحدث في كثير من الحالات أن تثور الرعية(٩٨) وقد حدث ايام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هدد العوام المحتسب ، فاضطر الى الانقطاع في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفا من العوام . وقد تخوف السلاطين من غضبة العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء الى الامر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الاغنياء والامراء ، بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين(٩٩) وفي الغلا الذي حدث سنة ٧٧٦ هـ ، أمر السلطان الأشرف شعبان « بجمع الفقراء ، وفرقهم على الامراء ومياسير التجار »(١٠٠)

ومع أن المقريزي نفسه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي « عادة الله تعالى في الخلق ، اذا خالفوا أمره وأتوا محارمه » ومع أنه نص صراحة في كل أزمة من الازمات الاقتصادية أو الغلوات أن السبب الرئيسي في حدوثها هو نقص النيل وعدم وفائه الا انه عند تعليله للأزمة الطاحنة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ ـ والتي فيها ألف كتابه « اغاثة الامة » ـ أرجع حدوث هذه الأزمة الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » على حد تعبيره هي :(١٠١)

اولا : السبب الاول ـ ويعتبره المقريزي « اصل الفساد » ـ هو ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة بالرشوة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذي جعل ولايتها « لكل جاهل

---

(٩٤) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٢٤

(٩٥) المقريزي : اغاثة الامة ص ٢٩

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٤١

(٩٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨١ هـ ، ٨٣١ هـ .

(٩٨) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ١١

(٩٩) المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(١٠٠) المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٧٦ ه ، وكذلك كتاب اغاثة الأمة ص ٤٠

(١٠١) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٣

ومفسد وظالم وباغ » وكان يكفي أن يتوصل أحد هؤلاء الى بعض رجال حاشية السلطان ويعده بمال للسلطان على ما يريده من الاعمال ، حتى يتسلم ما كان يؤمله من منصب جليل على وجه السرعة ، وغالبا ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده ، فيضطر الى الاستدانة ، ويمد يده الى اموال الرعية ، ويتعسف في اثقالها بالالتزامات ليحصل على ما يريد . فاذا كان صاحب الوظيفة متوليا عملا من أعمال الريف ، فانه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك . ثم يمضي المقريزي في شرحه وتعليله ، فيقول انه لما دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الارض « فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم »(١٠٢)

ثانيا : أما الثاني الذي ذكره المقريزي لهذه الازمة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ فيقول انه غلاء الاطيان . ذلك أن خدم الامراء ووكلائهم « أحبوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب اليهم من المال » فاستحضروا مستأجري اراضي الامراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الايجارات عاما بعد عام ، حتى أن ايجار الفدان ـ بعد حوادث هذه الازمة ـ صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها . وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت ـ وطأة الامراء وأصحاب الاقطاعات على « اهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت اكثر الاراضي من الزراعة . فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الارض ، لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب »

ثالثا : أما السبب الثالث والاخير الذي علل به المقريزي حدوث تلك الازمة ، فهو رواج الفلوس . ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر ، حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية . يقول المقريزي ان « سنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة الى ان حدثت هذه الحوادث » هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس . وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقريزي عن أصل النقود وتطورها قبل الاسلام . وفي ظل الاسلام(١٠٣) يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب(١٠٤) ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر « وسائر دولها جاهلية واسلاما » واما الفضة فكانت تستخدم في مصر حليا وأواني ، وقد يضرب منها الشيء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج اليها البيوت وقد تزايد امر الدراهم الفضية منذ ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقودا في مصر ، وازداد تداول الدراهم الفضية . وهكذا ـ حتى كان عهد السلطان الكامل محمد الايوبي ، فضرب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة اطلق عليها اسم الكاملية ـ ثلثاها فضة والثلث نحاس . ولم تلبث هذه الدراهم ان حلت محل الذهب في التعامل ، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الايوبي ، ثم في عصر المماليك « وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها واليها تنسب عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمال ، وبها يؤخذ خراج الارضين وأجرة المساكن وغير ذلك . . »(١٠٥)

---

(١٠٢) المصدر السابق ، ص٤٣ ـ ٤٤

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ ـ ٦٢

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٦٢

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٦٥

وأما الفلوس النحاسية فيذكر المقريزي أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أي للتعامل في الاشياء التافهة التي لا تسمو في قيمتها الى ان تباع بدرهم او بجزء منه . وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الايوبي ، بحيث كان الدرهم الكاملي يصرف بثمانية واربعين فلسا . ومع تتابع الازمات ، اكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، فكثرت وخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين « وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لاعددا »(١٠٦) .

وهكذا حتى كانت ايام السلطان الظاهر برقوق . فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية « وبعث الى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الاحمر » لضربها ، واتخذ الاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، « فكثرت الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجا صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد » .

هذه هي الأسباب الثلاثة التي علل بها المقريزي للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة ٨٠٦ هـ ، والتي دون كتابه « اغاثة الأمة » تحت وطأتها . وبتحليل الاسباب التي ذكرها المقريزي لتلك الازمة ، نجد أنه جمع بين أمرين : أولهما الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦ هـ ، وهذه حدثت مثل غيرها من « الغلوات » السابقة بسبب قصور النيل . يقول المقريزي ما نصه « قصر مد النيل في سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر ، وارتفعت الأسعار ، حتى تجاوز اردب القمح اربعمائة درهم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايدت أجر الاجراء ـ كالبناء والفعلة وأرباب الصنائع والمهن ـ تزايدا لم يسمع بمثله فيما يقرب من هذا الزمن » أما الأمر الثاني فهوا اختلال أوضاع الدولة اداريا واقتصاديا ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة ٨٠٧هـ « جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثرت زيادة النيل ، وعم النفع به الأقليم » ومع ذلك فان الاوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جعل المقريزي يقول « ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة ، والامر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج اليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الامر . . »(١٠٧) .

والواقع انه اذا كان قصور نهر النيل هو السبب الرئيسي في الغلوات ، والازمات التي تعرضت لها مصر في عصر سلاطين المماليك ـ وقبل عصر سلاطين المماليك ـ الا أننا في ضوء كتابات المقريزي نلمس أسبابا أخرى أخذت تبدو في أفق القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد ـ أي على عصر المقريزي نفسه ـ أدت الى ارتباك اقتصاد البلاد وازدياد الغلاء . وهذه هي الاسباب التي ذكرها المقريزي ، واعتبرها أس الفساد وأصل البلاء .

---

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٧٠

(١٠٧) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣

وهنا ينبغي أن نشير الى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والذي كثيرا ما ترتبت عليه أزمات طاحنة ـ وبين الأسباب الاخرى التي فسر بها المقريزي سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨ هـ . فالجانب الاول المرتبط بقصور النيل ـ مع قسوته وشدته وخطورة آثاره ـ يشكل سببا طارئا مؤقتا لا يلبث أن يزول بعد عام أو اكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الاقتصادية ـ وغير الاقتصادية ـ الى طبيعتها بالتدريج .

أما الاسباب الثلاثة التي ذكرها المقريزي ، وفسر في ضوئها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨ هـ فترجع في جوهرها الى الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها .

ولم تغب هذه الفوارق بين الجانبين عن المقريزي ، فيقول في مقدمة كتابه « اغاثة الامة » ما نصه « وبعد ، فانه لما طال أمد هذا البلاء المبين ـ يعني أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس ان هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ، ولا مر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته الى نهايته ، وعرفه من أوله الى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات ، الا أن ذلك يحتاج الى ايضاح وبيان ويقتضي الى شرح وتبيان »(١٠٨) .

وهكذا ، فان المقريزي عندما يتخذ لكتابه عنوان « اغاثة الامة بكشف الغمة » فانما يقصد بالغمة ازمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . وعندما يحرص على سرد أخبار الغلوات ، والازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ فجر التاريخ ، فانه يفعل ذلك لاثبات حقيقة كبرى سيطرت على فكره وسعي لاثباتها ، هي أن أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ تختلف في أسبابها الجوهرية عن الأزمات السابقة . فاذا كانت الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ أقدم العصور ترتبط أساسا بقصور النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان فان أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . في نظره ليست الا نتيجة لسبب رئيسي هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد » .

وقد سبق أن أشرنا الى أن المقريزي عاصر فترة انتقال خطيرة في دولة سلاطين المماليك ، انتقال من المجد والسؤدد والنظام والانضباط والانتعاش الاقتصادي ، الى وضع آخر ـ كثيرا ما يصاحب الدول في خريف عمرها ـ ويتصف بالفساد والخلل الاداري والاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي والخلقي . وقد انتقد المقريزي في كتاباته ما صار اليه نظام المماليك في أيامه من انحلال ، بعد أن انعدمت بينهم روح النظام والطاعة التي ميزت أسلافهم ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان « فاستطار شرهم ، وتعدوا في العتُوطُرَهم ، حتى خافهم أعيان أهل الدولة . . . »(١٠٩) وبعد أن كان المماليك في أوائل دولتهم مضرب المثل في الانضباط وحسن النظام والطاعة ، صاروا على ايام المقريزي مصدر الفوضى وسوء النظام ، وصاروا ينتشرون في الطرقات والاسواق لنهب الحوانيت ، وخطف العمائم ، وانتزاع الخيول

---

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٣ ـ ٤

(١٠٩) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٣ هـ

من اصحابها . بل كانوا أحيانا يهجمون على النساء في بيوتهم وفي الحمامات فيخطفونهن(١١٠) . وقد بلغ حنق المقريزي على ما صار اليه أمر المماليك في أيامه من فوضى وسوء خلق ونظام ، انه لم يتمالك نفسه فوصفهم بأنهم « ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأره ، وأفسد من ذئب »(١١١) .

ومن هذا المنطلق علل المقريزي سوء الاحوال الاقتصادية بمصر سنة ٨٠٨ هـ . فأرجع أصل الفساد الى عدم كفاية القائمين على شئون الدولة ، والمتولين لشتى وظائفها الكبرى ، لان غالبيتهم تولى منصبه عن طريق الرشوة ، ولذا لم تتوافر فيهم الأهلية والكفاية . بل ان وظائف الدولة صارت « مثل الأموال المملوكة يبيعها صاحبها اذا شاء ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة وفي نظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف . فيانفس جدي ان دهرك هازل »(١١٢) .

ثم ان المقريزي انتهز فرصة تدوين حولياته الكبرى المعروفة باسم « كتاب السلوك » للاتيان بأمثلة واقعية تثبت مارذده من آراء في كتابه « اغاثة الأمة » عن عدم كفاية القائمين على شئون الدولة . من ذلك أنه أشار في حوادث سنة ٨٠٨ هـ الى أن الوظائف العامة صار يليها غير أهلها عن طريق الرشوة ودفع الأموال ، حتى أن أحد باعة السكر استقر في وظيفة حسبة مصر « فكان هذا من أشنع القبائح واقبح الشناعات !! »(١١٣) ويؤكد المقريزي هذا المعنى مرة أخرى في سرده لحوادث سنة ٨٣٥ هـ عندما يقول « غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث أن بعض السوقة ممن نعرفه ولي كتابة السر بحماه على مال قام به . . »(١١٤) ويلقي المقريزي بمسئولية هذا كله على القائمين على أمر الدولة ، لأنهم لا يلتزمون بقرار « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر ، واستخفاف العامة براعيها وقلة الاهتبال بما يرسم »(١١٥)

وينتقل المقريزي ـ كما رأينا ـ الى سوء أوضاع الريف في مصر ، لكثرة المظالم المتنوعة التي حلت بالفلاحين في ظل النظام الاقطاعي ، وهو النظام الذي طبقه المماليك في مصر بروح استغلالية متطرفة . ولم يقتصر الأمر على رفع قيمة ايجارات الاراضي الزراعية ، بل تعدى ذلك الى تسخير الفلاحين في كثير من الاعمال دون أجر ، وجمع أموال اضافية منهم « غير العادة اضعافا »(١١٦) وعند وصول المشد ـ المكلف بجمع الاموال الى القرية ، توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب ، وما تحتاج اليه دوابه من عليق ، ويلزم الفلاح بكل ذلك قهرا ، مهما يبلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده ، فتلزم زوجته واولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم المشد من

---

(١١٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٦٤ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ٤١ ، سعيد عاشور : المصري ص ٨٨ ، ٨٩

(١١١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٤٨ (الطبعة الأهلية)

(١١٢) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع

(١١٣) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٠٨ هـ

(١١٤) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٥ هـ

(١١٥) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٤ هـ

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٠٢

دجاج ولحم(١١٧) وهكذا عاش الفلاحون في عصر سلاطين المماليك « في حال من المغارم معروفة » عـلى حد قـول المقريزي(١١٨) . وقد أدرك المقريزي ريف مصر وأهله على حال من الفقر والحرمان لا يعرفون النقود ، فيشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ، لان « الغلال معظمها لأهل الدولة ، اولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخرب معظم القرى لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد(١١٩) وبلغ الأمر من سوء معاملة الفلاحين في ذلك العصر أنه كان لا يسمح لأحدهم بأن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا ، أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد(١٢٠) . وقد ترتب على سوء أوضاع الريف وكثرة المظالم التي حلت بأهله ، ان كثرت الهجرة من الريف وبخاصة الى القاهرة، حتى نودي سنة ٨٢٧ هـ . « بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر الى بلادهم فلم يعمل بذلك »(١٢١) .

وأخيرا يأتي المقريزي بالسبب الثالث الذي علل به للخلل الاقتصادي وارتفاع الأسعار سنة ٨٠٨ هـ ، وهو كثرة الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها كنقد أساسي ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم . ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لانها معدن رخيص ، اذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ، ولذا نستطيع ان نقول ان المقريزي سبق عالم الاقتصاد الانجليزي جريشام بنحو قرن من الزمان ، عندما أعلن قانونه الشهير بأنه اذا وجدت في السوق عملتان احداهما رديئة والاخرى جيدة ، فان ـ العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق .

ثم أن المقريزي يتهم الحكام باثارة ظاهرة عدم الاستقرار الاقتصادي في السوق لأنهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما انهم لم يكتفوا بالاكثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وانما اختلفوا في تقدير وزنها ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، واحيانا باثنى عشر درهما ، وربما صار بدرهمين ونصف . وفي جميع الحالات ارغم التجار والاهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار الى حبس بضـائعهم تجنبا لبخسها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وارتباك السوق وقلة الخبز(١٢٢) . وبحاسة اقتصاديـة قويـة ، يربط المقريزي ـ في كتاب السلوك ـ بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع اثمان البضائع واجور العمال وايجار الاراضي من ناحية أخرى(١٢٣)

واخيرا فان المقريزي لم يحصر أفقه الاقتصادي داخل مصر أو داخل دولة سلاطين المماليك ، وانما يحرص على أن يربط بين أسعار النقود في مصر وأسعار العملات العالمية الاجنبية . من ذلك أنه يثمن بها الدينار الافرنتي والدينار التركي

---

(١١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري سلاطين المماليك ، ص ٥٠

(١١٨) المقريزي : كتاب السلوك ج ٤ ص ٤٦٩

(١١٩) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٣٦ - ٤٦

(١٢٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٤٦

(١٢١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(١٢٢) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ج ٢ ص ١٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٨٨

(١٢٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ

والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدنانير السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السالمي ، ويتعرض خلال ذلك الى ما دخل على كل عملة من غش وزيف[١٢٤] بل انه يحرص في حوادث سنة ٨١٨ هـ ، على بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف[١٢٥] .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاقتصادي في كتابات المقريزي . أما الجانب الاجتماعي في كتاباته فلا يقل شأنا وأهمية . وهنا نلاحظ أنه اذا كان باستطاعة المقريزي ان يفرد كتابا من كتبه ـ مثل كتاب « اغاثة الامة » لدراسة الاوضاع والمشاكل الاقتصادية التي عاصرها ، فان الامر اختلف بالنسبة للجانب الاجتماعي . ذلك أنه كان من الصعب على مؤرخ او عالم في تلك العصور أن يتعرض في بحث مستقل لصميم أوضاع المجتمع ، وهي اوضاع حساسة في ظل التقاليد التي سادت المجتمع عندئذ ، فضلا عن نظرة الناس الى الحياة ومشاكلها من خلال الدين . ولما كانت الاوضاع الاجتماعية مرتبطة في تلك العصور باحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فاننا نرى بعض العلماء والفقهاء انتقدوا مالمسوه من انحلال اجتماعي من خلال كتاباتهم الفقهية ـ مثلما فعل ابن الحاج[١٢٦] ، في حين انتقد البعض الآخر سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي او معالجته للجوانب الاقتصادية ، مثلما فعل المقريزي .

على أنه لا يقلل من قيمة الملاحظات الاجتماعية التي ابداها المقريزي انها جاءت متناثرة بين ثنايا كتاباته الاخرى ـ سياسة كانت أو اقتصادية أو عمرانية ـ لان العبرة بعمق النظرة التي نظر بها المقريزي الى المجتمع ومشاكله ، وروح الأمانة والصدق التي صور بها بعض الاوضاع وانتقد بها البعض الآخر . حقيقة ان التقاط مثل هذه الملاحظات المتناثرة من مؤلفات المقريزي عملية ليست بالسهلة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد والمثابرة أن ننسج من تلك الخيوط صورة واضحة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية على عصر المقريزي .

وقد وضع المقريزي تقسيما للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فقسم أهل مصر ـ في الجملة ـ الى سبعة أقسام : أهل الدولة ـ ويعني بهم المماليك ـ وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والباعة ومتوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة وأهل الفلح وهم « الزراعات والحرث وسكان القرى والريف » ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وارباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، واخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم « السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »[١٢٧]

ومهما يكن في هذا التقسيم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقريزي أتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فانه حرص على أن يوضح الحالة الاقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها . ولا يخفي عنا أن الوضع

---

[١٢٤] المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ

[١٢٥] المقريزي السلوك ، ج ٤ ص ٨١٨

[١٢٦] تؤكد في هذا الصدد على أهمية كتاب المدخل ـ أو مدخل الشرع الشريف على المذاهب ـ لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الشهير بابن الحاج ، المتوفي سنة ٨٣٧ هـ . وقد تعرض فيه المؤلف الكثير من الأوضاع الاجتماعية السيئة التي تفشت في ذلك العصر والتي تعارضت مع أحكام الشرع الشريف (أربعة أجزاء ـ القاهرة ١٩٢٩)

[١٢٧] المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٧٢ ـ ٧٣

الاجتماعي يتأثر الى حد كبير بالوضع الاقتصادي وخاصة في تلك العصور التي عاصرها المقريزي وكتب عنها . هذا الى انه في اشاراته المتناثرة ، يأتي بملاحظات اجتماعية طريفة وجديدة ، قد لا نجد لها شبيها في بقية المصادر . فهو في كلامه عن طوائف المماليك يشير الى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في نسبتهم ، ويلقي الأضواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين المملوك وأستاذه ـ أي سيده الذي امتلكه وأشرف على تربيته ولم يضن عليه بعطف أو مال ـ والعلاقة بين المماليك بعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة المماليك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره . وهكذا حتى ندرك السنوات الاخيرة من حوليات المقريزي فنلمس كثيرا من الاشارات الى تطرق الفساد الى نظام المماليك ، وانحلال أمرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة(١٢٨)

ثم ان كتابات المقريزي تزخر باشارات متناثرة توضح علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض من ناحية ، وعلاقتها بالحكام من ناحية اخرى . من ذلك أنه يشير الى ان سلاطين المماليك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء « لان بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون »(١٢٩) ويقول ان بعض السلاطين كان اذا دخل عليه عالم أو أحد رجال الدين انتصب له قائما(١٣٠) وربما حرص بعض السلاطين على أن يشيع عالما توفى فيمشي على قدميه أمام نعشه . وقد يحاول السلطان حمل النعش على كتفه ، فتحمله أكابر الأمراء عنه(١٣١)

أما التجار ، فصاروا موضع حسد السلاطين وطمعهم ، لما كانوا فيه من ثروة طائلة في ذلك العصر ، فتمادى بعض السلاطين في فرض الرسوم عليهم ، بل ربما في مصادرتهم ، حتى ذكر المقريزي أن بعض التجار « دعوا على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم »(١٣٢) وفي بعض الحالات كان السلطان يحتكر صنفا او يختزنه ليبيعه للتجار بأثمان باهظة يفرضها عليهم ، مما يسبب لهم خسارة بالغة ، حتى « اشتد الأمر على التجار لرمي البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادرات في الولاة وأرباب الأموال »(١٣٣) . وشتان بين هذا الوضع الذي آل اليه أمر التجار في اواخر عصر سلاطين المماليك ، وبين ما كانوا فيه من تكريم وتشجيع ورعاية في اوائل ذلك العصر .

ويستشف من كتابات المقريزي أن رقيقي الحال ـ من الفقراء والمعدمين ـ كانوا دائما أبدا موضع عطف ورعاية بقية قطاعات المجتمع ، فحرص كثير من السلاطين والاثرياء والميسورين على اقامة المؤسسات الخيرية ، ووقف الاوقاف عليها ، لرعاية الفقراء اجتماعيا وصحيا من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس خصص وقف الطرحاء لتغسيل فقراء

---

(١٢٨) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ، ٧١٦ وكتاب المواعظ والاعتبار (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ١١٢ ، ١١٧ ـ ١١٨ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ج ٤ ص ٧٨ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(١٢٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣

(١٣٠) المصدر السابق ـ نفس الجزء ، ٥٢٣

(١٣١) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٤٤ ـ وانظر ايضا :ـ سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٨ ـ ٣٤

(١٣٢) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤

(١٣٣) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣٨

المسلمين وتكفينهم ودفنهم(١٣٤) . وفي أوقات الشدائد والمحن والغلوات كان الفقراء يوزعون على الأغنياء ، بحيث يلتزم كل غني باطعام عدد معين منهم(١٣٥)

أما أهل الذمة ـ وبخاصة أقباط مصر ـ فيفهم من كتابات المقريزي أنهم عاشوا غالبا في طمأنينة ، حتى انه ذكر أديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديرا ، يحمل النصارى الى رهبانها النذور والقرابين(١٣٦) . وكان للأقباط في مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية(١٣٧) ، كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض(١٣٨) ولم يكن اليهود في مصر أقل حظا في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم الموروثة ، كما احتفظوا بمعابدهم التي عددها المقريزي(١٣٩) . ومع ذلك فان المقريزي لم يتناس أن اليهود والنصارى جميعا تعرضوا أحيانا في ذلك العصر في فترات محددة ـ لبعض ألوان الاضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة ، ذكرها(١٤٠)

أما الفلاحون ، فيذكر المقريزي أنهم عاشوا « في حال من المغارم معروفة »(١٤١) فوقعوا بين شقى الرحى بين استغلال الحكام وبطش العربان . وقد سبق أن أشرنا الى أوضاع الريف والفلاحين ، أما العربان الذين انتشروا في أقاليم متعددة ، فقد رفضوا في أول الامر الخضوع للمماليك ، ووصفوا سلطانهم ـ على حد قول المقريزي ـ بانه « مملوك قد مسه الرق »(١٤٢) بل لقد تمادى العربان وقالوا « نحن اصحاب البلاد ، ونحن أحق بالملك من المماليك وهم خوارج خرجوا على البلاد »(١٤٣) ولم يقتصر أذى العربان في ذلك العصر على الريف وأهله ، بل ان المدن الكبرى ـ مثل اسيوط والاسكندرية ـ لم تسلم من اغاراتهم وعبثهم ـ وعدوانهم على أهلها(١٤٤) . .

ويتعرض المقريزي للحياة الاجتماعية في القاهرة والمدن الكبرى ، فيصفها بالعظمة والاتساع وكثرة السكان وتنوعهم ، وكثرة المنازل وضيق دروبها وطرقاتها ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب(١٤٥) واظهر الحكام في ذلك العصر حرصا شديدا على اقرار الامن في المدن ليلا ونهارا ففي الليل كانت شوارعها وطرقاتها تضاء بالمصابيح وتغلق ابوابها ، ويرتب جماعة من الطواف لكشف الازقة وتفقد الطرقات وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول

---

(١٣٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٣٨

(١٣٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(١٣٦) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٣٦ ـ ٥٤ .

(١٣٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٣٨) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٤٣

(١٣٩) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها (بولاق)

(١٤٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٠٩
ذكر دخول قبط مصر ، ص ١٥٨ .

(١٤١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٩

(١٤٢) المقريزي : البيان والاعراب ، ص ٩

(١٤٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٤٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٢٠

(١٤٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٣ وما بعدها (بولاق)

قبض عليه(١٤٦) ومن ناحية أخرى ، شدد سلاطين المماليك العناية بنظافة القاهرة وكنس شوارعها ورشها بالماء ، وأمر أرباب الحوانيت بان تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما قد يقع من حريق(١٤٧) .

والمقريزي عندما يعالج ما حفلت به القاهرة من مؤسسات تجارية وغير تجارية ، لا يغفل عن الاشارة الى ما كان لبعض هذه المؤسسات من نشاط اجتماعي ، وما كان يعج به بعضها من تيارات اجتماعية قوية ، ذلك أن المدن الكبرى - وبخاصة القاهرة - زخرت بمؤسسات ذات صفة دينية كالمساجد والخانقاوات ، أو ذات صفة تعليمية ثقافية كالمدارس ، أو ذات صفة صحية كالبيمارستانات ، او ذات صفة تجارية كالخانات والوكالات والفنادق . ولكن هذه المؤسسات على تباين صفاتها لم تخل من نشاط اجتماعي ، وهو ما حرص المقريزي على ايضاحه وبيان ما كان يجري داخلها من تيارات اجتماعية ينعكس صداها على المجتمع الخارجي .

هذا الى ان المقريزي في تصويره للمجتمع المصري ، حرص على أن يؤكد روح المرح والفكاهة التي اتصف بها أهل مصر ، فوصفهم تارة « بالبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر . وخُصّوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا »(١٤٨) وتارة أخرى ربط المقريزي بين مرح أهل مصر من ناحية وبين شعور اللامبالاة الغالب على بعضهم من ناحية اخرى ، وردد في ذلك عبارة أخذها عن ابن خلدون « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى ، أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب »(١٤٩) .

ويضرب المقريزي أمثلة على ذلك بحب أهل مصر للتسلية والخروج الى المتنزهات كالحدائق والبرك وغيرها(١٥٠) هذا فضلا عن ركوب نهر النيل صيفا في وقت الفيضان واستئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم(١٥١) بل يذكر المقريزي أن صاحب اليمن عندما أتى لزيارة مصر ، حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ « كثيرا من الصناع والمساخر وارباب الملاهي »(١٥٢) وكثيرا ما كان الناس يتلهون ببعض الألعاب ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك وغيرها(١٥٣) . ولم يسلم الحكام من نكات المصريين اللاذعة ، فاطلق العوام على امراء المماليك القابا وتسميات تهكمية قارصة . ومن هؤلاء الأمير عز الدين ايغان وقد اطلقوا عليه لقب « سم الموت » والامير سيف الدين ملكتمر الناصري وقد اطلقوا عليه لقب « الدم الاسود » وناصر الدين - متولي حسبة مصر - وقد اطلقوا عليه « فأر السقوف » . . . . وغير ذلك »(١٥٤)

---

(١٤٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٩

(١٤٧) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٦٧ كتاب المواعظ ج ٣ ص ١٧٤ (الاهلية)

(١٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩ (بولاق)

(١٤٩) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠ (بولاق)

(١٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٧ (الأهلية)

١٥١) المقريزي : المواعظ ، ج ٣، ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ (الأهلية)

(١٥٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، حوادث سنه ٧٥٥ هـ

(١٥٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٧٥٤

(١٥٤) المقريزي : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ٦٤٤ . . الخ

وعندما يتكلم المقريزي عن قرافة مصر والقاهرة ، لا يكتفي بأن يوضح الدور الرئيسي للقرافة بوصفها دارا للموتى فحسب ، ويتتبع ما أقيم فيها من البيوت والزوايا والمدارس ـ وغيرها ، بل حرص المقريزي على أن يشير الى أن القرافة في ذلك العصر شهدت نشاطا اجتماعيا واسعا في حياة الترح وحياة الفرح سواء ، اذ صارت من جملة متنزهات مصر ، وصار البعض يدعون الأهل والأصدقاء اليها حيث يقيمون فيها ولائم صاخبة ، يكثر فيها الغناء والرقص . وربما عم الفساد نتيجة لاختلاط النساء بالرجال »(١٥٥)

ويلمح المقريزي ـ ضمن كتاباته ـ الى الأفراح العائلية في عصره ، فيرسم صورة لفرح من أفراح القصور والسلاطين ، هو احتفال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢ هـ بزواج ابنه الأمير آنوك ، فأمر السلطان : « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى ـ الدور السلطانية ، ووقع الشروع في عمل الخوان ، فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الامراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما احضره من الشمع قبل الارض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم ، **فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا** . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان ، وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الارض واحدة بعد اخرى ، وهي تقدم ما احضرت من التحف الفاخرة والنقوط ، **حتى انقضت تقادمهن جميعا** . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن ، فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغاني تضرب بدفوفهن ، وانواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على المغنيات ، فحصل لهن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . . . . . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والاوز والدجاج ما يزيد على عشرين الفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر الف قنطار(١٥٦)

ومن العادات الطريفة التي أشار اليها المقريزي انه كان يراعى أن يتضمن شوار العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع الاردب من القمح . وتبلغ قيمة الدكة ما يزيد على مائتي دينار ذهبا . فاذا كانت العروس من بنات الامراء أو الوزراء أو الاعيان ، فانها تجهز في شوارها بسبع دكك(١٥٧) وفي ليلة الدخلة يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الاهل والاصدقاء . وهناك في بيت العروس يقام حفل الزفاف الذي تحييه جوق المغاني ، ويختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء من المدعوات اللائي يحرصن على ارتداء أفخر الملابس والمجوهرات(١٥٨) . وكثيرا ما يتفاخر المدعوون والمدعوات بتقديم النقوط الى المغاني وتقديم الهدايا الى اصحاب العرس ، وتكون هذه الهدايا من الشمع والتحف الفاخرة والخراف والسكر والاوز . . . وغيرها(١٥٩)

---

(١٥٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣١٩ (الأهلية)

(١٥٦) المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦ (حوادث سنة ٧٣٢ هـ)

(١٥٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق)

(١٥٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦ ، ٦٠١

(١٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

ومن المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها احتفالا كبيرا في ذلك العصر « النفاس والولادة » فاذا كان المولود ذكرا تضاعف الحفل ، ويقيم أهل المولود وليمة كبيرة يدعي اليها الاصدقاء ، ويبالغ في عمل الوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف لام المولود في هذه الحالة(١٦٠) اما ختان الطفل ، فكان يحتفل به ـ احتفالا كبيرا ـ قد يستمر ثلاثة أيام ـ ولا بد للمدعوين في هذه الحالة من تقديم النقوط لاهل الطفل ، ويضعونه في « الطشت الذي يطاهر فيه الولد »(١٦١)

وفي الحياة الاجتماعية التي حفلت بها مصر في عصر سلاطين المماليك ، لم يفت المقريزي أن يشير ـ من قريب أو بعيد ـ الى دور المرأة في الحياة العامة . ففي الحياة السياسية يشير المقريزي بين حين وآخر الى تدخل بعض زوجات السلاطين في شؤون الحاكم مثل ست حدق ، زوج السلطان الناصر محمد ، وكان لها دور ملحوظ في شئون الدولة ، وكلمة مسموعة عند السلطان ، حتى ان التجار لجأوا اليها لرفع بعض المظالم عنهم(١٦٢) . وفي الحياة العلمية يشير المقريزي الى بعض النساء اللائي اشتغلن بالفقه والحديث ، وشارك بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل الى جانب الفقهاء(١٦٣) ويتكلم المقريزي عن التصوف والزوايا والاربطة ـ فيسهب في الكلام عن دور المرأة في حياة التصوف من ذلك ما يقوله عن رباط البغدادية « وما برح (هذا الرباط) الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن . وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية . . »(١٦٤) ولم يكن دور المرأة في الاسواق والطرقات والحمامات والمتنزهات أقل شأنا . ويذكر المقريزي ان بعض سلاطين المماليك حاول منع النساء من الخروج الى الطرقات او الذهاب الى المقابر ومواضع النزهة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمنا محدودا ، يعود بعده الحال الى ما كان علية(١٦٥) وربما احترفت « بنات الهوى » الايقاع بالرجال فتخرج الواحدة الى الطريق وقد استكملت زينتها لتستدرج رجلا الى حيث يتم سلب امواله وقتله ـ بأيدي اعوانها(١٦٦) .

ويستطيع الباحث العثور فى كتابات المقريزى على ملاحظات توضح ملا بس النساء فى عصره . من ذلك مايقوله من أن النساء كن يستعملن المقانع ، وهى مناديل توضع فوق الرأس والوجه(١٦٧) . أما غطاء الرأس فكان عبارة عن عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها مدلى على ظهرها ، وتسمى هذه العصبة « الشاش »(١٦٨) على أنه مما

---

(١٦٠) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

(١٦١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، ج ٤ ص ٤٦٦

(١٦٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢

(١٦٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٦٩

(١٦٤) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨
كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٦٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣

(١٦٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفات .

(١٦٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٤٣٣ .

(١٦٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٤

يسترعى الانتباه مايذكره المقريزى من أن النساء فى عصره كن يعمدن أحيانا الى تقليد الرجال فى زى الرأس فلبسن الطواقى ، وتعممن بالعمائم ، حتى اضطر السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لاتتعمم بعمامة ولاتتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة ايام سلبت ماعليها من الكسوة »(١٦٩) . وقد حاول المقريزى أن يلتمس للنساء بعض العذر فى ذلك ، فقال ان الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة ، بسبب ما نزل من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل في لبس الشاشات الفاخرة ، ولكن هذا التبرير لايتفق مع قول المقريزى إن هؤلاء النسوة اعتدن ان يزخرفن الطواقى بالذهب والحرير ، ويبالغن فى ذلك(١٧٠) وربما كان أقرب الى الواقع ماذكره المقريزى فى موضع آخر من كتاباته لتعليل هذه الظاهرة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

والواقع انه يفهم من الملاحظات التي أبداها المقريزي أن بعض النساء في ذلك العصر بالغن في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الامر بهن احيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقي الذي عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة القماش الذي يفصل منه القميص اكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعا مربعا(١٧١) . أما تكاليف مثل هذا القميص ، فقد ذكر المقريزي أنها تجاوزت الالف درهم ، ومثله الازار الخارجي ، في حين وصل ثمن خف المرأة الى ما بين مائة وخمسمائة درهم(١٧٢) . ويبدو أن هذا الاسراف من جانب النساء دفع الدولة الى التدخل لتحديد ملابسهن ، فصدرت اوامر في سنى ٧٥١ هـ ، ٧٩٣ هـ ، ٨٥٠ هـ ، ٨٧٦ هـ ، بالا يزيد طول قميص المرأة عن اثنى عشر ذراعا ، وأن لا تكون الاكمام مفرطة في الاتساع . وطاف المنادون في شوارع القاهرة يحذرون النساء من مخالفة هذه التعليمات . بل لقد نصبت اخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على شكل نساء وقد ارتدين القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن(١٧٣) .

على أن المقريزي ـ بما أوتيه من دقة ملاحظة ـ أوضح بطريق غير مباشر أن المستحدثات (الموضة) تنتقل في المجتمع من فوق الى تحت ، ومن الطبقات العليا الى مادونها ، فيقول ان ما فعلته عامة نساء المجتمع لهن العذر فيه ، لانهن يتشبهن في ملبسهن بما تفعله نساء السلاطين والامراء . ففي حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقريزي في صراحة على عوام النساء انهن تشبهن في الملبس بنساء الملوك والاعيان(١٧٤) . أما في حوادث سنة ٨٥٠ هـ فيصف المقريزي كيف أن نساء السلاطين وجواريهن احدثن ثيابا طوالا تسحب أذيالها على الأرض ، ولها اكمام واسعة ، عرف القميص منها بالهطلة .

---

(١٦٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص٥٠٣

(١٧٠) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٧١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ص٦٧٣

(١٧٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ (الأهلية)

(١٧٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ

ويعقب المقريزي على هذا الخبر بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك ، حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك »(١٧٥) .

ثم ان المقريزي يشير الى حقيقة اخرى ، هي ان ملابس النساء لم تظهر على حال واحد ، وانما تعرضت للتغيير والتبديل بين فترة واخرى . فهي مرة واسعة وطويلة ، وبعد فترة تصبح ضيقة وقصيرة(١٧٦) .

وأخيرا فان المقريزي بنظرته الاجتماعية ، لم يرض عن كثير من الامراض الاجتماعية التي فشت في المجتمع في عصره ، فانتقدها حينا في هدوء واحيانا في قوة وعنف . ولم يتمالك هذا العالم الجليل نفسه ، فأظهر الاسف وعبر عن الأسى عندما وجد الناس « اظهروا المنكرات في الخمور ونحوها من المسكرات ، واختلاط النساء والرجال من غير استتار » ويوضح المقريزي أن هذه الامراض الاجتماعية لم تستحدث في زمنه ، وانما جذورها قديمة . ويستشهد على ذلك بما ذكره القاضي الفاضل في متجدداته سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى « من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور . . . . . وشرب الخمر مالم يسمع أو يعهد مثله »(١٧٧) .

ويبدو أن هذه الأمراض الاجتماعية ازداد فشوها في أواخر عصر سلاطين المماليك ، تمشيا مع المبدأ المعروف في التاريخ ، وهو أن الدول في خريف عمرها لا يقتصر الانحلال الذي يعتريها على الأجهزة السياسية والاقتصادية والادارية والحربية ، وانما يمتد ايضا على الجوانب المعنوية والاجتماعية والخلقية .

ومهما يكن من أمر ، فان المقريزي كان أمينا في تفنيد العيوب والامراض دون مجاملة او مبالغة ، شديدا في رفضه لها ، قاسيا في نقده لبعض الاوضاع التي لا تتفق وتعاليم الدين أو مبادىء الاخلاق . من ذلك أنه ساءه أن تعترف الدولة بالبغاء والبغايا وتفرض عليهن ضرائب مقررة ، مما أدى الى تفشي البغاء والزنا(١٧٨) واستنكر وقوف البغايا في الاسواق أمام المارة وعلى مرأى منهم (١٧٩) . ولم تقتصر هذه الظاهرة على القاهرة والمدن الكبرى ، بل فشت في مراكز الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات مريبة(١٨٠) وقد حاول بعض سلاطين المماليك محاصرة هذا الداء قبل أن يفشو ويزداد خطره ، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس قرارا بابطال المكوس المقررة على البغايا ، حتى لا تكتسب هذه الحرفة صفة اعتراف الحكومة بها ، كذلك منع البغاء في سائر البلاد ، وقبض على البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزاد

---

(١٧٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ حوادث سنة ٨٥٠ هـ (ص ٨٨٤)

(١٧٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٢١

(١٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٧ - ٣٨ (الأهلية)

(١٧٨) المقريزي ، كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(١٧٩) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٢

(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٠

في مهورهن عن اربعمائة درهم ، يعجل منها مائتان ، وذلك لتسيير زواجهن(١٨١) كذلك ذكر المقريزي انه كان من جملة الضرائب التي الغاها الناصر محمد عقب الروك الناصري ، ما كان يجمع من « الفواحش والمنكرات » والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة(١٨٢) .

ومن الامراض الاجتماعية التي أشار المقريزي الى فشوها في ذلك العصر الشذوذ الجنسي . وقد عبر المقريزي عن فشو هذا المرض بين طبقة المماليك بالذات ، فقال انه « فشى في أهل الدولة (يعني المماليك) محبة الذكران » ، حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال(١٨٣) . ولعل في هذا خير تعليل لما سبق أن أشرنا اليه من انتشار لبس الطواقي بين النساء ـ تشبها بالرجال ـ في ذلك العصر . كذلك ذكر المقريزي كيف أضرب الناصر أحمد ـ ابن الناصر محمد ـ عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ » حتى يأتوه بشاب كان يهواه . . فأتوه به ، فأكل عند ذلك(١٨٤) بل لقد ذكر المقريزي أن كتبغا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام(١٨٥) .

وانتقد المقريزي انتقادا مريرا تفشى المخدرات في أيامه ، فقال عن الحشيش « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا . وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام . وماشيء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، لاشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم »(١٨٦) ولم تمنع الدولة تعاطي الحشيش ، وانما فرضت عليه ضريبة كانت تمد خزائنها « بجملة كافية » واستمرت هذه الضريبة حتى ألغاها السلطان الظاهر بيبرس الذي « أبطل ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها »(١٨٧) وعلى أيام المقريزي شاع تعاطي الحشيشة بين الصوفية ـ وهم الذين عرفوا باسم الفقراء ـ حتى أطلق عليها المعاصرون اسم « حشيشة الفقراء »(١٨٨) .

أما الخمور ، فيذكر المقريزي أن تعاطيها انتشر بين سائر الناس ، فكانت تعصر وتباع في انحاء البلاد على رؤوس الاشهاد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود في سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين الف جرة(١٨٩) وقد عرف المماليك

---

(١٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٢ ص ١٥٠

(١٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٤٤

(١٨٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٨٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦١ ـ ٦٦٢ (سنة ٧٤٥ هـ)

(١٨٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٢٦ (بولاق)

(١٨٦) نفس المصدر السابق

(١٨٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ

(١٨٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٩

(١٨٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧

انواعا عديدة من الخمور ، منها نبيذ القمّز ويعمل من لبن الخيل(١٩٠) والمزر ويعمل من القمح (١٩١) والنبيذ التمر بغاوي وطريقة صنعه أن تمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أوبعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخيل أياما حتى يتخمر (١٩٢) ويلغ من انتشار الخمور في ذلك العصر أن أمراء المماليك اعتادوا أن يتهادوا بها في أفراحهم(١٩٣) . فاذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارىء ، وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معينا من الجرار ، تقدمها . واذا تقاعسوا ـ مثلما حدث سنة ٨١٦ هـ « جبيت منهم بعنف وعسف وضرب »(١٩٤) وفي كثير من الحفلات والافراح الشعبية اعتبرت الخمور متممة للمغاني(١٩٥) ويقول المقريزي أنه لاعبرة بالاوامر التي كان يصدرها سلاطين المماليك في أوقات الأزمات والشدائد باراقة الخمور طلبا لمغفرة الله وعفوه ، مثلما حدث في سنى ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ هـ ، لان هذه التوبة كانت لا تستمر الا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب الخمر « ولم ينتهوا عما هم فيه »(١٩٦) .

وهكذا اهتم المقريزى فى كتاباته بالتاريخ الاجتماعى مثل اهتمامه بالتاريخ الاقتصادى وبقية فروع التاريخ ، بحيث جاء انتاجه يعبر عن صورة تاريخية متكاملة ، لها أوجهها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية . . . . . وغيرها .

وبعد ، فاننا عندما نصف المقريزى بأنه شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر للميلاد ـ فانما نعنى فعلا أنه تزعم صنعة التاريخ فى ذلك العصر ، واجاد هذه الصنعة حتى بلغ الذروة فيها ، بعد أن ألم بأركانها ، واستوفى متطلباتها وادواتها وشروطها .

وعند ما أقدم المقريزى على ممارسة التدوين التاريخى ، فانه لم يكتب فيه كتابة سطحية أو عشوائية . وانما التزم بمنهج علمى ثابت يمثل أرقى ماوصلت اليه كتابة التاريخ فى عصره فلم يقتصر على سرد الاحداث مكتفيا بالنقل عن السابقين ، وانما تجاوز ذلك الى النقد والتحليل ، والبحث عن الاسباب وتتبع النتائج . كما انه لم يقف موقفا سلبيا أمام الظواهر والأحداث ، وانما حاول دائما أن يربط بين أطرافها ، ويعلل لها تعليلا سليما منطقيا .

---

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٠٧ (حاشية ٢ للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة)

(١٩١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٠٥ (الأهلية)

(١٩٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٤١

(١٩٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١

(١٩٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦

(١٩٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤

ثم ان المقريزى لم يتخذ الكتابة التاريخية أداة للتجريح والهدم ، مثلما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، وانما اتصف قلمه بالانضباط والعفة .

هذا الى أمانته فى نسبة الروايات التى ينقلها الى أصحابها ، وعنايته بتمحيص هذه الروايات للتفرقة بين الغث والسمين منها ، واستبعاد الضعيف والتمسك بالرواية القوية .

يضاف الى هذا جرأته فى الحق ، وعزوفه عن تملق الحكام والتمسح بركابهم ، وتوجيه النقد اليهم فى مواضع النقد .

وصفوة القول أن المؤرخ أحمد بن على المقريزى جمع بين قوة الحاسة التاريخية من ناحية ، وصدقها وانضباطها من ناحية أخرى ، هذا فضلا عن ادراكه للابعاد الحقيقية والأركان الرئيسية لعلم التاريخ ، مما جعل منه ظاهرة فريدة بين مؤرخى عصره ، وجعل من تراثه ومؤلفاته ثروة حقيقية تعتز بها المكتبة التاريخية العربية .

* * *

أبوبكر الرازي وبحوثه في العلم الطبيعي

جلال شوقي
عميد كلية الهندسة - جامعة قطر

يُعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازي أحد أعلام العرب لا سيما في العلوم الطبيّة حيث ألّف فيها أكثر من خمسين كتابا ومقالة ، ومن ثمّ يُعد الرازي - بغير منازع - أعظم أطباء الحضارة الاسلامية ، ومن أشهر كتبه في الطب كتاب « الجامع الكبير » أو كتاب « الحاوي » ، كذا كتاب « الكناش المنصوري » الذي ألّفه للأمير منصور بن اسحق* الساماني حاكم الري (٢٩٠ - ٢٩٦هـ) ، وهو أول من اهتم بالجانب النفسي في العلاج الطبي .

اشتغل الرازي بالعلوم الحِكْمية عموما ، وله كتب كثيرة في الآلهيات والمنطق وما بعد الطبيعة ، كذا في الكيمياء والطبيعيّات والرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها .

وقد سبق الرازي كلا من الشيخ الرئيس ابن سينا والعالم الجليل الحسن بن الهيثم في أن الابصار يحصل بورود شعاع من الجسم المُبصَر إلى العين ، وبذلك كان أول من نقض قول علماء الاغريق بخروج الشعاع من العين إلى الشيء المُبصَر ، كما أن الرازي قد اشتغل بقياس الثقل النوعي بقصد التمييز بين معدني الذهب والفضة .

كذلك بيّن الرازي أن الأرض ذات هيئة كرية ، وأنها أصغر من الشمس وأعظم من القمر ، ولكنه أخطأ في اعتباره أن الأرض تقع في وسط الفلك .

ولقد كان الرازي أحرص ما يكون على الدرس والتأليف ، وهو الذي يقول في مُصنّفه « كتاب السيرة الفلسفية » :

« وإنّه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل « الجامع الكبير » خمس عشرة سنة ،

(*) وفي رواية أخرى أنه عمله لمنصور بن أبي قرابة والي خراسان .

أعملُه الليلَ والنهار ، حتى ضعُف بصري ، وحدث لى فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هـذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حـالي لا أدعهما بمقـدار جهدي ، وأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لي » .

هذا هو شأن العالِم العربي الكبير الذي نعرض لـه بالدراسة ، ونحن نقصر بحثنا الحالي على جهد الرازي في مجـال الطبيعيّـات دون أن نلج في آرائـه الفلسفية الخاصة بِقِدَم أشياء خمسة هي الباريء والنفس والهيولي (أي المادة) والزمان والمكان ، وإنما نعرض هنا لأقوال الرازي وآرائه في ماهية الهيولي والزمان والمكان والخلاء والثقل والخفة من الوجهة العلمية .

ترجمته

وُلد الرازي في مدينة الريّ جنوبي طهران حوالي سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤) وبها نشأ ، وقدم إلى بغداد وعمره نيف وثلاثون سنة ، وأصبح رئيسا للمستشفى العضدي بها ، وكان من قبل رئيسا لمارستان الريّ وذلك قبل قدومه إلى بغداد .

وقد عُرِفَ الرازي في الغرب بـاسم "Rhases" وتُرجم كتابُه « الحاوي » في الطب إلى اللاتينية بعنوان : "Liber Continens" ، كما تُرجم لـه كتاب في الصحة العامة حيث ظهرت ترجمته اللاتينية بعنـوان : "Miscellanea" .

كرّس الرازي حيـاته لخدمة العلم ، فـلا غَرْوَ أن يخلّف وراءه عشـرات الكتب والمقـالات ، وكـان أن ضعف بصره في آخر عمـره ، وقد اختلفت الـروايات حول تاريخ وفاته ، فالمشهور أنه تـوفي في بغداد سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، إلاّ أن القفطي قد ذكر في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أنّ الرازي قد عاش حتى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وأنه اتصل بابن العميد ، بينما يذكر الصفدي في « نكت الهيمان » أن الرازي توفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م) .

شيوخه ومعاصروه

قرأ الرازي الحكمة على أبي زيد البَلْخيّ(١) الذي كان دائم التجوال والترحال في الأمصار الاسلامية وكان على دراية حسنة بالفلسفة وعلوم الأقدمين ، كما أن الرازي قد درس الطب على يد الـطبيب الفاضـل أبي الحسن علي بن رَبّن الطبري ، وهو من أهل طبرستان ، وكان الطبريُّ قد قَدِم الريّ حوالي سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) بعد استيلاء السامانيين على طبرستان ، وقد أصاب الرازي من علم الطبري وحكمته الشيء الكثير ، وكان الرازي مُعاصرا لأبي يعقـوب اسحق بن حنـين بن اسحق(٢) الذي كان من أشهر وأقدر نقلة علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، وكان الرازي على صلة بأبي الحسن علي بن عيسى الجرّاح(٣) أثناء إقامته في بغداد .

أقواله المأثورة :

وللرازي أقوال مأثورة كثيرة نقدم بعضا منها فيما يلي :

« مَنْ لم يُعْنَ بالأمور الطبيعية ، والعلوم الفلسفية ، والقوانين المنطقية ، وعَدَل إلى اللّذات الدنيائية ، فاتّهِمْهُ في علمه ، لا سيما في صناعة الطب » .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والاشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

---

(١) هو أبوزيد أحمد بن سهل البلخي ، عاش في الفترة من حوالي سنة ٨٥٠م حتى سنة ٩٣٤م . درس الفلسفة مع الكندي ، وهو من جغرافيي العرب .

(٢) شهد أيام الخلفاء المعتمد والمعتضد والمقتدر ، وتوفي ببغداد في أيام المقتدر ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) .

(٣) كان وزيرا للخليفة المقتدر سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) ، وكذا سنة ٣١٤هـ (٩٢٧م) .

« متى اجتمع جالينوس(٤) وأرسطوطاليس(٥) على معنى ، فذلك هو الصواب ، ومتى اختلفا صعُب على العقول إدراك صوابه جدا » .

« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعضَّدته التجربة ، فليكن إمامك ، وبالضدِّ » .

« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس وقراءة الكتب ، خُذِل » .

« الأطباء الأميّون والمُقلِّدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلَّت عنايته وكثرت شهواته : قتّالون » .

« ينبغي للطبيب أن يُوهم المريض أبدا الصحة ، ويُرجِّيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .

آثاره العلمية :

قدَّم أبوبكر الرازي الى العلم العربي إضافات جليلة ، ليس في مجال الطب فحسب وإنَّما في سائر فروع العلم والمعرفة ، وقد جاء أبوالريحان البيروني(٦) من بعده ، فاهتم اهتماما خاصا بحصر أعمال الرازي حيث كتب رسالة(٧) ضمَّنها أسماء ما ينوف على مائة وثمانين مُصنَّفًا من تصانيف الرازي ، ونبين فيما يلي إحصاء عاما بهذه المؤلفات :

الطب والأقرابازين	٥٦ تصنيفا
الطبيعيّات	٣٢ تصنيفا
الكيميائيات	٢١ تصنيفا
الرياضيات والنجوم	١١ تصنيفا
الآلهيات	١٦ تصنيفا
الفلسفة	١٦ تصنيفا
المنطق	٧ تصنيفا
ما بعد الطبيعة	٦ تصنيفا
تفاسير وتلاخيص واختصارات	٧ تصنيفا
فنون مختلفة	١٢ تصنيفا
المجموع	١٨٤ تصنيفا

ولنقرأ ما خطَّته يد الرازي في معرض دفاعه عن استحقاقه لتسمية « فيلسوف » ، وهو الذي أفنى عمره كله في تحصيل العلم والاشتغال به ، حيث يستشهد بسرد أسماء بعض تصانيفه فيقول في مؤلَّفِه « كتاب السيرة الفلسفية »(٨) :

أمّا في باب العلم فمِن قِبَلِ أنّا لو لم تكن عندنا منه إلاّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعا عن أن يُمحى عنّا اسم الفلسفة ، فضلا عن مثل كتابنا « في البرهان » و « في العلم الآلهي » و « في الطب الروحاني » .

وكتابنا « في المدخل إلى العلم الطبيعيّ » الموسوم « بسمع الكيان » ، ومقالتنا « في الزمان والمكان والمدّة والدهر والخلاء » .

---

(٤) طبيب إغريقي شهير عاش في الفترة من حوالي سنة ١٣١م حتى سنة ٢٠١م ، له مؤلفات هامة في الطب ، رجع اليها أطباء العرب .

(٥) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو ، عاش في الفترة من سنة ٣٨٤ق .م حتى سنة ٣٢٢ق .م .

(٦) هو العالم العربي أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الملقب ببرهان الحق وبالأستاذ عاش في الفترة من سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) حتى سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) .

(٧) كتب عنها المستشرق . روسكا في مجلة إيزيس ، سنة ١٩٢٣ ، ونشر الرسالة المستشرق بول كراوس في باريس سنة ١٩٣٦ ، وهي بعنوان « في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » .

(٨) « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ـ بالقاهرة ، سنة ١٩٣٩ ، الصفحات ١٠٨ ـ ١١٠ .

وَ« في شكل العالم » ،
و« سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ،
و« سبب تحرُّك الفلك في استدارة » ،
ومقالتنا « في التركيب » ،
و« أنَّ للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » ،
وكتبنا « في النفس » وكتبنا « في الهيولي » ،
وكتبنا في الطب كالكتاب « المنصوري » ،
وكتابنا « إلى من لا يحضره طبيب » ،
وكتابنا « في الأدوية الموجودة » ، والموسوم « بالطب الملوكي » ،

والكتاب الموسوم « بالجامع » الذي لم يسبقني إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحدٌ بعدُ احتذائي وحَذْوي ،
وكتبنا في صناعة الحكمة التي هي عند العامّ الكيميا .

وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عنيّ - إلى وقت عملي هذه المقالة - في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والآلهي .

فأماً الرياضيّات فإني مُقرٌ بأنيّ إنما لاحظتها ملاحظة بقدر ما لم يكن لي منها بدٌ ، ولم أفْنِ زماني في التمهُّر بها بالقصد منيّ ذلك ، لا للعجز عنه ، ومن شاء أوضحت له عذري في ذلك بأن الصواب في ذلك ما عملته لا ما يعمله المُفْنُون لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة .

فإن لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحقُّ أن أسمىَّ فيلسوفا ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا » .

ويمضي أبوبكر الرازي في « كتاب السيرة الفلسفية » ، فيقول في معرض بيانه وتدليله على مدى حُبِّه للعلم وانكبابه على تحصيله :

« فأماً محبَّتي للعلم ، وحرصي عليه ، واجتهادي فيه ، فمعلوم عند من صَحِبني وشاهَد ذلك منيّ أنيّ لم أزل منذ حداثتي والى وقتي هذا مُكِبّاً عليه حتى انيّ متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجل لم أَلْقَه لم ألتفت إلى شُغْل بتّة - ولو كان في ذلك عليَّ عظيم ضرر - دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل » .

وقد سبق أن أوردنا في صدر هذا البحث مبلغ اجتهاد الرازي الذي سبَّب له ضعفا في بصره وفَسْخا في عضل يده أودى به الى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب .

أعمال الرازي في الطبيعيّات

كتب الرازي مؤلفات كثيرة في الطبيعيات وما يرتبط بها من علوم ، ولقد اهتم اهتماما خاصا بالبحث في ماهية الهيولي (المادة) وكُنْه الزمان والمكان ، كما أنه اشتغل بتعيين الثقل النوعي للمواد بقصد التفرقة بين المعادن الثمينة والمعادن غير الثمينة ، كذلك كتب الرازي في كيفية الابصار ، وبحث في حركة الأفلاك ومساراتها ، وله أيضا كتاب في الحيل ، أي في الوسائل الميكانيكية النافعة ، ونشير فيما يلي الى بعض مؤلفات الرازي في هذا المجال :
كتاب « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » .
كتاب « المدخل التعليمي » .
كتاب « المدخل البرهاني » .
كتاب « الهيولي الكبير » أو « كتاب كبير في الهيولي » .
كتاب « الهيولي الصغير » ، ولعله هو « كتاب الهيولي المُطلقة والجزئية » الذي ذكره ابن النديم في فهرسه .
مقالة « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » .
« مَقالة « فيما جرى بينه وبين أبي القاسم الكعبي في الزمان » .

مقالة « في الفرق بين ابتداء المدة وابتداء الحركات » .

« مقالة « في أن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » .

كتاب « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ،

كتاب « في كيفية الابصار » .

كتاب « في الحيل » .

مقالة « في شكل العالم » ، أو كتاب « هيئة العالم » .

مقالة « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » .

مقالة « في سبب تحرُّك الفلك على استدارة » .

هذا ونعرض هنا بشيء من التفصيل لأراء الرازي في المادة والزمان والمكان ، وذلك بالرجوع الى كتابات البيروني ، والمرزوقي الاصفهاني ، وناصر خسرو ، وأبي حاتم الرازي ، عن مذهب أبي بكر الرازي فيها .

القدماء الخمسة

يذكر برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة »(٩) بعضا من آراء الرازي في العلم الالهي فيقول :

لبٌّ في ذكر المدّة والزمان بالاطلاق وخَلْق العالم وفنائه

قد حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدمة خمسة أشياء منها البارىء سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولي الأولى ، ثم المكان ثم الزمان المطلقان .

وبنى هو على ذلك مذهبه الذي تأصل عنه ، وفرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر ، والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر .

وذكر أن الخمسة في هذا الوجود الموجود اضطرارية ، فالمحسوس فيه هو الهيولي المتصورة بالتركيب ، وهي متمكن فلابد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان ، فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ، وبالزمان يعرف القدم والحدث والأقدم والأحدث ومعا فلابد منه .

وفي الموجود أحياء فلابد من النفس ، وفيهم عقلاء ، والصنعة على غاية الاتقان ، فلابد من البارىء الحكيم العالم المتقن المصلح بغاية ما أمكن ، الفائض قوة العقل للتخليص .

ويقول المرزوقى الاصفهاني(١٠) في « كتاب الأزمنة والأمكنة »(١١) :

« فنقول وبالله الحول والقوة ، من زعم أن الأزلي أكثر من واحد أربع فرق :

الأولى : الذين يقولون هما اثنان ، الفاعل والمادة فقط ، ويعني بالمادة الهيولي ،

الثانية : الذين يدعون أن الأزلي ثلاثة ، الفاعل والمادة والخلاء ،

الثالثة : الذين يدعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة ،

الرابعة : الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكرياء المتطبب ، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة ، فبلغ عدد الأزلي خمسة بهذيانه .

---

(٩) طبعة لندن ، سنة ١٩١٠م ، صفحة ١٦٣ .

(١٠) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصفهاني المتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) .

(١١) طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ، الجزء الأول ، الصفحتان ١٤٤ ، ١٤٥ .

وينكر المرزوقي الأصفهاني على أبي بكر الرازي ما ذهب إليه ، فينقده بقوله :

« أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة وما يعتقده من وجود العالم لحدوث العلة ، وما يدعيه من وجود الجوهرين الأزليين : أعني الخلاء والمدة ، لا فعل لها ولا انفعال ؟ فلولا خذلان الله إياه وإلا فماذا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل ؟

ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة ، ولم تحدث العلة من غير نقص ولا آفة ، ولم يذكر شيئا ليس فيه جدوى ولا ثمرة ؟

ويمضي المرزوقي الاصفهاني في نقده لأبي بكر الرازي في موضع آخر من كتابة « الأزمنة والأمكنة » حيث يقول(١٢) :

« وأعجب من هذا أن الباريء مخترع لجميع ما خلقه ، وأنه لا يُعجزه مطلوب ولا يضاده معلوم » .

ثم أقاموا معه في الأزل الهيولي وهو المادة ، ورتبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والنجارة .

والله تعالى يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » إلى قوله : « وذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية البيِّنة والحجة الواضحة .

يبين لنا من الكتابات المتضمنة للآراء المنسوبة الى الرازي في قدم وأزلية الهيولي والزمان والمكان ، أنه قد تعرض بسببها لنقد شديد من معاصريه وممن أتى بعده من الفلاسفة والمفكرين ، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالهذيان بل وحتى بالالحاد .

وليست قضية القدم والحدث بمعروضة في حد ذاتها على بساط البحث هنا ، وإنما هي آراء الرازي في ماهية هذه الأشياء الثلاثة التي نعرض لها بالدراسة ، ولنبدأ برأي الرازي في الهيولي .

الهيولي (المادة)

ثبت أن للرازي عدة مؤلفات في الهيولي ذكرها أصحاب التراجم ، بيد أنا لم نعثر حتى الآن على كتابات الرازي في هذا المجال اللهم إلا ما ورد عنها في كتاب « زاد المسافرين »(١٣) لناصر خسرو(١٤) باللغة الفارسية ، ونقدم فيما يلي منتخبات من ترجمته العربية(١٥) حيث يورد ناصر خسرو رأي الرازي في الهيولي :

« ليست الهيولي المطلقة سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث أن يكون لكل واحد (أي لكل واحد من تلك الأجزاء) عظم ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجمعها شيء له عظم .

وأيضا لا يجوز أن يكون لأي جزء (يقصد الجزء الذي لا يتجزأ) من عظم حتى يجوز أن يوجد عظم أصغر مما هو عليه ، وذلك أنه لوكان لجزء الهيولي جزء ، لكان الجزء نفسه جسما مركبا ، ولم تكن الهيولي مبسوطة(١٦) ، مع أن الهيولي التي هي مادة الجسم مبسوطة » .

---

(١٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٥٢ .

(١٣) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ، صفحة ٧٣ وما بعدها .

(١٤) هو أبو المعين ناصر بن خسرو المتوفى سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) .

(١٥) عن كتاب « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها .

(١٦) أي بسيطة .

وينسب الى الرازي قوله :

« إن تركيب الأجسام من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ ، وسينتهي تفرق تركيب أجسام العالم في آخر أمر العالم الى تلك الأجزاء بعينها ، وهذه هي الهيولي المطلقة » .

وقوله أيضا :

« إن ما صار من أجزاء الهيولي متجمعا جدا ، كان منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الهواء ، وما صار أكثر تفرقا من جوهر الهواء كان منه جوهر النار » .

ويستطرد ناصر خسرو في موضع آخر من كتابه « زاد المسافرين » ناسبا لأبي بكر الرازي قوله :

« إن كيفيات الأجسام من ثقل وخفة وظلمة ونور وغيرها ، إنما ترجع الى قلة أو كثرة الخلاء الذي امتزج بالهيولي ، فصار شيء ما خفيفا وآخر ثقيلا ، وشيء ما مضيئا وآخر مظلما ، لأن الكيفية عرض ، والعرض محمول على الجوهر ، والجوهر هو الهيولي .

وفي هذه الجملة التي عرفناها زبدة قول محمد بن زكرياء الرازي في الهيولي » .

« إن محمد بن زكرياء الرازي ادعى أن الهيولي قديمة ، وأنها أجزاء في غاية الصغر ودون أي تركيب ، وأن الباريء سبحانه ركب أجسام العالم من تلك الأجزاء في خمسة تراكيب، أعني الأرض والماء والهواء والنار والفلك .

ويقول إن ما كان من تلك الأجسام أكثر كثافة صار أكثر ظلمة ، وإن تركيب جميع الأجسام من (اختلاط) أجزاء الهيولي بأجزاء الخلاء يعني المكان المطلق ، وإن أجزاء الهيولي في تركيب الأرض أكثر منها في تركيب الماء ، وأما أجزاء الخلاء فهي في الأرض أقل ، وفي الماء أكثر ، ومن أجل هذا صار الماء أخف من الأرض ، وصار الماء مضيئا بينما كانت الأرض كثيفة مظلمة . . .

وأما التفاوت الذي يوجد بين هذه الأجسام من حيث الخفة والثقل والنور والظلمة ، فليس سببه سوى تفاوت أجزاء هذين الجوهرين في تركيبها . . .

كذلك وردت هذه المعاني في كتابات الرازي في « العلم الآلهي » .

مما تقدم يتضح لنا أن الرازي قد ذهب الى أن المادة تتكون من أجزاء غاية في الصغر ، وأن هذه الأجزاء لا تقبل التجزئة ، وأن تفرق تركيب أجسام العالم - في آخر أمر العالم - سينتهي إلى تلك الأجزاء التي أطلق عليها تسمية الهيولي المطلقة .

واذا ما قارنا هذه الفكرة بما يتوفر لدينا عن النظرية الذرية ، لوجدنا - على سبيل المثال - أن قطر ذرة الهيدروجين يقترب من واحد من عشرة ملايين جزء من الملليمتر ، وأن النموذج المعروف للذرة يتركب من نواة تضم عددا من البروتونات والنيوترونات ، تدور حولها - في مدارات ثابتة - مجموعة من الالكترونات ، وبينما تكون النواة موجبة التكهرب ، فان الالكترونات المحيطة بها سالبة الشحنة ، أما الذرة في مجموعها فهي متعادلة من الوجهة الكهربية ، وهناك قوى كهربية وميكانيكية تحفظ على الذرة نظامها الشبيه بنظام المجموعة الشمسية .

ومن المعروف أن انشطار النواة يؤدي الى اطلاق طاقة جبارة ، فإن ذرة اليورانيوم ٢٣٥ مثلا (وتضم ٩٢ بروتونا + ١٤٣ نيوترونا ومن هنا جاء الرقم ٢٣٥) إذا ما قذفت بنيوترون ، انشطرت النواة وتولد عن هذا الانشطار طاقة كبيرة ، وتتفاعل النيوترونات الناتجة من الانشطار بدورها مع ذرات اليورانيوم المجاورة لها مسببة سلسلة من الانشطارات النووية .

ولعل الرازي يقصد أنه « في آخر أمر العالم » فإن الأجسام ستؤول في النهاية الى تلك الأجزاء التي لا تقبل التجزئة ، والتي أسماها بالهيولي المطلقة .

الزمان

لأبي بكر الرازي آراء في الزمان والدهر وردت في مناظراته مع سميه أبي حاتم الرازي كذا فيما نقله عنه ناصرخسرو ، ففي المناظرات التي جرت بين الرازيين ، ترد فقرات تكشف عن رأي أبي بكر الرازي في ماهية الزمان والدهر(١٧) ، حيث تجري المناظرة بينهما على النحو التالي :

يقول أبو حاتم الرازي :

« وطالبته في مجلس آخر وقلت له : أخبرني ألست تزعم أن الخمسة قديمة لا قديم غيرها ؟

قال : نعم

قلت : فإنا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمرّ الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟

قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة لأن هذه كلها مقدرة على حركات الفلك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها ، والفلك وما فيه محدث ، وهذا قول أرسطاليس(١٨) في الزمان ، وقد يخالفه غيره ، وقالوا فيه أقاويل مختلفة .

وأنا أقول إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور ، فالمطلق هو المدة والدهر ، وهو القديم ، وهو متحرك غير لابث ، والمحصور هو الذي بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب .

وإذا ميزت هذا أو توهمت حركة الدهر ، فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد السرمد .

وإذا توهمت حركة الفلك ، فقد توهمت الزمان المحصور .

ويمتد النقاش حول تعريف الزمان المطلق ، وقدم الفلك والعالم إلى أن يبين أبوبكر الرازي موقفه من آراء فلاسفة الاغريق حيث يقول :

« ... وقد عرفتك أن أرسطاطاليس كان يعتقد ما تقوله أنت وقد خولف فيه ، وقول أفلاطون(١٩) لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزمان ، وهذا عندى أصوب الأقوال » .

وتمضي المناظرة بين الرازيين ، بيد أننا نكتفي هنا ببيان قول أبي بكر الرازي في الزمان .

ولقد وردت في مجموعة تحتوي على مقالتين للرازي(٢٠) فقرة صغيرة بعنوان « ما الفصل بين الدهر والزمان » نصها كما يلي :

« إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة ، والزمان هو عدد الأشياء الزمانية ، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط ، أعني الحياة والحركة ، فإن كل عاد إما أن يعد جزءا بعد جزء وإما أن يعد الكل معا ، فإن كان هذا على ذاك قلنا : إن الشيء الذي يعد الكل هو الدهر ، والشيء الذي يعد الأجزاء جزءا بعد جزء هو الزمان .

---

(١٧) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٢ ـ ١٤ . وكتاب « الأقوال الذهبية » لأحمد بن عبدالله الكرماني .

راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، صفحة ٢٩٥ وما يليها .

(١٨) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو أو أرستطاليس ، أثرى الحضارة الاغريقية بمؤلفاته القيمة ، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشائين » .

(١٩) هو الفيلسوف الاغريقي أفلاطون : Plato عاش في الفترة من حوالي سنة ٤٢٧ق .م . حتى سنة ٣٤٧ ق .م . وكان تلميذا لسقراط وأستاذا لأرسطو .

(٢٠) مجموعة مخطوط مكتبة راغب باشا باستانبول ـ رقم ١٤٦٣ ، ورقة ٨٩ظ ، وتشتمل على مقالتين لأبي بكر الرازي ، كذا على رسائل لأبي علي مسكويه ولأبي خير الحسن بن سوار وغيرها .

فقد استبان الآن وصح أن العدد اثنان فقط ، أحدهما يعد الأشياء الدائمة الروحانية وهو الدهر ، والآخر يعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان ، وهو الزمان ، وهو عدد حركات الفلك . » .

ولعل هذا القول للرازي أو لأحد المؤلفين الذين ضمت المجموعة بعضا من تصانيفهم .

ويقول ناصر خسرو في كتابه « زاد المسافرين »(٢١) ما ترجمته بالعربية(٢٢) :

« إن طائفة الحكماء الذين قالوا إن الهيولي والمكان قديمان قرروا أيضا أن الزمان جوهر ، وقالوا إن الزمان جوهر ممتد وقديم ، وردوا على قول الحكماء الذين قالوا إن الزمان عدد حركات الجسم ، وقالوا لو كان الزمان عدد حركات الجسم لما جاز أن يتحرك متحركان في زمان واحد بعددين متفاوتين .

وقال إيران شهري الحكيم إن الزمان والدهر والمدة ليست إلا أسماء يرجع معناها إلى جوهر واحد ، (وقال) إن الزمان دليل على علم الله ، كما أن المكان دليل على قدرة الله ، والحركة دليل على فعل الله ، والجسم دليل على قوة الله ، وإن كل واحد من تلك الأربعة غير متناه وقديم ، (وقال) إن الزمان جوهر متنقل بغير قرار ، وأما قول محمد بن زكرياء ـ الذي جاء بعد إيران شهري ـ فهو أنه قال إن الزمان جوهر يجري » .

من جملة ما ورد عن مذهب الرازي وآرائه يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الرازي قد فرق بين زمانين : زمان مطلق ، وزمان محصور ، ويرى الرازي أن « الزمان المطلق » هو الأبد السرمد ، أو هو المدة أو الدهر ، وهو قديم ممتد أزلي ، وأما ما أسماه « بالزمان المحصور » فإنه يقصد به الزمان النسبي الذي يقدر بحركة الأفلاك وجري الشمس والكواكب ، وما نحس به من تعاقب الليل والنهار ، وبه صار حساب اليوم والشهر والسنة ، كذا أجزاؤ ها وأضعافها .

المكان :

تتضمن مناظرات أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي تعريف المكان ، حيث يجري الحديث بينهما على النحو التالي(٢٣) :

« قلت(٢٤) : أخبرني عن المكان ، أهو محيط بالأقطار ، أم الأقطار محيطة به ؟

قال : بل الأقطار محيطة بالمكان .

قلت : كيف لا تعد الأقطار مع الخمسة التي زعمت أنها قديمة ، لأنه إن كان المكان قديما فقد أوجبت أن الأقطار قديمة معه !

قال : الأقطار هي المكان ، والمكان هو الأقطار ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما » .

ويستطرد أبوبكر الرازي في موضع آخر من هذه المناظرة قائلا :

---

(٢١) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ ، صفحة ١١٠ ـ ١١٣ .

(٢٢) عن كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٢٦٦ ـ ٢٧١

(٢٣) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٤ ـ ١٧ . راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٣٠٥ ـ ٣٠٧ .

(٢٤) هذا القول لأبي حاتم الرازي .

« فإني أقول في المكان أيضا إنه مكان مطلق ، ومكان مضاف .

والمكان المطلق مثاله مثال الوعاء الذي يجمع أجساما ، وإن رفعت الأجسام عن الوهم لم يرتفع الوعاء ، كما لو أنّا رفعنا الفلك عن الوهم لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوهم بل هو باق في الوهم ، كالدن الذي يفرغ من الشراب ، فارتفع الشراب عن الوهم ولم يرتفع الدن بتة .

والمكان المضاف إنما هو مضاف إلى المتمكّن ، فإذا لم يكن المتمكن لم يكن مكان ، وهذا مثل العرض الذي إذا رفعته عن الوهم ارتفع الجسم ، كما انك إذا رفعت الخط عن الوهم ارتفع السطح عن الوهم » .

وينهي أبوبكر الرازي حديثه حول المكان بقوله :

« . . . والذي أقوله أيضا في باب المكان هو قول أفلاطون ، والذي قد تشبثت به أنت هو قول أرسطاطاليس .

وأما أنا فقد وضعت في المكان والزمان كتابا ، فإن أردت الشفاء في هذا الباب فانظر في ذلك الكتاب » .

ولعل الرازي يشير هنا إلى مقالته « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » التي ورد ذكرها في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية » كما تقدم بيانه .

هيئة العالم وحركته :

تعرض الرازي بالدراسة للعالم الخارجي المحيط بكوكبنا الأرضي وألف في ذلك عدة مصنفات منها مقالته « في شكل العالم » أو كتابه « هيئة العالم » ، ومقالته « في سبب تحرك الفلك على استدارة » ، وفيها ينادي الرازي بكروية الأرض ، وبأن الأرض تفوق القمر في الحجم ، بينما هي تقل بكثير عن جرم الشمس ، ولقد كان الرازي من أنصار الرأي القائل بوقوع الأرض في مركز العالم ، كما يبين ذلك في مقالة له بعنوان « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ، وهو ولا شك اعتقاد خاطىء .

الثقل النوعي للمواد

اهتم الرازي بدراسة الثقل النوعي للمواد ، أي بتعيين ثقل حجم معين من المادة منسوبا إلى ثقل نفس الحجم من الماء ، ويرجع السبب في اشتغال الرازي بهذا الموضوع إلى رغبته في إيجاد وسيلة علمية يمكن بها التمييز بين معدني الذهب والفضة ، ومن ثم كان كتابه « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، ومن المعروف أن الثقل النوعي للذهب يفوق بكثير الثقل النوعي للفضة ، ومن هذا التباين يمكن التفرقة بين الذهب والفضة .

كيفية الابصار

لأبي بكر الرازي مصنف بعنوان « في كيفية الابصار » وهو كما يدل عليه عنوانه بحث في كيفية إدراك المبصرات ، ولقد كان الفكر السائد قبل الرازي ـ كما جاء في المصادر الاغريقية ـ أن الابصار يحدث نتيجة خروج شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي ، فجاء قول الرازي لينقض هذا الزعم ويقدم النظرية الصحيحة للابصار ، وتقوم على خروج الشعاع الضوئي من الجسم المبصر الى العين حيث يتم الادراك البصري ، وبذلك يكون لأبي بكر الرازي فضل السبق الى بيان كيفية الابصار .

خلاصة البحث

يعرض هذا البحث لأحد عمالقة العلم العربي ، هو الحكيم أبوبكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد ، وقد وهب الرازي حياته للعلم والمعرفة فتفانى في طلبهما أصدق تفان ، وخلف وراءه ما يقرب من مائتي رسالة ومقال في الطب والأقرابازين والطبيعيات والكيمياء والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من فروع المعرفة المختلفة .

وتقتصر دراستنا هذه على جهد الرازي في مجال الطبيعيات فحسب ، حيث نقدم دراسة مقتضبة لآراء الرازي في ماهية الهيولي والمكان والزمان ، وهي أمور كانت تحتل مكانا هاما في الفلسفة الطبيعية عند العرب ، ولقد أولى الرازي اهتمامه لموضوع الثقل النوعي للمعادن في محاولة علمية للتمييز بين معدني الذهب والفضة ، كذلك سبق الرازي الى بيان النظرية الصحيحة لكيفية الابصار حيث خالف قول الاغريق بتقريره أن الابصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم الى العين ، مسجلا بقوله هذا سبقا واضحا على كل من الشيخ الرئيس ابن سينا ورائد علم البصريات الحسن بن الهيثم .

ان ما تم كشف النقاب عنه من أعمال أبي بكر الرازي لا يعدو النذر اليسير ، وان المهتمين بالحضارة العربية ليتطلعون بشوق زائد الى مزيد من الدراسات الجادة للتراث العلمي العظيم الذي قدمه العالم الفيلسوف الطبيب أبوبكر الرازي لحضارة الانسان ، ذلك المخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه وعلمه ما لم يعلم .

***

مصادر البحث

(أ) المصادر العربية

(١) كتاب « الفهرست » لمحمد بن اسحق النديم (تم تأليفه عام ٩٨٨م) طبعة القاهرة : مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٩م .

(٢) كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لجمال الدين أبي الحسن القفطي ، طبعة القاهرة : مطبعة الخانجي ، سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) .

(٣) كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » طبعة بيروت : دار الفكر ، سنة ١٩٥٦م .

(٤) كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي جمعها وصححها المستشرق بول كراوس جامعة فؤاد الأول ـ كلية الآداب ـ المؤلف رقم ٢٢ . مطبعة بول باربيه ـ القاهرة ، الجزء الأول ، سنة ١٩٣٩م .

(٥) « رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء الرازي » لأبي الريحان البيروني . إعداد بول كراوس ، القاهرة/ باريس ، عام ١٩٣٦ .

(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة » لأبي الريحان البيروني (يعرف أيضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند) نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧م . ونشره مترجما الى الانجليزية في جزءين عام ١٨٨٨م . كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠م . طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧م . وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤م .

(٧) « شيخ الأطباء : أبوبكر محمد بن زكريا الرازي » في كتاب « الفلاسفة المسلمون » تأليف اسماعيل حقي الازميرلي . مطبعة الأوقاف الاسلامية باستانبول ، عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) .

(ب) المصادر الأجنبية

(1) P. kraus :
'Epitre de Beruni contenant le repertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariyya al Rasi,' paris, 1936.

(2) J. Rusha :
'Al — Biruni als Quelle fur das Leben und die Schriften al — Razis's" ISIS,5, (1923), 26 — 50.

(3) S. pines :
'Beitrage zur islamischen Atomenlehre,' Berlin, 1936.

* * *

الفيزياء والحيل عند العرب

محمد عيسى صالحيه

أستاذ مساعد ـ قسم التاريخ

جامعة الكويت

تباينت آراء العلماء العرب في تحديد أساس مفهوم العلوم الطبيعية ؛ فمنهم من نظر اليها نظرة فلسفية باعتبارها تحدد القانون الطبيعي بقضيته الفلسفية وجوهره ، فالفارابي مثلا يعرفها « بأنها العلوم التي تنظر في الأجسام الطبيعية ، وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام ، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها ، والتي بها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها⁽¹⁾ » . ويشتمل العلم الطبيعي عند الفارابي على ثمانية أجزاء ينقلها عن أرسطو وهي ، السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم ، وكتاب الكون والفساد والآثار العلوية ، والمعادن والنبات ، والحيوان والنفس .

أما ابن خلدون فيراه « علما يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية ، وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات »⁽²⁾ . وعرفه طاش كبرى زاده بأنه « علم يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها ، وموضوعه الجسم ، من حيث كونه متغيرا »⁽³⁾ .

كانت العلوم الطبيعية اليونانية مجرد نظريات تستند الى الأفكار الفلسفية وتقوم على منهج عقلي استنباطي ، لأنها اقتصرت على الحركة ، ومؤداها أن الأشياء تتحرك ، وعلى الانسان أن يتصدى لهذه الحركة . ولما أخذها العرب درسوها دراسة علمية تستند الى التجربة

---

(١) الفارابي : احصاء العلوم ، ٩١ ، حسين على محفوظ : مؤلفات الفارابي ، ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٤٩٢

(٣) طاش كبرى زادة : مفتاح دار السعادة ،

والملاحظة ، ومن ثم وضعوا لها القواعد والأصول الكثيرة ، وخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ، فجاءت النتائج والدراسات دقيقة وواضحة مبدعة بدرجة كبيرة ، حتى أنها لا تختلف في بعض المجالات عن النتائج العملية التي توصل اليها العلم الحديث(٤) .

ومن الجدير بالذكر أن السريان لم يؤلفوا في العلوم الطبيعية كتبا منفردة عدا الأسقف الرهاوي ، الذي صنف كتاب « علة كل العلل » في النصف الثاني من المائة العاشرة ، وعليه فان المراجع اليونانية التي نُقلت أو فسرت بالعربية ، كادت أن تكون المرجع الأساسي لتزويد العلماء العرب بأوليات العلم ، الذي توسع العرب فيه ، وأضافوا اليه فيما بعد ، وأوجدوا طرقا متعددة طبقت في أبحاث العلوم الطبيعية ، ومن تلك الكتب الطبيعية التي ترجمت مبكرا ، كتاب الفيزيكس لارسطاطاليس ، وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لايرن ، وكتاب الدواليب ، والآلات المصوتة على بعد ٦٠ ميلا لمورطس ، وخاصة كتابي الأرغن البوقي ، والأرغن التزمري ، وكتب قطيزينوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وكتاب الثقل والخفة لاقليدس ، وكتاب ساعات الماء التي ترمي بالبندق لأرشميدس(٥) .

ونتيجة لدراسة العرب لهذه الآثار ، استطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساسا لبحوث علم الطبيعة المنوعة بما طوروه وابتكروه من آلات منذ وقت مبكر فبدت ميادين علم الطبيعة ممثلة فيما يلي :

- علم الحيل أو الميكانيك ، وتشمل مراكز الثقل وتطبيقاتها ، وصناعة الأواني العجيبة بأنواعها المختلفة .
- دراسة الصوت .
- دراسة الضوء والبصريات .
- علم السوائل .
- دراسة الجاذبية الأرضية والمد والجزر .
- فيزياء الغازات والرياح .
- أبحاث المغناطيس والبوصلة والرقاص .
- الآلات الحربية (كالمنجنيق والبارود) .

وأهم بحوثهم النظرية في الفيزياء كانت :

- البحوث في القوى .
- البحوث في الحركة .

وكان من أهم بحوثهم العملية المتميزة :

- اقامة الساعات لحساب الزمن .

وقبل أن نبحث انجازات العرب المسلمين في هذه الميادين ، فاننا نسجل بأن العرب قد أعطوا العلوم الطبيعية (الفيزياء والحيل) المنهج الصحيح في البحث العلمي ، بأن خلصوها من الشوائب التي ما فتئت تكدرها ، وذلك بطرح أساطيرها واعتماد منهج موضوعي في فك مغاليقها ، اذ نفوا الخرافات وحاربوها ، فقد تصدى ابن حزم مثلا للزعم القائل أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وأثبت أنها دعوى بلا برهان(٦) ، ورفض العلماء العرب الادعاء بأن أنهار النيل وجيحون والفرات تخرج من الجنة ، وتسقي جميع المعمورة وردوها الى أهلها وغيرها من الخرافات ، ورافق ذلك سعة اطلاع غدا دستورا علميا صحيحا ،

---

(٤) كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ٢١٦ ، مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٢٢

(٥) ابن النديم : الفهرست ، ٢٤٧ ـ ٢٥٩ ، القلقشندي : صبح الاعشي ، ٢/ ٧٦، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٥

(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ٥/ ٣٦ ، محمد بن يوسف العامري : الأمد على الأبد ، ، ٦٨ ، ١١٩ ـ ١٢١

وصاحبه بحث وتنقيب ميداني من خلال الرحلات التي كانت ضرورة من ضروريات العلم عند العرب ، فكانوا يسافرون للقاء أهل العلم والمعرفة والأخذ عنهم علما وتعليما والقاء ومحاكاة وتلقينا(٧) . كما جعل علماء العرب التجربة منهاجا مهما في دراستهم الفيزيائية ولعل مطالعة قصة حي بن يقظان ، وآراء ابن طفيل في الموازنة بين النبات والحيوان والمقارنة بينهما في الخلق ، تؤكد جدية العرب في التجربة والمراقبة العملية الميدانية(٨) .

وحتى نلم باطار الصورة ، أرى أن نعرض لانجازات العرب ببعض الميادين التي أشرنا اليها سابقا .

علم الحيل (الميكانيك)

أطلق اليونانيون على العلم المخصص للأجهزة الميكانيكية اصطلاح « نيوماتيك » ، وعربه العلماء العرب باسم « علم الآلات الروحانية وعمل الحيل » وعرفوه « بأنه علم الآلات الروحانية ، المبنية على ضرورة عدم الاخلاء ، كقدح العدل وقدح الجور ، وغيرها من آلات الشراب ، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات » ويبدو جليا ، أن أكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل المبنية على المبادىء الميكانيكية المنسوبة لهيرون الاسكندري وغيره من علماء اليونان(٩) .

ومن المؤكد أن العرب قد أطلوا على هذا العلم منقولا عن اليونانيين وزادوا عليه وطوروه ، ويبرز أبناء موسى بن شاكر (محمد ، أحمد ، الحسن) . كأشهر من كتبوا في هذا الفن(١٠) ، وعلى الأخص ، أحمد بن موسى ، الذي نبغ كعقلية خلاقة مبدعة ، بابتكاراته العديدة التي وصفها بأنها « أوضاع غريبة وأشياء عجيبة في جر الأثقال ، وكلها عملت بالطليات والبكر »(١١) ، فقد اخترع أجهزة تمتلىء تلقائيا كلما فرغت من السوائل ، كدنان الخمر التي تفرغ كمية محدودة من ذاتها تعقبها استراحة محدودة ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل ، ويصب الزيت فيها تلقائيا كلما أتت النار على جزء منها(١٢) ، واخترع أيضا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة ، مثل المعالف المخصصة لحيوانات ذات أحجام خاصة ، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها ، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب ، وآلة أخرى تثبت في الحقول وتصدر أصواتا خاصة ، كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ، لئلا تضيع كميات الماء هدرا ، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات ، وركب نافورات خاصة تندفع مياهها على أشكال مختلفة وصور متباينة(١٣) .

ان الاطلاع على الكتاب الموسوم « بحيل بني موسى » حيث جمعت اختراعات أحمد بن موسى بين التطور الميكانيكي لابداعه(١٤) ، يعطي صورة واضحة

---

(٧) فروخ : عبقرية العرب ٨٨٢

(٨) نفس المرجع السابق ، ٩٦

(٩) الشمس : مقدمة لعلماء الفيزياء في الحضارة العربية الاسلامية ، ٢٣٣ ، وجام الجور : اناء يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيتوهم الشارب انه استوفى ماليه ، أما جام العدل فاذا صب منه فوق المقدار فرغ كل مافيه

(١٠) زيدان : تاريخ ذّاب اللغة العربية ، ٣/ ٢٨٦

(١١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ٥/ ٨٥

(١٢) Donald,R. Hill : the Genius of Arab civilization. P.137.

(١٣) مرحبا : المرجع ، ٣٥٣

(١٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

لتقدم علم الميكانيك عند العرب . وعلى أي حال ، فيمكن أن نقسم المؤلفات العربية في الحيل الى قسمين :

الأول : يبحث في مراكز الأثقال وجر الأجسام بالقوة اليسيرة .

والثاني : يبحث في آلات الحركات ، وصنعة الأواني العجيبة ، وآلات هذه الصناعة .

أما مركز الثقل عندهم « فهو العلم الذي يتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحور باعتباره حدا في الجسم ، يتعادل نسبيا مع الحامل » ، وممن ألف فيه أبو سهل الكوهي ، ونظريته مثبتة رياضيا(١٥) . وقد أدى بهم التعمق في دراسة مركز الثقل الى الاهتمام بالموازين درسا وصنعا وتأليفا ، اذ يعتبرون العمل بالميزان من عجائب النسبة . وكان أن وضع ثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م أبحاثا في صفة استواء الميزان والوزن واختلافه وشرائطه ، ففي كتابه (القرسطون ـ القبان) . أتى بنظرية ، تعتبر من أهم نظريات العصور الوسطى ، وملخصها « ان الرافع يمكث في حالة الاتزان ، اذا وضعنا على أحد ذراعيه عمودا ثقيلا ممتدا على أحد ذراعي العمود ، ثم استبدلنا هذا العمود بثقل ، وزنه مساو لثقل العمود ووضعناه على نصف المسافة التي كان العمود ممتدا عليها وهذه النظرية تقترب من حساب التفاضل والتكامل في عصرنا .

اهتم العرب بدراسة الموازين ، فاخترعوا أدقها ، واستعملوا لموازينهم أوزانا منوعة دقيقة ، وكان الفرق بينها لا يصل الى ٠,٠٠٤ ، وهذه النسبة الدقيقة لا يمكن الوصول اليها الا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة في صناديق من زجاج ، لا تؤثر فيها تموجات الهواء .

ومن الذين ألفوا في الميزان بالاضافة الى أبناء موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، برز أبوسهل الكوهي ، والفارابي ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا والحسن بن الهيثم ، وابن جامع والجلدكي . ويعتبر كتاب عبدالرحمن بن نصر المصري ، أحسن ما وضع في العصر الأيوبي ، فقد أعده للمحتسب لمراقبة الأسواق أيام صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر أن كتاب « الميزان الطبيعي » الذي صنفه الرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، يحظى بمنزلة مرموقة في تقديرنا ؛ فهو أول كتاب استقل في نهجه عن أبحاث اليونان في علم الميزان ، فقد خالف في صنعته وعمله قرسطون أرشميدس ، فهو يستعمله والكفتان خارجتان عن الماء ، وكلتاهما مملوءتان مترعتان ، ونقصان الماء من كل كفة منها بقدر مساحة الجرم الذي فيهما بينما أرشميدس يستعمل الكفتين وكلتاهما في الماء غائصتان ، وهو ذو شعيرات(١٦) . وقد جعل الرازي فصوله الثلاث تشتمل على :

- في العمل بالميزان .
- بيان الميزان الطبيعي .
- وضع شعيرات النسبة عليه(١٧) .

---

(١٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ١/ ٤٧٦

(١٦) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩٠

(١٧) الخازني : ميزان الحكمة ، ٨٣

أما كتاب « ميزان الحكمة » الذي وضعه عبدالرحمن الخازني ، فهو من الكتب المعتبرة في علم الطبيعة ، بل وأهم ما ألف في (mecanique) علم الميكانيكا والحيل وموازنة السوائل ، اذ يشتمل على نظرية الثقل والكثافة ونظرية الروافع ، وتطبيقات للميزان ، وطرق لقياس الزمن ، ويضاف الى ذلك ، أنه من أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا . ومن دراستنا لكتاب ميزان الحكمة ، نرجح أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لحساب الوزن النوعي ، وأخرى لقياس حرارة السوائل(١٨) بل أنه ضمن كتابه مصورا لآلة مركبة من عدة أعضاء ، وبها خمس كفات توزن بها الأشياء في الهواء والرطوبات ، وتتحرك على ذراع واحد(١٩) .

ومن ناحية ثانية ، فقد كان للعرب بحوث نفيسة في الروافع ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، ومع أن فضل اليونان لا ينكر في هذا المجال ، وخاصة ايرن الا أن العرب ابتدعوا روافع سهلة العمل ، قليلة التعقيد ، وكتاب « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » للجزري ضم صورا عدة لتلك الروافع وشرح طريقة عملها . وتفوق على ما سواه ، وليس معنى ذلك أنه الكتاب الوحيد في هذا المجال ، فقد صمم أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥١٢/ ١١٣٤هـ آلات بأشكال هندسية ، واستعملها لرفع الأثقال(٢٠) وهناك آلات بسيطة جعلت لجر الأجسام بالقوة اليسيرة ، شرحها الخوارزمي في كتابه ، مفاتيح العلوم ، ومنها البرطيس والمخل والبيرم وأبوخليون والثقل واسقاطولي والأسفين واللولب وغالاغرا (معصرة للزياتين) . كلها تعتمد على نقط الارتكاز والمحاور بعد الضغط عليها من الطرف الآخر(٢١) .

في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة :

ونعني بها الآلات والأواني التي ابتكرها العلماء العرب للمنفعة العامة كتدبير المنزل أو آلات الحرب والري والآلات الفلكية والساعات أو للتسلية كالدمى التي تتحرك وحدها أو التي تكشف حيل المشعوذين ، وتقوم هذه الآلات على الحركات الميكانيكية الناتجة من ذات الآلة ومن الماء أو من الرمل ، وكنا قد أشرنا الى تفوق بني موسى ، وخاصة أحمد في هذا المجال ، ونوهنا بأهمية آلاته التي جاوزت المائة ، وعظيم فائدتها في دفع العلم الميكانيكي .

وبالاضافة الى كتاب حيل بني موسى ، فان هناك مجموعة من المؤلفات عُنيت بوصف الآلات الميكانيكية ، وأعطت رسوما توضيحية ، تبين طريقة صنعها وكيفية عملها ولعل من أهمها كتاب « الحيل أو الجامع بين العلم والعمل » لأبي العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م . وقد أولى فيه بديع الزمان الجزري اهتماما خاصا بالمسائل العملية لعلم الهيدروليكا والآلات المتحركة بذاتها(٢٢) ، وقد ألفه للملك الصالح محمد بن قرا أرسلان من آل أرتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن ٦هـ بعد عمله في بلاط بني أرتق قرابة ٢٥ سنة ، وحوى الكتاب صورا للبنكام الذي يعرف به ما مضى من ساعات النهار ،

---

(١٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥

(١٩) ماجد الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١ - ٤٢

(٢٠) مجلة تاريخ العلوم العربية ، حلب ، السنة الاولى ، العدد الاول ، ١٩٧٧ ص ٥٦

(٢١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢

(٢٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥ ، مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ع١ ص ٥٦

وصورا لآلات رفع الماء ، وآلات سرية تظهر حركات مدهشة ، كرجل يدق ساعة أو رجل يمشي أو يتحرك ، ورسوما ايضاحية لتركيب الدمى وحركاتها وأشكالها كما أن الكتاب يعد مرجعا هاما لدراسة الساعات عند العرب ، وطرق صنعها وعملها(٢٣) .

ووضع عبدالرحمن الخازني ت ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، كتابا في الآلات العجيبة تعرض فيه لعمل آلات الرصد ، وعرف فيه أيضا علم الهيئة ، وكانت تلك الدراسات هي التي مهدت لاختراع البارومتر .

وكان البيروني ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م قد ذكر في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بعضا من الآلات ، ووصف طريقة عملها ، وخاصة آلات رفع المياه الجوفية من الآبار والعيون ، ومن المعلوم أن للبيروني دراسات مهمة في السوائل والمطر والسحاب والضباب والثقل النوعي ، وتشكل المياه في باطن الأرض وغيرها .

وصنف مجهول لعله أبوعامر (أحمد الأندلسي) ، كتاب « الباهر في عجائب الحيل » ويعرف أيضا « بكتاب الباهر في النارنجات » ، وصف فيه أنواعا من الدمى تتحرك بما يشبه أعمال الحواة ، قصد به الكشف عن حيل بعض المشعوذين ، كادخال البيضة في الزجاجة ، وألعاب الأقداح واخفاء الخواتيم وغيرها(٢٤) .

وعقد الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » فصولا لصناعة الحيل ، وأفرد فصلا خاصا سماه « في حيل الماء وصنعة الأواني العجيبة »(٢٥) ، هذا بالاضافة الى المؤلفات التي بحثت في الساعات وعملها ، وآلات الحرب التي ترمي البندق وغيرها . أما تقي الدين الراصد ت ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م ، فقد كان كتابه « الطرق السنية في الآلات الروحانية » اجمالا لهذه الآلات وأشكالها وأنواعها(٢٦) .

وأخيرا فقد نشر المستشرق الفرنسي كارا دي فو كتابا عربيا في الميكانيكيات « الحيل الروحانية مخانيقا الماء » ويعتقد أنه لفيلون(٢٧) ، وهو مفقود باليونانية الا أنه محفوظ بنصه العربي ، كما أن قسما صغيرا منه موجود باللاتينية نقلا عن النص العربي ، وقام Valentin Rose بنشر النص اللاتيني في Anecdota graeca et graecolatina الصفحات ٢٨١ ـ ٣١٤م ، برلين ١٨٧٠م . ثم أعاد Wilhelm Schmidt طبعه De ingenis Spiritualibus وباللاتينية والألمانية ، وبارون كارا دوفو باللغة العربية والفرنسية .

Le Livre des appareils pneumatiques et des machines hydrauliques, Notices et extraits de MSS de la Bib-, liotheque Nationale, 38,211,pp,paris, 1092.

ومن هذه الآلات التي ابتدعها العلماء العرب ما يلي :

ـ آلات بني موسى للتدبير المنزلي ، مثل المعالف والمشارب وخزانات الحمامات ، ودنان الخمر التي

---

(٢٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣/ ٢٧٤

(٢٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢٥) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣ ـ١٤٥

(٢٦) توجد نسخة من المخطوطة في جستربيتي تحت رقم ٥٢٩٢ اشار اليها حسن الحسن في كتابه عن تقي الدين الراصد

(٢٧) مجلة المشرق ، السنة السابعة ص ٢٦٥

تسكب القليل ثم تنقطع فترة ، والقناديل التي ترتفع فتايلها وزيتها تلقائيا ، وآلات مرصد سامراء ، ذات الشكل الدائري ، والتي تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات ، وتدار بقوة مائية(٢٨) ، واذ كلما غاب نجم من السماء ، اختفت صورته من الآلة ، وهذا يتطلب معرفة دقيقة في علم الفلك ، ومهارة فائقة في علم الميكانيكيا تتميز بالخيال الخصب والأفكار العلمية التي تبرز منها الدقة والتعمق والموضوعية العلمية(٢٩) .

ومن الجدير بالذكر ، أن ابتكار الأدوات الفلكية ، كان فنا متقدما عند علماء الفلك العرب ، وقد أدت آلاتهم الفلكية الغرض المرجو منها ، مما أوجب الاستمرار في استعمال بعضها حتى في عصرنا الحديث ، كآلة السدس والربع والاسطرلاب وغيرها .

ـ آلات رفع الماء : الروافع والنواعير

ومن هذه الروافع ، آلات ترفع من غمرة وبئر ليست بعميقة ونهر جار ، وآلات ترفع من ماء من غمرة الى مكان مرتفع بدابة تدير سهما ، وروافع للماء من غمرة أو بئر تديرها دابة ، وآلات أخرى في بركة ، وسطها عمود مجوف ، عليه قرص ، يعلوه تمثال بقرة تدير دولابا بأربعة وغيرها من الآلات ، ومن أشهرها مضخة ابن الرزاز الجزري ، والتي تعد الجد الأقرب للآلة البخارية(٣٠) .

وعلى الأنهار ركبوا النواعير ، وقد عرف بها قيصر بن أبي القاسم عبدالغني بن مسافر (علم الدين الحنفي) ٥٦٤هـ ـ ٦٤٩هـ/ ١١٦٨ ـ ١٢٥١م . حيث ارتبط اسمه « بفن السواقي » وكان علم الدين الحنفي قد خدم أمير حماة ، وأنشأ له النواعير على نهر العاصي(٣١) .

وامتدت ابتكاراتهم الى صنع الأواني العجيبة ، أي الأوعية الصغيرة التي تدخل في الأعمال المخبرية ، كالأنابيب الزجاجية والبواتق والدوارق ، وأدوات الرفع البسيط وغيرها . فالرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، مثلا يصف ما يزيد على عشرين جهازا ، منها الزجاجي ، ومنها المعدني(٣٢) .

ومن ناحية ثانية ، فقد وصف الخوارزمي ، صنعة الأواني العجيبة التي تتحرك بحيل الماء ، كالاجانة التي توضع فوق الماء ، وتعلق بها خيوط ، كما تعلق بكفة الميزان ، وتشد بتلك الخيوط الأجسام التي يراد حركتها ، فكلما امتلأت الاجانة ، رسبت في الماء ، وجرت الخيوط ، وما يتعلق بها ، فيحدث لذلك حركة تختلف أشكالها بالمراد منها(٣٣) . ومن هذه الأدوات والأواني التي وصفها الخوارزمي تذكر ، الأواني السحارة ، والسحارة المخنوقة التي تعمل في جام العدل ، والكوز المغربل السفل ، والبيثون ، والمليار أو الमينار ، (اناء كبير يسخن فيه الماء) وسرن الرحى ، وبركار السرن ، والقطارات ، الحنانات (آلات تعمل فتحن مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره

---

(٢٨) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من العلماء ، ٥/ ٢٤٠

(٢٩)حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩١

(٣٠) مجلة تاريخ العلوم ، حلب ، العدد الأول ، ٥٦

(٣١) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٦ ، حكمت نجيب : دراسات ، ٢٩١ ، ولقد وردت نماذج لوسائل الري التي استخدمت في السادس ـ٨هـ في كتاب The Genius of AraB CIVILIZATION PP.181.184. ومنها مقياس النيل عند الروضة

(٣٢) ماجد الشمس : مقدمة العلم ، ٤١

(٣٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣

والنضاحات والفوارات ، والمقاط القلس والشاقول)(٣٤) .

وهناك نوع من هذه الأواني تكون على هيئة الأنابيب والبرابخ ـ أنابيب الفخار والقنوات ـ ومنها ، المي دزد (سارق الشراب) ، وهو اناء يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيوهم الشارب أنه استوفى ما فيه ويسمى جام الجود وضده جام العدل ، لأنه اذا زيد فيه شيء يفوق المقدار ، انصب ما فيه كله(٣٥) ، وكذلك المهندم ، وباب مطحون وباب المدفع (المستق) وآلة الدبة ، وهي آلة من نحاس أو غيره مجوفة ولا متنفس بها البتة ، وتوضع في سطل أو نحوه ، ثم يصب في السطل ماء صبا رقيقا ، فكلما ازداد الماء ، طفت تلك الآلة ، ورفعت ما يتعلق بها من الأجسام فيحدث لذلك حركات(٣٦) ..

واستفاد بعض العلماء العرب من الرمل والخردل والجاورس في صنع آلات بحيل بدل الماء ، وتقوم على أنابيب بربخية ، فوقها قطع من الرصاص المشدود بخيط معلق عليه ما يحتاج الى تحريكه ، ويتلخص عمله بأنه كلما تناقص الرمل أو الجاورس تحرك الرصاص الى الأسفل وحرك الخيط وما هو متصل به ومن جهة أخرى ، فقد نشأ علم خاص يسمى « علم الآلات الحربية » وهو علم « يعرف منه كيفية اتخاذ الآلات الحربية ، مثل المنجنيقات والعرادات والخنزيرات والسهام والأسطام وشمل أيضا ، رمي القوس والبندق»(٣٧) وعد من فروع علم الهندسة . وقد نجحت العديد من المكتبات العربية والأجنبية باقتناء العديد من المؤلفات التي تشرح كيفية صنع المجانيق والأقواس والبندق وما اليها ، وكان كتاب « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاستواء » ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء « لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوي ت ٥٨٩هـ » ، نشره كلود كاهن بيروت ، ١٩٤٨ ، من أهم كتب الحروب ، فقد وصف فيه طرق صنع السيوف ، والأقواس والرماح والتراس والدروع والجواشن واللتت والأعمدة والدبابيس والمنجنيقات العربية والفارسية والرومية (الفرنجية) . وطرق صنع الدبابات والأبراج والستائر والمثلثات والنفوط وخاصة النفط الذي يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

ان صنع الساعات والعمل بها ، كان من أهم ما عرفه العرب في علم الميكانيكا ونظرا لأهميته ، فأرى أن نفرد لها مكانا في هذا البحث .

الساعات العربية :

يعتقد بعض العلماء أن الاشارة التي وردت في سفر اشعيا « بان الظل رجع على درج آحاز عشر درجات » انما قصد بها الساعة الشمسية المعروفة بالمزولة والتي تقوم فكرتها على تقدير الوقت بحسب اتجاه الظل ، فينُصب جسم مواز لمحور الأرض على سطح مستو ، قد رسمت عليه الزوايا المطابقة للساعات ، واذ يقع ظل الجسم عليها ، يحدد الوقت بموجبه(٣٨) .

---

(٣٤) لتوضيح عمل هذه الآلات انظر المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣٦) المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٢٥

(٣٨) مجلة المقتطف ، المجلد ٧٠/ ١٥٩ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢٤٣ ، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٤٦

ونحن وان كنا لا نميل لمعالجة تطور صناعة الساعات والعمل بها عند الأمم الأخرى ، كالكلدان واليونان لخروجه عن مظان بحثنا ، غير أن حساب الزمن وفق النظام السومري - البابلي لا يزال قائما ، ثم ان الكتاب التاسع لفترفيوس قد عني بالمزاول أو الساعات المائية ، ولم يُعثر على نص يوناني لكتاب فيلون « في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » الا بالعربية ، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديده من جهة ، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى(٣٩) .

وفي رأينا ، أن ذاك التطور الذي وصل اليه عرب الأنباط والحضر وتدمر والحيرة ، لا يمكن أن يتم دون الالتفات لعنصر الزمن ، اذ لا يعقل أنهم بلغوا مستوى حضاريا متقدما بلا معرفة متقدمة عن الساعات وتقسيم الزمن ، سيما وأنهم اهتموا بالأرصاد الفلكية ، هذا بالأضافة الى أن عبادة الأجرام السماوية كانت جزءا من عبادة الصائبة . وما يهمنا هو التأكيد على اهتمام عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية ، فالزراعة فرضت عليهم الالتفات الى تقلبات الجو ، كما أن الأعياد وأمور العبادة ، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتمادا على الفلك والنجوم والأنواء ، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة ، مكن عرب الجاهلية من تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين ، باسم خاص ، فساعات النهار هي الذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصبوب ، والحدود والغروب ، وساعات الليل هي ، الشاهد والغسق والعتمة والفحمة والموهن والقطع والجوشن والعبكة والتباشير والفجر الأول والمعترض والأسفار(٤٠) ومع أن هناك أسماء أخرى فرضتها اختلاف البيئات القبلية وأسباب موضوعية أخرى ، الا أنها لا تخرج في معناها عن المشار اليها ، وأطلق عرب الجاهلية على من يعمل بالساعات هذه من غير رجال المعابد ، اسم « المساوعة »(٤١) ، وهذه دلالة أخرى على اهتمامهم بالوقت وتحديده .

وفي صدر الاسلام ، كان تحديد مواقيت الصلاة يتم بحركة الشمس اليومية اليوم يبدأ عندهم بصلاة المغرب ، وذلك بعد غروب الشمس ، والعشاء عند اختفاء الشفق الأعلى ، والفجر تبدأ بظهور الفجر ، أما الظهر ، فعندما تبدأ الشمس في انخفاضها بعد عبورها خط الزوال ، وصلاة العصر ، تحل عندما يساوي طول ظل أي قائم ظله عند الظهر ، مضافا اليه طول القائم ، وكانت معرفة الوقت من الأمور التي يتوجب على كل مسلم معرفتها ، حتى أن شاعرهم يقول :

ولا خير ، فيمن كان بالوقت جاهلا
ولم يك ذا علم بما يتعبد(٤٢)

وقد أجمل أحدهم ضبط الوقت بهذه الأبيات ، ولعلها لابن يونس المصري

ومعرفة الأوقات فرض معين
على عقلاء المسلمين مؤكد
أتى ذاك في القرآن ياصاح مجملا
وفسره خير البرية أحمد

---

(٣٩) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨/ ٤٦٩ ، ابن سيده : المخصص ، ٩/ ٤٤

(٤٠) ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ، مقالة ، علم الميقات لداليدكنج ، ٣٩١

(٤١) نفس المرجع السابق ، ٣٩٢

(٤٢) الشمس : مقدمة ، ٣٦ ، ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء ، ٤٨٣

فمهما رأيت الظل قد زاد فيئه
فصل صلاة الظهر اذ ذاك يرصد
وزد قامة ظل الزوال فانه
أوان لوقت العصر محدد
وعند غروب الشمس قم صل مغربا
فليس لها وقت سوى ذاك مفرد
وصل العشاء وأنت للجو ناظر
اذا الشفق الأعلى يغيب ويفقد(٤٣)

ومما يجدر ذكره أن العرب قد أقاموا الساعات في المساجد والمدارس ومعاهد العلم ، وعينوا لها المهندسين للاشراف عليها والعناية بها ، وكان من مهام المؤذن أن يكون خبيرا بتحديد أوقات الصلاة ، وألفوا في الميقات والموقتين والساعاتيين بالجوامع والمدارس ، واتخذت مؤلفاتهم أشكالا عدة ، فمنها :

مؤلفات في الساعة الشمسية « أو المزولة » :

كانت الساعة الشمسية ، النقالة ، أكثر اختراعاتهم أصالة وفنا ، وهي المسماه « ساعة الرحلة » ، لا سيما بعد أن أصبحت دائرية الشكل ، وجعلوا بوسطها محورا لتحديد موضع الشمس والوقت ، ومن الساعات الشمسية العربية ما عرف « بالرخامة » وهذا النوع من الساعات كثرت المؤلفات العربية فيه ، فثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م ، وضع كتابا في آلات الساعات التي تسمى رخامات(٤٤) وللخوارزمي ٢٣٢هـ ، كتاب « الرخامة »(٤٥) ، ولحبش بن عبدالله المروزي ت ٢٢٠هـ كتاب الرخائم ، ولمحمد بن كثير الفرغاني كان « حيا سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م » « عمل الرخامات »(٤٦) ، وألف أبوعبدالله الشلوي ، كتابا « في الرخامة المنحرفة وكتابا آخر في الرخامة المستطيلة »(٤٧) . ولابراهيم بن محمد بن حبيب البغدادي ت ١٨٨هـ كتاب « مقياس » ويذكر أنه لا تزال هناك ساعتان شمسيتان ، الأولى في متحف طوب قابي في اسطنبول على شكل ربع كرة ، قسم تجويفها الى اثنى عشر قسما ، ومحمولة على قاعدة من نفس المادة وفي سجلها ، أنها حملت من مدائن صالح ، مما يؤكد ما ذهبنا اليه أن عرب الجاهلية قد عرفوا العناية بالوقت ، والأخرى بجوار الغريقة ، بجامع القرويين بالمغرب ، صنعها (المعدل) محمد بن عمر ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م ، وأضاف مؤلف جامع القرويين ان هناك أربع ساعات من هذا النوع تلاشت جلها اليوم ، كما أن هناك واحدة أخرى بأعلى الصومعة(٤٨) . وحيث أن هذا النوع لا يدخل ضمن علم الحيل ، فاننا نكتفي بهذه العجالة فيه ، أما النوع الآخر من تأليف الساعات ، والذي قام أساسا على « علم الحيل في الماء » أو ميكانيكا الماء ، ونبغ فيها العديد من العلماء العرب فندرجها تحت عنوان التآليف في الساعات المائية .

مؤلفات في ساعات الماء :

اقتصرت الفائدة في استعمال الساعة المزولة على أيام الصحو ، أما في أيام الغيم والمطر فقد تعذر استعمالها ،

---

(٤٣) ابحاث الندوة العالمية الاولى ، ٣٩٢

(٤٤) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٧ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥١ ، البغدادي : هدية العارفين ، ١/ ٦

(٤٥) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، ٤٠٣

(٤٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٢

(٤٧) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، الشمس : مقدمة ، ٣٦

(٤٨) التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٤٧

لأنها تقوم أساسا على الظل ، ولهذا اضطر العلماء الى استنباط الساعة المائية لحل المشكلة الوقتية ، وبدأت بسيطة بوعاء صنع من مواد مختلفة وبأشكال متعددة ، يصب فيه الماء وينفذ الى وعاء آخر بقدر ، ليقيس الوقت بمقدار ما ينساب من الماء بوحدات زمنية اصطلاحية(٤٩) ومن ثم زيد منها دولاب أو أكثر يدور بتناقص الماء في الوعاء ، فيدير عقربا على ميناء فتعرف الساعة(٥٠) بذلك .

ولعل من معترض يرى أن الساعة المائية ما كانت الا تطويرا لتلك التي كانت موجودة عند الكلدان والهنود واليونان . وفي تقديرنا أن الساعة الكلدانية المائية الهندية واليونانية ، لم تختلف كثيرا عن الساعة الرملية مع فارق ابدال الرمل بالماء ، وكان القصد منها تعيين فترة للقيام بعمل معين ، دون الأخذ بعين الاعتبار زمنا محدودا ، فالخطيب مثلا كان يمنح مهلة للكلام ، تنقضي بفراغ محتويات قارورة من سعة معينة ، بقطع النظر عن سرعة التفريغ ، اذ لم تحفل بالتدرج وحتى لم تربطه بزمن معين(٥١) .

وليس معنى هذا أن الأمم السابقة لم تعرف الساعة المائية الميكانيكية ، فقد ذهب سارطون الى أن كيتسيبوس قد اخترع ضاغطة وأرغنا مائيا وساعة مائية ، كما أنه استخدم الماء في القوى الضاغطة ، وتحكم في ذبذبات الهواء لاخراج أصوات معينة ، ويكون بذلك قد أدرك الحاجة الرئيسية للاسطوانة والكباس والصمام ، وأدخل فيلون البيزنطي بعض التحسينات على نماذج تلك الساعة(٥٢) غير أن العلماء العرب قد ارتقوا بهذه الفكرة البسيطة ، ليدخلوها ضمن عمليات رياضية منظمة منسقة أساسها الاستفادة المثلى من مكتشفاتهم في علم الحيل ، حتى اذا ما وصلت هذه الاستفادة مرحلة متقدمة ، جعلوها علما ، فنقرأ في كشف الظنون(٥٣) ، تعريفات لعلم البنكامات ولعلم آلات الساعة ، وعلم البنكامات عندهم يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية وذلك بآلات يقدر بها الزمن ، وموضوعه « حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة ، تنقضي بقطع مسافات مخصوصة ، وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها ، دون ملاحظة حركات الكواكب ، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل ، تهجدا أو للنظر في تدابير الدول ، والتأمل في الكتب والصكوك والخرائط المنضبط بها أحوال المملكة والرعايا واستمداده من الرياضة والطبيعة » أما علم آلات الساعات ، فيبحث في الصناديق والضوارب وأمثال ذلك .

كان هذا يجري في الوقت الذي اتهم فيه البابا سلفستر الثاني بأخذه السحر ، واستعانته بقوة الشيطان ، بعد صنعه ساعة في مدينة كلدبرج ٣٥٦هـ/ ٩٩٦م ، تدور بثقل دواليب(٥٤) ، ولا ندري ان كان سلفستر قد بنى ساعته على نمط تلك الساعة التي قيل أن هارون الرشيد قد أهداها ١٩٢هـ/ ٨٠٧م الى شارلمان ، وقد أغرب واصفوها غاية الاغراب في وصفها ، حيث أورثت رجال الدين حيرة وذهولا ،

---

(٤٩) الشمس : مقدمة ، ٤٥

(٥٠) مجلة المقتطف ، م ٧٠ ص ١٦٠

(٥١) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٧

(٥٢) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٦

(٥٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٤٧ ، ٢٠٠

(٥٤) الشطي : مجموعة ابحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية ، ١٩ .

ويبدو أن تلك الساعة كانت مائية ، صنعت من نحاس مذهب ولها في وجهها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، وكلما مضت ساعة فتح باب وسقطت منها كرات معدنية ، تقع على جرس ، فيقرع بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة تفتح الأبواب الاثنا عشر ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيول تدور على الصفيحة ، ثم تدخل وتغلق الأبواب وراءها .

ونحن وان كنا نشك في وجود مثل تلك الساعة في ذاك الوقت ، لاننا لم نعثر على أية اشارة في المصادر العربية التي اطلعنا عليها ، وذهب بارتولد في بحثه عن تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، الى أن سفارة هارون الرشيد التي أنيطت بها مهمة السفر لمقابلة شارلمان ، ومعها الساعة والمفاتيح ليست الا من وضع اسحق اليهودي لتحقيق أهداف سياسية أصبحت اليوم معروفة ، ومهما كانت التحليلات والدراسات ، فان ايراد الخبر في المراجع الأوربية فيه اقرار أوربي ضمني ، بأن العرب قد بلغوا شأوا في صناعة وعمل الساعات منذ فترة مبكرة (عصر هارون الرشيد) ، وبالتالي تقدم علم الحيل عندهم (٥٥) ، ومما يجدر ذكره ، أن العرب أطلقوا على الساعة المائية عدة تسميات ، مثل ، ميقاتية ، بنكام ، فنكان ، فنجانة ، منجانة ، القطان .

ولعل أبا يوسف الكندي ت ٢٤٦ هـ / ٨٧٣ م ، كان أول من ألف رسالة في عمل ساعات مائية على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق ، خير من غيرها (٥٦) ومبعث شكنا ما ذكره الجاحظ « ان المسلمين كانوا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المكبات (٥٧) ولهم بالنهار ظل يعرفون به ما مضى من النهار ، وما بقي ، وأضاف « ورأيناهم يتفقدون المطالع والمجاري (٥٨) ، فهلا عرف أو سمع الجاحظ برسالة الكندي وهو المنقب الدؤوب ، أو أنها أي صنعة الساعة التي وصفها الكندي لم تكن منتشرة ، واستمر الناس يعرفون الأوقات بالمطالع والمجاري الفلكية .

وكان مؤلف أبي عبدالله الخوارزمي ، (كان حيا ٣٨٠ هـ / ٩٧٦ م) . وما فيه من وصف الساعات المائية ، كآلة النوبة والفيل وصندوق الساعات وغيرها ، أكثر توضيحا من المؤلفات السابقة (٥٩) .

يبدو أن التقدم الفعلي لصناعة الساعات والعمل بها قد تم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن الهجرية ، اذ وردت إشارات لمؤلفات في الساعات وصناعاتها ، وتخصص عدد من المهندسين في صنع الساعات وآلاتها ومنهم ، علي بن تغلب (ثعلب) بن أبي البيضاء ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وينسب اليه تدبير الساعات على أبواب المدرسة المستنصرية في بغداد ، وقيل أنه هو الذي صنعها (٦٠) .

محمد بن رستم الساعاتي ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في زمن نور الدين ، محمود بن زنكي ، وكانت

---

(٥٥) مجلة المقتطف ، مجلد ٧٠/ ١٦٠ ومجلة الرسالة : الساعات العربية لاحمد دهمان ، عدد سنة ١٩٣٦ ٢/ ٦٧٤

(٥٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٦/ ٥٤٠ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٣٢

(٥٧) ماجد الشمس : مقدمة ، ١١٧ ، المكبات (ج مكبة) ، وهو مايلف عليه الغزل او الخيط

(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ٢/ ١٠٧

(٥٩) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢ ـ ١٤٦ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥١

(٦٠) الرسالة : ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، ٦٧٤ ، ناجي معروف : تاريخ معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٥

له الأنعام الكثيرة من السلطان ، وقيل أنه هو الذي صنع الساعة على باب جيرون (٦١) .

رضوان بن محمد رستم الساعاتي ت ٦٢٠ هـ/١٢٢١م ، وقد استوزره الملك الفائز ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وقيل أنه بعد وفاة والده المشار اليه سابقا انتدب ابن النقاش (لعله محمد بن الحسين بن محمد التنوخي) ، لاصلاح خلل وقع في ساعات المسجد فزادها خرابا ، فعهد الى رضوان ، فأصلحها ، ومنها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشموس والسيارات ، وقام رضوان أيضا بتحسين ساعات أبيه ، ووضع كتابا شرح فيه « علم الساعات والعمل بها » بالتفصيل والدقة ، صور كل قطعة منها وسماها باسمها ، ووصف مكانها وعملها ، ومن الكتاب نسخة دار الكتب والوثائق القومية في جملة كتب زكي باشا ، منقولة من مكتبة كوبرلي (٦٢) .

أبو عبدالله القيسراني : وهو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، أصله من حلب ، ومولده بعكا ووفاته بدمشق ، وقد تولى الاشراف على ساعات باب جيرون بالجامع الأموي ، ثم خزانة الكتب ، وكانت بينه وبين ابن منير الشاعر الطرابلسي مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وقد أورد صاحب مرآة الزمان خبر انتقال ابن القيسراني من الساحل الفلسطيني الى حلب (٦٣) . .

ـ محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م . وهو عالم بالهندسة والطب ، تعد حياته نادرة من نوادر الدهر ، تجلى فيها النبوغ ، فقد عمل نحاتا ثم نجارا ، وقرأ الهندسة والرياضيات ، واشتغل بالفلك وعمل الأزياج ، ثم انقطع للطب ، وفي زمنه تخربت ساعات المسجد الأموي ، فأصلحها وكان له في دمشق عطاءان ، أحدهما من طبه في البيمارستان الكبير ، والثاني من تفقده لاصلاح ساعات المسجد الأموي ، ومن مؤلفاته :

- رسالة في معرفة رسم التقويم .
- مقالة في رؤية الهلال (٦٤) ـ

ـ أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، نبغ في حوالي سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م ، وكنا قد أشرنا اليه سابقا ، ولكنا نضيف بأن كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » يعد من أهم المؤلفات العربية في صناعة الساعات المائية بصفة خاصة ، وآلات الحيل بصفة عامة ، ولا أدل على أهميته من استعراض الأبحاث التي كتبت عن ابن الرزاز ، وكان الدوميلي وجورج سارطون وفيدمان وهاوز قد درسوه ، أما المقالات والأبحاث والكتب التي تناولت أعمال ابن الرزاز الجزري فأهمها :

Carra de vaux, Note Sur Les mecaniques de bedi ez-zar el- Djazari et sur un appareil ‹d'hydraul attribue a Appollonius de Perge (Congress d'historire de Paris, 5 section, 122-12:. H.Suter:Mathematiker (137 — 226) 1900.

---

(٦١) الشمسي : مقدمة ، ٥٤ ـ ٥٥ ، مجلة الرسالة (١٩٣٦) ، ٢/ ٦٧٢

(٦٢) النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس ، ٢/ ٣٨٨ ، ياقوت : معجم الادباء ، ٤/ ٢١١

(٦٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة ، ٢/ ٢٧٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨/ ٢١٣ ، محمود ابراهيم : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ٢٩

(٦٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤/ ١٥

E, Weidmann: Beitrage 3 (Sitzung sberichte, Er Langen. Vol, 37, 259, 262, 1905)

A.C.Coomaras: Treatise of al-Jazari on Automa

Leaves from aMS of Kitab fi ma arifat (21p. 8pi., Boston, 1924).

Creswell : Yearbook of oriental art and culture, A.C.Coomaraswamy: Early Arabic and Islamic Persian Paintings (Museum of fine Art Bulletin, 45 — 52, Boston, 1922).

هناك كتاب دونالد هل

The book of Knowldge of Ingenious Mechanical De Boston, U.S.A. Printed in Nether Land. (٦٥)

ابن الشاطر ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

وهو أبو الحسن ، علاء الدين ، علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري الدمشقي ، وكان قد تعلم صنعة تطعيم العاج ، ومن ثم العلوم الرياضية والفلكية وتولى التوقيت ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي ، وينسب اليه الارتقاء بمستوى صناعة الساعات ، فقد جعل حجمها صغيرة ، سهلة الحمل ، ويمكن تعليقها على الجدران ، ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، وقد وصف ابن العماد الحنبلي (٦٦) اسطرلاب ابن الشاطر ، الذي كان موجودا في منزله داخل باب الفراديس ، بدرب الطيار سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م ، ويتكون من قنطرة طولها نصف أو ثلث ذراع تقريبا ويدور على الدوام من غير ماء ، وبموجب حركات الفلك ، ورتب على أوضاع يعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية ، ونستشف من النص ، أنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الاسطرلاب كساعة ميقاتية صغيرة الحجم ، سهلة الاستعمال ، ولا مائية ، ومن مصنفات ابن الشاطر في هذا المجال ، تسهيل المواقيت في العمل بصندوق المواقيت .

ـ النفع العام في العمل التام ، بالتام لمواقيت الاسلام (٦٧) .

ـ عبد العزيز محمد الوقائي المؤيدي : ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م .

وكان يعمل مؤقتا بالجامع المؤيدي ، ومن تصانيفه

ـ نظم العقود في عمل الساعات على العمود .

ـ رسالة في دائرة المعدل .

ـ وسيلة الطلاب في عمل استخراج الأعمال بالحساب (٦٨) .

تقي الدين الراصد : ت ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م

وهو محمد بن أبي الفتح ، محمد بن أحمد بن يوسف الأسدي كان أوسع المهندسين بعد الجزري دراية في عمل الساعات وصنعها ، وانعكست خبرته الواسعة على مؤلفاته ، منها

ـ الطرق السنية في الآلات الروحانية .

ـ الكواكب الدرية في البنكامات المائية وهو أهمها ، منه نسخة في مكتبة جامعة Chester deaty

---

(٦٥) التميمي : الدارس ، ٢/ ٣٧٨ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ٥/ ٣٦٤ ، الصفدي : الوافي ، ٣/ ٢٧٩ الزركلي : الاعلام ، ٦/ ٢١٥

(٦٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٧٢٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٦/ ٢٥٢

(٦٧) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٥٨٣

(٦٨) نفس المرجع السابق ، ٦/ ٢٥٧

- خلاصة الأعمال في مواقيت الأيام والليال .
- الدر المنظوم في حل التقويم .
- ريحانة الروح في رسم الساعة على مستوى السطوح (٦٩) . وفي المغرب ، نشط صانعوا الساعات في عملها على المساجد والمعاهد والمدارس والطرقات العامة ، ومن أهمهم :

- أبو عبدالله ـ محمد بن الحباك ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، وقد ركب ساعة مائية في مدينة فاس بناء على طلب القاضي ، أبي عبدالله ، محمد بن أبي الصبر ، أيوب بن كنون ، ليعرف الناس أوقات النهار والليل ، سواء في الأيام المشمسة أو الغائمة وخاصة أن الساعة الشمسية والرملية ، لم تعد كافية بعد أن وصلت أخبار الساعة المستنصرية وطريقة صنعها (٧٠) .

محمد بن عبدالله الصنهاجي ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وقد صنع منجانة جامع القرويين ، أيام أبي سعيد ، عثمان المريني ، وذلك بالتعاون مع محمد بن الصديق القرسطوني ، الذي رسم خطوطها (٧١) .

- محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، وقد قام بتجديد اصلاح المنجانة على وجه متقن ، ومن ثم أدخل استعمال الاسطرلاب فيها ، ومتى طلعت المسطرة ، تعرف أوقات الليل والنهار ، بتحرك خيوط الاسطرلاب والساعة المائية فربط بين الاسطرلاب والساعة المائية بفن متقدم (٧٢) .

- عبد الرحمن بن سليمان الجائي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . وقد صنع ساعة مائية بأمر السلطان أبي سالم ، ابراهيم بن أبي الحسن بن عبد الحق (٧٣) . وهناك فئة من العلماء آثرت أن تبحث في الميقات .

كالحسن بن علي المراكشي ، كان حيا ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وصنف في آلات التقويم وجامع المبادىء والغايات في علم الميقات (٧٤) . ومحمد بن سنان القونوي (المعروف بابن كاتب سنان ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، وقد ألف (تحفة الفقراء في علم الميقات) وابن أبي الخير ، محمد بن عموش الرشيدي الميقاتي ت ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ، ألف « النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج اليها في علم الميقات ، وأخيرا نذكر أحمد بن عبد الرحمن ، الواعظ بجامع بني أمية ، وقد ألف كتابه « هدية المشتاق لمعرفة الأوقات في جميع الآفاق ، ولا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٧٥٦٤ ـ علوم أخرى (٧٥) .

وجدير بنا أن نشير الى أن العرب قد أطلقوا على الذين يعملون في الساعات اسم « المهندس » أو « الموقت » أو « المعدل » .

أشهر الساعات المائية في المشرق والمغرب :

يستفاد من اشارة ذكرها ناصر الحسين بن علي القيمري ، الذي أنشأ ساعة على باب المدرسة القيمرية

---

(٦٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٧٠) التازي : جامع القرويين ، ١/٣٢٢-٣٢٣

(٧١) التازي : جامع القرويين ، ١/٣٢٢

(٧٢) نفس المرجع السابق ، ٢/٣٤٣

(٧٤) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٢٨٦

(٧٥) نفس المرجع السابق ، ح ٦/ ٢٦ ، ٢٢٥

الكبرى ، أن تكاليف بناء الساعات كانت باهظة فقد كلف بناء الساعة المذكورة أربعين ألف درهم (٧٦) ، وهو مبلغ ضخم آنذاك ، وعليه فقد اقتصر بناء الساعات وتركيبها على الأماكن المهمة دون سواها . وفي الحواضر أو المدن الرئيسية ، وفي المساجد والمعاهد والمدارس والساحات العامة الواسعة أحيانا ، وكانت ساعات دمشق ذات شهرة متميزة ، وقد وصلنا وصف لتلك الساعات من خلال ما ذكره ابن جبير ، الذي وصل دمشق سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ووصف الساعات الموجودة في المسجد الأموي وعلى باب جيرون فذكر « عن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد سهم ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين منهما ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها ، وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، ذلك أن القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ندبر ذلك كله منها ، خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة مجمدة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها » .

ويضيف ابن جبير ، أنه أوكل بها في الغرفة ، متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس « المنجاتة » . (٧٧) .

وهناك ساعة مائية ثانية على باب جامع دمشق القبلي المسمى « باب الزيارة » وهي دائرة بيكار (نصفية) عليها عصافير نحاس ووجه حية من النحاس أيضا ، وغراب فاذا تمت الساعة ، خرجت الحية وصفرت العصافير ، ونعق الغراب ، وسقطت حصاة في الطست ، وهذه الأصوات ليست الا عملية تحكم بذبذبات الهواء بحركات ميكانيكية نتيجة (انتقال الماء وتحريك ما فوقه) (٧٨) .

ومن ناحية ثانية ، قد أشار ابن طولون في حوادث سنة ٨٥٩ هـ الى « احتراق قيسارية الفرنج المعروفة بقيسارية ابن دلامة والتي هي شرق قيسارية ابن المزلق التي على بابها الساعات (٧٩) ، وهذا تأكيد على أن الساعات المائية كانت تنصب على أبواب الأسواق علاوة على المساجد والمدارس .

---

(٧٦) بدران : منادمة الاطلال ، ومسامرة الخيال ، ١٤١

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، ٢٤٣ ـ ٢٤٤

(٧٨) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٦ ، العدد ٢/٦٧٥ .

(٧٩) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ١/ ١١٢

أما في بغداد ، فقد أدهشت ساعة المدرسة المستنصرية ، مهندسي العصر ببراعة هندستها ودقة صنعها ، ولكونها تعمل عملا ميكانيكيا جيدا ، ثم انها في مدرسة ساهمت في النهضة الفكرية الاسلامية ، والمخطوطة رقم ١٣٨٣ تاريخ والمحفوظة في الخزانة التيمورية في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تصفها ، وجاء في وصفها :

« سنة ٦٣٣ هـ ، تكامل بناء الايوان الذي أنشىء قبالة المدرسة المستنصرية وركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه أوقات الصلوات ، وانقضاء الساعة الزمانية نهارا وليلا ، والصندوق عبارة عن دائرة فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطاف ، لها أبواب لطيفة ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءها بندقتان من شبة لا يدركها الناظر ، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ، وتقع منها البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ، وحينئذ تمضي ساعة زمانية . وأن وقعت البندقتان في الطاستين ، فانهما تذهبان الى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائية ، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة ، تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم تبتدىء مع الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة وتقضى الساعات الزمانية ليلا ونهارا ، وتوحد المواليد وحلول الشمس في البروج الاثنى عشر ، وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق ، وهي منقبة جليلة للامام المستنصر بالله (٨٠) .

أما الساعات التي عملت بعد المستنصرية ، فتقوم على دخول كرات رصاصية أو نحاسية الى جوف باز تسقط في وعاء ، فيسمع لها صوت ، وتكون اما بطريقة الضغط المائي . أو برشح من ثقوب صغيرة ، أو بذوبان شمعة فيقل وزنها وترتفع ، وتكون الشمعة مقسمة الى أجزاء متساوية يخترق كل جزء منها في ساعة وعند نهايته كرة من الرصاص أو الشبة وعند ذوبان الشمع عنها تحدث صوتا ، ثم تذهب الى مكانها من ثقب في أسفل الاناء ، أما الأقمار والشموس والنجوم ، فكانت تحدث بتأثير الأضواء من خلفها (٨١) .

وبدت ساعات ابن الرزاز الجزري غاية في التطور واستخدام علم الحيل المائي في عملها . ونستطيع أن نقسمها وفق تطورها الى ثلاثة أنواع :

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ، وفيها سلاسل وموازين وبنادق .

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ولكن بدون سلاسل وموازين وبنادق ، صغيرة الحجم ، قليلة التلف .

- ساعات متطورة كالثابتة ، ولكن يستعمل الشمع فيها بدل الماء ، وحركاتها الميكانيكية بسيطة ، وسهلة الحمل . صغيرة الحجم .

ومن النوع الأول ، اخترع ابن الرزاز .

---

(٨٠) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ٢٨٧ ، القزويني : أثار البلاد واخبار العباد ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ناجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/٥٢

(٨١) معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/٥٣ ، ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٠ - ٥١

ـ بنكام يعرف منه مضي ساعة زمانية ، وتقوم فكرتها على أحداث حركة في الأبواب ، تحرك البازين ، فتلقى كرات الرصاص ويدق الطبالون وينفخ حملة الأبواق ويضرب الصناجون ، وذلك بحركة انسياب المياه من دستور محكم (حنفية) ، وفي الليل يستعمل ضوء القنديلين بشكل أقمار (٨٢) .

ساعة الطبالين :

طولها (٥) أمتار ، وتتكون من اثنتي عشرة جامة ، أسفلها شرفات وشخص يقطع كل شرفة ، وطائر يلقى البنادق ، وخزان للماء فيه طفافة وحنفية (فيثون) ومخروط عائم يشكلان بابا مطحونا ، لا ينفذ منه الماء الا في حينه ، وعربة ذات سفود ، وتسير بموازاة الجامات لتحريك القماط الساتر للضوء المنبعث من قنديل ، يوقد داخل الساعة . ومكان لحفظ الكرات الساقطة الى فم الطائر ، وبكرة في سقف بيت الساعة ، ويمر عليها الخيط الواصل بين رأس الطفافة وعجلة الميدان ، وكفة الحوض وأنبوب في الكفة يسمح بانسكاب الماء الزائد عن استيعابها ، ودستور منظم لعملية سقوط الماء (٨٣) حركتها على ثلاث مراحل :

عمل أدوات الماء .

عمل العربة ذات الأربع عجلات .

عمل الأجزاء المحركة لأيدي الطبالين والصناج وصوت البواقين .

فهذه الحركات متتابعة ، فهبوط الطفافة ، تجعل عربة الميدان تسير مسافة منتظمة القضيب المرتبط بها احدى الشظايا ، فتسقط بندقة عبر رأس البازي كل ساعة في تقعير الكفة المليئة بماء يعادل ما يسقط ، وميزاب الدستور يؤشر على أول برج السرطان . وحيث أن سقوط الكرة يخل بتوازنها ، فتسكب الماء في الحوض ومنه الى كفات الدولاب حيث تتحرك أيدي الطبالين والصناج ، ثم الى القدر الصغير وهكذا (٨٤) .

ساعة الزورق : وتتكون من زورق فيه ماء وطرجاة تمتلىء وتفرغ ماء كل ساعة وكاتب على سرير بيده قلم ، وطائر يقذف كرات فم ثعبان ، وملخص عملها « ان حركة الكاتب تؤثر على بقية الأجزاء ، فالطائر يقذف كراته الى فم الثعبان التي تنقلها الى صدر الزورق ويسمع لها صوت وترتفع الثعبان . وتكون الحركة في الزورق وأحواضه الداخلية وعمل الكاتب ، وحركة الطائر ورمي البندق ، وحركة السلاسل المحركة لشفرتي الميزاب .

ساعة الفيل : وهي تتفق مع بقية الساعات التي ذكرناها ، الا أن فيها طائرين واحد يلقى البنادق والآخر يصفر عند القائها ، وكاتب وشخص يجلس في الروشن وثعبان وسلاسل تربط بين الأجزاء التي يراد تحريكها وهيئة فيل وفيال ، بيده فأس يضرب بها ومدقة وأثقال وماء طهرجاه وتتم الحركة على عدة مراحل ، فالأجزاء الظاهرة لها حركة منضبطة ، وللفيل والسرير (الحوض) حركة ، بباطن الفيل والفيال ، والأعمدة الأربعة ، والقصر الذي يجلس فيه الكاتب ، وميزاب لكرات ، والرجل الذي في الروشن ، والثعابين والطائر

---

(٨٢) ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٢/٥٣

(٨٣)انظر وصفها وطريقة عملها في مقدمة في علم الميكانيكا في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٩ ، والعدد الأول من مجلة تاريخ العلوم العربية لسنة ١٩٧٧ .

(٨٤) ابن الرزاز : الجامع بين العلم النافع ، ٦١

والقدحان اللذان على كتفي الفيل . كل واحدة من هذه لها حركة تتم بصورة سريعة ومتتابعة كل ساعة . (٨٥) ويلاحظ أن ابن الرزاز كان يسعى دائما لتحسين نوعية ساعاته ، ويحاول التغلب على المشاكل الفنية التي تعترضه ، ليجعلها أكثر قبولا ، فساعاته السابقة ذات طول مرتفع يصل في بعضها الى ٥ أمتار (كساعة الطبالين) . وبعضها معقد وثقيل ، لكثرة السلاسل والموازين والبنادق فيصعب حملها ، هذا بالاضافة الى كثرة تعطلها بسبب انقطاع خيط أو عدم انتظام حركة لسلسلة أو غيرها ، ثم ان هذه الأنواع لا تقيس الا الساعات المستوية ، أي ساعات كاملة صحيحة ، العاشرة ، الحادية عشرة ، الثانية عشرة مثلا . أما أجزاء الساعة كالنصف أو الربع أو الثلث فلا تقدر عليه ، علاوة على أن تشغيلها في الليل ، يتطلب مراقبة مستمرة وخاصة للماء ، ولذا ابتكر ابن الرزاز ساعات من نوع جديد ، بناء على طلب أبي الفتح بن محمود بن قرا أرسلان ، خفيفة وسهلة الحمل والتركيب ، ويمكن استصحابها في السفر ، ويعرف بها جزء الساعة وخلصها من السلاسل والموازين والبنادق ، ومن هذه الساعات :

ساعة الكأس وساعة الطواويس :

وتتكون الأولى من كاتب وبيده قلم ، وبكرات ثلاث كبيرة وبكرتين جانبيتين وثقالة ومسطرة تتحرك عليها عوامة ، وجزعة مثقوبة من أسفل وبدن الساعة كأسي الشكل ، بقاعدة رباعية الشكل ، وتلخص فكرة عملها « أنه حين تملأ الكأس ماء ترتفع العوامة ، وينخفض الثقل ، ويبدأ الماء بالنضح من ثقب الجزعة ، فتجذب الطفافة ، فتحرك الكاتب الى ١٥ درجة وهي تساوي ساعة زمانية ، وعند المساء يعاد الماء من القاعدة الى الكأس بسرعة وهكذا»(٨٦) على نفس النمط تعمل ساعة الطواويس .

أما النوع الثالث من ساعات ابن الرزاز فهي التي تعمل بالشمع بدل الماء ، وفائدتها أنها تحدد الساعات المستوية وأجزائها أيضا ، ومنها :

- ساعة السياف
- ساعة الكاتب .
- ساعة القرد .
- ساعة الأبواب

وتقوم فكرتها جميعا على استعمال الشمعة فيها كمادة تذوب نتيجة الاحتراق بقدر متساو كل ساعة ، فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة كرة ، ويأخذ الثقل بالهبوط الى أسفل فتتحرك الأجزاء المربوطة مع بعضها (٨٧) لتؤشر على تدريج ، جعل كل ١٥ وحدة منه تعادل ساعة زمانية ، وهكذا دواليك أما ساعات المغرب فقد بنيت على نمط ساعة المستنصرية المائية . ولم تستعمل الشمع فيما انتهى الى ولكنها استفادت من شبكة الاسطرلاب بربطها بلولب مع الساعات المائية ، وتقوم فكرتها العامة على :

- ماء في الأوعية ، ينساب بقدر معلوم .
- مجرى فوق الماء فيه خطوط وثقوب .
- طفافة تتحرك بنقصان الماء فتحرك المتصل بها لتؤشر على التدريج .

---

(٨٥) المرجع السابق ، ١٧٧

(٨٦) ابن الرزاز الجزري : الجامع بين العلم والعمل ، ١٢٦ - ١٤٣

(٨٧) الشمس : مقدمة ، ١٨١

ـ يعاد الماء بعد انتقاله بسرعة الى الاناء الأول .

وهكذا فانها تتطلب مراقبة دقيقة ودائمة .

ـ اضافة شبكة الاسطرلاب الى الساعات .

وأهم تلك الساعات :

ـ ساعة ابن الحباك ، وتتكون من صحن من الفخار بالقبة العليا بجامع القرويين ، يملأ ماء ، وعلى وجهه مجرى من النحاس ، ذو خطوط وثقوب ، ويخرج الماء منها بقدر معلوم الى أن يصل الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار ، فتعرف بذلك الأوقات ، وهي أصغر حجما وأبسط تركيبا من ساعات ابن الرزاز (٨٨) .

وأما ساعة الصنهاجي فتتكون من مجن من خشب الارز ، داخله إناءان من الفخار يعلو أحدهما على الآخر ، بأسفله أنبوب محكم العمل ، ينزل منه الماء في الاناء الأسفل ، وفي الجانب طست حوى خطوط تقسيم الوقت ، وعلى وجه الاناء الذي يجتمع في الأسفل جسم عائم مجوف من النحاس على شكل الأترجة ، والطفافة تحرك المسطرة فتظهر الوقت ، وعند المساء لا بد من رد الماء من الوعاء الأسفل الى الأعلى ، وتعلق المسطرة كما كانت (٨٩) .

ـ ساعة محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ ، وقد أضافا الى المجن السابق شبكة الاسطرلاب ، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات النهار والليل بتحرك خيوط الاسطرلاب ورسومه ، وأجريت تحسينات فيها ، اذ أطرت دائرة الاسطرلاب أربع صفائح وثبتت بشكل متين (٩٠) .

هذا بالاضافة الى ساعات المدرسة البوعنانية ـ نسبة الى السلطان أبي عنان ، بشارع الطالعة من فارس وساعة الجاي ، وتقوم على أبواب وطاسات وكرات وأنابيب تصل بينها . (٩١) وأما في مصر ، فقد ذكر القليوبي في النوادر أنه كان عند السلطان الكامل شمعدان فيه أبواب فكلما مضت ساعة يخرج شخص من باب منها ، يقف في خدمته الى مضي ساعة وهكذا الى تمام الأبواب ، اثنتي عشرة ساعة ، فاذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول « أصبح السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة (٩٢) .

ولقد أدهشتنا هذه الاشارة فهل عرف العرب تسجيل الصوت ، وحيث أننا لا نقطع برأي حول المسألة ، ونميل الى أن الصوت انما هو تحكم بذبذبات بطريقة خاصة تبعث صوتا قد يفسره السلطان أو من سمعه « بأصبح السلطان » كما هي المعزوفات الغنائية في زماننا ، غير أننا سنعود لبحثها في درسنا للصوت عند العرب .

ومن ناحية ثانية ، فقد أورد المقري في كتابه نفح الطيب وصفا دقيقا لساعة تلمسان كأنها حلة يمانية . « ولها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة ، وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت فيه جارية ، صورت في أحسن صورة . وفي يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة (٩٣) .

---

(٨٨) الشمس : مقدمة ، ٢٠٧ ، وصف الساعات في كتاب الجامع ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨

(٨٩) التازي : جامع القرويين ، ٢/٣٢٢

(٩٠) المرجع السابق ٢/٣٢٣

(٩١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٩٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، المجلد ٢ ص ٦٧٤

(٩٣) سعد الخادم : الدمى المتحركة عند العرب ، ٤٠

ويضيف المقري أن خزانة المنجانة كانت ذات تماثيل لجُين محكمة الصنع ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كوة ، يجذب الأيكة صاعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوَين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين عقابان في يد كل واحد منهما صنجة صُفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهب وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، بيمناها اضبارة فيها اسم لساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة(٩٤) .

وكان التطور الهائل في صناعة الساعات واعتمادها على الميكانيكا بصورة عامة ، فكان حين استعمل العرب الأثقال بدون ماء ، لأحداث الحركة الاوتوماتيكية . فاخترعوا الرقاص (بندول الساعة) ، ويبدو أن مخترعه هو أبوسعيد ، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠م ، وقد اعترف بذلك تيديو وسدويك وتايلر فذكروا أن العربَ قد سبقوا غاليليو بستة قرون في اختراع الرقاص واستعماله . وفي إيجاد علاقته بالزمن ، لا سيما وأنه كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ، اذ كان الفلكيون العرب يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ، ولقد حاول أسامة عانوتي في بحثه « هل اكتشف العرب رقاص الساعة » المنشور في مجلة الدراسات الأدبية ـ الجامعة اللبنانية ، السنة الخامسة ص ٣٥٧ ـ ٣٧٢ ، ان يثبت ما ذهب اليه قدري طوقان والمستشرقون ، ونجح في ذلك(٩٥) .

وكانت هذه قفزة هائلة في تاريخ الساعات امتدت آثارها حتى اليوم ، فالساعات الحديثة تقوم عليها ، باستثناء ما بني على استخدام الاليكترونات .

ونشير في النهاية الى نوع من الساعات ، التي لا تزال تستعمل الى يومنا بسيطة الصنع والتركيب ، والغرض منها تعيين فترة محدودة ، وهي الساعات الرملية والتي تتركب من دورتين ، الصقت فوهة أحدهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع وملئت العليا رملا فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى ، من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عندما تفرغ العليا ، وهناك ساعة في جامع القرويين تعمل بالنمط الرملي صنعها محمد بن محمد العربي ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، وبعض أجزائها محفوظة في الغريفة بالجامع(٩٦) . ان الالمام بكل ما ابتكره العرب من آلات وأواني ميكانيكية الحركة ، يتطلب جهداً جماعيا ، لتجمع مخطوطاته ، ويعهد الى المختصين درسها ، ليحدد مدى ما قذفوه الى الحضارة الانسانية في هذا المجال .

أما ما أضافه علماء العرب في الصوت والضوء والبصريات والقوى والحركة والمغناطيس والغازات والرياح ، ومدى استفادة الغرب منها فسيكون موضوع الصفحات التالية ، ونتبين منها ما حققه علماء العرب المسلمين في هذا المجال .

---

(٩٤) المقري : نفح الطيب ، ٩/ ٢١٦ .

(٩٥) سيديو : تاريخ العرب ، ٢١٤ تايلر : مختصر تاريخ العالم ، ١٦٣ ، سمث : تاريخ الرياضيات ، ٢/ ٦٧٣ مختار القاضي : اثر المدينة الاسلامية ، ٢٤٣

(٩٦) مجلة الرسالة ، العدد ٥٧ ص١٢٩٣ ، التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٤٧

الصوت ودراسته :

كان للعرب اشتغال في بحوث الصوت ، وأحاطوا بالمعلومات الأساسية فيه ، وذهبوا الى أن السبب في منشأ الأصوات ، انما يعود الى حركة الأجسام المصوتة ، وهذه الحركة تؤثر في الهواء لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه كما قسم علماء العرب الأصوات الى أنواع منها ، الصوت الجهير والصوت الخفيف والحاد والغليظ وغيرها . وعزوا ذلك الى طبيعة الأجسام المصوتة ، والى قوة تموج الأصوات بسببها . وتميزت أبحاث الموسيقيين العرب بدراسة الأوتار والاصوات الناجمة عن اهتزازها ، وكشفوا بقوانين رياضية العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة شدته أو توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت من جهة أخرى(٩٧) . وقادهم هذا بالضرورة الى بحث الألحان التي جعلوها ٤٧ نوعا هي : الصياح ، والسجاح ، والنبرات ، والشذرات ، والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ، والتدريج ، والزمة ، والغنة ، والتعليقة ، والتفخيم ، والتأوه ، والنوح ، والترجيح ، والكرة ، والتشبيعة ، والابدال ، والاستهلال ، والانشاد ، والاستغاثة ، والتغير ، والقهقهة ، والهزة ، والاتباع ، والانتزاع ، والتفكيك ، والتفاغر ، والشهقات ، والامالة ، والتمطي ، والتوطئة ، والمهاهاة ، والمقطع ، والردة ، والصلة ، والاستحالة ، والتشويب ، والصهيل ، والهمزة ، والتجنيبة ، والزحمة ، والتكاهن ، والغمزة(٩٨) .

وعللوا الصدى ، والذي يحدث حسب تعليلهم عند انعكاس الهواء المتموج بعد مصادمته لعال ، كجبل أو حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة ، فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه . وقد برع أخوان الصفا في تعليل تموج الصوت بشكل كروي ، وبينوا عوامل قوة وضعف موجاته ، فالسبب في حدوث الصوت عند أخوان الصفا « هو حركة الأجسام المصورة في الهواء ، الذي لشدة لطافته وخفة جوهره ، وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فيما اذا صدم جسم جسما آخر ، انسل ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج منها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركة تموجه الى أن يسكن ويضمحل(٩٩) .

ومن ناحية ، فان دراسات العلماء العرب لم تقف عند صوت الانسان بل تعدتها الى دراسة أصوات الحيوانات ، وكان اخوان الصفا والجاحظ والدميري رواداً في هذا المجال ، اذ قسمت أصوات الحيوانات عندهم الى :

ـ أصوات الحيوانات ذات الرئة وتختلف باختلاف الصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين ، وشدة استنشاق الهواء ، وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخيرها .

ـ أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ، ولكن لها جناحين ، كالزنابير والجراد والصراصير وغيرها ، فان الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها . واختلاف أنواعها انما تستند على لطافة هذه الأجنحة وغلظها وطولها وقصرها وسرعة حركتها .

ـ أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولا أجنحة ، كالسمك والسرطان والسلاحف وما شاكلها ، وتسمى

---

(٩٧) نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٣١٢ ، كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٠

(٩٨) الكاتب (الحسن بن احمد) : كتاب كمال ادب الغناء ، ٧٨ ، الفارابي : كتاب الموسيقي الكبير ، ١٠٦٩

(٩٩) اخوان الصفا : الرسائل ، ٤٠٧/٢

بالحيوانـات الخرس ، لأنـه لا منطق ولا صـوت لها ، وتختلف أصواتها باختلاف اليبس والصلابة والحجم من كبر وصغر وطول وقصر وسعة وضيق وغير ذلك(١٠٠) .

ولم تتوقف دراسة الصوت عند العرب على المسائل النظرية ، بل طبقوا مبادىء الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، وبدعوا في هذا الفن » وقطعوا فيه شوطا بعيدا ، وكانوا دائما في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون النظرية الا بعد التثبت منها عمليا . وقد تفوق في هذا المجال ، الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ويوسف الكاتب وابن المنجم والأرموي وغيـرهم . ويذكـر أن اجادة العرب لبحوث التموجـات الكرويـة للصوت ، هي التي أوحت لزرياب أن يضيف الوتر الخامس للعود وصبغه باللون الأحمر . وجعله(١٠١) متوسطا في موضعه بين الأوتار الأربعة .

- الضوء والبصريات :

تجاوزت أبحاث العلماء العرب في الضوء مـا انتهى اليه علماء اليونان ، وكانت مقالة حنين بن اسحق « في حقيقـة الضوء » بـداية الانـطلاق نحو دراسـة الضوء والاستفادة منه في تحليل العديد من الظواهر الكونية . ومـع أن رسالـة حنين استنـدت أسـاسـا عـلى مقـالـة ارسطاطاليس ، الا أنـه أضاف اليهـا وطورهـا بحيث بدت شيئا متميزا ، فالضـوء عند حنـين عرض وليس بجسم نـير وحتى أنه ليس بجسم ويـورد العـديـد من البراهين ، ووصف حنين حركة الضوء بـأنها تتجه الى الوسط فهي ليست حركة مستقيمة ولا مستديرة ، وانما حركة وسطية ، كحركة ضيـاء المصابيـح من العلو الى الوسط(١٠٢) وهو يتحرك الى جهات كثيرة .

ويـرى الفلاسفـة الطبيعيـون ، أن الضـوء صـورة جوهرية ، وهو معنى من المعاني التي تتقدم منها ماهيـة الجسم المضيء بذاته ولا تفارقه مادام حافظا لجوهره ومع أن التعريف لا يخرج عن ما أورده أرسطوطاليس(١٠٣) ، الا أن ابن سينا أضاف اليه « بأنه انفعال في القابل من المضيء ، أوحصول أثر فيه من واهب الصور »(١٠٤) .

أما ابن الهيثم فالضوء عنده « حرارة نارية تنبعث من الأجسام المضيئة بـذواتها كـالشمس أو النار أو الجسم المتوهج ، وانه اذا أشرق على جسم كثيف أسخنه واذا انعكس عن مرآة مقعرة ، واجتمع عند نقطة واحدة ، وكان عندها جسم يقبل الاحتراق ، أحرقه »(١٠٥)

وكيفما كان الحال ، فان للعلماء العرب أبحاثا متقدمة في الضوء والبصريات تمثلت بالنواحي التالية :

درس ابن سينا انعكاس الضوء وانكساره وأخـطاء البصر ، واستطاع أن يعلل بذلك كبـر حجم الشمس والقمر والكواكب والنجوم في رأي العين ، حينما تكون قـريبة من الأفق عنـد الشـروق والغـروب ، وكـانت تحليلات ابن سينا لكيفية تكون الهالة القمـرية والهـالة الشمسيـة هي أساس التفسـير العلمي الحالي ، حيث افترض وجود بخار الماء في الجو وسقوط الشعاع الضوئي

---

(١٠٠) المرجع السابق ، ٢/١٩١ ، الجاحظ : الحيوان ، ٤/١٩٣ ، ٧/١٣٧

(١٠١) الحلفي : زرياب ، ٤٦ عبد الرحمن : تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ٢٦ ، صالحات حمدي : تاريخ آلة العود وصناعته ، ٣٩ .

(١٠٢) حنين بن اسحق : في الضوء وحقيقته ، المشرق ، السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، ١٥ كانون اول سنة ١٨٩٩ ١١٠٧ ، ١١١٢

(١٠٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ٨٠

(١٠٤) ابن سينا : التعليقات ، ٤٧

(١٠٥) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠

على القطرات المكونة للهالة(١٠٦) . كما علل أسباب تناقص الشفق حينما تصبح الشمس على ١٩ درجة تحت الأفق .

ومع أن ابن سينا هو الذي وضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا ، منحنيا كانحناء سطح الارض غير أن البيروني كان أكثر منه دقة في هذا المجال ، وأشار الى عظم سرعة الضوء اذا ما قيست حتى بالنسبة لسرعة الصوت . ان هذه النتائج أفادت نصير الدين الطوسي في أبحاثه عن المناظر وانعكاس الشعاعات والانعطافات وأتى فيه على برهانه ، مساواة زاويتي السقوط والانعكاس .

وقد حاول ابن سينا أن يدرس الآثار العلوية الكونية ، ففسر كيفية تشكل قوس قزح ، كذا الهالة المحيطة به ، وتعدد الألوان منه كما فعل الكندي حين علل اللون اللازوردي الذي يرى في الجو . الا أن محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي ت ٧١١هـ/١٣١١م ، كان أكثر العلماء توضيحا لدراسة ظاهرة قوس قزح ، فقد شرحها في كتابه « نهاية الادراك في دراية الأفلاك » شرحا وافيا ، وبين أن ظاهرة قوس قزح انما تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو ، عند سقوط الأمطار ، وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا ، ولعل الشيرازي قد بنى تعليله على تلك الدراسات التي بدأها ابن سينا قبله ، وشملت الظل والثلج والضباب والهالة والقوس والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد(١٠٧) .

لقد بلغت دراسات ابن سينا منزلة متفردة ، فيما أورده بشأن الابراق والارعاد فالبرق عنده نتيجة لاحتكاك وقرع بين الغمام ، أو للاستبراح اللطيف من الغمامة اذا طفئت نارها ، بمعنى انتقال الشحنات أثر الحرارة ، أو اذا كانت في الغمام نار مستكنة وانضغطت الغمامة وانعصرت وتفرقت(١٠٨) . وأشار ابن سينا الى احتمال حدوث الارعاد بلا برق أو العكس ، ورسالة ابن سينا في الرعاد ، تضمنت الاشارة الى أسبابه ، فالرعد عنده ، يقع اذا تصادمت غمامتان ، واذا دخلت في غمامة جوفاء ريح فدارت عليها ، واذا ما سقطت نار في غمامة رطبة وطفئت ، وحين يقرع الريح غمامة عرضية جليدة قرعا شديدا ، واذا دخلت في غمامة مجوفة وانفتقت ، واخيرا اذا ما احتكت غمامتان خشنتان ببعضهما(١٠٩) . والصواعق عنده أما نار ريحية أو ريح نارية ، ويرى أن الصاعقة تكون لسببين ، أولهما احتكاك الريح بالغمام ومن ثم شدة خروجها وقد صارت نارا ، وثانيهما ، اجتماع الكثير من الغمام الصغار ، فاذا اجتمعت مع بعضها صارت منها صاعقة .

وأما البصريات :

فقد درس العلماء العرب الحواس دراسة وافية ، وكان علماء اليونان والهنود قد أخطأوا في تحديد كيفية الأبصار ، فاشتغل العرب بها وخاصة الكندي الذي ألف في اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرآة . وهناك من يعتقد أن ابن سينا قد سبق ابن الهيثم في الوصول الى

---

(١٠٦) فروخ : عبقرية العرب ، ١١٢

(١٠٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(١٠٨) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٦

(١٠٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

قانون الأبصار ، وان ابن الهيثم قد زاد عليه بتشريح العين وتفصيل نظريات الضوء ، وذهب هذا النفر الى أن ما أورده ابن سينا في معرض تعريفه للبصر بأنه « قوة مرتبة في العصبة المجوفة ، تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقلية » . انما هو شرح لعملية الأبصار ليس الا .

ونحن وان كنا لا نتفق مع ما ذهبت اليه هذه الفئة ، لنرى أن في تناولنا لجهود الحسن بن الهيثم ، كشف لمنجزات العلماء العرب في الضوء والبصريات وتوضيح لما حققوه في هذا المجال ، سيما وأن البحث يبقى مبتورا بدون كشوفات الحسن بن الهيثم البصرية والضوئية .

الحسن بن الهيثم ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م

ولد ونشأ في البصرة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م . ثم نزح الى مصر في كهولته ، أثر استدعائه من قبل الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، عندما تناهى اليه قول ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا ، تحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الاقليم المصري »(١١٠) .

وفي محاولة لتنفيذ مشروعه ، سار ابن الهيثم الى الجنادل ، ولما لم يجد المكان العالي ، قفل عائدا الى القاهرة ، وتولى منصبا هاما في الدولة ، حتى اذا ما شهرت أفعال الحاكم وتعديه على الناس ، وحتى لا يتهم الحسن بن الهيثم بموافقته على أفعال الحاكم ورضائه عنه ، تظاهر بالخبل والجنون ، حتى اذا ما غابت سيرة الحاكم عاد الى حياة البحث والعلم في بيته بجوار الأزهر . ومنهجه في البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة والأخذ بالاستقرار والقياس ، وبذلك أنه يستقرىء الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز خواص الجزئيات ، مع انتقائه المقدمات ، ولذا كانت لابن الهيثم شفافية علمية خاصة في البحث ، تدفعه وباستمرار للمزيد من التوسع(١١١) والتعمق في سبر غور المسائل لتحقيقها . وقد صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، أشار اليها القفطي والبيهقي وابن النديم وابن أبي اصيبعة ، ودرسها حجاب في مقالته عن الثروة العلمية لابن الهيثم(١١٢) ، وحدد كتاب تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، أماكن توزعها في المكتبات العربية(١١٣)، ولا يزال الباحثون يعملون لكشف المزيد من تراث ابن الهيثم العلمي .

لقد كانت أبحاث ابن الهيثم موضع اهتمام كيلر وفنري وفيتلو وماكس مايرهوف حتى عد بحق أعظم فيزيائي في العصر الوسيط ، بل اعتبر هؤلاء أن عظمة الابتكار الاسلامي انما تتجلى في علم الضوء والبصريات ، وقد ألف ابن الهيثم في الضوء والاظلال وصورة كسوف القمر ، الا أن أعظم مؤلفاته كانت ، كتابه « المناظر » الذي اعتبر أكثرها شمولا ودقة وتحليلا ، حتى أنه لا يقل أهمية عن الكتب الحديثة المؤلفة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين ،

---

(١١٠) القفطي : تاريخ الحكماء ، ١٦٥ ، البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ٨٥ ، زهير الكتبي :.الحسن بن الهيثم ، ٩ ، ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ٥٥١

(١١١) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ٣٠. Irving : Readingson Logic .P. 256.

(١١٢) حجاب (محمد على) : الثروة العلمية لابن الهيثم ، مقالة مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والعدد ٢/ ١٣٦ - ١٣٨

(١١٣) انظر تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، رتبت وطبقت بحيدر أباد سنة ١٣٥٠سنة هـ .

وكيفية تكوين الضوء على شبكتها . وبالاجمال ، فانه يبحث عن أحوال حاسة البصر من جهة محسوساتها ومدركاتها وتتناول الكثير من ظواهر الضوء الأساسية وخواصه الذاتية ، وقد جاء الكتاب في سبع مقالات ، تناولت كيفية الأبصار وخواص البصر وتفصيل المعاني التي يدركها البصر وعللها وكيفية ادراكها وأغلاط البصر ، وفي ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصقيلة والخيالات ، وأخيرا في كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالفة لشفيف الهواء(١١٤) . والكتاب يحققه صبرا منذ ٣ سنوات . وكانت هذه من أعظم مآثر ابن الهيثم في الضوء ، حيث أبطل النظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي « أن الأبصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر » ، الا أن ابن الهيثم بين أن المبصر يجب أن يكون مضيئا ، أما بذاته ، أو باشراف ضوء من غيره ، وأن تكون بينه وبين العين مسافة ، وان يكون بين كل نقطة من سطح البصر وبين العين خط مستقيم غير منقطع بشيء كثيف ، واستنتج من ذلك ، على أن السبب الرئيسي للابصار هو وجود المبصر مع توافر هذه الشروط(١١٥) .

ويتم بسقوط شعاع أو حزمة من الأشعة على الجسم المرئي وانعكاسه على شبكية العين(١١٦) . وعلل عدم ازدواج الصورة اذا نظر الى الشيء بعينين ، وذلك ان صورة الشيء تتأدى في كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت الصورتان ، اذا كانتا متماثلتين مع أنهما صورتان لا صورة واحدة .

وذهب أبعد من ذلك ، وميز بين الأجسام المشفة التي ينفذ منها الضوء ولها قوة مؤدية للضوء ، والأجسام الكثيفة ، والتي لها قوة قبول الضوء ، ومن خصائص هذه الأجسام عند ابن الهيثم ، أنها إذا جاورت أجساما مضيئة بذاتها ، استضاءت من ضوئها ، وأشرقت منها بفعل هذه المجاورة(١١٧) . ومن ناحية ثانية فقد كان ابن الهيثم أول من أقام التجارب على البيوت المظلمة ، ودخول الضوء اليها من الثقوب ، وكانت المناسبة التي هدته الى ذلك هي محاولته اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطح الشمس ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا اياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة ، فتبين له أنه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا ، مما يدل على أنه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس ، ويرجح مصطفى نظيف ، ان الحسن بن الهيثم ، وهو يمعن النظر في مواقع الأضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره ، صورة منكوسة لجسم موجود في الخارج ، وقد عرض ابن الهيثم تجربته على الشكل التالي « اذا كان في موضع واحد عدة سرج في أمكنة متفرقة ، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد ، وكان ذلك الثقب ينفذ الى مكان مظلم وكان مقابل ذلك الثقب في المكان المظلم جدار أو قوبل بجسم كثيف ، فان أضواء تلك السرج تظهر على ذلك الجسم ، أو ذلك الجدار ، متفرقة وبعدد تلك السرج وكل واحد منها مقابل لواحد من السرج على السمت المستقيم الذي يمر بالثقب ، واذا ستر واحد من السرج ، بطل من الأضواء التي في الموضع المظلم الضوء الذي كان يقابل ذلك السراج فقط ، وأن رفع الساتر عن السراج ، عاد ذلك

---

(١١٤) صبرة : تطور نظريات الضوء منذ ابن الهيثم حتى الوقت الحاضر ، ٧٤

(١١٥) فروخ : عبقرية العرب ، ١٠٧ ، نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٤٢/١ ، جلال موسى : منهج البحث العلمي ، ٩٨

(١١٦) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٩٣/١

(١١٧) المرجع السابق ، ٨١

الضوء الى مكانه(١١٨) يضاف الى ذلك أن ابن الهيثم عالج الشروط اللازمة لوضع الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، فاشترط الضيق النسبي للثقب ، لأن الضيق يقلل الضوء ، فتكون الصورة أدنى الى الخفاء عن البصر(١١٩) .

كما درس ابن الهيثم خواص المرايا المتعددة ، وكيفية تجميع أشعة الشمس في نقطة واحدة ، تكون بمثابة النقطة التي تحدث فيها أشعة الشمس ، وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه الفرن الشمسي في زماننا .

وتعمق ابن الهيثم أيضا في استقراء أشعة الشمس الساقطة على مرآة ، والتي تتبعثر في اتجاهات كثيرة حسب السقوط .

ان هذه الدراسات مهدت الطريق لاختراع آلة التصوير - الكاميرا - بحجرتها المظلمة وعدستها ، وكذا الفائدة من العدسات اللامة والمفرقة للاشعة ، ومن ثم صناعة الآلات البصرية ، القائمة على تسخير ظاهرة الزيغ الكروي الطولي(١٢٠) لتحسين رؤية العين بتلك الآلات ، النظارات الطبية فيما بعد ، وقاده هذا لدراسة العين وتشريحها ، وله في ذلك جهد لا ينكر بفضل رسوماته التشريحية .

وتستحق آراء ابن الهيثم في ضوء القمر وماهية الأثر الذي في وجه القمر وقفة تأملية . فقد كان الرأي الشائع عند الطبيعيين أن « ضوء القمر مستفاد من الشمس ، وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلا لجرم الشمس »(١٢١) بمعنى أن القمر غير مضيء من ذاته ، وأنه يكتسب ضوءه من الشمس ، وذهب الطبيعيون الى أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه الى الأرض ، كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة .

ويعلق ابن الهيثم بقوله « ليس يوجد لأحد منهم قول برهاني يدل على أن ذلك واجب ضرورة ، ما لم يقم البرهان على أن ذلك واجب ، فليس يحتمل وجها غير ذلك الوجه الامكاني ، وكان مظنونا لا متيقنا(١٢٢) » فابن الهيثم يرى أنه ما لم يقم البرهان على ما ادعاه الطبيعيون ، تبقى أمكانية الاتيان بفرضيات أخرى لتعليل الظاهرة واردة ، بل وممكنة ، وأتى بتفسير للظاهرة مؤداه « أن ضوء القمر من خواص الأجسام المضيئة من ذاتها » ، اذ كل نقطة من سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها ، أي أن ضوء القمر ثانوي يشرق عن القمر كما يشرق الضوء الثانوي عن سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بالأضواء المشرقة من الأجسام المضيئة بذاتها(١٢٣) .

أما ماهية الأثر الذي يظهر في وجه القمر فهو على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في كيفية سواده . ويورد ابن الهيثم في رسالته عن مائية (ماهية) الأثر الذي في وجه القمر ، آراء الطبيعيين حوله ، من اعتقادهم أن الأثر من نفس جرم القمر أو خارج عن

---

(١١٨) المرجع السابق ، ٨٣

(١١٩) زهير الكتبي : ابن الهيثم ، ١٤٤

(١٢٠) نظيف : ابن الهيثم ، ١/١٢١

(١٢١) ابن الهيثم : رسالة في ضوء القمر ، ٣ ، ضمن مجموعة رسائل للحسن بن الهيثم ، حيدر اباد الدكن ، سنة ١٣٥٧ هـ .

(١٢٢) أنظر رسائل ابن الهيثم ، ص ٤ ، جلال موسى : منهج البحث ، ٩٩

(١٢٣) نظيف : الحسن بن الهيثم ١/٤٢

جرم القمر ، أو متوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه ، أو صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، أو أنه صور البحار التي في الأرض وترى بالانعكاس أو صور الجبال أو صورة قطعة من الأرض التي يقع عليها الشعاع المنعكس . وبعد أن يناقش ابن الهيثم هذه الآراء ويفندها ، يبين أن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية ، والظلمة في جرمه سببها أن ذلك الجزء لا يقبل الضوء قبولا تاما ، ويعلل هذه الظاهرة بالبراهين التالية :

ـ ان القمر يقبل الضوء من الشمس وليس فيه شيء من الشفيف(١٢٤) . ومعنى هذا أن في القمر القوة القابلة للضوء ، وليست فيه القوة المنفذة له .

ـ ان درجة قبول القمر للضوء تختلف من مكان لآخر على سطحه ويعزو ذلك الى كثافة ذلك الجزء .

وحري بنا أن نشير الى الدراسات الحديثة لسطح القمر ، والتي عللت الأثر بسبب وجود الجبال والوديان والحفر على سطحه . وليس ببعيد عما ورد في المقالة أن في جسم القمر تقعيرا ، فاذا أشرق عليه ضوء الشمس ، صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير ، والأثر هو ظل محيط التقعير(١٢٥) .

وأخيرا نشير الى مسألة على غاية الأهمية ، تعرف بمسألة الحسن بن الهيثم أو « مسألة الهازن » وملخصها « اذا تعرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها الى احدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها الى الأخرى بمثابة شعاع منعكس » وقد درس المسألة العديد من العلماء أمثال بودا وسارطون وفرنة وطوقان وفروخ والدمرداش ، ولكن مصطفى نظيف قد أتى ببرهانها في أكثر من مائة صفحة ، وناقش أوجهها حسب آراء ابن الهيثم(١٢٦) ، وهي تمثل ذروة النبوغ عند الحسن بن الهيثم لزوايا السقوط والانعكاس .

السوائل :

كان للعرب فضل بين في علم السوائل ، فقد شرحوا بعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وكان (منها جهم) واضحا ودقيقا وسهلا ، وقد حفظ لنا ابن عساكر رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه التي توضح مفهوم العرب لتكون ماء المطر في القرن الأول هـ . فالماء عند خالد بن يزيد ، من السماء أو من الغيم الذي يحمله من البحر ، حيث يعذبه البرق والرعد(١٢٧) ، ويضيف خالد ، ان باستطاعته تحليل مياه البحر ، وأحضر القلال الى المجلس ، ووصف كيف يصنع به حتى يعذب(١٢٨) ويبدو أن مسألة استخراج الماء العذب من البحر كانت معروفة ، فقد لاحظ الكرخي أن أهل السفن يستخرجون من قرار البحر الماء العذب ويشربونه ، وذلك بأنهم يتخذون آنية من الآنك ، مثقوبة من أسفلها ، وفي فمها أنبوبة متخذة

---

(١٢٤) أنظر ، مقالة أبي علي ، الحسن بن الهيثم في مائية الاثر الذي في وجه القمر ، مخطوطة مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٩٦ د ، نشرها عبد الحميد صبرة في مجلة تاريخ العلوم ، العدد الأول ١٩٧٧ ، ٥ ـ ١٨ .

(١٢٥) ابن الهيثم : مائية الأثر ، ١٢

(١٢٦) الكبيي : الحسن بن الهيثم ، ١٥٩

(١٢٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ، مخطوط ، ترجمة خالد بن يزيد ، بدران : تهذيب تاريخ دمشق ، ، ٥/١٢٣

(١٢٨) نفس المراجع السابقة .

من الجلود الرقيقة مشمعة ، فلا يدخلها الماء في خرزها ويسد فم الجرة بكرة مهندمة ، قد جعل فيها خيط ممدود في وسط الأنبوبة ، طوله مثل طولها ، وترسل الآنية الى قعر البحر ، وعند شد الخيط ودخول الماء اليها ، تخرج الآنية بالخيط المشدود في عروة مركبة عليها ، فيوجد فيها ماء عذب(١٢٩) .

وعرض البيروني لموضوع اتزان السوائل ، فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها ، وبين كيفية تجميع مياه الأبار والمياه الجوفية وكذلك صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وبنى عليه الينابيع وطريقة رفع الماء بأنابيب الرصاص والروافع والبرابخ ، مستندا في ذلك الى سلوك السوائل في الأواني المستطرقة حيث تتساوى السطوح ، فان انخفضت أحداهما عن الأخرى سال الماء الى أن ينتهي الماء أو تعود لحالة التوازن مرة أخرى(١٣٠) .

وقد حوى كتاب الخازني ، مواضيع هامة في موازنة السوائل ، منها على سبيل المثال ، موازاة عمود الميزان على سطح الأفق والميزان مائي ، وكذلك في أحكام الجسم المصمت (المجوف) في الماء وطفوه ورسوبه ، وعلل الحالات التي يمكن أن تغرق السفينة أو حتى حساب مقدار غوصها في الماء وهي محملة(١٣١) ، وكتاب ميزان الحكمة كتاب معتبر في علم الطبيعة العامة ، وعلم الهدروستاتيكا والميكانيكا خاصة(١٣٢) .

كما حظيت الخاصية الشعرية في الأنابيب الدقيقة ، باهتمام العلماء العرب ، اذ حددوا مدى امكانية صعود السوائل منها ، وتعليل ارتفاع الموائع فيها ، وهذا البحث قادهم الى دراسة التوتر السطحي ، Surface Tension (١٣٣) وفسر ايدمر بن علي ايدمر الجلدكي ، ظاهرة التموج في السوائل ، وجعله (أمر يحدث بعد صدم وسكون بعد سكون) .

ومن ناحية ثانية فقد وصف العلماء العرب طريقة لتجميد الماء في غير وقته ، باستعمال مقادير معلومة من الشب اليماني الجيد المسحوق ويضاف اليه ماء في قدر ، ويجعل في تنور ويطين عليه حتى يتبخر منه الثلثان ويبقى الثلث ، ثم يرفع في قنينة ويسد رأسها جيدا ، ويستعمل هذا الماء المحضر بالطريقة السابقة باضافته الى قناني مائية أخرى ، فتجمد ، وهناك طريقة أخرى استعملها المغاربة حيث ينقع بزر الكتان في خل مختمر جيد مركز ، فاذا جمد فيه ، يلقى في جرة أو حب مليء بالماء ، فانه يجمد ما كان فيه من الماء ، ولو في حزيران أو تموز(١٣٤) وقد اعتاد هارون الرشيد أن يحمل الثلج معه في أسفاره ، وكان يجلب له من الجبال الشمالية للعراق ، أو حتى من جبال لبنان ، الى أماكن حارة كالحجاز مثلا ، وهو أمر يقتضي المعرفة بوسائل جيدة لحفظ الثلج ونقله لمسافات طويلة ولعدة أيام .

الثقل النوعي :

ومن ناحية أخرى فقد عرف العرب الثقل لبعض

---

(١٢٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : أنباط المياه الجوفية ، ١٠ ـ ١١

(١٣٠) جلال شوقي : دراسات البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٩ ، البيروني : الآثار الباقية ، ٢٦٢ ـ ٢٦٣

(١٣١) عبدالرحمن الخازني : كتاب ميزان الحكمة ، ط حيدر ابد ، ٢٦ ـ ٢٨

(١٣٢) مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٤٧

(١٣٣) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم ، ١٤٠

(١٣٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٢٤ ، الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١

المواد الصلبة والسائلة ، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقترب أحيانا مما قدره علماء العصر الحاضر ، وفي بعض الأحيان تطابق الدراسات الحديثة . بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني (١٣٥) . وقد أوجد العلماء أجهزة لتعين الثقل النوعي ، فالبيروني مثلا استخدم جهازا لتعيين الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة ، ذا شكل مخروطي ، له مصب بالقرب من فوهته ، بحيث يتجه الى أسفل ، وتقوم طريقة البيروني على القاعدة المعروفة : الكثافة = الحجم/الكتلة = ث = ح/ك ، ولهذا كان يزن الجسم في الهواء وزنا دقيقا ، ثم يلقيه في الاناء المملوء بالماء ، فعندما يغمر الجسم في الماء يزاح الماء الى وعاء آخر ، وهو حجم الجسم المغمور ، وأهمية الجهاز ، أن يكون معروفا في هذه الفترة المبكرة من تاريخ العلوم (١٣٦) ويدخل في أبحاث الكثافة والحجوم وغيرها .

ان استعراض أرقام نتائج دراسات البيروني والخازن في الثقل النوعي ومقارنتها بالأرقام الحديثة تبين أن أرقام البيروني والخازن كانت قريبة جدا من القيم الصحيحة الحالية :

المادة	أرقام البيروني	أرقام المخازن	الرقم الحديث
الذهب	١٩,٢٩	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٤٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النحاس	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النحاس الأصفر	٨,٦٧٦	٨,٥٧	٨,٤ (١٣٧)

ولم تقف جهود العلماء العرب على دراسة الثقل النوعي للمواد الصلبة ، بل شملت أيضا المواد السائلة ، وكانت نتائجهم متفوقة في اقترابها من الأرقام الحديثة :

المادة	أرقام الخازن	الأرقام الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء اذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤ ـ ١,٤٢
دم الانسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥ ـ ١,٠٧٥

وتعتبر نسب الخازني دقيقة ، لأن فرق الاختلاف انما يعود الى طبيعة الماء والسوائل وليست للخطأ أو عدم دقة الطريقة(١٣٨) . فقد استعمل الخازن ميزان الهواء Aero Meter في ذلك ، وقد ذكر محيي الدين عبد القادر بن محمد الطبري ت ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨م . في كتابه « عيون المسائل من أعيان الوسائل » ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس والحديد ولبن البقر والجبن والزيت والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد ، واللازورد والعقيق والماء والزجاج(١٣٩) .

---

(١٣٥) في مكتبة الأقمار الثلاثة للروم الأرثوذكس ، بيروت ـ هناك رسالة في النسب التي بين الفلزات والجواهر ، أنظر المشرق ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٠٦ ، ٩

(١٣٦) جلال شوقي : دراسة البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٤ ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم حلب ٧٧ ، ٢٦٤

(١٣٧) الأرقام مقارنة الى الماء ، على أساس أن الوزن النوعي للماء = ١

(١٣٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٢٨

(١٣٩) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٤٠ ، الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

ان التعمق في دراسة كثافة الأجسام ، وثقلها النوعي ، كانت الموحى للعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس ، بفكرة الطيران المعروفة النهاية(١٤٠) ، اذ وقع وأصيب بكسور سببت له آلاما عاشت معه لسنوات قبل وفاته .

الحركة :

حدد ابن سينا في كتابه الشفاء العناصر الأساسية للحركة وهي ، المتحرك والمحرك وما منه واليه ، والزمان(١٤١) . ويرى أبو البركات هبة الله ابن ملكا البغدادي ان اتصال الزمان لازم لاتصال الحركة(١٤٢) .

وقد قسم فلاسفة العرب الحركة الى عدة أقسام منها : الحركة الانتقالية والحركة الوضعية ، والحركة القسرية والحركة الطبيعية(١٤٣) . وفي عصرنا يقوم علم الحركة على قوانين ثلاثة ، جرى العرف على نسبتها جميعا الى اسحق نيوتن ، علما أن بين العلماء سواء من المشرق أو المغرب من سبقوه اليها ، غير أن فضل نيوتن في حسن وجودة صياغته لها ، وتحديده صورها الرياضية وعلى الأخص القانون الثاني(١٤٤) .

وقد جمع الجرجاني ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتابه « التعريفات » الحالات الممكنة للحركة في الكم والكيف والأين والوضع والحركة العرضية والذاتية والقسرية والارادية والطبيعية(١٤٥) . ولا تخرج قوانين الحركة عن هذه المضامين كما يتضح من مناقشتها .

القانون الأول :

يقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة ، ويتعلق القانون بخاصية القصور الذاتي أو العطالة .

وقد تناول اخوان الصفا أجزاء من القانون في رسائلهم في أكثر من وضع عند حديثهم عن الحركة ، فالأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج الا بقسر قاسر ، فمتى وقفت الدابة ، سكن الدولاب وعدم الاستقاء(١٤٦) .

وابن سينا في الاشارات والتنبيهات ، ذكر « انك لتعلم أن الجسم اذا خلي وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين فاذن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك(١٤٧) . وما يريد ابن سينا بيانه ان الجسم لا يخلو من موضع وشكل طبيعيين ، لأن فيه طبيعة تقتضي ذلك ، شريطة أن لا يعرض له من الخارج أي تأثير ، لأن التأثير الخارجي ربما جعل للجسم موضعا وشكلا قسريا ، كتأثير الحرارة والاناء المكعب في الماء .

---

(١٤٠) الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

(١٤١) المتحرك : الجسم الذي فيه الحركة ، المحرك : القوة المسببة للحركة ، ما فيه : المكان والموضع ، ما منه وما اليه : مواضع الابتداء والانتهاء ، والزمان : الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال .

(١٤٢) العراقي (محمد عاطف) : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ط مصر سنة ١٩٦٩ ، ١٩٦

(١٤٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ١٢٢ .

(١٤٤) :جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيك ، ٢٦

(١٤٥) الجرجاني (علي بن محمد) : التعريفات ، ٤٥

(١٤٦) اخوان الصفا : الرسائل ، ٣/ ٣٣٣ ، ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٥٤

(١٤٧) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٧٣

وعليه فان مبدأ القصور الذاتي أشار اليه ابن سينا أيضا في طبيعيات الشفاء حيث ان الجسم وهو في حالة الاندفاع تكون قوته المستمدة من السبب الذي أثار حركته في الأصل ، قادرة على دفع تلك القوة التي تعوقه عن الحركة في اتجاه معين أي قادرة على مقاومة الوسط الذي تنطبق فيه ، حتى تتبدد أخيرا في الخلاء(١٤٨) .

وينبه ابن سينا الى أن الجسم له ميل للاستمرار في حركته ، يحس به المانع والذي لا يتمكن من منع حركته الا فيما يضعفها أولا ، حيث تأخذ الموانع الخارجية والطبيعية معا في افنائه قليلا قليلا(١٤٩) .

ومجمل القول ، ان ابن سينا قد توصل الى القانون الأول للحركة بشقيه الخاصين بحالة السكون وحالة الحركة المنتظمة ومدافعة الجسم وطلبه البقاء على حاله ومقاومته للتغيير ، وهي ذاتية خاصة بالجسم ، حال سكونه وحال حركته(١٥٠) .

ومن ناحية أخرى ، فقد تضمنت مباحث ابن الهيثم معنى القصور الذاتي ، فقد ناقش ذلك في وصفه حركة الكرة بعد ارتدادها من السطح ، اذ لا تلبث الكرة حتى تهبط الى أسفل للقوة الطبيعية المحركة لها الى أسفل ، كما أسند تغير قوة الحركة من حيث الكم والمقدار الى القوة ، وذلك واضح من اسناد تغير الحركة الى فعل الممانعة في أقواله عن الانعكاس وعن الانعطاف ، وكذلك في تحليله لفكرة الحركة الى مركبتين متعامدتين(١٥١) . وقد تضمن كتاب المناظر شرحا للأوضاع التي يراها ابن الهيثم لتصادم الأجسام .

لقد كانت دراسة الحسن بن الهيثم لحركة تصادم الأجسام دراسة علمية مؤيدة بالتجربة والتحليل ، فأمكنه التوصل الى القواعد الأساسية التي تحكم هذه الحركة ، ووقف على معنى كمي للحركة ، وقدم ابن الهيثم أول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام ، على أساس تباين ممانعة الاجسام للانفعال بالمصادمة(١٥٢) .

القانون الثاني :

وينص هذا القانون على أن القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك وتسارعه ، وبالتالي فانها تقاس بحاصل ضرب الكتلة والتسارع بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوة وعلى خط ميلها وبلغتنا الحديثة « تتناسب العجلة التي يتحرك بها جسم تناسبا طرديا مع القوة المؤثرة عليه ، وتناسبا عكسيا مع كتلته » .

ونستطيع القول أن العرب قد وقفوا على بعض المعاني الواردة فيه ، ولم يتوصلوا الى منطوق القانون ذاته ، ولنستعرض مقولات العلماء بهذا الصدد ، فابن سينا يرى بأن القوة في الجسم الأكبر ، اذا كانت مشابهة للقوة في الجسم الأصغر حتى لو فصلت من الأكبر مثل

---

(١٤٨) نصر (سيد حسين : ثلاثة حكماء مسلمين ، ٤٨

(١٤٩) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢٨٣/٢

(١٥٠) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦١

(١٥١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٤٨/١

(١٥٢) جلال شوقي : تراث العرب ، ٥٥

Singer Ashort History & Scientific Ideas, P.153-155

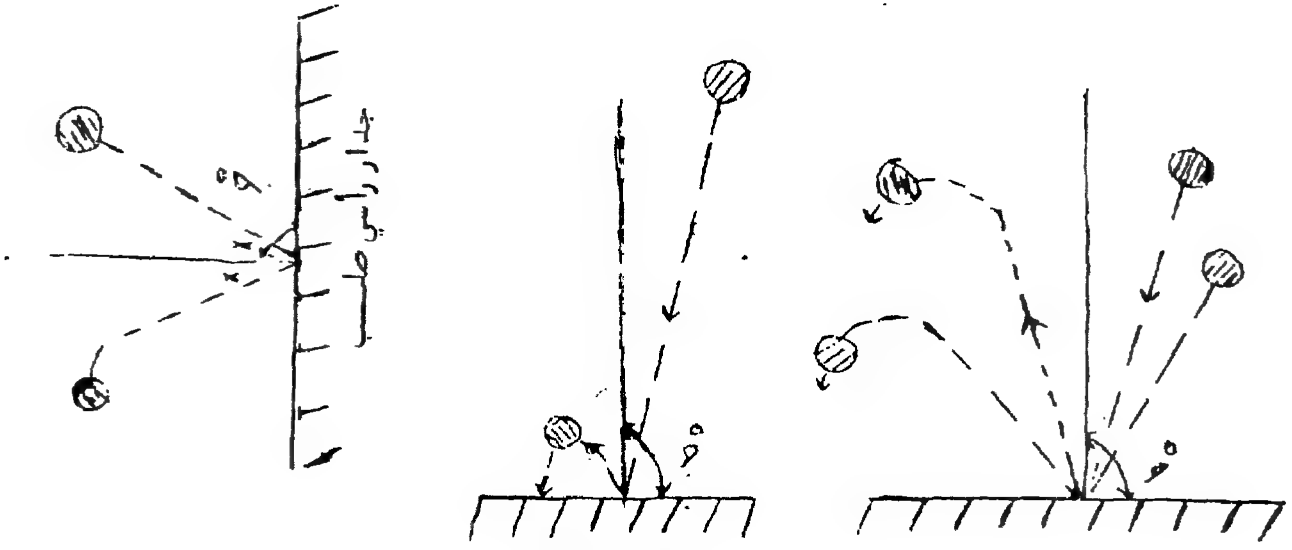

سطح تصادم أفقي صلب
(أ)

سطح تصادم أفقي رخو
(ب)

(ج)

(شكل / ٢ مسار الجسم الصادم قبل وبعد المصادمة)

عن كتاب تراث العرب العلمي في الميكانيكا لجلال شوقي

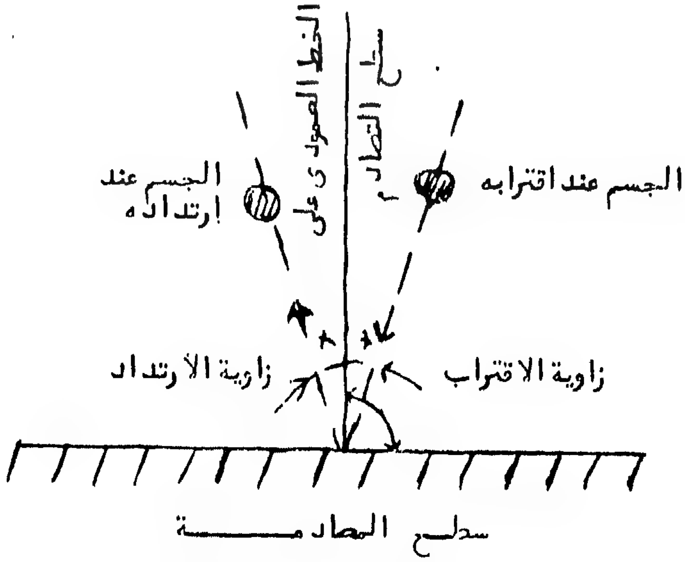
الخط العمودي على سطح التصادم
الجسم عند اقترابه
الجسم عند ارتداده
زاوية الاقتراب
زاوية الارتداد
سطح المصادمة

(شكل/٢' تساوى زاويتي الاقتراب " السقوط " والارتداد (الانعكاس)
عند تصادم جسم مع سطح أملس .

الأصغر ، تشابهت القوتان بالاطلاق ، فانها في الجسم الأكبر أقوى وأكثر ، اذ فيهما من القوة شبيه تلك الزيادة ، ويضيف ابن سينا بأن الجسم الأقل مقدارا أقبل للتحرك وأسرع حركة(١٥٣) .

ويؤكد فخر الدين الرازي ، ازدياد القوة الطبيعية مع عظم الجسم ، فالأجسام كلما كانت أعظم كان ميلها الى احيازها الطبيعية أقوى ، فاذا كانت كذلك ، كان قبولها للميل القسري أضعف (١٥٤) .

وذهب لمثل ذلك نصير الدين الطوسي في معرض شرحه لاشارة ابن سينا في الفصل التاسع عشر من النهج السادس من الالهيات ، وقد جاء منها « اعلم أنه لا يجوز أن يكون جسم ذو قوة غير متناهية يحرك جسما غيره ، لأنه لا يمكن أن يكون الا متناهيا ، فاذا حرك بقوته جسما ما ، من مبدأ نفرضه ، حركات لا تتناهى في القوة ثم فرضنا أنه يحرك أصغر من ذلك الجسم بتلك القوة ، فيجب أن يحركه أكثر من ذلك من المبدأ المفروض ، فتقع الزيادة التي بالقوة ، في الجانب الآخر ، فيصير الجانب الآخر متناهيا أيضا ، وهذا محال(١٥٥) ويشرح نصير الدين الطوسي هذه الاشارة على الكيفية التالية ، ان القوة التي لا نهاية لها ، هي التي تكون على أعمال أو حركات غير متناهية ، والحركة غير المتناهية هي الدورية ، وفي مثل هذه الحالة ، فان القوى الجسمانية غير متناهية ، ثم اذا فرضنا ان ذلك الجسم المحرك ، يحرك جسما آخر شبيها بالجسم الأول في الطبيعة ، وأصغر منه في المقدار ، بتلك القوة عينها من ذلك المبدأ المفروض ، فيجب أن يحرك الثاني أكثر من الأول ، وذلك لأن المقسور انما يعاون القاسر بحسب طبيعته المخالفة لطبيعة القاسر ، ويستنتج نصير الدين بأن القوة غير المتناهية لو حركت بالغرض جسمين مختلفين ، لوجب أن يكون تحريكها اياهما متفاوتا(١٥٦) .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي ت ٥٤٧ هـ في كتابه « المعتبر في الحكمة » بازدياد السرعة عند اشتداد القوة ، فكلما زادت قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك وقصر الزمن لقطع المسافة المحدودة .

وكل هذه النصوص تبين أن العرب قد وقفوا على ما يكاد يكون كل معاني القانون الثاني للحركة ، وان لم يتوصلوا الى صياغته بشكل رياضي مناسب كما فعل اسحق نيوتن بعدهم(١٥٧) .

القانون الثالث :

وينص هذا القانون على أن « لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ، ومضاد في الاتجاه » .

ولنا أن نقرر ، أن العرب قد قالوا بأصول هذا القانون وعلى الأخص ، أبو البركات ، هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه المشار اليه سابقا ، وكان يراقب لعبة شد الحلقة من قبل متصارعين ، فذهب الى أن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين ، لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر ، فان غلب أحدهما ، كانت قوته مقهورة وليست معدومة .

---

(١٥٣) ابن سينا : الطبيعيات ، ١٥ ، جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٦

(١٥٤) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٧

(١٥٥) ابن سينا الاشارات والتنبيهات ، ٣/ ١٦٥

(١٥٦) المرجع السابق ، ١٦٧

(١٥٧) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٩

أما فخر الدين الرازي ، في كتابه « المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعيات » عند حديثه عن الميل والمدافعة ، فيرى ، أن وقوف الحلقة في الوسط بين المتجاذبين تدل على فعل كل منهما فيها فعلا متساويا وهو يتعدى المدافعة أي قوة الدفع وهو غير قوة الجذب أيضا . ويقرر أن الذي فعله كل منهما لو خلي عن المعارض (العائق) لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه ، وانتهى أن ما حدث يتعدى العلة الطبيعية والقوة النفسانية .

ومجمل القول ، أن العرب بالفعل قد توصلوا الى أصول القانونين الأول والثالث للحركة ، وكادوا أن يتوصلوا الى القانون الثاني للحركة في صورته الكاملة(١٥٨) .

أما الجاذبية الأرضية :

فقد درس العرب منذ القرن التاسع الميلادي ، قوة التثاقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية ، وسموها القانون الطبيعي أو الميل الطبيعي ، حيث افترضوا أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون ، فاذا ما أخرج منه قسرا ، نزع الى استعادة مكانه الطبيعي . وقد درس مجموعة من العلماء تفاصيل تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية . ومنهم على سبيل المثال ، ثابت بن قرة ، واخوان الصفا ، والبيروني وابن سينا ، وأبوالبركات هبة الله بن ملكا البغدادي وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي ، وذهبوا الى أن الجسم وهو يجاهد ليأخذ مكانه الطبيعي ، انما يسلك في ذلك أقرب الطرق ، الخط المستقيم ، كما حاولوا أن يعللوا العديد من خواص الجذب ، فالمدرة عند ثابت بن قرة انما تعود الى السفل ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض من البرودة واليبوسة والكثافة ، والشيء ينجذب الى مثله والأصغر ينجذب الى الأعظم ، والى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد . وعند اخوان الصفا أن الاجسام وهي في أمكنتها الطبيعية الخاصة لا توصف بالخفة أو الثقل ، فاذا ما خرجت من أمكنتها وصفت بالثقيلة ، ان كانت حركتها نحو المركز (مركز الأرض) ، وبالخفيفة ان كانت حركتها نحو المحيط ، ولعل الثقل والخفة تكون أيضا بسبب الموانع التي تعوق الجسم من أن ينتظم في مكانه الطبيعي ، فيقع التنازع ، ويكون على أشده في المركز وأضعفه في المحيط(١٥٩) ولا تتعدى آراء ابن سينا هذا الاطار في الثقل والخفة ، ولم يأت فيها بجديد ، وانما عرضها على النهج الارسطوطالي ، فلكل جسم مكانه الطبيعي أو ميزة تقتضي طبيعته أن يتحرك اليه ، فالنار مثلا تتحرك الى أعلى ، والحجر عادة وطبيعيا يتحرك الى أسفل(١٦٠) ، والمتحرك الى الوسط هو الذي يسمى ثقيلا ، اما المتحرك عن الوسط فيكون خفيفا(١٦١) ، وقد علق فخر الدين الرازي على هذه المسألة بأن كل جسم له ميل الى المكان الملائم وميل عن المكان الغريب ، والميل هو الثقل والخفة(١٦٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك علماء العرب ، أن قوة

---

(١٥٨) المرجع السابق ، ٧٢

(١٥٩) اخوان الصفا : الرسائل ، أنظر رسالة السماء والعالم

(١٦٠) أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ٣٠٣ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٨٨

(١٦١) ابن سينا : الطبيعيات ، ٩

(١٦٢) المرجع السابق ، ٩٩

التثاقل تزيد بكبر الجسم وانها تسلك أقصر الطرق في تساقطها ، وتزيد سرعته مع مسافة السقوط ولا تعتمد تلك السرعة على كتلة الجسم ، وبهذا الصدد يذكر هبة الله بن ملكا في كتابه المعتبر في الحكمة « وأيضا لو تحركت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد ، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، في السرعة والبطء ، لأنها انما تختلف الملائمة بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق ، كالماء والهواء وغيره(١٦٣) . وهذه الأخيرة انما هي مبادىء للديناميكا الهوائية ، حيث ان مقاومة الهواء تختلف باختلاف الشكل الهندسي للجسم الذي يخترق الهواء ، فالسهم المائل مثلا يجعل من الهواء وسطا حاملا له ، في حين أن الشكل المخروطي يلقي مقاومة من الهواء . ولعمري انها اللبنة الأولى لدراسة حركة الأجسام في الهواء ، وما يسمى في عصرنا « الديناميكا الهوائية »(١٦٤) .

ولم تتوقف بحوثهم عند هذا الحد ، فقد أدركوا أن للهواء وزنا ، وأن له قوة رافعة كما في السوائل(١٦٥) ، وأدرك الخازني أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وعلل ابن سينا حركة الرياح بتخلخل جهة من الهواء لسخونة أو برودة وكذا الشمسيات التي هي كالشموس ، خيالات تحدث في مرآة شديدة الاتصال والصقالة ، والنيازك عند ابن سينا ، خيالات أيضا في لون قوس قزح ، الا انها مستقيمة ، تكون في جنبة الشمس يمنة عنها أو يسرة ، لا تحتها ولا أمامها ، وقلما تظهر عندما تكون الشمس في نصف النهار ، وانما عند الطلوع أو الغروب ، ولا يختلف هذا القول عن ما ذهب اليه العلم الحديث . وقد صحح البيروني مقولات الهنود حول ظاهرة المد والجزر ، وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر(١٦٦) .

ولعل البيروني خير من فهم هذه الناحية من العلماء في عصره فهما علميا صحيحا ، فقد عرف بأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها ، وأن الأجسام تنزع دوما الى المركز(١٦٧) ، وأورد الادريسي أن الأرض جاذبة لما في أبدانهم (أي أبدان الاجسام) من الثقل وتكون الارض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد . وعرف الخازني في « ميزان الحكمة » أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها الى مركز الأرض ، وتجاوز ذلك الى معرفة نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام ، « فالثقل هو القوة التي يتحرك بها الجسم الثقيل الى مركز العالم » والسرعة تزيد عندما يكون الوسط (الهواء) رطبا وغيرها من الأمور(١٦٨) .

ومن ناحية أخرى ، فقد سخر العرب ظاهرة الجاذبية الأرضية لخدمة حياتهم اليومية ، وخاصة في الابرة المغنطيسية ، اذ استعملوها في أسفارهم البحرية لتحديد الاتجاهات ، ولأغراض أخرى ، بعد تطور معرفتهم العلمية ، ومع أن اليونان قد عرفوا المغناطيس ، وتأكدوا من اتجاهه نحو الشمال والجنوب على الأقطاب المغناطيسية الأرضية ، الا انهم لم يعرفوا

---

(١٦٣) جلال شوقي : تراث العرب ، ٨٣

(١٦٤) هبة الله بن ملكا : المعتبر ، ١٠٧/٢

(١٦٥) الخازني : ميزان الحكمة ، ٥

((١٦٦) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ٤٢٨/١٣٧

(١٦٧) المرجع السابق ، ، ٢٢٣

(١٦٨) الخازني : ميزان الحكمة ، ١٦ ـ ٢٠

البوصلة ، الاختراع الذي تنازعه كل من الصينيين والعرب والطليان ، وتسقط دعوى الايطاليين لأنها تنسبها الى جيرارد الكريموني ، والذي أثبتت الدراسات المحدثة الموثوقة ، ان جيرارد اعتاد أن ينسب ما ترجمه من التراث العربي لنفسه ، فيدعي التأليف وما هو بأكثر من مترجم وحتى مترجم ضعيف لأنه لم يكن يجيد العربية ، اما الادعاء الصيني فان المؤرخ الصيني Chuyu يذكر أن الصينيين عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجانب هنود أو عرب ، وحيث أن المراجع الهندية لا تذكرها ، فاننا نرجح انها وصلت الصين مع الملاحين العرب الذين كانوا يجوبون الهند والصين في رحلاتهم البحرية وأن البوصلة تطوير عربي لفكرة الابرة المغناطيسية وامرها معروف .

ومن الجدير بالذكر ، ان بطرس فون ماريكو ، نقل مباشرة معلوماته عن المغناطيس من العرب ، وكذا كيفية استعمال البوصلة ، وأدخلها الى أوربا ، ورسالته المسماة « Epistole Mayneie » مشهورة ومعروفة في الأوساط العلمية الأوربية(١٦٩) .

أثر الفيزيائيين العرب في الترقي الأوربي :

يعد ابن الهيثم أعظم الفيزيائيين العرب بابتكاراته واختراعاته المتعددة ، ويبدو ان اهتمام علماء أوربا به في بدء نهضتهم يفوق اهتمامهم باي عالم آخر ، ولعل سارطون أصاب كبد الحقيقة حين قرر « ان ابن الهيثم هو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله » . ويبدو ان شهرة ابن الهيثم الأوربية ، انما تعود الى اطلاع الاوروبيين على كتابه « المناظر » منذ فترة مبكرة ، لا سيما وان كتابه « المناظر » يعتبر أهم كتاب ظهر في القرون الوسطى ، لانه استوفى العديد من البحوث الضوئية ، وعالج القوانين الأساسية للانعكاس والانكسار والانعطاف ، تلك القوانين التي تعرف خطأ بقوانين ديكارت بالاضافة الى المواضيع الأخرى ، مما حدا بـ H.Sutter أن يذكر بأن هذا الكتاب « المناظر » قد أثر تأثيرا عظيما في دراسة علم المناظر أثناء القرون الوسطى من عهد روجر بيكون الى عهد كيلر(١٧٠) .

كان العالم البولوني Witello أول من نشر كتابا في البصريات في أوربا سنة ١٢٧٠ م . ، وضعه كما قال هو نفسه على أساس ما جاء في كتاب بطليموس القلوذي ، وكتاب آخر لمؤلف عرف في العالم اللاتيني باسم « AL-Hazen »(١٧١) وما هو الا الحسن بن الهيثم .

ان هذه الاشارة التي أوردها « witello » ، كانت بداية التوجه الأوربي نحو دراسة منجزات الحسن بن الهيثم ، ومن يومها ، وأبحاث الحسن بن الهيثم تجد مكانها في الدراسات الأوربية اما بصورة مشتهرة أو بالاقتباس الضمني ، فقد درس جون بيكام سنة ١٢٩١ م ما أسماه « علم المناظر » ولدى تدقيقه من قبل الدوميلي ، خلص الدوميلي بنتيجة مؤداها « ان مناظر J .peckam » ليست الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم »(١٧٢) . أما روجر بيكون فكان أكثر نبلا ممن

---

(١٦٩) الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٣٦٠

(١٧٠) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٩٢

(١٧١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢

(١٧٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٠٨

سبقوه ، فاعترف بأيدى ابن الهيثم فيما توصل اليه من نتائج دراساته البصرية والضوئية سنة ١٢٩٤ م . وقد نشر رزنز سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها « الذخيرة في الأوبتيكي للحسن » وقد بقيت الترجمة دستورا للبصريات حتى القرن السابع عشر(١٧٣) . وتواكبت الدراسات عن ابن الهيثم فيما بعد ، فقد اطلع E .Weidemann على مخطوط عربي عنوانه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » لكمال الدين الفارسي ، فألف على أثرها zu ibn alhaitams optik ، وترجم كيفية الأظلال ، وفقرات من رسالته في المكان ، ومسألة ابن الهيثم العددية ، التي أشرنا اليها سابقا ، ورسالته في المرايا المحرقة بالدوائر(١٧٤)

ومن الدراسات المحدثة التي جعلت ابن الهيثم وكشوفه عناوينها الرئيسية نذكر :

H. J. Winter: The Optical researches of Ibn Al-Haitham in Contaurus, 31 (1954) p. 19-120
O. S. Marshall: Al-Hazen and the telescope, Astronomical society of the pacific; San Francisco, 1950
Donald, R. Hill: On the Construction of water Clocks, The Art Bulletin, 11, 1920,p.206-214 .
Library of the University of Leiden .

وقد ترجم جيرار دي كريمونات ١١٨٧ ، رسالة ابن الهيثم في الشفق ، ونشرت رسالته في الضوء في المجلة الآسيوية - الألمانية (z d m g) في العدد ٣٦ ، الصفحات (١٩٧ - ٢٣٧) ، نشرها المستشرق بارمان ، وفيها بحث عن ماهية الضوء وكيفية انتشاره والأجسام المشفة التي تنفذه .(١٧٥) .

وترجم Carl Shoy مقالة ابن الهيثم في الأثر الظاهر في وجه القمر ، وكان عنوان مقالته في سنة ١٩٢٥ ،

Abhandlung des Shaicks... Ibn Al-Haitham: Uber die Natur der Spuren (Flecken), die man der Oberflache Des Mondes sieht, Hannover, 1925.

واعادها عبد الحميد صبره فيما بعد في مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ، العدد الأول ونشر أرمان آبل بحثا عن المقالة بالفرنسية بعده بعشر سنوات وعنوانه

La Selenographie d'Ibn Al-haitham (965-1039) das ses rapports avec la sciences, Bruxelles, 19-23, Juin, 1935,p. 76-81.(١٧٦)

ومع أن كاجوري يقر في كتابه history of physics ، بأن الحسن بن الهيثم كان أول طبيب وصف العين بصفة تشريحية ، فقد نسب اكتشاف الخزانة

---

(١٧٣) مختار القاضي : أثر المدينة الاسلامية في الحضارة الغربية ، ٢١١

(١٧٤) المرجع السابق ، ٢١١

(١٧٥) المشرق : السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧

(١٧٦) عبد الحميد صبرة : مقالة الحسن بن الهيثم ، حلب ، المجلد الأول ، العدد الاول ، أيار سنة ١٩٧٧ ، ٥ عبد الرحمن بدوي : أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم ، عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ٣٩

المظلمة ذات الثقب الى باتيستا دلابورتا من خلال وصفه لها في كتابه Magia naturalis (السحر الطبيعي) . ونحن وان كنا نقدر له رأيه ، فنورد ان حنين بن اسحق في مقالاته العشر عن العين قد سبق ابن الهيثم في تشريح العين ، كما أن دلابورتا يثير في كتابه المذكور ، مسألة تأثره بما توصل اليه ابن الهيثم بهذا الصدد(١٧٧) ، ولعل ابن الهيثم قد فسر عمل الكيرا تفسيرا مقبولا من الناحية النظرية والعلمية .

ولم يقتصر اهتمام علماء أوربا على منجزات الحسن بن الهيثم دون غيره ، فقد ترجمت أيضا بصريات الكندى الى اللاتينية ، وكان لها أثر في أعمال روجر بيكون وغيره . اما الكندي ت ٢٥٢هـ/٨٨٦ م فينسب اليه أكثر من ٢٦٥ بحثا على شكل رسالة ومقالة وكتاب في الفيزياء والطقس والمد والجزر والبصريات والصوت والموسيقى ، بالاضافة الى ماكتبه في المطر والضباب والرياح وأسبابها واتجاهها والكثافة والثلج والبرد والصواعق والرعد واختلاف سرعة الضوء عن سرعة الصوت(١٧٨) . ومعظم هذه الأبحاث وجدت طريقها الى الترجمة المبكرة .

وأخيرا فان نظرية ابن سينا حول القصور الذاتي ، ظهرت لأول مرة بصورة واضحة في كتابات peter olivi ، وحرفت على يد جون بوريدان غير أن البحث الأوربي المنصف اعترف بما قدمه علماء الفيزياء العرب في مجالات الحركة والقوى والجاذبية ، مما يتعذر معه على أي باحث في تاريخ العلوم ان يتجاوزه .

أما ما قدمه العرب في علم الحيل وصنعة الأواني وتأثر الأوربيين بها وعلى الأخص الروافع ، فهذا مما أشرنا اليه في القسم الأول من بحثنا هذا .

ان تاريخ العلوم حلقات متصلة ، وان تجاوز بعضها ، باعتبارها ليست ذات شأن يضعف حلقة النتاج الجديدة ، ولا يضر بأية حال بنية الحلقة المتخطاة ، وعندها ، فان اعادة الربط والوصل بين الحلقات يصبح أمرا محتما ، وهذا ما نحاول أن نجذره ، فهلا تعاونا ؟!

* * *

---

(١٧٧) لطيف : الحسن بن الهيثم ، ١٨٠ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢١٢

(١٧٨) مرحبا : المرجع في تاريخ ، ٣٢٣ .

قراءة ثانية في معجم البلدان لياقوت الحموي

احسان صدقي العمد
وزارة الاعلام ـ الكويت

(ملخص)

يعتبر معجم البلدان اهم مصنف في تراث الادب الجغرافي العربي ، وقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول هذا الكتاب ، حتى قال كراتشكوفسكي « لعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي افرد لياقوت[1] » . لكن الدراسات والأبحاث السابقة كانت في معظمها تتناول ـ على اهميتها ـ موضوعا واحدا من الموضوعات العديدة التي اشار اليها ياقوت عرضا أثناء تصنيفه الكتاب ويحاول هذا البحث من خلال قراءة متأنية لمعجم ياقوت البلداني النفيس ، أن يقدم عرضا موضوعيا لهذا المعجم ، ويوضح منهج صاحبه في البحث العلمي ، كما يبرز بعض الملامح السياسية الهامة التي يتضمنها معجم البلدان ، وبخاصة تلك المتعلقة بعصر ياقوت المضطرب الذي واكب المرحلة الاخيرة من الحروب الصليبية ، وطلائع الغزوة المغولية المدمرة للمشرق الاسلامي ، وكان للملامح الاقتصادية البارزة نصيب في هذا البحث ، وفي مقدمتها تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية ومصادر الثروة الاقتصادية والتجارية فيها ، اضافة الى بعض الظواهر الاجتماعية المتميزة التي رافقت تطور المجتمع العربي الاسلامي منذ الفترة السابقة على ظهور الاسلام وحتى عصر المؤلف الذي يغطي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ، أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وعرض البحث كذلك الى بعض السمات الثقافية للحضارة الاسلامية كما أشار اليها ياقوت في معجمه علاوة على التعرف على مصادره ومراجعه التي استقى منها معلوماته ومواد معجمه . ولم يغفل البحث الاشارة الى الملامح الأثرية المتناثرة في ثنايا

---

(١) كراتشكولسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ١٩٦٣ ، ١٠/٣٣٧ .

الكتاب ، ناهيك عن الدراسات الرائدة التي كتبت عن معجم البلدان .

تمهيد :

الذين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والادبية كثيرون ، منهم المعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون . وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم في معرض تقويمهم لتلك الآثار ، في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالافاضة والتخصيص . فابن خلكان وهو من المعاصرين ، يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية في تحصيل المعارف . . . وان الناس كانوا عقيب موته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه »(٢) ، والذهبي وهو من اللاحقين ينعته « بالأديب الاخباري صاحب التصانيف الادبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك »(٣) . وهو عند ابن تغري بردى المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط »(٤) .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى اهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فرين (Frahn) الذي كان اول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به ، وتبعه زميله سنكوفسكي (Senkowski) الذي وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد نديد له بحفظ آثار قيمة . . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الاوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار »(٥) وقفى عليه الأسباني بونس بويجس (Pons Boigues) فذكر أنه أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول افضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى » وأشار كراتشكوفسكي (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة . . فهو جماع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة »(٦) . وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للاشارات التجارية التي وردت فيه ، واعتبره أثرا جليلا في هذا الميدان ، كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافية(٧) . ونوه به المستشرق الفرنسي كارادوفو (Carra de Voux) حين قال « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر »(٨) .

واولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مماثلا بمعجم البلدان ، فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « اهمية فائقة ، اذ يصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي اصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر

---

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/ ١٨٠، ١٨٩ .

(٣) الذهبي : العبر ، ١٩٦٦ ، ٥/ ١٠٧ .

(٤) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ٨/ ١٨٧ .

(٥) فستنفلد : مقدمة معجم البلدان ، ١٨٦٦ ص٧

(٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ، ١٩٦٣ ، ٣٣٥، ٣٣٦

(٧) ارنولد : تراث الاسلام ط١ ، الترجمة العربية ، ١٩٧٢ ، ١٤٤

(٨) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافيا ، ١٩٥٩ ، ١/ ٧٤

الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، وهدانا الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصول عليها ، كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث »(٩) . وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية »(١٠) . وهو عند حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الاكبر ، وكنزها الذي يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية في كل العصور »(١١) . وعند عمر كحالة « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية واخبار الرحالين التي جمعها السلف »(١٢) .

صاحب المعجم :

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الاسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ، ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكر بن أبي نصر بن ابراهيم الحموي فيسميه ياقوتا ، وينسبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوت باحد الكتّاب لينتفع به فيما بعد في ضبط تجارته ، فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت أفقه ، ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها منطقة الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانيء الخليج وجزره ، وبخاصة جزيرة قيس التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي . وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر ، يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب ، حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسّب منها ، وحصّل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ، ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمضاربة . وقد أعطاه الأخير مالا خرج به للتجارة في جزيرة قيس ، فلما عاد من رحلته تلك الى بغداد عام ٦٠٦هـ ، وجد مولاه عسكر بن ابي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به ، وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله ، واستمر يعمل في التجارة بما فيها تجارة الكتب ، فكان يطوف بالبلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ، ويتعرف على العلماء وكبار القوم الذين يرغبون في هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق . لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت(١٣) .

وفي اثناء تجوال ياقوت في مدن خراسان أدركته جيوش التتار في مدينة مرو التي أحبها كثيرا وتمنى ان يقضي بقية حياته فيها ، فغادرها مكرها الى اربل ،

---

(٩) نفيس احمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ١٩٧٨، ١٠٣، ١٠٧

(١٠) زيدان : تاريخ آداب ، ١٩٦٧، ٢/ ٩٢

(١١) مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ١٩٦٧، ٤١٨

(١٢) كحالة : التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية ، ١٩٧٢ ، ٢٤٠

(١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩، ٥/ ١٧٨ - ١٨٩

ومنها الى الموصل بعد ان قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفي الموصل استأنف ياقوت عمله في نسخ الكتب ، وقد نسخ منها الكثير ، اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت٦٥٤هـ /١٢٥٦م) الـذي التقى بياقوت في الموصل ، ان ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد »(١٤) . واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦هـ ـ ٦٠٣هـ) ، امكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات اخرى من الكتب ، وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو في الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته وبخته . . . ويذيب نفسه في تحصيل اغراض هي لعمر الله اغراض من صحف يكتبها واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتاعه بها قليل ثم الرحيل . . . وهيهات مع حرفة الادب بلوغ وطر او ادراك أرب »(١٥) . وكتب ياقوت وهو في الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفادة عليه والاقامة في كنفه ، فلم يخيب القفطي رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث استمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى اهل العلم والادب . واكمل خلال تلك الفترة مسودة معجم البلدان الذي اهداه الى الوزير القفطي اعترافا بفضله عليه • ولم يلبث ياقوت ان توفي في حلب وهو في الخمسين من عمره (٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ) (١١٧٨ ـ ١٢٢٩م) .

وقد صنف ياقوت بالاضافة الى معجم البلدان عدة كتب وصل الينا منها ارشاد الاريب الى معرفه الاديب المشهور بمعجم الادباء ، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا . وفقد من مؤلفاته كتاب المبدأ والمال في التاريخ ، وكتاب الدول ، ومجموع كلام ابي علي الفارسي ، وعنوان كتاب الاغاني ، وكتاب أخبار المتنبي ، وكتاب معجم الشعراء . وقد اتهم ابن الشعار الموصلي ياقوت بأنه « كان ضنينا بما يجمعه ، لا يحب اطلاع احد على ما يؤلف ، شديد الحرص عليه ، لايفيد لمخلوق فائدة البتة ، وكان ربما سئل عن شيء وهو به عارف ، لم يجب عنه ، شحا وجفاء طبع ، هكذا كانت شيمته مع الناس ، وخلف كتبا ، وأوصى أن توقف ببغداد بدرب دينار بمسجد الشريف الزيدي ، شاهدته بالموصل ، وهو كهل أشقر أحمر اللون ، أزرق العينين ، وكانت بينه وبين أخي صداقة وأنس تام . واقتضيته شيئا من شعره ، فأجاب الى ذلك ، وجعل يماطلني ويعدني هكذا مدة من الزمان ، ثم سافر الى الشام فما عدت رأيته بعد ذلك »(١٦) .

وقد يكون في هذا الاتهام بعض مبالغة المتعاصرين وتنافسهم ، الا ان ياقوت يشير الى شيء من ذلك في مقدمته لمعجم الأدباء التي يقول فيها : « فقد رآني جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لآليء هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحلى على ترائب الكعاب ، فاستحسنوه ، والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم وبخلا بعطف جيده عليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين من العين والجنان ، مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها

---

(١٤) ابن الشعار : عقود الجمان ، خ استانبول ، ٩/ ١٧٠

(١٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩، ٥/ ١٨٤، ١٨٧

(١٦) ابن الشعار : عقود الجمان ، ٩/ ١٧٠ ، ابن المستوفي ، تاريخ اربل ، قسم٢ ، ٥٢٨

ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جُبلت ، وسجية اليها جُبرت . . وقد أقسمت ألا أسمح باعارته ، مادام في مسودته . . فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه في استوائه وما أظنهم يشقون غباره ويحسنون ترتيبه وأسطاره ، وأن وقفت لنظر الجميع ، فستعرف الظالع من الضليع ، فاذا هذبته ونقحته وبيضته ، فتمتع به ، واذكرني في صالح دعائك »(١٧) .

وفي قول ياقوت تبرير معقول لهذا التصرف الذي أجبر عليه كما يقول خوفا من أن يحذوا أقرانه حذوه مادام في مسودته ولم يخرج الى النور بعد ، فربما سطوا عليه أو انتحلوه وهو امر له في تاريخ الأدب العربي أشباه ونظائر . ولعل ذلك هو ما جعل ياقوت يقول في مقدمته لمعجم البلدان : « ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه الا يضيع نصبي ، ونَصْب نفسي له وتعبي(١٨) .

معجم البلدان :

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في طبعة بيروت المتداولة . وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته ، حيث بادر في تسويد أوراقه خشية بغتة الموت قبل تبلج فجره على حد تعبيره . وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ، ورفض بشدة اختصار الكتاب ، والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره . ويذكرنا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة ، الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة . ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر ، الا ان ياقوت تمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه(١٩) .

ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة ابواب ، وهو بعامة ، يغطي اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامي . ونشير ابتداء الى الاهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم ، لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلي :

أولا : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه ، وتتلخص في ما جاء في القرآن الكريم من حث للبشر على السير في الارض والتفكر في عاقبة من عمروها قبلهم ، وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارهم وفتوحها ووصف جغرافيتها ، والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب(٢٠) .

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين ، بالاضافة الى الفوائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ اهل الادب ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في اسفاره وحصّله في تطوافه وهو كما يقول اضعاف ذلك(٢١) .

---

(١٧) ياقوت : معجم الادباء ، القاهرة ، ١/٥٨ ، ٦٢،٦٣ ، الظالع : المتهم

(١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٥٥، ١٣، ١٤

(١٩) قارن : ياقوت ، معجم البلدان ، ١٩٥٥ الظالع : المتهم ، ١/١٣ ، البغدادى ، تاريخ بغداد ٢/١٦٣

(٢٠) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١ ـ ١٠

(٢١) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١١ ـ ١٢

ثالثا : منهج تأليف المعجم ، من حيث حرصه على توخي الدقة في الوصف ، وضبط الاسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك ، والاشارة الى ذلك قولا وكتابة منعا للبس والتحريف والتصحيف ، اضافة الى ميله الى الشرح والتفصيل ونفوره من الاجتزاء والاختصار ، وتنبيه القاريء الى ما يرد في الكتاب أحيانا من أساطير ، تبرأ من صحتها ، وأوردها على علاتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها ، وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطير تهم الباحثين في علم الميثولوجيا .

رابعاً وأخيراً : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب ، والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس ، عله يظفر منهم بالثناء والدعاء ، فينال ذكرا زكيا من المؤمنين ، ويحشر في زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو(٢٢) .

وأما البابان الأول والثاني فتنحصر فوائدهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها ، في حين افرد ياقوت الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم ، كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرستاق والطسوج ، والسكة بمعنى الطريق ، والمصر ، والقطيعة ، وغيرها ، سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتصنيف . وخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفيء والغنيمة ، وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان . وكانت المقدمة والأبواب الخمسة الأولى من كتاب معجم البلدان والتي لا تتجاوز الاربعين صفحة ، موضوع رسالة دكتواره لوديع جويدة ، نشرت في ليدن عام ١٩٥٩ بعنوان :

Jwaiden, Wadie: The Introductory Chapters of Yaqut's Mu'jam AL-Buldan, Leiden, 1959.

طريقة ياقوت في البحث العلمي :

التزم ياقوت طريقة علمية دقيقة في معجم البلدان تتمشى مع الروح الواضحة في مقدمته . وقد نوه بذلك عبد المعين الموحي في بحثه عن « الفكر العلمي عند ياقوت الحموي »(٢٣) . وتبدأ هذه الطريقة بذكر الأسماء الواردة فيه على حروف المعجم ، مع التأكيد على كتابة شكل تلك الاسماء بالحروف خوفا من الالتباس والتصحيف . ثم يعرض بايجاز سبب التسمية واشتقاقها اللغوي ، ويحدد مواقع البلدان وظروف فتحها في كثير من الاحيان ذاكرا اي معلومات مفيدة عنها ، ويخلص الى التنويه بأسماء المشهورين المنسوبين اليها . فكان معجم البلدان بهذه الطريقة اشبه ما يكون بالموسوعة الجغرافية والتاريخية واللغوية والادبية ، وجاء هذا المعجم اوفى واشمل عمل عربي من نوعه بعد معجم ابي عبيد البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) . ويبدو ان هذا الشكل الموسوعي في التأليف لم يرق لبعض المتأخرين على ياقوت مثل ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) والسيوطي (ت ٩١١هـ /١٥٠٥م) على اساس ان المعجم الجغرافي

---

(٢٢) معجم البلدان : ١/١٢-١٣

(٢٣) مجلة مجمع دمشق : مجلد ٤٦/٣٥٢

« ينبغي ألا يخلط بـه غيره ممـا يُبيَّن في علم آخـر لئـلا يتشعب الفهم ويـطول الكلام فيؤدي الى الامـلال ، وهذه حال معجم البلدان ، فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والبقاع على الربع المسكون من الارض مما ورد به خبر او جاء في شعر ، وبيان جهته من الارض وموضعه من اصقاعها ، فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه »⁽²⁴⁾ .

لكن هـذا الخلط والتنـويـع الـلاحق بـالمعلومـات الجغرافية المجردة الواردة في معجم بلدان ياقوت ، مهما كان الرأي فيه ، فانه يضفي على المعجم ترويحا وجمالا وفائدة يحس بها كل من أسعفه وقته بقراءة هذا المعجم المفيد ، كما أن ذلك يدل من ناحية اخـرى على ثقـافة ياقوت المتنوعة الواسعة ، والمامه الجيد بتواريخ البلدان واخبارها ، وتمكنه من لغة العرب وانسابهم ووقوفه على اشعارهم⁽²⁵⁾ اضافة الى معرفته بالفارسية وبشيء من اللاتينية ، كما يتضح ذلك من تفسيره الصحيح لاشتقاق اسماء بعض الاماكن والبلدان ، ويتجلى هذا على سبيل المثـال في اثناء حـديثه عـلى طرابلس ، وطيزنـابـاد ، وهمذان⁽²٦⁾ .

على ان اتباع حروف المعجم في ذكر المواد ، وان كان الغرض منه تسهيل طريق الفائدة من معجم البلدان من غير مشقة كما يقول صاحبه⁽²٧⁾ ، الا ان هذه الطريقة تفتت المعلومات البلدانية الخاصة بكل جزء من العـالم الاسلامي ، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ على السنين الذي يبعثر المادة التاريخية ولا يربط بين موضوعاتها . ولكن ليس بـالامكان تجنب هـذا التوزيـع في المعاجم الابجدية بعامة ما دمنا نـروم الحصول عـلى المعلومات المطلوبة بأقل جهد وأقصر وقت . ومع ذلك فقد بذل ياقوت جهدا رائعا ومشكورا في عرض مواد معجمه ، بهمة عالية وعمل دؤ وب ، ويمكن للباحثين المحدثين ان يصوروا خارطة كبيرة لذلك العالم الذي وصفه ياقوت ، ويحـاولوا جهـدهم وضـع اسـماء البلدان والأمـاكن في مواقعها ، وبالتالي يسهل استخراج خارطة مماثلة لكل جـزء من ذلك العـالم ، كما فعـل المستشرق الفـرنسي باربييه دي مينار (Barbier de Meynard) الذي وضع كتابا في جغرافية وأدب فارس وماجاورها معتمدا على معجم البلدان لياقوت كمصدر رئيسي في دراسته ، كما افاد المستشرق الانجليزي جي لي سترينج (G. Le Strange) من هـذا المعجم في وضع كتـابه الشهـير بلدان الخـلافـة الشـرقيـة (Lands of Eastern Caliphate)⁽²٨⁾ .

وقد حرص ياقوت في اثناء اعداد وجمع مواد معجم البلدان أن يـراعي أصولا علميـة دقيقة تثـير الدهشـة والاعجاب وهي :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها ، وهي كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذري ، وكتاب الفتوح لابي

---

(٢٤) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ١٩٥٤، ١/ز

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١٩٤١، ٢/١٧٣٣

(٢٥) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافية ، ١٩٥٩، ١/٧٣، ٧٤

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢٥، ٥٤، ٥/٤٠

(٢٧) نفس المصدر ، ١/١٥

(٢٨) العقيقي : المستشرقون ، ١٩٦٤، ١/٢١٤، ٢/٥١١

حذيفة اسحاق بن بشر القرشي ، وكتاب فتوح الشام لابي حذيفة بن معاذ بن جبل ، وكتاب خطط مصر للقضاعي ، وكتاب أبنية الأسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما ائتلف واختلف من اسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الاسكندري ، وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للحسن الهمداني ، وكتاب جبال تهامة لابي الاشعث الكندي ، وكتاب في مياه العرب للغندجاني ، بالاضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي الفها ابن خرداذبة وابن واضح ، والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والبشاري المقدسي والمهلبي وابن ابي عون البغدادي وغيرهم(٢٩) . ويلاحظ ان جانبا من هذه المؤلفات قد فقد اوضاع ولم يصل الينا بعد ، مما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها اهمية تراثية كبيرة ، ناهيك عما تدل عليه من سعة المصادر التي رجع اليها ياقوت في تأليف معجمه ، فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع في امهات الكتب ويعكف على الافادة منها والاقتباس عنها ، وقد اكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك « فما يعلم انه منذ كان عمره سبع سنين الى ان توفي ، ما خلت يده من كتاب يستفيد منه او يطالعه او يكتب منه شيئا أو ينسخه »(٣٠) . وكان ياقوت أمينا في الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر . وندد في مقدمته بمن يختلس مؤلفات الآخرين ويدعيها مثل الحازمي محمد بن موسى (ت ٥٨٤هـ /١١٨٨م) الذي اخذ مادة كتاب ابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري (ت ٥٦١هـ /١١٦٦م) المعروف باسم « فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع » ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « ما اتفق لفظه واختلف مسماه » والذي ما يزال مخطوطا(٣١) .

ويقول ياقوت في ذلك بعد أن اطلع على الكتابين « فوجدته ـ اي كتاب نصر ـ تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمرا وأحسن فيه عينا واثرا ، ووجدت الحازمي رحمه الله ، قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، فأما انا فكل ما نقلته من كتاب نصر ، فقد نسبته اليه واحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه »(٣٢) . وقد ألف المستشرق الالماني هير (M. Heer) كتابا حول مصادر ياقوت نشر في ستراسبورغ ١٨٩٨(٣٢) .

ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته واسفاره التي امتدت من النيل الى جيحون كما ذكرنا . وقد اشار ياقوت الى ذلك اكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك ، فنراه مثلا يسهب في الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ، ويقول عن الأخيرة « رأيت اطرافها وعاينت جبالها . . . ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة ، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة »(٣٤) ، ويذكر انه زار البصرة ثماني مرات . ويقول في اثناء تعريفه

---

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٢١/١

(٣٠) ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ١٩٨٠ ، ٥٢٧/٢

(٣١) الزركلي : الاعلام ، ١٩٦٩ ، ٣٣٩/٧

(٣٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١١

(٣٣) العقيقي : المستشرقون ، ٧١٦/٢

(٣٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/٤

بقرية بلجان بين البصرة وعبادان « رأيتها مرارا آخرها سنة ٥٨٨هـ أو بعدها »(٣٥) وكذلك الحال بالنسبة لجزيرة قيس في الخليج العربي(٣٦) ، والخليج العربي نفسه الذي يشير اليه قائلا : « وأما في زماننا هذا فاني سافرت في ذلك البحر وركبته عدة نوب »(٣٧) ، كما يشير الى زيارته للقدس واجتيازه ببلدة رأس العين في الجزيرة ، والى مشاهدته نهر جيحون وهو جامد في اعلاه وجار في اسفله(٣٨) ، وهكذا تتراوح عباراته في مثل هذه المواضع والبلدان بين شاهدتها ، وزرتها حينا ، واجتزت بها ، ورأيتها حينا ودخلتها حينا ، ورأيتها مرارا ، وهو امر يجعل من صاحب معجم البلدان شاهد عيان مستنيرا، ومصدرا موثوقا به في اي بحث عن المناطق والبلدان التي زارها ، ومن بينها منطقة الخليج في اواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة(٣٩) .

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمي الدقيق ، من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ ، فكان ياقوت لا يثبت القول المنقول في معظم الأحوال الا اذا اطمأنت اليه نفسه ، وقد اتبع ذلك في كثير من الاخبار كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم ، فبعد أن يعدد الروايات المختلفة في هذا الشأن يقول : « والذي تركن اليه نفسي انه اما ان يكون من التجمع ، او تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة »(٤٠) .

ويذهب مثل ذلك في تحقيقه لخبر فدك حيث يقول « وفي فدك اختلاف كثير في امره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء ، وأصبح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره احمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له »(٤١) .

فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح الاخبار ، ظل يبحث ويستقصي حتى يصل الى ضالته فيهدأ ويطمئن . وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان يحقق مواضع المحمدية حيث تبين له بعد البحث والتنقيب في المصادر وجود محلة بالري كانت تدعى ايضا المحمدية نسبة الى منشئها الخليفة العباسي محمد المهدي ، وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة « فلما وقفت على هذا فرج عني »(٤٢) . وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه في هذا الميدان ، مثل ابن الكلبي والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري والمسعودي وابن بطلان وغيرهم(٤٣) . وتوصل في نفس الوقت الى معلومات مفيدة عن طبرستان ، وبني النضير ، والبرامكة ، وآل الصفار ، ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم في أثناء حديثه عن مواقعها(٤٤) .

---

(٣٥) نفس المصدر : ١/ ٤٣٩ ، ٤٧٩

(٣٦) نفس المصدر : ٤/ ٤٢٢

(٣٧) نفس المصدر : ٥/ ٨

(٣٨) نفس المصدر : ١/ ٢٨٣، ٣/ ١٤، ٢/ ١٩٧

(٣٩) نفس المصدر : ١/ ٣٤٦، ٤٧٩ ، ٢/ ١٦٩ ، ٤/ ١٥٠ ، ٥/ ٨ ، ٤٠٣

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٣٣٧

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٢٣٩ . البلاذري : فتوح البلدان ، ٣٣ - ٣٨

(٤٢) نفس المصدر : ٥/ ٦٥

(٤٣) نفس المصدر : ١/ ٣٨٥ ، ٢/ ١٨٥ ، ٤٢٤ ، ٣٥١، ٥٠٤، ٤/ ١٥٤

(٤٤) نفس المصدر : ٤/ ١٢ - ١٦ ، ٢/ ٤٢٤

وكان ياقوت أيضا يراسل أهل الثقة من البلدان ويلتقي ببعضهم فيسألهم عن بلادهم ويستقصي منهم صحة الأخبار المنسوبة اليها ، مثل أصفهان ، وأندرين احدى قرى حلب ، ومرباط وهي ميناء ظفار(٤٥) . وتشبه اتصالاته بأهل الأمصار والبلدان التحقيقات الصحفية حول قضية اوموضوع من الموضوعات ، فقد سمع عن عادة غريبة كانت تنسب الى أهل مرباط بشأن اختلاط الرجال بالنساء ليلا خارج المدينة للسمر والمجالسة والملاعبة . وقد شك ياقوت في صحة الخبر ، فاجتمع برجل منهم أديب عاقل وجرى بينهما الحديث على النحو التالي :

ياقوت : « بلغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته ؟

الرجل : لعلك تعني السمر .

ياقوت : ما اردت غيره .

الرجل : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم انه لقبيح ، ولكن عليه نشأنا ، وله مذ خلقنا ألفنا ، ولو استطعنا ان نزيله لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه ، ولكن لا سبيل الى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة »(٤٦) .

أما الاستقراء والاستنتاج ، فقد توفرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد ، فنراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج مثلا اسم موقع ضيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، ويتوصل بذلك الى الحقيقة ، يقول ياقوت في ذلك « والذي يظهر لي من اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم ، أنه من عمارة الضيزن . . . ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد ، فتكلموا بها بالطاء فغلب عليها ، ومعناه عمارة الضيزن ، لأن اباذ العمارة . ثم وقفت بعدما كتبت هذا بمدة على كتاب الفتوح للبلاذري فوجدت فيه : قالوا كانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ ، نسبت الى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي . . . ، فاستحسنت لنفسي صدق ما ظهر لي فتركته على ما كان »(٤٧) . ومثل ذلك يقول عن المدائن « والذي عندي ان هذا الموضع كان مسكن الملوك من الاكاسرة الساسانية وغيرهم ، فكان كل واحد منهم اذا ملك بني لنفسه مدينة الى جنب التي قبلها وسميت مدائن »(٤٨) .

وأما الاجتهاد ، فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع ، كما فعل في محاولته معرفة اشتقاق اسم « مناة » اذ يقول : « لم اقف على احد يقول في اشتقاقه ، وأنا اقول فيه ما يسنح لي ، فان وافق الصواب فهو بتوفيق الله ، والا فالمجتهد مصيب ، فلعله يكون من المنا وهو القدر ، وكأنهم اجروه مجرى ما يعقل »(٤٩) .

واذا اعيت ياقوت كل هذه الوسائل والطرق في الوصول الى الحقيقة المنشودة ، اعترف بذلك اعتراف العالم الواثق من نفسه ، وأشار الى ذلك بعبارات واضحة كقوله عند الحديث عن غزوة ذي قرد : « وهذا

---

(٤٥) نفس المصدر : ٢٠٧/١ ، ٢٦١ ، ٤٢٤/٢ ، ٩٧/٥ ، ٢١٠

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٩٧/٥

(٤٧) نفس المصدر : ٥٤/٤ ، ٥٥

البلاذري : فتوح البلدان ، ١٩٥٧ ، قسم ثان ، ٣٤٨

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٧٥/٥

(٤٩) نفس المصدر : ٢٠٤/٥

الباب فيه نظر الى الآن لم يتحقق فيه شيء »(٥٠) ، كما ذكر مثل ذلك عن مدينة « جوسف » من أعمال قوهستان عندما قال : « لم أتحقق ضبطها ، ووجدته في بعض الكتب هكذا »(٥١) . ويقول عن دير الوليد « بالشام لا ادري أين هو »(٥٢)، وعن الصين يقول ياقوت « وهذا شيء من اخبار الصين ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فان كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذبا فتعرف ما يقول الناس »(٥٣) .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التي يخالجه شك فيها ، أو عجز هو نفسه عن تحقيقها ، وأجاز لباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك اكثر من مرة في معجم البلدان ، وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية ، اذ قال : « وفي اخبار الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا ، فقد اذنت له في اصلاحه مأجورا »(٥٤) وكرر مثل هذا القول في اسم موقع « القراري » حيث قال : « وأنا مشك فيه ، هل أوله قاف أم فاء ، ولعله منسوب الى رجل من بني فزارة وقد أذنت لمن حققه أن يصلحه ويقره »(٥٥) . وقال في تحقيقه اسم « عزور » : « انا اخشى ان يكون صحف بالذي قبله (اي عازورا) فتبحث عنه »(٥٦) . ومثل ذلك قال في « قاشره » من أقاليم لبله في الأندلس « ووجدت في نسخة اخرى من كتاب خطط الأندلس قاتيدة فتحقق »(٥٧) . وفي ذلك اكثر من دليل على دقة ياقوت العلمية وتواضعه .

رابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره ، وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ، ولكونها تخالف المألوف من العادة ، وقد استبعد ياقوت وقوعها ، وتبرأ من عهدتها وفند معظمها مؤكدا « أن الملة الاسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات » وكان المبرر عنده لايرادها حتى يعرف القاريء » ما قيل في ذلك حقا كان او باطلا(٥٨) . ويضيق المجال هنا عن ذكر امثال تلك الاساطير التي تصلح لبحث مستقل ، ويمكن للباحث في هذا المجال الرجوع الى مواد عديدة في معجم البلدان وردت فيها أساطير ، وكان لياقوت موقفه المذكور منها ، ومن بين تلك المواد : بغداد ، بلط ، الشحر ، مدينة النحاس ، النيل ، وأزوار وهمذان . وتشكل هذه الأساطير وما فيها من خيال واهداف ومعان ، مصدرا غنيا لهواة البحث في الميثولوجيا عند العرب والمسلمين(٥٩) .

---

(٥٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٢٤٩

(٥١) نفس المصدر : ٢/ ١٨٤

(٥٢) نفس المصدر : ٢/ ٥٤٠

(٥٣) نفس المصدر : ٣/ ٤٤٠ ، الموحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ،٤٦/ ٣٦٤

(٥٤) نفس المصدر : ٣/ ٩٨

(٥٥) نفس المصدر : ٤/ ٣١٦

(٥٦) نفس المصدر : ٤/ ١١٩

(٥٧) نفس المصدر : ٤/ ٢٩٧

(٥٨) نفس المصدر : ١/ ١٢ ، ٤٦٠

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٦٠ ، ٤٨٤ ، ٣/ ٣٢٧ ، ٥/ ٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٤١٢

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامي ، وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للاقطار التي زارها وتردد عليها ، كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلدان المشرق الاسلامي . وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر ، نذكر منها على سبيل المثال ، وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب ، وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندي) والخليج العربي ، وبحر الخزر ، وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل ، وظاهرة قصر الليل صيفا في بلاد البلغار التي ذكرها المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف ، حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس ، وذلك حين روي ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم ، اذا مر به احد تضيق نفسه ، فمنهم من يموت ، ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والفوائد(٦٠) .

على ان دقة ياقوت في معجم البلدان لم تكن كاملة تامة في جميع المواضع والأماكن التي تحدث عنها ، وقد أشار هو الى ذلك ونبه عليه كما ذكرنا ، وقد حاول عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت٧٣٩هـ /١٣٣٨م) حين اختصر معجم البلدان في كتابه « مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع » حاول ان يصحح ما يحتاج الى تصحيح في بعض مواد المعجم . يقول ابن عبد الحق البغدادي في ذلك : « وربما زدته بيانا في بعض المواضع ، أو أصلحت ما تنبهت عليه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لأنه (ياقوت) نقله عن غيره على ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك ، وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته ، وقد يكون مما رأيته في سفري واجتزت به ، وخاصة في أعمال بغداد ، فانه كثير الخطأ فيها ، ولم أقبل منه شرطه الذي شرطه ، ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره فان ذلك شرط لا يلزم ، ومظنة الفائدة تقدم »(٦١) . لكن الاخير لا يشير في كتابه صراحة الى المواد والمواضع التي اصلحها . مما جعل محقق مراصد الاطلاع على محمد البجاوي يشير الى ذلك في العديد من الهوامش ، وذلك في اي حال لا ينقص من قيمة معجم البلدان وأمانة صاحبه العلمية وبذله غاية جهده في الضبط والتحقيق .

ويكفي ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته وألمعيته وثقافته الموسوعية ، ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام في عصره ، وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه ، لما له من اهمية في التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لاقاليم المشرق الاسلامية التي لم تكد تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين حتى دهمها الغزو المغولي الذي كان ياقوت احد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملامح السياسية في معجم البلدان :

تتمثل أولى الملامح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان

---

(٦٠) نفس المصدر : ١/ ٢،٣٨٥/ ١١ ، المسعودي : مروج الذهب ، ١٩٦٥، ١/ ٢٠٥

(٦١) ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ، ١/ح

قراءة متأنية ، في الاحساس الواقعي الذي يحسه بوحدة العالم الاسلامي الكبيرة وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه ، والأخطار الداخلية والخارجية التي تهددته فترة من الزمن ، وهنا يعتبر ياقوت الحموي شاهد عيان واعيا لآثار المرحلة الاخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة ، التي استهدفت قلب العالم الاسلامي ، وبخاصة مصر وبلاد الشام . وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان يعتبر جانب منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستنير شاهد الاحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها . من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد ابن تكش بن أرسلان (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) المسئولية المباشرة في اضعاف قوة المسلمين في مقاطعات ما وراء النهر ، وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار في الشرق . وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون في ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار . وقد ادى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة . مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المسلمين في تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحوها وأهلكوا الحرث والنسل في ربوعها ، فكانت اولى المناطق الاسلامية التي هب عليها اعصار التتار المدمر . وقد اشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة كما يتمثل ذلك في قوله : « وأتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان ، أولا من خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان . . . فانه لما ملك ما وراء النهر واباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم احد ، عجز عن حفظ تلك البلاد بسعة مملكتها ، فخرب بيده اكثر تلك الثغور وانهبها عساكره . فجلا اهلها عنها وفارقوها . . . فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها . . ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦هـ التي لم يجر منذ قامت السماوات والأرض مثلها ، وهو ورود التتر خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هنالك متماسكا فيمن اهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة » . ويذكر ياقوت ان اجتياح خوارزم شاه لمناطق ما وراء النهر تم في حدود سنة ٦٠٠هـ « فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية (اي الخانات) »(٦٢) . ويصف النكبة التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان اهل تلك البلاد اهل دين متين وصلاح مبين ، ونسك وعبادة ، والاسلام فيهم غض المجنى حلو المعنى ، يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ، ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء »(٦٣) . وياقوت هنا يحمل خوارزم شاه كل المسئولية في هذه الاحداث التي انتهت بتقدم التتار نحو بلاد المشرق الاسلامي ، ولا يشير الى الدافع الذي

---

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٧٩ ، ٢/ ٤٧

(٦٣) نفس المصدر : ١/ ١٧٩

جعله يقدم على محاربة الخطا وهو ما ذكره بعض المؤرخين من ان سلطان سمرقند وبخارى المسلم هو الذي حرضه على ذلك لتخليص المسلمين في تلك المناطق من التبعية لزعماء مملكة الخطا الكفار(٦٤) .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة ، كلما ذكر مكانا وقعت فيه احداث مماثلة ، وبذلك ربط ربطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل ايضا في نطاق التصانيف الخاصة بالجغرافية التاريخية . وكثرت اشارات ياقوت المماثلة في اثناء تعريفه ببلدان الاندلس وما سقط منها في أيدي الاسبان ، وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين(٦٥) . كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التي كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية في شمال بلاد الشام ، وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم . وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت ، وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة ـ الحمداني ـ حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »(٦٦) .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح في البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية ، يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية ، وما بذله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الحدود ، وهو امر يتمشى مع السياسة الدفاعية التي تبنتها دولة بني العباس وعدم اخذها بسياسة الفتوح الأموية ، التي كانت ترى في الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم ، والتي بلغت احدى وثلاثين مسلحة ، ترابط في كل منها حامية يتراوح عدد افراد كل منها ما بين مائتين الى الفي مقاتل »(٦٧) .

ولا ينسى ياقوت ان يذكر الرباطات التي كانت منتشرة على طول حدود العالم الاسلامي البرية والبحرية ، وبخاصة في مناطق ما وراء النهر . فكان في منطقة بيكند بين جيحون وبخارى « من الرباطات ما لا اعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر اكثر منها ، بلغني ان عددها نحو الف رباط » . وكذلك الحال بالنسبة لبذخشان في شمال اقليم طخارستان المتاخم لبلاد الترك ، وباب الأبواب شمال ارمينية على بحر الخزر ، ودمياط وطرابلس (الغرب) ومنستير على الساحل الشرقي لتونس . ونقل ياقوت عن البكري وصفا لبلدة المنستير يفيد بأن هذه البلدة كانت تضم رباطات وحصونا للرجال والنساء ، اهمها القصر الكبير الذي يقال ان الذي بناه بالمنستير هرثمة ابن اعين القائد العباسي عام ١٨٠هـ/٧٩٦م . ويصف ياقوت هذا القصر بقوله : « وهو حصن كبير عال متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين

---

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، ١٩٦٦، ١٢/ ٢٥٩ ، سنجر المسروري : ذيل البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ، مخطوطة سراي احمد الثالث ، ٢٩٥٩/ ١٤٠أ

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٣٧٠

(٦٦) نفس المصدر : ٤/ ٢٩

(٦٧) نفس المصدر : ١/ ٣٦٠ ، ٥/ ٤٣ ، ٤٥ ، ٣٨٥

المرابطين ، وقد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن ، وفي قبلته حصن فسيح مزار للنساء المرابطات . . . واهل القيروان يتبرعون بحمل الاموال اليهم والصدقات ، وكانت هذه الرباطات تقوم في المدن الاسلامية الواقعة في الثغور الممتدة على طول حدود بلاد المسلمين ، مثل فرغانة واسفيجاب وفاراب وبيكند وطرسوس والموانىء الاسلامية المطلة على بحر الروم (المتوسط) . ويشير ياقوت الى ان الثغور الهامة كمدينة اسفيجاب والبلدان المجاورة لها ، كانت معفاة من ضريبة الخراج ، « وذلك ليصرف اهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الارض ، وكذلك كان ما يصاقبها من المدن »(٦٨) .

وفي هذا الميدان ، اي نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية ، يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة اخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التي كانت منتشرة على طول الخطوط الامامية للحدود من جهة ، وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة اخرى ، كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج بن يوسف الثقفي والي بني امية على العراق والمشرق في اواخر القرن الأول الهجري « فاذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً ، وان كان ليلا اشعلوا نيرانا فتجرد الخيل اليهم » . فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذار مبكر وسريع للمسلمين من الاخطار التي قد تدهمهم(٦٩) .

رابعا : اشاد ياقوت في اثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها ، كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح التتار لها ، اذ كان في منطقة غرشتان كما يقول : « عدل حقيقي وبقية من عدل العمرين ، واهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » . وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وارز وزبيب يحمل الى البلدان . ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطالقان ومرو وساوه التي كانت من اعمر بلاد الله وانزهها واوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة » ، كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها . وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضع سنوات يتنقل في ربوعها(٧٠) .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى ، نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية ، وعدم انفاقه على شؤون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل ، وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا . وقد اشار ياقوت الى خراب كرمان وعزا ذلك « الى اختلاف الايدي عليها وجور السلطان بها ، لأنها منذ زمن طويل خلت من سلطان يقيم بها ، انما يتولاها الولاة فيجمعون اموالها ويحملونها الى خراسان . وكل ناحية انفقت اموالها في غيرها خربت ، انما تعمر البلدان بسكنى السلطان » وتحدث ياقوت ايضا عن خراب عدد من قرى العراق ، وارجع السبب في ذلك الى « مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها ، علاوة على « اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا ،

---

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٧٩، ٣٠٣، ٣٦٠، ٥٣٣، ٢/ ٤٧٣، ٥/ ٢٠٩، ٢١٠

(٦٩) نفس المصدر : ١/ ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٥/ ٣٥٠

(٧٠) نفس المصدر : ١/ ١٧٩ ، ٤/ ٧ ، ٥/ ١١٤

اذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة ، اذ كان قصده ان يحوصل ويطير ، فجلا عنه اهله واستمر خرابه »(٧١) .

وهذا تعليل واقعي ودقيق يدل على نفاذ بصيرة ياقوت ، وصدق وصفه والمامه بأصول قيام الدول وزوال العمران . وقد خطا هذا التفكير العلمي في تعليل الظواهر التاريخية خطوات اوسع فيها بعد على يد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، والمقريزي في كتابه المعروف باغاثة الامة بكشف الغمة . بل ان هذا الموقف هو الذي جعل ياقوت يورد نقدا لظلم بني العباس في عهد ابي جعفر المنصور وخيبة الناس في آمالهم التي كانت معقودة على العباسيين لدى تسلمهم الحكم بعد بني امية(٧٢) .

خامسا : يتضمن معجم البلدان عدة اشارات تاريخية تلقي الضوء على بعض الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الاسلامية خلال القرون الستة الأولى من الهجرة ، ومن بينها احداث ادت الى توتر العلاقات بين المسلمين والروم في عهد الرسول ﷺ ، اذ اقدم الروم على قتل فروة بن عمرو الجذامي احد عمال الروم العرب في جنوب بلاد الشام بسبب اسلامه(٧٣) . فاذا اضفنا الى هذه الحادثة ما ذكره الواقدي من اقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل مبعوث الرسول الكريم الى ملك بصري(٧٤) ، ادركنا السبب المباشر في غزوتي مؤتة وتبوك اللتين مهدتا لفتح بلاد الشام بهدف ازالة الحواجز المادية التي كانت تحول دون الانتشار السلمي لدعوة الاسلام في تلك الربوع . وقد سلك ابو بكر نفس الاسلوب قبل ان يوجه الجيوش الى بلاد الشام ، فذكر ياقوت ان ابا بكر اوفد عبادة بن الصامت الى ملك الروم يدعوه الى الاسلام او الحرب(٧٥) . وهناك اشارات اوردها ياقوت توضح الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في اليرموك . وتدلنا هذه الاشارات بما لا يدع مجالا للشك على ان خالدا سلك الطريق الشمالي الغربي من عين التمر الى دومة القريبة منها ، والتي سميت دومة الجندل . ومنها الى النقيرة فقراقر وفسوى بهراء فالكواثل . ومن هذا المكان اتجه خالد بن الوليد جنوبا بغرب الى حاضر طيء جنوب حلب فأرك فتدمر فالقريتين (حوارين) فمرج راهط فبصري فاليرموك . ويمكن الرجوع بسهولة الى هذه المواد في معجم البلدان للوقوف على هذه الاشارات التي استقاها ياقوت من كتاب الفتوح لاسحاق بن بشر(٧٦) .

واذا كان معجم البلدان يضم الكثير من الاخبار عن التتار كما ذكرنا ، فان الكتاب يشتمل ايضا على معلومات قيمة عن الصليبيين الفرنجة وتصدى المسلمين لهم في بلاد الشام ومصر ، ويمكن للباحث ان يجد هذه المعلومات في اثناء تعريف ياقوت بالعديد من مدن الشام ومصر ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، بيت

---

(٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٩٦ ، ٤/ ٤٥٤ ، ٥/ ٣٢٥

(٧٢) نفس المصدر : ١/ ٢٣١

(٧٣) ابن هاشم : السيرة ، ٤/ ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٣١، ١٣٢

(٧٤) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٥٥

(٧٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ٦١.

(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٧٦، ٢/ ٤٨٧، ٤٨٩، ٥/ ٣٠١، ٣١٧، ٣/ ٢٧١، ٤/ ١٤٤، ٤/ ٤٨٦، ٢/ ٢٠٧ ، ١/ ١٥٣ ، ١/ ١٨ ، ٤/ ٣٣٦ ، ١/ ٤٠٤ ، احمد كمال : الطريق الى دمشق ٢٤٠ ـ ٢٦٢

المقدس ، وحطين ، والرملة ، وعسقلان وعكة ، وبيروت ، وصور ، وانطاكية ، وحصن الاكراد ، ودمياط ، والمنصورة(٧٧) . وكانت هذه المعلومات هي الاساس الذي استقى منه هارتفيج ديرينبورغ (Hartwig Derenbourg) مادة بحثه « الصليبيون في معجم ياقوت » المنشور في الكتاب الصادر في باريس ١٨٩٥ بمناسبة الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية(٧٨) .

Les Croisades d'apres le dictionnaire de Yakout

الملامح الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الارضين العديدة التي منحت لبعض الاشخاص من قبل الرسول ﷺ والخلفاء من بعده ، سواء في عهد الخلفاء الراشدين او دولة بني امية او دولة بني العباس . ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الاشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم . فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول ﷺ نجدها في معجم البلدان في ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قالس ، القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سنينيا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الاساورة ، نهر ام حبيب ، نهر ام عبدالله . كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الاموية في المواد : سلوقية ، عرب ، مرقية ، نهر العلاء ، مدينة ، مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راون ، سوق العطش ، سويقة خالد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة ام جعفر ، مرعش ، نهر ابي الخصيب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصوافي والاراضي البور التي لا مالك لها ، ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ، ولا عمارة توجب ملكا لاحد »(٧٩) . وهذه ناحية اقتصادية هامة لان الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لا يتصرفون بممتلكات الغير ، واذا ارادوا امتلاك ارض مملوكة لاجل المنفعة العامة كبناء مسجد او مدينة ، عمدوا الى شراء الاراضي من اصحابها ، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، والمهدي في المحمدية بالري ، والمعتصم في سر من رأى .(٨٠) وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول ﷺ لأول مرة عندما ابتاع ارض مسجده في المدينة ورفض امتلاك الارض دون التعويض على اصحابها .(٨١) وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا هاما ورئيسيا في دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية .

وفي اثناء حديث ياقوت عن البلدان والارضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد احيانا بعض

---

(٧٧) نفس المصدر : ١/ ٢٦٩ ، ٥٢٥ ، ٢/ ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٣/ ٦٩ ، ٧٠ ، ٤٣٣ ، ٤/ ١٢٢ ، ١٤٤ ، ٥/ ١٧١ ، ٢١٢

(٧٨) Centenaire de L'Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1795 — 1895, Paris PP. 71 — 92

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٣٧٦

(٨٠) نفس المصدر : ٣/ ١٧٤ ، ٥/ ١٦٥ ، ٣٤٨

(٨١) البلاذري : فتوح البلدان ، ٥ ، السمهوري : وفاء الوفا ، ١/ ٣٢٢ - ٣٢٦

المعلومـات القيمة عن الثـروات الزراعيـة والحيـوانيـة والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصنـاعات ممـا يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الاسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الاخر حامض ، كما كان في بلدة شنتره بالاندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة اشبار . واشتهـرت تاهـرت بالسفرجل ، وتبريز بالمشمش ، وغزة ورفح بالجميز ، وفلسطين وتونس بالزيتون .(٨٢) وفي مصر كمثال آخر ، يشير ياقوت الى اهمية مياه النيل ، وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ، ويورد كشفا بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تنيس ، بالاضافة الى ثمانين نوعا من الاسماك فيها(٨٣) . وكان في بلدة البشمور قرب دمياط خراف ممتازة وصفها ياقوت بانها « ليس في الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظم اليّات »(٨٤) .

المعادن : اما المعادن فأهمها الذهب في غانة وما وراء النهر . واشار الى معادن اخرى مثل الفضة والحديد والنحاس والزئبق والتوتياء والنوشادر والفيروزج ، والبلازورد ومعدن البلخش المقاوم للياقوت ، والنفط والفحم الحجري وحجر المس والملح . ويلاحظ ان معظم هذه المعادن كان موجودا بكثرة في الاقاليم الشرقية من الدولة الاسلامية ، مثل كرمان وخراسان واقصى بلاد الشام(٨٥) . وكان بعض سكان شمال العراق يستخدمون القار في رصف الارض (الاسفلت) حيث كان القير « يطرح في القدور وينحل له ، ويطرح عليه بمقدار يعرفونه ويوقد تحته حتى يذوب ويختلط بالرمل ، وهم يحركونه تحريكا ، فاذا بلغ حد استحكامه صب على وجه الارض »(٨٦) . وذكر ياقوت ايضا التضخم المالي في بلدة بنجهير بنواحي بلخ نتيجة لكثرة وجود الفضة فيها ، ويصف بدقة طريقة استخراج هذا المعدن من جبل الفضة القريب منها والتنافس الشديد على استخراجه فيقول : « والدراهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد احدهم يشتري شيئا ولو جزرة باقل من درهم صحيح ، والفضة في اعلى جبل مشرف على البلدة والسوق ، والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وانما يتبعون عروقها يجدونها تدلهم على انها تفضي الى الجواهر ، وهم اذا وجدوا عرقا حفروا ابدا الى ان يصيروا الى الفضة ، فيتفق ان لرجل منهم في الحفر ثلاثمائة الف درهم او زائدا او ناقصا ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما اكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك وربما يتبع الرجل عرقا ويتبع آخر شعبة اخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعا في الحفر ، والعادة عندهم ان من سبق فاعترض صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي اليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملا لا تعمله الشياطين ، فاذا سبق احد الرجلين ذهبت نفقة الآخر هدرا ، وان استويا اشتركا ، وهم يحفرون ابدا ما حييت السرج وانفذت المصابيح ، فاذا صاروا في البعد الى موضع لا يحيي السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في اسرع وقت ، فالرجل منهم يصبح غنيا ويمسي فقيرا ، او يصبح فقيرا ويمسي غنيا »(٨٧) . وفي هذا النص الطريف وصف

---

(٨٢) ياقوت : معجم البلدان ، ٨/٢ ، ١٣ ، ٥٨ ، ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢/٣ ، ٥٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ١٢٣/٤

(٨٣) نفس المصدر : ٥٢/٢ ـ ٥٤

(٨٤) نفس المصدر : ٤٢٨/١

(٨٥) نفس المصدر : ١٧٢/١ ، ٣٢٨ ، ٤٩٨ ، ١٢/٢ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ، ٥١/٣ ، ٤٥٤/٤

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٢٩/٢

(٨٧) نفس المصدر : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩

دقيق للعمل في مناجم الفضة في تلك المنطقة ، والظروف الصعبة والخطرة التي تكتنف هذا العمل ، وبخاصة عندما يوغل العمال في الحفر وتقل نسبة الاوكسجين اللازم للتنفس مما تتعذر معه الاضاءة او الحياة . وهنا ايضا تفسير اقتصادي لغلبة العملة الفضية في المناطق الشرقية للدولة الاسلامية ، ومن قبل عرفت هذه الظاهرة ايضا في الدولة الساسانية(٨٨) .

الصناعة : اما الصناعات التي اشتهرت بها بعض البلدان فقد اشار ياقوت الى الكثير منها في معجمه . وذكر على سبيل المثال صناعة المنسوجات في تنيس والحرير في فاس ، والفخار والسمك المملح في تونس ، كما نوه بما كانت تلقاه صناعة الكاغد اي ورق الكتابة من اهتمام بسبب انتشار العلم والحاجة الى تدوينه . ويحدثنا ياقوت عن وجود دور لصناعة الكاغد في بغداد وخونا بأذربيجان وشاطبة بالاندلس واشتهرت المناطق الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي بالبرود القطرية والرماح الخطية والنبل الفائقة الصنعة(٨٩) .

التجارة : وهناك اشارات بالغة الأهمية بالنسبة للتجارة الداخلية بين أقطار الدولة الاسلامية ، حيث كانت القوافل التجارية تعبر البلاد في طرق معروفة مخفورة تنتشر عليها المدن والقرى والمراكز التجارية والخانات (٩٠) . ويلاحظ ان مصلحة هذه المدن والقرى الواقعة على الطريق البرية كانت تقتضي توفير الأمن لقوافل التجارة ، فاذا لم يتوفر الأمن عند احداها لسبب أو لآخر تحولت القوافل عنها الى غيرها ، وفقدت تلك المراكز التجارية اهميتها وازدهارها وربما خربت كما حدث لبلدة برقعيد من أعمال الموصل . وكانت هذه البلدة ممراً للقوافل بين الموصل ونصيبين ، فلما زاد تعرض لصوصها للقوافل التجارية بعد القرن الرابع الهجري ، « وكثرت منهم هذه الأفاعيل تجنبتهم القوافل ، وجعلوا طريقهم على باشزي وانتقلت الأسواق الى باشزي » وأصبحت برقعيد بلدة « خراباً صغيرة حقيرة » على حد وصف ياقوت (٩١) . وكان أعراب بادية الشام يتقاضون من تجار منطقة الجزيرة الفراتية مالا مقابل خفارتهم القوافل التجارية ، اذ كان في الرصافة كما يقول ياقوت نقلاً عن الأصمعي « جماعة من أهل الثروة ، لأنهم بين تاجر يسافر الى أقطار البلاد ، وبين مقيم فيها يعامل العرب (٩٢) » . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض الطرق التجارية التي كانت قوافل الحجاج تسلكها أيضاً . ونوه بالمحطات والمراكز التجارية التي كانت تقوم على تلك الطرق داخل جزيرة العرب ، وكيف كان بعض امراء العرب يشتركون مع رجال قبائلهم في المحافظة على هذه القوافل التي كانت تحمل التجارات اضافة الى الحجاج ، فكان عرب تلك المراكز « يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة (٩٣) » . وياقوت وهو يشير الى التجارة الداخلية لا يغفل عن ذكر المراحل والمسافات بين البلدان ، وحجارة الأميال المنصوبة عليها لمعرفة تلك المسافات ، والتي كان العابرون يكتبون على بعضها أحياناً أبياتاً من شعر الحنين الى الأوطان (٩٤) .

---

(٨٨) نفس المصدر : ٣٥٤/١

(٨٩) نفس المصدر : ٥١/٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٣٧٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢ ، ٣٠٩/٣ ، ٣٧٣/٤ ، ٣٨٩

(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٤/٣ ، ٧١

(٩١) نفس المصدر : ٣٨٧/١

(٩٢) نفس المصدر : ٤٧/٣ ، ٤٨

(٩٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ١٩٦٠ ، ١٧٤

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٦٢/١ ، ١٨٥/٤

أما التجارة الخارجية فكانت تتم بطريقين بري وبحري ، يتصل تجار المسلمين بواسطتها بغيرهم من تجار الأمم والشعوب ، ومن بينها الخزر فكان التجار من أراضي المسلمين يجتازون بمراكبهم بحر قزوين الى ارض الخزر ويجلبون من هناك الوبر الكثير (٩٥) . وقد ذكر ابن فضلان في رسالته ان التجار المسلمين استطاعوا ان يكوِّنوا جالية كبيرة في مدينة اتل عاصمة الخزر حيث كان « على المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له خز ، وهو مسلم ، واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره (٩٦) » . كما تردد التجار المسلمون على بلاد الصقالبة القريبة من بلاد الخزر ، وكانوا يقصدون تلك البلاد بانواع التجارات (٩٧) . أما التجارة مع الروس فكانت تتم على نهر اتل حيث كان الروسية يوافون بتجارتهم هناك ، ومنها الجواري والسمور والجلود ، ويلتقون مع التجار المسلمين لتبادل العروض التجارية (٩٨) .

كما يشير ياقوت الى التجارة البحرية بين الموانيء الاسلامية في بحر الروم (المتوسط) كنقل الأخشاب من شمال بلاد الشام الى مصر (٩٩) . ويورد تفصيلات وافية عن التجارة البحرية المزدهرة في موانيء وجزر الخليج العربي ، والدور الذي كانت تقوم به هذه المراكز في نقل تجارة الهند الى البلدان المجاورة . وقد لعبت البصرة وسيراف ولار وصحار وهرمز وجزيرة قيس والبحرين دوراً هاماً في هذه التجارة ، التي شارك فيها ياقوت نفسه فزار البصرة من أجل ذلك ثماني مرات ، وتردد على موانيء وجزر الخليج « عدة نوب » على حد تعبيره (١٠٠) . وعبر الخليج كانت المراكب التجارية تتوجه الى السند والهند وسيلان والصين ، كما وصلت تجارة المسلمين البحرية الى موانيء ظفار وحضرموت واليمن والبحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية حتى سفاله وجزيرة القمر وهي مدغشقر حسب رأي ياقوت (١٠١) . وتطلق التسمية اليوم على أربع جزر بين مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا بما يعرف بدولة جزر القمر . ويعتبر معجم البلدان مصدراً أساسياً لمن أراد التوسع في البحث عن النشاط التجاري لهذه المنطقة حتى القرن السابع الهجري ، القرن الثالث عشر الميلادي .

وياقوت وهو يورد هذه الاشارات التجارية يذكر ان بعض الجواسيس كانوا ينتحلون صفة التجار للوقوف على الأخبار (١٠٢) ، كما يقدم الينا فكرة عن اسعار بعض المواد الغذائية في بغداد زمن المنصور ، وفي واسط في عهد ياقوت نفسه ، وبذلك يعطي معلومات مفيدة عن تطور الأسعار خلال فترة تصل الى حوالي خمسة قرون (١٠٣) . ويشير عرضاً كذلك الى ضريبة الحوانيت

---

(٩٥) نفس المصدر : ١/ ٨٨ ، ٣٤٢

(٩٦) رسالة ابن فضلان : ١٩٧٨ ، ١٩٤

(٩٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ٤١٦

(٩٨) نفس المصدر : ٣/ ٧٩ ، ٨٠ ، ٤/ ٤٨٨

(٩٩) نفس المصدر : ٢/ ٦٨

(١٠٠) نفس المصدر : ١/ ٤٣٩ ، ٥/ ٨

(١٠١) نفس المصدر : ١/ ٣٤٣، ٤٩١، ٣/ ٤٤٠

(١٠٢) نفس المصدر : ٤/ ٤٤٨

(١٠٣) نفس المصدر : ١/ ٤٥٩ ، ٥/ ٣٥٠

التي فرضت في بغداد زمن المهدي ، ومقدار خراج عدد من الأقاليم والولايات . ويبدو أن الأرقام التي أوردها ياقوت قريبة من الصحة ، من ذلك ما ذكره عن جملة خراج فارس مع الأهواز في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وهو ثمانية عشر ألف درهم . والراجح ان هذا الرقم هو الذي وهم فيه معظم المؤرخين وسحبوه على خراج العراق كله زمن الحجاج متهمين اياه بكسر خراج هذا الأقليم (١٠٤) .

الملامح الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة ملامح اجتماعية هامة منها :

أولاً : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب ، على اعتبار ان هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصباً . وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ، فيذكر ياقوت نقلاً عن رسالة ابي دلف مسعر بن مهلهل ان الأخير صادف وهو في طريقه الى الصين بموضع القليب « بوادي عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين ، لهم مصايف ومشات في مياه ورمال ، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام ، وملكهم من أهل بيت منهم (١٠٥) . ويتحدث ياقوت أيضاً عن هجرة أخرى لبني معد من تهامة الى اليمن ومشارف بلاد الشام قائلاً : « وكان بنو معد نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام (١٠٦) » . وكان ابو سفيان زعيم قريش يمتلك قرية نقنس من قرى البلقاء بارض الشام ثم انتقلت الى ولده بعده (١٠٧) . وكانت القبائل العربية في شمال الجزيرة تغتنم فرصة حروب ملوك الطوائف في فارس وتغير على السواد مما جعل الفرس يحفرون خندق سابور الممتد من هيت الى كاظمة والخليج لصد تلك الغارات (١٠٨) .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن تحرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ، ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاعة والازد ومواطن بني سعد وبني اسد وطيء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر . واستشهد بابيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء واياد وتغلب . يقول الشاعر :

لكل اناس من معد عمارة
عروض اليها يلجأون وجانب
لكيز لها البحران والسيف دونها
وان يأتها بأس من الهند كارب
تطاير عن اعجاز حوش كأنها
جهام هراق ماءه فهو آيب

---

(١٠٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢٢٧ ، ٤٤٨ ، احسان العمد : الحجاج ، ٤٢٥ ، ٤٢٨

(١٠٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/٤٤٣ ، ٤٤٤

(١٠٦) نفس المصدر : ٢/٣٢٩ ، ٥/٣١

(١٠٧) نفس المصدر : ٥/٣٠٠

(١٠٨) نفس المصدر : ٢/٣٣٠ ، ٣٩٢

وبكر لها بر العراق وان تخف
يحل دونها من في اليمامة حاجب
وصارت تميم بين قف ورملة
لها من جبال منتأى ومذاهب
وكلب لها خبت فرملة عالج
الى الحرة الرجلاء حيث تحارب
وغسان جن غيرهم في بيوتهم
تجالد عنها خسر وكتائب
وبهراء حي قد علمنا مكانهم
لهم شرك حول الرصافة لا حب
وغارت اياد في السواد ووطنها
برازيق عجم تبتغي من تضارب
أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم
ونحن خلعنا قيده فهو سارب (١٠٩)

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته في المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية ابعاداً أوسع . فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء (١١٠) ، ولم تلبث اعداد غفيرة من القبائل العربية ان خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية حيث فتحت الأقطار وأقامت في الأمصار والثغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في خراسان (١١١) . وقد أسهم عرب الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن نصر الاسكندري صاحب كتاب فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع عن وجود بقايا أولئك العرب الأوائل حتى القرن السادس الهجري في بلدة ألبان بين غزنة وكابل ، حيث كانوا ما يزالون على مذهب الخوارج « الا انهم مذعنون للسلطان ، وفيهم تجار ومياسير وعلماء وادباء يخالطون ملوك الهند والسند الذين يقربون منهم ، ولكل واحد من رؤسائهم اسم بالعربية واسم بالهندية (١١٢) » . وامثال هؤلاء كما يقول ابن خلدون « انفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم الثغور القصية ، واكلتهم الأقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم . . . الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في الامصار . . . فتقطّعوا في البلاد (١١٣) .

وفي أخبار البعثة الاستطلاعية التي ارسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ، ذكر ياقوت ان البعثة اجتازت حصوناً فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرأون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب ، الا انهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامي ولا يعرفون شيئاً من أخباره (١١٤) .

ثانياً : وكان العرب لدى انتقالهم الى الامصار والأقاليم يسمون بعض مدنها باسماء المدن والمواطن التي قدموا منها عليها تذكرهم بمواطنهم الأولى وتهدىء من شوقهم وحنينهم اليها ، وهي ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة . فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا

---

(١١٠) نفس المصدر : ٤/٣٥١
(١١١) نفس المصدر : ١/٣٨٥ ، ٣/٣٠٥
(١١٢) نفس المصدر : ١/٢٤٤
(١١٣) ابن خلدون : العبر ، ١٩٥٩ ، ٦/٦
(١١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/١٩٩

الاسم قرب عين التمر في العراق ، وشهدت الأندلس بالأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها باسماء مدن الشام ، مثل حمص وتدمر (١١٥) » .

ثالثاً : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية هامة عن مساحتها وسكانها . فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن ابيه ثمانين الف مقاتل من العرب وعيالاتهم مائة وعشرون الفاً ، اي ان عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا الف نسمة . واضيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخاري وفرض لهم العطاء وبنى لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم . فقد تطورت البصرة زمن خالد ابن عبد الله القسري في اوائل القرن الثاني للهجرة فاصبح طولها فرسخين وعرضها فرسخين الا آنقا (١١٦) . وشهدت الكوفة تطوراً مماثلاً ، فبعد ان كانت تضم على عهد زياد بن أبيه حوالي مائة واربعين الف نسمة بينهم ستون الف مقاتل من العرب ، أصبحت حوالي عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م تمتد ستة عشر ميلاً وثلثي ميل . وكان فيها ذلك الوقت خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون الف دار لسائر العرب ، وستة آلاف دار لليمن . فاذا قدرنا ان كل دار يسكنها ستة اشخاص في المتوسط ، وجدنا ان سكان الكوفة في القرن الثالث الهجري كانوا يبلغون حوالي نصف مليون نسمة (١١٧) . ولم يُغفل ياقوت وهو يذكر عَرَضا اخبار العرب المهاجرة الى الامصار ، اخبار الشعوب والفئات الأخرى التي كانت تعيش داخل الدولة الاسلامية ، او تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والاساورة والبخارية والأكراد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج واهل الصين ، فاورد وصفاً لجانب من عاداتهم وتقاليدهم . واعتمد في هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، التي وضعها اوائل القرن الرابع الهجري ، ورسالة ابي دلف في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند (١١٨) .

رابعاً : ظاهرة الحنين الى الأوطان :

وطبيعي ان يواكب هجرة العرب الى الأقاليم والامصار حنين قوى الى مواطنها ومرابعها الأولى . وقد وجدت هذه الظاهرة الانسانية بين جميع المهاجرين العرب ابتداء من المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وانتهاء بأولئك الذين رابطوا في الامصار والثغور . ويزخر معجم البلدان بالاشعار الرقيقة المرهفة التي تعبر بصدق عن هذه المشاعر . ويبدو ان ياقوت اقتبس هذه الأشعار من كتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي (١١٩) .

ونورد فيما يلي طائفة من هذه الأشعار على سبيل المثال لا الحصر نظراً للأهمية الاجتماعية لها ، وباعتبارها وثائق تدل على هذه الظاهرة بوضوح .

---

(١١٥) نفس المصدر : ١١٤/١ ، ٣٠٤/٢ ، ١٠٧/٥

(١١٦) نفس المصدر : ٣٥٦/١ ، ٤٣٤

(١١٧) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٩٢/٤

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٧٦/٢ ٤٨/٣ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ١٥٧/٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٦/٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ١٤٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٦ .

(١١٩) نفس المصدر : ٢٣٤/١ ، ٣٦٦ ، ٤٣٩ ، ٤٧٧ ، ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٠٣ ، ٣٥٣ ، ١١٩/٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ١٠٢/٤ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٦٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٨٣/٥ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ .

قال بلال مؤذن الرسول يتشوق الى مكة (١٢٠) :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ وعندي اذخر وجليل

وهل اردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري يتشوق الى المدينة ومنازلها (١٢١) :

اقول لثابت والعين تهمي
دموعاً ما انهنهها انحدارا

اعرني نظرة بقرى دجيل
تخايلها ظلاماً او نهارا

فقال ارى برومة او بسلع
منازلنا معطلة قفارا

وانشد اعرابي حنيناً الى الحجاز (١٢٢) :

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن
على باكناف الحجاز يطول

فهل لي الى ارض الحجاز ومن به
بعاقبة قبل الفوات سبيل

اذا لم يكن بيني وبينك مرسل
فريح الصبا مني اليك رسول

ومن شعر اعرابي في الامصار يتشوق الى نجد (١٢٣) :

اكرر طرفي نحو نجد وانني
اليه وان لم يدرك الطرف انظر

حنيناً الى ارض كأن ترابها
اذا مطرت عود ومسك وعنبر

متى يستريح القلب اما مجاور
بحرْب واما نازح يتذكر

وقال آخر يتمنى القفول الى نجد (١٢٤) :

سمعت رحيل القافلين فشاقني
فقلت اقرأوا مني السلام على دعد

احن الى نجد واني لآيس
طوال الليالي من قفول الى نجد

تعزَّ فلا نجد ولا دعد فاعترف
بهجر الى يوم القيامة والوعد

ويصف اعرابي مرابط في الثغور الرومية حنينة الى نجد بقوله (١٢٥) :

تبدلت من نجد وممن يحله
محلة جند ، ما الأعاريب والجند ؟

واصبحت في أرض البنود وقد أرى
زماناً بارض لا يقال لها بند

---

(١٢٠) نفس المصدر : ١٨٣/٥ .

(١٢١) نفس المصدر : ٣٠٠/١ .

(١٢٢) نفس المصدر : ٢٢٠/٢ .

(١٢٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٦٢/٥ .

(١٢٤) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

(١٢٥) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

وقال عبد الرحمن بن داره ممن كان يقيم بحمص بالشام (١٢٦) :

خليلي ان حانت بحمص منيتي
فلا تدفناني وارفعاني الى نجد

ومرا على أهل الجناب باعظمي
وان لم يكن أهل الجناب على القصد

وان انتما لم ترفعاني فسلماً
على صارة فالقور فالابلق الفرد

وينسب الى الشاعر العماني محمد بن زوزان مما يتشوق به الى بلدته صحار (١٢٧) :

لحى الله دهرا شردتني صروفة
عن الأهل حتى صرت مغتربا فردا
الا ايها الركب اليمانون بلغوا
تحية نائي الدار لُقِّيتم رشدا
اذا ما حللتم في صحار فاطموا
بمسجد بشار وجوزوا به قصدا
فعوجوا الى داري هناك وسلموا
على والدي زوزان وقيتم جهدا

وقال شاعر يمني مغترب يحن الى اليمن (١٢٨) :

خليلي اني قد ارقت ونمتما
كبرق يمان فاقعدا عللانيا
خليلي طال الليل والتبس القذى
بعيني وآستأنست برقا يمانيا

وقال مالك بن الريب يتشوق الى مواطنه بجزيرة العرب (١٢٩) :

لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بجنب الغضا ازجي القلوص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
الم ترني بعت الضلالة بالهدى
واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وهذا العباس بن الأحنف يقول في هذا المعنى (١٣٠) :

قالوا خراسان ادنى ما يراد بكم
ثم القفول فها جئنا خراسانا
عين الزمان اصابتنا فلا نظرت
وعذبت بفنون الهجر الوانا

---

(١٢٦) نفس المصدر : ٢/٣٠٣ .

(١٢٧) نفس المصدر : ٣/٣٩٤ .

(١٢٨) نفس المصدر : ٥/٤٤٨ .

(١٢٩) نفس المصدر : ٢/٣٥٣ .

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٣٥٣ .

خامساً : وهناك اشارات متفرقة وكثيرة عن الترف الاجتماعي والعمراني الذي شهدته بعض المدن الاسلامية ، واوردها ياقوت عند حديثه على تلك المدن ، والثروات الطائلة التي انفقت في بناء القصور العباسية ، وبخاصة في عهدي المتوكل والمقتدر . ومن ذلك وصف قصر دار الشجرة الذي بناه المقتدر « وانما سميت بذلك لشجرة هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة ، امام ايوانها وبين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها فروع كبيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، وقد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد (١٣١) » . ويمكن للباحث ان يطلع على مقدار ثروة علي بن احمد الراسبي ، وهو واحد من العمال المتنفذين زمن المقتدر ، كما اوردها ياقوت ، ليكون فكرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها أفراد هذه الطبقة من الناس (١٣٢) واورد ياقوت أيضاً معلومات لا تقل أهمية عن تلك ، حول بعض رسوم الخلافة في بغداد ، مثل دار الخيل التي كانت « من دور الخلافة المعظمة في بغداد ، وكانت داراً عظيمة الارجاء ، عادية البناء (أي ضخمة البناء) ، لها صحن عظيم الف ذراع في الف ذراع ، كان يوقف فيها في الأعياد ، وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة كل فرس فيها على يد شاكري » ومنظرة الحلبة التي « جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش في أيام الأعياد (١٣٣) » .

وكان بعض الناس يقصدون القصور والمباني الأثرية وأحياناً الديارات الواقعة خارج المدن لقضاء وقت من الراحة والاستجمام ، ويشهدون هناك في أحيان أخرى سباقات الخيل . وقد شهد مثل هذه السباقات الرسول ﷺ والحجاج بن يوسف والمأمون وغيرهم (١٣٤) . ويحدثنا ياقوت ان المأمون اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيزاً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ، واجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى . . منازل خاصته واصحابه سميت المأمونية (١٣٥) » . اما البعض الآخر من طلاب اللهو والعبث والمتع والتهتك ، فكانوا يقصدون أماكن معروفة لهذا الغرض في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي باري ، وقطربل في العراق ، ودالان وذموران قرب ذمار من أرض اليمن ، حيث كانوا يمارسون بعض الانحرافات والعادات الخلقية السيئة ، وهو أمر لا يخلو منه عصر من العصور ولا حضارة من الحضارات (١٣٦) . ويلاحظ

---

(١٣١) نفس المصدر : ٢/ ٤٢١ .

(١٣٢) نفس المصدر : ٢/ ٤٨٢ .

(١٣٣) نفس المصدر : ٢/ ٤١٩ ، ٥/ ٢١٢ .

(١٣٤) نفس المصدر : ٢/ ٤ ، ٢٧٦ ، ٥/ ٣١٨ .

(١٣٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤ .

(١٣٦) نفس المصدر : ١/ ٣٢١ ، ٢/ ٣ ، ٤٦٠ ، ٥٢٥ ، ٤/ ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٥/ ٢٢٤ .

هنا ان ياقوت أثبت في أثناء تعريفه بالمدن والأقاليم ما كان قد رآه او روي له او نقله من مصادره من صفات حسنة واخرى سيئة نسبت الى بعض المدن والبلاد وسكانها ، مثل ما ذكره عن أهل حمص والموصل ومرو ومرباط وصقلية والبربر والنبط . وياقوت في ذلك لم يقصد ذم هؤلاء او أولئك وانما قدم لنا جانباً آخر مما كان يقال او يكتب (١٣٧) .

الملامح الثقافية :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية في الدولة الاسلامية . وقد استوقفته هذه الملامح لأنه كان أديباً شارك في ثقافة عصره عن طريق نسخ الكتب والمتاجرة بها ، الى جانب جهوده المشكورة في التأليف ، فضلاً عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامي وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه . ويمكن تلمس هذه الملامح تحت المؤسسات التالية :

أولاً : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية ثقافية واجتماعية هامة منتشرة في جميع انحاء الدولة . كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة (١٣٨) .

ثانياً : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة في معظم المدن الاسلامية ، وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وافاد منها فائدة مباشرة . ففي مدينة ساوة بين الري وهمذان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بانه « لم يكن في الدنيا أعظم منها ، بلغني ان التتر احرقوها » وذلك عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م (١٣٩) . وفي مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان ، كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها . ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بمرو ثلاثة أعوام وانه « لولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر ..... وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقابلها ، والأخرى يقال لها الكمالية ، لا ادري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ ، وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة اخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن (١٤٠) » .

---

(١٣٧) نفس المصدر : ١/٣٦٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٥/٩٧ ، ٢٢٤ ، الملوحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ، ٤٦/٣٧٢ - ٣٧٦ .

(١٣٨) نفس المصدر : ٥/ ١١٤ ، ٢١٠ .

(١٣٩) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ١١٤ .

وهذا النص الفريد من نوعه لا يحتاج الى تعليق بقدر ما يحتاج الى وقفة تأمل واعجاب بالحضارة الاسلامية وعظمتها . ويلاحظ هنا ان دور الكتب كانت تلحق بالمدارس والمساجد التي ما زالت تعتبر من أهم مراكز الثقافة في عالم الاسلام . والمعروف ان نواة المساجد والمدارس قد نشأت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الاسلامية ، حتى ان ياقوت يذكر عن ابن عساكر ان المدينة المنورة كان فيها زمن ابي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة (١٤١) .

وكان هناك أيضاً في العالم الاسلامي مكتبات خاصة يمتلكها العلماء والنابهون والراغبون في العلم . ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) المحدث الشهير وصاحب التصانيف العديدة ، التي كان طلاب العلم يسافرون للاطلاع عليها « وكان ابو حاتم قد سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها ، فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان ، ضعف السلطان ، واستيلاء ذوي العبث والفساد على أهل تلك البلاد » . وقد تأثر الخطيب البغدادي من ضياع بعض كتب ابي حاتم البستي ، فقال : « ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر بها النسخ ، فيتنافس فيها أهل العلم يكتبونها ويجلدونها احرازاً لها (١٤٢) » ، وابو القاسم بن عباد بن العباس الطالقاني (ت ٣٨٥هـ) ، وابو المعالي عبد السلام بن محمود ابن احمد الفقيه الحكيم (ت ٥٢٦هـ) الذي كان يستصحب جميع أمواله وكتبه اينما توجه ، وخزانة كتب أبي نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة التي وقفها صاحبها على طلاب العلم في كرخ بغداد ، ويقول ياقوت عنها انه « لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة ، واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧هـ » . وكان بعض العلماء يوقفون كتبهم على طلبة العلم كما فعل العالم الأندلسي محمد بن عتيق بن فرج الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) . وياقوت نفسه ، الذي أوصى بان توقف مكتبته بعد موته على مسجد الزيدي في بغداد ، وعهد الى المؤرخ عز الدين بن الأثير لتنفيذ وصيته (١٤٣) .

ولئن دلت ظاهرة وقف الكتب على شيء فانما تدل على حب المسلمين للعلم وتشجيعهم طلابه ، وقد بلغ من محبة احد الطلاب للعلم وحرصه على سماع العلم وتقييده ، حدا جعل هذا الطالب وهو الحسين بن أحمد بن علي البيهقي من أهل خسروجرد (ت ٥٣٦هـ) ، لا يكف عن الكتابة رغم تقدمه بالسن وفقده لأصابع يده . ويقول ياقوت عن هذا الرجل انه قد « أصابته علة في يده فقطع اصابعه ، فكان يمسك بيده ويضع الكاغد على الأرض ويمسك برجله ويكتب خطاً مقروءاً وينسخ (١٤٤) » .

ومع ذلك فان صنعة الوراقة التي كانت تشمل بيع الكتب ونسخها لم تكن حرفة مربحة كثيراً لأصحابها الذين احترفوها حباً في الكتاب ونشره ، ومنهم ياقوت الحموي نفسه الذي اشتكى من سوء بخته وقلة حظه في

---

(١٤١) نفس المصدر : ٢/ ٢١٧ .

(١٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ١/ ٤١٥ - ٤١٨ ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ٣/ ٩٢٠ .

(١٤٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٢/ ٦٥ ، ٦٦ ، ٤/ ٧ ، ٥/ ١٦١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/ ١٨٩ .

(١٤٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٨ .

هذه الصناعة على ما ذكرناه . كما اورد شعراً لزميله ابي حاتم الوراق يقول فيه (١٤٥) :

ان الوراقة حرفة مذمومة
محرومة ، عيشي بها زمن

ان عشت ، عشت وليس لي أكل
او مت ، مت وليس لي كفن

ثالثاً : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد او القطر الذي ينتمون اليه . ويلاحظ ان ياقوتاً اهتم بصفة رئيسية بتراجم أولئك العلماء الذين عاصروه ، او سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة اهمية خاصة . وكان بعض هؤلاء العلماء يتنقلون في البلاد الاسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة ولنشر علمهم بين الناس من جهة أخرى . وفي هذا الصدد ذكر ياقوت اسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من العلم . وكان الطلب شديداً على العلماء النابهين يسعى الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم . ويذكر ياقوت ان أبا حفص عمر ابن محمد بن المعمر بن أحمد المؤدب الدارقزي المنسوب الى دار القز وكانت محلة كبيرة في بغداد (ت ٦٠٧هـ) « سمع الكثير . . . وطلبه الناس ، وحمل الى دمشق بالقصد الى السماع عليه ، حمله الملك المحسّن احمد بن الملك الناصر من بغداد ، فسمع عليه هو وخلق كثير من أهل دمشق ، وكان قد انفرد بكثير من الكتب (١٤٦) » ، ومنهم سعد الخير بن محمد بن سهل البلنسي (ت ٥٤١هـ) فقيه صالح ومحدث مكثر ، سافر الكثير وركب البحر حتى وصل الى الصين ، وانتسب لذلك صينياً ، وعاد الى بغداد واقام بها وتعلم الكتابة الصينية (١٤٧) ، وابو القاسم منصور بن أحمد بن الفضل الاسفزاري (ت ٥٠٢هـ) « وكان وحيد عصره في حفظ شعائر الاسلام واهله ، متبعاً للآثار ، واعظا حسن الكلام حلو النطق بعيد الاشارة في كلام الصوفية . . . يدخل على السلاطين والجبابرة يذكرهم الله ويحثهم على طاعته ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لا يخاف سطوتهم ، ولا يبالي بهم فيقبلون منه أمره (١٤٨) » ، ومن هؤلاء أيضاً العالم الرحالة ابو بكر عتيق السّمنطاري الصقلي (ت ٤٦٤هـ) الذي « سافر الى الحجاز وحج وساح في البلدان من أرض اليمن والشام الى أرض فارس وخراسان ، ولقي بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاء فيكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما جمع ، وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة (١٤٩) » ، والرحالة الشاعر ابراهيم بن عثمان الأشهبي الغزي الذي « سافر الدنيا ومات بخراسان عام ٥٢٤هـ (١٥٠) » . والمحدثة المشهورة أمة الله بنت محمد بن أحمد النباذاني (١٥١) .

---

(١٤٥) نفس المصدر : ٤/ ٤٦٣ .

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤٢٢ .

(١٤٧) نفس المصدر : ١/ ٤٩١ ، ٣/ ٤٤٠ .

(١٤٨) نفس المصدر : ١/ ١٧٨ .

(١٤٩) نفس المصدر : ٣/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(١٥٠) نفس المصدر : ٤/ ٢٠٣ .

(١٥١) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ٢٥٦ .

ولم يغفل ياقوت وهو يورد هذه الاشارات عن الحياة الثقافية في عصره ، ان يذكر ظاهرة انتحال الكتب الجيدة من قبل اشخاص يستحسنونها فينسبونها الى انفسهم بعد ان يزيدوا عليها وينقصوا منها ، وقد حذر ياقوت من أمثال هؤلاء العلماء الأدعياء وكشف عن بعضهم ، كما حرص نفسه على ان لا تنسب كتبه الى غيره (١٥٢) .

رابعاً : مصادر ياقوت الثقافية في معجم البلدان :

وطبيعي ان يفيد ياقوت من المصادر العلمية والأدبية التي انتجتها الثقافة الاسلامية حتى عصره . وكان ياقوت أميناً في ذكر معظم المصادر التي استقى منها مادة كتابه . ونص على ذلك في مقدمة الكتاب وثناياه ، وقد اشرنا في مستهل هذا البحث الى بعضها وبخاصة رسالتي ابن فضلان وابي دلف ونورد هنا عدداً آخر من تلك المؤلفات كما ذكرها ياقوت ، وقسم كبير منها لم يصل الينا ، وهي على وجه العموم تتعلق بتاريخ البلدان والامصار والمدن التي توافق موضوع الكتاب . ومن هذه المصادر كتاب المبدأ والمآل لياقوت نفسه ، وكتاب افتراق العرب ، وكتاب انساب البلدان ، وكتاب اوراق العرب لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للأصمعي ، وكتاب أخبار العرب ، وكتاب ابي محمد الأسود (في مواقع البلدان) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ الجزيرة لعلي بن الحسين بن علي الحراني ، وتاريخ البصرة للساجي ، وكتاب الكوفة لابن النجار ، وتاريخ الرقة لأبي علي ، وتاريخ بلخ لأبي اسحاق المستملي ، وكتاب البستان في مناقب نسف لأبي الحارث اسد بن حمدويه النسفي ، وكتاب تاريخ حمص للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وتاريخ اصبهان لابن مندة ، وكتاب مكة لمحمد بن اسحاق الفاكهي ، وتاريخ افريقية لأبي العرب ، وتاريخ ابي غالب همام بن المفضل بن مهذب المعري ، وتاريخ ابي سعد الآبي ، وكتاب طبقات محدثي اهل الموصل ، وكتاب اخبار زفر بن الحارث للمدائني ، وكتاب الجنان لابن الزبير ، وكتاب تمام الفصيح لابن فارس ، وكتاب بغداد وذكر خرابها لهلال بن المحسّن الصابي ، وكتاب موالي أهل مصر ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس في الطب لمحمد بن احمد بن سعيد التميمي ، وكتاب النوادر الممتعة لأبي الفتح بن جني ، وكتاب اللصوص ، وكتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي ، وغيرها (١٥٣) .

الملامح الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية هامة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الاسلامية ، او الآثار القديمة التي خلفتها الدول والشعوب في العالم الاسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات . وهناك أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها في وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون في الفسطاط ، اضافة الى تحديد المساجد التي اقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك ، وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ، ووصف مواقعها واسوارها

---

(١٥٢) نفس المصدر : ١١/١ ، ١٢٠/٣ ، معجم الأدباء : ١١/١ .

(١٥٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٤١٨/١ ، ٤٤٧ ، ٤٩٢ ، ١٢٦/٢ ، ٢١٩ ، ٢٥١، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١/٣ ، ١١٥/٤، ١٨٣ ، ٣٦٥ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٢٥/٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٣١٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٣٩ .

وقصورها ، وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى والفسطاط والقيروان (١٥٤) .

وهناك اشارة في معجم البلدان الى استخدام التصوير في تزيين المباني منذ منتصف القرن الأول الهجري ، كما تم ذلك في دار عبيد الله بن زياد المعروفة « بالبيضاء » . يقول ياقوت عن البيضاء : « دار عمّرها عبيد الله بن زياد بن ابيه بالبصرة ، ولما تم بناؤ ها أمر وكلاءه ان لا يمنعوا احداً من دخولها ، وان يتحفظوا كلاماً ان تكلم به أحد ، فدخل اعرابي وكان فيها تصاوير ، ثم قال : « لا ينتفع بها صاحبها ولا يلبث فيها الا قليلاً ، فأتي به ابن زياد وأخبر بمقالته ، فقال له : لم هذا ؟ قال : لأني رأيت فيها أسداً كالحا وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً (١٥٥) » .

اما آثار الأمم الغابرة فقد ذكر ياقوت منها الكثير في المواقع الأثرية في العراق كالحيرة والمدائن ، اضافة الى آثار ورسوم دراسة في دستجرد ومرو ودنباوند وطبرستان وارمينية . واشار الى معالم أثرية عديدة في بلاد الشام كدمشق وحمص وتدمر ومعرة النعمان وبعلبك وقورس قرب حلب والخليل ، كما وصف آثاراً يمنية قديمة في صنعاء ومأرب بالاضافة الى الآثار المصرية القديمة في منف وعين شمس والصعيد ، وتحدث عن الأهرام وابي الهول والمسلات والمومياء وذكر آثاراً اخرى في قرطاجنة بشمال افريقية . أما آثار بلاد الروم فيتحدث ياقوت عن معالم أصحاب الكهف في بلدة افسس ، ذاكراً شيئاً من التقرير الذي كتبه محمد بن موسى المنجم مبعوث الخليفة العباسي الواثق للوقوف على أمر أصحاب الكهف والرقيم . وينوه بوجود جماعة مقتولين في لحف جبل بموضع ببلاد الروم يقال له الابروق . ويستدل من وصف تلك الجماعة على انهم مسلمون ، اذ كانوا سمر اللون وعليهم عمائم ، « ويقول المسلمون انهم من الغزاة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ماتوا هناك صبراً » بينما يذهب الروم الى انهم منهم ، وقد اقيم الى جانب موضعهم مسجد وكنيسة ، اذ يزور ذلك الموضع المسلمون والنصارى من الآفاق (١٥٦) .

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكانوا ينسبون بناءها الى النبي سليمان بن داود والجن ، كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر عمدان (١٥٧) . وقد علق ياقوت على ذلك بقوله : « لكن الناس اذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن (١٥٨) » . كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون الأماكن الأثرية للمشاهدة والتنزه ، وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار (١٥٩) .

أما الملاحظة الثالثة التي ذكرها ياقوت ، فهي اقدام الخلفاء والولاة وبعض الناس على استخدام حجارة

---

(١٥٤) نفس المصدر : ١/ ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٢/ ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٣/ ١٧٦ ، ٢٥٦ ، ٤/ ٢٦٤-٢٦٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ - ٥/ ٨٢ ، ٨٨ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

(١٥٥) نفس المصدر : ١/ ٥٣٠ .

(١٥٦) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٧١ ، ١٥٦ ، ١٩١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٢/ ١٥٦ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٣/ ٦١ ، ١١٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ ، ٤٠٨ ، ٤/ ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٠٠ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٥/ ١٠ ، ٢٦ ، ٢١٤ .

(١٥٧) نفس المصدر : ٢/ ١٧ ، ٣/ ١٥٤ ، ٤/ ٢١٠ .

(١٥٨) نفس المصدر : ٢/ ١٧ .

(١٥٩) نفس المصدر : ٢/ ٥٤٢ ، ٤/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

المباني الأثرية وابوابها واعمدتها في بناء قصورهم وبيوتهم ، كما هو الحال بالنسبة لبقايا مدينة زندورد وايوان كسرى ، وعين شمس ، وقرطاجنة ، ومعرة النعمان ، وسامراء ، والغريب ان خراب الأخيرة كان سريعاً ، اذ كانت في القرن الثالث الهجري تحمل انقاضها الى بغداد ويعمر بها . فقال ابن المعتز في ذلك :

قد اقفرت سر من را
وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها
كأنها آجام
ماتت كما مات فيل
تسل منه العظام

وكان البعض ينتقد هدم الآثار ، وازالة معالمها ، ويرى فيها قيمة تاريخية ، واداة للتفكر والاعتبار ، ومن هؤلاء القاضي ابو يعلي عبد الباقي بن أبي حصن المعري الذي يقول :

مررت برسم في سياث فراعني
به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبد الذراع كأنما
رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها ؟ شلت يمينك خلها
لمعتبر او زائر او سائل
منازل قوم حدثنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل (١٦٠)

دراسات رائدة لمعجم البلدان :

أشرنا فيما سبق الى ان صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) كان أول من اختصر هذا المعجم في كتاب اسماه « مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » ، وبعد ذلك بحوالي قرنين قام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم « مختصر معجم البلدان » . ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة آصفية بحيدر آباد (١٦٢) .

الا ان أول دراسة في مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموي نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » اذ يقول في مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة طريفة ، وملحة مليحة تشرئب اليها النفوس . . . انتخلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان ، فيما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ، ووافق شكلاً ونقطاً ، وافترق مكاناً ومحلاً ، واختلف صقعاً ومحتلاً . . . ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله (١٦٣) » .

وفي القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية . ونورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم ، والذي ضمنه وديع جويده

---

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٢٩٤ ، ٣٦٢ ، ٤٦٠ ، ٢/٥ ، ١٣ ، ٦٢ ، ٣/١٥٤ ، ١٧٦ ، ٢٩٢ ، ٤/٣٩٥ .

(١٦١) . Brockelmann, Geschichte der arabichen Litteratur Supplement band, (G.A.L.S.), Leyden, 1937—42, 1, 880

(١٦٢) ياقوت : المشترك ، ١٨٤٦ ، ٣ ، ٤ .

(١٦٣) Jwaideh : The Introductory Chapters of Yaqut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959, pp. IX—XI.

مقـدمـة تـرجمتـه للفصـول التمهيـديـة لمعجم البلدان لياقوت (١٦٤) . فقد قام عدد من كبار المستشـرقين في النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتعلق بموضوعـات معينة في المعجم . ففي عـام ١٨٢٣ نشر المستشرق الروسي فرين (C. M. J. Fraehn) في بطرسبورغ اول دراسـة استشراقيـة من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفـة اخرى عن الروس الأقدمين والشعـوب المجاورة لهم » (Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte Uber die Russen alterer Zeit und ihr Nachbarn.) فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولغا ، وعن الشعـوب المجاورة له ، معتمداً في الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت . وقد نشرهـا متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفاً اليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . كما يعتبر فرين أيضاً أول من كتب عن ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحثه بقيمته الى اوائل القرن العشرين (١٦٤) .

وكانت دراسة فرين فاتحة لأبحاث ودراسات مماثلة ، فقد نشر المستشرق الألماني كورد دي شولتسير (Kurd de Schloezer) الـرسالـة الأولى لابي دلف متنـا وتـرجمة لاتينيـة ، وهي رسالتـه للدكتوراه ، (بـرلـين ١٨٤٥) ، وذلـك بعنوان : « ابـو دلـف ، مسعـر بن مهلهـل ، ورسالتـه عن رحلته الأسيـويـة » (Abu Dolef Misaris ben Mohalhal de itenere asiatico Commentarius.) وكـان بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة ابي دلف مـوجودة في معجم البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الايطالي المعروف ميشيل امـاري (Michele Amari) في ليبـزج ١٨٥٧ كتـابه المشهـور « المكتبة العـربية الصقلية » (Biblioteca Arabo—Sicula)، وهو عن تاريخ جزيرة صقلية ، وقد ضمنه عدة نصـوص عربيـة بدءاً بالمسعودي وانتهـاء بحاجي خليفـة . واشتمل البـاب الحادي عشر من الكتاب على المقتـطفات التي أوردهـا يـاقوت في معجم البلدان عن جزيرة صقليـة ومـدنها وقراها (١٦٥) .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفـرنسي بـاربيـيـه دي مينـار (C. Barbier de Meynard) بعنوان « معجم جغرافي تاريخي في أدب فـارس والأقطار المجـاورة لهـا ، مستـخـرج من معجم البلدان لـيـاقـوت » (Dictionnaire Geographique, Historique et Litteraiare de la Perse et des Contrees Adjacentes, Extrait du Modjem El—Bouldan de Yaqout.)

أما النصوص التي اوردها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام ، فكانت موضع دراسة قام بها المستشـرق الألمـاني لـودولف كـريـل (Ludolf Krehl) بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » (Uber die Religion der Vorislamischen Araber.) وقـد نشرت هـذه الدراسـة في

---

(١٦٤) جويدة : الفصول المقدمة لمعجم البلدان ، ص×

كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٦ ، العقيقي : المستشرقون ، ٣/ ٩٣٤ .

(١٦٥) اماري : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٥٧ ، ١٠٥ ، ١٣٦ .

ليبزج عام ١٨٦٣ ، والمعروف ان هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبي ، كما ان المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (J. Wellhausen) ضمن كتابه القيم « بقايا الوثنية العربية » (Reste arabischen Heidentums) جميع المقتطفات التي اوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور ، واتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ، ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذي يدور عليه كتابه (١٦٦) .

وكانت اراضي الحرار في جزيرة العرب موضوع دراسة اخرى قام بها المستشرق الألماني اوتو لوث (Otto Loth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه . وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ ، بعنوان « حرار بلاد العرب عند ياقوت » (Die Vulkanregionen—Harra's—Von Arabien nach Jakut, ZDMG. 1868. XXII, 365—382.)

أما الاشارات المتنوعة التي اوردها ياقوت عرضاً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج (Hartwig Derenbourg) بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » (Les Croisades d'apres le dictionnaire de yakout.) ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ . (Centenaire de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes. 1795—1895. Paris, 1895, pp. 71—92)

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق ايرنست دامان (Ernest Dammann) بحثاً بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بافريقيا السوداء » (Beitrage aus arabischen Quellen Zur Kenntis des negrischen Afrika, Kiel, 1929.) ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ، ان يكون اعتماده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت ، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستنفلد (F. Wustenfeld) من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس ، وقدمت الملاحظات والفهارس المختلفة التي وضعها أساساً لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره ، كما كتب في اثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن اسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان ، وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » . ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ (Jacut's Reisen, aus seinem geographischen Worterbuche beschrieben, ZDMG, 1864, XVIII, 397—493.) في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ (Der Reisende Jacut als Schriftsteller und Gelehrter, Nachrichten Von der Konigl. Gesellschaft der Wissemschaften, Gottingen, 1865, No. 9, pp. 233—243.)

---

(١٦٦) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ١٩٦٨ ، مقدمة ابو ريدة ، د .

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصادر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » (Die historischen und geographischen Quellen in Jacut's geographischem Worterbuch, Strassburg, 1898.) وقد وصف وديع جويدة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل واشمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره (١٦٧) .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » . اذ المعروف ان هذا المعجم يضم حوالي خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه . والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله ، كما أن القصائد التي قيلت في الفتوح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية ، في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع الى القرون الهجرية الأولى . ويمكن للباحثين ان يجدوا في هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة ، وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من اوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير دراسة اخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان ، وشهرزور في معجم ياقوت (١٦٨) .

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستنفلد لمعجم البلدان فان هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، وقد اعيد نشر هذه الطبعة بالاوفست في طهران عام ١٩٦٥ . اما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء واشرف عليها محمد أمين الخانجي الكتبي (١٩٠٦) فلم تأت بجديد ، وان كانت أحياناً تقدم قراءات افضل للاسماء . واضاف اليها الخانجي مجلدين استدرك فيهما على معجم ياقوت البلداني وسماه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » . وقد لاحظ كراتشكوفسكي ان « هذه الاستدراكات قد تمس أحياناً نقاطاً عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث في أوروبا وأمريكا واستراليا ، وهذه الاضافة وان لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية ، الا انها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة الى بداية القرن العشرين (١٦٩) .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي ، واسعاف النشاشيبي ، وعباس الغزاوي ، وعبد الوهاب عزام ، وعلي أدهم ، وعبد الله مخلص ، وابو الفتوح التوانسي ، وعبد المعين الملوحي (١٧٠) . وليس من شك في ان كثرة الدراسات التي افردت لياقوت ومصنفاته ، تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية في التراث

---

(١٦٧) جويدة : الفصول التمهيدية لمعجم البلدان ، ١ × .

(١٦٨) العقيقي : المستشرقون ، ٣/ ٩٥٥ .

(١٦٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ١/ ٣٣٧ .

(١٧٠) الملوحي : الفكر العلمي عند ياقوت الحموي ، مجلة مجمع دمشق ، ٤٦/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

العربي الاسلامي ، الذي يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي العظيم الذي قام به ، فوصف كتابه الضخم بانه « اوحد في بابه ، مؤمر على جميع اضرابه واترابه ، لا يقوم لمثله الا من أُيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار وانجد ، وطوّح بنفسه فابعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التي عايشها وهو يجمع مادة كتابه القيم حباً في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بهما ، كان كل أمله ومبتغاه ، امنية في ان لا ينسب هذا الجهد الى سواه ، ودعاء توجه به الى الله عز وجل « ان لا يحرمه ثواب التعب فيه ، وان تكون جائزته على ما اوضع اليه ركاب خاطره ، واسهر في تحصيله بدنه وناظره ، دعاء المستفيدين وذكر زكي من المؤمنين بان يحشر في زمرة الصالحين (١٧١) . رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .

* * *

---

(١٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/١ .

المصادر والمراجع :

اعتمد البحث على طبعة بيروت لمعجم البلدان ـ دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، وذلك لتيسر هذه الطبعة وتداولها في أيدي الباحثين . واشار الباحث في مواضع قليلة أخرى تطلبها البحث الى طبعة لايبزج القيمة ١٨٦٦ .

مصادر مخطوطة :

سنجر المسروري : علم الدين الصالحي (ت ٦٨٦هـ)
ذيل البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان استانبول ، مكتبة سراي أحمد الثالث ، خ/ ٢٩٥٩ .

ابن الشــعار : المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان .
استانبول ، مكتبة اسعد افندي ، خ/٢٣٢٣ ـ ٢٣٣٠ .

مصادر ومراجع مطبوعة :

ابن الأثيــر : علي بن محمد الشيباني ، ابو الحسن ، عز الدين (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .

آرنولــــد : توماس (ت ١٩٣٠) .
تراث الاسلام (ط ١ ، ترجمة ، جرجيس فتح الله) .
ط بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

البغــدادي : أحمد بن علي الخطيب ، ابو بكر (ت ٤٦٣هـ) .
تاريخ بغداد (او مدينة السلام) .
ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، (بدون تاريخ) .

ابن بطوطــة : محمد بن ابراهيم اللواتي ، ابو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

البــلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) .
ط القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦ .

ابن تغري بردي : يوسف ، ابو المحاسن ، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
ط القاهرة ، عن طبعة دار الكتب ، (بدون تاريخ) .

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ) .
كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون .
ط مكتبة المثنى ببغداد ، عن طبعة ١٩٤١ .

حميده : عبد الرحمن .
اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم .
ط بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، ابو زيد (ت ٨٠٨هـ) .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
ط بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .

ابن خلكان : احمد بن محمد ، ابو العباس ، شمس الدين (ت ٦٨١هـ) .
وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان .
ط القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .

الذهبي : محمد بن احمد بن عثمان ، ابو عبد الله ، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) .
العبر في خبر من غبر .
ط الكويت ، مطبعة الحكومة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
تذكرة الحفاظ .
ط بيروت ، عن مطبعة حيدر اباد الدكن ، (بدون تاريخ) .

زيدان : جرجي بن حبيب (ت ١٩١٤م) .
تاريخ آداب اللغة العربية .
ط بيروت ، دار الحياة ، ١٩٦٧ .

السمهودي : علي بن أحمد نور الدين (ت ٩١١هـ) .
وفاء الوفا باخبار دار المصطفى .
ط بيروت ، عن طبعة القاهرة ، دار احياء التراث العربي (بدون تاريخ) .

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .
تاريخ الرسل والملوك .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن ، صفي الدين (ت ٧٣٩هـ) .
مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع .
ط القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ .

العقيقي : نجيب .
المستشرقون .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

العمـــد : إحسان صدقي .
الحجاج بن يوسف الثقفي .
ط بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ .

غنيـــم : عبد الله يوسف .
مصادر البكري ومنهجه الجغرافي .
ط القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ .

ابن فضـــلان : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (ت ق ٤هـ) .
رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة .
ط دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .

فلهـــوزن : يوليوس (ت ١٩١٨م) .
تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

القزوينـــي : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ) .
آثار البلاد وأخبار العباد .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

كحالـــة : عمر رضا .
التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية .
ط دمشق ، المطبعة التعاونية ، ١٩٧٢ .

كراتشكوفسكي : اغناطيوس يوليانوفتش (ت ١٩٥١) .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين هاشم) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

كمـــال : أحمد عادل .
الطريق إلى دمشق .
ط بيروت ، دار النفائس ، ١٩٨٠ .

ابن المستوفي : المبارك بن أحمد اللخمي ، أبو البركات ، شرف الدين (ت ٦٣٧هـ) .
تاريخ اربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) .
ط بيروت ، المركز العربي للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

المنجـــد : صلاح الدين .
أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب .
ط بيروت ، مؤسسة دار التراث العربي ، ١٩٥٩ .

نفيس أحمــد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي (ترجمة فتحي عثمان) .
ط الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٨ .

ابن هشــام : عبد الملك ابو محمد (ت ٢١٣هـ) .
سيرة النبي ﷺ (السيرة النبوية) .
ط القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ .

الواقــدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) .
كتاب المغازي .
ط طهران ، عن طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

ياقوت بن عبد الله الحموي : (ت ٦٢٦هـ) .
ـ معجم البلدان ط ليبزج ١٨٦٦ .
ـ معجم البلدان ط القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، ١٩٠٦ .
ـ معجم البلدان ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥ .
ـ معجم الأدباء ط بيروت ، دار احياء التراث العربي ، عن طبعة دار المأمون بالقاهرة .
ـ المشترك وصفاً والمفترق صقعاً ، ط جوتنجن ١٨٤٦ .

Brockelmann : Geschichte der arabichen Litteratur Supplementband, (G. A. L. Supp.), Leyden, 1937—42.

Jwaideh. W : The Introductory Chapters of yagut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959.

مجلات ودوريات :

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السادس والأربعون ، دمشق ١٩٧١ .

مجلة المقتبس ، القاهرة ، المجلد الأول ، ١٣٢٤هـ .

مجلة الجمعية الشرقية الألمانية .

Z. D. M. G : Zeitchrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.

* * *

صدر حديثاً

الصراع من أجل أن تكون إنساناً
" الجريمة وعلم الاجرام والفوضوية "

تأليف : ل. تيفت ود. سوليڤان
عرض وتحليل : عدنان الدوري
استاذ بجامعة الكويت

(١)

هذا كتاب غزير بأفكاره المتحررة ومواقفه المتطرفة واتجاهاته المتصلبة . وقد جاء بأسلوب مركز بشكل لا يتيح لقارئه تخطى أي سطر من سطوره دونما وقفة متبصرة لكل ما يبطنه من فحوى او يظهره من معنى . وربما كان الأجدر بادارة مجلة « عالم الفكر » ان تطلب ترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة دون الاكتفاء بعرض موجز لأهم افكاره واتجاهاته .

والكتاب يتناول موضوعات معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تشكل أرضية عريضة واسعة للجدل العلمي والفلسفي والفقهي والقانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي او غير ذلك من ميادين المعرفة العلمية المنظمة .

وسنحاول جهدنا في عرض ما تضمنه من فكر وتحليل وعسى أن نكون قد أفلحنا في إبراز أهم أفكاره وفرضياته .

والكتاب مطبوع حديثا (١٩٨٠) يحمل عنواناً مثيراً ولكنه يمثل اتجاهاً ليبرالياً معاصراً يتناول تحليل مفهومي الجريمة والعقاب من زاوية فلسفية جدلية وأخرى اجتماعية علمية جديدة . فهو يدعو الى ربط الجريمة وربط العقاب بعملية المعاناة البشرية من أجل تحرير الذات . اذ يرى أن علماء الاجتماع ، الأكاديميين منهم والماركسيين على السواء ، قد عجزوا حتى الآن عن رسم طريق أمام الانسان المعاصر الى حياة اجتماعية آمنة مستقرة . ذلك ان العنف والمظاهر السلطوية التي تمارسها الدولة وكل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية لا يمكن ان تحقق بحال من الأحوال بعض ما يطمع به أفراد المجتمع من استقرار اجتماعي وسلامة فكرية .

وان بناء حياة اجتماعية متكاملة متوافقة ، من وجهة نظر مؤلفي هذا الكتاب ، ينبغي أن تعتمد على كفاءة الانسان ذاته وعلى مدى جدواه الوظيفية في المجتمع الذي يعيش فيه . كما أن تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها يخضعان بالدرجة الأولى لما يقدمه الأفراد انفسهم من عون متبادل بنّاء ومن خلال تعاون جماعي ايجابي ملموس .

ويوضح الكتاب كيف اننا لا نزال نعيش حياة أقل ما يقال فيها انها تقوم على الاتكالية المطلقة والاعتماد الكامل على الآخرين ، ولذلك فليس من الصواب الاصرار على الاعتقاد باستقلالية ظاهرتي الجريمة والعقاب عن حقل الاقتصاد او عن الدولة او حتى استقلاليتهما عن الحياة ذاتها . ان غالبية علماء الاجتماع وعلماء الجريمة الأكاديميين يخفقون في ادراك أهمية الظروف الأساسية التي تحيط بحياة الانسان المعاشية لأنهم لا يزالون يدورون في فلك الدولة وحول محور القانون والخضوع لسلطان كل منهما . ان ظروف الانسان المعاشية تستدعي التعاون الكبير بين الأفراد وهذا التعاون هو الذي يطبع عجلة الحياة في نمطها المعاصر .

حتى أنصار الفكر الراديكالي أنفسهم ، ممن ينضوون تحت مظلة الفكر الاشتراكي في علم الاجرام المعاصر لا يستطيعون الافلات من فكرة مركزية الدولة وقوة سلطانها في توجيه دفة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والحركة والتطور . ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتجاوزوا في تحليلاتهم الايديولوجية امكانية العيش خارج اسوار مركزية الدولة لأنهم لا يزالون يربطون بين عملية التنظيم الاجتماعي ذاته وبين قوة فاعلية السلطة المركزية للدولة .

واذا كانت أهمية علم الاجرام ، كمعرفة علمية متخصصة ، لا زالت اليوم بعيدة المنال في وعي مجتمعاتنا المعاصرة فان هذا العلم وحده لاشك يستطيع أن يكون الدرع الدفاعي المنيع الذي يمكن أن يحمي الأفراد ضد تسلط الدولة ، ولذلك ينبغي انقاذ هذا العلم من السقوط في جاذبية الدولة أو الخضوع لسلطانها وتبعيتها . ان مهمة علم الاجرام ، او عالم الاجرام الجديد ، أن يحرر نفسه من سلطان الدولة باثبات عدم جدوى النظرة العقابية التقليدية نحو الجريمة والتي لا تزال تربط الجريمة بقوانين الدولة الجزائية ربطاً عضوياً مباشراً . ان غياب علم اجرام جديد بهذا المعنى يتركنا نتطلع دوماً الى الدولة في كل ما يتصل بشؤون الجريمة والعقاب الأمر الذي يجعلنا نسير في مدار الدولة ونخضع لسلطانها .

(٢)

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة اعقبها فصول أربعة جاوز بعضها الخمسين صفحة . ولعل ابرز ما في مقدمة الكتاب تلك الفكرة التي تناولت صراع الانسان الطويل نحو تحقيق انسانيته ، وذلك من خلال تبني فلسفة علم اجرام حديث من علوم الانسان المعاصرة . وقد استطاع المؤلفان وهما من علماء الاجتماع الأميركيين ، ان يبلوروا فلسفة هذا الكتاب حول موضوع الجريمة وعلم الاجرام الجديد .

يقول المؤلفان اننا بدأنا نسمع اليوم بعض أصوات علماء الجريمة الرافضين لبعض التعريفات القانونية التقليدية التي التصقت بفكرة الجريمة وفكرة العقاب او حتى بمفهوم معاملة المذنبين ان مثل هذه التعريفات لا شك تحجب وراءها تلك المعاني الإنسانية لمفهوم العدالة الاجتماعية ، فمعاناة الانسان المسجون خلف قضبان

السجون لا تختلف عن معاناة أخيه الانسان الآخر الذي يموت جوعاً في أفريقيا الشرقية ، أو أولئك الأطفال الذين يحرقون أحياء بقنابل حرب فيتنام . إن المعاناة الانسانية واحدة مهما اختلفت أسبابها وتباينت صورها وأشكالها . اننا في الواقع لا نستطيع أن نفسر جريمة الايذاء التي يرتكبها شخص ضد آخر وفقاً لمنطق ذلك القانون العلمي الأحادي الذي يقوم على السبب والنتيجة . ان هذا القانون لا يأبه للمعاناة الانسانية الذاتية التي يعانيها الانسان في سبيل تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية . ان مفهوم العقاب المعاصر ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، لم يعد له ثمة معنى مقبول وذلك من خلال ما يمارس فيه من جراحة طبية وايلام بدني وتعذيب نفسى وعزل مادي يقيد حرية الانسان بصورة قاسية بحيث لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً ولا يقابل بشراً .

اننا لا نستطيع ان ندرك معنى الحرية ذاتها الا اذا خرجنا عن مجال الدولة المغناطيسي الجاذب ، كما كان عالم الفلك « كوبرنيك » لا يستطيع ان يتصور حركة الأرض الا حين يتاح له الخروج منها بعيداً عنها والنظر اليها من على سطح الشمس . ويظهران صاحبي هذا الكتاب لا يدعوان الى تصحيح مسيرة علم الاجرام الحالي كفرع من فروع المعرفة العلمية اووضع هذا العلم في اطار فكري انساني جديد . انهما في الحقيقة يدعوان الى اقامة مجتمع بديل لمجتمعنا الراهن حيث لا يكون هناك حاجة الى علم إجرام او الى عقاب ينبعث عن سلطان الدولة . ان العلاج هو في الغاء الدولة والغاء الرأسمالية معاً والغاء كل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية وهذا لا شك يلغي حاجتنا الى علم اجرام يقوم على سلطة الدولة . ومع ذلك فان المؤلفين لا يقدمان الحل الماركسي بديلاً لمواجهة الحالة . انهم يعتقدان بان الماركسيين انفسهم يرسخون سلطان الدولة بعد نجاح محاولتهم في قلب النظام القائم .

فالبديل المطلوب هو نظرة انسانية متفتحة نحو العالم بحيث يسود التوافق بدل التغيير والذوبان بدل الالغاء والتناغم بين الانسان وبين كل ما هو طبيعي .

اننا لا نزال نعيش في عالم يتميز بألوان العنف والعدوانية ، سواء كان ذلك في مجتمعاتنا الكبيرة او المحلية ، او في بيوتنا او في مدارسنا او في دوائر عملنا او مصانعنا وحقولنا الزراعية . ان جميع هذه المؤسسات تصطبغ بصبغة القهر والتسلط والقمع والعدوانية وطلب الطاعة العمياء ، ونحن لا نزال نترعرع من خلال مفاهيم اجتماعية محدودة لا تخرج عن دائرة الطاعة او حدود الواجب او الخوف من العقاب . ولذلك فنحن لم نعد نشعر بوجود العنف من حولنا لأننا غير منفصلين عنه بل صار جزءاً من حياتنا . كما أنه ليس بوسعنا ادراك لا مشروعية العنف الذي نعانيه ، ولا يمكننا تقويم لا أخلاقياته ، لأننا نعجز في الواقع عن ادانة مصدر هذا العنف وهو الدولة . ان الدولة بوصفها صاحبة السلطة المطلقة تستطيع ان تمارس اعمال القتل والايذاء والحبس ومصادرة المال وانتهاك حرمة البيوت ومصادرة الحريات الفردية ، ومع ذلك فان مثل هذه الأعمال تكتسب التسميات الاجرامية التقليدية حين يقوم بها فرد من الأفراد حيث يصبح هذا الفرد قاتلاً او سارقاً او مغتصباً او منتهك حرمات . اما العنف المشروع الذي يصدر عن سلطة شرعية كالدولة فهو الذي لا يمكن ادانته لأنه يستند الى شرعية تقوم على سيادة الدولة على الافراد . وموجز ما يراه مؤلفا هذا الكتاب ان معاناتنا لا تنبعث عن تلك الأفعال اللااجتماعية التي يعاقب عليها القانون كجرائم ، بل عن تلك الأفعال المشروعة التي لا توصم

بوصمة الجريمة والاجرام . ان مثل هذه الأفعال المشروعة قد تشيع الكثير من العوز والتعاسة والدمار والصراع ، ومع ذلك فهي تعاسة تظل غير منظورة لأنها بعيدة عن الاشارة والتنويه .

(٣)

ان التعريف القانوني للجريمة ، الذي لا يزال يقوم على فكرة الضرر بالمصلحة الاجتماعية لا يربط بالضرورة بين مخالفة القانون وبين حدوث بعض الضرر بالمصلحة الاجتماعية او حتى انتهاك بعض المعايير الاجتماعية او القيم الأخلاقية . ذلك ان هناك جرائم كثيرة لا ينشأ عنها ضرر ما لأحد من الأفراد سوى صاحبها كجريمة التسكع وجريمة السكر او حتى تغيب حدث صغير عن بيته او عن مدرسته . وهناك من الناحية الأخرى أفعال ضارة مؤلمة لا يحتضنها التعريف القانوني للجريمة كعقوبة الاعدام ذاتها وعقوبة الحبس والحرب وتلوث البيئة والتعصب العنصري والاباحية الجنسية والمعاملة القاسية التي يلقاها الصغار من قبل ذويهم .

ان الجريمة من الناحية القانونية لا تعدو كل فعل او امتناع يرد بنص في القانون الجزائي ، وهذا يفيد بأن الجريمة كل نمط سلوكي معين يخرج على معيار قانوني معين وكل ما عدا ذلك لا يشكل جريمة . وهذا يفيد ببساطة ان غياب نص القانون الجزائي ذاته يؤدي الى انعدام الجريمة ذاتها .

وكذلك شأن العقوبة كجزاء رسمي فهي تمثل ذلك الضرر او الايلام المتعمد الذي تلحقه سلطة ذات صلاحية شرعية بفرد معين وذلك عن فعل تعتبره ضاراً بها . واذا كانت الدولة قد نشأت في أول مراحلها لحماية مصالح طبقة التجار وذوي اليسار فقد استخدم مفهوم الجريمة لحماية هذه المصالح . ان القانون الجنائي لا يهدف لحماية تلك الاعراف والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع بل هو قد جاء لحماية مصالح الدولة . فالدولة غالباً ما تنتهك بعض الأعراف والمعايير الاجتماعية تحت بعض المبررات الاقتصادية والسياسية . لقد كانت انظمة الرق ، التي سادت لدى مجتمعات كثيرة ، بعض جهود أولئك الذين يملكون السلطة الكافية لتقرير مشروعية الرق . وحين انحسر النظام الاقطاعي وضعفت فعالية مؤسساته انبثقت السلطة المركزية للدولة تحت أشكال مختلفة تحت مظلة سيادة الدولة متبنية حماية الأفراد . وهكذا بدأت الدولة أو (الصفوة) تضع تعريف الجريمة المناسب وتفرض لها العقاب المناسب ، وصارت الجريمة مفهوماً رسمياً يرتبط بمخالفة القانون ، والخروج على النظام القائم ، وهذا بذاته عمل موجه ضد سلطة الدولة . ان تاريخ تطور القانون الجنائي وما تضمن من ممارسات رسمية لمواجهة ظاهرة الجريمة تعكس تلك الانماط المناسبة التي تتضمن مطلب الضبط والطاعة .

وهذه لا شك ترتبط ببعض الخلفيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل عصر من العصور .

وكذلك كان شأن العقوبة ذاتها كجزاء رسمي يصدر عن سلطة رسمية هي الدولة . لقد صار العقاب ذلك الضرر المتعمد الذي يصدر عن سلطة ذات شرعية لمعاقبة فرد من الأفراد عن فعل معين ضار بمصلحة الدولة . ومن هنا فان فكرة قبول القانون ذاته تعتبر تبريراً للدولة مهما اتخذت هذه الدولة من اجراءات لمواجهة المشكلات او التعاسة التي تخلقها بنفسها . ان

فكرة قبول القانون تعني ان الأطفال الذين تساء معاملتهم او الجياع الذين يتضورون جوعاً وضحايا العنف البدني وضحايا عنف الدولة لم تعد اليوم مشكلات ينبغي ان نهتم بها بصورة مباشرة او نتحمل مسئولياتها . لقد صار القانون ذاته وما يفرزه من علاقات تبعية هي الأمور التي تجاوزت الآن درجة معاناتنا . ان الأفعال الضارة التي تقع بيننا اليوم كالاغتصاب الجنسي والقتل والحرب وقسوة العقاب والاستغلال الاقتصادي والايذاء البدني يمكن تقليصها وتخفيف آثارها وأضرارها فيما لو تركنا القانون جانباً وأقمنا بدله مجتمعات انسانية تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك . ولعل هذا يتيح لنا الطريق الى ايجاد حلول اجتماعية عادلة لكل ما نعانيه من صراعات وتناقضات تعاني منها مجتمعاتنا .

ان الشعور بمسئولية الفرد نحو الجماعة يمكن ان يكون البديل الصالح لكل المسئوليات المتعددة التي تضطلع بها تلك اللجان الكثيرة التي تشكلها لايجاد الحلول البيروقراطية لمشكلاتنا الراهنة . ان الشعور بالعدالة في حياتنا اليومية والطرق التي نستجيب بها لمواجهة صراعاتنا وتعاستنا يمكن ان تكون بادراكنا الكبير لمدى شعورنا بالحاجة الى الآخرين .

(٤)

ولا شك ان فحوى الكتاب تتلخص في ان جذور مشكلاتنا الراهنة تنحصر في اننا لا زلنا نركز على دراسة الجريمة من الناحية العلمية بمعزل عن مطلبين اساسيين هما مطلب دراسة الدولة ذاتها التي تنشيء القانون الجنائي ومطلب دراسة المعاناة الانسانية من أجل تحرير انفسنا . ان اغفالنا لأهمية المطلب الأخير هو المسئول عن مضاعفة تعاستنا ومعاناتنا في سبيل تحقيق مجتمع انساني صالح سليم . وان الضرر الرسمي الذي يصدر عن سلطة شرعية يشيع في مجتمعنا التعاسة والعناء والتناقض والدمار والحاجة . ورغم هذا فان الضرر الذي قد يلحق بالفرد من جراء سرقة لا قانونية او من قبل سلطة تحتمي وراء القانون يظل يسير في دورته المعتادة دون توقف . واذا كانت الكرة الأرضية عاجزة اليوم عن حماية مواردها الطبيعية من النفاد العاجل فان الضمير الانساني عاجز اليوم عن حماية نفسه من الاندثار والضياع ، واذا كان لا بد من العيش بدون سلطة او بدون قهر سلطوي فعلينا التركيز على حياة مجتمعية جديدة قائمة على التعاون المتبادل .

وفي اطار بيئة محددة باقتصاديات طبيعية معينة فان صراع الانسان لكي يكون انساناً يصبح امتداداً حيوياً للحياة ذاتها . فاذا كان الانسان لا يزال يسعى الى تطوير موارد الطبيعة بما ييسر له حياته الطبيعية فان من الأولى ان يبدأ الانسان بتطوير ذاته بما يكفل بعث الحياة الى الجنس الانساني عامة وذلك من خلال ما يتمتع من ذكاء وحب وحيوية وما يحس به من تعاون نحو الآخرين . ان حرصنا اليوم على المشاركة الجماعية في ما نملكه من خيرات الطبيعة ينبغي أن يمتد الى مشاركة انسانية اخرى في خدمة اهداف الجنس الانساني الذي ننتمي اليه .

ولعل هذا لا يقف عند حدود تحقيق مطلب العدالة والمساواة فحسب بل ينبغي أن يمتد الى ذلك المصدر الداخلي الذاتي الذي يقودنا الى التعامل مع الآخرين كما نرغب ان نعامل نحن به في ظروف مماثلة . واذا كنا لا نريد ان نكون محكومين لأحد فان علينا أن لا نحكم الآخرين .

ولعل هذا لا يعني اطعام الجياع من البشر وفق احساسنا الآدمي بآلام الجوع بل ليمتد الى تلك المشاركة الوجدانية من خلال التعاون الكامل مع الآخرين وتطوير علاقاتنا بهم على نحو يملأ ذلك الفراغ الانساني الفسيح الذي يفصل بيننا .

ان الحرية التي ننشدها لنا وللآخرين ينبغي أن تكون حرية خلاّقة تعمل بدون سلطة أو تسلط على الآخرين أو تقييد اراداتهم . انها قوة متحررة تعمل من خلال ما تملكه من مهارات خاصة لتكون ذات تأثير معين على الآخرين . وفي اطار بيئة تتميز بتنظيم اجتماعي يقوم على مثل هذه الحرية فانه لا مكان للخوف من تسلط فردي أو عدوان على الآخرين .

ان تحقيق مثل هذه المطالب الكبيرة يستلزم مواصلة الصراع نحو تحقيق انسانيتنا .

***

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الرابع عشر
اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن

أدب المراسلات

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	مسقط	٤٠٠	بايه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٫٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

البلاد العربية	٢٫٥٠٠	دينار
البلاد الاجنبية	٢٫٠٠٠	،،

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام ـ المكتب الفني ـ ص.ب ١٩٣ الكويت

وقد قسم بعض الباحثين المحدثين(٣٣) مؤلفات المقريزى الى قسمين : كتب موسوعية ضخمة، واخرى تخصصية صغيرة . القسم الاول بعضه عنى فيه المقريزى بالتاريخ العام ، مثل كتاب (الخبر عن البشر) وكتاب (الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الاسلامية) وكتاب (امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاحوال والحفدة والمتاع) . والبعض الآخر ركز فيه المقريزى على تاريخ مصر الاسلامية ، وتراجم المشاهير من اهلها وابنا ئها . ومن هذا البعض كتاب (المقفى الكبير) فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب (درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة) وهذان الكتابان فى التراجم ، خصص اولهما لتراجم البارزين من أهل مصر ، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربى الاسلامى . ـ والثانى خصصه المقريزى لتراجم المشاهير من معاصريه .

أما فى تاريخ مصر السياسى ، فقد ألف المقريزى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه : الاول كتاب (عقد جواهر الاسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط) ويعالج تاريخ مصر الاسلامية حتى بداية العصر الفاطمى . والثانى كتاب (اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا) ، وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية . أما الثالث فهو كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد أرخ فيه المقريزى لمصر منذ بداية الدولة الايوبية حتى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ (٣٤) . وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة التى خصصها المقريزى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الاسلامية ، يكملها الكتاب الذي أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية فنية . . بكل معاني الكلمة .

أما عن الكتب التخصصية الصغيرة ، فانها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلا منها عبارة عن رسالة قيمة عالج فيها المقريزي مشكلة من مشاكل التاريخ أوجانبا مهملا من جوانبه أوطرفة من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة احس بوجودها في عالم الفكر والمعرفة (٣٥) وإذا كانت موسوعات المقريزي ومؤلفاته الكبيرة تموج بتفاصيل احداث التاريخ واعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والامراء والعلماء والتجار ، فان كتبه الصغرى لاتتسع لكل ذلك .ولذا نجدها تتصف بالتركيز والايجاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة في التاريخ الاسلامي . فكتاب (النزاع والتخاصم فيا بين بني أمية وبني هاشم) يعالج مشكلة قديمة في التاريخ . وكتاب (الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام) وكذلك كتاب (الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة) يعالجان بعض الجوانب المهملة في التاريخ الاسلامي . اما كتاب « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك »

---

(٣٣) جمال الدين الشيال : مؤلفات المقريزى الصغيرة ـ بحث فى كتاب (دراسات عن المقريزى) الذى سبقت الاشارة اليه ـ ص ٢٣ وما بعدها .

(٣٤) يقع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى أربعة أجزاء ضخمة ، وقد تم تحقيقه ونشره فى اثنى عشر مجلدا ، كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وكل قسم فى مجلد قائم بذاته . وقد حقق الجزءين الأول والثانى فى ستة مجلدات استاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)
وقمنا نحن من بعده بتحقيق الجزءين الثالث والرابع ـ حتى نهاية الكتاب ـ فى ستة مجلدات أخرى ، صدرت عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢) وللأسف لم نعثر على الكتاب مكتملا بأجزائه الأربعة ومجلداته الاثنى عشر فى احدى مكتبات دولة الكويت ، فاضطررنا أثناء كتابة هذا البحث الى الرجوع فى الجزءين الثالث والرابع الى صورة ميكروفيلم نحتفظ بها للمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٣٧ . وأشرنا الى ذلك فى مواضع البحث .

(٣٥) عنى بهذه المجموعة من مؤلفات المقريزى ، زميلنا الراحل وأخونا الكبير المرحوم جمال الدين الشيال ، اذ عكف على تحقيق ونشر بعضها فى سلسلة صدرت بعنوان مكتبة المقريزى الصغيرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) كذلك كتب بحثا بعنوان (مؤلفات المقريزى الصغيرة) سبق أن اشرنا اليه .

وكتاب تراجم ملوك الغرب » فيعرِّفان بمجموعة من ملوك الاسلام ربط بينهم نشاط واحد او ركن واحد من اركان الدولة الاسلامية البعيدة .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ماقصد به المقريزي القاء الضوء على بعض الاوضاع المعاصرة . مثل كتاب « البيان والاعراب بمن نزل أرض مصر من الاعراب » وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة في مصر على ايام المؤلف . بل ان المقريزي تناول في بعض هذه الكتب جوانب من العلوم البحتة ، فهو في كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الاجسام المعدنية » يتكلم عن المعادن والاجسام المتولدة من الابخرة والادخنة المحتبسة في الارض ويفرق بين المعادن القابلة للطرق ـ وهى الذهب والفضة والنحاس الرصاص والحديد والاسراب والخارصين ـ والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها ـ كالزئبق ـ او الاجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق ، مثل اليواقيت والشب والنوشادر .

ومن أمثلة هذا النوع من الكتب ـ أو الرسائل العلمية ـ التي ألفها المقريزي كتاب (نحل ابر النحل) ، الذي يتعرض بالشرح فيه للنحل وانواعه ومراحل نموه وطباعه والوانه وأحجامه ، ثم ينتقل الى بيوت النحل أو خلاياه ، فيتكلم عن مواضعها في الجبال والسهول وانواعها ، ويصف أشكالها وطريقة العمل فيها . وبعد أن يوضح الآفات التي يتعرض لها النحل ، ينتقل الى عسل النحل وانواعه وفوائده والوانه ، ويربط ذلك كله بالزهور التي يعيش عليها النحل واثر كل منها في نوع العسل الذي يخرجه .

والمقريزي عندما يتكلم في هذه الكتب العلمية عن جانب معين من جوانب العلوم لايفوته ان يربط كلامه بالحياة الواقعية والاقتصادية . فهو في كلامه عن المعادن يشير الى مالها من أهمية اقتصادية في حياة الناس .

وعندما يتكلم عن النحل يوضح القيمة الاقتصادية للعسل ـ وبخاصة في العصور الوسطى ـ وكيف انه يشكل مصدرا هاما لايرادات الدولة ، لانه يدخل في المعاملات السلطانية والجهات الديوانية . هذا فضلا عن الشمع الذي يستخرج من بيوت النحل ، وماكان له من دور كبير في الحياتين العامة والخاصة ، بوصفه المصدر الاساسي للاضاءة عندئذ ، حتى ان سوقا كبيرا من أسواق القاهرة ـ عرف باسم سوق الشماعين ـ تخصص في تجارة الشموع وحدها .

على أن أهم مؤلفات المقريزي الصغيرة ـ في نظرنا ـ هو دون شك كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، نظرا لماله من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، ولأن المقريزي ضمنه كثيرا من الآراء والنظريات التي سبق بها عصره بكثير . وفي هذا الكتاب يتعرض المقريزي لتاريخ المجاعات والاوبئة التي اصابت مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦ ـ ٨٠٨ هـ) والتي فقد في الطاعون الذي صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦ هـ ـ ويبدو أن هذه المحنة التي ابتلى بها المقريزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور ، حتى أنه ماكاد ينكب على تأليفه عقب وفاة وحيدته ، حتى فرغ منه بعد قرابة العام ، وعندئذ يقول عن نفسه انه عكف على « ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة » .

وترجع أهمية كتاب « اغاثة الامة » الى انه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى . ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقريزى كثيرا من الاوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الازمات الاقتصادية التى تحل بالبلاد الى تلك الاوضاع والتصرفات . وفى الوقت نفسه نرى المقريزى يحلل تلك الازمات تحليلا اقتصاديا يجمع بين العمق والايجاز ، ويشرح مالها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

على أن عظمة المقريزى وزعامته لمؤرخى عصره لاتنبع من كثرة مؤلفاته وتنوع مواضيعها ، ومثابرته على الكتابة والتأليف ، بقدر ماتنبع من منهجه فى كتابة التاريخ . ونستطيع أن نحدد اركان هذا المنهج فى الجوانب الآتية : ـ

أولا : أمانة العرض ، والقدرة على التجرد من الاهواء ، وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير .

واذا كانت الامانة صفة لازمة لكل عالم ، فانها ألزم للمؤرخ منها لاى عالم آخر . والمؤرخ عند ما يروى رواية عن الغير ينبغى أن يحافظ عليها كما هى . واذا روى بعض مشاهداته عليه أن يكون دقيقا فيما يسجله ، لان هذه الرواية او تلك ستكون مع الايام سجلا ومرجعا يعتمد عليه اللاحقون . وربما ضاع الاصل الذى استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التى سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا على التاريخ . والمؤرخ شاهد على الناس ـ الموتى والاحياء ، شاهد على الماضى والحاضر ، والشهادة فى الاسلام لها اصولها وآدابها(٣٦)

وبمقارنة كتابات المقريزى بما دونه غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده اكثرهم اعتدالا ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات . هذا بالاضافة الى أنه فى كتابته للتراجم والسير نراه دائما متحكما فى قلمه ، يحترم الصغير والكبير سواء ، عفيف اللفظ والكلمة . حتى فى نقده لمن يستحق النقد يبدو المقريزى متحرزا منضبطا يخشى الله فيما يقول ، ولايتخذ من التاريخ اداة لتجريح الناس ونهش اعراضهم والكشف عن خباياهم .

ولايخفى عنا أن المقريزى عاش فى عصر كثر طواله التحاسد بين العلماء ، وتعرض بعضهم لبعض بالذم والاساءة . ولكن المقريزى ظل بعيدا عن الخوض فى ذلك المستنقع ، مكتفيا عند الشروع فى تأليف كتاب بأن يدعو الله « أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما اعوذ به من تطرق أيدى الحساد اليه والجهلاء ، وان يهدينى فيه ـ وفيما سواه من الاقوال والافعال ـ الى سواء السبيل »(٣٧) .

وحسبنا الفارق بين هذا النهج المعتدل ، وبين ما كان عليه مؤرخ آخر معاصر كالسخاوى ، وصفه معاصره السيوطى بأنه ألف تاريخا « ملأه بذكر المساوىء وثلب الاعراض » (٣٨) وقال عنه ابن اياس انه « الف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس » (٣٩) .

---

(٣٦) سورة المائدة ، ١٠٨ وسورة البقرة ، ٢٨٢ .

(٣٧) مقدمة كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى ، ج ١ ص ٣ (بولاق)

(٣٨) السيوطى : الكاوى على السخاوى (مخطوط بدار الكتب المصرية ـ ١٥١٠ أدب)

(٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ (طبعة القاهرة)

ثانيا : لم يكتف المقريزى بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه . وانما عرف عنه التدقيق وحب الاستقصاء والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الاحداث . يقول المقريزى عن نفسه ـ عند ذكر بعض الاحداث « فكثر تعجبى من ذلك ، وما زلت أفحص عنه على عادتى فى الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على . . » (٤٠)

وهذه الصفة المتأصلة فى المقريزى ، والتى يلمسها الباحث فى كتاباته تجعله يسمو فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، بل واللاحقين حتى اوائل القرن الماضى . ذلك ان الغالب على المؤرخين عندئذ هو ان يسرد الواحد منهم احداث التاريخ مكتفيا بما يصل الى علمه عن طريق النقل والسماع . واذا كان المؤرخ أمينا أسند الرواية الى من نقلها عنه ، وربما فعل ذلك خشية الله او حتى يتحلل من مسئولية وتبعة ما يرويه ولا نقول ان المقريزى تجرد من هذه النزعة او تخلى عن هذا الاسلوب ، فقد لجأ فى سرده أخبار السلف الى الاعتماد على روايات السابقين ، وكثيرا ما اشار اليهم حفظا لحقوقهم وتمسكا بامانة النقل والرواية . ولكن المقريزى كان لا يكتفي بذلك ، وانما كثيرا ما يحرص على ان يقف امام الرواية التاريخية ليناقشها ويفندها ، مقارنا اياها بغيرها ، مستقصيا اسبابها ، محاولا تعليلها . وفى هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرهفة لدى المقريزى ، وقدرته ـ لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب ـ بل ايضا على التحليل والتفنيد والتعليل . ويتضح هذا الاتجاه فى كافة مؤلفات المقريزى ، سواء كتبه الكبيرة المليئة بالاحداث ـ كالسلوك او كتاب المواعظ المشحون بذكر الآثار والمعالم العمرانية ، فضلا عن كتبه الصغيرة ـ مثل « اغاثة الامة » او فى مقالاته ورسائله العلمية مثل كتابه عن المعادن وكتابه عن النحل . . وغيرها .

ثالثا : عدم الاسراف فى الاستطراد . والمقصود بالاستطراد الانتقال من موضوع الى ثان ثم الى ثالث لأتفه الأسباب وأوهى المناسبات . وربما تنبه الكاتب بعد فترة ـ قد تطول او تقصر ـ الى انه ترك موضوع حديثه الاصلى وبعد عنه ، فيعتذر للقارىء ، واحيانا يستغفر الله ويعوذ به من الشيطان الرجيم الذى صرفه عن قصده ، وبخط عريض يقول « نعود الى ذكر كذا . . (٤١) وبذلك يصحح مساره ، ولكنه لا يلبث ان يقع فى المحظور من جديد ويعود الى الاستطراد بعد قليل .

ومن المؤرخين المعاصرين من يحاول ان يبرر جنوحه نحو الاستطراد ، فيدعى انه تعمد ذلك . للترويح عن القارىء وابعاد السأم عنه اذا هو ظل منكبا على قراءة موضوع واحد ، او انه قصد اتحاف القارىء ببعض الطرائف لينشط فكره ويسرى عنه .

ومهما يقل من اننا نجد احيانا فى استطرادات السابقين من المؤرخين معلومات جديدة ، قد يفوق بعضها فى مضمونه ما يحويه المتن الاصلى من معلومات ، فان منهج البحث العلمى السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر فى موضوع معين ، والوصول الى الحقائق والنتائج عن أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل اخرى بعيدة عن موضوع البحث الاساسى ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الأهمية والخطورة . وفى ذلك يقول ابن النديم ـ صاحب الفهرست ـ

---

(٤٠) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ

(٤١) انظر على سبيل المثال كتاب : الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، للنويرى السكندرى

من علماء القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) : « النفوس تشرئب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات . . » .

ونلمس استقامة منهج المقريزى وعزوفه عن الاستطراد فى كافة مؤلفاته الكبيرة والصغيرة . ويبدو أنه أدرك ما تعانى منه الكتابة التاريخية من تطويل ومط يعرضها للمسخ ويفسد صورة التاريخ ، بدليل ما ذكره فى مقدمة موسوعته « المواعظ والاعتبار » من أنه حرص على أن يكتب كتابه هذا « من غير اطالة ولا اكثار ، ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين . . » وفى هذا يبدو اعتدال المقريزى وتمسكه بالطريق الوسط ، فلا اطالة واستطراد ولا ايجاز ولا اختصار .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الاشارة الى ان تنوع الموضوعات التى حواها كتاب « المواعظ والاعتبار » لا ينبغى أن تفسر بأنها نوع من الاستطراد ، لأن طبيعة دراسة الخطط وما يرتبط بها من آثار ومنشآت وأخبار مؤسسيها ومنشئيها ، وما شهدته من أحداث خاصة وعامة . . كل ذلك فى بلد عريق مثل مصر يتمتع بتاريخ حافل ، وفى مدينة خالدة مثل القاهرة اسهمت منذ مولدها بسهم وافر فى النشاط الحضارى لدولة الاسلام . . كل ذلك جعل لكتاب المواعظ وضعا خاصا لان طبيعة موضوعه تتطلب تنوع الموضوعات وتشعبها .

رابعا : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته . ذلك انه مما يؤخذ على كتابة التاريخ فى تلك العصور ، ان المؤرخين تمشوا مع الاوضاع التى تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وبالتالى فانهم ركزوا فى تدوين التاريخ على تسجيل اخبار الحكام وما كان يجرى فى القصور ، مع التطرق أحيانا الى أخبار الاعيان والمرموقين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم . أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجرى فى الاسواق والحارات ، وما دار خارج الحواضر والمدن من ريف وبادية . . فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة الا بالقدر الذى يمس سير الحكام والاعيان . ويتضح ذلك من اسماء وعناوين الكتب التاريخية فى تلك العصور مثل « الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين » و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » و « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » .

ولم يكن باستطاعة المقريزى أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه ، وصار يعبر عن وجه من فكره وعقليته . ولكننا نجده فى كتابته للتاريخ يذكر الحكام والسلاطين والامراء ، ولا يهمل الاشارة الى عامة الناس والشعب . وعندما أراد اسما لحولياته الشهيرة اختار أن يسميها « السلوك لمعرفة دول الملوك » فهو لم يختص الملوك وانما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير واذا كان قد اختص الحكام والخلفاء والملوك بكتاب ، فانه اختصهم بالذكر فى كتاب اكثر ارتباطا بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتابا صغيرا اسماه « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

ولم يكن المقريزى يكتب للخاصة وحدهم ، وانما كان يكتب للعامة أيضا . وبعبارة اخرى فانه حرص على أن يجد الجميع فى كتاباته غذاء وسلوى . يقول عن كتابه « المواعظ والاعتبار » ما نصه « وانى لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى

عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامى و الصعلوك ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى . وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك . ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . . » (٤٢)

خامسا : عدم مداهنة الحكام . ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التى ابتلى بها التاريخ على مر العصور هى مداهنة كثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، فيبرزون ما لهم من محاسن ويتسترون على ما لهم من عيوب ، ومن اجل ذلك ربما يقلب بعضهم الحق باطلا والباطل حقا . والمعروف أن المقريزى دون مؤلفاته فى القرن التاسع الهجرى ، أى فى عصر اختلت أمور طبقة المماليك الحاكمة ، واهتز نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه فى القرنين السابقين . ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وانما آثر فى مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها : واختار المقريزى أن يقضى المرحلة الاخيرة من حياته عاكفا فى بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف والكتابة (٤٣) . ولم يترك داره الا ليتجه الى مكة حيث اقام مجاورا بضع سنوات قليلة ، واصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها الى القاهرة مكبا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقريزى لنفسه أن يكون عبدا للسلطان أو أسيرا للوظيفة ، الامر الذى جعله حرا فيما يكتبه . وبالتالى فانه لم يكن يتحرج من نقد الاوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن اوجه الفساد فى جهاز الدولة ، والقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام . من ذلك انه فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباى وتطرفه فى سياسة الاحتكار وانزال المظالم بالتجار « حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته » (٤٤) وفى حوادث سنة ٨٣٤ هـ ينتقد بشدة الخلل الذى أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الامر واستخفاف العامة براعيها » . . . (٤٥) وهكذا نلمس فى المقريزى قلما منطلقا وفكرا حرا .

على أن أهم ما امتاز به منهج المقريزى فى كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع ان يتذوق القارىء اللماح فى كتاباته طعما جديدا ليس له نظير فى كتابات كثيرين من مؤرخى العصور الوسطى بوجه عام .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقريزى بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية فى صلته بابن خلدون وتأثره به . . ذلك أنه من المعروف أن المقريزى كان واحدا من تلاميذ ابن خلدون المقربين اليه ، الملتصقين به ، المتأثرين بآرائه وأفكاره . وعندما يشير فى كتاباته الى ابن خلدون ، فانه يقول « قال لى شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله تعالى . . » (٤٦)

---

(٤٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٣

(٤٣) يقول السخاوى فى ترجمته للمقريزى « وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر فى سنة عشر وعاد معه . وعرض عليه قضاؤها مرارا فأبى » الضوء اللامع ج ٢ ص ٢١ ـ ترجمة رقم ٦٦

(٤٤) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٢ هـ (تحقيق الباحث ونشر مركز تحقيق التراث بالقاهرة)

(٤٥) المصدر السابق ـ حوادث سنة ١٨٣٤ هـ .

(٤٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق)

ولكن علينا أن نذكر أن عظمة ابن خلدون فى الفكر الاقتصادى الاجتماعى تنبع ـ بصفة رئيسية ـ من فلسفته لهذا الفكر فى مقدمته الشهيرة . فاذا تركنا المقدمة وعكفنا على دراسة تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر) فاننا لا نجد اثرا واضحا قويا لتطبيق الفكر على الواقع التاريخى . حقيقة ان ابن خلدون استشهد فى نظرياته التى اتى بها فى مقدمته بأمثلة عديدة من واقع التاريخ ، ولكنه عندما انتقل الى تسجيل الاحداث التاريخية فى الاجزاء التالية من كتابه ، غلب على منهجه طابع السرد التاريخى ، ولم يحاول ـ الا نادرا ـ الوقوف امام الاحداث ليفسرها فى ضوء النظريات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التى سبق ان اتى بها فى مقدمته . ومن هنا كانت اهمية ابن خلدون فى مقدمته اكثر منها فى تاريخه .

اما المقريزى ـ وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بآرائه ـ فانه فى رأينا فاق استاذه فى الجانب التطبيقى . ومهما يقل من ان المقريزى استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ ، فانه لا بد وان يكون لديه هو نفسه الاستعداد والحاسة التى جعلته يطور تلك الجوانب ويجيد تطبيقها فى تسجيل احداث التاريخ . وبعبارة اخرى ، فاننا نرى من المبالغة أن ننسب كل ما نلمسه فى كتابات المقريزى من اتجاهات اجتماعية واقتصادية الى مجرد تأثره بأستاذه ابن خلدون وآرائه ، دون ان نعمل حسابا لفطرة المقريزى واستعداداته العقلية والنفسية . ففى حقل الدراسات التاريخية بالذات لا يكفى التعلم لكى يخلق من المتعلم مؤرخا ناجحا ، وانما لا بد من حسن الاستعداد وتوافر الحاسة التاريخية المرهفة عند من يريد أن يبرز فى حقل التاريخ . والمتتبع لكتابات المقريزى المدقق فى عباراته ، المتأمل فى آرائه وأفكاره ، يلمس حاسة تاريخية مرهفة نابعة من داخله مكنته من ربط الاسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والادارية . . كل ذلك فى يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل . ان تلاميذ ابن خلدون الذين التقوا وأعجبوا به وأخذوا عنه كثيرون ، ولكن أحدهم لم يصل الى ما وصل اليه المقريزى من تفوق وابداع ، والسر فى ذلك يرجع الى المقريزى نفسه وليس الى ابن خلدون .

وعندما نقول ان المقريزى تمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة بين ثنايا كتاباته التاريخية ، فان علينا ان نذكر أن مؤلفات المقريزى الرئيسيه ارتبطت أساسا بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وارتباطه بها ، وحبه لها ، وحرصه على تسجيل تاريخها واخبارها فقال « هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامّتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . ولازلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . . » (٤٧) وهكذا فاننا فى كلامنا عن الاتجاهات واللمسات الاجتماعية والاقتصادية فى كتابات المقريزى ، علينا ان نوضح من البداية انها ترتبط اساسا بمصر .

ومن ناحية اخرى فاننا عندما نقول ان الحاسة الاقتصادية والاجتماعية عند المقريزى برزت فى علاجه لتاريخ مصر ، فاننا نذكر مرة أخرى بأنه عاش فى عصر سلاطين المماليك ، وانه اختص هذا العصر بالذات بقسط كبير من عنايته .

---

(٤٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢ (بولاق)

وقد سبق أن أوضحنا أن مصر فى ذلك العصر كانت قلب العالم الاسلامى النابض بالحياة والتيارات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرها .

وكان من الطبيعى أن يحظى النشاط الاقتصادى بالذات بعناية خاصة من الباحثين فى عصر سلاطين المماليك ، وهو العصر الذى تميز بازدهار التجارة والانتعاش الاقتصادى والثراء الفاحش . ذلك ان قيام دولة سلاطين المماليك جاء مصحوبا بتسلط التتار على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب ، واهمها طريق الخليج وطريق سمرقند البري الى بغداد ، والطريق الممتد الى حوض نهر الفولجا وجنوب روسيا . ونجم عن هذه الظاهرة انه لم يسلم من سيطرة التتار على طرق التجارة الكبرى بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر فكانت توابل الشرق وحاصلاته تصل الى ميناء عيذاب او القلزم ، ومنهما تنقل عبر صحراء مصر الشرقية الى مجرى نهر النيل ، لتتجه فيه الى موانى مصر على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط . وهناك ينتظرها تجار ايطاليا والغرب الاوربي ليحملوها الى بلادهم .

وقد ترتب على هذه الاوضاع الجديدة التي ألمت بطرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى أن احتكر سلاطين المماليك تجارة الشرق ، لانه لم يعد هناك طريق آمن بعيد عن عبث التتار سوى الطريق المار بدولتهم واراضيهم . وهكذا جنى سلاطين المماليك ثروة طائلة وتحكموا في اثمان كثير من السلع وبخاصة التوابل والفلفل ، واكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى - كالخانات والفنادق والوكالات التي تستقبل التجار على اختلاف أجناسهم ومللهم ، والبضائع على تنوع اصنافها والوانها . هذا في الوقت الذي حرصت القوى التجارية الكبرى - وبخاصة في ايطاليا وجنوب اوروبا - على تدعيم علاقاتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك وحماية مصالح تجارها ورعاياها ، فاكثرت من عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع سلاطين المماليك لهذا الغرض ، كما سبق أن اشرنا .

واذا كان بعض مؤرخي مصر في عصر سلاطين المماليك قد اشاروا الى النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، فان اشاراتهم جاءت عابرة سريعة متناثرة ، وربما غير مقصودة ، يغلب عليها الطابع العشوائى . فهي تأتي بين ثنايا سردهم للأحداث السياسية دون أن تكون هدفاً في حد ذاتها . أما المقريزي فله مكانة خاصة لانه افرد للحياة الاقتصادية أجزاء معينة من مؤلفاته مستهدفا اياها بالذات . وجاء ذلك اما في صورة كتب قائمة بذاتها او في صورة فصول وابواب مستقلة داخل الموسوعات التي دونها ، وبخاصة كتاب (المواعظ والاعتبار) . هذا الى أن المقريزي عايش مرحلة خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، وهي مرحلة الخلل في اجهزة دولة دخلت فعلا مرحلة الخريف من عمرها ، فرأى بعينيه ولمس بحاسته التاريخية المرهفة عظمة النشاط الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وبداية الانحراف في اوضاع الدولة من ناحية اخرى ، مما مكنه من المقارنة والنقد ، حتى وضع يديه على اسباب الداء وحاول ان يقترح العلاج .

وهكذا نستطيع أن نصنف جهود المقريزي في علاج التاريخ الاقتصادي لمصر في عصر سلاطين المماليك في قسمين : القسم الاول ينصب على موارد الثروة في مصر - زراعية وصناعية وتجارية وما يرتبط بها من وصف للمؤسسات

الاقتصادية من ناحية ونشاط اقتصادي واسع من ناحية اخرى والقسم الثاني عبارة عن دراسات ناقدة لمظاهر وأسباب عدم الاستقرار الاقتصادي ، الذي اخذت تعاني منه دولة سلاطين المماليك في عصر المقريزي بالذات .

اما عن موارد الثروة في مصر ، فالمعروف عن هذا البلد انه ظل طوال تاريخه يعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة ، وعلى نهر النيل في نشاطه الزراعي ، لذلك نرى المقريزي يركز عند كلامه عن الحياة الاقتصادية في مصر على أهمية نهر النيل ، وماله من مزايا وصفات ، فيقول ان شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه ، ويذكر بعض الاحاديث النبوية في فضل نهر النيل وبركته ، ويشير الى فيضان نهر النيل وزيادته ، ثم الى المقاييس المقامة عليه لقياس منسوب المياه فيه ، والى الخلجان التي تخرج من نهر النيل لتحمل الماء فيها « يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل » ويوضح ان هذه الخلجان مرتبطة بمجموعة من الجسور تفتح عندما يفى النيل . وتنتهي زيادته في وقت الفيضان .

وينتقل المقريزي بعد ذلك الى « ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا » ويتتبع خراج مصر من عهد الى آخر ، حتى بلغ خمسة ملايين دينار في عهد الافضل ـ ابن امير الجيوش بدر الدين الجمالي ـ في العصر الفاطمى . وهنا يوضح المقريزي حقيقتين على جانب من الاهمية أولاهما أن كتاب الخراج في مصر كانوا غالبا من النصارى الاقباط لخبرتهم في أمور المحاسبة من جهة ودرايتهم بأوضاع البلاد من جهة اخرى . أما الحقيقة الثانية فهي أن الدورات الزراعية وما يرتبط بها من تحديد مواسم الزراعة ومواقيتها والاجراءات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بها ظلت تتم وفق التقويم القبطي ـ وهو الامر المتعارف عليه بين المزارعين في مصر حتى اليوم نظرا لارتباط هذا التقويم بالشمس وثباته وعدم تعرضه للتغييرات التي يتعرض لها التقويم الهجري المرتبط بالقمر(٤٨) .

ويوضح المقريزي أن مصر لم تعرف النظام الاقطاعي في حيازة الارض وزراعتها حتى نهاية العصر الفاطمي ، فيقول « واعلم انه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما قبلها من دول أمراء مصر ـ لعساكر البلاد اقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية »(٤٩) ومن الثابت أن صلاح الدين هو أول من طبق هذا النظام في مصر ، فوزع اراضي مصر الى اقطاعات بين الامراء مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية واعداد الجند والفرسان اللازمين للقتال ، وبذلك أقام جيشا كبيرا بأقل نفقات ممكنة(٥٠) .

ويوضح المقريزى حقيقة خطيرة ، هى أن أرض مصر الزراعية صارت كلها فى عصر سلاطين المماليك لطبقة الحكام من المماليك انفسهم ، فقسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، واختص الامراء بعشرة قراريط ، والاجناد بعشرة قراريط (٥١) على ان زمام الارض فك وعدل اكثر من مرة فى عصر سلاطين المماليك ، وهى العملية التى اطلق عليها اسم (الروك) ويشير المقريزى الى الروك الحسامى الذى اجراه السلطان

---

(٤٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٤ (بولاق)

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥٠) يذكر أبو شامة (كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٦) أن صلاح الدين قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) « باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد »

(٥١) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٨ (بولاق)

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، والروك الناصرى الذى تم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥)م(٥٢) اما الامراء المسنون الذين لا يتحملون تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة ، يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقريزى انه جاء وقت غدت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » .(٥٣)

ويتكلم المقريزى عن مال مصر ـ اى دخلها ـ فيقسمه الى قسمين : مال خراجي ومال هلالى فالمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يجبى من الفلاحين على سبيل الهدايا العينية ، مثل الغنم والدجاج والكشك ، وغير ذلك « من طرف الريف » أما المال الهلالى ، فيقصد به المقريزى الضرائب والمكوس غير الشرعية وقال ان « اول من أحدث مالا سوى الخراج بمصر هو أحمد بن محمد بن مدبر ، لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين . . » (٥٤) وقد عرف المال الهلالى فى أول الامر بالمرافق والمعاون ولكن كثيرا من الحكام الذين تعاقبوا على مصر رغبوا عن المال الهلالى ، لما فيه من خروج على الشرع ، وتحميل الناس والرعايا اكثر من طاقتهم . ومن هؤلاء احمد بن طولون الذى اسقط المرافق والمعاون بعد ان بلغت حصيلتها فى مصر على عهده مائة الف دينار كل سنة ويمضي المقريزى فى هذا البيان الطريف ، فيقول ان الاموال الهلالية اعيدت فى ايام الدولة الفاطمية عندما ضعفت الدولة واهتز كيانها الاقتصادى واشتدت حاجتها الى المال . وظلت هذه الاموال قائمة حتى الغاها صلاح الدين ، وكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك(٥٥)

ومع قيام دولة سلاطين المماليك عاد المال الهلالى الى الظهور تحت اسم « الحقوق والمعاملات » على أن بعض سلاطين المماليك ـ اعتبارا من الظاهر بيبرس ـ اتجهوا نحو ابطال هذه المكوس وان كان يبدو ان ابطالها تم تدريجيا ويذكر المقريزى « أن آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغانى وضمان القراريط فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الاشرف شعبان ابن حسين » (٥٦) ويشرح المقريزى ضمان الاغانى ، فيصفه انه كان بلاء عظيما وانه عبارة عن أخذ مال ـ او ضريبة ـ من النساء البغايا ، فاذا دفعت احداهن المال المقرر الى الضامنة ، وسجلت اسمها عندها ، لا يستطيع احد منعها من مزاولة الفاحشة ومن ناحية اخرى ، كان لا يجوز لاحد اقامة فرح باغان دون دفع رسوم معينة لضامنة الاغانى « ومن فعل فرحا باغان او نفس امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » أما ضمان القراريط فيعرفه المقريزى بأنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا ، عن كل الف درهم عشرون درهما(٥٧) .

اما عن الصناعة ، فيستفاد مما ذكره المقريزى فى سياق وصفه لأسواق القاهرة تنوع الصناعات وكثرتها مع جودتها . ومن أهم هذه الصناعات صناعة الشمع الذى كان يباع بسوق الشماعين ، وصناعة المعادن ـ ومنها الحلى الدقيقة ـ مثل

---

(٥٢) المصدر السابق ـ نفس الجزء والصفحة .

(٥٣) المصدر السابق (ج ١) ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ١٠٣ ـ ١١١ (بولاق)

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٥٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة

« الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك » وكانت تباع فى سوق القفصيات حيث كان يضعها الباعة فى أقفاص صغار من حديد مشبك ليعاينها المشترون ـ ويرتبط بالمعادن أيضا صناعة الاسلحة ـ كالقسى والنشاب والزرديات ـ وكانت كلها تباع بسوق السلاح . اما المهاميز فكانت تصنع وتباع بسوق المهامزيين . ويقول المقريزى انه ادرك الناس « وهم يتخذون المهماز كله ـ قالبه وسقطه ـ من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة »⁽⁵⁸⁾ هذا عدا سوق الخراطين الذى كانت تصنع وتباع فيه السكاكين ونحوها ⁽⁵⁹⁾ .

كذلك انتعشت فى مصر فى ذلك العصر صناعة التكفيت وهى تطعيم معدن بمعدن آخر . ووجد لهذه الصناعة بالقاهرة سوق كبير هو سوق الكفتيين ، وصفه المقريزى ، فقال ان به « عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت . ولا بد ان يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شىء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس ، او من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . . ⁽⁶⁰⁾

ومثل هذا يقال عن صناعة الجلود ، فقد وصف المقريزى سوق اللجميين بالقاهرة فقال انه كانت تصنع وتباع فيه « آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، ويرتبط بها السروج التى كانت تصنع من أصفر وأزرق . اما القضاة ورجال العلم والدين فكانوا يفضلون السروج السود التى تصنع من الجلد البلغارى الاسود » ومن الجلد البلغارى ايضا كانت تصنع الأخفاف الممتازة التى يلبسها السلطان والامراء فى اقدامهم⁽⁶¹⁾

أما صناعة الأخشاب فقد تنوعت ، فمنها ما يرتبط بالابواب والنوافذ ومنابر المساجد ومعظمها كان يحلى بالحفر ، ومنها ما يرتبط بالصناديق والاسرة والخزائن ـ وكثير منها مطعم بالعاج ـ وكانت تباع فى سوق الصنادقيين بالقاهرة (٦٢)

واشتهرت فى مصر عدة مراكز لصناعة المنسوجات والاقمشة ، منها تنيس ودمياط . ويصف المقريزى تنيس فى صدر الاسلام بأنها كانت مدينة كبيرة « بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، كما يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لايدخل فيه من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير او قيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة . . وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان ـ يبلغ الثوب منه ـ وهو ساذج بغير ذهب . مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط ⁽⁶³⁾ واما الثياب المصنوعة فى الاسكندرية فقد وصفها المقريزى بأن « لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار

---

(٥٨) المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ (بولاق)

(٥٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٦١) المصدر السابق ، ص ٩٨

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٦٣) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٧٦ (بولاق)

الارض »⁽⁶⁴⁾ وتشهد اسماء بعض الأسواق فى عصر المقريزى - كسوق الجوخيين وسوق الشرابشيين ، وسوق الحريريين وسوق الغرايين . . على نشاط وتجارة الاقمشة وما يرتبط بها من ملابس وفراء واجواخ (٦٥)

وهناك صناعات اخرى غذائية متفاوتة الاهمية ، اشار اليها المقريزى ضمن تتبعه للنشاط الاقتصادى فى مصر ، ولعل اهم هذه الصناعات صناعة السكر . يذكر المقريزى انه كان فى سمهود سبعة عشر معصرا لعصير القصب كما كان فى ملوى عدة معاصر (٦٦) وكان يرتبط بهذه المعاصر - التى انتشرت فى كافة انحاء البلاد - مطابخ لصناعة السكر الذى اشتد الاقبال على استهلاكه نتيجة لحياة الترف التى اشتهرت بها مصر فى تلك العصور . ولا ادل على كثرة استهلاك السكر لعمل الحلوى عندئذ ، مما ذكره المقريزى من أن استهلاك السكر على ايام السلطان الناصر محمد بن قلاون بلغ فى شهر رمضان وحده - من عام ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قنطار ، قيمتها ثلاثون الف دينار منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية (٦٧)

ومهما يكن للزراعة والصناعة من شأن فى الحياة الاقتصادية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، فانه مما لا شك فيه ان التجارة كانت المصدر الاول للثراء الكبير الذى اتصف به ذلك العصر ، والذى مكن سلاطين المماليك من تحقيق مشاريعهم الكبرى فى الخارج والداخل . ويشير المقريزى - بين ثنايا كتاباته - الى مدى عناية سلاطين المماليك بتشجيع التجارة عن طريق تأمين الطرق ، وتوفير السلامة للتجار ، واقامة المؤسسات التجارية فى المدن لينزل فيها التجار الوافدون على البلاد ، ويباشرون منها نشاطهم ومعاملاتهم التجارية . من ذلك ما يذكره المقريزى عن تودد السلطان المنصور قلاون الى القوى الاسلامية فى حوض البحر الاحمر - مثل ملوك اليمن وأمراء الحجاز - واكرامهم وارسال الهدايا اليهم ، ليسهلوا مرور التجار ببضائعهم الى مصر . (٦٨) هذا بالاضافة الى ما يذكره المقريزى عن حرص سلاطين المماليك على سلامة طرق التجارة وتأمينها حتى أنه عندما اشتد القتال فى صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، وادرك السلطان المنصور قلاون ما يترتب على ذلك من تهديد لأمن القوافل التجارية المتجهة من عيذاب الى وادى نهر النيل ، اصدر السلطان اوامره الى الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على اخرى ، خوفا من فساد الطريق » (٦٩) .

وهناك اشارات عديدة فى مختلف مؤلفات المقريزى توضح دور مصر فى التجارة العالمية ، وانها كانت مقصد التجار من الشرق والغرب . من ذلك ما يقوله من أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يردون فى البحر الى عيذاب ، ثم يسلكون صحراء مصر الشرقية الى قوص ، ومنها يتجهون فى النيل الى القاهرة يحملون احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو

---

(٦٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٣

(٦٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٣

(٦٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٦٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣١ (بولاق)

(٦٨) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

(٦٩) نفس المصدر والجزء - ص ٧٠٠

ذلك(٧٠) ويبدو أن طريق عيذاب ـ قوص أهمل بعد طرد الصليبيين من الشام وزوال خطرهم عن شمال البحر الاحمر ، فصارت المتاجر تأتى فى البحر الاحمر الى القلزم ، ومنها بطريق القوافل الى القاهرة . أما من ناحية الجنوب ، فكان ثغر مصر الرئيسى على النيل مدينة اسوان التى قال عنها المقريزى ان « بها تجارات وبضائع تحمل منها الى النوبة » (٧١) على أن ثغر اسوان لم يكن باب مصر الوحيد على افريقية فى ذلك العصر وانما كانت هناك نسبة كبيرة من تجارة مصر مع غرب افريقية وبلاد السودان الغربى وافريقية الوسطى ، تصل الى مصر بالقوافل عن طريق الصحراء الغربية الى قوص او الى الجيزة ، وهناك طريق شهير كان يسلكه الحجاج والتجار من بلاد السودان الغربى الى مصر ـ هو طريق غات ـ يبدأ من مدينة غات فى حوض نهر النيجر ، وينتهى عند الاهرام بالجيزة . وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم او الكارمية نسبة الى مملكة الكارم ، كما عرفوا باسم التكرور نسبة الى مملكة التكرور ، وهما من ممالك السودان الغربى الاسلامية ، فى ذلك العصر (٧٢) وكان هؤلاء التجار يجلبون الى دولة سلاطين المماليك بضاعة من أخطر البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك واستمدوا منها ثروتهم ، وهى التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل . . وكلها أصناف اشتد تهافت الاوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الاثمان المرتفعة (٧٣) . يقول المقريزى « كان تجار الكارم بمصر حينئذ فى عدة وافرة ، ولهم أموال عظيمة » ، كذلك اشار المقريزى الى ان سلاطين المماليك كانوا يقترضون المال منهم احيانا ، اذا اضطرتهم الظروف الى ذلك » (٧٤) ، ولا أدل على ازدياد ـ حجم جالية التكاررة بمصر من أنهم ابتنوا مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، غدت مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، ويذكر المقريزى ان الخيرين من اثرياء التكاررة اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات (٧٥) .

ومن ناحية اخرى ، فان بعض التكاررة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر وهؤلاء حظوا بعطف سلاطين المماليك ، حتى أن المقريزي ذكر أن الملك السعيد بركة خان ـ ابن السلطان الظاهر بيبرس « عمل للتكاررة خوانا حضره كثير من أهل الخير »(٧٦) .

أما تجارة مصر مع اوربا ودول حوض البحر المتوسط ، فكانت أهم ثغورها دمياط و الاسكندرية . وقد ظلت دمياط ميناء مصر الاول على البحر المتوسط ـ أو بحر الروم ـ طوال الشطر الاول من العصور الوسطى ، الامر الذي عرضها لعدة هجمات صليبية ، وبخاصة بعد طرد الصليبيين من الشام . ويذكر المقريزي أنه بعد حملة لويس التاسع على

---

(٧٠) المقريزي : المواعظ ، ج ١ ص ٣٠٢

(٧١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩٧

(٧٢) ونرجح أن تكون تسمية ساحل مصر على النيل باسم بولاق الدكرور نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق نهر النيل الى ساحل بولاق (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٣٠٢) ويذكر المقريزي . (كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٢٦) أن ساحل بولاق كان يعرف باسم منية بولاق ثم عرف ببولاق التكروري بعد أن نزل هناك الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير .

(٧٣) انظر ترجمة التاجر الكارمي عز الدين عبد العزيز بن منصور الكوطى ، المتوفي سنة ٧١٣ هـ (المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ، حوادث سنة ٧١٣ هـ ، ص ١٣٢)

(٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ١٠٣

(٧٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٦٥ (بولاق)

(٧٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٤٩

مصر ـ وهي الحملة التي انتهت بسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) ـ « اتفق أرباب الدولة بمصر ـ وهم المماليك البحرية ـ على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان واربعين وستمائة ، حتى خربت كلها ومحيت آثارها »⁽⁷⁷⁾ وقد شيدت مدينة دمياط الجديدة في الداخل ـ بعيدة عن شاطيء البحر ـ فتقف المراكب التجارية بحذائها « وينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم ، واحدها جرم »⁽⁷⁸⁾ . ويبدو أن هذا الاجراء لم يؤثر في مكانة دمياط التجارية فاستمرت تقصدها سفن التجار الاوربيين ، ووجدت بها جاليات كبيرة لهم ، حتى أخذت الاسكندرية تحل محلها تدريجيا ، لتصبح في القرن التالي ميناء مصر الاول على البحر المتوسط . وقد زار المقريزي دمياط واعجب بمنشآتها ، وقال ان دمياط الجديدة المستحدثة « صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الاعظم ، ومن ورائها البساتين . وهي احسن بلاد الله منظرا »⁽⁷⁹⁾ .

واما الاسكندرية فقد وصفها المقريزي بأنها « من أعظم مدائن الدنيا » وأفاض في سرد تاريخها القديم منذ الاسكندر الاكبر . وقد ازدادت مكانة الاسكندرية التجارية في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر للميلاد ـ مما عرضها للحملة الصليبية التي شنها عليها بطرس لوزجنان ملك قبرص سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥) م . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تؤثر في مكانة الاسكندرية ، بل على العكس ضاعفت من عناية سلاطين المماليك بها وتحولت الى نيابة يحكمها نائب عن السلطان بعد أن كانت ولاية على رأسها وال . وعلى أيام المقريزي في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر للميلاد ـ شهدت الاسكندرية أزهى أيامها بسبب رواج تجارتها ، وصارت تقصدها سفن التجار البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم .⁽⁸⁰⁾ .

وقد فضل التجار الاوربيون الاقامة في المدن التجارية والثغور ، حيث كان لكل جالية اجنبية قنصل يشرف على مصالح افراد الجالية ، كما اتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افراد الجالية . وتمتع التجار الاوربيون داخل فنادقهم بقدر كبير من الحرية ، فسمحت لهم حكومة دولة سلاطين المماليك باستحضار الخمور اللازمة لاستهلاكهم وانزالها في فنادقهم ، بعد دفع الضرائب الجمركية المستحقة عليها . ويبدو أن التجار الاوربيين أسرفوا في استحضار الخمور ، اذ يروي المقريزي أن السلطان الصالح اسماعيل حاول منعهم من احضار الخمور الى ثغر الاسكندرية . ولكن حاكم الثغر اعترض على هذه الفكرة وقال ان الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمور تبلغ اربعين الف دينار⁽⁸¹⁾ .

هذا عن التجارة الخارجية ، اما التجارة الداخلية ، في ضوء كتابات المقريزي ، فمن الواضح انها انتعشت في عصر سلاطين المماليك لارتباطها بالتجارة الخارجية ، من ناحية وبحالة الرواج الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر

---

(٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣ (بولاق)

(٧٨) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٢٢٤

(٧٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨٠) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٧٧ وما بعدها

(٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٩٤

سلاطين المماليك من ناحيّة أخرى . وتشهد على ذلك كثرة الاسواق والقياسر التي عددها المقريزي ووصفها اوصافا تنم عن الانتعاش والازدهار والرواج الذي صار مضرب الامثال . ويكاد المقريزي لا يذكر مدينة كبرى من مدن مصر الا ويشيد بأسواقها العامرة . فاذا تعرض المقريزي لاسواق القاهرة ، أسهب في تعدادها ، وأفاض في وصفها ، معبرا ليس فقط عن تاريخ كل سوق بل أيضا عن ما رآه بنفسه بوصفه شاهد عيان .

من ذلك ما يقوله المقريزي في وصف سوق القصبة « وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والامتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الانواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص »(٨٢) واذا تكلم المقريزي عن القياسر ، اشار الى جمال بنائها ، وكثرة ما فيها من حوانيت وتنوع ما فيها من بضائع(٨٣) اما الفواكه على اختلاف أنواعها ـ سواء المحلية او الواردة من بلاد الشام ، فقد خصص لها فندق دار التفاح ـ تجاه باب زويلة ـ وبه « عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة ، لطيب وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدها واحتفافها بالرياحين والازهار ، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس . . . »(٨٤) وقد شيدت للتجار المسلمين الوافدين من خارج البلاد الوكالات والخانات لينزلوا فيها ومعهم بضائعهم واموالهم تحفظ فيها ، حتى ينجزوا معاملاتهم .

ومن أشهر هذه الوكالات في عصر المقريزي وكالة قوصون ، التي يقول فيها « هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وقد أدركنا هذه الوكالة . وان رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . . »(٨٥) .

هذه هي بعض الملامح التي نستخلصها من كتابات المقريزي عندما يصف النشاط الاقتصادي ومظاهره في مصر الاسلامية ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . على أن المقريزي لم يقف عند ذلك الحد ، وانما انتقد كثيرا من الاوضاع الاقتصادية التي لمسها في عصره ، والتي لم يرض عنها واعتبرها مظهرا للتردي وسببا للفساد الذي أخذ يستشري على أيامه . ذلك ان المقريزي المؤرخ ـ كما سبق أن أشرنا ـ عايش فترة انتقال خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فرأى آيات من أمجاد هذه الدولة ـ سجلها بأمانة واخلاص ـ ورأى بذور الخلل ، وقد أخذت تتطرق الى اجهزة الدولة ، وعلى رأسها الجهاز الاقتصادي ، وكان أن حرص على أن يضع يده على الداء ويصف العلاج ، فعبر بأمانة عن أسباب الخلل الاقتصادي ، وانتقد بشدة كثيرا من الاوضاع التي رآها بعينيه ولمسها بنفسه .

واذا كان صدق الحاسة الاقتصادية عند المقريزي ، جعله يدرك خطورة العامل الاقتصادي واهميته في تشكيل حياة

---

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥ (بولاق)

(٨٣) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٨٦ وما بعدها

(٨٤) المصدر السابق ـ نفس الجزء والطبعة ـ ص ٩٣ وما بعدها

(٨٥) المصدر السابق ـ نفس الجزء والصفحة

البلاد والعباد ، فان هذه النظرة الثاقبة لم تبد فقط في شتى كتاباته ، وانما بدت أشد ما تكون تركيزا ووضوحا في كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » ذلك أن المقريزي دون كتابه هذا من منطلق اقتصادي بحت ، وفي ظل ظروف .. اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنا باهظا ترك أعمق الاثر في نفسيته ووجدانه ـ ونعني بهذه الازمة المجاعة التي حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتي ٧٩٦ ، ٨٠٨ للهجرة ، وما صحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة المقريزي ووحيدته ، وهكذا فان المقريزي عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية في كتابه « اغاثة الامة » وبحث في أسباب الداء، وفتش عن الدواء ، انما كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل مارآه بعينيه ، وما أحسه بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

وقد بدأ المقريزي كتابه هذا(٨٦) بالاشارة الى ان من أجل نعم الله ـ عز وجل ـ على الانسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس أسباب ما نزل بهم من محن ، ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها . ثم يوضح ذلك فيقول ان المحنة التي سبقت الاشارة اليها ، والتي تحت وطأتها وضع كتابه هذا ـ طال أمدها ـ وحل فيها بالناس من أنواع البلاء والعذاب مالا يوصف ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل في الخلاص منها . ويصف المقريزي هؤلاء القانطين بأنهم « بأسباب الحوادث جاهلون ، ومن روح الله آيسون » . **ومن هذا المنطلق استهدف المقريزي من تأليف كتابه « اغاثة الامة » أن يوضح حقيقتين كبيرتين :ـ**

الاولى : « الأسباب التي نشأ منها هذا الامر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع » .

والثانية : « ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء » .

ويحاول المقريزي أن يخفف من وقع الأزمة على معاصريه ، فيوضح أن الانسان كثيرا ما يبالغ في الازمات التي يعاني منها في حاضره ، ويتصورها أثقل وطأة من كوارث الماضي كما يتوهم المستقبل أفضل من الحاضر « فلذلك لا يزال الحاضر أبدا منقوصا حقه مجحودا قدره ، لان القليل من شره يرى كثيرا . . » وبهذه العبارة يضعنا المقريزي أمام حقيقة كثيرا ما تغيب عنا ، وهي اننا نبالغ في الصعوبات التي نواجهها في حاضرنا لانها ملموسة ، ونتصورها أفدح مما تعرض له السابقون في الماضي ، وانه لا يمكن ان يحدث في المستقبل ما يماثلها في قسوتها . ولذا فان الحاضر دائما « منقوصا حقه مجحودا قدره » على حد تعبيره .

ويخلص من ذلك الى أن الأزمة المعاصرة التي دفعته الى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقسى من غيرها ، وأن بدت كذلك في نظر المعاصرين . ذلك ان (القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، اذ مقاساة اليسير من الشدة اشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . .)(٨٧)

---

(٨٦) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ تحقيق الاستاذين المرحوم محمد مصطفى زيادة والمرحوم جمال الدين الشيال ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦

ولكي يبرهن على سلامة وجهة نظره يتتبع الازمات الاقتصادية التي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك الى ما قبل طوفان نوح عليه السلام ، ويتدرج الى ان وصل الى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام . وفي ظل الاسلام حدثت اول أزمة اقتصادية بمصر في سنة سبع وثمانين للهجرة ، ووالي مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ـ الذي وليها من قبل أبيه الخليفة عبد الملك ـ « فتشاءم به الناس ، لانه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر » .

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقريزي نفسه ، عدَّد هذا المؤرخ نحوا من عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت في شدتها ، أرجع معظمها الى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها الى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والامراء ، وما صحب ذلك من نهب الاسواق واختلال الاوضاع الاقتصادية(٨٨) وفي جميع الحالات وصف المقريزي بايجاز ما كان يحدث في تلك الازمات أو الغلوات من ارتفاع في الاسعار ، ونقص في الاقوات ، وما كان يصحب ذلك غالبا من انتشار الطاعون والاوبئة الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

ومما يسترعي الانتباه ان المقريزي عندما عدد في كتابه « اغاثة الامة » ما حل بمصر من الغلوات(٨٩) وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأوبئة ، فانه لم يشر الى الوباء الاسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم « الموت الاسود » Black Death ويعلل الاستاذان الجليلان اللذان قاما بتحقيق كتاب « اغاثة الامة » ذلك بأن المقريزي قصر بحثه في هذا الكتاب على أخبار الاوبئة الناجمة عن أسباب داخلية ـ قصور النيل وسوء الحكم في مصر ـ في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وفد على البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الاقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غربا . واستمر هذا الوباء ـ الذي اجتاح الشرق الاوسط واوربا ـ نحوا من قرنين من الزمان حصد فيهما عددا يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها(٩٠) .

ومع ذلك فان المقريزي تعرض لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » عن أثر هذا الوباء(٩١) « . . . وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة الاف الى خمسة عشرة ألف الى عشرين الف نفس في كل يوم . . . وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون واكثر . . . وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا . . . . .

ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع . وزهد أرباب الاموال في اموالهم وتوقفت الاحوال بالقاهرة

---

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٣

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٧ ـ ٤١

(٩٠) عن هذا الوباء وانتشاره واثره انظر :ـ

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ـ الجزء الأول ـ ص ٥٧٥

(٩١) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حوادث سنة ٧٤٩ ، الجزء الثاني ص ٧٧٠ ـ ٧٨٥

ومصر . وابطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز . . . . وبطلت الافراح والاعراس من بين الناس . . . » وفي ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :ـ

فهذا يوصي باولاده   وهذا يودع اخوانه
وهذا يهيء اشغاله   وهذا يجهز اكفانه
وهذا يصالح اعداءه   وهذا يلاطف جيرانه

وفي تتبعنا للمقريزي وهو يسرد اخبار الازمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر نلمح اشارات عابرة بين ثنايا السطور توضح ما كان يتمتع به هذا المؤرخ من حاسة تاريخية مرهفة ، وقدرة على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها . فهو لا يقتصر على السرد ، وانما يعلق احيانا بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الاحداث ، مبديا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة . ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن المقريزي أبدى الملاحظات الآتية :ـ

١ ـ أن قصور النيل كان يصحبه فورا الغلاء وارتفاع الاسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات . يقول المقريزي في حديثه عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧ هـ ما نصه « فارتفعت الاسعار ، ووقفت الاحوال في الصرف ، فان الدراهم المعاملة[٩٢] كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزايدة والقطع ، فتعنت الناس فيها . وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهما منها . فتزايد سعر الدينار الى ان كان في سنة سبع وتسعين كل اربعة وثلاثين درهما بدينار . وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم في الصرف . . . . »

٢ ـ وكما هي العادة ـ في كل زمان ومكان ـ كثيرا ماكان التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة . من ذلك ما يذكره المقريزي عند وصفه للغلاء الذي حدث سنة ٦٩٦ هـ على عهد السلطان العادل كتبغا « وكثرت ارباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الاقل من السوقة ربحا في اليوم ثلاثين درهما . وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ، طول الغلاء . . » ولم يفت المقريزي أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزله الله بهم ـ عقوبة لهم ـ حتى « اصيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال ـ من الامراء والجند وغيرهم في مدة الغلاء ، اما في نفسه بآفة من الآفات ، او باتلاف ماله التلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به . . . »[٩٣] .

٣ ـ ان بعض هذه الغلوات بلغ درجة من القسوة والشدة جعلت الناس يأكلون القطط والكلاب « حتى قلت الكلاب ، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير » بل يذكر المقريزي ان الحال تزايد احيانا « حتى أكل الناس بعضهم

---

[٩٢] يقصد بالدراهم المعاملة ما كان منها مضروبا حسب قوانين الدولة القائمة ، متداولا بين الناس بقيمته الرسمية . انظر كتاب « اغاثة الامة » للمقريزي ث ١٤ حاشية ٣ . وكذلك ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٨ ، dozy : supp. dict arabe

[٩٣] المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣٦ ـ ٣٧

بعضا ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم احد القوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه »(٩٤) ويقول في وصف غلاء سنة ٥٩٦ هـ « وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع فكان الاب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا . والمرأة تاكل ولدها »(٩٥) ومهما يكن في هذه الاوصاف من مبالغة غير مستساغة ، فانها تشير الى مدى قسوة تلك الازمات .

٤ ـ لم يفت المقريزي أن يشير الى ان هذه النكبات الاقتصادية التي حلت بالناس منذ أقدم العصور « انما تحدث من آفات سماوية » وان الله سبحانه وتعالى جعلها عقوبة للبشر « اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم »(٩٦) ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الاولى الذي حاول به المعاصرون ـ حكاما ومحكومين ـ تعليل المحن التي نزلت بهم . ولذلك كثيرا ما كان الناس في تلك الازمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام الى اصدار الأوامر باراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهارا للتوبة(٩٧) .

٥ ـ ولكن الشعب ـ مع ايمانه بالله وقضائه ـ لم يعف الحكام من مسئوليتهم ازاء هذه المحن . وكان يحدث في كثير من الحالات أن تثور الرعية(٩٨) وقد حدث ايام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هدد العوام المحتسب ، فاضطر الى الانقطاع في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفا من العوام . وقد تخوف السلاطين من غضبة العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء الى الامر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الاغنياء والامراء ، بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين(٩٩) وفي الغلا الذي حدث سنة ٧٧٦ هـ ، أمر السلطان الأشرف شعبان « بجمع الفقراء ، وفرقهم على الامراء ومياسير التجار »(١٠٠)

ومع أن المقريزي نفسه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي « عادة الله تعالى في الخلق ، اذا خالفوا أمره وأتوا محارمه » ومع أنه نص صراحة في كل أزمة من الازمات الاقتصادية أو الغلوات أن السبب الرئيسي في حدوثها هو نقص النيل وعدم وفائه الا انه عند تعليله للأزمة الطاحنة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ ـ والتي فيها ألف كتابه « اغاثة الامة » ـ أرجع حدوث هذه الأزمة الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » على حد تعبيره هي :(١٠١)

اولا : السبب الاول ـ ويعتبره المقريزي « اصل الفساد » ـ هو ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة بالرشوة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذي جعل ولايتها « لكل جاهل

---

(٩٤) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٢٤

(٩٥) المقريزي : اغاثة الامة ص ٢٩

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٤١

(٩٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨١ هـ ، ٨٣١ هـ .

(٩٨) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ١١

(٩٩) المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(١٠٠) المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٧٦ ه ، وكذلك كتاب اغاثة الأمة ص ٤٠

(١٠١) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٣

ومفسد وظالم وباغ » وكان يكفي أن يتوصل أحد هؤلاء الى بعض رجال حاشية السلطان ويعده بمال للسلطان على ما يريده من الاعمال ، حتى يتسلم ما كان يؤمله من منصب جليل على وجه السرعة ، وغالبا ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده ، فيضطر الى الاستدانة ، ويمد يده الى اموال الرعية ، ويتعسف في اثقالها بالالتزامات ليحصل على ما يريد . فاذا كان صاحب الوظيفة متوليا عملا من أعمال الريف ، فانه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك . ثم يمضي المقريزي في شرحه وتعليله ، فيقول انه لما دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الارض « فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم »(١٠٢)

ثانيا : أما الثاني الذي ذكره المقريزي لهذه الازمة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ فيقول انه غلاء الاطيان . ذلك أن خدم الامراء ووكلائهم « أحبوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب اليهم من المال » فاستحضروا مستأجري اراضي الامراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الايجارات عاما بعد عام ، حتى أن ايجار الفدان ـ بعد حوادث هذه الازمة ـ صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها . وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت ـ وطأة الامراء وأصحاب الاقطاعات على « اهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت اكثر الاراضي من الزراعة . فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الارض ، لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب »

ثالثا : أما السبب الثالث والاخير الذي علل به المقريزي حدوث تلك الازمة ، فهو رواج الفلوس . ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر ، حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية . يقول المقريزي ان « سنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة الى ان حدثت هذه الحوادث » هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس . وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقريزي عن أصل النقود وتطورها قبل الاسلام . وفي ظل الاسلام(١٠٣) يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب(١٠٤) ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر « وسائر دولها جاهلية واسلاما » واما الفضة فكانت تستخدم في مصر حليا وأواني ، وقد يضرب منها الشيء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج اليها البيوت وقد تزايد امر الدراهم الفضية منذ ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقودا في مصر ، وازداد تداول الدراهم الفضية . وهكذا ـ حتى كان عهد السلطان الكامل محمد الايوبي ، فضرب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة اطلق عليها اسم الكاملية ـ ثلثاها فضة والثلث نحاس . ولم تلبث هذه الدراهم ان حلت محل الذهب في التعامل ، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الايوبي ، ثم في عصر المماليك « وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها واليها تنسب عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمال ، وبها يؤخذ خراج الارضين وأجرة المساكن وغير ذلك . . »(١٠٥)

---

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٤

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٦٢

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٦٢

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٦٥

وأما الفلوس النحاسية فيذكر المقريزي أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أي للتعامل في الاشياء التافهة التي لا تسمو في قيمتها الى ان تباع بدرهم اوبجزء منه . وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الايوبي ، بحيث كان الدرهم الكاملي يصرف بثمانية واربعين فلسا . ومع تتابع الازمات ، اكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، «فكثرت وخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين « وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لاعددا »(١٠٦) .

وهكذا حتى كانت ايام السلطان الظاهر برقوق . فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية « وبعث الى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الاحمر » لضربها ، واتخذ الاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، « فكثرت الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجا صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد » .

هذه هي الأسباب الثلاثة التي علل بها المقريزي للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة ٨٠٦ هـ ، والتي دون كتابه « اغاثة الأمة » تحت وطأتها . وبتحليل الاسباب التي ذكرها المقريزي لتلك الازمة ، نجد أنه جمع بين أمرين : أولهما الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦ هـ ، وهذه حدثت مثل غيرها من « الغلوات » السابقة بسبب قصور النيل . يقول المقريزي ما نصه « قصر مد النيل في سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر ، وارتفعت الأسعار ، حتى تجاوز اردب القمح اربعمائة درهم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايدت أجر الاجراء ـ كالبناء والفعلة وأرباب الصنائع والمهن ـ تزايدا لم يسمع بمثله فيما يقرب من هذا الزمن » أما الأمر الثاني فهوا اختلال أوضاع الدولة اداريا واقتصاديا ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة ٨٠٧هـ « جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثرت زيادة النيل ، وعم النفع به الأقليم » ومع ذلك فان الاوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جعل المقريزي يقول « ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة ، والامر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج اليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الامر . . »(١٠٧) .

والواقع انه اذا كان قصور نهر النيل هو السبب الرئيسي في الغلوات ، والازمات التي تعرضت لها مصر في عصر سلاطين المماليك ـ وقبل عصر سلاطين المماليك ـ الا أننا في ضوء كتابات المقريزي نلمس أسبابا أخرى أخذت تبدو في أفق القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد ـ أي على عصر المقريزي نفسه ـ أدت الى ارتباك اقتصاد البلاد وازدياد الغلاء . وهذه هي الاسباب التي ذكرها المقريزي ، واعتبرها أس الفساد وأصل البلاء .

---

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٧٠

(١٠٧) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣

وهنا ينبغي أن نشير الى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والذي كثيرا ما ترتبت عليه أزمات طاحنة ـ وبين الأسباب الاخرى التي فسر بها المقريزي سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨ هـ . فالجانب الاول المرتبط بقصور النيل ـ مع قسوته وشدته وخطورة آثاره ـ يشكل سببا طارئا مؤقتا لا يلبث أن يزول بعد عام أو اكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الاقتصادية ـ وغير الاقتصادية ـ الى طبيعتها بالتدريج .

أما الاسباب الثلاثة التي ذكرها المقريزي ، وفسر في ضوئها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨ هـ فترجع في جوهرها الى الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها .

ولم تغب هذه الفوارق بين الجانبين عن المقريزي ، فيقول في مقدمة كتابه « اغاثة الامة » ما نصه « وبعد ، فانه لما طال أمد هذا البلاء المبين ـ يعني أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس ان هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ، ولا مر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته الى نهايته ، وعرفه من أوله الى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات ، الا أن ذلك يحتاج الى ايضاح وبيان ويقتضي الى شرح وتبيان »(١٠٨) .

وهكذا ، فان المقريزي عندما يتخذ لكتابه عنوان « اغاثة الامة بكشف الغمة » فانما يقصد بالغمة ازمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . وعندما يحرص على سرد أخبار الغلوات ، والازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ فجر التاريخ ، فانه يفعل ذلك لاثبات حقيقة كبرى سيطرت على فكره وسعي لاثباتها ، هي أن أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ تختلف في أسبابها الجوهرية عن الأزمات السابقة . فاذا كانت الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ أقدم العصور ترتبط أساسا بقصور النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان فان أزمة ٨٠٦ ـ ٨٠٨ هـ . في نظره ليست الا نتيجة لسبب رئيسي هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد » .

وقد سبق أن أشرنا الى أن المقريزي عاصر فترة انتقال خطيرة في دولة سلاطين المماليك ، انتقال من المجد والسؤدد والنظام والانضباط والانتعاش الاقتصادي ، الى وضع آخر ـ كثيرا ما يصاحب الدول في خريف عمرها ـ ويتصف بالفساد والخلل الاداري والاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي والخلقي . وقد انتقد المقريزي في كتاباته ما صار اليه نظام المماليك في أيامه من انحلال ، بعد أن انعدمت بينهم روح النظام والطاعة التي ميزت أسلافهم ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان « فاستطار شرهم ، وتعدوا في العتُوطُوَرهم ، حتى خافهم أعيان أهل الدولة . . . »(١٠٩) وبعد أن كان المماليك في أوائل دولتهم مضرب المثل في الانضباط وحسن النظام والطاعة ، صاروا على ايام المقريزي مصدر الفوضى وسوء النظام ، وصاروا ينتشرون في الطرقات والاسواق لنهب الحوانيت ، وخطف العمائم ، وانتزاع الخيول

---

(١٠٨) المصدر السابق ، ص٣ ـ ٤

(١٠٩) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٣٣ هـ

من اصحابها . بل كانوا أحيانا يهجمون على النساء في بيوتهم وفي الحمامات فيخطفونهن(١١٠) . وقد بلغ حنق المقريزي على ما صار اليه أمر المماليك في أيامه من فوضى وسوء خلق ونظام ، انه لم يتمالك نفسه فوصفهم بأنهم « ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فاره ، وأفسد من ذئب »(١١١) .

ومن هذا المنطلق علل المقريزي سوء الاحوال الاقتصادية بمصر سنة ٨٠٨ هـ . فأرجع أصل الفساد الى عدم كفاية القائمين على شئون الدولة ، والمتولين لشتى وظائفها الكبرى ، لان غالبيتهم تولى منصبه عن طريق الرشوة ، ولذا لم تتوافر فيهم الأهلية والكفاية . بل ان وظائف الدولة صارت « مثل الأموال المملوكة يبيعها صاحبها اذا شاء ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة وفي نظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف . فيانفس جدي ان دهرك هازل »(١١٢) .

ثم ان المقريزي انتهز فرصة تدوين حولياته الكبرى المعروفة باسم « كتاب السلوك » للاتيان بأمثلة واقعية تثبت ماردده من آراء في كتابه « اغاثة الأمة » عن عدم كفاية القائمين على شئون الدولة . من ذلك أنه أشار في حوادث سنة ٨٠٨ هـ الى أن الوظائف العامة صار يليها غير أهلها عن طريق الرشوة ودفع الأموال ، حتى أن أحد باعة السكر استقر في وظيفة حسبة مصر « فكان هذا من أشنع القبائح واقبح الشناعات !! »(١١٣) ويؤكد المقريزي هذا المعنى مرة أخرى في سرده لحوادث سنة ٨٣٥ هـ عندما يقول « غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث أن بعض السوقة ممن نعرفه ولى كتابة السر بحماه على مال قام به . . »(١١٤) ويلقي المقريزي بمسئولية هذا كله على القائمين على أمر الدولة ، لأنهم لا يلتزمون بقرار « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر ، واستخفاف العامة براعيها وقلة الاهتبال بما يرسم »(١١٥)

وينتقل المقريزي ـ كما رأينا ـ الى سوء أوضاع الريف في مصر ، لكثرة المظالم المتنوعة التي حلت بالفلاحين في ظل النظام الاقطاعي ، وهو النظام الذي طبقه المماليك في مصر بروح استغلالية متطرفة . ولم يقتصر الأمر على رفع قيمة ايجارات الاراضي الزراعية ، بل تعدى ذلك الى تسخير الفلاحين في كثير من الاعمال دون أجر ، وجمع أموال اضافية منهم « غير العادة أضعافا »(١١٦) وعند وصول المشد ـ المكلف بجمع الاموال الى القرية ، توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب ، وما تحتاج اليه دوابه من عليق ، ويلزم الفلاح بكل ذلك قهرا ، مهما يبلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده ، فتلزم زوجته واولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم المشد من

---

(١١٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٦٤ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ٤١ ، سعيد عاشور : المصري ص ٨٨ ، ٨٩

(١١١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٤٨ (الطبعة الأهلية)

(١١٢) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع

(١١٣) المقريزي : كتاب السلوك ـ الجزء الرابع ـ حوادث سنة ٨٠٨ هـ

(١١٤) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٥ هـ

(١١٥) المصدر السابق ـ نفس الجزء ـ حوادث سنة ٨٣٤ هـ

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٠٢

دجاج ولحم(١١٧) وهكذا عاش الفلاحون في عصر سلاطين المماليك « في حال من المغارم معروفة » على حد قول المقريزي(١١٨) . وقد أدرك المقريزي ريف مصر وأهله على حال من الفقر والحرمان لا يعرفون النقود ، فيشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ، لان « الغلال معظمها لأهل الدولة ، اولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخرب معظم القرى لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد(١١٩) وبلغ الأمر من سوء معاملة الفلاحين في ذلك العصر أنه كان لا يسمح لأحدهم بأن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا ، أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد(١٢٠) . وقد ترتب على سوء أوضاع الريف وكثرة المظالم التي حلت بأهله ، ان كثرت الهجرة من الريف وبخاصة الى القاهرة ، حتى نودي سنة ٨٢٧ هـ . « بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر الى بلادهم فلم يعمل بذلك »(١٢١) .

وأخيرا يأتي المقريزي بالسبب الثالث الذي علل به للخلل الاقتصادي وارتفاع الأسعار سنة ٨٠٨ هـ ، وهو كثرة الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها كنقد أساسي ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم . ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لانها معدن رخيص ، اذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ، ولذا نستطيع ان نقول ان المقريزي سبق عالم الاقتصاد الانجليزي جريشام بنحو قرن من الزمان ، عندما أعلن قانونه الشهير بأنه اذا وجدت في السوق عملتان احداهما رديئة والاخرى جيدة ، فان ـ العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق .

ثم أن المقريزي يتهم الحكام باثارة ظاهرة عدم الاستقرار الاقتصادي في السوق لأنهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما انهم لم يكتفوا بالاكثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وانما اختلفوا في تقدير وزنها ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، واحيانا باثنى عشر درهما ، وربما صار بدرهمين ونصف . وفي جميع الحالات ارغم التجار والاهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار الى حبس بضائعهم تجنبا لبخسها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وارتباك السوق وقلة الخبز(١٢٢) . وبحاسة اقتصادية قوية ، يربط المقريزي ـ في كتاب السلوك ـ بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع اثمان البضائع واجور العمال وايجار الاراضي من ناحية أخرى(١٢٣)

واخيرا فان المقريزي لم يحصر أفقه الاقتصادي داخل مصر أو داخل دولة سلاطين المماليك ، وانما يحرص على أن يربط بين أسعار النقود في مصر وأسعار العملات العالمية الاجنبية . من ذلك أنه يثمن بها الدينار الافرنتي والدينار التركي

---

(١١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري سلاطين المماليك ، ص ٥٠

(١١٨) المقريزي : كتاب السلوك ج ٤ ص ٤٦٩

(١١٩) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٣٦ - ٤٦

(١٢٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٤٦

(١٢١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(١٢٢) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ج ٢ ص ١٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٨٨

(١٢٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ

والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدنانير السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السالمي ، ويتعرض خلال ذلك الى ما دخل على كل عملة من غش وزيف[١٢٤] بل انه يحرص في حوادث سنة ٨١٨ هـ ، على بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف[١٢٥] .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاقتصادي في كتابات المقريزي . أما الجانب الاجتماعي في كتاباته فلا يقل شأنا وأهمية . وهنا نلاحظ أنه اذا كان باستطاعة المقريزي ان يفرد كتابا من كتبه ـ مثل كتاب « اغاثة الامة » لدراسة الاوضاع والمشاكل الاقتصادية التي عاصرها ، فان الامر اختلف بالنسبة للجانب الاجتماعي . ذلك أنه كان من الصعب على مؤرخ او عالم في تلك العصور أن يتعرض في بحث مستقل لصميم أوضاع المجتمع ، وهي اوضاع حساسة في ظل التقاليد التي سادت المجتمع عندئذ ، فضلا عن نظرة الناس الى الحياة ومشاكلها من خلال الدين . ولما كانت الاوضاع الاجتماعية مرتبطة في تلك العصور باحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فاننا نرى بعض العلماء والفقهاء انتقدوا مالمسوه من انحلال اجتماعي من خلال كتاباتهم الفقهية ـ مثلما فعل ابن الحاج[١٢٦] ، في حين انتقد البعض الآخر سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي او معالجته للجوانب الاقتصادية ، مثلما فعل المقريزي .

على أنه لا يقلل من قيمة الملاحظات الاجتماعية التي ابداها المقريزي انها جاءت متناثرة بين ثنايا كتاباته الاخرى ـ سياسة كانت أو اقتصادية أو عمرانية ـ لان العبرة بعمق النظرة التي نظر بها المقريزي الى المجتمع ومشاكله ، وروح الأمانة والصدق التي صور بها بعض الاوضاع وانتقد بها البعض الآخر . حقيقة ان التقاط مثل هذه الملاحظات المتناثرة من مؤلفات المقريزي عملية ليست بالسهلة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد والمثابرة أن ننسج من تلك الخيوط صورة واضحة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية على عصر المقريزي .

وقد وضع المقريزي تقسيما للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فقسم أهل مصر ـ في الجملة ـ الى سبعة أقسام : أهل الدولة ـ ويعني بهم المماليك ـ وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والباعة ومتوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة وأهل الفلح وهم « الزراعات والحرث وسكان القرى والريف » ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وارباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، واخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم « السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »[١٢٧]

ومهما يكن في هذا التقسيم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقريزي أتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فانه حرص على أن يوضح الحالة الاقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها . ولا يخفي عنا أن الوضع

---

(١٢٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ

(١٢٥) المقريزي السلوك ، ج ٤ ص ٨١٨

(١٢٦) نؤكد في هذا الصدد على أهمية كتاب المدخل ـ أو مدخل الشرع الشريف على المذاهب ـ لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الشهير بابن الحاج ، المتوفى سنة ٨٣٧ هـ . وقد تعرض فيه المؤلف الكثير من الأوضاع الاجتماعية السيئة التي تفشت في ذلك العصر والتي تعارضت مع أحكام الشرع الشريف (أربعة أجزاء ـ القاهرة ١٩٢٩)

(١٢٧) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٧٢ ـ ٧٣

الاجتماعي يتأثر الى حد كبير بالوضع الاقتصادي وخاصة في تلك العصور التي عاصرها المقريزي وكتب عنها . هذا الى انه في اشاراته المتناثرة ، يأتي بملاحظات اجتماعية طريفة وجديدة ، قد لا نجد لها شبيها في بقية المصادر . فهو في كلامه عن طوائف المماليك يشير الى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في نسبتهم ، ويلقي الأضواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين المملوك وأستاذه ـ أي سيده الذي امتلكه وأشرف على تربيته ولم يضن عليه بعطف أو مال ـ والعلاقة بين المماليك بعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة المماليك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره . وهكذا حتى ندرك السنوات الاخيرة من حوليات المقريزي فنلمس كثيرا من الاشارات الى تطرق الفساد الى نظام المماليك ، وانحلال أمرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة(١٢٨)

ثم ان كتابات المقريزي تزخر باشارات متناثرة توضح علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض من ناحية ، وعلاقتها بالحكام من ناحية اخرى . من ذلك أنه يشير الى ان سلاطين المماليك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء « لان بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون »(١٢٩) ويقول ان بعض السلاطين كان اذا دخل عليه عالم أو أحد رجال الدين انتصب له قائما(١٣٠) وربما حرص بعض السلاطين على أن يشيع عالما توفى فيمشي على قدميه أمام نعشه . وقد يحاول السلطان حمل النعش على كتفه ، فتحمله أكابر الأمراء عنه(١٣١)

أما التجار ، فصاروا موضع حسد السلاطين وطمعهم ، لما كانوا فيه من ثروة طائلة في ذلك العصر ، فتمادى بعض السلاطين في فرض الرسوم عليهم ، بل ربما في مصادرتهم ، حتى ذكر المقريزي أن بعض التجار « دعوا على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم »(١٣٢) وفي بعض الحالات كان السلطان يحتكر صنفا او يختزنه ليبيعه للتجار بأثمان باهظة يفرضها عليهم ، مما يسبب لهم خسارة بالغة ، حتى « اشتد الأمر على التجار لرمي البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادرات في الولاة وأرباب الأموال »(١٣٣) . وشتان بين هذا الوضع الذي آل اليه أمر التجار في اواخر عصر سلاطين المماليك ، وبين ما كانوا فيه من تكريم وتشجيع ورعاية في اوائل ذلك العصر .

ويستشف من كتابات المقريزي أن رقيقي الحال ـ من الفقراء والمعدمين ـ كانوا دائما أبدا موضع عطف ورعاية بقية قطاعات المجتمع ، فحرص كثير من السلاطين والاثرياء والميسورين على اقامة المؤسسات الخيرية ، ووقف الاوقاف عليها ، لرعاية الفقراء اجتماعيا وصحيا من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس خصص وقف الطرحاء لتغسيل فقراء

---

(١٢٨) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ، ٧١٦ وكتاب المواعظ والاعتبار (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ١١٢ ، ١١٧ ـ ١١٨ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ج ٤ ص ٧٨ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(١٢٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣

(١٣٠) المصدر السابق ـ نفس الجزء ، ٥٢٣

(١٣١) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٤٤ ـ وانظر ايضا :ـ سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٨ ـ ٣٤

(١٣٢) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤

(١٣٣) المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٣٨

المسلمين وتكفينهم ودفنهم(١٣٤) . وفي أوقات الشدائد والمحن والغلوات كان الفقراء يوزعون على الأغنياء ، بحيث يلتزم كل غني باطعام عدد معين منهم(١٣٥)

أما أهل الذمة ـ وبخاصة أقباط مصر ـ فيفهم من كتابات المقريزي أنهم عاشوا غالبا في طمأنينة ، حتى انه ذكر أديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديرا ، يحمل النصارى الى رهبانها النذور والقرابين(١٣٦) . وكان للأقباط في مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية(١٣٧) ، كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض(١٣٨) ولم يكن اليهود في مصر أقل حظا في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم الموروثة ، كما احتفظوا بمعابدهم التي عددها المقريزي(١٣٩) . ومع ذلك فان المقريزي لم يتناس أن اليهود والنصارى جميعا تعرضوا أحيانا في ذلك العصر في فترات محددة ـ لبعض ألوان الاضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة ، ذكرها(١٤٠)

أما الفلاحون ، فيذكر المقريزي أنهم عاشوا « في حال من المغارم معروفة »(١٤١) فوقعوا بين شقى الرحى بين استغلال الحكام وبطش العربان . وقد سبق أن أشرنا الى أوضاع الريف والفلاحين ، أما العربان الذين انتشروا في أقاليم متعددة ، فقد رفضوا في أول الامر الخضوع للمماليك ، ووصفوا سلطانهم ـ على حد قول المقريزي ـ بانه « مملوك قد مسه الرق »(١٤٢) بل لقد تمادى العربان وقالوا « نحن اصحاب البلاد ، ونحن أحق بالملك من المماليك وهم خوارج خرجوا على البلاد »(١٤٣) ولم يقتصر أذى العربان في ذلك العصر على الريف وأهله ، بل ان المدن الكبرى ـ مثل اسيوط والاسكندرية ـ لم تسلم من اغاراتهم وعبثهم ـ وعدوانهم على أهلها(١٤٤) . .

ويتعرض المقريزي للحياة الاجتماعية في القاهرة والمدن الكبرى ، فيصفها بالعظمة والاتساع وكثرة السكان وتنوعهم ، وكثرة المنازل وضيق دروبها وطرقاتها ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب(١٤٥) واظهر الحكام في ذلك ابوابها ، ويرتب جماعة من الطواف لكشف الازقة وتفقد الطرقات وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول العصر حرصا شديدا على اقرار الامن في المدن ليلا ونهارا ففي الليل كانت شوارعها وطرقاتها تضاء بالمصابيح وتغلق

---

(١٣٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٣٨

(١٣٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(١٣٦) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٣٦ ـ ٥٤ .

(١٣٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٣٨) المقريزي : اخبار قبط مصر ، ص ٤٣

(١٣٩) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها (بولاق)

(١٤٠) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٠٩
ذكر دخول قبط مصر ، ص ١٥٨ .

(١٤١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٩

(١٤٢) المقريزي : البيان والاعراب ، ص ٩

(١٤٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٤٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٢٠

(١٤٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٣ وما بعدها (بولاق)

قبض عليه(١٤٦) ومن ناحية أخرى ، شدد سلاطين المماليك العناية بنظافة القاهرة وكنس شوارعها ورشها بالماء ، وأمر أرباب الحوانيت بان تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما قد يقع من حريق(١٤٧) .

والمقريزي عندما يعالج ما حفلت به القاهرة من مؤسسات تجارية وغير تجارية ، لا يغفل عن الاشارة الى ما كان لبعض هذه المؤسسات من نشاط اجتماعي ، وما كان يعج به بعضها من تيارات اجتماعية قوية ، ذلك أن المدن الكبرى ـ وبخاصة القاهرة ـ زخرت بمؤسسات ذات صفة دينية كالمساجد والخانقاوات ، أو ذات صفة تعليمية ثقافية كالمدارس ، أو ذات صفة صحية كالبيمارستانات ، او ذات صفة تجارية كالخانات والوكالات والفنادق . ولكن هذه المؤسسات على تباين صفاتها لم تخل من نشاط اجتماعي ، وهو ما حرص المقريزي على ايضاحه وبيان ما كان يجري داخلها من تيارات اجتماعية ينعكس صداها على المجتمع الخارجي .

هذا الى ان المقريزي في تصويره للمجتمع المصري ، حرص على أن يؤكد روح المرح والفكاهة التي اتصف بها أهل مصر ، فوصفهم تارة « بالبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر . وخُصّوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا »(١٤٨) وتارة أخرى ربط المقريزي بين مرح أهل مصر من ناحية وبين شعور اللامبالاة الغالب على بعضهم من ناحية اخرى ، وردد في ذلك عبارة أخذها عن ابن خلدون « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى ، أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب »(١٤٩) .

ويضرب المقريزي أمثلة على ذلك بحب أهل مصر للتسلية والخروج الى المتنزهات كالحدائق والبرك وغيرها(١٥٠) هذا فضلا عن ركوب نهر النيل صيفا في وقت الفيضان واستئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم(١٥١) بل يذكر المقريزي أن صاحب اليمن عندما أتى لزيارة مصر ، حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ « كثيرا من الصناع والمساخر وارباب الملاهي »(١٥٢) وكثيرا ما كان الناس يتلهون ببعض الألعاب ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك وغيرها(١٥٣) . ولم يسلم الحكام من نكات المصريين اللاذعة ، فاطلق العوام على امراء المماليك القابا وتسميات تهكمية قارصة . ومن هؤلاء الأمير عز الدين ايغان وقد اطلقوا عليه لقب « سم الموت » والامير سيف الدين ملكتمر الناصري وقد اطلقوا عليه لقب « الدم الاسود » وناصر الدين ـ متولي حسبة مصر ـ وقد اطلقوا عليه « فأر السقوف » . . . . وغير ذلك »(١٥٤)

---

(١٤٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٩

(١٤٧) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٦٧ كتاب المواعظ ج ٣ ص ١٧٤ (الاهلية)

(١٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩ (بولاق)

(١٤٩) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠ (بولاق)

(١٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٧ (الأهلية)

١٥١) المقريزي : المواعظ ، ج ٣، ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ (الأهلية)

(١٥٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، حوادث سنه ٧٥٥ هـ

(١٥٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٧٥٤

(١٥٤) المقريزي : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ٦٤٤ . . الخ

وعندما يتكلم المقريزي عن قرافة مصر والقاهرة ، لا يكتفي بأن يوضح الدور الرئيسي للقرافة بوصفها دارا للموتى فحسب ، ويتتبع ما أقيم فيها من البيوت والزوايا والمدارس ـ وغيرها ، بل حرص المقريزي على أن يشير الى أن القرافة في ذلك العصر شهدت نشاطا اجتماعيا واسعا في حياة الترح وحياة الفرح سواء ، اذ صارت من جملة متنزهات مصر ، وصار البعض يدعون الأهل والأصدقاء اليها حيث يقيمون فيها ولائم صاخبة ، يكثر فيها الغناء والرقص . وربما عم الفساد نتيجة لاختلاط النساء بالرجال »(١٥٥)

ويلمح المقريزي ـ ضمن كتاباته ـ الى الأفراح العائلية في عصره ، فيرسم صورة لفرح من أفراح القصور والسلاطين ، هو احتفال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢ هـ بزواج ابنه الأمير آنوك ، فأمر السلطان : « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى ـ الدور السلطانية ، ووقع الشروع في عمل الخوان ، فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الامراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما احضره من الشمع قبل الارض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان ، وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الارض واحدة بعد اخرى ، وهي تقدم ما احضرت من التحف الفاخرة والنقوط ، حتى انقضت تقادمهن جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن ، فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغاني تضرب بدفوفهن ، وانواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على المغنيات ، فحصل لهن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . . . . . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والاوز والدجاج ما يزيد على عشرين الفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر الف قنطار(١٥٦)

ومن العادات الطريفة التي أشار اليها المقريزي انه كان يراعى أن يتضمن شوار العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع الاردب من القمح . وتبلغ قيمة الدكة ما يزيد على مائتي دينار ذهبا . فاذا كانت العروس من بنات الامراء أو الوزراء أو الاعيان ، فانها تجهز في شوارها بسبع دكك(١٥٧) وفي ليلة الدخلة يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الاهل والاصدقاء . وهناك في بيت العروس يقام حفل الزفاف الذي تحييه جوق المغاني ، ويختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء من المدعوات اللائي يحرصن على ارتداء أفخر الملابس والمجوهرات(١٥٨) . وكثيرا ما يتفاخر المدعوون والمدعوات بتقديم النقوط الى المغاني وتقديم الهدايا الى اصحاب العرس ، وتكون هذه الهدايا من الشمع والتحف الفاخرة والخراف والسكر والاوز . . . وغيرها(١٥٩)

---

(١٥٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣١٩ (الأهلية)

(١٥٦) المقريزي : كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦ (حوادث سنة ٧٣٢ هـ)

(١٥٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق)

(١٥٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦ ، ٦٠١

(١٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

ومن المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها احتفالا كبيرا في ذلك العصر « النفاس والولادة » فاذا كان المولود ذكرا تضاعف الحفل ، ويقيم أهل المولود وليمة كبيرة يدعي اليها الاصدقاء ، ويبالغ في عمل الوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف لام المولود في هذه الحالة(١٦٠) اما ختان الطفل ، فكان يحتفل به ـ احتفالا كبيرا ـ قد يستمر ثلاثة أيام ـ ولا بد للمدعوين في هذه الحالة من تقديم النقوط لاهل الطفل ، ويضعونه في « الطشت الذي يطاهر فيه الولد »(١٦١)

وفي الحياة الاجتماعية التي حفلت بها مصر في عصر سلاطين المماليك ، لم يفت المقريزي أن يشير ـ من قريب أو بعيد ـ الى دور المرأة في الحياة العامة . ففي الحياة السياسية يشير المقريزي بين حين وآخر الى تدخل بعض زوجات السلاطين في شؤون الحاكم مثل ست حدق ، زوج السلطان الناصر محمد ، وكان لها دور ملحوظ في شئون الدولة ، وكلمة مسموعة عند السلطان ، حتى ان التجار لجأوا اليها لرفع بعض المظالم عنهم(١٦٢) . وفي الحياة العلمية يشير المقريزي الى بعض النساء اللائي اشتغلن بالفقه والحديث ، وشارك بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل الى جانب الفقهاء(١٦٣) ويتكلم المقريزي عن التصوف والزوايا والاربطة ـ فيسهب في الكلام عن دور المرأة في حياة التصوف من ذلك ما يقوله عن رباط البغدادية « وما برح (هذا الرباط) الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن . وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية . . »(١٦٤) ولم يكن دور المرأة في الاسواق والطرقات والحمامات والمتنزهات أقل شأنا . ويذكر المقريزي ان بعض سلاطين المماليك حاول منع النساء من الخروج الى الطرقات او الذهاب الى المقابر ومواضع النزهة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمنا محدودا ، يعود بعده الحال الى ما كان علية(١٦٥) وربما احترفت « بنات الهوى » الايقاع بالرجال فتخرج الواحدة الى الطريق وقد استكملت زينتها لتستدرج رجلا الى حيث يتم سلب امواله وقتله ـ بأيدي اعوانها(١٦٦) .

ويستطيع الباحث العثور فى كتابات المقريزى على ملاحظات توضح ملا بس النساء فى عصره . من ذلك مايقوله من أن النساء كن يستعملن المقانع ، وهى مناديل توضع فوق الرأس والوجه(١٦٧) . أما غطاء الرأس فكان عبارة عن عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها مدلى على ظهرها ، وتسمى هذه العصبة « الشاش »(١٦٨) على أنه مما

---

(١٦٠) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

(١٦١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، ج ٤ ص ٤٦٦

(١٦٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢

(١٦٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٦٩

(١٦٤) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨
كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٦٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣

(١٦٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفات .

(١٦٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٤٣٣ .

(١٦٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٤

يسترعى الانتباه مايذكره المقريزى من أن النساء فى عصره كن يعمدن أحيانا الى تقليد الرجال فى زى الرأس فلبسن الطواقى ، وتعممن بالعمائم ، حتى اضطر السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لاتتعمم بعمامة ولاتتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة ايام سلبت ماعليها من الكسوة »⁽¹⁶⁹⁾ . وقد حاول المقريزى أن يلتمس للنساء بعض العذر فى ذلك ، فقال ان الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة ، بسبب ما نزل من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل في لبس الشاشات الفاخرة ، ولكن هذا التبرير لايتفق مع قول المقريزى إن هؤلاء النسوة اعتدن ان يزخرفن الطواقى بالذهب والحرير ، ويبالغن فى ذلك⁽¹⁷⁰⁾ وربما كان أقرب الى الواقع ماذكره المقريزى فى موضع آخر من كتاباته لتعليل هذه الظاهرة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

والواقع انه يفهم من الملاحظات التي أبداها المقريزي أن بعض النساء في ذلك العصر بالغن في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الامر بهن احيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقي الذي عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة القماش الذي يفصل منه القميص اكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعا مربعا⁽¹⁷¹⁾ . أما تكاليف مثل هذا القميص ، فقد ذكر المقريزي أنها تجاوزت الالف درهم ، ومثله الازار الخارجي ، في حين وصل ثمن خف المرأة الى ما بين مائة وخمسمائة درهم⁽¹⁷²⁾ . ويبدو أن هذا الاسراف من جانب النساء دفع الدولة الى التدخل لتحديد ملابسهن ، فصدرت اوامر في سنى ٧٥١ هـ ، ٧٩٣ هـ ، ٨٥٠ هـ ، ٨٧٦ هـ ، بالا يزيد طول قميص المرأة عن اثنى عشر ذراعا ، وأن لا تكون الاكمام مفرطة في الاتساع . وطاف المنادون في شوارع القاهرة يحذرون النساء من مخالفة هذه التعليمات . بل لقد نصبت اخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على شكل نساء وقد ارتدين القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن⁽¹⁷³⁾ .

على أن المقريزي ـ بما أوتيه من دقة ملاحظة ـ أوضح بطريق غير مباشر أن المستحدثات (الموضة) تنتقل في المجتمع من فوق الى تحت ، ومن الطبقات العليا الى مادونها ، فيقول ان ما فعلته عامة نساء المجتمع لهن العذر فيه ، لانهن يتشبهن في ملبسهن بما تفعله نساء السلاطين والامراء . ففي حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقريزي في صراحة على عوام النساء انهن تشبهن في الملبس بنساء الملوك والاعيان⁽¹⁷⁴⁾ . أما في حوادث سنة ٨٥٠ هـ فيصف المقريزي كيف أن نساء السلاطين وجواريهن احدثن ثيابا طوالا تسحب أذيالها على الأرض ، ولها اكمام واسعة ، عرف القميص منها بالهطلة .

---

(١٦٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص٥٠٣

(١٧٠) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٧١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ص٦٧٣

(١٧٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ (الأهلية)

(١٧٣) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٧٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ

ويعقب المقريزي على هذا الخبر بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك ، حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك »(١٧٥) .

ثم ان المقريزي يشير الى حقيقة اخرى ، هي ان ملابس النساء لم تظهر على حال واحد ، وانما تعرضت للتغيير والتبديل بين فترة واخرى . فهي مرة واسعة وطويلة ، وبعد فترة تصبح ضيقة وقصيرة(١٧٦) .

وأخيرا فان المقريزي بنظرته الاجتماعية ، لم يرض عن كثير من الامراض الاجتماعية التي فشت في المجتمع في عصره ، فانتقدها حينا في هدوء واحيانا في قوة وعنف . ولم يتمالك هذا العالم الجليل نفسه ، فأظهر الاسف وعبر عن الأسى عندما وجد الناس « اظهروا المنكرات في الخمور ونحوها من المسكرات ، واختلاط النساء والرجال من غير استتار » ويوضح المقريزي أن هذه الامراض الاجتماعية لم تستحدث في زمنه ، وانما جذورها قديمة . ويستشهد على ذلك بما ذكره القاضي الفاضل في متجدداته سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى « من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور . . . . . وشرب الخمر مالم يسمع أو يعهد مثله »(١٧٧) .

ويبدو أن هذه الأمراض الاجتماعية ازداد فشوها في أواخر عصر سلاطين المماليك ، تمشيا مع المبدأ المعروف في التاريخ ، وهو أن الدول في خريف عمرها لا يقتصر الانحلال الذي يعتريها على الأجهزة السياسية والاقتصادية والادارية والحربية ، وانما يمتد ايضا على الجوانب المعنوية والاجتماعية والخلقية .

ومهما يكن من أمر ، فان المقريزي كان أمينا في تفنيد العيوب والامراض دون مجاملة او مبالغة ، شديدا في رفضه لها ، قاسيا في نقده لبعض الاوضاع التي لا تتفق وتعاليم الدين أو مبادىء الاخلاق . من ذلك أنه ساءه أن تعترف الدولة بالبغاء والبغايا وتفرض عليهن ضرائب مقررة ، مما أدى الى تفشي البغاء والزنا(١٧٨) واستنكر وقوف البغايا في الاسواق أمام المارة وعلى مرأى منهم (١٧٩) . ولم تقتصر هذه الظاهرة على القاهرة والمدن الكبرى ، بل فشت في مراكز الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات مريبة(١٨٠) وقد حاول بعض سلاطين المماليك محاصرة هذا الداء قبل أن يفشو ويزداد خطره ، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس قرارا بابطال المكوس المقررة على البغايا ، حتى لا تكتسب هذه الحرفة صفة اعتراف الحكومة بها ، كذلك منع البغاء في سائر البلاد ، وقبض على البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزاد

---

(١٧٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ حوادث سنة ٨٥٠ هـ (ص ٨٨٤)

(١٧٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٢١

(١٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٧ - ٣٨ (الأهلية)

(١٧٨) المقريزي ، كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(١٧٩) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٢

(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٠

في مهورهن عن اربعمائة درهم ، يعجل منها مائتان ، وذلك لتسيير زواجهن(١٨١) كذلك ذكر المقريزي انه كان من جملة الضرائب التي الغاها الناصر محمد عقب الروك الناصري ، ما كان يجمع من « الفواحش والمنكرات » والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة(١٨٢) .

ومن الامراض الاجتماعية التي أشار المقريزي الى فشوها في ذلك العصر الشذوذ الجنسي . وقد عبر المقريزي عن فشو هذا المرض بين طبقة المماليك بالذات ، فقال انه « فشى في أهل الدولة (يعني المماليك) محبة الذكران » ، حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال(١٨٣) . ولعل في هذا خير تعليل لما سبق أن أشرنا اليه من انتشار لبس الطواقي بين النساء ـ تشبها بالرجال ـ في ذلك العصر . كذلك ذكر المقريزي كيف أضرب الناصر أحمد ـ ابن الناصر محمد ـ عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ » حتى يأتوه بشاب كان يهواه . . فأتوه به ، فأكل عند ذلك(١٨٤) بل لقد ذكر المقريزي أن كتبغا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام(١٨٥) .

وانتقد المقريزي انتقادا مريرا تفشى المخدرات في أيامه ، فقال عن الحشيش « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا . وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام . وماشيء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، لاشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم »(١٨٦) ولم تمنع الدولة تعاطي الحشيش ، وانما فرضت عليه ضريبة كانت تمد خزائنها « بجملة كافية » واستمرت هذه الضريبة حتى ألغاها السلطان الظاهر بيبرس الذي « أبطل ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها »(١٨٧) وعلى أيام المقريزي شاع تعاطي الحشيشة بين الصوفية ـ وهم الذين عرفوا باسم الفقراء ـ حتى أطلق عليها المعاصرون اسم « حشيشة الفقراء »(١٨٨) .

أما الخمور ، فيذكر المقريزي أن تعاطيها انتشر بين سائر الناس ، فكانت تعصر وتباع في انحاء البلاد على رؤ وس الاشهاد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود في سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين الف جرة(١٨٩) وقد عرف المماليك

---

(١٨١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٢ ص ١٥٠

(١٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٤٤

(١٨٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٨٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦١ ـ ٦٦٢ (سنة ٧٤٥ هـ)

(١٨٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٢٦ (بولاق)

(١٨٦) نفس المصدر السابق

(١٨٧) المقريزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ

(١٨٨) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٩

(١٨٩) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧

انواعا عديدة من الخمور ، .منها نبيذ القمّز ويعمل من لبن الخيل(١٩٠) والمزر ويعمل من القمح (١٩١) والنبيذ التمر بغاوي وطريقة صنعه أن تمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أوبعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخيل أياما حتى يتخمر (١٩٢) ويلغ من انتشار الخمور في ذلك العصر أن أمراء المماليك اعتادوا أن يتهادوا بها في أفراحهم(١٩٣) . فاذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارىء ، وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معينا من الجرار ، تقدمها . واذا تقاعسوا ـ مثلما حدث سنة ٨١٦ هـ « جبيت منهم بعنف وعسف وضرب »(١٩٤) وفي كثير من الحفلات والافراح الشعبية اعتبرت الخمور متممة للمغاني(١٩٥) ويقول المقريزي أنه لاعبرة بالاوامر التي كان يصدرها سلاطين المماليك في أوقات الأزمات والشدائد باراقة الخمور طلبا لمغفرة الله وعفوه ، مثلما حدث في سنى ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ هـ ، لان هذه التوبة كانت لا تستمر الا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب الخمر « ولم ينتهوا عما هم فيه »(١٩٦) .

وهكذا اهتم المقريزى فى كتاباته بالتاريخ الاجتماعى مثل اهتمامه بالتاريخ الاقتصادى وبقية فروع التاريخ ، بحيث جاء انتاجه يعبر عن صورة تاريخية متكاملة ، لها أوجهها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ..... وغيرها .

وبعد ، فاننا عندما نصف المقريزى بأنه شيخ المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر للميلاد ـ فانما نعنى فعلا أنه تزعم صنعة التاريخ فى ذلك العصر ، واجاد هذه الصنعة حتى بلغ الذروة فيها ، بعد أن ألم بأركانها ، واستوفى متطلباتها وادواتها وشروطها .

وعند ما أقدم المقريزى على ممارسة التدوين التاريخى ، فانه لم يكتب فيه كتابة سطحية أوعشوائية . وانما التزم بمنهج علمى ثابت يمثل أرقى ماوصلت اليه كتابة التاريخ فى عصره فلم يقتصر على سرد الاحداث مكتفيا بالنقل عن السابقين ، وانما تجاوز ذلك الى النقد والتحليل ، والبحث عن الاسباب وتتبع النتائج . كما انه لم يقف موقفا سلبيا أمام الظواهر والأحداث ، وانما حاول دائما أن يربط بين أطرافها ، ويعلل لها تعليلا سليما منطقيا .

---

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٠٧ (حاشية ٢ للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة)

(١٩١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٠٥ (الأهلية)

(١٩٢) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٤١

(١٩٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١

(١٩٥) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦

(١٩٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤

ثم ان المقريزى لم يتخذ الكتابة التاريخية أداة للتجريح والهدم ، مثلما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، وانما اتصف قلمه بالانضباط والعفة .

هذا الى أمانته فى نسبة الروايات التى ينقلها الى أصحابها ، وعنايته بتمحيص هذه الروايات للتفرقة بين الغث والسمين منها ، واستبعاد الضعيف والتمسك بالرواية القوية .

يضاف الى هذا جرأته فى الحق ، وعزوفه عن تملق الحكام والتمسح بركابهم ، وتوجيه النقد اليهم فى مواضع النقد .

وصفوة القول أن المؤرخ أحمد بن على المقريزى جمع بين قوة الحاسة التاريخية من ناحية ، وصدقها وانضباطها من ناحية أخرى ، هذا فضلا عن ادراكه للابعاد الحقيقية والأركان الرئيسية لعلم التاريخ ، مما جعل منه ظاهرة فريدة بين مؤرخى عصره ، وجعل من تراثه ومؤلفاته ثروة حقيقية تعتز بها المكتبة التاريخية العربية .

***

أبو بكر الرازي وبحوثه في العلم الطبيعي

جلال شوقي
عميد كلية الهندسة ـ جامعة قطر

يُعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازي أحد أعلام العرب لا سيما في العلوم الطبيّة حيث ألّف فيها أكثر من خمسين كتابا ومقالة ، ومن ثمَّ يُعد الرازي ـ بغير منازع ـ أعظم أطباء الحضارة الاسلامية ، ومن أشهر كتبه في الطب كتاب « الجامع الكبير » أو كتاب « الحاوي » ، كذا كتاب « الكناش المنصوري » الذي ألّفه للأمير منصور بن اسحق* الساماني حاكم الري (٢٩٠ ـ ٢٩٦هـ) ، وهو أول من اهتم بالجانب النفسي في العلاج الطبي .

اشتغل الرازي بالعلوم الحِكْمية عموما ، وله كتب كثيرة في الآلهيات والمنطق وما بعد الطبيعة ، كذا في الكيمياء والطبيعيّات والرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها .

وقد سبق الرازي كلا من الشيخ الرئيس ابن سينا والعالم الجليل الحسن بن الهيثم في أن الابصار يحصل بورود شعاع من الجسم المُبصَر إلى العين ، وبذلك كان أول من نقض قول علماء الاغريق بخروج الشعاع من العين إلى الشيء المُبصَر ، كما أن الرازي قد اشتغل بقياس الثقل النوعي بقصد التمييز بين معدني الذهب والفضة .

كذلك بيَّن الرازي أن الأرض ذات هيئة كرية ، وأنها أصغر من الشمس وأعظم من القمر ، ولكنه أخطأ في اعتباره أن الأرض تقع في وسط الفلك .

ولقد كان الرازي أحرص ما يكون على الدرس والتأليف ، وهو الذي يقول في مُصنَّفه « كتاب السيرة الفلسفية » :

« وإنّه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل « الجامع الكبير » خمس عشرة سنة ،

(*) وفي رواية أخرى أنه عمله لمنصور بن أبي قرابة والي خراسان .

أعملُه الليلَ والنهار ، حتى ضعُف بصري ، وحدث لي فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لي » .

هذا هو شأن العالِم العربي الكبير الذي نعرض له بالدراسة ، ونحن نقصر بحثنا الحالي على جهد الرازي في مجال الطبيعيّات دون أن نلج في آرائه الفلسفية الخاصة بِقِدَم أشياء خمسة هي الباريء والنفس والهيولي (أي المادة) والزمان والمكان ، وإنما نعرض هنا لأقوال الرازي وآرائه في ماهية الهيولي والزمان والمكان والخلاء والثقل والخفة من الوجهة العلمية .

ترجمته

وُلد الرازي في مدينة الريّ جنوبي طهران حوالي سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤) وبها نشأ ، وقدم إلى بغداد وعمره نيف وثلاثون سنة ، وأصبح رئيسا للمستشفى العضدي بها ، وكان من قبل رئيسا لمارستان الريّ وذلك قبل قدومه إلى بغداد .

وقد عُرِفَ الرازي في الغرب باسم "Rhases" وتُرجم كتابُه « الحاوي » في الطب إلى اللاتينية بعنوان : "Liber Continens" ، كما تُرجم له كتاب في الصحة العامة حيث ظهرت ترجمته اللاتينية بعنوان : "Miscellanea" .

كرَّس الرازي حياته لخدمة العلم ، فلا غَرْوَ أن يخلِّف وراءه عشرات الكتب والمقالات ، وكان أن ضعف بصره في آخر عمره ، وقد اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته ، فالمشهور أنه توفي في بغداد سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، إلّا أن القفطي قد ذكر في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أنّ الرازي قد عاش حتى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وأنه اتصل بابن العميد ، بينما يذكر الصفدي في « نكت الهيمان » أن الرازي توفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م) .

شيوخه ومعاصروه

قرأ الرازي الحكمة على أبي زيد البَلْخيّ[١] الذي كان دائم التجوال والترحال في الأمصار الاسلامية وكان على دراية حسنة بالفلسفة وعلوم الأقدمين ، كما أن الرازي قد درس الطب على يد الطبيب الفاضل أبي الحسن علي بن رَبّن الطبري ، وهو من أهل طبرستان ، وكان الطبريُّ قد قَدِم الريّ حوالي سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) بعد استيلاء السامانيين على طبرستان ، وقد أصاب الرازي من علم الطبري وحكمته الشيء الكثير ، وكان الرازي مُعاصرا لأبي يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق[٢] الذي كان من أشهر وأقدر نقلة علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، وكان الرازي على صلة بأبي الحسن علي بن عيسى الجرّاح[٣] أثناء إقامته في بغداد .

أقواله المأثورة :

وللرازي أقوال مأثورة كثيرة نقدم بعضا منها فيما يلي :

« مَنْ لم يُعْنَ بالأمور الطبيعية ، والعلوم الفلسفية ، والقوانين المنطقية ، وعَدَلَ إلى اللّذات الدنيائية ، فاتّهِمْهُ في علمه ، لا سيما في صناعة الطب » .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والاشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

---

[١] هو أبوزيد أحمد بن سهل البلخي ، عاش في الفترة من حوالي سنة ٨٥٠م حتى سنة ٩٣٤م . درس الفلسفة مع الكندي ، وهو من جغرافيي العرب .

[٢] شهد أيام الخلفاء المعتمد والمعتضد والمقتدر ، وتوفي ببغداد في أيام المقتدر ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) .

[٣] كان وزيرا للخليفة المقتدر سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) ، وكذا سنة ٣١٤هـ (٩٢٧م) .

« متى اجتمع جالينوس(٤) وأرسطوطاليس(٥) على معنى ، فذلك هو الصواب ، ومتى اختلفا صعُب على العقول إدراك صوابه جدا » .

« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعضَّدته التجربة ، فليكن إمامك ، وبالضدّ » .

« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس وقراءة الكتب ، خُذِل » .

« الأطباء الأميّون والمُقلِّدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته : قتّالون » .

« ينبغي للطبيب أن يُوهم المريض أبدا الصحة ، ويُرجِّيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .

آثاره العلمية :

قدَّم أبوبكر الرازي الى العلم العربي إضافات جليلة ، ليس في مجال الطب فحسب وإنَّما في سائر فروع العلم والمعرفة ، وقد جاء أبوالريحان البيروني(٦) من بعده ، فاهتم اهتماما خاصا بحصر أعمال الرازي حيث كتب رسالة(٧) ضمَّنها أسماء ما ينوف على مائة وثمانين مُصنَّفًا من تصانيف الرازي ، ونبين فيما يلي إحصاء عاما بهذه المؤلفات :

الطب والأقرابازين	٥٦ تصنيفا
الطبيعيّات	٣٢ تصنيفا
الكيميائيات	٢١ تصنيفا
الرياضيات والنجوم	١١ تصنيفا
الآلهيات	١٦ تصنيفا
الفلسفة	١٦ تصنيفا
المنطق	٧ تصنيفا
ما بعد الطبيعة	٦ تصنيفا
تفاسير وتلاخيص واختصارات	٧ تصنيفا
فنون مختلفة	١٢ تصنيفا
المجموع	١٨٤ تصنيفا

ولنقرأ ما خطَّته يد الرازي في معرض دفاعه عن استحقاقه لتسمية « فيلسوف » ، وهو الذي أفنى عمره كله في تحصيل العلم والاشتغال به ، حيث يستشهد بسرد أسماء بعض تصانيفه فيقول في مؤلَّفِه « كتاب السيرة الفلسفية »(٨) :

أمَّا في باب العلم فمِن قِبَلِ أنَّا لو لم تكن عندنا منه إلاَّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعا عن أن يُمحى عنَّا اسم الفلسفة ، فضلا عن مثل كتابنا « في البرهان » و « في العلم الآلهي » و « في الطب الروحاني » .

وكتابنا « في المدخل إلى العلم الطبيعيّ » الموسوم « بسمع الكيان » ، ومقالتنا « في الزمان والمكان والمدّة والدهر والخلاء » .

---

(٤) طبيب إغريقي شهير عاش في الفترة من حوالي سنة ١٣١م حتى سنة ٢٠١م ، له مؤلفات هامة في الطب ، رجع اليها أطباء العرب .

(٥) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو ، عاش في الفترة من سنة ٣٨٤ق .م حتى سنة ٣٢٢ق .م .

(٦) هو العالم العربي أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الملقب ببرهان الحق وبالأستاذ عاش في الفترة من سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) حتى سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) .

(٧) كتب عنها المستشرق . روسكا في مجلة إيزيس ، سنة ١٩٢٣ ، ونشر الرسالة المستشرق بول كراوس في باريس سنة ١٩٣٦ ، وهي بعنوان « في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » .

(٨) « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ـ بالقاهرة ، سنة ١٩٣٩ ، الصفحات ١٠٨ ـ ١١٠ .

و« في شكل العالم » ،
و« سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ،
و« سبب تحرُّك الفلك في استدارة » ،
ومقالتنا « في التركيب » ،
و« أنَّ للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » ،
وكتبنا « في النفس » وكتبنا « في الهيولي » ،
وكتبنا في الطب كالكتاب « المنصوري » ،
وكتابنا « إلى من لا يحضره طبيب » ،
وكتابنا « في الأدوية الموجودة » ، والموسوم « بالطب الملوكي » ،

والكتاب الموسوم « بالجامع » الذي لم يسبقني إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحدٌ بعدُ احتذائي وحَذْوي ،
وكتبنا في صناعة الحكمة التي هي عند العامّ الكيميا .

وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عنيّ - إلى وقت عملي هذه المقالة - في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والآلهي .

فأماَّ الرياضيّات فإني مُقرّ بأنيّ إنما لاحظتها ملاحظة بقدر ما لم يكن لي منها بدّ ، ولم أُفْنِ زماني في التمهُّر بها بالقصد منيّ ذلك ، لا للعجز عنه ، ومن شاء أوضحت له عذري في ذلك بأن الصواب في ذلك ما عملته لا ما يعمله المُفْنُون لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة .

فإن لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحقُّ أن أسمىَّ فيلسوفا ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا » .

ويمضي أبوبكر الرازي في « كتاب السيرة الفلسفية » ، فيقول في معرض بيانه وتدليله على مدى حُبِّه للعلم وانكبابه على تحصيله :

« فأماَّ محبَّتي للعلم ، وحرصي عليه ، واجتهادي فيه ، فمعلوم عند من صَحِبني وشاهَد ذلك منيّ أنيّ لم أزل منذ حداثتي والى وقتي هذا مُكِبّاً عليه حتى اني متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألْقَه لم ألتفت إلى شُغْل بتّة - ولو كان في ذلك عليّ عظيم ضرر - دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل » .

وقد سبق أن أوردنا في صدر هذا البحث مبلغ اجتهاد الرازي الذي سبَّب له ضعفا في بصره وفَسْخا في عضل يده أودى به الى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب .

أعمال الرازي في الطبيعيّات

كتب الرازي مؤلفات كثيرة في الطبيعيات وما يرتبط بها من علوم ، ولقد اهتم اهتماما خاصا بالبحث في ماهية الهيولي (المادة) وكُنْه الزمان والمكان ، كما أنه اشتغل بتعيين الثقل النوعي للمواد بقصد التفرقة بين المعادن الثمينة والمعادن غير الثمينة ، كذلك كتب الرازي في كيفية الابصار ، وبحث في حركة الأفلاك ومساراتها ، وله أيضا كتاب في الحيل ، أي في الوسائل الميكانيكية النافعة ، ونشير فيما يلي الى بعض مؤلفات الرازي في هذا المجال :

كتاب « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » .
كتاب « المدخل التعليمي » .
كتاب « المدخل البرهاني » .
كتاب « الهيولي الكبير » أو « كتاب كبير في الهيولي » .
كتاب « الهيولي الصغير » ، ولعله هو « كتاب الهيولي المُطلقة والجزئية » الذي ذكره ابن النديم في فهرسه .
مقالة « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » .
« مَقالة « فيما جرى بينه وبين أبي القاسم الكعبي في الزمان » .

مقـالـة « في الفـرق بـين ابتـداء المـدة وابتـداء الحركات » .

« مقالة « في أن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » .

كتاب « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ،

كتاب « في كيفية الابصار » .

كتاب « في الحيل » .

مقالة « في شكل العالم » ، أو كتاب « هيئة العالم » .

مقالة « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » .

مقالة « في سبب تحرُّك الفلك على استدارة » .

هذا ونعرض هنا بشيء من التفصيل لأراء الرازي في المادة والزمان والمكان ، وذلك بالرجوع الى كتابات البيروني ، والمرزوقي الاصفهاني ، وناصر خسرو ، وأبي حاتم الرازي ، عن مذهب أبي بكر الرازي فيها .

القدماء الخمسة

يذكر برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة »(٩) بعضا من آراء الرازي في العلم الالهي فيقول :

لبٌ في ذكر المدّة والزمان بالاطلاق
وخَلْق العالم وفنائه

قد حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدمة خمسة أشياء منها الباريء سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولي الأولى ، ثم المكان ثم الزمان المطلقان .

وبنى هو على ذلك مذهبه الذي تأصل عنه ، وفرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر ، والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر .

وذكر أن الخمسة في هذا الوجود الموجود اضطرارية ، فالمحسوس فيه هو الهيولي المتصورة بالتركيب ، وهي متمكن فلابد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان ، فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ، وبالزمان يعرف القدم والحدث والأقدم والأحدث ومعا فلابد منه .

وفي الموجود أحياء فلابد من النفس ، وفيهم عقلاء ، والصنعة على غاية الاتقان ، فلابد من الباريء الحكيم العالم المتقن المصلح بغاية ما أمكن ، الفائض قوة العقل للتخليص .

ويقول المرزوقى الاصفهاني(١٠) في « كتاب الأزمنة والأمكنة »(١١) :

« فنقول وبالله الحول والقوة ، من زعم أن الأزلي أكثر من واحد أربع فرق :

الأولى : الذين يقولون هما اثنان ، الفاعل والمادة فقط ، ويعني بالمادة الهيولي ،

الثانية : الذين يدعون أن الأزلي ثلاثة ، الفاعل والمادة والخلاء ،

الثالثة : الذين يدعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة ،

الرابعة : الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكرياء المتطبب ، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة ، فبلغ عدد الأزلي خمسة بهذيانه .

---

(٩) طبعة لندن ، سنة ١٩١٠م ، صفحة ١٦٣ .

(١٠) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصفهاني المتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) .

(١١) طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ، الجزء الأول ، الصفحتان ١٤٤ ، ١٤٥ .

وينكر المرزوقي الأصفهاني على أبي بكر الرازي ما ذهب إليه ، فينقده بقوله :

« أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة وما يعتقده من وجود العالم لحدوث العلة ، وما يدعيه من وجود الجوهرين الأزليين : أعني الخلاء والمدة ، لا فعل لهما ولا انفعال ؟ فلولا خذلان الله إياه وإلا فماذا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل ؟

ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة ، ولم تحدث العلة من غير نقص ولا آفة ، ولم يذكر شيئا ليس فيه جدوى ولا ثمرة ؟

ويمضي المرزوقي الاصفهاني في نقده لأبي بكر الرازي في موضع آخر من كتابة « الأزمنة والأمكنة » حيث يقول(١٢) :

« وأعجب من هذا أن الباريء مخترع لجميع ما خلقه ، وأنه لا يُعجزه مطلوب ولا يضاده معلوم » .

ثم أقاموا معه في الأزل الهيولي وهو المادة ، ورتبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والنجارة .

والله تعالى يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » إلى قوله : « وذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية البيِّنة والحجة الواضحة .

يبين لنا من الكتابات المتضمنة للآراء المنسوبة الى الرازي في قدم وأزلية الهيولي والزمان والمكان ، أنه قد تعرض بسببها لنقد شديد من معاصريه وممن أتى بعده من الفلاسفة والمفكرين ، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالهذيان بل وحتى بالالحاد .

وليست قضية القدم والحدث بمعروضة في حد ذاتها على بساط البحث هنا ، وإنما هي آراء الرازي في ماهية هذه الأشياء الثلاثة التي نعرض لها بالدراسة ، ولنبدأ برأي الرازي في الهيولي .

الهيولي (المادة)

ثبت أن للرازي عدة مؤلفات في الهيولي ذكرها أصحاب التراجم ، بيد أنا لم نعثر حتى الآن على كتابات الرازي في هذا المجال اللهم إلا ما ورد عنها في كتاب « زاد المسافرين »(١٣) لناصر خسرو(١٤) باللغة الفارسية ، ونقدم فيما يلي منتخبات من ترجمته العربية(١٥) حيث يورد ناصر خسرو رأي الرازي في الهيولي :

« ليست الهيولي المطلقة سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث أن يكون لكل واحد (أي لكل واحد من تلك الأجزاء) عظم ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجمعها شيء له عظم .

وأيضا لا يجوز أن يكون لأي جزء (يقصد الجزء الذي لا يتجزأ) من عظم حتى يجوز أن يوجد عظم أصغر مما هو عليه ، وذلك أنه لو كان لجزء الهيولي جزء ، لكان الجزء نفسه جسما مركبا ، ولم تكن الهيولي مبسوطة(١٦) ، مع أن الهيولي التي هي مادة الجسم مبسوطة » .

---

(١٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٥٢ .

(١٣) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ، صفحة ٧٣ وما بعدها .

(١٤) هو أبو المعين ناصر بن خسرو المتوفي سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) .

(١٥) عن كتاب « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها .

(١٦) أي بسيطة .

وينسب الى الرازي قوله :

« إن تـركيب الأجسام من تلك الأجـزاء التي لا تتجزأ ، وسينتهي تفرق تركيب أجسام العالم في آخر أمر العـالم الى تلك الأجـزاء بعينهـا ، وهـذه هي الهيـولي المطلقة » .

وقوله أيضا :

« إن ما صار من أجزاء الهيولي متجمعا جدا ، كان منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الهواء ، وما صار أكثر تفرقا من جوهر الهواء كـان منه جـوهر النار » .

ويستطرد ناصر خسرو في موضع آخر من كتابه « زاد المسافرين » ناسبا لأبي بكر الرازي قوله :

« إن كيفيات الأجسام من ثقل وخفة وظلمـة ونور وغيرها ، إنما ترجع الى قلة أو كثرة الخلاء الذي امتزج بالهيولي ، فصار شيء ما خفيفا وآخر ثقيلا ، وشيء ما مضيئا وآخر مـظلما ، لأن الكيفية عـرض ، والعرض محمول على الجوهر ، والجوهر هو الهيولي .

وفي هذه الجملة التي عرفناها زبدة قول محمد بن زكرياء الرازي في الهيولي » .

« إن محمـد بن زكـريـاء الـرازي ادعى أن الهيـولي قديمة ، وأنها أجزاء في غاية الصغر ودون أي تركيب ، وأن الباريء سبحانه ركب أجسام العالم من تلك الأجزاء في خمسـة تراكيب، أعني الأرض والمـاء والهواء والنـار والفلك .

ويقول إن ما كان من تلك الأجسام أكثر كثافة صار أكثر ظلمة ، وإن تركيب جميع الأجسام من (اختلاط) أجزاء الهيولي بأجزاء الخلاء يعني المكان المطلق ، وإن أجزاء الهيولي في تـركيب الأرض أكثر منهـا في تركيب الماء ، وأما أجزاء الخلاء فهي في الأرض أقل ، وفي الماء أكثر ، ومن أجل هذا صار المـاء أخف من الأرض ، وصار الماء مضيئا بينما كانت الأرض كثيفة مظلمة . . .

وأما التفاوت الذي يوجد بين هذه الأجسام من حيث الخفة والثقل والنور والظلمة ، فليس سببه سوى تفاوت أجزاء هذين الجوهرين في تركيبها . . .

كـذلك وردت هـذه المعاني في كتـابات الـرازي في « العلم الآلهي » .

مما تقدم يتضح لنا أن الرازي قد ذهب الى أن المادة تتكون من أجزاء غاية في الصغر ، وأن هذه الأجزاء لا تقبل التجزئة ، وأن تفرق تركيب أجسام العالم - في آخر أمر العالم - سينتهي إلى تلك الأجزاء التي أطلق عليها تسمية الهيولي المطلقة .

واذا ما قارنا هذه الفكرة بما يتوفر لدينا عن النظرية الـذرية ، لـوجدنا - على سبيـل المثـال - أن قـطر ذرة الهيدروجين يقترب من واحد من عشرة ملايين جزء من المليمتر ، وأن النموذج المعروف للذرة يتركب من نواة تضم عددا من البروتونات والنيوترونات ، تدور حولها - في مدارات ثابتة - مجموعة من الالكترونـات ، وبينما تكـون النواة مـوجبة التكهـرب ، فـان الالكتـرونـات المحيطة بها سالبة الشحنة ، أما الذرة في مجموعها فهي متعادلة من الـوجهة الكهـربية ، وهنـاك قوى كهـربية وميكـانيكية تحفظ عـلى الـذرة نـظامهـا الشبيـه بـنظام المجموعة الشمسية .

ومن المعروف أن انشطار النواة يؤدي الى اطلاق طاقة جبـارة ، فإن ذرة اليـورانيوم ٢٣٥ مثـلا (وتضم ٩٢ بروتونا + ١٤٣ نيوترونا ومن هنا جاء الرقم ٢٣٥) إذا ما قـذفت بنيوتـرون ، انشطرت النـواة وتتولـد عن هـذا الانشطار طاقة كبيرة ، وتتفاعل النيوترونات الناتجة من الانشطار بدورها مع ذرات اليورانيوم المجاورة لها مسببة سلسلة من الانشطارات النووية .

ولعل الرازي يقصد أنه « في آخر أمر العالم » فإن الأجسام ستؤول في النهاية الى تلك الأجزاء التي لا تقبل التجزئة ، والتي أسماها بالهيولي المطلقة .

الزمان

لأبي بكر الرازي آراء في الزمان والدهر وردت في مناظراته مع سميه أبي حاتم الرازي كذا فيما نقله عنه ناصر خسرو ، ففي المناظرات التي جرت بين الرازيين ، ترد فقرات تكشف عن رأي أبي بكر الرازي في ماهية الزمان والدهر(١٧) ، حيث تجري المناظرة بينهما على النحو التالي :

يقول أبو حاتم الرازي :

« وطالبته في مجلس آخر وقلت له : أخبرني ألست تزعم أن الخمسة قديمة لا قديم غيرها ؟

قال : نعم

قلت : فإنا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمرّ الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟

قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة لأن هذه كلها مقدرة على حركات الفلك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها ، والفلك وما فيه محدث ، وهذا قول أرسطاطاليس(١٨) في الزمان ، وقد يخالفه غيره ، وقالوا فيه أقاويل مختلفة .

وأنا أقول إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور ، فالمطلق هو المدة والدهر ، وهو القديم ، وهو متحرك غير لابث ، والمحصور هو الذي بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب .

وإذا ميزت هذا أو توهمت حركة الدهر ، فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد السرمد .

وإذا توهمت حركة الفلك ، فقد توهمت الزمان المحصور .

ويمتد النقاش حول تعريف الزمان المطلق ، وقدم الفلك والعالم إلى أن يبين أبوبكر الرازي موقفه من آراء فلاسفة الاغريق حيث يقول :

« ... وقد عرفتك أن أرسطاطاليس كان يعتقد ما تقوله أنت وقد خولف فيه ، وقول أفلاطون(١٩) لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزمان ، وهذا عندى أصوب الأقوال » .

وتمضي المناظرة بين الرازيين ، بيد أننا نكتفي هنا ببيان قول أبي بكر الرازي في الزمان .

ولقد وردت في مجموعة تحتوي على مقالتين للرازي(٢٠) فقرة صغيرة بعنوان « ما الفصل بين الدهر والزمان » نصها كما يلي :

« إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة ، والزمان هو عدد الأشياء الزمانية ، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط ، أعني الحياة والحركة ، فإن كل عاد إما أن يعد جزءا بعد جزء وإما أن يعد الكل معا ، فإن كان هذا على ذاك قلنا : إن الشيء الذي يعد الكل هو الدهر ، والشيء الذي يعد الأجزاء جزءا بعد جزء هو الزمان .

---

(١٧) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٢ ـ ١٤ . وكتاب « الأقوال الذهبية » لأحمد بن عبدالله الكرماني .

راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، صفحة ٢٩٥ وما يليها .

(١٨) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو أو أرسطاليس ، أثرى الحضارة الاغريقية بمؤلفاته القيمة ، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشائين » .

(١٩) هو الفيلسوف الاغريقي أفلاطون : Plato عاش في الفترة من حوالي سنة ٤٢٧ق . م . حتى سنة ٣٤٧ ق . م . وكان تلميذا لسقراط وأستاذا لأرسطو .

(٢٠) مجموعة مخطوط مكتبة راغب باشا باستانبول ـ رقم ١٤٦٣ ، ورقة ٨٩ظ ، وتشتمل على مقالتين لأبي بكر الرازي ، كذا على رسائل لأبي علي مسكويه ولأبي خير الحسن بن سوار وغيرها .

فقد استبان الآن وصح أن العدد اثنان فقط ، أحدهما يعد الأشياء الدائمة الروحانية وهو الدهر ، والآخر يعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان ، وهو الزمان ، وهو عدد حركات الفلك . » .

ولعل هذا القول للرازي أو لأحد المؤلفين الذين ضمت المجموعة بعضا من تصانيفهم .

ويقول ناصر خسرو في كتابه « زاد المسافرين »(٢١) ما ترجمته بالعربية(٢٢) :

« إن طائفة الحكماء الذين قالوا إن الهيولي والمكان قديمان قرروا أيضا أن الزمان جوهر ، وقالوا إن الزمان جوهر ممتد وقديم ، وردوا على قول الحكماء الذين قالوا إن الزمان عدد حركات الجسم ، وقالوا لو كان الزمان عدد حركات الجسم لما جاز أن يتحرك متحركان في زمان واحد بعددين متفاوتين .

وقال إيران شهري الحكيم إن الزمان والدهر والمدة ليست إلا أسماء يرجع معناها إلى جوهر واحد ، (وقال) إن الزمان دليل على علم الله ، كما أن المكان دليل على قدرة الله ، والحركة دليل على فعل الله ، والجسم دليل على قوة الله ، وإن كل واحد من تلك الأربعة غير متناه وقديم ، (وقال) إن الزمان جوهر متنقل بغير قرار ، وأما قول محمد بن زكرياء ـ الذي جاء بعد إيران شهري ـ فهو أنه قال إن الزمان جوهر يجري » .

من جملة ما ورد عن مذهب الرازي وآرائه يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الرازي قد فرق بين زمانين : زمان مطلق ، وزمان محصور ، ويرى الرازي أن « الزمان المطلق » هو الأبد السرمد ، أو هو المدة أو الدهر ، وهو قديم ممتد أزلي ، وأما ما أسماه « بالزمان المحصور » فإنه يقصد به الزمان النسبي الذي يقدر بحركة الأفلاك وجري الشمس والكواكب ، وما نحس به من تعاقب الليل والنهار ، وبه صار حساب اليوم والشهر والسنة ، كذا أجزاؤها وأضعافها .

المكان :

تتضمن مناظرات أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي تعريف المكان ، حيث يجري الحديث بينهما على النحو التالي(٢٣) :

« قلت(٢٤) : أخبرني عن المكان ، أهو محيط بالأقطار ، أم الأقطار محيطة به ؟

قال : بل الأقطار محيطة بالمكان .

قلت : كيف لا تعد الأقطار مع الخمسة التي زعمت أنها قديمة ، لأنه إن كان المكان قديما فقد أوجبت أن الأقطار قديمة معه !

قال : الأقطار هي المكان ، والمكان هو الأقطار ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما » .

ويستطرد أبوبكر الرازي في موضع آخر من هذه المناظرة قائلا :

---

(٢١) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ ، صفحة ١١٠ ـ ١١٣ .

(٢٢) عن كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٢٦٦ ـ ٢٧١

(٢٣) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٤ ـ ١٧ . راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٣٠٥ ـ ٣٠٧ .

(٢٤) هذا القول لأبي حاتم الرازي .

« فإني أقول في المكان أيضا إنه مكان مطلق ، ومكان مضاف .

والمكان المطلق مثاله مثال الوعاء الذي يجمع أجساما ، وإن رفعت الأجسام عن الوهم لم يرتفع الوعاء ، كما لو أنّا رفعنا الفلك عن الوهم لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوهم بل هو باق في الوهم ، كالدن الذي يفرغ من الشراب ، فارتفع الشراب عن الوهم ولم يرتفع الدن بتة .

والمكان المضاف إنما هو مضاف إلى المتمكّن ، فإذا لم يكن المتمكن لم يكن مكان ، وهذا مثل العرض الذي إذا رفعته عن الوهم ارتفع الجسم ، كما انك إذا رفعت الخط عن الوهم ارتفع السطح عن الوهم » .

وينهي أبوبكر الرازي حديثه حول المكان بقوله :

« . . . والذي أقوله أيضا في باب المكان هو قول أفلاطون ، والذي قد تشبثت به أنت هو قول أرسطاطاليس .

وأما أنا فقد وضعت في المكان والزمان كتابا ، فإن أردت الشفاء في هذا الباب فانظر في ذلك الكتاب » .

ولعل الرازي يشير هنا إلى مقالته « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » التي ورد ذكرها في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية » كما تقدم بيانه .

هيئة العالم وحركته :

تعرض الرازي بالدراسة للعالم الخارجي المحيط بكوكبنا الأرضي وألف في ذلك عدة مصنفات منها مقالته « في شكل العالم » أو كتابه « هيئة العالم » ، ومقالته « في سبب تحرك الفلك على استدارة » ، وفيها ينادي الرازي بكروية الأرض ، وبأن الأرض تفوق القمر في الحجم ، بينما هي تقل بكثير عن جرم الشمس ، ولقد كان الرازي من أنصار الرأي القائل بوقوع الأرض في مركز العالم ، كما يبين ذلك في مقالة له بعنوان « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ، وهو ولا شك اعتقاد خاطىء .

الثقل النوعي للمواد

اهتم الرازي بدراسة الثقل النوعي للمواد ، أي بتعيين ثقل حجم معين من المادة منسوبا إلى ثقل نفس الحجم من الماء ، ويرجع السبب في اشتغال الرازي بهذا الموضوع إلى رغبته في إيجاد وسيلة علمية يمكن بها التمييز بين معدني الذهب والفضة ، ومن ثم كان كتابه « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، ومن المعروف أن الثقل النوعي للذهب يفوق بكثير الثقل النوعي للفضة ، ومن هذا التباين يمكن التفرقة بين الذهب والفضة .

كيفية الابصار

لأبي بكر الرازي مصنف بعنوان « في كيفية الابصار » وهو كما يدل عليه عنوانه بحث في كيفية إدراك المبصرات ، ولقد كان الفكر السائد قبل الرازي ـ كما جاء في المصادر الاغريقية ـ أن الابصار يحدث نتيجة خروج شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي ، فجاء قول الرازي لينقض هذا الزعم ويقدم النظرية الصحيحة للابصار ، وتقوم على خروج الشعاع الضوئي من الجسم المبصر الى العين حيث يتم الادراك البصري ، وبذلك يكون لأبي بكر الرازي فضل السبق الى بيان كيفية الابصار .

خلاصة البحث

يعرض هذا البحث لأحد عمالقة العلم العربي ، هو الحكيم أبوبكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد ، وقد وهب الرازي حياته للعلم والمعرفة فتفانى في طلبهما أصدق تفان ، وخلف وراءه ما يقرب من مائتي رسالة ومقال في الطب والأقرابازين والطبيعيات والكيمياء والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من فروع المعرفة المختلفة .

وتقتصر دراستنا هذه على جهد الرازي في مجال الطبيعيات فحسب ، حيث نقدم دراسة مقتضبة لآراء الرازي في ماهية الهيولي والمكان والزمان ، وهي أمور كانت تحتل مكانا هاما في الفلسفة الطبيعية عند العرب ، ولقد أولى الرازي اهتمامه لموضوع الثقل النوعي للمعادن في محاولة علمية للتمييز بين معدني الذهب والفضة ، كذلك سبق الرازي الى بيان النظرية الصحيحة لكيفية الابصار حيث خالف قول الاغريق بتقريره أن الابصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم الى العين ، مسجلا بقوله هذا سبقا واضحا على كل من الشيخ الرئيس ابن سينا ورائد علم البصريات الحسن بن الهيثم .

ان ما تم كشف النقاب عنه من أعمال أبي بكر الرازي لا يعدو النذر اليسير ، وان المهتمين بالحضارة العربية ليتطلعون بشوق زائد الى مزيد من الدراسات الجادة للتراث العلمي العظيم الذي قدمه العالم الفيلسوف الطبيب أبوبكر الرازي لحضارة الانسان ، ذلك المخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه وعلمه ما لم يعلم .

* * *

مصادر البحث

(أ) المصادر العربية

(١) كتاب « الفهرست » لمحمد بن اسحق النديم (تم تأليفه عام ٩٨٨م) طبعة القاهرة : مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٩م .

(٢) كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لجمال الدين أبي الحسن القفطي ، طبعة القاهرة : مطبعة الخانجي ، سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) .

(٣) كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » طبعة بيروت : دار الفكر ، سنة ١٩٥٦م .

(٤) كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي جمعها وصححها المستشرق بول كراوس جامعة فؤاد الأول ـ كلية الآداب ـ المؤلف رقم ٢٢ . مطبعة بول باربيه ـ القاهرة ، الجزء الأول ، سنة ١٩٣٩م .

(٥) « رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء الرازي » لأبي الريحان البيروني . إعداد بول كراوس ، القاهرة/ باريس ، عام ١٩٣٦ .

(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة » لأبي الريحان البيروني (يعرف أيضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند) نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧م . ونشره مترجما الى الانجليزية في جزءين عام ١٨٨٨م . كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠م .
طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧م . وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤م .

(٧) « شيخ الأطباء : أبوبكر محمد بن زكريا الرازي » في كتاب « الفلاسفة المسلمون » تأليف اسماعيل حقي الازميرلي . مطبعة الأوقاف الاسلامية باستانبول ، عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) .

(ب) المصادر الأجنبية

(1) P. kraus :
'Epitre de Beruni contenant le repertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariyya al Rasi,' paris, 1936.

(2) J. Rusha :
'Al — Biruni als Quelle fur das Leben und die Schriften al — Razis's" ISIS,5, (1923), 26 — 50.

(3) S. pines :
'Beitrage zur islamischen Atomenlehre,' Berlin, 1936.

* * *

الفيزياء والحيل عند العرب

محمد عيسى صالحيه

أستاذ مساعد ـ قسم التاريخ

جامعة الكويت

تباينت آراء العلماء العرب في تحديد أساس مفهوم العلوم الطبيعية ؛ فمنهم من نظر اليها نظرة فلسفية باعتبارها تحدد القانون الطبيعي بقضيته الفلسفية وجوهره ، فالفارابي مثلا يعرفها « بأنها العلوم التي تنظر في الأجسام الطبيعية ، وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام ، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها ، والتي بها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها(١) » . ويشتمل العلم الطبيعي عند الفارابي على ثمانية أجزاء ينقلها عن أرسطو وهي ، السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم ، وكتاب الكون والفساد والآثار العلوية ، والمعادن والنبات ، والحيوان والنفس .

أما ابن خلدون فيراه « علما يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية ، وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات »(٢) . وعرفه طاش كبرى زاده بأنه « علم يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها ، وموضوعه الجسم ، من حيث كونه متغيرا »(٣) .

كانت العلوم الطبيعية اليونانية مجرد نظريات تستند الى الأفكار الفلسفية وتقوم على منهج عقلي استنباطي ، لأنها اقتصرت على الحركة ، ومؤداها أن الأشياء تتحرك ، وعلى الانسان أن يتصدى لهذه الحركة . ولما أخذها العرب درسوها دراسة علمية تستند الى التجربة

---

(١) الفارابي : احصاء العلوم ، ٩١ ، حسين على محفوظ : مؤلفات الفارابي ، ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٤٩٢

(٣) طاش كبرى زادة : مفتاح دار السعادة ،

والملاحظة ، ومن ثم وضعوا لها القواعد والأصول الكثيرة ، وخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ، فجاءت النتائج والدراسات دقيقة وواضحة مبدعة بدرجة كبيرة ، حتى أنها لا تختلف في بعض المجالات عن النتائج العملية التي توصل اليها العلم الحديث⁽٤⁾ .

ومن الجدير بالذكر أن السريان لم يؤلفوا في العلوم الطبيعية كتبا منفردة عدا الأسقف الرهاوي ، الذي صنف كتاب « علة كل العلل » في النصف الثاني من المائة العاشرة ، وعليه فان المراجع اليونانية التي نُقلت أو فسرت بالعربية ، كادت أن تكون المرجع الأساسي لتزويد العلماء العرب بأوليات العلم ، الذي توسع العرب فيه ، وأضافوا اليه فيها بعد ، وأوجدوا طرقا متعددة طبقت في أبحاث العلوم الطبيعية ، ومن تلك الكتب الطبيعية التي ترجمت مبكرا ، كتاب الفيزيكس لارسطاطاليس ، وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لايرن ، وكتاب الدواليب ، والآلات المصوتة على بعد ٦٠ ميلا لمورطس ، وخاصة كتابي الأرغن البوقي ، والأرغن التزمري ، وكتب قطيزينوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وكتاب الثقل والخفة لاقليدس ، وكتاب ساعات الماء التي ترمي بالبندق لأرشميدس⁽٥⁾ .

ونتيجة لدراسة العرب لهذه الآثار ، استطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساسا لبحوث علم الطبيعة المنوعة بما طوروه وابتكروه من آلات منذ وقت مبكر فبدت ميادين علم الطبيعة ممثلة فيما يلي :

- علم الحيل أو الميكانيك ، وتشمل مراكز الثقل وتطبيقاتها ، وصناعة الأواني العجيبة بأنواعها المختلفة .
- دراسة الصوت .
- دراسة الضوء والبصريات .
- علم السوائل .
- دراسة الجاذبية الأرضية والمد والجزر .
- فيزياء الغازات والرياح .
- أبحاث المغناطيس والبوصلة والرقاص .
- الآلات الحربية (كالمنجنيق والبارود) .

وأهم بحوثهم النظرية في الفيزياء كانت :

- البحوث في القوى .
- البحوث في الحركة .

وكان من أهم بحوثهم العملية المتميزة :

- اقامة الساعات لحساب الزمن .

وقبل أن نبحث انجازات العرب المسلمين في هذه الميادين ، فاننا نسجل بأن العرب قد أعطوا العلوم الطبيعية (الفيزياء والحيل) المنهج الصحيح في البَحث العلمي ، بأن خلصوها من الشوائب التي ما فتئت تكدرها ، وذلك بطرح أساطيرها واعتماد منهج موضوعي في فك مغاليقها ، اذ نفوا الخرافات وحاربوها ، فقد تصدى ابن حزم مثلا للزعم القائل أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وأثبت أنها دعوى بلا برهان⁽٦⁾ ، ورفض العلماء العرب الادعاء بأن أنهار النيل وجيحون والفرات تخرج من الجنة ، وتسقي جميع المعمورة وردوها الى أهلها وغيرها من الخرافات ، ورافق ذلك سعة اطلاع غدا دستورا علميا صحيحا ،

---

(٤) كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ٢١٦ ، مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٢٢

(٥) ابن النديم : الفهرست ، ٢٤٧ ـ ٢٥٩ ، القلقشندي : صبح الاعشي ، ٢/ ٧٦، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٥

(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ٥/ ٣٦ ، محمد بن يوسف العامري : الأمد على الأبد ، ، ٦٨ ، ١١٩ ـ ١٢١

وصاحبه بحث وتنقيب ميداني من خلال الرحلات التي كانت ضرورة من ضروريات العلم عند العرب ، فكانوا يسافرون للقاء أهل العلم والمعرفة والأخذ عنهم علما وتعليما والقاء ومحاكاة وتلقينا(٧) . كما جعل علماء العرب التجربة منهاجا مهما في دراستهم الفيزيائية ولعل مطالعة قصة حي بن يقظان ، وآراء ابن طفيل في الموازنة بين النبات والحيوان والمقارنة بينهما في الخلق ، تؤكد جدية العرب في التجربة والمراقبة العملية الميدانية(٨) .

وحتى نلم باطار الصورة ، أرى أن نعرض لانجازات العرب ببعض الميادين التي أشرنا اليها سابقا .

علم الحيل (الميكانيك)

أطلق اليونانيون على العلم المخصص للأجهزة الميكانيكية اصطلاح « نيوماتيك » ، وعربه العلماء العرب باسم « علم الآلات الروحانية وعمل الحيل » وعرفوه « بأنه علم الآلات الروحانية ، المبنية على ضرورة عدم الاخلاء ، كقدح العدل وقدح الجور ، وغيرها من آلات الشراب ، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات » ويبدو جليا ، أن أكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل المبنية على المبادىء الميكانيكية المنسوبة لهيرون الاسكندري وغيره من علماء اليونان(٩) .

ومن المؤكد أن العرب قد أطلوا على هذا العلم منقولا عن اليونانيين وزادوا عليه وطوروه ، ويبرز أبناء موسى بن شاكر (محمد ، أحمد ، الحسن) . كأشهر من كتبوا في هذا الفن(١٠) ، وعلى الأخص ، أحمد بن موسى ، الذي نبغ كعقلية خلاقة مبدعة ، بابتكاراته العديدة التي وصفها بأنها « أوضاع غريبة وأشياء عجيبة في جر الأثقال ، وكلها عملت بالطليات والبكر »(١١) ، فقد اخترع أجهزة تمتلىء تلقائيا كلما فرغت من السوائل ، كدنان الخمر التي تفرغ كمية محدودة من ذاتها تعقبها استراحة محدودة ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل ، ويصب الزيت فيها تلقائيا كلما أتت النار على جزء منها(١٢) ، واخترع أيضا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة ، مثل المعالف المخصصة لحيوانات ذات أحجام خاصة ، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها ، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب ، وآلة أخرى تثبت في الحقول وتصدر أصواتا خاصة ، كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ، لئلا تضيع كميات الماء هدرا ، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات ، وركب نافورات خاصة تندفع مياهها على أشكال مختلفة وصور متباينة(١٣) .

ان الاطلاع على الكتاب الموسوم « بحيل بني موسى » حيث جمعت اختراعات أحمد بن موسى بين التطور الميكانيكي لابداعه(١٤) ، يعطي صورة واضحة

---

(٧) فروخ : عبقرية العرب ٨٨٢

(٨) نفس المرجع السابق ، ٩٦

(٩) الشمس : مقدمة لعلماء الفيزياء في الحضارة العربية الاسلامية ، ٢٣٣ ، وجام الجور : اناء يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيتوهم الشارب انه استوفي ماليه ، أما جام العدل فاذا صب منه فوق المقدار فرغ كل مافيه

(١٠) زيدان : تاريخ ذاب اللغة العربية ، ٣/ ٢٨٦

(١١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ٥/ ٨٥

(١٢) Donald,R. Hill : the Genius of Arab civilization. P.137.

(١٣) مرحبا : المرجع ، ٣٥٣

(١٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

لتقدم علم الميكانيك عند العرب . وعلى أي حال ، فيمكن أن نقسم المؤلفات العربية في الحيل الى قسمين :

الأول : يبحث في مراكز الأثقال وجر الأجسام بالقوة اليسيرة .

والثاني : يبحث في آلات الحركات ، وصنعة الأواني العجيبة ، وآلات هذه الصناعة .

أما مركز الثقل عندهم « فهو العلم الذي يتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحور باعتباره حدا في الجسم ، يتعادل نسبيا مع الحامل » ، وممن ألف فيه أبو سهل الكوهي ، ونظريته مثبتة رياضيا(١٥) . وقد أدى بهم التعمق في دراسة مركز الثقل الى الاهتمام بالموازين درسا وصنعا وتأليفا ، اذ يعتبرون العمل بالميزان من عجائب النسبة . وكان أن وضع ثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م أبحاثا في صفة استواء الميزان والوزن واختلافه وشرائطه ، ففي كتابه (القرسطون ـ القبان) . أتى بنظرية ، تعتبر من أهم نظريات العصور الوسطى ، وملخصها « ان الرافع يمكث في حالة الاتزان ، اذا وضعنا على أحد ذراعيه عمودا ثقيلا ممتدا على أحد ذراعي العمود ، ثم استبدلنا هذا العمود بثقل ، وزنه مساو لثقل العمود ووضعناه على نصف المسافة التي كان العمود ممتدا عليها وهذه النظرية تقترب من حساب التفاضل والتكامل في عصرنا .

اهتم العرب بدراسة الموازين ، فاخترعوا أدقها ، واستعملوا لموازينهم أوزانا منوعة دقيقة ، وكان الفرق بينها لا يصل الى ٠,٠٠٤ ، وهذه النسبة الدقيقة لا يمكن الوصول اليها الا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة في صناديق من زجاج ، لا تؤثر فيها تموجات الهواء .

ومن الذين ألفوا في الميزان بالاضافة الى أبناء موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، برز أبوسهل الكوهي ، والفارابي ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا والحسن بن الهيثم ، وابن جامع والجلدكي . ويعتبر كتاب عبدالرحمن بن نصر المصري ، أحسن ما وضع في العصر الأيوبي ، فقد أعده للمحتسب لمراقبة الأسواق أيام صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر أن كتاب « الميزان الطبيعي » الذي صنفه الرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، يحظى بمنزلة مرموقة في تقديرنا ؛ فهو أول كتاب استقل في نهجه عن أبحاث اليونان في علم الميزان ، فقد خالف في صنعته وعمله قرسطون أرشميدس ، فهو يستعمله والكفتان خارجتان عن الماء ، وكلتاهما مملوءتان مترعتان ، ونقصان الماء من كل كفة منها بقدر مساحة الجرم الذي فيهما بينما أرشميدس يستعمل الكفتين وكلتاهما في الماء غائصتان ، وهو ذو شعيرات(١٦) . وقد جعل الرازي فصوله الثلاث تشتمل على :

- في العمل بالميزان .
- بيان الميزان الطبيعي .
- وضع شعيرات النسبة عليه(١٧) .

---

(١٥) القلقشندي : صبح الاعشي ، ١/ ٤٧٦

(١٦) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩٠

(١٧) الخازني : ميزان الحكمة ، ٨٣

أما كتاب « ميزان الحكمة » الذي وضعه عبدالرحمن الخازني ، فهو من الكتب المعتبرة في علم الطبيعة ، بل وأهم ما ألف في (mecanique) علم الميكانيكا والحيل وموازنة السوائل ، اذ يشتمل على نظرية الثقل والكثافة ونظرية الروافع ، وتطبيقات للميزان ، وطرق لقياس الزمن ، ويضاف الى ذلك ، أنه من أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا . ومن دراستنا لكتاب ميزان الحكمة ، نرجح أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لحساب الوزن النوعي ، وأخرى لقياس حرارة السوائل(١٨) بل أنه ضمن كتابه مصورا لآلة مركبة من عدة أعضاء ، وبها خمس كفات توزن بها الأشياء في الهواء والرطوبات ، وتتحرك على ذراع واحد(١٩) .

ومن ناحية ثانية ، فقد كان للعرب بحوث نفيسة في الروافع ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، ومع أن فضل اليونان لا ينكر في هذا المجال ، وخاصة ايرن الا أن العرب ابتدعوا روافع سهلة العمل ، قليلة التعقيد ، وكتاب « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » للجزري ضم صورا عدة لتلك الروافع وشرح طريقة عملها . وتفوق على ما سواه ، وليس معنى ذلك أنه الكتاب الوحيد في هذا المجال ، فقد صمم أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥١٢/ ١١٣٤هـ آلات بأشكال هندسية ، واستعملها لرفع الأثقال(٢٠) وهناك آلات بسيطة جعلت لجر الأجسام بالقوة اليسيرة ، شرحها الخوارزمي في كتابه ، مفاتيح العلوم ، ومنها البرطيس والمخل والبيرم وأبوخليون والثقل واسقاطولي والأسفين واللولب وغالاغرا (معصرة للزياتين) . كلها تعتمد على نقط الارتكاز والمحاور بعد الضغط عليها من الطرف الآخر(٢١) .

في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة :

ونعني بها الآلات والأواني التي ابتكرها العلماء العرب للمنفعة العامة كتدبير المنزل أو آلات الحرب والري والآلات الفلكية والساعات أو للتسلية كالدمى التي تتحرك وحدها أو التي تكشف حيل المشعوذين ، وتقوم هذه الآلات على الحركات الميكانيكية الناتجة من ذات الآلة ومن الماء أومن الرمل ، وكنا قد أشرنا الى تفوق بني موسى ، وخاصة أحمد في هذا المجال ، ونوهنا بأهمية آلاته التي جاوزت المائة ، وعظيم فائدتها في دفع العلم الميكانيكي .

وبالاضافة الى كتاب حيل بني موسى ، فان هناك مجموعة من المؤلفات عُنيت بوصف الآلات الميكانيكية ، وأعطت رسوما توضيحية ، تبين طريقة صنعها وكيفية عملها ولعل من أهمها كتاب « الحيل أو الجامع بين العلم والعمل » لأبي العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م . وقد أولى فيه بديع الزمان الجزري اهتماما خاصا بالمسائل العملية لعلم الهيدروليكا والآلات المتحركة بذاتها(٢٢) ، وقد ألفه للملك الصالح محمد بن قرا أرسلان من آل أرتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن ٦هـ بعد عمله في بلاط بني أرتق قرابة ٢٥ سنة ، وحوى الكتاب صورا للبنكام الذي يعرف به ما مضى من ساعات النهار ،

---

(١٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥

(١٩) ماجد الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١ - ٤٢

(٢٠) مجلة تاريخ العلوم العربية ، حلب ، السنة الاولى ، العدد الاول ، ١٩٧٧ ص٥٦

(٢١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢

(٢٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥ ، مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ع١ ص٥٦

وصورا لآلات رفع الماء ، وآلات سرية تظهر حركات مدهشة ، كرجل يدق ساعة أو رجل يمشي أو يتحرك ، ورسوما ايضاحية لتركيب الدمى وحركاتها وأشكالها كما أن الكتاب يعد مرجعا هاما لدراسة الساعات عند العرب ، وطرق صنعها وعملها(٢٣) .

ووضع عبدالرحمن الخازني ت ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، كتابا في الآلات العجيبة تعرض فيه لعمل آلات الرصد ، وعرف فيه أيضا علم الهيئة ، وكانت تلك الدراسات هي التي مهدت لاختراع البارومتر .

وكان البيروني ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م قد ذكر في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بعضا من الآلات ، ووصف طريقة عملها ، وخاصة آلات رفع المياه الجوفية من الآبار والعيون ، ومن المعلوم أن للبيروني دراسات مهمة في السوائل والمطر والسحاب والضباب والثقل النوعي ، وتشكل المياه في باطن الأرض وغيرها .

وصنف مجهول لعله أبوعامر (أحمد الأندلسي) ، كتاب « الباهر في عجائب الحيل » ويعرف أيضا « بكتاب الباهر في النارنجات » ، وصف فيه أنواعا من الدمى تتحرك بما يشبه أعمال الحواة ، قصد به الكشف عن حيل بعض المشعوذين ، كادخال البيضة في الزجاجة ، وألعاب الأقداح واخفاء الخواتيم وغيرها(٢٤) .

وعقد الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » فصولا لصناعة الحيل ، وأفرد فصلا خاصا سماه « في حيل الماء وصنعة الأواني العجيبة »(٢٥) ، هذا بالاضافة الى المؤلفات التي بحثت في الساعات وعملها ، وآلات الحرب التي ترمي البندق وغيرها . أما تقي الدين الراصد ت ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م ، فقد كان كتابه « الطرق السنية في الآلات الروحانية » اجمالا لهذه الآلات وأشكالها وأنواعها(٢٦) .

وأخيرا فقد نشر المستشرق الفرنسي كارا دي فو كتابا عربيا في الميكانيكيات « الحيل الروحانية مخانيقا الماء » ويعتقد أنه لفيلون(٢٧) ، وهو مفقود باليونانية الا أنه محفوظ بنصه العربي ، كما أن قسما صغيرا منه موجود باللاتينية نقلا عن النص العربي ، وقام Valentin Rose بنشر النص اللاتيني في Anecdota graeca et graecolatina الصفحات ٢٨١ - ٣١٤م ، برلين ١٨٧٠م . ثم أعاد Wilhelm Schmidt طبعه De ingenis Spiritualibus وباللاتينية والألمانية ، وبارون كارا دوفو باللغة العربية والفرنسية .

Le Livre des appareils pneumatiques et des machines hydrauliques, Notices et extraits de MSS de la Bibliotheque Nationale, 38,211,pp,paris, 1092.

ومن هذه الآلات التي ابتدعها العلماء العرب ما يلي :

ـ آلات بني موسى للتدبير المنزلي ، مثل المعالف والمشارب وخزانات الحمامات ، ودنان الخمر التي

---

(٢٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣/ ٢٧٤

(٢٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢٥) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣ ـ١٤٥

(٢٦) توجد نسخة من المخطوطة في جستربيتي تحت رقم ٥٢٩٢ اشار اليها حسن الحسن في كتابه عن تقي الدين الراصد

(٢٧) مجلة المشرق ، السنة السابعة ص ٢٦٥

تسكب القليل ثم تنقطع فترة ، والقناديل التي ترتفع فتايلها وزيتها تلقائيا ، وآلات مرصد سامراء ، ذات الشكل الدائري ، والتي تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات ، وتدار بقوة مائية(٢٨) ، واذ كلما غاب نجم من السماء ، اختفت صورته من الآلة ، وهذا يتطلب معرفة دقيقة في علم الفلك ، ومهارة فائقة في علم الميكانيكيا تتميز بالخيال الخصب والأفكار العلمية التي تبرز منها الدقة والتعمق والموضوعية العلمية(٢٩) .

ومن الجدير بالذكر ، أن ابتكار الأدوات الفلكية ، كان فنا متقدما عند علماء الفلك العرب ، وقد أدت آلاتهم الفلكية الغرض المرجو منها ، مما أوجب الاستمرار في استعمال بعضها حتى في عصرنا الحديث ، كآلة السدس والربع والاسطرلاب وغيرها .

ـ آلات رفع الماء : الروافع والنواعير

ومن هذه الروافع ، آلات ترفع من غمرة وبئر ليست بعميقة ونهر جار ، وآلات ترفع من ماء من غمرة الى مكان مرتفع بدابة تدير سهما ، وروافع للماء من غمرة أو بئر تديرها دابة ، وآلات أخرى في بركة ، وسطها عمود مجوف ، عليه قرص ، يعلوه تمثال بقرة تدير دولابا بأربعة وغيرها من الآلات ، ومن أشهرها مضخة ابن الرزاز الجزري ، والتي تعد الجد الأقرب للآلة البخارية(٣٠) .

وعلى الأنهار ركبوا النواعير ، وقد عرف بها قيصر بن أبي القاسم عبدالغني بن مسافر (علم الدين الحنفي) ٥٦٤هـ ـ ٦٤٩هـ/ ١١٦٨ ـ ١٢٥١م . حيث ارتبط اسمه « بفن السواقي » وكان علم الدين الحنفي قد خدم أمير حماة ، وأنشأ له النواعير على نهر العاصي(٣١) .

وامتدت ابتكاراتهم الى صنع الأواني العجيبة ، أي الأوعية الصغيرة التي تدخل في الأعمال المخبرية ، كالأنابيب الزجاجية والبواتق والدوارق ، وأدوات الرفع البسيط وغيرها . فالرازي ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، مثلا يصف ما يزيد على عشرين جهازا ، منها الزجاجي ، ومنها المعدني(٣٢) .

ومن ناحية ثانية ، فقد وصف الخوارزمي ، صنعة الأواني العجيبة التي تتحرك بحيل الماء ، كالاجانة التي توضع فوق الماء ، وتعلق بها خيوط ، كما تعلق بكفة الميزان ، وتشد بتلك الخيوط الأجسام التي يراد حركتها ، فكلما امتلأت الاجانة ، رسبت في الماء ، وجرت الخيوط ، وما يتعلق بها ، فيحدث لذلك حركة تختلف أشكالها بالمراد منها(٣٣) . ومن هذه الأدوات والأواني التي وصفها الخوارزمي تذكر ، الأواني السحارة ، والسحارة المخنوقة التي تعمل في جام العدل ، والكوز المغربل السفل ، والبيثون ، والمليار أو الميناز ، (اناء كبير يسخن فيه الماء) وسرن الرحى ، وبركار السرن ، والقطارات ، الحنانات (آلات تعمل فتحن مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره

---

(٢٨) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من العلماء ، ٥/ ٢٤٠

(٢٩)حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩١

(٣٠) مجلة تاريخ العلوم ، حلب ، العدد الأول ، ٥٦

(٣١) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٦ ، حكمت نجيب : دراسات ، ٢٩١ ، ولقد وردت نماذج لوسائل الري التي استخدمت في السادس ـ٨هـ في كتاب The Genius of AraB CIVILIZATION PP.181.184. ومنها مقياس النيل عند الروضة

(٣٢) ماجد الشمس : مقدمة العلم ، ٤١

(٣٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣

والنضاحات والفوارات ، والمقاط القلس والشاقول)(٣٤) .

وهناك نوع من هذه الأواني تكون على هيئة الأنابيب والبرابخ ـ أنابيب الفخار والقنوات ـ ومنها ، المي دزد (سارق الشراب) ، وهو اناء يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيىء فيوهم الشارب أنه استوفى ما فيه ويسمى جام الجود وضده جام العدل ، لأنه اذا زيد فيه شيء يفوق المقدار ، انصب ما فيه كله(٣٥) ، وكذلك المهندم ، وباب مطحون وباب المدفع (المستق) وآلة الدبة ، وهي آلة من نحاس أو غيره مجوفة ولا متنفس بها البتة ، وتوضع في سطل أو نحوه ، ثم يصب في السطل ماء صبا رقيقا ، فكلما ازداد الماء ، طفت تلك الآلة ، ورفعت ما يتعلق بها من الأجسام فيحدث لذلك حركات(٣٦) ..

واستفاد بعض العلماء العرب من الرمل والخردل والجاورس في صنع آلات بحيل بدل الماء ، وتقوم على أنابيب بربخية ، فوقها قطع من الرصاص المشدود بخيط معلق عليه ما يحتاج الى تحريكه ، ويتلخص عمله بأنه كلما تناقص الرمل أو الجاورس تحرك الرصاص الى الأسفل وحرك الخيط وما هو متصل به ومن جهة أخرى ، فقد نشأ علم خاص يسمى « علم الآلات الحربية » وهو علم « يعرف منه كيفية اتخاذ الآلات الحربية ، مثل المنجنيقات والعرادات والخنزيرات والسهام والأسطام وشمل أيضا ، رمي القوس والبندق»(٣٧) وعد من فروع علم الهندسة . وقد نجحت العديد من المكتبات العربية والأجنبية باقتناء العديد من المؤلفات التي تشرح كيفية صنع المجانيق والأقواس والبندق وما اليها ، وكان كتاب « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاستواء » ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء « لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوي ت ٥٨٩هـ » ، نشره كلود كاهن بيروت ، ١٩٤٨ ، من أهم كتب الحروب ، فقد وصف فيه طرق صنع السيوف ، والأقواس والرماح والتراس والدروع والجواشن واللتت والأعمدة والدبابيس والمنجنيقات العربية والفارسية والرومية (الفرنجية) . وطرق صنع الدبابات والأبراج والستائر والمثلثات والنفوط وخاصة النفط الذي يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

ان صنع الساعات والعمل بها ، كان من أهم ما عرفه العرب في علم الميكانيكا ونظرا لأهميته ، فأرى أن نفرد لها مكانا في هذا البحث .

الساعات العربية :

يعتقد بعض العلماء أن الاشارة التي وردت في سفر اشعيا « بان الظل رجع على درج آحاز عشر درجات » انما قصد بها الساعة الشمسية المعروفة بالمزولة والتي تقوم فكرتها على تقدير الوقت بحسب اتجاه الظل ، فينُصب جسم مواز لمحور الأرض على سطح مستو ، قد رسمت عليه الزوايا المطابقة للساعات ، واذ يقع ظل الجسم عليها ، يحدد الوقت بموجبه(٣٨) .

---

(٣٤) لتوضيح عمل هذه الآلات انظر المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣٦) المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٢٥

(٣٨) مجلة المقتطف ، المجلد ٧٠/ ١٥٩ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢٤٣ ، سارتون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٤٦

ونحن وان كنا لا نميل لمعالجة تطور صناعة الساعات والعمل بها عند الأمم الأخرى ، كالكلدان واليونان لخروجه عن مظان بحثنا ، غير أن حساب الزمن وفق النظام السومري - البابلي لا يزال قائما ، ثم ان الكتاب التاسع لفترفيوس قد عني بالمزاول أو الساعات المائية ، ولم يُعثر على نص يوناني لكتاب فيلون « في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » الا بالعربية ، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديده من جهة ، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى(٣٩) .

وفي رأينا ، أن ذاك التطور الذي وصل اليه عرب الأنباط والحضر وتدمر والحيرة ، لا يمكن أن يتم دون الالتفات لعنصر الزمن ، اذ لا يعقل أنهم بلغوا مستوى حضاريا متقدما بلا معرفة متقدمة عن الساعات وتقسيم الزمن ، سيما وأنهم اهتموا بالأرصاد الفلكية ، هذا بالأضافة الى أن عبادة الأجرام السماوية كانت جزءا من عبادة الصائبة . وما يهمنا هو التأكيد على اهتمام عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية ، فالزراعة فرضت عليهم الالتفات الى تقلبات الجو ، كما أن الأعياد وأمور العبادة ، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتمادا على الفلك والنجوم والأنواء ، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة ، مكن عرب الجاهلية من تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين ، باسم خاص ، فساعات النهار هي الذرور والبزوغ والضحى والغزالة والهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصبوب ، والحدود والغروب ، وساعات الليل هي ، الشاهد والغسق والعتمة والفحمة والموهن والقطع والجوشن والعبكة والتباشير والفجر الأول والمعترض والأسفار(٤٠) ومع أن هناك أسماء أخرى فرضتها اختلاف البيئات القبلية وأسباب موضوعية أخرى ، الا أنها لا تخرج في معناها عن المشار اليها ، وأطلق عرب الجاهلية على من يعمل بالساعات هذه من غير رجال المعابد ، اسم « المساوعة »(٤١) ، وهذه دلالة أخرى على اهتمامهم بالوقت وتحديده .

وفي صدر الاسلام ، كان تحديد مواقيت الصلاة يتم بحركة الشمس اليومية اليوم يبدأ عندهم بصلاة المغرب ، وذلك بعد غروب الشمس ، والعشاء عند اختفاء الشفق الأعلى ، والفجر تبدأ بظهور الفجر ، أما الظهر ، فعندما تبدأ الشمس في انخفاضها بعد عبورها خط الزوال ، وصلاة العصر ، تحل عندما يساوي طول ظل أي قائم ظله عند الظهر ، مضافا اليه طول القائم ، وكانت معرفة الوقت من الأمور التي يتوجب على كل مسلم معرفتها ، حتى أن شاعرهم يقول :

ولا خير ، فيمن كان بالوقت جاهلا
ولم يك ذا علم بما يتعبد(٤٢)

وقد أجمل أحدهم ضبط الوقت بهذه الأبيات ، ولعلها لابن يونس المصري

ومعرفة الأوقات فرض معين
على عقلاء المسلمين مؤكد
أتى ذاك في القرآن ياصاح مجملا
وفسره خير البرية أحمد

---

(٣٩) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨/ ٤٦٩ ، ابن سيده : المخصص ، ٩/ ٤٤

(٤٠) ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ، مقالة ، علم الميقات لداليدكنج ، ٣٩١

(٤١) نفس المرجع السابق ، ٣٩٢

(٤٢) الشمس : مقدمة ، ٣٦ ، ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء ، ٤٨٣

فمهما رأيت الظل قد زاد فيئه
فصل صلاة الظهر اذ ذاك يرصد
وزد قامة ظل الزوال فانه
أوان لوقت العصر محدد
وعند غروب الشمس قم صل مغربا
فليس لها وقت سوى ذاك مفرد
وصل العشاء وأنت للجو ناظر
اذا الشفق الأعلى يغيب ويفقد(٤٣)

ومما يجدر ذكره أن العرب قد أقاموا الساعات في المساجد والمدارس ومعاهد العلم ، وعينوا لها المهندسين للاشراف عليها والعناية بها ، وكان من مهام المؤذن أن يكون خبيرا بتحديد أوقات الصلاة ، وألفوا في الميقات والموقتين والساعاتيين بالجوامع والمدارس ، واتخذت مؤلفاتهم أشكالا عدة ، فمنها :

مؤلفات في الساعة الشمسية « أو المزولة » :

كانت الساعة الشمسية ، النقالة ، أكثر اختراعاتهم أصالة وفنا ، وهي المسماه « ساعة الرحلة » ، لا سيما بعد أن أصبحت دائرية الشكل ، وجعلوا بوسطها محورا لتحديد موضع الشمس والوقت ، ومن الساعات الشمسية العربية ما عرف « بالرخامة » وهذا النوع من الساعات كثرت المؤلفات العربية فيه ، فثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م ، وضع كتابا في آلات الساعات التي تسمى رخامات(٤٤) وللخوارزمي ٢٣٢هـ ، كتاب « الرخامة »(٤٥) ، ولحبش بن عبدالله المروزي ت ٢٢٠هـ كتاب الرخائم ، ولمحمد بن كثير الفرغاني كان « حيا سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م » « عمل الرخامات »(٤٦) ، وألف أبوعبدالله الشلوي ، كتابا « في الرخامة المنحرفة وكتابا آخر في الرخامة المستطيلة »(٤٧) . ولابراهيم بن محمد بن حبيب البغدادي ت ١٨٨هـ كتاب « مقياس » ويذكر أنه لا تزال هناك ساعتان شمسيتان ، الأولى في متحف طوب قابي في اسطنبول على شكل ربع كرة ، قسم تجويفها الى اثنى عشر قسما ، ومحمولة على قاعدة من نفس المادة وفي سجلها ، أنها حملت من مدائن صالح ، مما يؤكد ما ذهبنا اليه أن عرب الجاهلية قد عرفوا العناية بالوقت ، والأخرى بجوار الغريقة ، بجامع القرويين بالمغرب ، صنعها (المعدل) محمد بن عمر ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م ، وأضاف مؤلف جامع القرويين ان هناك أربع ساعات من هذا النوع تلاشت جلها اليوم ، كما أن هناك واحدة أخرى بأعلى الصومعة(٤٨) . وحيث أن هذا النوع لا يدخل ضمن علم الحيل ، فاننا نكتفي بهذه العجالة فيه ، أما النوع الآخر من تأليف الساعات ، والذي قام أساسا على « علم الحيل في الماء » أو ميكانيكا الماء ، ونبغ فيها العديد من العلماء العرب فندرجها تحت عنوان التآليف في الساعات المائية .

مؤلفات في ساعات الماء :

اقتصرت الفائدة في استعمال الساعة المزولة على أيام الصحو ، أما في أيام الغيم والمطر فقد تعذر استعمالها ،

---

(٤٣) ابحاث الندوة العالمية الاولى ، ٣٩٢

(٤٤) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٧ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٥١/٢ ، البغدادي : هدية العارفين ، ٦/١

(٤٥) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، ٤٠٣

(٤٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٢/٥

(٤٧) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، الشمس : مقدمة ، ٣٦

(٤٨) التازي : جامع القرويين ، ٣٤٧/٢

لأنها تقوم أساسا على الظل ، ولهذا اضطر العلماء الى استنباط الساعة المائية لحل المشكلة الوقتية ، وبدأت بسيطة بوعاء صنع من مواد مختلفة وبأشكال متعددة ، يصب فيه الماء وينفذ الى وعاء آخر بقدر ، ليقيس الوقت بمقدار ما ينساب من الماء بوحدات زمنية اصطلاحية(٤٩) ومن ثم زيد منها دولاب أو أكثر يدور بتناقص الماء في الوعاء ، فيدير عقربا على ميناء فتعرف الساعة(٥٠) بذلك .

ولعل من معترض يرى أن الساعة المائية ما كانت الا تطويرا لتلك التي كانت موجودة عند الكلدان والهنود واليونان . وفي تقديرنا أن الساعة الكلدانية المائية الهندية واليونانية ، لم تختلف كثيرا عن الساعة الرملية مع فارق ابدال الرمل بالماء ، وكان القصد منها تعيين فترة للقيام بعمل معين ، دون الأخذ بعين الاعتبار زمنا محدودا ، فالخطيب مثلا كان يمنح مهلة للكلام ، تنقضي بفراغ محتويات قارورة من سعة معينة ، بقطع النظر عن سرعة التفريغ ، اذ لم تحفل بالتدرج وحتى لم تربطه بزمن معين(٥١) .

وليس معنى هذا أن الأمم السابقة لم تعرف الساعة المائية الميكانيكية ، فقد ذهب سارطون الى أن كتسيبيوس قد اخترع ضاغطة وأرغنا مائيا وساعة مائية ، كما أنه استخدم الماء في القوى الضاغطة ، وتحكم في ذبذبات الهواء لاخراج أصوات معينة ، ويكون بذلك قد أدرك الحاجة الرئيسية للاسطوانة والكباس والصمام ، وأدخل فيلون البيزنطي بعض التحسينات على نماذج تلك الساعة(٥٢) غير أن العلماء العرب قد ارتقوا بهذه الفكرة البسيطة ، ليدخلوها ضمن عمليات رياضية منظمة منسقة أساسها الاستفادة المثلى من مكتشفاتهم في علم الحيل ، حتى اذا ما وصلت هذه الاستفادة مرحلة متقدمة ، جعلوها علما ، فنقرأ في كشف الظنون(٥٣) ، تعريفات لعلم البنكامات ولعلم آلات الساعة ، وعلم البنكامات عندهم يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية وذلك بآلات يُقدر بها الزمن ، وموضوعه « حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة ، تنقضي بقطع مسافات مخصوصة ، وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها ، دون ملاحظة حركات الكواكب ، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل ، تهجدا أو للنظر في تدابير الدول ، والتأمل في الكتب والصكوك والخرائط المنضبط بها أحوال المملكة والرعايا واستمداده من الرياضة والطبيعة » أما علم آلات الساعات ، فيبحث في الصناديق والضوارب وأمثال ذلك .

كان هذا يجري في الوقت الذي اتهم فيه البابا سلفستر الثاني بأخذه السحر ، واستعانته بقوة الشيطان ، بعد صنعه ساعة في مدينة كلدبرج ٣٥٦هـ/ ٩٩٦م ، تدور بثقل دواليب(٥٤) ، ولا ندري ان كان سلفستر قد بنى ساعته على نمط تلك الساعة التي قيل أن هارون الرشيد قد أهداها ١٩٢هـ/ ٨٠٧م الى شارلمان ، وقد أغرب واصفوها غاية الاغراب في وصفها ، حيث أورثت رجال الدين حيرة وذهولا ،

---

(٤٩) الشمس : مقدمة ، ٤٥

(٥٠) مجلة المقتطف ، م ٧٠ص ١٦٠

(٥١) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٧

(٥٢) سارطون : تاريخ العلم ، ٥/ ٢٣٦

(٥٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٤٧ ، ٢٠٠

(٥٤) الشطي : مجموعة ابحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية ، ١٩ .

ويبدو أن تلك الساعة كانت مائية ، صنعت من نحاس مذهب ولها في وجهها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، وكلما مضت ساعة فتح باب وسقطت منها كرات معدنية ، تقع على جرس ، فيقرع بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة تفتح الأبواب الاثنا عشر ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيول تدور على الصفيحة ، ثم تدخل وتغلق الأبواب وراءها .

ونحن وان كنا نشك في وجود مثل تلك الساعة في ذاك الوقت ، لاننا لم نعثر على أية اشارة في المصادر العربية التي اطلعنا عليها ، وذهب بارتولد في بحثه عن تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، الى أن سفارة هارون الرشيد التي أنيطت بها مهمة السفر لمقابلة شارلمان ، ومعها الساعة والمفاتيح ليست الا من وضع اسحق اليهودي لتحقيق أهداف سياسية أصبحت اليوم معروفة ، ومهما كانت التحليلات والدراسات ، فان ايراد الخبر في المراجع الأوربية فيه اقرار أوربي ضمني ، بأن العرب قد بلغوا شأوا في صناعة وعمل الساعات منذ فترة مبكرة (عصر هارون الرشيد) ، وبالتالي تقدم علم الحيل عندهم (٥٥) ، ومما يجدر ذكره ، أن العرب أطلقوا على الساعة المائية عدة تسميات ، مثل ، ميقاتية ، بنكام ، فنكان ، فنجانة ، منجاتة ، القطان .

ولعل أبا يوسف الكندي ت ٢٤٦ هـ / ٨٧٣ م ، كان أول من ألف رسالة في عمل ساعات مائية على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق ، خير من غيرها (٥٦) ومبعث شكنا ما ذكره الجاحظ « ان المسلمين كانوا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المكبات (٥٧) ولهم بالنهار ظل يعرفون به ما مضى من النهار ، وما بقي ، وأضاف « ورأيناهم يتفقدون المطالع والمجاري (٥٨) ، فهلا عرف أو سمع الجاحظ برسالة الكندي وهو المنقب الدؤوب ، أو أنها أي صنعة الساعة التي وصفها الكندي لم تكن منتشرة ، واستمر الناس يعرفون الأوقات بالمطالع والمجاري الفلكية .

وكان مؤلف أبي عبدالله الخوارزمي ، (كان حيا ٣٨٠ هـ / ٩٧٦ م) . وما فيه من وصف الساعات المائية ، كآلة النوبة والفيل وصندوق الساعات وغيرها ، أكثر توضيحا من المؤلفات السابقة (٥٩) .

يبدو أن التقدم الفعلي لصناعة الساعات والعمل بها قد تم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن الهجرية ، اذ وردت إشارات لمؤلفات في الساعات وصناعاتها ، وتخصص عدد من المهندسين في صنع الساعات وآلاتها ومنهم ، علي بن تغلب (ثعلب) بن أبي البيضاء ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وينسب اليه تدبير الساعات على أبواب المدرسة المستنصرية في بغداد ، وقيل أنه هو الذي صنعها (٦٠) .

محمد بن رستم الساعاتي ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في زمن نور الدين ، محمود بن زنكي ، وكانت

---

(٥٥) مجلة المقتطف ، مجلد ٧٠/ ١٦٠ ومجلة الرسالة : الساعات العربية لاحمد دهمان ، عدد سنة ١٩٣٦ ٢/ ٦٧٤

(٥٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٦/ ٥٤٠ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٣٢

(٥٧) ماجد الشمس : مقدمة ، ١١٧ ، المكبات (ج مكبة) ، وهو مايلف عليه الغزل او الخيط

(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ٢/ ١٠٧

(٥٩) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢ - ١٤٦ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥١

(٦٠) الرسالة : ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، ٦٧٤ ، ناجي معروف : تاريخ معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٥

له الأنعام الكثيرة من السلطان ، وقيل أنه هو الذي صنع الساعة على باب جيرون (٦١) .

رضوان بن محمد رستم الساعاتي ت ٦٢٠ هـ/١٢٢١م ، وقد استوزره الملك الفائز ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وقيل أنه بعد وفاة والده المشار اليه سابقا انتدب ابن النقاش (لعله محمد بن الحسين بن محمد التنوخي) ، لاصلاح خلل وقع في ساعات المسجد فزادها خرابا ، فعهد الى رضوان ، فأصلحها ، ومنها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشموس والسيارات ، وقام رضوان أيضا بتحسين ساعات أبيه ، ووضع كتابا شرح فيه « علم الساعات والعمل بها » بالتفصيل والدقة ، صور كل قطعة منها وسماها باسمها ، ووصف مكانها وعملها ، ومن الكتاب نسخة دار الكتب والوثائق القومية في جملة كتب زكي باشا ، منقولة من مكتبة كوبرلي (٦٢) .

أبو عبدالله القيسراني : وهو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، أصله من حلب ، ومولده بعكا ووفاته بدمشق ، وقد تولى الاشراف على ساعات باب جيرون بالجامع الأموي ، ثم خزانة الكتب ، وكانت بينه وبين ابن منير الشاعر الطرابلسي مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وقد أورد صاحب مرآة الزمان خبر انتقال ابن القيسراني من الساحل الفلسطيني الى حلب (٦٣) . .

- محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م . وهو عالم بالهندسة والطب ، تعد حياته نادرة من نوادر الدهر ، تجلى فيها النبوغ ، فقد عمل نحاتا ثم نجارا ، وقرأ الهندسة والرياضيات ، واشتغل بالفلك وعمل الأزياج ، ثم انقطع للطب ، وفي زمنه تخربت ساعات المسجد الأموي ، فأصلحها وكان له في دمشق عطاءان ، أحدهما من طبه في البيمارستان الكبير ، والثاني من تفقده لاصلاح ساعات المسجد الأموي ، ومن مؤلفاته :

- رسالة في معرفة رسم التقويم .
- مقالة في رؤية الهلال (٦٤) ـ

- أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، نبغ في حوالي سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م ، وكنا قد أشرنا اليه سابقا ، ولكنا نضيف بأن كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » يعد من أهم المؤلفات العربية في صناعة الساعات المائية بصفة خاصة ، وآلات الحيل بصفة عامة ، ولا أدل على أهميته من استعراض الأبحاث التي كتبت عن ابن الرزاز ، وكان الدوميلي وجورج سارطون وفيدمان وهاوز قد درسوه ، أما المقالات والأبحاث والكتب التي تناولت أعمال ابن الرزاز الجزري فأهمها :

Carra de vaux, Note Sur Les mecaniques de bedi ez-zar el- Djazari et sur un appareil -d'hydraul attribue a Appollonius de Perge (Congress d'historire de Paris, 5 section, 122-12. H.Suter:Mathematiker (137 — 226) 1900.

---

(٦١) الشمعي : مقدمة ، ٥٤ ـ ٥٥ ، مجلة الرسالة (١٩٣٦) ، ٢/ ٦٧٢

(٦٢) النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس ، ٢/ ٣٨٨ ، ياقوت : معجم الادباء ، ٤/ ٢١١

(٦٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة ، ٢/ ٢٧٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨/٢١٣ ، محمود ابراهيم : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ٢٩

(٦٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤/ ١٥

E, Weidmann: Beitrage 3 (Sitzung sberichte, Er Langen. Vol, 37, 259, 262, 1905)

A.C.Coomaras: Treatise of al-Jazari on Automa

Leaves from aMS of Kitab fi ma arifat (21p. 8pi., Boston, 1924).

Creswell : Yearbook of oriental art and culture, A.C.Coomaraswamy: Early Arabic and Islamic Persian Paintings (Museum of fine Art Bulletin, 45 — 52, Boston, 1922).

هناك كتاب دونالد هل

The book of Knowldge of Ingenious Mechanical De Boston, U.S.A. Printed in Nether Land. (٦٥)

ابن الشاطر ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

وهو أبو الحسن ، علاء الدين ، علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري الدمشقي ، وكان قد تعلم صنعة تطعيم العاج ، ومن ثم العلوم الرياضية والفلكية وتولى التوقيت ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي ، وينسب اليه الارتقاء بمستوى صناعة الساعات ، فقد جعل حجمها صغيرة ، سهلة الحمل ، ويمكن تعليقها على الجدران ، ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، وقد وصف ابن العماد الحنبلي (٦٦) اسطرلاب ابن الشاطر ، الذي كان موجودا في منزله داخل باب الفراديس ، بدرب الطيار سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م ، ويتكون من قنطرة طولها نصف أو ثلث ذراع تقريبا ويدور على الدوام من غير ماء ، وبموجب حركات الفلك ، ورتب على أوضاع يعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية ، ونستشف من النص ، أنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الاسطرلاب كساعة ميقاتية صغيرة الحجم ، سهلة الاستعمال ، ولا مائية ، ومن مصنفات ابن الشاطر في هذا المجال ، تسهيل المواقيت في العمل بصندوق المواقيت .

- النفع العام في العمل التام ، بالتام لمواقيت الاسلام (٦٧) .

- عبد العزيز محمد الوقائي المؤيدي : ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م .

وكان يعمل مؤقتا بالجامع المؤيدي ، ومن تصانيفه

- نظم العقود في عمل الساعات على العمود .
- رسالة في دائرة المعدل .
- وسيلة الطلاب في عمل استخراج الأعمال بالحساب (٦٨) .

تقي الدين الراصد : ت ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م

وهو محمد بن أبي الفتح ، محمد بن أحمد بن يوسف الأسدي كان أوسع المهندسين بعد الجزري دراية في عمل الساعات وصنعها ، وانعكست خبرته الواسعة على مؤلفاته ، منها

- الطرق السنية في الآلات الروحانية .
- الكواكب الدرية في البنكامات المائية وهو أهمها ، منه نسخة في مكتبة جامعة Chester deaty

---

(٦٥) النعيمي : الدارس ، ٢/ ٣٧٨ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ٥/ ٣٦٤ ، الصفدي : الوافي ، ٣/ ٢٧٩ الزركلي : الاعلام ، ٦/ ٢١٥

(٦٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٧٢٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٦/ ٢٥٢

(٦٧) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٥٨٣

(٦٨) نفس المرجع السابق ، ٦/ ٢٥٧

- خلاصة الأعمال في مواقيت الأيام والليال .
- الدر المنظوم في حل التقويم .

- ريحانة الروح في رسم الساعة على مستوى السطوح (٦٩) . وفي المغرب ، نشط صانعوا الساعات في عملها على المساجد والمعاهد والمدارس والطرقات العامة ، ومن أهمهم :

- أبو عبدالله - محمد بن الحباك ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، وقد ركب ساعة مائية في مدينة فاس بناء على طلب القاضي ، أبي عبدالله ، محمد بن أبي الصبر ، أيوب بن كنون ، ليعرف الناس أوقات النهار والليل ، سواء في الأيام المشمسة أو الغائمة وخاصة أن الساعة الشمسية والرملية ، لم تعد كافية بعد أن وصلت أخبار الساعة المستنصرية وطريقة صنعها (٧٠) .

محمد بن عبدالله الصنهاجي ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وقد صنع منجاتة جامع القرويين ، أيام أبي سعيد ، عثمان المريني ، وذلك بالتعاون مع محمد بن الصديق القرسطوني ، الذي رسم خطوطها (٧١) .

- محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، وقد قام بتجديد اصلاح المنجاته على وجه متقن ، ومن ثم أدخل استعمال الاسطرلاب فيها ، ومتى طلعت المسطرة ، تعرف أوقات الليل والنهار ، بتحرك خيوط الاسطرلاب والساعة المائية فربط بين الاسطرلاب والساعة المائية بفن متقدم (٧٢) .

- عبد الرحمن بن سليمان الجائي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . وقد صنع ساعة مائية بأمر السلطان أبي سالم ، ابراهيم بن أبي الحسن بن عبد الحق (٧٣) . وهناك فئة من العلماء آثرت أن تبحث في الميقات .

كالحسن بن علي المراكشي ، كان حيا ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وصنف في آلات التقويم وجامع المبادىء والغايات في علم الميقات (٧٤) . ومحمد بن سنان القونوي (المعروف بابن كاتب سنان ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، وقد ألف (تحفة الفقراء في علم الميقات) وابن أبي الخير ، محمد بن عموش الرشيدي الميقاتي ت ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ، ألف « النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج اليها في علم الميقات ، وأخيرا نذكر أحمد بن عبد الرحمن ، الواعظ بجامع بني أمية ، وقد ألف كتابه « هدية المشتاق لمعرفة الأوقات في جميع الآفاق ، ولا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٧٥٦٤ - علوم أخرى (٧٥) .

وجدير بنا أن نشير الى أن العرب قد أطلقوا على الذين يعملون في الساعات اسم « المهندس » أو « الموقت » أو « المعدل » .

أشهر الساعات المائية في المشرق والمغرب :

يستفاد من اشارة ذكرها ناصر الحسين بن علي القيمري ، الذي أنشأ ساعة على باب المدرسة القيمرية

---

(٦٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٧٠) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢-٣٢٣

(٧١) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢

(٧٢) نفس المرجع السابق ، ٢/ ٣٤٣

(٧٤) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٢٨٦

(٧٥) نفس المرجع السابق ، ح ٦/ ٢٦ ، ٢٢٥

الكبرى ، أن تكاليف بناء الساعات كانت باهظة فقد كلف بناء الساعة المذكورة أربعين ألف درهم (٧٦) ، وهو مبلغ ضخم آنذاك ، وعليه فقد اقتصر بناء الساعات وتركيبها على الأماكن المهمة دون سواها . وفي الحواضر أو المدن الرئيسية ، وفي المساجد والمعاهد والمدارس والساحات العامة الواسعة أحيانا ، وكانت ساعات دمشق ذات شهرة متميزة ، وقد وصلنا وصف لتلك الساعات من خلال ما ذكره ابن جبير ، الذي وصل دمشق سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ووصف الساعات الموجودة في المسجد الأموي وعلى باب جيرون فذكر « عن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد سهم ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين منهما ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها ، وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، ذلك أن القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة تدبر ذلك كله منها ، خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة مجمدة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها » .

ويضيف ابن جبير ، أنه أوكل بها في الغرفة ، متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس « المنجاتة » . (٧٧) .

وهناك ساعة مائية ثانية على باب جامع دمشق القبلي المسمى « باب الزيارة » وهي دائرة بيكار (نصفية) عليها عصافير نحاس ووجه حية من النحاس أيضا ، وغراب فاذا تمت الساعة ، خرجت الحية وصفرت العصافير ، ونعق الغراب ، وسقطت حصاة في الطست ، وهذه الأصوات ليست الا عملية تحكم بذبذبات الهواء بحركات ميكانيكية نتيجة (انتقال الماء وتحريك ما فوقه) (٧٨) .

ومن ناحية ثانية ، قد أشار ابن طولون في حوادث سنة ٨٥٩ هـ الى « احتراق قيسارية الفرنج المعروفة بقيسارية ابن دلامة والتي هي شرق قيسارية ابن المزلق التي على بابها الساعات (٧٩) ، وهذا تأكيد على أن الساعات المائية كانت تنصب على أبواب الأسواق علاوة على المساجد والمدارس .

---

(٧٦) بدران : منادمة الاطلال ، ومسامرة الخيال ، ١٤١

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، ٢٤٣ - ٢٤٤

(٧٨) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٦ ، العدد ٢/ ٦٧٥ .

(٧٩) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ١/ ١١٢

أما في بغداد ، فقد أدهشت ساعة المدرسة المستنصرية ، مهندسي العصر ببراعة هندستها ودقة صنعها ، ولكونها تعمل عملا ميكانيكيا جيدا ، ثم انها في مدرسة ساهمت في النهضة الفكرية الاسلامية ، والمخطوطة رقم ١٣٨٣ تاريخ والمحفوظة في الخزانة التيمورية في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تصفها ، وجاء في وصفها :

« سنة ٦٣٣ هـ ، تكامل بناء الايوان الذي أنشىء قبالة المدرسة المستنصرية وركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه أوقات الصلوات ، وانقضاء الساعة الزمانية نهارا وليلا ، والصندوق عبارة عن دائرة فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطاف ، لها أبواب لطيفة ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءها بندقتان من شبة لا يدركهما الناظر ، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ، وتقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ، وحينئذ تمضي ساعة زمانية . وأن وقعت البندقتان في الطاستين ، فانهما تذهبان الى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائية ، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة ، تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم تبتدىء مع الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة وتقضى الساعات الزمانية ليلا ونهارا ، وتوحد المواليد وحلول الشمس في البروج الاثنى عشر ، وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق ، وهي منقبة جليلة للامام المستنصر بالله (٨٠) .

أما الساعات التي عملت بعد المستنصرية ، فتقوم على دخول كرات رصاصية أو نحاسية الى جوف باز تسقط في وعاء ، فيسمع لها صوت ، وتكون اما بطريقة الضغط المائي . أو برشح من ثقوب صغيرة ، أو بذوبان شمعة فيقل وزنها وترتفع ، وتكون الشمعة مقسمة الى أجزاء متساوية يخترق كل جزء منها في ساعة وعند نهايته كرة من الرصاص أو الشبة وعند ذوبان الشمع عنها تحدث صوتا ، ثم تذهب الى مكانها من ثقب في أسفل الاناء ، أما الأقمار والشموس والنجوم ، فكانت تحدث بتأثير الأضواء من خلفها (٨١) .

وبدت ساعات ابن الرزاز الجزري غاية في التطور واستخدام علم الحيل المائي في عملها . ونستطيع أن نقسمها وفق تطورها الى ثلاثة أنواع :

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ، وفيها سلاسل وموازين وبنادق .

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ولكن بدون سلاسل وموازين وبنادق ، صغيرة الحجم ، قليلة التلف .

- ساعات متطورة كالثابتة ، ولكن يستعمل الشمع فيها بدل الماء ، وحركاتها الميكانيكية بسيطة ، وسهلة الحمل . صغيرة الحجم .

ومن النوع الأول ، اخترع ابن الرزاز .

---

(٨٠) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ٢٨٧ ، القزويني : أثار البلاد واخبار العباد ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ناجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/ ٥٢

(٨١) معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٢/٥٣ ، ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٠ - ٥١

ـ بنكام يعرف منه مضي ساعة زمانية ، وتقوم فكرتها على أحداث حركة في الأبواب ، تحرك البازين ، فتلقى كرات الرصاص ويدق الطبالون وينفخ حملة الأبواق ويضرب الصناجون ، وذلك بحركة انسياب المياه من دستور محكم (حنفية) ، وفي الليل يستعمل ضوء القنديلين يشكل أقمار (٨٢) .

ساعة الطبالين :

طولها (٥) أمتار ، وتتكون من اثنتي عشرة جامة ، أسفلها شرفات وشخص يقطع كل شرفة ، وطائر يلقى البنادق ، وخزان للماء فيه طفافة وحنفية (فيثون) ومخروط عائم يشكلان بابا مطحونا ، لا ينفذ منه الماء الا في حينه ، وعربة ذات سفود ، وتسير بموازاة الجامات لتحريك القماط الساتر للضوء المنبعث من قنديل ، يوقد داخل الساعة . ومكان لحفظ الكرات الساقطة الى فم الطائر ، وبكرة في سقف بيت الساعة ، ويمر عليها الخيط الواصل بين رأس الطفافة وعجلة الميدان ، وكفة الحوض وأنبوب في الكفة يسمح بانسكاب الماء الزائد عن استيعابها ، ودستور منظم لعملية سقوط الماء (٨٣) حركتها على ثلاث مراحل :

عمل أدوات الماء .

عمل العربة ذات الأربع عجلات .

عمل الأجزاء المحركة لأيدي الطبالين والصناج وصوت البواقين .

فهذه الحركات متتابعة ، فهبوط الطفافة ، تجعل عربة الميدان تسير مسافة منتظمة القضيب المرتبط بها احدى الشظايا ، فتسقط بندقة عبر رأس البازي كل ساعة في تقعير الكفة المليئة بماء يعادل ما يسقط ، وميزاب الدستور يؤشر على أول برج السرطان . وحيث أن سقوط الكرة يخل بتوازنها ، فتسكب الماء في الحوض ومنه الى كفات الدولاب حيث تتحرك أيدي الطبالين والصناج ، ثم الى القدر الصغير وهكذا (٨٤) .

ساعة الزورق : وتتكون من زورق فيه ماء وطرجاة تمتلىء وتفرغ ماء كل ساعة وكاتب على سرير بيده قلم ، وطائر يقذف كرات فم ثعبان ، وملخص عملها « ان حركة الكاتب تؤثر على بقية الأجزاء ، فالطائر يقذف كراته الى فم الثعبان التي تنقلها الى صدر الزورق ويسمع لها صوت وترتفع الثعبان . وتكون الحركة في الزورق وأحواضه الداخلية وعمل الكاتب ، وحركة الطائر ورمي البندق ، وحركة السلاسل المحركة لشفرتي الميزاب .

ساعة الفيل : وهي تتفق مع بقية الساعات التي ذكرناها ، الا أن فيها طائرين واحد يلقى البنادق والآخر يصفر عند القائها ، وكاتب وشخص يجلس في الروشن وثعبان وسلاسل تربط بين الأجزاء التي يراد تحريكها وهيئة فيل وفيال ، بيده فأس يضرب بها ومدقة وأثقال وماء طهرجاه وتتم الحركة على عدة مراحل ، فالأجزاء الظاهرة لها حركة منضبطة ، وللفيل والسرير (الحوض) حركة ، بباطن الفيل والفيال ، والأعمدة الأربعة ، والقصر الذي يجلس فيه الكاتب ، وميزاب لكرات ، والرجل الذي في الروشن ، والثعابين والطائر

---

(٨٢) ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٢/٥٣

(٨٣) انظر وصفها وطريقة عملها في مقدمة في علم الميكانيكا في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٩ ، والعدد الأول من مجلة تاريخ العلوم العربية لسنة ١٩٧٧ .

(٨٤) ابن الرزاز : الجامع بين العلم النافع ، ٦١

والقدحان اللذان على كتفي الفيل . كل واحدة من هذه لها حركة تتم بصورة سريعة ومتتابعة كل ساعة . (٨٥) ويلاحظ أن ابن الرزاز كان يسعى دائما لتحسين نوعية ساعاته ، ويحاول التغلب على المشاكل الفنية التي تعترضه ، ليجعلها أكثر قبولا ، فساعاته السابقة ذات طول مرتفع يصل في بعضها الى ٥ أمتار (كساعة الطبالين) . وبعضها معقد وثقيل ، لكثرة السلاسل والموازين والبنادق فيصعب حملها ، هذا بالاضافة الى كثرة تعطلها بسبب انقطاع خيط أو عدم انتظام حركة لسلسلة أو غيرها ، ثم ان هذه الأنواع لا تقيس الا الساعات المستوية ، أي ساعات كاملة صحيحة ، العاشرة ، الحادية عشرة ، الثانية عشرة مثلا . أما أجزاء الساعة كالنصف أو الربع أو الثلث فلا تقدر عليه ، علاوة على أن تشغيلها في الليل ، يتطلب مراقبة مستمرة وخاصة للماء ، ولذا ابتكر ابن الرزاز ساعات من نوع جديد ، بناء على طلب أبي الفتح بن محمود بن قرا أرسلان ، خفيفة وسهلة الحمل والتركيب ، ويمكن استصحابها في السفر ، ويعرف بها جزء الساعة وخلصها من السلاسل والموازين والبنادق ، ومن هذه الساعات :

ساعة الكأس وساعة الطواويس :

وتتكون الأولى من كاتب وبيده قلم ، وبكرات ثلاث كبيرة وبكرتين جانبيتين وثقالة ومسطرة تتحرك عليها عوامة ، وجزعة مثقوبة من أسفل وبدن الساعة كأسي الشكل ، بقاعدة رباعية الشكل ، وتلخص فكرة عملها « أنه حين تملأ الكأس ماء ترتفع العوامة ، وينخفض الثقل ، ويبدأ الماء بالنضح من ثقب الجزعة ، فتجذب الطفافة ، فتحرك الكاتب الى ١٥ درجة وهي تساوي ساعة زمانية ، وعند المساء يعاد الماء من القاعدة الى الكأس بسرعة وهكذا»(٨٦) على نفس النمط تعمل ساعة الطواويس .

أما النوع الثالث من ساعات ابن الرزاز فهي التي تعمل بالشمع بدل الماء ، وفائدتها أنها تحدد الساعات المستوية وأجزائها أيضا ، ومنها :

- ساعة السياف
- ساعة الكاتب .
- ساعة القرد .
- ساعة الأبواب

وتقوم فكرتها جميعا على استعمال الشمعة فيها كمادة تذوب نتيجة الاحتراق بقدر متساو كل ساعة ، فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة كرة ، ويأخذ الثقل بالهبوط الى أسفل فتتحرك الأجزاء المربوطة مع بعضها (٨٧) لتؤشر على تدريج ، جعل كل ١٥ وحدة منه تعادل ساعة زمانية ، وهكذا دواليك أما ساعات المغرب فقد بنيت على نمط ساعة المستنصرية المائية . ولم تستعمل الشمع فيما انتهى الى ولكنها استفادت من شبكة الاسطرلاب بربطها بلولب مع الساعات المائية ، وتقوم فكرتها العامة على :

- ماء في الأوعية ، ينساب بقدر معلوم .
- مجرى فوق الماء فيه خطوط وثقوب .
- طفافة تتحرك بنقصان الماء فتحرك المتصل بها لتؤشر على التدريج .

---

(٨٥) المرجع السابق ، ١٧٧

(٨٦) ابن الرزاز الجزري : الجامع بين العلم والعمل ، ١٢٦ - ١٤٣

(٨٧) الشمس : مقدمة ، ١٨١

ـ يعاد الماء بعد انتقاله بسرعة الى الاناء الأول . وهكذا فانها تتطلب مراقبة دقيقة ودائمة .

ـ اضافة شبكة الاسطرلاب الى الساعات .

وأهم تلك الساعات :

ـ ساعة ابن الحباك ، وتتكون من صحن من الفخار بالقبة العليا بجامع القرويين ، يملأ ماء ، وعلى وجهه مجرى من النحاس ، ذو خطوط وثقوب ، ويخرج الماء منها بقدر معلوم الى أن يصل الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار ، فتعرف بذلك الأوقات ، وهي أصغر حجما وأبسط تركيبا من ساعات ابن الرزاز (٨٨) .

وأما ساعة الصنهاجي فتتكون من مجن من خشب الارز ، داخله إناءان من الفخار يعلو أحدهما على الآخر ، بأسفله أنبوب محكم العمل ، ينزل منه الماء في الاناء الأسفل ، وفي الجانب طست حوى خطوط تقسيم الوقت ، وعلى وجه الاناء الذي يجتمع في الأسفل جسم عائم مجوف من النحاس على شكل الأترجة ، والطفافة تحرك المسطرة فتظهر الوقت ، وعند المساء لا بد من رد الماء من الوعاء الأسفل الى الأعلى ، وتعلق المسطرة كما كانت (٨٩) .

ـ ساعة محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ ، وقد أضافا الى المجن السابق شبكة الاسطرلاب ، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات النهار والليل بتحرك خيوط الاسطرلاب ورسومه ، وأجريت تحسينات فيها ، اذ أطرت دائرة الاسطرلاب أربع صفائح وثبتت بشكل متين (٩٠) .

هذا بالاضافة الى ساعات المدرسة البوعنانية ـ نسبة الى السلطان أبي عنان ، بشارع الطالعة من فارس وساعة الجاي ، وتقوم على أبواب وطاسات وكرات وأنابيب تصل بينها . (٩١) وأما في مصر ، فقد ذكر القليوبي في النوادر أنه كان عند السلطان الكامل شمعدان فيه أبواب فكلما مضت ساعة يخرج شخص من باب منها ، يقف في خدمته الى مضي ساعة وهكذا الى تمام الأبواب ، اثنتي عشرة ساعة ، فاذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول « أصبح السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة (٩٢) .

ولقد أدهشتنا هذه الاشارة فهل عرف العرب تسجيل الصوت ، وحيث أننا لا نقطع برأي حول المسألة ، ونميل الى أن الصوت انما هو تحكم بذبذبات بطريقة خاصة تبعث صوتا قد يفسره السلطان أو من سمعه « بأصبح السلطان » كما هي المعزوفات الغنائية في زماننا ، غير أننا سنعود لبحثها في درسنا للصوت عند العرب .

ومن ناحية ثانية ، فقد أورد المقري في كتابه نفح الطيب وصفا دقيقا لساعة تلمسان كأنها حلة يمانية . « ولها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة ، وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت فيه جارية ، صورت في أحسن صورة . وفي يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة (٩٣) .

---

(٨٨) الشمس : مقدمة ، ٢٠٧ ، وصف الساعات في كتاب الجامع ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨

(٨٩) التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٢٢

(٩٠) المرجع السابق ٢/ ٣٢٣

(٩١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٩٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، المجلد ٢ص ٦٧٤

(٩٣) سعد الخادم : الدمي المتحركة عند العرب ، ٤٠

ويضيف المقري أن خزانة المنجانة كانت ذات تماثيل لجُين محكمة الصنع ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كوة ، يجذب الأيكة صاعدا ، ويصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوَين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين عقابان في يد كل واحد منها صنجة صُفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهب وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، بيمناها اضبارة فيها اسم لساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة(٩٤) .

وكان التطور الهائل في صناعة الساعات واعتمادها على الميكانيكا بصورة عامة ، فكان حين استعمل العرب الأثقال بدون ماء ، لأحداث الحركة الاوتوماتيكية . فاخترعوا الرقاص (بندول الساعة) ، ويبدو أن مخترعه هو أبوسعيد ، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠م ، وقد اعترف بذلك تيديو وسدويك وتايلر فذكروا أن العرب قد سبقوا غاليليو بستة قرون في اختراع الرقاص واستعماله . وفي ايجاد علاقته بالزمن ، لا سيما وأنه كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ، اذ كان الفلكيون العرب يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ، ولقد حاول أسامة عانوتي في بحثه « هل اكتشف العرب رقاص الساعة » المنشور في مجلة الدراسات الأدبية ـ الجامعة اللبنانية ، السنة الخامسة ص ٣٥٧ ـ ٣٧٢ ، ان يثبت ما ذهب اليه قدري طوقان والمستشرقون ، ونجح في ذلك(٩٥) .

وكانت هذه قفزة هائلة في تاريخ الساعات امتدت آثارها حتى اليوم ، فالساعات الحديثة تقوم عليها ، باستثناء ما بني على استخدام الاليكترونات .

ونشير في النهاية الى نوع من الساعات ، التي لا تزال تستعمل الى يومنا بسيطة الصنع والتركيب ، والغرض منها تعيين فترة محدودة ، وهي الساعات الرملية والتي تتركب من دورتين ، الصقت فوهة أحدهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع وملئت العليا رملا فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى ، من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عندما تفرغ العليا ، وهناك ساعة في جامع القرويين تعمل بالنمط الرملي صنعها محمد بن محمد العربي ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، وبعض أجزائها محفوظة في الغريفة بالجامع(٩٦) . ان الالمام بكل ما ابتكره العرب من آلات وأواني ميكانيكية الحركة ، يتطلب جهداً جماعيا ، لتجمع مخطوطاته ، ويعهد الى المختصين درسها ، ليحدد مدى ما قذفوه الى الحضارة الانسانية في هذا المجال .

أما ما أضافه علماء العرب في الصوت والضوء والبصريات والقوى والحركة والمغناطيس والغازات والرياح ، ومدى استفادة الغرب منها فسيكون موضوع الصفحات التالية ، ونتبين منها ما حققه علماء العرب المسلمين في هذا المجال .

---

(٩٤) المقري : نفح الطيب ، ٩/ ٢١٦ .

(٩٥) سيديو : تاريخ العرب ، ٢١٤ تايلر : مختصر تاريخ العالم ، ١٦٣ ، سمث : تاريخ الرياضيات ، ٢/ ٦٧٣ مختار القاضي : اثر المدينة الاسلامية ، ٢٤٣

(٩٦) مجلة الرسالة ، العدد ٥٧ ص١٢٩٣ ، التازي : جامع القرويين ، ٢/ ٣٤٧

الصوت ودراسته :

كان للعرب اشتغال في بحوث الصوت ، وأحاطوا بالمعلومات الأساسية فيه ، وذهبوا الى أن السبب في منشأ الأصوات ، انما يعود الى حركة الأجسام المصوتة ، وهذه الحركة تؤثر في الهواء لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه كما قسم علماء العرب الأصوات الى أنواع منها ، الصوت الجهير والصوت الخفيف والحاد والغليظ وغيرها . وعزوا ذلك الى طبيعة الأجسام المصوتة ، والى قوة تموج الأصوات بسببها . وتميزت أبحاث الموسيقيين العرب بدراسة الأوتار والاصوات الناجمة عن اهتزازها ، وكشفوا بقوانين رياضية العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة شدته أو توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت من جهة أخرى(٩٧) . وقادهم هذا بالضرورة الى بحث الألحان التي جعلوها ٤٧ نوعا هي : الصياح ، والسجاح ، والنبرات ، والشذرات ، والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ، والتدريج ، والزمة ، والغنة ، والتعليقة ، والتفخيم ، والتأوه ، والنوح ، والترجيح ، والكرة ، والتشبيعة ، والابدال ، والاستهلال ، والانشاد ، والاستغاثة ، والتغير ، والقهقهة ، والهزة ، والاتباع ، والانتزاع ، والتفكيك ، والتفاغر ، والشهقات ، والامالة ، والتمطي ، والتوطئة ، والمهاهاة ، والمقطع ، والردة ، والصلة ، والاستحالة ، والتشويب ، والصهيل ، والهمزة ، والتجنيبة ، والزحمة ، والتكاهن ، والغمزة(٩٨) .

وعللوا الصدى ، والذي يحدث حسب تعليلهم عند انعكاس الهواء المتموج بعد مصادمته لعال ، كجبل أو حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة ، فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه . وقد برع أخوان الصفا في تعليل تموج الصوت بشكل كروي ، وبينوا عوامل قوة وضعف موجاته ، فالسبب في حدوث الصوت عند أخوان الصفا « هو حركة الأجسام المصورة في الهواء ، الذي لشدة لطافته وخفة جوهره ، وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فيما اذا صدم جسم جسما آخر ، انسل ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج منها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركة تموجه الى أن يسكن ويضمحل(٩٩) .

ومن ناحية ، فان دراسات العلماء العرب لم تقف عند صوت الانسان بل تعدتها الى دراسة أصوات الحيوانات ، وكان اخوان الصفا والجاحظ والدميري رواداً في هذا المجال ، اذ قسمت أصوات الحيوانات عندهم الى :

ـ أصوات الحيوانات ذات الرئة وتختلف باختلاف الصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين ، وشدة استنشاق الهواء ، وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخيرها .

ـ أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ، ولكن لها جناحين ، كالزنابير والجراد والصراصير وغيرها ، فان الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها . واختلاف أنواعها انما تستند على لطافة هذه الأجنحة وغلظها وطولها وقصرها وسرعة حركتها .

ـ أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولا أجنحة ، كالسُمك والسرطان والسلاحف وما شاكلها ، وتسمى

---

(٩٧) نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٣١٢ ، كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٠

(٩٨) الكاتب (الحسن بن احمد) : كتاب كمال ادب الغناء ، ٧٨ ، الفارابي : كتاب الموسيقي الكبير ، ١٠٦٩

(٩٩) اخوان الصفا : الرسائل ، ٢/٤٠٧

بالحيوانات الخرس ، لأنه لا منطق ولا صوت لها ، وتختلف أصواتها باختلاف اليبس والصلابة والحجم من كبر وصغر وطول وقصر وسعة وضيق وغير ذلك(١٠٠) .

ولم تتوقف دراسة الصوت عند العرب على المسائل النظرية ، بل طبقوا مبادىء الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، وبدعوا في هذا الفن » وقطعوا فيه شوطا بعيدا ، وكانوا دائما في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون النظرية الا بعد التثبت منها عمليا . وقد تفوق في هذا المجال ، الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ويوسف الكاتب وابن المنجم والأرموي وغيرهم . ويذكر أن اجادة العرب لبحوث التموجات الكروية للصوت ، هي التي أوحت لزرياب أن يضيف الوتر الخامس للعود وصبغه باللون الأحمر . وجعله(١٠١) متوسطا في موضعه بين الأوتار الأربعة .

- الضوء والبصريات :

تجاوزت أبحاث العلماء العرب في الضوء ما انتهى اليه علماء اليونان ، وكانت مقالة حنين بن اسحق « في حقيقة الضوء » بداية الانطلاق نحو دراسة الضوء والاستفادة منه في تحليل العديد من الظواهر الكونية . ومع أن رسالة حنين استندت أساسا على مقالة ارسطاطاليس ، الا أنه أضاف اليها وطورها بحيث بدت شيئا متميزا ، فالضوء عند حنين عرض وليس بجسم نير وحتى أنه ليس بجسم ويورد العديد من البراهين ، ووصف حنين حركة الضوء بأنها تتجه الى الوسط فهي ليست حركة مستقيمة ولا مستديرة ، وانما حركة وسطية ، كحركة ضياء المصابيح من العلو الى الوسط(١٠٢) وهو يتحرك الى جهات كثيرة .

ويرى الفلاسفة الطبيعيون ، أن الضوء صورة جوهرية ، وهو معنى من المعاني التي تتقدم منها ماهية الجسم المضيء بذاته ولا تفارقه مادام حافظا لجوهره ومع أن التعريف لا يخرج عن ما أورده أرسطوطاليس(١٠٣) ، الا أن ابن سينا أضاف اليه « بأنه انفعال في القابل من المضيء ، أوحصول أثر فيه من واهب الصور »(١٠٤) .

أما ابن الهيثم فالضوء عنده « حرارة نارية تنبعث من الأجسام المضيئة بذواتها كالشمس أو النار أو الجسم المتوهج ، وانه اذا أشرق على جسم كثيف أسخنه واذا انعكس عن مرآة مقعرة ، واجتمع عند نقطة واحدة ، وكان عندها جسم يقبل الاحتراق ، أحرقه »(١٠٥)

وكيفما كان الحال ، فان للعلماء العرب أبحاثا متقدمة في الضوء والبصريات تمثلت بالنواحي التالية :

درس ابن سينا انعكاس الضوء وانكساره وأخطاء البصر ، واستطاع أن يعلل بذلك كبر حجم الشمس والقمر والكواكب والنجوم في رأي العين ، حينما تكون قريبة من الأفق عند الشروق والغروب ، وكانت تحليلات ابن سينا لكيفية تكون الهالة القمرية والهالة الشمسية هي أساس التفسير العلمي الحالي ، حيث افترض وجود بخار الماء في الجو وسقوط الشعاع الضوئي

---

(١٠٠) المرجع السابق ، ٢/ ١٩١ ، الجاحظ : الحيوان ، ٤/ ١٩٣ ، ٧/ ١٣٧

(١٠١) الحفني : زرياب ، ٤٦ عبد الرحمن : تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ٢٦ ، صالات حمدي : تاريخ آلة العود وصناعته ، ٣٩ .

(١٠٢) حنين بن اسحق : في الضوء وحقيقته ، المشرق ، السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، ١٥ كانون اول سنة ١٨٩٩ ١١٠٧ ، ١١١٢

(١٠٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ٨٠

(١٠٤) ابن سينا : التعليقات ، ٤٧

(١٠٥) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠

على القطرات المكونة للهالة(١٠٦) . كما علل أسباب تناقص الشفق حينما تصبح الشمس على ١٩ درجة تحت الأفق .

ومع أن ابن سينا هو الذي وضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا ، منحنيا كانحناء سطح الارض غير أن البيروني كان أكثر منه دقة في هذا المجال ، وأشار الى عظم سرعة الضوء اذا ما قيست حتى بالنسبة لسرعة الصوت . ان هذه النتائج أفادت نصير الدين الطوسي في أبحاثه عن المناظر وانعكاس الشعاعات والانعطافات وأتى فيه على برهانه ، مساواة زاويتي السقوط والانعكاس .

وقد حاول ابن سينا أن يدرس الآثار العلوية الكونية ، ففسر كيفية تشكل قوس قزح ، كذا الهالة المحيطة به ، وتعدد الألوان منه كما فعل الكندي حين علل اللون اللازوردي الذي يرى في الجو . الا أن محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي ت ٧١١هـ/ ١٣١١م ، كان أكثر العلماء توضيحا لدراسة ظاهرة قوس قزح ، فقد شرحها في كتابه « نهاية الادراك في دراية الأفلاك » شرحا وافيا ، وبين أن ظاهرة قوس قزح انما تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو ، عند سقوط الأمطار ، وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا ، ولعل الشيرازي قد بنى تعليله على تلك الدراسات التي بدأها ابن سينا قبله ، وشملت الظل والثلج والضباب والهالة والقوس والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد(١٠٧) .

لقد بلغت دراسات ابن سينا منزلة متفردة ، فيما أورده بشأن الابراق والارعاد فالبرق عنده نتيجة لاحتكاك وقرع بين الغمام ، أو للاستبراح اللطيف من الغمامة اذا طفئت نارها ، بمعنى انتقال الشحنات أثر الحرارة ، أو اذا كانت في الغمام نار مستكنة وانضغطت الغمامة وانعصرت وتفرقت(١٠٨) . وأشار ابن سينا الى احتمال حدوث الارعاد بلا برق أو العكس ، ورسالة ابن سينا في الرعاد ، تضمنت الاشارة الى أسبابه ، فالرعد عنده ، يقع اذا تصادمت غمامتان ، واذا دخلت في غمامة جوفاء ريح فدارت عليها ، واذا ما سقطت نار في غمامة رطبة وطفئت ، وحين يقرع الريح غمامة عرضية جليدة قرعا شديدا ، واذا دخلت في غمامة مجوفة وانفتقت ، واخيرا اذا ما احتكت غمامتان خشنتان ببعضهما(١٠٩) . والصواعق عنده أما نار ريحية أو ريح نارية ، ويرى أن الصاعقة تكون لسببين ، أولهما احتكاك الريح بالغمام ومن ثم شدة خروجها وقد صارت نارا ، وثانيهما ، اجتماع الكثير من الغمام الصغار ، فاذا اجتمعت مع بعضها صارت منها صاعقة .

وأما البصريات :

فقد درس العلماء العرب الحواس دراسة وافية ، وكان علماء اليونان والهنود قد أخطأوا في تحديد كيفية الأبصار ، فاشتغل العرب بها وخاصة الكندي الذي ألف في اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرآة . وهناك من يعتقد أن ابن سينا قد سبق ابن الهيثم في الوصول الى

---

(١٠٦) فروخ : عبقرية العرب ، ١١٢

(١٠٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(١٠٨) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٦

(١٠٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

قانون الأبصار ، وان ابن الهيثم قد زاد عليه بتشريح العين وتفصيل نظريات الضوء ، وذهب هذا النفر الى أن ما أورده ابن سينا في معرض تعريفه للبصر بأنه « قوة مرتبة في العصبة المجوفة ، تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقلية » . انما هو شرح لعملية الأبصار ليس الا .

ونحن وان كنا لا نتفق مع ما ذهبت اليه هذه الفئة ، لنرى أن في تناولنا لجهود الحسن بن الهيثم ، كشف لمنجزات العلماء العرب في الضوء والبصريات وتوضيح لما حققوه في هذا المجال ، سيما وأن البحث يبقى مبتورا بدون كشوفات الحسن بن الهيثم البصرية والضوئية .

الحسن بن الهيثم ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م

ولد ونشأ في البصرة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م . ثم نزح الى مصر في كهولته ، أثر استدعائه من قبل الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، عندما تناهى اليه قول ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا ، تحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الاقليم المصري »(١١٠) .

وفي محاولة لتنفيذ مشروعه ، سار ابن الهيثم الى الجنادل ، ولما لم يجد المكان العالي ، قفل عائدا الى القاهرة ، وتولى منصبا هاما في الدولة ، حتى اذا ما شهرت أفعال الحاكم وتعديه على الناس ، وحتى لا يتهم الحسن بن الهيثم بموافقته على أفعال الحاكم ورضائه عنه ، تظاهر بالخبل والجنون ، حتى اذا ما غابت سيرة الحاكم عاد الى حياة البحث والعلم في بيته بجوار الأزهر . ومنهجه في البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة والأخذ بالاستقرار والقياس ، وبذلك أنه يستقرىء الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز خواص الجزيئات ، مع انتقائه المقدمات ، ولذا كانت لابن الهيثم شفافية علمية خاصة في البحث ، تدفعه وباستمرار للمزيد من التوسع(١١١) والتعمق في سبر غور المسائل لتحقيقها . وقد صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، أشار اليها القفطي والبيهقي وابن النديم وابن أبي اصيبعة ، ودرسها حجاب في مقالته عن الثروة العلمية لابن الهيثم(١١٢) ، وحدد كتاب تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، أماكن توزعها في المكتبات العربية(١١٣) ، ولا يزال الباحثون يعملون لكشف المزيد من تراث ابن الهيثم العلمي .

لقد كانت أبحاث ابن الهيثم موضع اهتمام كيلر وفنري وفيتلو وماكس مايرهوف حتى عد بحق أعظم فيزيائي في العصر الوسيط ، بل اعتبر هؤلاء أن عظمة الابتكار الاسلامي انما تتجلى في علم الضوء والبصريات ، وقد ألف ابن الهيثم في الضوء والاظلال وصورة كسوف القمر ، الا أن أعظم مؤلفاته كانت ، كتابه « المناظر » الذي اعتبر أكثرها شمولا ودقة وتحليلا ، حتى أنه لا يقل أهمية عن الكتب الحديثة المؤلفة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين ،

---

(١١٠) القفطي : تاريخ الحكماء ، ١٦٥ ، البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ٨٥ ، زهير الكتبي :.الحسن بن الهيثم ، ٩ ، ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ٥٥١

(١١١) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ٣٠ .Irving : Readingson Logic .P. 256

(١١٢) حجاب (محمد على) : الثروة العلمية لابن الهيثم ، مقالة مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والعدد ٢/ ١٣٦ - ١٣٨

(١١٣) انظر تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، رتبت وطبقت بحيدر أباد سنة ١٣٥٠سنة هـ .

وكيفية تكوين الضوء على شبكتها . وبالاجمال ، فانه يبحث عن أحوال حاسة البصر من جهة محسوساتها ومدركاتها وتتناول الكثير من ظواهر الضوء الأساسية وخواصه الذاتية ، وقد جاء الكتاب في سبع مقالات ، تناولت كيفية الأبصار وخواص البصر وتفصيل المعاني التي يدركها البصر وعللها وكيفية ادراكها وأغلاط البصر ، وفي ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصقيلة والخيالات ، وأخيرا في كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالفة لشفيف الهواء(١١٤) . والكتاب يحققه صبرا منذ ٣ سنوات . وكانت هذه من أعظم مآثر ابن الهيثم في الضوء ، حيث أبطل النظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي « أن الأبصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر » ، الا أن ابن الهيثم بين أن المبصر يجب أن يكون مضيئا ، أما بذاته ، أو باشراف ضوء من غيره ، وأن تكون بينه وبين العين مسافة ، وان يكون بين كل نقطة من سطح البصر وبين العين خط مستقيم غير منقطع بشيء كثيف ، واستنتج من ذلك ، على أن السبب الرئيسي للابصار هو وجود المبصر مع توافر هذه الشروط(١١٥) .

ويتم بسقوط شعاع أو حزمة من الأشعة على الجسم المرئي وانعكاسه على شبكية العين(١١٦) . وعلل عدم ازدواج الصورة اذا نظر الى الشيء بعينين ، وذلك ان صورة الشيء تتأدى في كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت الصورتان ، اذا كانتا متماثلتين مع أنهما صورتان لا صورة واحدة .

وذهب أبعد من ذلك ، وميز بين الأجسام المشفة التي ينفذ منها الضوء ولها قوة مؤدية للضوء ، والأجسام الكثيفة ، والتي لها قوة قبول الضوء ، ومن خصائص هذه الأجسام عند ابن الهيثم ، أنها إذا جاورت أجساما مضيئة بذاتها ، استضاءت من ضوئها ، وأشرقت منها بفعل هذه المجاورة(١١٧) . ومن ناحية ثانية فقد كان ابن الهيثم أول من أقام التجارب على البيوت المظلمة ، ودخول الضوء اليها من الثقوب ، وكانت المناسبة التي هدته الى ذلك هي محاولته اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطح الشمس ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا اياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة ، فتبين له أنه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا ، مما يدل على أنه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس ، ويرجح مصطفى نظيف ، ان الحسن بن الهيثم ، وهو يمعن النظر في مواقع الأضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره ، صورة منكوسة لجسم موجود في الخارج ، وقد عرض ابن الهيثم تجربته على الشكل التالي « اذا كان في موضع واحد عدة سرج في أمكنة متفرقة ، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد ، وكان ذلك الثقب ينفذ الى مكان مظلم وكان مقابل ذلك الثقب في المكان المظلم جدار أو قوبل بجسم كثيف ، فان أضواء تلك السرج تظهر على ذلك الجسم ، أو ذلك الجدار ، متفرقة وبعدد تلك السرج وكل واحد منها مقابل لواحد من السرج على السمت المستقيم الذي يمر بالثقب ، واذا ستر واحد من السرج ، بطل من الأضواء التي في الموضع المظلم الضوء الذي كان يقابل ذلك السراج فقط ، وأن رفع الساتر عن السراج ، عاد ذلك

---

(١١٤) صبرة : تطور نظريات الضوء منذ ابن الهيثم حتى الوقت الحاضر ، ٧٤

(١١٥) فروخ : عبقرية العرب ، ١٠٧ ، نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٤٢/١ ، جلال موسى : منهج البحث العلمي ، ٩٨

(١١٦) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٩٣/١

(١١٧) المرجع السابق ، ٨١

الضوء الى مكانه(١١٨) يضاف الى ذلك أن ابن الهيثم عالج الشروط اللازمة لوضع الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، فاشترط الضيق النسبي للثقب ، لأن الضيق يقلل الضوء ، فتكون الصورة أدنى الى الخفاء عن البصر(١١٩) .

كما درس ابن الهيثم خواص المرايا المتعددة ، وكيفية تجميع أشعة الشمس في نقطة واحدة ، تكون بمثابة النقطة التي تحدث فيها أشعة الشمس ، وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه الفرن الشمسي في زماننا .

وتعمق ابن الهيثم أيضا في استقراء أشعة الشمس الساقطة على مرآة ، والتي تتبعثر في اتجاهات كثيرة حسب السقوط .

ان هذه الدراسات مهدت الطريق لاختراع آلة التصوير - الكاميرا - بحجرتها المظلمة وعدستها ، وكذا الفائدة من العدسات اللامة والمفرقة للاشعة ، ومن ثم صناعة الآلات البصرية ، القائمة على تسخير ظاهرة الزيغ الكروي الطولي(١٢٠) لتحسين رؤية العين بتلك الآلات ، النظارات الطبية فيما بعد ، وقاده هذا لدراسة العين وتشريحها ، وله في ذلك جهد لا ينكر بفضل رسوماته التشريحية .

وتستحق آراء ابن الهيثم في ضوء القمر وماهية الأثر الذي في وجه القمر وقفة تأملية . فقد كان الرأي الشائع عند الطبيعيين أن « ضوء القمر مستفاد من الشمس ، وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلا لجرم الشمس »(١٢١) بمعنى أن القمر غير مضيء من ذاته ، وأنه يكتسب ضوءه من الشمس ، وذهب الطبيعيون الى أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه الى الأرض ، كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة .

ويعلق ابن الهيثم بقوله « ليس يوجد لأحد منهم قول برهاني يدل على أن ذلك واجب ضرورة ، ما لم يقم البرهان على أن ذلك واجب ، فليس يحتمل وجها غير ذلك الوجه الامكاني ، وكان مظنونا لا متيقنا(١٢٢) » فابن الهيثم يرى أنه ما لم يقم البرهان على ما ادعاه الطبيعيون ، تبقى أمكانية الاتيان بفرضيات أخرى لتعليل الظاهرة واردة ، بل وممكنة ، وأتى بتفسير للظاهرة مؤداه « أن ضوء القمر من خواص الأجسام المضيئة من ذاتها » ، اذ كل نقطة من سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها ، أي أن ضوء القمر ثانوي يشرق عن القمر كما يشرق الضوء الثانوي عن سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بالأضواء المشرقة من الأجسام المضيئة بذاتها(١٢٣) .

أما ماهية الأثر الذي يظهر في وجه القمر فهو على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في كيفية سواده . ويورد ابن الهيثم في رسالته عن مائية (ماهية) الأثر الذي في وجه القمر ، آراء الطبيعيين حوله ، من اعتقادهم أن الأثر من نفس جرم القمر أو خارج عن

---

(١١٨) المرجع السابق ، ٨٣

(١١٩) زهير الكتبي : ابن الهيثم ، ١٤٤

(١٢٠) نظيف : ابن الهيثم ، ١/١٢١

(١٢١) ابن الهيثم : رسالة في ضوء القمر ، ٣ ، ضمن مجموعة رسائل للحسن بن الهيثم ، حيدر اباد الدكن ، سنة ١٣٥٧ هـ .

(١٢٢) أنظر رسائل ابن الهيثم ، ص ٤ ، جلال موسى : منهج البحث ، ٩٩

(١٢٣) نظيف : الحسن بن الهيثم ١/ ٤٢

جرم القمر ، أو متوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه ، أو صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، أو أنه صور البحار التي في الأرض وترى بالانعكاس أو صور الجبال أو صورة قطعة من الأرض التي يقع عليها الشعاع المنعكس . وبعد أن يناقش ابن الهيثم هذه الآراء ويفندها ، يبين أن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية ، والظلمة في جرمه سببها أن ذلك الجزء لا يقبل الضوء قبولا تاما ، ويعلل هذه الظاهرة بالبراهين التالية :

- ان القمر يقبل الضوء من الشمس وليس فيه شيء من الشفيف(١٢٤) . ومعنى هذا أن في القمر القوة القابلة للضوء ، وليست فيه القوة المنفذة له .

- ان درجة قبول القمر للضوء تختلف من مكان لآخر على سطحه ويعزو ذلك الى كثافة ذلك الجزء .

وحري بنا أن نشير الى الدراسات الحديثة لسطح القمر ، والتي عللت الأثر بسبب وجود الجبال والوديان والحفر على سطحه . وليس ببعيد عما ورد في المقالة أن في جسم القمر تقعيرا ، فاذا أشرق عليه ضوء الشمس ، صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير ، والأثر هو ظل محيط التقعير(١٢٥) .

وأخيرا نشير الى مسألة على غاية الأهمية ، تعرف بمسألة الحسن بن الهيثم أو « مسألة الهازن » وملخصها « اذا تعرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها الى احدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها الى الأخرى بمثابة شعاع منعكس » وقد درس المسألة العديد من العلماء أمثال بودا وسارطون وفرنة وطوقان وفروخ والدمرداش ، ولكن مصطفى نظيف قد أتى ببرهانها في أكثر من مائة صفحة ، وناقش أوجهها حسب آراء ابن الهيثم(١٢٦) ، وهي تمثل ذروة النبوغ عند الحسن بن الهيثم لزوايا السقوط والانعكاس .

السوائل :

كان للعرب فضل بين في علم السوائل ، فقد شرحوا بعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وكان (منها جهم) واضحا ودقيقا وسهلا ، وقد حفظ لنا ابن عساكر رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه التي توضح مفهوم العرب لتكون ماء المطر في القرن الأول هـ . فالماء عند خالد بن يزيد ، من السماء أو من الغيم الذي يحمله من البحر ، حيث يعذبه البرق والرعد(١٢٧) ، ويضيف خالد ، ان باستطاعته تحليل مياه البحر ، وأحضر القلال الى المجلس ، ووصف كيف يصنع به حتى يعذب(١٢٨) ويبدو أن مسألة استخراج الماء العذب من البحر كانت معروفة ، فقد لاحظ الكرخي أن أهل السفن يستخرجون من قرار البحر الماء العذب ويشربونه ، وذلك بأنهم يتخذون آنية من الآنك ، مثقوبة من أسفلها ، وفي فمها أنبوبة متخذة

---

(١٢٤) أنظر ، مقالة أبي علي ، الحسن بن الهيثم في مائية الاثر الذي الذي في وجه القمر ، مخطوطة مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٩٦ د ، نشرها عبد الحميد صبرة في مجلة تاريخ العلوم ، العدد الأول ١٩٧٧ ، ٥ - ١٨ .

(١٢٥) ابن الهيثم : مائية الأثر ، ١٢

(١٢٦) الكبيي : الحسن بن الهيثم ، ١٥٩

(١٢٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ، مخطوط ، ترجمة خالد بن يزيد ، بدران : تهذيب تاريخ دمشق ، ، ٥/١٢٣

(١٢٨) نفس المراجع السابقة .

من الجلود الرقيقة مشمعة ، فلا يدخلها الماء في خرزها ويسد فم الجرة بكرة مهندمة ، قد جعل فيها خيط ممدود في وسط الأنبوبة ، طوله مثل طولها ، وترسل الآنية الى قعر البحر ، وعند شد الخيط ودخول الماء اليها ، تخرج الآنية بالخيط المشدود في عروة مركبة عليها ، فيوجد فيها ماء عذب(١٢٩) .

وعرض البيروني لموضوع اتزان السوائل ، فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها ، وبين كيفية تجميع مياه الآبار والمياه الجوفية وكذلك صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وبنى عليه الينابيع وطريقة رفع الماء بأنابيب الرصاص والروافع والبرابخ ، مستندا في ذلك الى سلوك السوائل في الأواني المستطرقة حيث تتساوى السطوح ، فان انخفضت أحداهما عن الأخرى سال الماء الى أن ينتهي الماء أو تعود لحالة التوازن مرة أخرى(١٣٠) .

وقد حوى كتاب الخازني ، مواضيع هامة في موازنة السوائل ، منها على سبيل المثال ، موازاة عمود الميزان على سطح الأفق والميزان مائي ، وكذلك في أحكام الجسم المصمت (المجوف) في الماء وطفوه ورسوبه ، وعلل الحالات التي يمكن أن تغرق السفينة أو حتى حساب مقدار غوصها في الماء وهي محملة(١٣١) ، وكتاب ميزان الحكمة كتاب معتبر في علم الطبيعة العامة ، وعلم الهدروستاتيكا والميكانيكا خاصة(١٣٢) .

كما حظيت الخاصية الشعرية في الأنابيب الدقيقة ، باهتمام العلماء العرب ، اذ حددوا مدى امكانية صعود السوائل منها ، وتعليل ارتفاع الموائع فيها ، وهذا البحث قادهم الى دراسة التوتر السطحي ، Surface Tension (١٣٣) وفسر ايدمر بن علي ايدمر الجلدكي ، ظاهرة التموج في السوائل ، وجعله (أمر يحدث بعد صدم وسكون بعد سكون) .

ومن ناحية ثانية فقد وصف العلماء العرب طريقة لتجميد الماء في غير وقته ، باستعمال مقادير معلومة من الشب اليماني الجيد المسحوق ويضاف اليه ماء في قدر ، ويجعل في تنور ويطين عليه حتى يتبخر منه الثلثان ويبقى الثلث ، ثم يرفع في قنينة ويسد رأسها جيدا ، ويستعمل هذا الماء المحضر بالطريقة السابقة باضافته الى قناني مائية أخرى ، فتجمد ، وهناك طريقة أخرى استعملها المغاربة حيث ينقع بزر الكتان في خل مختمر جيد مركز ، فاذا جمد فيه ، يلقى في جرة أو حب مليء بالماء ، فانه يجمد ما كان فيه من الماء ، ولو في حزيران أو تموز(١٣٤) وقد اعتاد هارون الرشيد أن يحمل الثلج معه في أسفاره ، وكان يجلب له من الجبال الشمالية للعراق ، أو حتى من جبال لبنان ، الى أماكن حارة كالحجاز مثلا ، وهو أمر يقتضي المعرفة بوسائل جيدة لحفظ الثلج ونقله لمسافات طويلة ولعدة أيام .

الثقل النوعي :

ومن ناحية أخرى فقد عرف العرب الثقل لبعض

---

(١٢٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : أنباط المياه الجوفية ، ١٠ ـ ١١

(١٣٠) جلال شوقي : دراسات البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٩ ، البيروني : الآثار الباقية ، ٢٦٢ ـ ٢٦٣

(١٣١) عبدالرحمن الخازني : كتاب ميزان الحكمة ، ط حيدر ابد ، ٢٦ ـ ٢٨

(١٣٢) مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٤٧

(١٣٣) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم ، ١٤٠

(١٣٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٢٤ ، الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١

المواد الصلبة والسائلة ، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقترب أحيانا مما قدره علماء العصر الحاضر ، وفي بعض الأحيان تطابق الدراسات الحديثة . بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني (١٣٥) . وقد أوجد العلماء أجهزة لتعين الثقل النوعي ، فالبيروني مثلا استخدم جهازا لتعيين الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة ، ذا شكل مخروطي ، له مصب بالقرب من فوهته ، بحيث يتجه الى أسفل ، وتقوم طريقة البيروني على القاعدة المعروفة : الكثافة = الحجم/الكتلة = ث = ح/ك ، ولهذا كان يزن الجسم في الهواء وزنا دقيقا ، ثم يلقيه في الاناء المملوء بالماء ، فعندما يغمر الجسم في الماء يزاح الماء الى وعاء آخر ، وهو حجم الجسم المغمور ، وأهمية الجهاز ، أن يكون معروفا في هذه الفترة المبكرة من تاريخ العلوم (١٣٦) ويدخل في أبحاث الكثافة والحجوم وغيرها .

ان استعراض أرقام نتائج دراسات البيروني والخازن في الثقل النوعي ومقارنتها بالأرقام الحديثة تبين أن أرقام البيروني والخازن كانت قريبة جدا من القيم الصحيحة الحالية :

المادة	أرقام البيروني	أرقام المخازن	الرقم الحديث
الذهب	١٩,٢٩	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٤٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النحاس	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النحاس الأصفر	٨,٦٧٦	٨,٥٧	٨,٤ (١٣٧)

ولم تقف جهود العلماء العرب على دراسة الثقل النوعي للمواد الصلبة ، بل شملت أيضا المواد السائلة ، وكانت نتائجهم متفوقة في اقترابها من الأرقام الحديثة :

المادة	أرقام الخازن	الأرقام الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء اذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤ ـ ١,٤٢
دم الانسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥ ـ ١,٠٧٥

وتعتبر نسب الخازني دقيقة ، لأن فرق الاختلاف انما يعود الى طبيعة الماء والسوائل وليست للخطأ أو عدم دقة الطريقة(١٣٨) . فقد استعمل الخازن ميزان الهواء Aero Meter في ذلك ، وقد ذكر محيي الدين عبد القادر بن محمد الطبري ت ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨م . في كتابه « عيون المسائل من أعيان الوسائل » ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس والحديد ولبن البقر والجبن والزيت والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد ، واللازورد والعقيق والماء والزجاج(١٣٩) .

---

(١٣٥) في مكتبة الأقمار الثلاثة للروم الأرثوذكس ، بيروت ـ هناك رسالة في النسب التي بين الفلزات والجواهر ، أنظر المشرق ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٠٦ ، ٩

(١٣٦) جلال شوقي : دراسة البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٤ ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم حلب ٧٧ ، ٢٦٤

(١٣٧) الأرقام مقارنة الى الماء ، على أساس أن الوزن النوعي للماء = ١

(١٣٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٢٨

(١٣٩) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٤٠ ، الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

ان التعمق في دراسة كثافة الأجسام ، وثقلها النوعي ، كانت الموحى للعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس ، بفكرة الطيران المعروفة النهاية(١٤٠) ، اذ وقع وأصيب بكسور سببت له آلاما عاشت معه لسنوات قبل وفاته .

الحركة :

حدد ابن سينا في كتابه الشفاء العناصر الأساسية للحركة وهي ، المتحرك والمحرك وما منه واليه ، والزمان(١٤١) . ويرى أبو البركات هبة الله ابن ملكا البغدادي ان اتصال الزمان لازم لاتصال الحركة(١٤٢) .

وقد قسم فلاسفة العرب الحركة الى عدة أقسام منها : الحركة الانتقالية والحركة الوضعية ، والحركة القسرية والحركة الطبيعية(١٤٣) . وفي عصرنا يقوم علم الحركة على قوانين ثلاثة ، جرى العرف على نسبتها جميعا الى اسحق نيوتن ، علما أن بين العلماء سواء من المشرق أو المغرب من سبقوه اليها ، غير أن فضل نيوتن في حسن وجودة صياغته لها ، وتحديده صورها الرياضية وعلى الأخص القانون الثاني(١٤٤) .

وقد جمع الجرجاني ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتابه « التعريفات » الحالات الممكنة للحركة في الكم والكيف والأين والوضع والحركة العرضية والذاتية والقسرية والارادية والطبيعية(١٤٥) . ولا تخرج قوانين الحركة عن هذه المضامين كما يتضح من مناقشتها .

القانون الأول :

يقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة ، ويتعلق القانون بخاصية القصور الذاتي أو العطالة .

وقد تناول اخوان الصفا أجزاء من القانون في رسائلهم في أكثر من وضع عند حديثهم عن الحركة ، فالأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج الا بقسر قاسر ، فمتى وقفت الدابة ، سكن الدولاب وعدم الاستقاء(١٤٦) .

وابن سينا في الاشارات والتنبيهات ، ذكر « انك لتعلم أن الجسم اذا خلى وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين فاذن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك(١٤٧) . وما يريد ابن سينا بيانه ان الجسم لا يخلو من موضع وشكل طبيعيين ، لأن فيه طبيعة تقتضي ذلك ، شريطة أن لا يعرض له من الخارج أي تأثير ، لأن التأثير الخارجي ربما جعل للجسم موضعا وشكلا قسريا ، كتأثير الحرارة والاناء المكعب في الماء .

---

(١٤٠) الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

(١٤١) المتحرك : الجسم الذي فيه الحركة ، المحرك : القوة المسببة للحركة ، ما فيه : المكان والموضع ، ما منه وما اليه : مواضع الابتداء والانتهاء ، والزمان : الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال .

(١٤٢) العراقي (محمد عاطف) : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ط مصر سنة ١٩٦٩ ، ١٩٦

(١٤٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١/ ١٢٢ .

(١٤٤) :جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيك ، ٢٦

(١٤٥) الجرجاني (علي بن محمد) : التعريفات ، ٤٥

(١٤٦) اخوان الصفا : الرسائل ، ٣/ ٣٣٣ ، ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٥٤

(١٤٧) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٧٣

وعليه فان مبدأ القصور الذاتي أشار اليه ابن سينا أيضا في طبيعيات الشفاء حيث ان الجسم وهو في حالة الاندفاع تكون قوته المستمدة من السبب الذي أثار حركته في الأصل ، قادرة على دفع تلك القوة التي تعوقه عن الحركة في اتجاه معين أي قادرة على مقاومة الوسط الذي تنطبق فيه ، حتى تتبدد أخيرا في الخلاء(١٤٨) .

وينبه ابن سينا الى أن الجسم له ميل للاستمرار في حركته ، يحس به المانع والذي لا يتمكن من منع حركته الا فيما يضعفها أولا ، حيث تأخذ الموانع الخارجية والطبيعية معا في افنائه قليلا قليلا(١٤٩) .

ومجمل القول ، ان ابن سينا قد توصل الى القانون الأول للحركة بشقيه الخاصين بحالة السكون وحالة الحركة المنتظمة ومدافعة الجسم وطلبه البقاء على حاله ومقاومته للتغيير ، وهي ذاتية خاصة بالجسم ، حال سكونه وحال حركته(١٥٠) .

ومن ناحية أخرى ، فقد تضمنت مباحث ابن الهيثم معنى القصور الذاتي ، فقد ناقش ذلك في وصفه حركة الكرة بعد ارتدادها من السطح ، اذ لا تلبث الكرة حتى تهبط الى أسفل للقوة الطبيعية المحركة لها الى أسفل ، كما أسند تغير قوة الحركة من حيث الكم والمقدار الى القوة ، وذلك واضح من اسناد تغير الحركة الى فعل الممانعة في أقواله عن الانعكاس وعن الانعطاف ، وكذلك في تحليله لفكرة الحركة الى مركبتين متعامدتين(١٥١) . وقد تضمن كتاب المناظر شرحا للأوضاع التي يراها ابن الهيثم لتصادم الأجسام .

لقد كانت دراسة الحسن بن الهيثم لحركة تصادم الأجسام دراسة علمية مؤيدة بالتجربة والتحليل ، فأمكنه التوصل الى القواعد الأساسية التي تحكم هذه الحركة ، ووقف على معنى كمي للحركة ، وقدم ابن الهيثم أول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام ، على أساس تباين ممانعة الاجسام للانفعال بالمصادمة(١٥٢) .

القانون الثاني :

وينص هذا القانون على أن القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك وتسارعه ، وبالتالي فانها تقاس بحاصل ضرب الكتلة والتسارع بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوة وعلى خط ميلها وبلغتنا الحديثة « تتناسب العجلة التي يتحرك بها جسم تناسبا طرديا مع القوة المؤثرة عليه ، وتناسبا عكسيا مع كتلته » .

ونستطيع القول أن العرب قد وقفوا على بعض المعاني الواردة فيه ، ولم يتوصلوا الى منطوق القانون ذاته ، ولنستعرض مقولات العلماء بهذا الصدد ، فابن سينا يرى بأن القوة في الجسم الأكبر ، اذا كانت مشابهة للقوة في الجسم الأصغر حتى لو فصلت من الأكبر مثل

---

(١٤٨) نصر (سيد حسين : ثلاثة حكماء مسلمين ، ٤٨

(١٤٩) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢/ ٢٨٣

(١٥٠) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦١

(١٥١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٤٨/١

(١٥٢) جلال شوقي : تراث العرب ، ٥٥

Singer Ashort History & Scientific Ideas, P.153-155

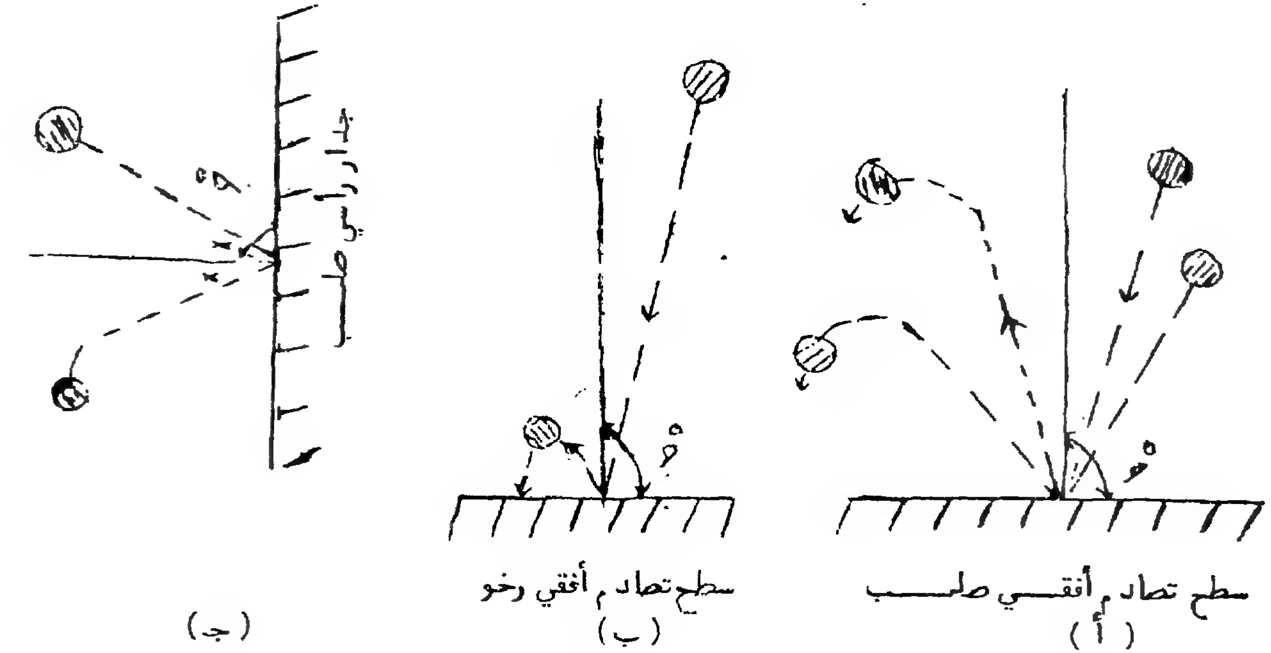

سطح تصادم أفقي صلب
(أ)

سطح تصادم أفقي رخو
(ب)

(جـ)

(شكل / ٢ مسار الجسم الصادم قبل وبعد المصادمة)

عن كتاب تراث العرب العلمي في الميكانيكا لجلال شوقي

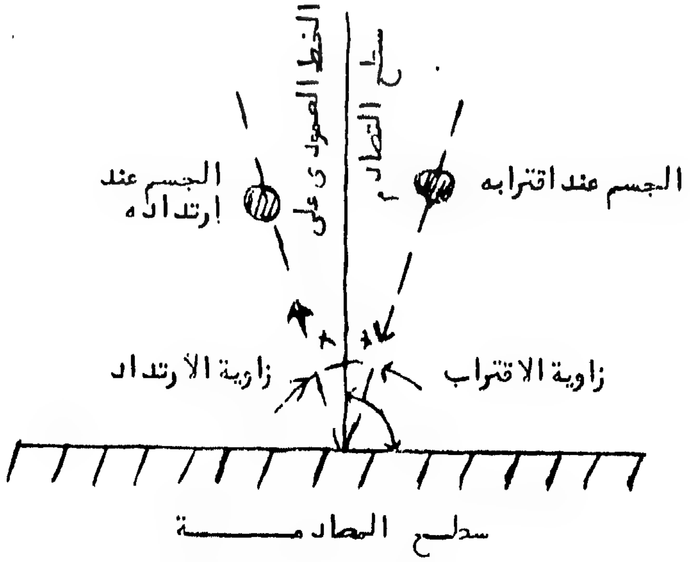
الخط العمودي على سطح التصادم
الجسم عند اقترابه
الجسم عند ارتداده
زاوية الارتداد
زاوية الاقتراب
سطح المصادمة

(شكل/٢ تساوي زاويتي الاقتراب " السقوط " والارتداد (الانعكاس)
عند تصادم جسم مع سطح أملس .

الأصغر ، تشابهت القوتان بالاطلاق ، فانها في الجسم الأكبر أقوى وأكثر ، اذ فيهما من القوة شبيه تلك الزيادة ، ويضيف ابن سينا بأن الجسم الأقل مقدارا أقبل للتحرك وأسرع حركة(١٥٣) .

ويؤكد فخر الدين الرازي ، ازدياد القوة الطبيعية مع عظم الجسم ، فالأجسام كلما كانت أعظم كان ميلها الى احيازها الطبيعية أقوى ، فاذا كانت كذلك ، كان قبولها للميل القسري أضعف (١٥٤) .

وذهب لمثل ذلك نصير الدين الطوسي في معرض شرحه لاشارة ابن سينا في الفصل التاسع عشر من النهج السادس من الالهيات ، وقد جاء منها « اعلم أنه لا يجوز أن يكون جسم ذو قوة غير متناهية يحرك جسما غيره ، لأنه لا يمكن أن يكون الا متناهيا ، فاذا حرك بقوته جسما ما ، من مبدأ نفرضه ، حركات لا تتناهى في القوة ثم فرضنا أنه يحرك أصغر من ذلك الجسم بتلك القوة ، فيجب أن يحركه أكثر من ذلك من المبدأ المفروض ، فتقع الزيادة التي بالقوة ، في الجانب الآخر ، فيصير الجانب الآخر متناهيا أيضا ، وهذا محال(١٥٥) ويشرح نصير الدين الطوسي هذه الاشارة على الكيفية التالية ، ان القوة التي لا نهاية لها ، هي التي تكون على أعمال أو حركات غير متناهية ، والحركة غير المتناهية هي الدورية ، وفي مثل هذه الحالة ، فان القوى الجسمانية غير متناهية ، ثم اذا فرضنا ان ذلك الجسم المحرك ، يحرك جسما آخر شبيها بالجسم الأول في الطبيعة ، وأصغر منه في المقدار ، بتلك القوة عينها من ذلك المبدأ المفروض ، فيجب أن يحرك الثاني أكثر من الأول ، وذلك لأن المقسور انما يعاون القاسر بحسب طبيعته المخالفة لطبيعة القاسر ، ويستنتج نصير الدين بأن القوة غير المتناهية لو حركت بالغرض جسمين مختلفين ، لوجب أن يكون تحريكها اياهما متفاوتا(١٥٦) .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي ت ٥٤٧ هـ في كتابه « المعتبر في الحكمة » بازدياد السرعة عند اشتداد القوة ، فكلما زادت قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك وقصر الزمن لقطع المسافة المحدودة .

وكل هذه النصوص تبين أن العرب قد وقفوا على ما يكاد يكون كل معاني القانون الثاني للحركة ، وان لم يتوصلوا الى صياغته بشكل رياضي مناسب كما فعل اسحق نيوتن بعدهم(١٥٧) .

القانون الثالث :

وينص هذا القانون على أن « لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ، ومضاد في الاتجاه » .

ولنا أن نقرر ، أن العرب قد قالوا بأصول هذا القانون وعلى الأخص ، أبو البركات ، هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه المشار اليه سابقا ، وكان يراقب لعبة شد الحلقة من قبل متصارعين ، فذهب الى أن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين ، لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر ، فان غلب أحدهما ، كانت قوته مقهورة وليست معدومة .

---

(١٥٣) ابن سينا : الطبيعيات ، ١٥ ، جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٦

(١٥٤) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٧

(١٥٥) ابن سينا الاشارات والتنبيهات ، ٣/١٦٥

(١٥٦) المرجع السابق ، ١٦٧

(١٥٧) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٩

أما فخر الدين الرازي ، في كتابه « المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعيات » عند حديثه عن الميل والمدافعة ، فيرى ، أن وقوف الحلقة في الوسط بين المتجاذبين تدل على فعل كل منهما فيها فعلا متساويا وهو يتعدى المدافعة أي قوة الدفع وهو غير قوة الجذب أيضا . ويقرر أن الذي فعله كل منهما لو خلي عن المعارض (العائق) لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه ، وانتهى أن ما حدث يتعدى العلة الطبيعية والقوة النفسانية .

ومجمل القول ، أن العرب بالفعل قد توصلوا الى أصول القانونين الأول والثالث للحركة ، وكادوا أن يتوصلوا الى القانون الثاني للحركة في صورته الكاملة(١٥٨) .

أما الجاذبية الأرضية :

فقد درس العرب منذ القرن التاسع الميلادي ، قوة التثاقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية ، وسموها القانون الطبيعي أو الميل الطبيعي ، حيث افترضوا أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون ، فاذا ما أخرج منه قسرا ، نزع الى استعادة مكانه الطبيعي . وقد درس مجموعة من العلماء تفاصيل تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية . ومنهم على سبيل المثال ، ثابت بن قرة ، واخوان الصفا ، والبيروني وابن سينا ، وأبوالبركات هبة الله بن ملكا البغدادي وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي ، وذهبوا الى أن الجسم وهو يجاهد ليأخذ مكانه الطبيعي ، انما يسلك في ذلك أقرب الطرق ، الخط المستقيم ، كما حاولوا أن يعللوا العديد من خواص الجذب ، فالمدرة عند ثابت بن قرة انما تعود الى السفل ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض من البرودة واليبوسة والكثافة ، والشيء ينجذب الى مثله والأصغر ينجذب الى الأعظم ، والى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد . وعند اخوان الصفا أن الاجسام وهي في أمكنتها الطبيعية الخاصة لا توصف بالخفة أو الثقل ، فاذا ما خرجت من أمكنتها وصفت بالثقيلة ، ان كانت حركتها نحو المركز (مركز الأرض) ، وبالخفيفة ان كانت حركتها نحو المحيط ، ولعل الثقل والخفة تكون أيضا بسبب الموانع التي تعوق الجسم من أن ينتظم في مكانه الطبيعي ، فيقع التنازع ، ويكون على أشده في المركز وأضعفه في المحيط(١٥٩) ولا تتعدى آراء ابن سينا هذا الاطار في الثقل والخفة ، ولم يأت فيها بجديد ، وانما عرضها على النهج الارسطوطالي ، فلكل جسم مكانه الطبيعي أو ميزة تقتضي طبيعته أن يتحرك اليه ، فالنار مثلا تتحرك الى أعلى ، والجمر عادة وطبيعيا يتحرك الى أسفل(١٦٠) ، والمتحرك الى الوسط هو الذي يسمى ثقيلا ، اما المتحرك عن الوسط فيكون خفيفا(١٦١) ، وقد علق فخر الدين الرازي على هذه المسألة بأن كل جسم له ميل الى المكان الملائم وميل عن المكان الغريب ، والميل هو الثقل والخفة(١٦٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك علماء العرب ، أن قوة

---

(١٥٨) المرجع السابق ، ٧٢

(١٥٩) اخوان الصفا : الرسائل ، أنظر رسالة السماء والعالم

(١٦٠) أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ٣٠٣ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٨٨

(١٦١) ابن سينا : الطبيعيات ، ٩

(١٦٢) المرجع السابق ، ٩٩

التثاقل تزيد بكبر الجسم وانها تسلك أقصر الطرق في تساقطها ، وتزيد سرعته مع مسافة السقوط ولا تعتمد تلك السرعة على كتلة الجسم ، وبهذا الصدد يذكر هبة الله بن ملكا في كتابه المعتبر في الحكمة « وأيضا لو تحركت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد ، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، في السرعة والبطء ، لأنها انما تختلف الملائمة بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق ، كالماء والهواء وغيره(١٦٣) . وهذه الأخيرة انما هي مبادىء للديناميكا الهوائية ، حيث ان مقاومة الهواء تختلف باختلاف الشكل الهندسي للجسم الذي يخترق الهواء ، فالسهم المائل مثلا يجعل من الهواء وسطا حاملا له ، في حين أن الشكل المخروطي يلقي مقاومة من الهواء . ولعمري انها اللبنة الأولى لدراسة حركة الأجسام في الهواء ، وما يسمى في عصرنا « الديناميكا الهوائية »(١٦٤) .

ولم تتوقف بحوثهم عند هذا الحد ، فقد أدركوا أن للهواء وزنا ، وأن له قوة رافعة كما في السوائل(١٦٥) ، وأدرك الخازني أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وعلل ابن سينا حركة الرياح بتخلخل جهة من الهواء لسخونة أو برودة وكذا الشمسيات التي هي كالشموس ، خيالات تحدث في مرآة شديدة الاتصال والصقالة ، والنيازك عند ابن سينا ، خيالات أيضا في لون قوس قزح ، الا انها مستقيمة ، تكون في جنبة الشمس يمنة عنها أو يسرة ، لا تحتها ولا أمامها ، وقلما تظهر عندما تكون الشمس في نصف النهار ، وانما عند الطلوع أو الغروب ، ولا يختلف هذا القول عن ما ذهب اليه العلم الحديث . وقد صحح البيروني مقولات الهنود حول ظاهرة المد والجزر ، وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر(١٦٦) .

ولعل البيروني خير من فهم هذه الناحية من العلماء في عصره فهما علميا صحيحا ، فقد عرف بأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها ، وأن الأجسام تنزع دوما الى المركز(١٦٧) ، وأورد الادريسي أن الأرض جاذبة لما في أبدانهم (أي أبدان الاجسام) من الثقل وتكون الارض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد . وعرف الخازني في « ميزان الحكمة » أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها الى مركز الأرض ، وتجاوز ذلك الى معرفة نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام ، « فالثقل هو القوة التي يتحرك بها الجسم الثقيل الى مركز العالم » والسرعة تزيد عندما يكون الوسط (الهواء) رطبا وغيرها من الأمور(١٦٨) .

ومن ناحية أخرى ، فقد سخر العرب ظاهرة الجاذبية الأرضية لخدمة حياتهم اليومية ، وخاصة في الابرة المغنطيسية ، اذ استعملوها في أسفارهم البحرية لتحديد الاتجاهات ، ولأغراض أخرى ، بعد تطور معرفتهم العلمية ، ومع أن اليونان قد عرفوا المغناطيس ، وتأكدوا من اتجاهه نحو الشمال والجنوب على الأقطاب المغناطيسية الأرضية ، الا انهم لم يعرفوا

---

(١٦٣) جلال شوقي : تراث العرب ، ٨٣

(١٦٤) هبة الله بن ملكا : المعتبر ، ١٠٧/٢

(١٦٥) الخازني : ميزان الحكمة ، ٥

((١٦٦) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ٤٢٨/١٣٧

(١٦٧) المرجع السابق ، ، ٢٢٣

(١٦٨) الخازني : ميزان الحكمة ، ١٦ ـ ٢٠

البوصلة ، الاختراع الذي تنازعه كل من الصينيين والعرب والطليان ، وتسقط دعوى الايطاليين لأنها تنسبها الى جيرارد الكريموني ، والذي أثبتت الدراسات المحدثة الموثوقة ، ان جيرارد اعتاد أن ينسب ما ترجمه من التراث العربي لنفسه ، فيدعي التأليف وما هو بأكثر من مترجم وحتى مترجم ضعيف لأنه لم يكن يجيد العربية ، اما الادعاء الصيني فان المؤرخ الصيني Chuyu يذكر أن الصينيين عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجانب هنود أو عرب ، وحيث أن المراجع الهندية لا تذكرها ، فاننا نرجح انها وصلت الصين مع الملاحين العرب الذين كانوا يجوبون الهند والصين في رحلاتهم البحرية وأن البوصلة تطوير عربي لفكرة الابرة المغناطيسية وامرها معروف .

ومن الجدير بالذكر ، ان بطرس فون ماريكو ، نقل مباشرة معلوماته عن المغناطيس من العرب ، وكذا كيفية استعمال البوصلة ، وأدخلها الى أوربا ، ورسالته المسماة « Epistole Mayneie » مشهورة ومعروفة في الأوساط العلمية الأوربية(١٦٩) .

أثر الفيزيائيين العرب في الترقي الأوربي :

يعد ابن الهيثم أعظم الفيزيائيين العرب بابتكاراته واختراعاته المتعددة ، ويبدو ان اهتمام علماء أوربا به في بدء نهضتهم يفوق اهتمامهم باي عالم آخر ، ولعل سارطون أصاب كبد الحقيقة حين قرر « ان ابن الهيثم هو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله » . ويبدو ان شهرة ابن الهيثم الأوربية ، انما تعود الى اطلاع الاوروبيين على كتابه « المناظر » منذ فترة مبكرة ، لا سيما وان كتابه « المناظر » يعتبر أهم كتاب ظهر في القرون الوسطى ، لانه استوفى العديد من البحوث الضوئية ، وعالج القوانين الأساسية للانعكاس والانكسار والانعطاف ، تلك القوانين التي تعرف خطأ بقوانين ديكارت بالاضافة الى المواضيع الأخرى ، مما حدا بـ H.Sutter أن يذكر بأن هذا الكتاب « المناظر » قد أثر تأثيرا عظيما في دراسة علم المناظر أثناء القرون الوسطى من عهد روجر بيكون الى عهد كيلر(١٧٠) .

كان العالم البولوني Witello أول من نشر كتابا في البصريات في أوربا سنة ١٢٧٠ م . ، وضعه كما قال هو نفسه على أساس ما جاء في كتاب بطليموس القلوذي ، وكتاب آخر لمؤلف عرف في العالم اللاتيني باسم « AL-Hazen »(١٧١) وما هو الا الحسن بن الهيثم .

ان هذه الاشارة التي أوردها « witello » ، كانت بداية التوجه الأوربي نحو دراسة منجزات الحسن بن الهيثم ، ومن يومها ، وأبحاث الحسن بن الهيثم تجد مكانها في الدراسات الأوربية اما بصورة مشتهرة أو بالاقتباس الضمني ، فقد درس جون بيكام سنة ١٢٩١ م ما أسماه « علم المناظر » ولدى تدقيقه من قبل الدوميلي ، خلص الدوميلي بنتيجة مؤداها « ان مناظر J .peckam ليست الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم »(١٧٢) . أما روجر بيكون فكان أكثر نبلا ممن

---

(١٦٩) الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٥٣٦

(١٧٠) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٩٢

(١٧١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢

(١٧٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٠٨

سبقوه ، فاعترف بأيدى ابن الهيثم فيما توصل اليه من نتائج دراساته البصرية والضوئية سنة ١٢٩٤ م . وقد نشر رزنز سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها « الذخيرة في الأوبتيكي للحسن » وقد بقيت الترجمة دستورا للبصريات حتى القرن السابع عشر(١٧٣) . وتواكبت الدراسات عن ابن الهيثم فيما بعد ، فقد اطلع E .Weidemann على مخطوط عربي عنوانه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » لكمال الدين الفارسي ، فألف على أثرها zu ibn alhaitams optik ، وترجم كيفية الأظلال ، وفقرات من رسالته في المكان ، ومسألة ابن الهيثم العددية ، التي أشرنا اليها سابقا ، ورسالته في المرايا المحرقة بالدوائر(١٧٤)

ومن الدراسات المحدثة التي جعلت ابن الهيثم وكشوفه عناوينها الرئيسية نذكر :

H. J. Winter: The Optical researches of Ibn Al-Haitham in Contaurus, 31 (1954) p. 19-120

O. S. Marshall: Al-Hazen and the telescope, Astronomical society of the pacific; San Francisco, 1950

Donald, R. Hill: On the Construction of water Clocks, The Art Bulletin, 11, 1920,p.206-214 .

Library of the University of Leiden .

وقد ترجم جيرار دي كريمونات ١١٨٧ ، رسالة ابن الهيثم في الشفق ، ونشرت رسالته في الضوء في المجلة الآسيوية - الألمانية (z d m g) في العدد ٣٦ ، الصفحات (١٩٧ - ٢٣٧) ، نشرها المستشرق بارمان ، وفيها بحث عن ماهية الضوء وكيفية انتشاره والأجسام المشفة التي تنفذه .(١٧٥) .

وترجم Carl Shoy مقالة ابن الهيثم في الأثر الظاهر في وجه القمر ، وكان عنوان مقالته في سنة ١٩٢٥ ،

Abhandlung des Shaicks... Ibn Al-Haitham: Uber die Natur der Spuren (Flecken), die man der Oberflache Des Mondes sieht, Hannover, 1925.

واعادها عبد الحميد صبره فيما بعد في مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ، العدد الأول ونشر أرمان آبل بحثا عن المقالة بالفرنسية بعده بعشر سنوات وعنوانه

La Selenographie d'Ibn Al-haitham (965-1039) das ses rapports avec la sciences, Bruxelles, 19-23, Juin, 1935,p. 76-81. (١٧٦)

ومع أن كاجوري يقر في كتابه history of physics ، بأن الحسن بن الهيثم كان أول طبيب وصف العين بصفة تشريحية ، فقد نسب اكتشاف الخزانة

---

(١٧٣) مختار القاضي : أثر المدينة الاسلامية في الحضارة الغربية ، ٢١١

(١٧٤) المرجع السابق ، ٢١١

(١٧٥) المشرق : السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧

(١٧٦) عبد الحميد صبرة : مقالة الحسن بن الهيثم ، حلب ، المجلد الأول ، العدد الاول ، أيار سنة ١٩٧٧ ، ٥ عبد الرحمن بدوي : أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم ، عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ٣٩

المظلمة ذات الثقب الى باتيستا دلابورتا من خلال وصفه لها في كتابه Magia naturalis (السحر الطبيعي) . ونحن وان كنا نقدر له رأيه ، فنورد ان حنين بن اسحق في مقالاته العشر عن العين قد سبق ابن الهيثم في تشريح العين ، كما أن دلابورتا يثير في كتابه المذكور ، مسألة تأثره بما توصل اليه ابن الهيثم بهذا الصدد(١٧٧) ، ولعل ابن الهيثم قد فسر عمل الكيرا تفسيرا مقبولا من الناحية النظرية والعلمية .

ولم يقتصر اهتمام علماء أوربا على منجزات الحسن بن الهيثم دون غيره ، فقد ترجمت أيضا بصريات الكندى الى اللاتينية ، وكان لها أثر في أعمال روجر بيكون وغيره . اما الكندي ت ٢٥٢هـ/٨٨٦ م فينسب اليه أكثر من ٢٦٥ بحثا على شكل رسالة ومقالة وكتاب في الفيزياء والطقس والمد والجزر والبصريات والصوت والموسيقى ، بالاضافة الى ماكتبه في المطر والضباب والرياح وأسبابها واتجاهها والكثافة والثلج والبرد والصواعق والرعد واختلاف سرعة الضوء عن سرعة الصوت(١٧٨) . ومعظم هذه الأبحاث وجدت طريقها الى الترجمة المبكرة .

وأخيرا فان نظرية ابن سينا حول القصور الذاتي ، ظهرت لأول مرة بصورة واضحة في كتابات peter olivi ، وحرفت على يد جون بوريدان غير أن البحث الأوربي المنصف اعترف بما قدمه علماء الفيزياء العرب في مجالات الحركة والقوى والجاذبية ، مما يتعذر معه على أي باحث في تاريخ العلوم ان يتجاوزه .

أما ما قدمه العرب في علم الحيل وصنعة الأواني وتأثر الأوربيين بها وعلى الأخص الروافع ، فهذا مما أشرنا اليه في القسم الأول من بحثنا هذا .

ان تاريخ العلوم حلقات متصلة ، وان تجاوز بعضها ، باعتبارها ليست ذات شأن يضعف حلقة النتاج الجديدة ، ولا يضر بأية حال بنية الحلقة المتخطاة ، وعندها ، فان اعادة الربط والوصل بين الحلقات يصبح أمرا محتما ، وهذا ما نحاول أن نجذره ، فهلا تعاونا ؟!

* * *

---

(١٧٧) لطيف : الحسن بن الهيثم ، ١٨٠ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢١٢

(١٧٨) مرحبا : المرجع في تاريخ ، ٣٢٣ .

قراءة ثانية في معجم البلدان لياقوت الحموي

احسان صدقي العمد
وزارة الاعلام ـ الكويت

(ملخص)

يعتبر معجم البلدان اهم مصنف في تراث الادب الجغرافي العربي ، وقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول هذا الكتاب ، حتى قال كراتشكوفسكي « لعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي افرد لياقوت[1] » . لكن الدراسات والابحاث السابقة كانت في معظمها تتناول ـ على اهميتها ـ موضوعا واحدا من الموضوعات العديدة التي اشار اليها ياقوت عرضا أثناء تصنيفه الكتاب ويحاول هذا البحث من خلال قراءة متأنية لمعجم ياقوت البلداني النفيس ، أن يقدم عرضا موضوعيا لهذا المعجم ، ويوضح منهج صاحبه في البحث العلمي ، كما يبرز بعض الملامح السياسية الهامة التي يتضمنها معجم البلدان ، وبخاصة تلك المتعلقة بعصر ياقوت المضطرب الذي واكب المرحلة الاخيرة من الحروب الصليبية ، وطلائع الغزوة المغولية المدمرة للمشرق الاسلامي ، وكان للملامح الاقتصادية البارزة نصيب في هذا البحث ، وفي مقدمتها تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية ومصادر الثروة الاقتصادية والتجارية فيها ، اضافة الى بعض الظواهر الاجتماعية المتميزة التي رافقت تطور المجتمع العربي الاسلامي منذ الفترة السابقة على ظهور الاسلام وحتى عصر المؤلف الذي يغطي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ، أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وعرض البحث كذلك الى بعض السمات الثقافية للحضارة الاسلامية كما أشار اليها ياقوت في معجمه علاوة على التعرف على مصادره ومراجعه التي استقى منها معلوماته ومواد معجمه . ولم يغفل البحث الاشارة الى الملامح الأثرية المتناثرة في ثنايا

---

[1] كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ١٩٦٣ ، ١٠/٣٣٧ .

الكتاب ، ناهيك عن الدراسات الرائدة التي كتبت عن معجم البلدان .

تمهيد :

الذين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والادبية كثيرون ، منهم المعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون . وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم في معرض تقويمهم لتلك الآثار ، في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالافاضة والتخصيص . فابن خلكان وهو من المعاصرين ، يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية في تحصيل المعارف . . . وان الناس كانوا عقيب موته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه »(٢) ، والذهبي وهو من اللاحقين ينعته « بالأديب الاخباري صاحب التصانيف الادبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك »(٣) . وهو عند ابن تغري بردى المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط »(٤) .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى اهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فرين (Frahn) الذي كان اول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به ، وتبعه زميله سنكوفسكي (Senkowski) الذي وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة . . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار »(٥) وقفى عليه الأسباني بونس بويجس (Pons Boigues) فذكر أنه أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول افضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى » وأشار كراتشكوفسكي (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة . . فهو جماع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة »(٦) . وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للاشارات التجارية التي وردت فيه ، واعتبره أثرا جليلا في هذا الميدان ، كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافية(٧) . ونوه به المستشرق الفرنسي كارادوفو (Carra de Voux) حين قال « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر »(٨) .

واولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مماثلا بمعجم البلدان ، فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « اهمية فائقة ، اذ يصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي اصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر

---

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/ ١٨٠، ١٨٩ .

(٣) الذهبي : العبر ، ١٩٦٦ ، ٥/ ١٠٧ .

(٤) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ٨/ ١٨٧ .

(٥) فستنفلد : مقدمة معجم البلدان ، ١٨٦٦ ص٧

(٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ، ١٩٦٣ ، ٣٣٥، ٣٣٦

(٧) ارنولد : تراث الاسلام ط١ ، الترجمة العربية ، ١٩٧٢ ، ١٤٤

(٨) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافيا ، ١٩٥٩ ، ١/ ٧٤

الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، وهدانا الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصول عليها ، كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث »(٩) . وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية »(١٠) . وهو عند حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الاكبر ، وكنزها الذي يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية في كل العصور »(١١) . وعند عمر كحالة « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية واخبار الرحالين التي جمعها السلف »(١٢) .

صاحب المعجم :

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الاسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ، ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكر بن أبي نصر بن ابراهيم الحموي فيسميه ياقوتا ، وينسبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوت باحد الكتّاب لينتفع به فيما بعد في ضبط تجارته ، فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت أفقه ، ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها منطقة الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانيء الخليج وجزره ، وبخاصة جزيرة قيس التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي . وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر ، يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب ، حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسّب منها ، وحصّل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ، ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمضاربة . وقد أعطاه الأخير مالا خرج به للتجارة في جزيرة قيس ، فلما عاد من رحلته تلك الى بغداد عام ٦٠٦هـ ، وجد مولاه عسكر بن ابي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به ، وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله ، واستمر يعمل في التجارة بما فيها تجارة الكتب ، فكان يطوف بالبلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ، ويتعرف على العلماء وكبار القوم الذين يرغبون في هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق . لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت(١٣) .

وفي اثناء تجوال ياقوت في مدن خراسان أدركته جيوش التتار في مدينة مرو التي أحبها كثيرا وتمنى ان يقضي بقية حياته فيها ، فغادرها مكرها الى اربل ،

---

(٩) نفيس احمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ١٩٧٨، ١٠٣، ١٠٧

(١٠) زيدان : تاريخ آداب ، ١٩٦٧، ٢/ ٩٢

(١١) مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ١٩٦٧، ٤١٨

(١٢) كحالة : التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية ، ١٩٧٢، ٢٤٠

(١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩، ٥/ ١٧٨ - ١٨٩

ومنها الى الموصل بعد ان قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفي الموصل استأنف ياقوت عمله في نسخ الكتب ، وقد نسخ منها الكثير ، اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت٦٥٤هـ /١٢٥٦م) الذي التقى بياقوت في الموصل ، ان ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد »(١٤) . واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦هـ ـ ٦٠٣هـ) ، امكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات اخرى من الكتب ، وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو في الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته وبخته . . . ويذيب نفسه في تحصيل اغراض هي لعمر الله اغراض من صحف يكتبها واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتاعه بها قليل ثم الرحيل . . . وهيهات مع حرفة الادب بلوغ وطر او ادراك أرب »(١٥) . وكتب ياقوت وهو في الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفادة عليه والاقامة في كنفه ، فلم يخيب القفطي رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث استمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى اهل العلم والادب . واكمل خلال تلك الفترة مسودة معجم البلدان الذي اهداه الى الوزير القفطي اعترافا بفضله عليه ٠ ولم يلبث ياقوت ان توفي في حلب وهو في الخمسين من عمره (٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ) (١١٧٨ ـ ١٢٢٩م) .

وقد صنف ياقوت بالاضافة الى معجم البلدان عدة كتب وصل الينا منها ارشاد الاريب الى معرفه الاديب المشهور بمعجم الادباء ، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا . وفقد من مؤلفاته كتاب المبدأ والمال في التاريخ ، وكتاب الدول ، ومجموع كلام ابي علي الفارسي ، وعنوان كتاب الاغاني ، وكتاب أخبار المتنبي ، وكتاب معجم الشعراء . وقد اتهم ابن الشعار الموصلي ياقوت بأنه « كان ضنينا بما يجمعه ، لا يحب اطلاع احد على ما يؤلف ، شديد الحرص عليه ، لايفيد لمخلوق فائدة البتة ، وكان ربما سئل عن شيء وهو به عارف ، لم يجب عنه ، شحا وجفاء طبع ، هكذا كانت شيمته مع الناس ، وخلف كتبا ، وأوصى أن توقف ببغداد بدرب دينار بمسجد الشريف الزيدي ، شاهدته بالموصل ، وهو كهل أشقر أحمر اللون ، أزرق العينين ، وكانت بينه وبين أخي صداقة وأنس تام . واقتضيته شيئا من شعره ، فأجاب الى ذلك ، وجعل يماطلني ويعدني هكذا مدة من الزمان ، ثم سافر الى الشام فما عدت رأيته بعد ذلك »(١٦) .

وقد يكون في هذا الاتهام بعض مبالغة المتعاصرين وتنافسهم ، الا ان ياقوت يشير الى شيء من ذلك في مقدمته لمعجم الأدباء التي يقول فيها : « فقد رآني جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لآليء هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحلى على ترائب الكعاب ، فاستحسنوه ، والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم وبخلا بعطف جيده عليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين من العين والجنان ، مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها

---

(١٤) ابن الشعار : عقود الجمان ، خ استانبول ، ٩/ ١٧٠

(١٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩، ٥/ ١٨٤، ١٨٧

(١٦) ابن الشعار : عقود الجمان ، ٩/ ١٧٠ ، ابن المستوفي ، تاريخ اربل ، قسم٢ ، ٥٢٨

ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جُبلت ، وسجية اليها جُبرت . . وقد أقسمت ألا أسمح باعارته ، مادام في مسودته . . فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه في استوائه وما أظنهم يشقون غباره ويحسنون ترتيبه وأسطاره ، وأن وقفت لنظر الجميع ، فستعرف الظالع من الضليع ، فاذا هذبته ونقحته وبيضته ، فتمتع به ، واذكرني في صالح دعائك »(١٧) .

وفي قول ياقوت تبرير معقول لهذا التصرف الذي أجبر عليه كما يقول خوفا من أن يحذوا أقرانه حذوه مادام في مسودته ولم يخرج الى النور بعد ، فربما سطوا عليه أو انتحلوه وهو امر له في تاريخ الأدب العربي أشباه ونظائر . ولعل ذلك هو ما جعل ياقوت يقول في مقدمته لمعجم البلدان : « ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه الا يضيع نصبي ، ونَصْب نفسي له وتعبي(١٨) .

معجم البلدان :

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في طبعة بيروت المتداولة . وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته ، حيث بادر في تسويد أوراقه خشية بغتة الموت قبل تبلج فجره على حد تعبيره . وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ، ورفض بشدة اختصار الكتاب ، والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره . ويذكرنا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة ، الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة . ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر ، الا ان ياقوت تمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه(١٩) .

ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة ابواب ، وهو بعامة ، يغطي اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامي . ونشير ابتداء الى الاهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم ، لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلي :

أولا : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه ، وتتلخص في ما جاء في القرآن الكريم من حث للبشر على السير في الارض والتفكر في عاقبة من عمروها قبلهم ، وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارهم وفتوحها ووصف جغرافيتها ، والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب(٢٠) .

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين ، بالاضافة الى الفوائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ اهل الادب ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في اسفاره وحصّله في تطوافه وهو كما يقول اضعاف ذلك(٢١) .

---

(١٧) ياقوت : معجم الادباء ، القاهرة ، ٥٨/١ ، ٦٢، ٦٣ ، الظالع : المتهم

(١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٥٥، ١٣، ١٤

(١٩) قارن : ياقوت ، معجم البلدان ، ١٩٥٥ الظالع : المتهم ، ١٣/١ ، البغدادى ، تاريخ بغداد ١٦٣/٢

(٢٠) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١ ـ ١٠

(٢١) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١١/١ ـ ١٢

ثالثا : منهج تأليف المعجم ، من حيث حرصه على توخي الدقة في الوصف ، وضبط الاسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك ، والاشارة الى ذلك قولا وكتابة منعا للبس والتحريف والتصحيف ، اضافة الى ميله الى الشرح والتفصيل ونفوره من الاجتزاء والاختصار ، وتنبيه القاريء الى ما يرد في الكتاب أحيانا من أساطير ، تبرأ من صحتها ، وأوردها على علاتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها ، وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطير تهم الباحثين في علم الميثولوجيا .

رابعاً وأخيراً : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب ، والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس ، عله يظفر منهم بالثناء والدعاء ، فينال ذكرا زكيا من المؤمنين ، ويحشر في زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو(٢٢) .

وأما البابان الأول والثاني فتنحصر فوائدهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها ، في حين افرد ياقوت الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم ، كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرستاق والطسوج ، والسكة بمعنى الطريق ، والمصر ، والقطيعة ، وغيرها ، سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتصنيف . وخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفيء والغنيمة ، وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان . وكانت المقدمة والأبواب الخمسة الأولى من كتاب معجم البلدان والتي لا تتجاوز الاربعين صفحة ، موضوع رسالة دكتواره لوديع جويدة ، نشرت في ليدن عام ١٩٥٩ بعنوان :

Jwaiden, Wadie: The Introductory Chapters of Yaqut‘s Mu‘jam AL-Buldan, Leiden, 1959.

طريقة ياقوت في البحث العلمي :

التزم ياقوت طريقة علمية دقيقة في معجم البلدان تتمشى مع الروح الواضحة في مقدمته . وقد نوه بذلك عبد المعين الموحي في بحثه عن « الفكر العلمي عند ياقوت الحموي »(٢٣) . وتبدأ هذه الطريقة بذكر الأسماء الواردة فيه على حروف المعجم ، مع التأكيد على كتابة شكل تلك الاسماء بالحروف خوفا من الالتباس والتصحيف . ثم يعرض بايجاز سبب التسمية واشتقاقها اللغوي ، ويحدد مواقع البلدان وظروف فتحها في كثير من الاحيان ذاكرا اي معلومات مفيدة عنها ، ويخلص الى التنويه بأسماء المشهورين المنسوبين اليها . فكان معجم البلدان بهذه الطريقة اشبه ما يكون بالموسوعة الجغرافية والتاريخية واللغوية والادبية ، وجاء هذا المعجم اوفى واشمل عمل عربي من نوعه بعد معجم ابي عبيد البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) . ويبدو ان هذا الشكل الموسوعي في التأليف لم يرق لبعض المتأخرين على ياقوت مثل ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) والسيوطي (ت ٩١١هـ /١٥٠٥م) على اساس ان المعجم الجغرافي

---

(٢٢) معجم البلدان : ١/ ١٢-١٣

(٢٣) مجلة مجمع دمشق : مجلد ٤٦/ ٣٥٢

« ينبغي ألا يخلط به غيره مما يُبيِّن في علم آخر لئلا يتشعب الفهم ويطول الكلام فيؤدي الى الاملال ، وهذه حال معجم البلدان ، فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والبقاع على الربع المسكون من الارض مما ورد به خبر او جاء في شعر ، وبيان جهته من الارض وموضعه من اصقاعها ، فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه »(٢٤) .

لكن هذا الخلط والتنويع اللاحق بالمعلومات الجغرافية المجردة الواردة في معجم بلدان ياقوت ، مهما كان الرأي فيه ، فانه يضفي على المعجم ترويحا وجمالا وفائدة يحس بها كل من أسعفه وقته بقراءة هذا المعجم المفيد ، كما أن ذلك يدل من ناحية اخرى على ثقافة ياقوت المتنوعة الواسعة ، والمامه الجيد بتواريخ البلدان واخبارها ، وتمكنه من لغة العرب وانسابهم ووقوفه على اشعارهم(٢٥) اضافة الى معرفته بالفارسية وبشيء من اللاتينية ، كما يتضح ذلك من تفسيره الصحيح لاشتقاق اسماء بعض الاماكن والبلدان ، ويتجلى هذا على سبيل المثال في اثناء حديثه على طرابلس ، وطيزناباد ، وهمذان(٢٦) .

على ان اتباع حروف المعجم في ذكر المواد ، وان كان الغرض منه تسهيل طريق الفائدة من معجم البلدان من غير مشقة كما يقول صاحبه(٢٧) ، الا ان هذه الطريقة تفتت المعلومات البلدانية الخاصة بكل جزء من العالم الاسلامي ، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ على السنين الذي يبعثر المادة التاريخية ولا يربط بين موضوعاتها . ولكن ليس بالامكان تجنب هذا التوزيع في المعاجم الابجدية بعامة ما دمنا نروم الحصول على المعلومات المطلوبة بأقل جهد وأقصر وقت . ومع ذلك فقد بذل ياقوت جهدا رائعا ومشكورا في عرض مواد معجمه ، بهمة عالية وعمل دؤوب ، ويمكن للباحثين المحدثين ان يصوروا خارطة كبيرة لذلك العالم الذي وصفه ياقوت ، ويحاولوا جهدهم وضع اسماء البلدان والأماكن في مواقعها ، وبالتالي يسهل استخراج خارطة مماثلة لكل جزء من ذلك العالم ، كما فعل المستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (Barbier de Meynard) الذي وضع كتابا في جغرافية وأدب فارس وماجاورها معتمدا على معجم البلدان لياقوت كمصدر رئيسي في دراسته ، كما افاد المستشرق الانجليزي جي لي سترينج (G. Le Strange) من هذا المعجم في وضع كتابه الشهير بلدان الخلافة الشرقية (Lands of Eastern Caliphate) (٢٨) .

وقد حرص ياقوت في اثناء اعداد وجمع مواد معجم البلدان أن يراعي أصولا علمية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب وهي :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها ، وهي كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذري ، وكتاب الفتوح لابي

---

(٢٤) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ١٩٥٤، ١/ز
حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١٩٤١، ٢/١٧٣٣

(٢٥) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافية ، ١٩٥٩، ١/٧٣، ٧٤

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢٥، ٥٤، ٥/٤٠

(٢٧) نفس المصدر ، ١/١٥

(٢٨) العقيقي : المستشرقون ، ١٩٦٤، ١/٢١٤، ٢/٥١١

حذيفة اسحاق بن بشر القرشي ، وكتاب فتوح الشام لابي حذيفة بن معاذ بن جبل ، وكتاب خطط مصر للقضاعي ، وكتاب أبنية الأسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما ائتلف واختلف من اسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الاسكندري ، وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للحسن الهمداني ، وكتاب جبال تهامة لابي الاشعث الكندي ، وكتاب في مياه العرب للغندجاني ، بالاضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي الفها ابن خرداذبة وابن واضح ، والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والبشاري المقدسي والمهلبي وابن ابي عون البغدادي وغيرهم(٢٩) . ويلاحظ ان جانبا من هذه المؤلفات قد فقد اوضاع ولم يصل الينا بعد ، مما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها اهمية تراثية كبيرة ، ناهيك عما تدل عليه من سعة المصادر التي رجع اليها ياقوت في تأليف معجمه ، فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع في امهات الكتب ويعكف على الافادة منها والاقتباس عنها ، وقد اكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك « فما يعلم انه منذ كان عمره سبع سنين الى ان توفي ، ما خلت يده من كتاب يستفيد منه او يطالعه او يكتب منه شيئا أو ينسخه»(٣٠) . وكان ياقوت أمينا في الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر . وندد في مقدمته بمن يختلس مؤلفات الآخرين ويدعيها مثل الحازمي محمد بن موسى (ت ٥٨٤هـ /١١٨٨م) الذي اخذ مادة كتاب ابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري (ت ٥٦١هـ /١١٦٦م) المعروف باسم « فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع » ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « ما اتفق لفظه واختلف مسماه » والذي ما يزال مخطوطا(٣١) .

ويقول ياقوت في ذلك بعد أن اطلع على الكتابين « فوجدته ـ اي كتاب نصر ـ تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمرا وأحسن فيه عينا واثرا ، ووجدت الحازمي رحمه الله ، قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، فأما انا فكل ما نقلته من كتاب نصر ، فقد نسبته اليه واحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا أهملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه »(٣٢) . وقد ألف المستشرق الالماني هير (M. Heer) كتابا حول مصادر ياقوت نشر في ستراسبورغ ١٨٩٨(٣٢) .

ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته واسفاره التي امتدت من النيل الى جيحون كما ذكرنا . وقد اشار ياقوت الى ذلك اكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك ، فنراه مثلا يسهب في الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ، ويقول عن الأخيرة « رأيت اطرافها وعاينت جبالها . . . ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة ، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة »(٣٤) ، ويذكر انه زار البصرة ثماني مرات . ويقول في اثناء تعريفه

---

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٢١/١

(٣٠) ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ١٩٨٠ ، ٥٢٧/٢

(٣١) الزركلي : الاعلام ، ١٩٦٩ ، ٣٣٩/٧

(٣٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١١

(٣٣) العقيقي : المستشرقون ، ٧١٦/٢

(٣٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/٤

بقرية بلجان بين البصرة وعبادان « رأيتها مرارا آخرها سنة ٥٨٨هـ أو بعدها »(٣٥) وكذلك الحال بالنسبة لجزيرة قيس في الخليج العربي(٣٦) ، والخليج العربي نفسه الذي يشير اليه قائلا : « وأما في زماننا هذا فاني سافرت في ذلك البحر وركبته عدة نوب »(٣٧) ، كما يشير الى زيارته للقدس واجتيازه ببلدة رأس العين في الجزيرة ، والى مشاهدته نهر جيحون وهو جامد في اعلاه وجار في اسفله(٣٨) ، وهكذا تتراوح عباراته في مثل هذه المواضع والبلدان بين شاهدتها ، وزرتها حينا ، واجتزت بها ، ورأيتها حينا ودخلتها حينا ، ورأيتها مرارا ، وهو امر يجعل من صاحب معجم البلدان شاهد عيان مستنيرا ، ومصدرا موثوقا به في اي بحث عن المناطق والبلدان التي زارها ، ومن بينها منطقة الخليج في اواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة(٣٩) .

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمي الدقيق ، من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ ، فكان ياقوت لا يثبت القول المنقول في معظم الأحوال الا اذا اطمأنت اليه نفسه ، وقد اتبع ذلك في كثير من الاخبار كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم ، فبعد أن يعدد الروايات المختلفة في هذا الشأن يقول : « والذي تركن اليه نفسي انه اما ان يكون من التجمع ، او تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة »(٤٠) . ويذهب مثل ذلك في تحقيقه لخبر فدك حيث يقول « وفي فدك اختلاف كثير في امره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء ، وأصبح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره احمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له »(٤١) . فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح الاخبار ، ظل يبحث ويستقصي حتى يصل الى ضالته فيهدأ ويطمئن . وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان يحقق مواضع المحمدية حيث تبين له بعد البحث والتنقيب في المصادر وجود محلة بالري كانت تدعى ايضا المحمدية نسبة الى منشئها الخليفة العباسي محمد المهدي ، وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة « فلما وقفت على هذا فرج عني »(٤٢) . وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه في هذا الميدان ، مثل ابن الكلبي والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري والمسعودي وابن بطلان وغيرهم(٤٣) . وتوصل في نفس الوقت الى معلومات مفيدة عن طبرستان ، وبني النضير ، والبرامكة ، وآل الصفار ، ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم في أثناء حديثه عن مواقعها(٤٤) .

---

(٣٥) نفس المصدر : ١/ ٤٣٩ ، ٤٧٩

(٣٦) نفس المصدر : ٤/ ٤٢٢

(٣٧) نفس المصدر : ٥/ ٨

(٣٨) نفس المصدر : ١/ ٢٨٣، ٣/ ١٤، ٢/ ١٩٧

(٣٩) نفس المصدر : ١/ ٣٤٦، ٤٧٩ ، ٢/ ١٦٩ ، ٤/ ١٥٠ ، ٥/ ٨ ، ٤٠٣

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٣٣٧

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٢٣٩ . البلاذري : فتوح البلدان ، ٣٣ - ٣٨

(٤٢) نفس المصدر : ٥/ ٦٥

(٤٣) نفس المصدر : ١/ ٣٨٥ ، ٢/ ١٨٥ ، ٤٢٤ ، ٣٥١، ٥٠٤، ٤/ ١٥٤

(٤٤) نفس المصدر : ٤/ ١٢ - ١٦ ، ٢/ ٤٢٤

وكان ياقوت أيضا يراسل أهل الثقة من البلدان ويلتقي ببعضهم فيسألهم عن بلادهم ويستقصي منهم صحة الأخبار المنسوبة اليها ، مثل أصفهان ، وأندرين احدى قرى حلب ، ومرباط وهي ميناء ظفار(٤٥) . وتشبه اتصالاته بأهل الأمصار والبلدان التحقيقات الصحفية حول قضية اوموضوع من الموضوعات ، فقد سمع عن عادة غريبة كانت تنسب الى أهل مرباط بشأن اختلاط الرجال بالنساء ليلا خارج المدينة للسمر والمجالسة والملاعبة . وقد شك ياقوت في صحة الخبر ، فاجتمع برجل منهم أديب عاقل وجرى بينهما الحديث على النحو التالي :

ياقوت : « بلغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته ؟

الرجل : لعلك تعني السمر .

ياقوت : ما اردت غيره .

الرجل : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم انه لقبيح ، ولكن عليه نشأنا ، وله مذ خلقنا ألفنا ، ولو استطعنا ان نزيله لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه ، ولكن لا سبيل الى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة »(٤٦) .

أما الاستقراء والاستنتاج ، فقد توفرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد ، فنراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج مثلا اسم موقع ضيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، ويتوصل بذلك الى الحقيقة ، يقول ياقوت في ذلك « والذي يظهر لي من اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم ، أنه من عمارة الضيزن . . . ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد ، فتكلموا بها بالطاء فغلب عليها ، ومعناه عمارة الضيزن ، لأن اباذ العمارة . ثم وقفت بعدما كتبت هذا بمدة على كتاب الفتوح للبلاذري فوجدت فيه : قالوا كانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ ، نسبت الى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي . . . ، فاستحسنت لنفسي صدق ما ظهر لي فتركته على ما كان »(٤٧) . ومثل ذلك يقول عن المدائن « والذي عندي ان هذا الموضع كان مسكن الملوك من الاكاسرة الساسانية وغيرهم ، فكان كل واحد منهم اذا ملك بني لنفسه مدينة الى جنب التي قبلها وسميت مدائن »(٤٨) .

وأما الاجتهاد ، فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع ، كما فعل في محاولته معرفة اشتقاق اسم « مناة » اذ يقول : « لم اقف على احد يقول في اشتقاقه ، وأنا اقول فيه ما يسنح لي ، فان وافق الصواب فهو بتوفيق الله ، والا فالمجتهد مصيب ، فلعله يكون من المنا وهو القدر ، وكأنهم اجروه مجرى ما يعقل »(٤٩) .

واذا اعيت ياقوت كل هذه الوسائل والطرق في الوصول الى الحقيقة المنشودة ، اعترف بذلك اعتراف العالم الواثق من نفسه ، وأشار الى ذلك بعبارات واضحة كقوله عند الحديث عن غزوة ذي قرد : « وهذا

---

(٤٥) نفس المصدر : ٢٠٧/١ ، ٢٦١ ، ٤٢٤/٢ ، ٩٧/٥ ، ٢١٠

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٩٧/٥

(٤٧) نفس المصدر : ٥٤/٤ ، ٥٥

البلاذري : فتوح البلدان ، ١٩٥٧ ، قسم ثاني ، ٣٤٨

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٧٥/٥

(٤٩) نفس المصدر : ٢٠٤/٥

الباب فيه نظر الى الآن لم يتحقق فيه شيء »(٥٠) ، كما ذكر مثل ذلك عن مدينة « جوسف » من أعمال قوهستان عندما قال : « لم أتحقق ضبطها ، ووجدته في بعض الكتب هكذا »(٥١) . ويقول عن دير الوليد « بالشام لا ادري أين هو »(٥٢) ، وعن الصين يقول ياقوت « وهذا شيء من اخبار الصين ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فان كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذبا فتعرف ما يقول الناس »(٥٣) .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التي يخالجه شك فيها ، أو عجز هو نفسه عن تحقيقها ، وأجاز لباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك اكثر من مرة في معجم البلدان ، وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية ، اذ قال : « وفي اخبار الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا ، فقد اذنت له في اصلاحه مأجورا »(٥٤) وكرر مثل هذا القول في اسم موقع « القراري » حيث قال : « وأنا مشك فيه ، هل أوله قاف أم فاء ، ولعله منسوب الى رجل من بني فزارة وقد أذنت لمن حققه أن يصلحه ويقره »(٥٥) . وقال في تحقيقه اسم « عزور » : « انا اخشى ان يكون صحف بالذي قبله (اي عازورا) فتبحث عنه »(٥٦) . ومثل ذلك قال في « قاشره » من أقاليم لبله في الأندلس « ووجدت في نسخة اخرى من كتاب خطط الأندلس قاتيدة فتحقق »(٥٧) . وفي ذلك اكثر من دليل على دقة ياقوت العلمية وتواضعه .

رابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره ، وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ، ولكونها تخالف المألوف من العادة ، وقد استبعد ياقوت وقوعها ، وتبرأ من عهدتها وفند معظمها مؤكدا « أن الملة الاسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات » وكان المبرر عنده لايرادها حتى يعرف القاريء » ما قيل في ذلك حقا كان او باطلا(٥٨) . ويضيق المجال هنا عن ذكر امثال تلك الاساطير التي تصلح لبحث مستقل ، ويمكن للباحث في هذا المجال الرجوع الى مواد عديدة في معجم البلدان وردت فيها أساطير ، وكان لياقوت موقفه المذكور منها ، ومن بين تلك المواد : بغداد ، بلط ، الشحر ، مدينة النحاس ، النيل ، وأزوار وهمذان . وتشكل هذه الأساطير وما فيها من خيال واهداف ومعان ، مصدرا غنيا لهواة البحث في الميثولوجيا عند العرب والمسلمين(٥٩) .

---

(٥٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٢٤٩

(٥١) نفس المصدر : ٢/ ١٨٤

(٥٢) نفس المصدر : ٢/ ٥٤٠

(٥٣) نفس المصدر : ٣/ ٤٤٠ ، الموحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ، ٤٦/ ٣٦٤

(٥٤) نفس المصدر : ٣/ ٩٨

(٥٥) نفس المصدر : ٤/ ٣١٦

(٥٦) نفس المصدر : ٤/ ١١٩

(٥٧) نفس المصدر : ٤/ ٢٩٧

(٥٨) نفس المصدر : ١/ ١٢ ، ٤٦٠

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٦٠ ، ٤٨٤ ، ٣/ ٣٢٧ ، ٥/ ٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٤١٢

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامي ، وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للاقطار التي زارها وتردد عليها ، كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلدان المشرق الاسلامي . وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر ، نذكر منها على سبيل المثال ، وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب ، وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندي) والخليج العربي ، وبحر الخزر ، وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل ، وظاهرة قصر الليل صيفا في بلاد البلغار التي ذكرها المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف ، حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس ، وذلك حين روي ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم ، اذا مر به احد تضيق نفسه ، فمنهم من يموت ، ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والفوائد(٦٠) .

على ان دقة ياقوت في معجم البلدان لم تكن كاملة تامة في جميع المواضع والأماكن التي تحدث عنها ، وقد أشار هو الى ذلك ونبه عليه كما ذكرنا ، وقد حاول عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت٧٣٩هـ /١٣٣٨م) حين اختصر معجم البلدان في كتابه « مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع » حاول ان يصحح ما يحتاج الى تصحيح في بعض مواد المعجم . يقول ابن عبد الحق البغدادي في ذلك : « وربما زدته بيانا في بعض المواضع ، أو أصلحت ما تنبهت عليه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لأنه (ياقوت) نقله عن غيره على ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك ، وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته ، وقد يكون مما رأيته في سفري واجتزت به ، وخاصة في أعمال بغداد ، فانه كثير الخطأ فيها ، ولم أقبل منه شرطه الذي شرطه ، ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره فان ذلك شرط لا يلزم ، ومظنة الفائدة تقدم »(٦١) . لكن الاخير لا يشير في كتابه صراحة الى المواد والمواضع التي اصلحها . مما جعل محقق مراصد الاطلاع على محمد البجاوي يشير الى ذلك في العديد من الهوامش ، وذلك في اي حال لا ينقص من قيمة معجم البلدان وأمانة صاحبه العلمية وبذله غاية جهده في الضبط والتحقيق .

ويكفي ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته وألمعيته وثقافته الموسوعية ، ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام في عصره ، وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه ، لما له من اهمية في التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لاقاليم المشرق الاسلامية التي لم تكد تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين حتى دهمها الغزو المغولي الذي كان ياقوت احد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملامح السياسية في معجم البلدان :

تتمثل أولى الملامح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان

---

(٦٠) نفس المصدر : ١/ ٣٨٥، ٢/ ١١ ، المسعودي : مروج الذهب ، ١٩٦٥، ١/ ٢٠٥

(٦١) ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ، ١/ح

قراءة متأنية ، في الاحساس الواقعي الذي يحسه بوحدة العالم الاسلامي الكبيرة وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه ، والأخطار الداخلية والخارجية التي تهددته فترة من الزمن ، وهنا يعتبر ياقوت الحموي شاهد عيان واعيا لآثار المرحلة الاخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة ، التي استهدفت قلب العالم الاسلامي ، وبخاصة مصر وبلاد الشام . وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان يعتبر جانب منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستنير شاهد الاحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها . من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد ابن تكش بن أرسلان (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) المسئولية المباشرة في اضعاف قوة المسلمين في مقاطعات ما وراء النهر ، وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار في الشرق . وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون في ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار . وقد ادى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة . مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المسلمين في تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحوها وأهلكوا الحرث والنسل في ربوعها ، فكانت اولى المناطق الاسلامية التي هب عليها اعصار التتار المدمر . وقد اشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة كما يتمثل ذلك في قوله : « وأتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان ، أولا من خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان . . . فانه لما ملك ما وراء النهر واباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم احد ، عجز عن حفظ تلك البلاد بسعة مملكتها ، فخرب بيده اكثر تلك الثغور وانهبها عساكره . فجلا اهلها عنها وفارقوها . . . فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها . . ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦هـ التي لم يجر منذ قامت السماوات والأرض مثلها ، وهو ورود التتر خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هنالك متماسكا فيمن اهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة » . ويذكر ياقوت ان اجتياح خوارزم شاه لمناطق ما وراء النهر تم في حدود سنة ٦٠٠هـ « فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية (اي الخانات) »(٦٢) . ويصف النكبة التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان اهل تلك البلاد اهل دين متين وصلاح مبين ، ونسك وعبادة ، والاسلام فيهم غض المجنى حلو المعنى ، يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ، ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء »(٦٣) . وياقوت هنا يحمل خوارزم شاه كل المسئولية في هذه الاحداث التي انتهت بتقدم التتار نحو بلاد المشرق الاسلامي ، ولا يشير الى الدافع الذي

---

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٧٩، ٢/ ٤٧

(٦٣) نفس المصدر : ١/ ١٧٩

جعله يقدم على محاربة الخطا وهو ما ذكره بعض المؤرخين من ان سلطان سمرقند وبخارى المسلم هو الذي حرضه على ذلك لتخليص المسلمين في تلك المناطق من التبعية لزعماء مملكة الخطا الكفار(٦٤) .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة ، كلما ذكر مكانا وقعت فيه احداث مماثلة ، وبذلك ربط ربطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل ايضا في نطاق التصانيف الخاصة بالجغرافية التاريخية . وكثرت اشارات ياقوت المماثلة في اثناء تعريفه ببلدان الاندلس وما سقط منها في أيدي الاسبان ، وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين(٦٥) . كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التي كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية في شمال بلاد الشام ، وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم . وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت ، وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة ـ الحمداني ـ حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »(٦٦) .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح في البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية ، يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية ، وما بذله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الحدود ، وهو امر يتمشى مع السياسة الدفاعية التي تبنتها دولة بني العباس وعدم اخذها بسياسة الفتوح الأموية ، التي كانت ترى في الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم ، والتي بلغت احدى وثلاثين مسلحة ، ترابط في كل منها حامية يتراوح عدد افراد كل منها ما بين مائتين الى الفي مقاتل »(٦٧) .

ولا ينسى ياقوت ان يذكر الرباطات التي كانت منتشرة على طول حدود العالم الاسلامي البرية والبحرية ، وبخاصة في مناطق ما وراء النهر . فكان في منطقة بيكند بين جيحون وبخارى « من الرباطات ما لا اعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر اكثر منها ، بلغني ان عددها نحو الف رباط » . وكذلك الحال بالنسبة لبذخشان في شمال اقليم طخارستان المتاخم لبلاد الترك ، وباب الأبواب شمال ارمينية على بحر الخزر ، ودمياط وطرابلس (الغرب) ومنستير على الساحل الشرقي لتونس . ونقل ياقوت عن البكري وصفا لبلدة المنستير يفيد بأن هذه البلدة كانت تضم رباطات وحصونا للرجال والنساء ، اهمها القصر الكبير الذي يقال ان الذي بناه بالمنستير هرثمة ابن اعين القائد العباسي عام ١٨٠هـ /٧٩٦م . ويصف ياقوت هذا القصر بقوله : « وهو حصن كبير عال متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين

---

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، ١٩٦٦، ١٢/ ٢٥٩ ، سنجر المسروري : ذيل البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ، مخطوطة سراي احمد الثالث ، ٢٩٥٩/ ١٤٠أ

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٣٧٠

(٦٦) نفس المصدر : ٤/ ٢٩

(٦٧) نفس المصدر : ١/ ٣٦٠ ، ٥/ ٤٣ ، ٤٥ ، ٣٨٥

المرابطين ، وقد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن ، وفي قبلته حصن فسيح مزار للنساء المرابطات . . . واهل القيروان يتبرعون بحمل الاموال اليهم والصدقات ، وكانت هذه الرباطات تقوم في المدن الاسلامية الواقعة في الثغور الممتدة على طول حدود بلاد المسلمين ، مثل فرغانة واسفيجاب وفاراب وبيكند وطرسوس والموانيء الاسلامية المطلة على بحر الروم (المتوسط) . ويشير ياقوت الى ان الثغور الهامة كمدينة اسفيجاب والبلدان المجاورة لها ، كانت معفاة من ضريبة الخراج ، « وذلك ليصرف اهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الارض ، وكذلك كان ما يصاقبها من المدن »(٦٨) .

وفي هذا الميدان ، اي نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية ، يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة اخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التي كانت منتشرة على طول الخطوط الامامية للحدود من جهة ، وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة اخرى ، كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج بن يوسف الثقفي والي بني امية على العراق والمشرق في اواخر القرن الأول الهجري « فاذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً ، وان كان ليلا اشعلوا نيرانا فتجرد الخيل اليهم » . فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذار مبكر وسريع للمسلمين من الاخطار التي قد تدهمهم(٦٩) .

رابعا : اشاد ياقوت في اثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها ، كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح التتار لها ، اذ كان في منطقة غرشتان كما يقول : « عدل حقيقي وبقية من عدل العمرين ، واهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » . وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وارز وزبيب يحمل الى البلدان . ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطالقان ومرو وساوه التي كانت من اعمر بلاد الله وانزهها واوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة » ، كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها . وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضع سنوات يتنقل في ربوعها(٧٠) .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى ، نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية ، وعدم انفاقه على شؤون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل ، وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا . وقد اشار ياقوت الى خراب كرمان وعزا ذلك « الى اختلاف الايدي عليها وجور السلطان بها ، لأنها منذ زمن طويل خلت من سلطان يقيم بها ، انما يتولاها الولاة فيجمعون اموالها ويحملونها الى خراسان . وكل ناحية انفقت اموالها في غيرها خربت ، انما تعمر البلدان بسكنى السلطان » وتحدث ياقوت ايضا عن خراب عدد من قرى العراق ، وارجع السبب في ذلك الى « مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها ، علاوة على « اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا ،

---

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٧٩، ٣٠٣، ٣٦٠، ٥٣٣، ٢/ ٤٧٣، ٥/ ٢٠٩، ٢١٠

(٦٩) نفس المصدر : ١/ ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٥/ ٣٥٠

(٧٠) نفس المصدر : ١/ ١٧٩ ، ٤/ ٧ ، ٥/ ١١٤

اذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة ، اذ كان قصده ان يحوصل ويطير ، فجلا عنه اهله واستمر خرابه »⁽⁷¹⁾ .

وهذا تعليل واقعي ودقيق يدل على نفاذ بصيرة ياقوت ، وصدق وصفه والمامه بأصول قيام الدول وزوال العمران . وقد خطا هذا التفكير العلمي في تعليل الظواهر التاريخية خطوات اوسع فيها بعد على يد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، والمقريزي في كتابه المعروف باغاثة الامة بكشف الغمة . بل ان هذا الموقف هو الذي جعل ياقوت يورد نقدا لظلم بني العباس في عهد ابي جعفر المنصور وخيبة الناس في آمالهم التي كانت معقودة على العباسيين لدى تسلمهم الحكم بعد بني امية⁽⁷²⁾ .

خامسا : يتضمن معجم البلدان عدة اشارات تاريخية تلقي الضوء على بعض الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الاسلامية خلال القرون الستة الأولى من الهجرة ، ومن بينها احداث ادت الى توتر العلاقات بين المسلمين والروم في عهد الرسول ﷺ ، اذ اقدم الروم على قتل فروة بن عمرو الجذامي احد عمال الروم العرب في جنوب بلاد الشام بسبب اسلامه⁽⁷³⁾ . فاذا اضفنا الى هذه الحادثة ما ذكره الواقدي من اقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل مبعوث الرسول الكريم الى ملك بصري⁽⁷⁴⁾ ، ادركنا السبب المباشر في غزوتي مؤتة وتبوك اللتين مهدتا لفتح بلاد الشام بهدف ازالة الحواجز المادية التي كانت تحول دون الانتشار السلمي لدعوة الاسلام في تلك الربوع . وقد سلك ابو بكر نفس الاسلوب قبل ان يوجه الجيوش الى بلاد الشام ، فذكر ياقوت ان ابا بكر اوفد عبادة بن الصامت الى ملك الروم يدعوه الى الاسلام او الحرب⁽⁷⁵⁾ . وهناك اشارات اوردها ياقوت توضح الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في اليرموك . وتدلنا هذه الاشارات بما لا يدع مجالا للشك على ان خالدا سلك الطريق الشمالي الغربي من عين التمر الى دومة القريبة منها ، والتي سميت دومة الجندل . ومنها الى النقيرة فقراقر وفسوى بهراء فالكواثل . ومن هذا المكان اتجه خالد بن الوليد جنوبا بغرب الى حاضر طيء جنوب حلب فأرك فتدمر فالقريتين (حوارين) فمرج راهط فبصري فاليرموك . ويمكن الرجوع بسهولة الى هذه المواد في معجم البلدان للوقوف على هذه الاشارات التي استقاها ياقوت من كتاب الفتوح لاسحاق بن بشر⁽⁷⁶⁾ .

واذا كان معجم البلدان يضم الكثير من الاخبار عن التتار كما ذكرنا ، فان الكتاب يشتمل ايضا على معلومات قيمة عن الصليبيين الفرنجة وتصدي المسلمين لهم في بلاد الشام ومصر ، ويمكن للباحث ان يجد هذه المعلومات في اثناء تعريف ياقوت بالعديد من مدن الشام ومصر ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، بيت

---

(٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٩٦ ، ٤/ ٤٥٤ ، ٥/ ٣٢٥

(٧٢) نفس المصدر : ١/ ٢٣١

(٧٣) ابن هاشم : السيرة ، ٤/ ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٣١،١٣٢

(٧٤) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٥٥

(٧٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ٦١.

(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٧٦، ٢/ ٤٨٧، ٤٨٩، ٥/ ٣٠١، ٣١٧، ٣/ ٢٧١، ٤/ ١٤٤، ٤/ ٤٨٦، ٢/ ٢٠٧ ، ١/ ١٥٣ ، ١/ ١٨ ، ٤/ ٣٣٦ ، ١/ ٤٠٤ ، احمد كمال : الطريق الى دمشق ٢٤٠ ـ ٢٦٢

المقدس ، وحطين ، والرملة ، وعسقلان وعكة ، وبيروت ، وصور ، وانطاكية ، وحصن الاكراد ، ودمياط ، والمنصورة(٧٧) . وكانت هذه المعلومات هي الاساس الذي استقى منه هارتفيج ديرينبورغ (Hart-wig Derenbourg) مادة بحثه « الصليبيون في معجم ياقوت » المنشور في الكتاب الصادر في باريس ١٨٩٥ بمناسبة الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية(٧٨) .

Les Croisades d'apres le dictionnaire de Yakout

الملامح الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الارضين العديدة التي منحت لبعض الاشخاص من قبل الرسول ﷺ والخلفاء من بعده ، سواء في عهد الخلفاء الراشدين او دولة بني امية او دولة بني العباس . ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الاشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم . فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول ﷺ نجدها في معجم البلدان في ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قالس ، القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سنينيا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الاساورة ، نهر ام حبيب ، نهر ام عبدالله . كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الاموية في المواد : سلوقية ، عرب ، مرقية ، نهر العلاء ، مدينة ، مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راون ، سوق العطش ، سويقة خالد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة ام جعفر ، مرعش ، نهر ابي الخصيب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصوافي والاراضي البور التي لا مالك لها ، ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ، ولا عمارة توجب ملكا لاحد »(٧٩) . وهذه ناحية اقتصادية هامة لان الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لا يتصرفون بممتلكات الغير ، واذا ارادوا امتلاك ارض مملوكة لاجل المنفعة العامة كبناء مسجد او مدينة ، عمدوا الى شراء الاراضي من اصحابها ، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، والمهدي في المحمدية بالري ، والمعتصم في سر من رأى .(٨٠) وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول ﷺ لأول مرة عندما ابتاع ارض مسجده في المدينة ورفض امتلاك الارض دون التعويض على اصحابها .(٨١) وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا هاما ورئيسيا في دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية .

وفي اثناء حديث ياقوت عن البلدان والارضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد احيانا بعض

---

(٧٧) نفس المصدر : ١/ ٢٦٩ ، ٥٢٥ ، ٢/٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٣/ ٦٩ ، ٧٠ ، ٤٣٣ ، ٤/١٢٢ ، ١٤٤ ، ٥/١٧١ ، ٢١٢

(٧٨) Centenaire de L'Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1795 — 1895, Paris PP. 71 — 92

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ٣٧٦

(٨٠) نفس المصدر : ٣/ ١٧٤ ، ٥/ ١٦٥ ، ٣٤٨

(٨١) البلاذري : فتوح البلدان ، ٥ ، السمهوري : وفاء الوفا ، ١/ ٣٢٢-٣٢٦

المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصناعات مما يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الاسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الاخر حامض ، كما كان في بلدة شنتره بالاندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة اشبار . واشتهرت تاهرت بالسفرجل ، وتبريز بالمشمش ، وغزة ورفح بالجميز ؛ وفلسطين وتونس بالزيتون .(٨٢) وفي مصر كمثال آخر ، يشير ياقوت الى اهمية مياه النيل ، وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ، ويورد كشفا بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تنيس ، بالاضافة الى ثمانين نوعا من الاسماك فيها(٨٣) . وكان في بلدة البشمور قرب دمياط خراف ممتازة وصفها ياقوت بانها « ليس في الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظم اليّات »(٨٤) .

المعادن : اما المعادن فأهمها الذهب في غانة وما وراء النهر . واشار الى معادن اخرى مثل الفضة والحديد والنحاس والزئبق والتوتياء والنوشادر والفيروزج ، والبلازورد ومعدن البلخش المقاوم للياقوت ، والنفط والفحم الحجري وحجر المس والملح . ويلاحظ ان معظم هذه المعادن كان موجودا بكثرة في الاقاليم الشرقية من الدولة الاسلامية ، مثل كرمان وخراسان واقصى بلاد الشام(٨٥) . وكان بعض سكان شمال العراق يستخدمون القار في رصف الارض (الاسفلت) حيث كان القير « يطرح في القدور وينحل له ، ويطرح عليه بمقدار يعرفونه ويوقد تحته حتى يذوب ويختلط بالرمل ، وهم يحركونه تحريكا ، فاذا بلغ حد استحكامه صب على وجه الارض »(٨٦) . وذكر ياقوت ايضا التضخم المالي في بلدة بنجهير بنواحي بلخ نتيجة لكثرة وجود الفضة فيها ، ويصف بدقة طريقة استخراج هذا المعدن من جبل الفضة القريب منها والتنافس الشديد على استخراجه فيقول : « والدراهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد احدهم يشتري شيئا ولو جزرة باقل من درهم صحيح ، والفضة في اعلى جبل مشرف على البلدة والسوق ، والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وانما يتبعون عروقها يجدونها تدلهم على انها تفضي الى الجواهر ، وهم اذا وجدوا عرقا حفروا ابدا الى ان يصيروا الى الفضة ، فيتفق ان لرجل منهم في الحفر ثلاثمائة الف درهم او زائدا او ناقصا ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما اكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك وربما يتبع الرجل عرقا ويتبع آخر شعبة اخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعا في الحفر ، والعادة عندهم ان من سبق فاعترض صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي اليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملا لا تعمله الشياطين ، فاذا سبق احد الرجلين ذهبت نفقة الآخر هدرا ، وان استويا اشتركا ، وهم يحفرون ابدا ما حييت السرج وانفذت المصابيح ، فاذا صاروا في البعد الى موضع لا يحيي السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في اسرع وقت ، فالرجل منهم يصبح غنيا ويمسي فقيرا ، او يصبح فقيرا ويمسي غنيا »(٨٧) . وفي هذا النص الطريف وصف

---

(٨٢) ياقوت : معجم البلدان ، ٨/٢ ، ١٣ ، ٥٨ ، ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢/٣ ، ٥٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ١٢٣/٤

(٨٣) نفس المصدر : ٥٢/٢ ـ ٥٤

(٨٤) نفس المصدر : ٤٢٨/١

(٨٥) نفس المصدر : ١٧٢/١ ، ٣٢٨ ، ٤٩٨ ، ١٢/٢ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ، ٥١/٣ ، ٤٥٤/٤

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٢٩/٢

(٨٧) نفس المصدر : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩

دقيق للعمل في مناجم الفضة في تلك المنطقة ، والظروف الصعبة والخطرة التي تكتنف هذا العمل ، وبخاصة عندما يوغل العمال في الحفر وتقل نسبة الاوكسجين اللازم للتنفس مما تتعذر معه الاضاءة او الحياة . وهنا ايضا تفسير اقتصادي لغلبة العملة الفضية في المناطق الشرقية للدولة الاسلامية ، ومن قبل عرفت هذه الظاهرة ايضا في الدولة الساسانية(٨٨) .

الصناعة : اما الصناعات التي اشتهرت بها بعض البلدان فقد اشار ياقوت الى الكثير منها في معجمه . وذكر على سبيل المثال صناعة المنسوجات في تنيس والحرير في فاس ، والفخار والسمك المملح في تونس ، كما نوه بما كانت تلقاه صناعة الكاغد اي ورق الكتابة من اهتمام بسبب انتشار العلم والحاجة الى تدوينه . ويحدثنا ياقوت عن وجود دور لصناعة الكاغد في بغداد وخونا بأذربيجان وشاطبة بالاندلس واشتهرت المناطق الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي بالبرود القطرية والرماح الخطية والنبل الفائقة الصنعة(٨٩) .

التجارة : وهناك اشارات بالغة الأهمية بالنسبة للتجارة الداخلية بين أقطار الدولة الاسلامية ، حيث كانت القوافل التجارية تعبر البلاد في طرق معروفة مخفورة تنتشر عليها المدن والقرى والمراكز التجارية والخانات (٩٠) . ويلاحظ ان مصلحة هذه المدن والقرى الواقعة على الطريق البرية كانت تقتضي توفير الأمن لقوافل التجارة ، فاذا لم يتوفر الأمن عند احداها لسبب أو لآخر تحولت القوافل عنها الى غيرها ، وفقدت تلك المراكز التجارية اهميتها وازدهارها وربما خربت كما حدث لبلدة برقعيد من أعمال الموصل . وكانت هذه البلدة ممراً للقوافل بين الموصل ونصيبين ، فلما زاد تعرض لصوصها للقوافل التجارية بعد القرن الرابع الهجري ، « وكثرت منهم هذه الأفاعيل تجنبتهم القوافل ، وجعلوا طريقهم على باشزي وانتقلت الأسواق الى باشزي » وأصبحت برقعيد بلدة « خراباً صغيرة حقيرة » على حد وصف ياقوت (٩١) . وكان أعراب بادية الشام يتقاضون من تجار منطقة الجزيرة الفراتية مالا مقابل خفارتهم القوافل التجارية ، اذ كان في الرصافة كما يقول ياقوت نقلاً عن الأصمعي « جماعة من أهل الثروة ، لأنهم بين تاجر يسافر الى أقطار البلاد ، وبين مقيم فيها يعامل العرب (٩٢) » . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض الطرق التجارية التي كانت قوافل الحجاج تسلكها أيضاً . ونوه بالمحطات والمراكز التجارية التي كانت تقوم على تلك الطرق داخل جزيرة العرب ، وكيف كان بعض امراء العرب يشتركون مع رجال قبائلهم في المحافظة على هذه القوافل التي كانت تحمل التجارات اضافة الى الحجاج ، فكان عرب تلك المراكز « يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة (٩٣) » . وياقوت وهو يشير الى التجارة الداخلية لا يغفل عن ذكر المراحل والمسافات بين البلدان ، وحجارة الأميال المنصوبة عليها لمعرفة تلك المسافات ، والتي كان العابرون يكتبون على بعضها أحياناً أبياتاً من شعر الحنين الى الأوطان (٩٤) .

---

(٨٨) نفس المصدر : ١/ ٣٥٤

(٨٩) نفس المصدر : ٢/ ٥١ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٣٧٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢ ، ٣/ ٣٠٩ ، ٤/ ٣٧٣ ، ٣٨٩

(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ٥٤ ، ٧١

(٩١) نفس المصدر : ١/ ٣٨٧

(٩٢) نفس المصدر : ٣/ ٤٧ ، ٤٨

(٩٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ١٩٦٠ ، ١٧٤

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٦٢ ، ٤/ ١٨٥

أما التجارة الخارجية فكانت تتم بطريقين بري وبحري ، يتصل تجار المسلمين بواسطتها بغيرهم من تجار الأمم والشعوب ، ومن بينها الخزر فكان التجار من أراضي المسلمين يجتازون بمراكبهم بحر قزوين الى ارض الخزر ويجلبون من هناك الوبر الكثير (٩٥) . وقد ذكر ابن فضلان في رسالته ان التجار المسلمين استطاعوا ان يكوِّنوا جالية كبيرة في مدينة اتل عاصمة الخزر حيث كان « على المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له خز ، وهو مسلم ، واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره (٩٦) » . كما تردد التجار المسلمون على بلاد الصقالبة القريبة من بلاد الخزر ، وكانوا يقصدون تلك البلاد بانواع التجارات (٩٧) . أما التجارة مع الروس فكانت تتم على نهر اتل حيث كان الروسية يوافون بتجارتهم هناك ، ومنها الجواري والسمور والجلود ، ويلتقون مع التجار المسلمين لتبادل العروض التجارية (٩٨) .

كما يشير ياقوت الى التجارة البحرية بين الموانيء الاسلامية في بحر الروم (المتوسط) كنقل الأخشاب من شمال بلاد الشام الى مصر (٩٩) . ويورد تفصيلات وافية عن التجارة البحرية المزدهرة في موانيء وجزر الخليج العربي ، والدور الذي كانت تقوم به هذه المراكز في نقل تجارة الهند الى البلدان المجاورة . وقد لعبت البصرة وسيراف ولار وصحار وهرمز وجزيرة قيس والبحرين دوراً هاماً في هذه التجارة ، التي شارك فيها ياقوت نفسه فزار البصرة من أجل ذلك ثماني مرات ، وتردد على موانيء وجزر الخليج « عدة نوب » على حد تعبيره (١٠٠) . وعبر الخليج كانت المراكب التجارية تتوجه الى السند والهند وسيلان والصين ، كما وصلت تجارة المسلمين البحرية الى موانيء ظفار وحضرموت واليمن والبحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية حتى سفاله وجزيرة القمر وهي مدغشقر حسب رأي ياقوت (١٠١) . وتطلق التسمية اليوم على أربع جزر بين مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا بما يعرف بدولة جزر القمر . ويعتبر معجم البلدان مصدراً أساسياً لمن أراد التوسع في البحث عن النشاط التجاري لهذه المنطقة حتى القرن السابع الهجري ، القرن الثالث عشر الميلادي .

وياقوت وهو يورد هذه الاشارات التجارية يذكر ان بعض الجواسيس كانوا ينتحلون صفة التجار للوقوف على الأخبار (١٠٢) ، كما يقدم الينا فكرة عن اسعار بعض المواد الغذائية في بغداد زمن المنصور ، وفي واسط في عهد ياقوت نفسه ، وبذلك يعطي معلومات مفيدة عن تطور الأسعار خلال فترة تصل الى حوالي خمسة قرون (١٠٣) . ويشير عرضاً كذلك الى ضريبة الحوانيت

---

(٩٥) نفس المصدر : ١/٨٨ ، ٣٤٢

(٩٦) رسالة ابن فضلان : ١٩٧٨ ، ١٩٤

(٩٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/٤١٦

(٩٨) نفس المصدر : ٣/٧٩ ، ٨٠ ، ٤/٤٨٨

(٩٩) نفس المصدر : ٢/٦٨

(١٠٠) نفس المصدر : ١/٤٣٩ ، ٥/٨

(١٠١) نفس المصدر : ١/٣٤٣، ٤٩١، ٣/٤٤٠

(١٠٢) نفس المصدر : ٤/٤٤٨

(١٠٣) نفس المصدر : ١/٤٥٩ ، ٥/٣٥٠

التي فرضت في بغداد زمن المهدي ، ومقدار خراج عدد من الأقاليم والولايات . ويبدوا أن الأرقام التي أوردها ياقوت قريبة من الصحة ، من ذلك ما ذكره عن جملة خراج فارس مع الأهواز في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وهو ثمانية عشر ألف درهم . والراجح ان هذا الرقم هو الذي وهم فيه معظم المؤرخين وسحبوه على خراج العراق كله زمن الحجاج متهمين اياه بكسر خراج هذا الأقليم (١٠٤) .

الملامح الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة ملامح اجتماعية هامة منها :

أولاً : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب ، على اعتبار ان هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصباً . وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ، فيذكر ياقوت نقلاً عن رسالة ابي دلف مسعر بن مهلهل ان الأخير صادف وهو في طريقه الى الصين بموضع القليب « بوادي عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين ، لهم مصايف ومشات في مياه ورمال ، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام ، وملكهم من أهل بيت منهم (١٠٥) . ويتحدث ياقوت أيضاً عن هجرة أخرى لبني معد من تهامة الى اليمن ومشارف بلاد الشام قائلاً : « وكان بنو معد نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام (١٠٦) » . وكان ابو سفيان زعيم قريش يمتلك قرية نقنس من قرى البلقاء بارض الشام ثم انتقلت الى ولده بعده (١٠٧) . وكانت القبائل العربية في شمال الجزيرة تغتنم فرصة حروب ملوك الطوائف في فارس وتغير على السواد مما جعل الفرس يحفرون خندق سابور الممتد من هيت الى كاظمة والخليج لصد تلك الغارات (١٠٨) .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن تحرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ، ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاعة والازد ومواطن بني سعد وبني اسد وطيء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر . واستشهد بابيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء واياد وتغلب . يقول الشاعر :

لكل اناس من معد عمارة
عروض اليها يلجأون وجانب
لكيز لها البحران والسيف دونها
وان يأتها بأس من الهند كارب
تطاير عن اعجاز حوش كأنها
جهام هراق ماءه فهو آيب

---

(١٠٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢٢٧ ، ٤٤٨ ، احسان العمد : الحجاج ، ٤٢٥ ، ٤٢٨

(١٠٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/٤٤٣ ، ٤٤٤

(١٠٦) نفس المصدر : ٢/٣٢٩ ، ٥/٣١

(١٠٧) نفس المصدر : ٥/٣٠٠

(١٠٨) نفس المصدر : ٢/٣٣٠ ، ٣٩٢

ويكر لها بر العراق وان تخف
يحل دونها من في اليمامة حاجب
وصارت تميم بين قف ورملة
لها من جبال منتأى ومذاهب
وكلب لها خبت فرملة عالج
الى الحرة الرجلاء حيث تحارب
وغسان جن غيرهم في بيوتهم
تجالد عنها خسر وكتائب
وبهراء حي قد علمنا مكانهم
لهم شرك حول الرصافة لا حب
وغارت اياد في السواد ووطنها
برازيق عجم تبتغي من تضارب
أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم
ونحن خلعنا قيده فهو سارب (١٠٩)

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته في المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية ابعاداً أوسع . فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء (١١٠) ، ولم تلبث اعداد غفيرة من القبائل العربية ان خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية حيث فتحت الأقطار وأقامت في الأمصار والثغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في خراسان (١١١) . وقد أسهم عرب الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن نصر الاسكندري صاحب كتاب فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع عن وجود بقايا أولئك العرب الأوائل حتى القرن السادس الهجري في بلدة ألبان بين غزنة وكابل ، حيث كانوا ما يزالون على مذهب الخوارج « الا انهم مذعنون للسلطان ، وفيهم تجار ومياسير وعلماء وادباء يخالطون ملوك الهند والسند الذين يقربون منهم ، ولكل واحد من رؤسائهم اسم بالعربية واسم بالهندية (١١٢) » . وامثال هؤلاء كما يقول ابن خلدون « انفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم الثغور القصية ، واكلتهم الأقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم . . . الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في الامصار . . . فتقطّعوا في البلاد (١١٣) .

وفي أخبار البعثة الاستطلاعية التي ارسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ، ذكر ياقوت ان البعثة اجتازت حصوناً فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرأون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب ، الا انهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامي ولا يعرفون شيئاً من أخباره (١١٤) .

ثانياً : وكان العرب لدى انتقالهم الى الامصار والأقاليم يسمون بعض مدنها باسماء المدن والمواطن التي قدموا منها عليها تذكرهم بمواطنهم الأولى وتهدىء من شوقهم وحنينهم اليها ، وهي ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة . فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا

---

(١١٠) نفس المصدر : ٣٥١/٤
(١١١) نفس المصدر : ٣٨٥/١ ، ٣٠٥/٣
(١١٢) نفس المصدر : ٢٤٤/١
(١١٣) ابن خلدون : العبر ، ١٩٥٩ ، ٦/٦
(١١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٩/٣

الاسم قرب عين التمر في العراق ، وشهدت الأندلس بالأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها باسماء مدن الشام ، مثل حمص وتدمر (١١٥) » .

ثالثاً : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية هامة عن مساحتها وسكانها . فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن ابيه ثمانين الف مقاتل من العرب وعيالاتهم مائة وعشرون الفاً ، اي ان عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا الف نسمة . واضيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخاري وفرض لهم العطاء وبنى لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم . فقد تطورت البصرة زمن خالد ابن عبد الله القسري في اوائل القرن الثاني للهجرة فاصبح طولها فرسخين وعرضها فرسخين الا آنقا (١١٦) . وشهدت الكوفة تطوراً مماثلاً ، فبعد ان كانت تضم على عهد زياد بن أبيه حوالي مائة واربعين الف نسمة بينهم ستون الف مقاتل من العرب ، أصبحت حوالي عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م تمتد ستة عشر ميلاً وثلثي ميل . وكان فيها ذلك الوقت خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون الف دار لسائر العرب ، وستة آلاف دار لليمن . فاذا قدرنا ان كل دار يسكنها ستة اشخاص في المتوسط ، وجدنا ان سكان الكوفة في القرن الثالث الهجري كانوا يبلغون حوالي نصف مليون نسمة (١١٧) . ولم يُغفل ياقوت وهو يذكر عَرَضا اخبار العرب المهاجرة الى الامصار ، اخبار الشعوب والفئات الأخرى التي كانت تعيش داخل الدولة الاسلامية ، او تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والاساورة والبخارية والأكراد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج واهل الصين ، فاورد وصفاً لجانب من عاداتهم وتقاليدهم . واعتمد في هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، التي وضعها اوائل القرن الرابع الهجري ، ورسالة ابي دلف في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند (١١٨) .

رابعاً : ظاهرة الحنين الى الأوطان :

وطبيعي ان يواكب هجرة العرب الى الأقاليم والامصار حنين قوى الى مواطنها ومرابعها الأولى . وقد وجدت هذه الظاهرة الانسانية بين جميع المهاجرين العرب ابتداء من المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وانتهاء بأولئك الذين رابطوا في الامصار والثغور . ويزخر معجم البلدان بالاشعار الرقيقة المرهفة التي تعبر بصدق عن هذه المشاعر . ويبدو ان ياقوت اقتبس هذه الأشعار من كتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي (١١٩) .

ونورد فيما يلي طائفة من هذه الأشعار على سبيل المثال لا الحصر نظراً للأهمية الاجتماعية لها ، وباعتبارها وثائق تدل على هذه الظاهرة بوضوح .

---

(١١٥) نفس المصدر : ١١٤/١ ، ٣٠٤/٢ ، ١٠٧/٥

(١١٦) نفس المصدر : ٣٥٦/١ ، ٤٣٤

(١١٧) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٩٢/٤

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٧٦/٢ ٤٨/٣ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ١٥٧/٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٦/٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ١٤٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٦ .

(١١٩) نفس المصدر : ٢٣٤/١ ، ٣٦٦ ، ٤٣٩ ، ٤٧٧ ، ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٠٣ ، ٣٥٣ ، ١١٩/٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ١٠٢/٤ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٦٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٨٣/٥ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ .

قال بلال مؤذن الرسول يتشوق الى مكة (١٢٠) :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ وعندي اذخر وجليل

وهل اردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري يتشوق الى المدينة ومنازلها (١٢١) :

اقول لثابت والعين تهمى
دموعاً ما انهنهها انحدارا

اعرني نظرة بقرى دجيل
تحايلها ظلاماً او نهارا

فقال ارى برومة او بسلع
منازلنا معطلة قفارا

وانشد اعرابي حنيناً الى الحجاز (١٢٢) :

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن
على باكناف الحجاز يطول

فهل لي الى ارض الحجاز ومن به
بعاقبة قبل الفوات سبيل

اذا لم يكن بيني وبينك مرسل
فريح الصبا مني اليك رسول

ومن شعر اعرابي في الامصار يتشوق الى نجد (١٢٣) :

اكرر طرفي نحو نجد وانني
اليه وان لم يدرك الطرف انظر

حنيناً الى ارض كأن ترابها
اذا مطرت عود ومسك وعنبر

متى يستريح القلب اما مجاور
بحرْب واما نازح يتذكر

وقال آخر يتمنى القفول الى نجد (١٢٤) :

سمعت رحيل القافلين فشاقني
فقلت اقرأوا مني السلام على دعد

احن الى نجد واني لآيس
طوال الليالي من قفول الى نجد

تعزَّ فلا نجد ولا دعد فاعترف
بهجر الى يوم القيامة والوعد

ويصف اعرابي مرابط في الثغور الرومية حنينة الى نجد بقوله (١٢٥) :

تبدلت من نجد وممن يحله
محلة جند ، ما الأعاريب والجند ؟

واصبحت في أرض البنود وقد أرى
زماناً بارض لا يقال لها بند

---

(١٢٠) نفس المصدر : ١٨٣/٥ .

(١٢١) نفس المصدر : ٣٠٠/١ .

(١٢٢) نفس المصدر : ٢٢٠/٢ .

(١٢٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٦٢/٥ .

(١٢٤) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

(١٢٥) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

وقال عبد الرحمن بن داره ممن كان يقيم بحمص بالشام (١٢٦) :

خليلي ان حانت بحمص منيتي
فلا تدفناني وارفعاني الى نجد

ومرا على أهل الجناب باعظمي
وان لم يكن أهل الجناب على القصد

وان انتما لم ترفعاني فسلماً
على صارة فالقور فالابلق الفرد

وينسب الى الشاعر العماني محمد بن زوزان مما يتشوق به الى بلدته صحار (١٢٧) :

لحى الله دهرا شردتني صروفة
عن الأهل حتى صرت مغتربا فردا
الا ايها الركب اليمانون بلغوا
تحية نائي الدار لُقِّيتم رشدا
اذا ما حللتم في صحار فاطموا
بمسجد بشار وجوزوا به قصدا
فعوجوا الى داري هناك وسلموا
على والدي زوزان وقيتم جهدا

وقال شاعر يمني مغترب يحن الى اليمن (١٢٨) :

خليلي اني قد ارقت ونمتما
كبرق يمان فاقعدا عللانيا
خليلي طال الليل والتبس القذى
بعيني وآستأنست برقا يمانيا

وقال مالك بن الريب يتشوق الى مواطنه بجزيرة العرب (١٢٩) :

لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بجنب الغضا ازجى القلوص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
الم ترني بعت الضلالة بالهدى
واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وهذا العباس بن الأحنف يقول في هذا المعنى (١٣٠) :

قالوا خراسان ادنى ما يراد بكم
ثم القفول فها جئنا خراسانا
عين الزمان اصابتنا فلا نظرت
وعذبت بفنون الهجر الوانا

---

(١٢٦) نفس المصدر : ٢/٣٠٣ .

(١٢٧) نفس المصدر : ٣/٣٩٤ .

(١٢٨) نفس المصدر : ٥/٤٤٨ .

(١٢٩) نفس المصدر : ٢/٣٥٣ .

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٣٥٣ .

خامساً : وهناك اشارات متفرقة وكثيرة عن الترف الاجتماعي والعمراني الذي شهدته بعض المدن الاسلامية ، واوردها ياقوت عند حديثه على تلك المدن ، والثروات الطائلة التي انفقت في بناء القصور العباسية ، وبخاصة في عهدي المتوكل والمقتدر . ومن ذلك وصف قصر دار الشجرة الذي بناه المقتدر « وانما سميت بذلك لشجرة هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة ، امام ايوانها وبين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها فروع كبيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، وقد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد (١٣١) » . ويمكن للباحث ان يطلع على مقدار ثروة علي بن احمد الراسبي ، وهو واحد من العمال المتنفذين زمن المقتدر ، كما اوردها ياقوت ، ليكون فكرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها أفراد هذه الطبقة من الناس (١٣٢) واورد ياقوت أيضاً معلومات لا تقل أهمية عن تلك ، حول بعض رسوم الخلافة في بغداد ، مثل دار الخيل التي كانت « من دور الخلافة المعظمة في بغداد ، وكانت داراً عظيمة الارجاء ، عادية البناء (أي ضخمة البناء) ، لها صحن عظيم الف ذراع في الف ذراع ، كان يوقف فيها في الأعياد ، وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة كل فرس فيها على يد شاكري » ومنظرة الحلبة التي « جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش في أيام الأعياد (١٣٣) » .

وكان بعض الناس يقصدون القصور والمباني الأثرية وأحياناً الديارات الواقعة خارج المدن لقضاء وقت من الراحة والاستجمام ، ويشهدون هناك في أحيان أخرى سباقات الخيل . وقد شهد مثل هذه السباقات الرسول ﷺ والحجاج بن يوسف والمأمون وغيرهم (١٣٤) . ويحدثنا ياقوت ان المأمون اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيزاً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ، واجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى . . منازل خاصته واصحابه سميت المأمونية (١٣٥) » . اما البعض الآخر من طلاب اللهو والعبث والمتع والتهتك ، فكانوا يقصدون أماكن معروفة لهذا الغرض في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي باري ، وقطربل في العراق ، ودالان وذموران قرب ذمار من أرض اليمن ، حيث كانوا يمارسون بعض الانحرافات والعادات الخلقية السيئة ، وهو أمر لا يخلو منه عصر من العصور ولا حضارة من الحضارات (١٣٦) . ويلاحظ

---

(١٣١) نفس المصدر : ٢/ ٤٢١ .

(١٣٢) نفس المصدر : ٢/ ٤٨٢ .

(١٣٣) نفس المصدر : ٢/ ٤١٩ ، ٥/ ٢١٢ .

(١٣٤) نفس المصدر : ٢/ ٤ ، ٢٧٦ ، ٥/ ٣١٨ .

(١٣٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤ .

(١٣٦) نفس المصدر : ١/ ٣٢١ ، ٢/ ٣ ، ٤٦٠ ، ٥٢٥ ، ٤/ ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٥/ ٢٢٤ .

هنا ان ياقوت أثبت في أثناء تعريفه بالمدن والأقاليم ما كان قد رآه او روي له او نقله من مصادره من صفات حسنة واخرى سيئة نسبت الى بعض المدن والبلاد وسكانها ، مثل ما ذكره عن أهل حمص والموصل ومرو ومرباط وصقلية والبربر والنبط . وياقوت في ذلك لم يقصد ذم هؤلاء او أولئك وانما قدم لنا جانباً آخر مما كان يقال او يكتب (١٣٧) .

الملامح الثقافية :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية في الدولة الاسلامية . وقد استوقفته هذه الملامح لأنه كان أديباً شارك في ثقافة عصره عن طريق نسخ الكتب والمتاجرة بها ، الى جانب جهوده المشكورة في التأليف ، فضلاً عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامي وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه . ويمكن تلمس هذه الملامح تحت المؤسسات التالية :

أولاً : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية ثقافية واجتماعية هامة منتشرة في جميع انحاء الدولة . كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة (١٣٨) .

ثانياً : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة في معظم المدن الاسلامية ، وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وافاد منها فائدة مباشرة . ففي مدينة ساوة بين الري وهمذان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بانه « لم يكن في الدنيا أعظم منها ، بلغني ان التتر احرقوها » وذلك عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م (١٣٩) . وفي مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان ، كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها . ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بمرو ثلاثة أعوام وانه « لولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر ..... وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقابلها ، والأخرى يقال لها الكمالية ، لا ادري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ ، وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة اخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن (١٤٠) » .

---

(١٣٧) نفس المصدر : ١/ ٣٦٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٥/ ٩٧ ، ٢٢٤ ، المليحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ، ٤٦/ ٣٧٢ - ٣٧٦ .

(١٣٨) نفس المصدر : ٥/ ١١٤ ، ٢١٠ .

(١٣٩) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ١١٤ .

وهذا النص الفريد من نوعه لا يحتاج الى تعليق بقدر ما يحتاج الى وقفة تأمل واعجاب بالحضارة الاسلامية وعظمتها . ويلاحظ هنا ان دور الكتب كانت تلحق بالمدارس والمساجد التي ما زالت تعتبر من أهم مراكز الثقافة في عالم الاسلام . والمعروف ان نواة المساجد والمدارس قد نشأت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الاسلامية ، حتى ان ياقوت يذكر عن ابن عساكر ان المدينة المنورة كان فيها زمن ابي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة (١٤١) .

وكان هناك أيضاً في العالم الاسلامي مكتبات خاصة يمتلكها العلماء والنابهون والراغبون في العلم . ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) المحدث الشهير وصاحب التصانيف العديدة ، التي كان طلاب العلم يسافرون للاطلاع عليها « وكان ابو حاتم قد سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها ، فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان ، ضعف السلطان ، واستيلاء ذوي العبث والفساد على أهل تلك البلاد » . وقد تأثر الخطيب البغدادي من ضياع بعض كتب ابي حاتم البستي ، فقال : « ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر بها النسخ ، فيتنافس فيها أهل العلم يكتبونها ويجلدونها احرازاً لها (١٤٢) » ، وابو القاسم بن عباد بن العباس الطالقاني (ت ٣٨٥هـ) ، وابو المعالي عبد السلام بن محمود ابن احمد الفقيه الحكيم (ت ٥٢٦هـ) الذي كان يستصحب جميع أمواله وكتبه اينما توجه ، وخزانة كتب أبي نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة التي وقفها صاحبها على طلاب العلم في كرخ بغداد ، ويقول ياقوت عنها انه « لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة ، واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧هـ » . وكان بعض العلماء يوقفون كتبهم على طلبة العلم كما فعل العالم الأندلسي محمد بن عتيق بن فرج الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) . وياقوت نفسه ، الذي أوصى بان توقف مكتبته بعد موته على مسجد الزيدي في بغداد ، وعهد الى المؤرخ عز الدين بن الأثير لتنفيذ وصيته (١٤٣) .

ولئن دلت ظاهرة وقف الكتب على شيء فانما تدل على حب المسلمين للعلم وتشجيعهم طلابه ، وقد بلغ من محبة احد الطلاب للعلم وحرصه على سماع العلم وتقييده ، حدا جعل هذا الطالب وهو الحسين بن أحمد بن علي البيهقي من أهل خسروجرد (ت ٥٣٦هـ) ، لا يكف عن الكتابة رغم تقدمه بالسن وفقده لأصابع يده . ويقول ياقوت عن هذا الرجل انه قد « أصابته علة في يده فقطع اصابعه ، فكان يمسك بيده ويضع الكاغد على الأرض ويمسك برجله ويكتب خطاً مقروءاً وينسخ (١٤٤) » .

ومع ذلك فان صنعة الوراقة التي كانت تشمل بيع الكتب ونسخها لم تكن حرفة مربحة كثيراً لأصحابها الذين احترفوها حباً في الكتاب ونشره ، ومنهم ياقوت الحموي نفسه الذي اشتكى من سوء بخته وقلة حظه في

---

(١٤١) نفس المصدر : ٢/٢١٧ .

(١٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ١/ ٤١٥ ـ ٤١٨ ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ٣/ ٩٢٠ .

(١٤٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٢/ ٦٥ ، ٦٦ ، ٤/ ٧ ، ٥/ ١٦١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/ ١٨٩ .

(١٤٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٨ .

هذه الصناعة على ما ذكرناه . كما اورد شعراً لزميله ابي حاتم الوراق يقول فيه (١٤٥) :

ان الوراقة حرفة مذمومة
محرومة ، عيشي بها زمن

ان عشت ، عشت وليس لي أكل
او مت ، مت وليس لي كفن

ثالثاً : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد او القطر الذي ينتمون اليه . ويلاحظ ان ياقوتاً اهتم بصفة رئيسية بتراجم أولئك العلماء الذين عاصروه ، او سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة اهمية خاصة . وكان بعض هؤلاء العلماء يتنقلون في البلاد الاسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة ولنشر علمهم بين الناس من جهة أخرى . وفي هذا الصدد ذكر ياقوت اسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من العلم . وكان الطلب شديداً على العلماء النابهين يسعى الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم . ويذكر ياقوت ان أبا حفص عمر ابن محمد بن المعمر بن أحمد المؤدب الدارقزي المنسوب الى دار القز وكانت محلة كبيرة في بغداد (ت ٦٠٧هـ) « سمع الكثير . . . وطلبه الناس ، وحمل الى دمشق بالقصد الى السماع عليه ، حمله الملك المحسّن احمد بن الملك الناصر من بغداد ، فسمع عليه هو وخلق كثير من أهل دمشق ، وكان قد انفرد بكثير من الكتب (١٤٦) » ، ومنهم سعد الخير بن محمد بن سهل البلنسي (ت ٥٤١هـ) فقيه صالح ومحدث مكثر ، سافر الكثير وركب البحر حتى وصل الى الصين ، وانتسب لذلك صينياً ، وعاد الى بغداد واقام بها وتعلم الكتابة الصينية (١٤٧) ، وابو القاسم منصور بن أحمد بن الفضل الاسفزاري (ت ٥٠٢هـ) « وكان وحيد عصره في حفظ شعائر الاسلام واهله ، متبعاً للآثار ، واعظا حسن الكلام حلو النطق بعيد الاشارة في كلام الصوفية . . . يدخل على السلاطين والجبابرة يذكرهم الله ويحثهم على طاعته ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لا يخاف سطوتهم ، ولا يبالي بهم فيقبلون منه أمره (١٤٨) » ، ومن هؤلاء أيضاً العالم الرحالة ابو بكر عتيق السّمنطاري الصقلي (ت ٤٦٤هـ) الذي « سافر الى الحجاز وحج وساح في البلدان من أرض اليمن والشام الى أرض فارس وخراسان ، ولقي بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاء فيكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما جمع ، وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة (١٤٩) » ، والرحالة الشاعر ابراهيم بن عثمان الأشهبي الغزي الذي « سافر الدنيا ومات بخراسان عام ٥٢٤هـ (١٥٠) » . والمحدثة المشهورة أمة الله بنت محمد بن أحمد النباذاني (١٥١) .

---

(١٤٥) نفس المصدر : ٤/٤٦٣ .

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٤٢٢ .

(١٤٧) نفس المصدر : ١/٤٩١ ، ٣/٤٤٠ .

(١٤٨) نفس المصدر : ١/١٧٨ .

(١٤٩) نفس المصدر : ٣/٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(١٥٠) نفس المصدر : ٤/٢٠٣ .

(١٥١) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/٢٥٦ .

ولم يغفل ياقوت وهو يورد هذه الاشارات عن الحياة الثقافية في عصره ، ان يذكر ظاهرة انتحال الكتب الجيدة من قبل اشخاص يستحسنونها فينسبونها الى انفسهم بعد ان يزيدوا عليها وينقصوا منها ، وقد حذر ياقوت من أمثال هؤلاء العلماء الأدعياء وكشف عن بعضهم ، كما حرص نفسه على ان لا تنسب كتبه الى غيره (١٥٢) .

رابعاً : مصادر ياقوت الثقافية في معجم البلدان :

وطبيعي ان يفيد ياقوت من المصادر العلمية والأدبية التي انتجتها الثقافة الاسلامية حتى عصره . وكان ياقوت أميناً في ذكر معظم المصادر التي استقى منها مادة كتابه . ونص على ذلك في مقدمة الكتاب وثناياه ، وقد اشرنا في مستهل هذا البحث الى بعضها وبخاصة رسالتي ابن فضلان وابي دلف ونورد هنا عدداً آخر من تلك المؤلفات كما ذكرها ياقوت ، وقسم كبير منها لم يصل الينا ، وهي على وجه العموم تتعلق بتاريخ البلدان والامصار والمدن التي توافق موضوع الكتاب . ومن هذه المصادر كتاب المبدأ والمآل لياقوت نفسه ، وكتاب افتراق العرب ، وكتاب انساب البلدان ، وكتاب اوراق العرب لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للأصمعي ، وكتاب أخبار العرب ، وكتاب ابي محمد الأسود (في مواقع البلدان) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ الجزيرة لعلي بن الحسين بن علي الحراني ، وتاريخ البصرة للساجي ، وكتاب الكوفة لابن النجار ، وتاريخ الرقة لأبي علي ، وتاريخ بلخ لأبي اسحاق المستملي ، وكتاب البستان في مناقب نسف لأبي الحارث اسد بن حمدويه النسفي ، وكتاب تاريخ حمص للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وتاريخ اصبهان لابن مندة ، وكتاب مكة لمحمد بن اسحاق الفاكهي ، وتاريخ افريقية لأبي العرب ، وتاريخ ابي غالب همام بن المفضل بن مهذب المعري ، وتاريخ ابي سعد الآبي ، وكتاب طبقات محدثي اهل الموصل ، وكتاب اخبار زفر بن الحارث للمدائني ، وكتاب الجنان لابن الزبير ، وكتاب تمام الفصيح لابن فارس ، وكتاب بغداد وذكر خرابها لهلال بن المحسّن الصابي ، وكتاب موالي أهل مصر ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس في الطب لمحمد بن احمد بن سعيد التميمي ، وكتاب النوادر الممتعة لأبي الفتح بن جني ، وكتاب اللصوص ، وكتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي ، وغيرها (١٥٣) .

الملامح الأثريـــة :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية هامة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الاسلامية ، او الآثار القديمة التي خلفتها الدول والشعوب في العالم الاسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات . وهناك أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها في وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون في الفسطاط ، اضافة الى تحديد المساجد التي اقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك ، وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ، ووصف مواقعها واسوارها

---

(١٥٢) نفس المصدر : ١١/١ ، ١٢٠/٣ ، معجم الأدباء : ١١/١ .

(١٥٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٤١٨/١ ، ٤٤٧ ، ٤٩٢ ، ١٢٦/٢ ، ٢١٩ ، ٢٥١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١/٣ ، ١١٥/٤ ، ١٨٣ ، ٣٦٥ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٢٥/٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٣١٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٣٩ .

وقصورها ، وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى والفسطاط والقيروان (١٥٤) .

وهناك اشارة في معجم البلدان الى استخدام التصوير في تزيين المباني منذ منتصف القرن الأول الهجري ، كما تم ذلك في دار عبيد الله بن زياد المعروفة « بالبيضاء » . يقول ياقوت عن البيضاء : « دار عمّرها عبيد الله بن زياد بن ابيه بالبصرة ، ولما تم بناؤ ها أمر وكلاءه ان لا يمنعوا احداً من دخولها ، وان يتحفظوا كلاماً ان تكلم به أحد ، فدخل اعرابي وكان فيها تصاوير ، ثم قال : « لا ينتفع بها صاحبها ولا يلبث فيها الا قليلاً ، فأتي به ابن زياد وأخبر بمقالته ، فقال له : لم هذا ؟ قال : لأني رأيت فيها أسداً كالحا وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً (١٥٥) » .

اما آثار الأمم الغابرة فقد ذكر ياقوت منها الكثير في المواقع الأثرية في العراق كالحيرة والمدائن ، اضافة الى آثار ورسوم دراسة في دستجرد ومرو ودنباوند وطبرستان وارمينية . واشار الى معالم أثرية عديدة في بلاد الشام كدمشق وحمص وتدمر ومعرة النعمان وبعلبك وقورس قرب حلب والخليل ، كما وصف آثاراً يمنية قديمة في صنعاء ومأرب بالاضافة الى الآثار المصرية القديمة في منف وعين شمس والصعيد ، وتحدث عن الأهرام وابي الهول والمسلات والمومياء وذكر آثاراً اخرى في قرطاجنة بشمال افريقية . أما آثار بلاد الروم فيتحدث ياقوت عن معالم أصحاب الكهف في بلدة افسس ، ذاكراً شيئاً من التقرير الذي كتبه محمد بن موسى المنجم مبعوث الخليفة العباسي الواثق للوقوف على أمر أصحاب الكهف والرقيم . وينوه بوجود جماعة مقتولين في لحف جبل بموضع ببلاد الروم يقال له الابروق . ويستدل من وصف تلك الجماعة على انهم مسلمون ، اذ كانوا سمر اللون وعليهم عمائم ، « ويقول المسلمون انهم من الغزاة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ماتوا هناك صبراً » بينما يذهب الروم الى انهم منهم ، وقد اقيم الى جانب موضعهم مسجد وكنيسة ، اذ يزور ذلك الموضع المسلمون والنصارى من الآفاق (١٥٦) .

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكانوا ينسبون بناءها الى النبي سليمان بن داود والجن ، كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر عمدان (١٥٧) . وقد علق ياقوت على ذلك بقوله : « لكن الناس اذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن (١٥٨) » . كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون الأماكن الأثرية للمشاهدة والتنزه ، وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار (١٥٩) .

أما الملاحظة الثالثة التي ذكرها ياقوت ، فهي اقدام الخلفاء والولاة وبعض الناس على استخدام حجارة

---

(١٥٤) نفس المصدر : ١/ ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٢/ ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٣/ ١٧٦ ، ٢٥٦ ، ٤/ ٢٦٤-٢٦٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ - ٥/ ٨٢ ، ٨٨ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

(١٥٥) نفس المصدر : ١/ ٥٣٠ .

(١٥٦) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٧١ ، ١٥٦ ، ١٩١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٢/ ١٥٦ ، ٢١٢ ، ٣٠٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٣/ ٦١ ، ١١٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ ، ٤٠٨ ، ٤/ ٦ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٠٠ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٥/ ١٠ ، ٢٦ ، ٢١٤ .

(١٥٧) نفس المصدر : ٢/ ١٧ ، ٣/ ١٥٤ ، ٤/ ٢١٠ .

(١٥٨) نفس المصدر : ٢/ ١٧ .

(١٥٩) نفس المصدر : ٢/ ٥٤٢ ، ٤/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

المباني الأثرية وابوابها واعمدتها في بناء قصورهم وبيوتهم ، كما هو الحال بالنسبة لبقايا مدينة زندورد وايوان كسرى ، وعين شمس ، وقرطاجنة ، ومعرة النعمان ، وسامراء ، والغريب ان خراب الأخيرة كان سريعاً ، اذ كانت في القرن الثالث الهجري تحمل انقاضها الى بغداد ويعمر بها . فقال ابن المعتز في ذلك :

قد اقفرت سر من را
وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها
كأنها آجام
ماتت كما مات فيل
تسل منه العظام

وكان البعض ينتقد هدم الآثار ، وازالة معالمها ، ويرى فيها قيمة تاريخية ، واداة للتفكر والاعتبار ، ومن هؤلاء القاضي ابو يعلي عبد الباقي بن أبي حصن المعري الذي يقول :

مررت برسم في سياث فراعني
به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبد الذراع كأنما
رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها ؟ شلت يمينك خلها
لمعتبر او زائر او سائل
منازل قوم حدثنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل (١٦٠)

دراسات رائدة لمعجم البلدان :

أشرنا فيما سبق الى ان صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) كان أول من اختصر هذا المعجم في كتاب اسماه « مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » ، وبعد ذلك بحوالي قرنين قام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم « مختصر معجم البلدان » . ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة آصفية بحيدر آباد (١٦٢) .

الا ان أول دراسة في مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموي نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » اذ يقول في مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة طريفة ، وملحة مليحة تشرئب اليها النفوس . . . انتخلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان ، فيما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ، ووافق شكلاً ونقطاً ، وافترق مكاناً ومحلاً ، واختلف صقعاً ومحتلاً . . . ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله (١٦٣) » .

وفي القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية . ونورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم ، والذي ضمنه وديع جويده

---

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٢٩٤ ، ٣٦٢ ، ٤٦٠ ، ٢/٥ ، ١٣ ، ٦٢ ، ٣/١٥٤ ، ١٧٦ ، ٢٩٢ ، ٤/٣٩٥ .

(١٦١) Brockelmann, Geschichte der arabichen Litteratur Supplement band, (G.A.L.S.), Leyden, 1937—42, 1, 880 .

(١٦٢) ياقوت : المشترك ، ١٨٤٦ ، ٣ ، ٤ .

(١٦٣) Jwaideh : The Introductory Chapters of Yaqut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959, pp. IX—XI.

مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت (١٦٤) . فقد قام عدد من كبار المستشرقين في النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة في المعجم . ففي عام ١٨٢٣ نشر المستشرق الروسي فرين (C. M. J. Fraehn) في بطرسبورغ اول دراسة استشراقية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة اخرى عن الروس الأقدمين والشعوب المجاورة لهم » (Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte Uber die Russen alterer Zeit und ihr Nachbarn.) فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولغا ، وعن الشعوب المجاورة له ، معتمداً في الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت . وقد نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفاً اليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . كما يعتبر فرين أيضاً أول من كتب عن ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحثه بقيمته الى اوائل القرن العشرين (١٦٤) .

وكانت دراسة فرين فاتحة لأبحاث ودراسات مماثلة ، فقد نشر المستشرق الألماني كورد دي شولتسير (Kurd de Schloezer) الرسالة الأولى لابي دلف متنا وترجمة لاتينية ، وهي رسالته للدكتوراه ، (برلين ١٨٤٥) ، وذلك بعنوان : « ابو دلف ، مسعر بن مهلهل ، ورسالته عن رحلته الآسيوية » (Abu Dolef Misaris ben Mohalhal de itenere asiatico Commentarius.) وكان بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة ابي دلف موجودة في معجم البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الايطالي المعروف ميشيل اماري (Michele Amari) في ليبزج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » (Bibliotheca Arabo—Sicula) ، وهو عن تاريخ جزيرة صقلية ، وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءاً بالمسعودي وانتهاء بحاجي خليفة . واشتمل الباب الحادي عشر من الكتاب على المقتطفات التي أوردها ياقوت في معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومدنها وقراها (١٦٥) .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (C. Barbier de Meynard) بعنوان « معجم جغرافي تاريخي في أدب فارس والأقطار المجاورة لها ، مستخرج من معجم البلدان لياقوت » (Dictionnaire Geographique, Historique et Litteraiare de la Perse et des Contrees Adjacentes, Extrait du Modjem El—Bouldan de Yaqout.)

أما النصوص التي اوردها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام ، فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألماني لودولف كريل (Ludolf Krehl) بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » (Uber die Religion der Vorislamischen Araber.) وقد نشرت هذه الدراسة في

---

(١٦٤) جويدة : الفصول المقدمة لمعجم البلدان ، ص×

كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٦ ، العقيقي : المستشرقون ، ٣/ ٩٣٤ .

(١٦٥) اماري : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٥٧ ، ١٠٥ ، ١٣٦ .

ليبزج عام ١٨٦٣ ، والمعروف ان هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبي ، كما ان المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (J. Wellhausen) ضمن كتابه القيم « بقايا الوثنية العربية » (Reste arabischen Heidentums) جميع المقتطفات التي اوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور ، واتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ، ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذي يدور عليه كتابه (١٦٦) .

وكانت اراضي الحرار في جزيرة العرب موضوع دراسة اخرى قام بها المستشرق الألماني اوتو لوث (Otto Loth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه . وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ ، بعنوان « حرار بلاد العرب عند ياقوت » (Die Vulkanregionen—Harra's—Von Arabien nach Jakut, ZDMG. 1868. XXII, 365—382.)

أما الاشارات المتنوعة التي اوردها ياقوت عرضاً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج (Hartwig Derenbourg) بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » (Les Croisades d'apres le dictionnaire de yakout.) ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ . (Centenaire de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes. 1795—1895. Paris, 1895, pp. 71—92)

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق ايرنست دامان (Ernest Dammann) بحثاً بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بافريقيا السوداء » (Beitrage aus arabischen Quellen Zur Kenntis des negrischen Afrika, Kiel, 1929.) ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ، ان يكون اعتماده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت ، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستنفلد (F. Wustenfeld) من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس ، وقدمت الملاحظات والفهارس المختلفة التي وضعها أساساً لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره ، كما كتب في اثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن اسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان ، وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » . ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ (Jacut's Reisen, aus seinem geographischen Worterbuche beschrieben, ZDMG, 1864, XVIII, 397—493.) في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ (Der Reisende Jacut als Schriftsteller und Gelehrter, Nachrichten Von der Konigl. Gesellschaft der Wissems-

---

١٦٦) للهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ١٩٦٨ ، مقدمة ابو ريدة ، د .

chaften, Gottingen, 1865, No. 9, pp. 233—243.)

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصادر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » (Die historischen und geographischen Quellen in Jacut's geographischem Worterbuch, Strassburg, 1898.) وقد وصف وديع جويدة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل واشمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره (١٦٧) .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » . اذ المعروف ان هذا المعجم يضم حوالي خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه . والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله ، كما أن القصائد التي قيلت في الفتوح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية ، في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع الى القرون الهجرية الأولى . ويمكن للباحثين ان يجدوا في هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة ، وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من اوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير دراسة اخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان ، وشهرزور في معجم ياقوت (١٦٨) .

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستنفلد لمعجم البلدان فان هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، وقد اعيد نشر هذه الطبعة بالاوفست في طهران عام ١٩٦٥ . اما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء واشرف عليها محمد أمين الخانجي الكتبي (١٩٠٦) فلم تأت بجديد ، وان كانت أحياناً تقدم قراءات افضل للاسماء . واضاف اليها الخانجي مجلدين استدرك فيهما على معجم ياقوت البلداني وسماه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » . وقد لاحظ كراتشكوفسكي ان « هذه الاستدراكات قد تمس أحياناً نقاطاً عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث في أوروبا وأمريكا واستراليا ، وهذه الاضافة وان لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية ، الا انها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة الى بداية القرن العشرين (١٦٩) .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي ، واسعاف النشاشيبي ، وعباس الغزاوي ، وعبد الوهاب عزام ، وعلي أدهم ، وعبد الله مخلص ، وابو الفتوح التوانسي ، وعبد المعين الملوحي (١٧٠) . وليس من شك في ان كثرة الدراسات التي افردت لياقوت ومصنفاته ، تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية في التراث

---

(١٦٧) جويدة : الفصول التمهيدية لمعجم البلدان ، ١ × .

(١٦٨) العقيقي : المستشرقون ، ٣/ ٩٥٥ .

(١٦٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ١/ ٣٣٧ .

(١٧٠) الملوحي : الفكر العلمي عند ياقوت الحموي ، مجلة مجمع دمشق ، ٣٤٢/٤٦ ، ٣٤٣ .

العربي الاسلامي ، الذي يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي العظيم الذي قام به ، فوصف كتابه الضخم بانه « اوحد في بابه ، مؤمر على جميع اضرابه واترابه ، لا يقوم لمثله الا من أُيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار وانجد ، وطوّح بنفسه فابعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التي عايشها وهو يجمع مادة كتابه القيم حباً في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بها ، كان كل أمله ومبتغاه ، امنية في ان لا ينسب هذا الجهد الى سواه ، ودعاء توجه به الى الله عز وجل « ان لا يحرمه ثواب التعب فيه ، وان تكون جائزته على ما اوضع اليه ركاب خاطره ، واسهر في تحصيله بدنه وناظره ، دعاء المستفيدين وذكر زكي من المؤمنين بان يحشر في زمرة الصالحين (١٧١) . رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .

* * *

---

(١٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/١ .

المصادر والمراجع :

اعتمد البحث على طبعة بيروت لمعجم البلدان ـ دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، وذلك لتيسر هذه الطبعة وتداولها في أيدي الباحثين . واشار الباحث في مواضع قليلة أخرى تطلبها البحث الى طبعة لايبزج القيمة ١٨٦٦ .

مصادر مخطوطة :

سنجر المسروري : علم الدين الصالحي (ت ٦٨٦هـ)
ذيل البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان استانبول ، مكتبة سراي أحمد الثالث ، خ/ ٢٩٥٩ .

ابن الشعار : المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان .
استانبول ، مكتبة اسعد افندي ، خ/ ٢٣٢٣ ـ ٢٣٣٠ .

مصادر ومراجع مطبوعة :

ابن الأثير : علي بن محمد الشيباني ، ابو الحسن ، عز الدين (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .

آرنولد : توماس (ت ١٩٣٠) .
تراث الاسلام (ط ١ ، ترجمة ، جرجيس فتح الله) .
ط بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

البغدادي : أحمد بن علي الخطيب ، ابو بكر (ت ٤٦٣هـ) .
تاريخ بغداد (او مدينة السلام) .
ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، (بدون تاريخ) .

ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم اللواتي ، ابو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) .
ط القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦ .

ابن تغري بردي : يوسف ، ابو المحاسن ، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
ط القاهرة ، عن طبعة دار الكتب ، (بدون تاريخ) .

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ) .
كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون .
ط مكتبة المثنى ببغداد ، عن طبعة ١٩٤١ .

حميدة : عبد الرحمن .
اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم .
ط بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، ابو زيد (ت ٨٠٨هـ) .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
ط بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .

ابن خلكان : احمد بن محمد ، ابو العباس ، شمس الدين (ت ٦٨١هـ) .
وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان .
ط القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .

الذهبي : محمد بن احمد بن عثمان ، ابو عبد الله ، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) .
العبر في خبر من غبر .
ط الكويت ، مطبعة الحكومة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
تذكرة الحفاظ .
ط بيروت ، عن مطبعة حيدر اباد الدكن ، (بدون تاريخ) .

زيدان : جرجي بن حبيب (ت ١٩١٤م) .
تاريخ آداب اللغة العربية .
ط بيروت ، دار الحياة ، ١٩٦٧ .

السمهودي : علي بن أحمد نور الدين (ت ٩١١هـ) .
وفاء الوفا باخبار دار المصطفى .
ط بيروت ، عن طبعة القاهرة ، دار احياء التراث العربي (بدون تاريخ) .

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .
تاريخ الرسل والملوك .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن ، صفي الدين (ت ٧٣٩هـ) .
مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع .
ط القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ .

العقيقي : نجيب .
المستشرقون .
ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

العمـــد : إحسان صدقي .
الحجاج بن يوسف الثقفي .
ط بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ .

غنيــم : عبد الله يوسف .
مصادر البكري ومنهجه الجغرافي .
ط القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ .

ابن فضــلان : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (ت ق ٤هـ) .
رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة .
ط دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .

فلهــوزن : يوليوس (ت ١٩١٨م) .
تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ) .
آثار البلاد وأخبار العباد .
ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

كحالــة : عمر رضا .
التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية .
ط دمشق ، المطبعة التعاونية ، ١٩٧٢ .

كراتشكوفسكي : اغناطيوس يوليانوفتش (ت ١٩٥١) .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي (ترجمة صلاح الدين هاشم) .
ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

كمـــــال : أحمد عادل .
الطريق إلى دمشق .
ط بيروت ، دار النفائس ، ١٩٨٠ .

ابن المستوفي : المبارك بن أحمد اللخمي ، أبو البركات ، شرف الدين (ت ٦٣٧هـ) .
تاريخ اربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) .
ط بيروت ، المركز العربي للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

المنجـــد : صلاح الدين .
أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب .
ط بيروت ، مؤسسة دار التراث العربي ، ١٩٥٩ .

نفيس أحمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي (ترجمة لفتحي عثمان) .
ط الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٨ .

ابن هشام : عبد الملك ابو محمد (ت ٢١٣هـ) .
سيرة النبي ﷺ (السيرة النبوية) .
ط القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ .

الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) .
كتاب المغازي .
ط طهران ، عن طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

ياقوت بن عبد الله الحموي : (ت ٦٢٦هـ) .
- معجم البلدان ط ليبزج ١٨٦٦ .
- معجم البلدان ط القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، ١٩٠٦ .
- معجم البلدان ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥ .
- معجم الأدباء ط بيروت ، دار احياء التراث العربي ، عن طبعة دار المأمون بالقاهرة .
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط جوتنجن ١٨٤٦ .

Brockelmann : Geschichte der arabichen Litteratur Supplementband, (G. A. L. Supp.), Leyden, 1937—42.

Jwaideh. W : The Introductory Chapters of yagut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959.

مجلات ودوريات :

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السادس والأربعون ، دمشق ١٩٧١ .

مجلة المقتبس ، القاهرة ، المجلد الأول ، ١٣٢٤هـ .

مجلة الجمعية الشرقية الألمانية .

Z. D. M. G : Zeitchrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.

* * *

صدر حديثاً

الصراع من أجل أن تكون إنسانا
" الجريمة وعلم الاجرام والفوضوية "

تأليف : ل. تيفت ود. سوليفان
عرض وتحليل : عدنان الدوري
استاذ بجامعة الكويت

(١)

هذا كتاب غزير بأفكاره المتحررة ومواقفه المتطرفة واتجاهاته المتصلبة . وقد جاء بأسلوب مركز بشكل لا يتيح لقارئه تخطي أي سطر من سطوره دونما وقفة متبصرة لكل ما يبطنه من فحوى او يظهره من معنى . وربما كان الأجدر بادارة مجلة « عالم الفكر » ان تطلب ترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة دون الاكتفاء بعرض موجز لأهم افكاره واتجاهاته .

والكتاب يتناول موضوعات معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تشكل أرضية عريضة واسعة للجدل العلمي والفلسفي والفقهي والقانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي او غير ذلك من ميادين المعرفة العلمية المنظمة .

وسنحاول جهدنا في عرض ما تضمنه من فكر وتحليل وعسى أن نكون قد أفلحنا في إبراز أهم أفكاره وفرضياته .

والكتاب مطبوع حديثا (١٩٨٠) يحمل عنواناً مثيراً ولكنه يمثل اتجاهاً ليبرالياً معاصراً يتناول تحليل مفهومي الجريمة والعقاب من زاوية فلسفية جدلية وأخرى اجتماعية علمية جديدة . فهو يدعو الى ربط الجريمة وربط العقاب بعملية المعاناة البشرية من أجل تحرير الذات . اذ يرى أن علماء الاجتماع ، الأكاديميين منهم والماركسيين على السواء ، قد عجزوا حتى الآن عن رسم طريق أمام الانسان المعاصر الى حياة اجتماعية آمنة مستقرة . ذلك ان العنف والمظاهر السلطوية التي تمارسها الدولة وكل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية لا يمكن ان تحقق بحال من الأحوال بعض ما يطمع به أفراد المجتمع من استقرار اجتماعي وسلامة فكرية .

وان بناء حياة اجتماعية متكاملة متوافقة ، من وجهة نظر مؤلفي هذا الكتاب ، ينبغي أن تعتمد على كفاءة الانسان ذاته وعلى مدى جدواه الوظيفية في المجتمع الذي يعيش فيه . كما أن تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها يخضعان بالدرجة الأولى لما يقدمه الأفراد انفسهم من عون متبادل بنّاء ومن خلال تعاون جماعي ايجابي ملموس .

ويوضح الكتاب كيف اننا لا نزال نعيش حياة أقل ما يقال فيها انها تقوم على الاتكالية المطلقة والاعتماد الكامل على الآخرين ، ولذلك فليس من الصواب الاصرار على الاعتقاد باستقلالية ظاهرتي الجريمة والعقاب عن حقل الاقتصاد او عن الدولة او حتى استقلاليتهما عن الحياة ذاتها . ان غالبية علماء الاجتماع وعلماء الجريمة الأكاديميين يخفقون في ادراك أهمية الظروف الأساسية التي تحيط بحياة الانسان المعاشية لأنهم لا يزالون يدورون في فلك الدولة وحول محور القانون والخضوع لسلطان كل منهما . ان ظروف الانسان المعاشية تستدعي التعاون الكبير بين الأفراد وهذا التعاون هو الذي يطبع عجلة الحياة في نمطها المعاصر .

حتى أنصار الفكر الراديكالي أنفسهم ، ممن ينضوون تحت مظلة الفكر الاشتراكي في علم الاجرام المعاصر لا يستطيعون الافلات من فكرة مركزية الدولة وقوة سلطانها في توجيه دفة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والحركة والتطور . ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتجاوزوا في تحليلاتهم الايديولوجية امكانية العيش خارج اسوار مركزية الدولة لأنهم لا يزالون يربطون بين عملية التنظيم الاجتماعي ذاته وبين قوة فاعلية السلطة المركزية للدولة .

واذا كانت أهمية علم الاجرام ، كمعرفة علمية متخصصة ، لا زالت اليوم بعيدة المنال في وعي مجتمعاتنا المعاصرة فان هذا العلم وحده لاشك يستطيع أن يكون الدرع الدفاعي المنيع الذي يمكن أن يحمي الأفراد ضد تسلط الدولة ، ولذلك ينبغي انقاذ هذا العلم من السقوط في جاذبية الدولة أو الخضوع لسلطانها وتبعيتها . ان مهمة علم الاجرام ، او عالم الاجرام الجديد ، أن يحرر نفسه من سلطان الدولة باثبات عدم جدوى النظرة العقابية التقليدية نحو الجريمة والتي لا تزال تربط الجريمة بقوانين الدولة الجزائية ربطاً عضوياً مباشراً . ان غياب علم اجرام جديد بهذا المعنى يتركنا نتطلع دوماً الى الدولة في كل ما يتصل بشؤون الجريمة والعقاب الأمر الذي يجعلنا نسير في مدار الدولة ونخضع لسلطانها .

(٢)

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة اعقبها فصول أربعة جاوز بعضها الخمسين صفحة . ولعل ابرز ما في مقدمة الكتاب تلك الفكرة التي تناولت صراع الانسان الطويل نحو تحقيق انسانيته ، وذلك من خلال تبني فلسفة علم اجرام حديث من علوم الانسان المعاصرة . وقد استطاع المؤلفان وهما من علماء الاجتماع الأميركيين ، ان يبلورا فلسفة هذا الكتاب حول موضوع الجريمة وعلم الاجرام الجديد .

يقول المؤلفان اننا بدأنا نسمع اليوم بعض أصوات علماء الجريمة الرافضين لبعض التعريفات القانونية التقليدية التي التصقت بفكرة الجريمة وفكرة العقاب او حتى بمفهوم معاملة المذنبين ان مثل هذه التعريفات لا شك تحجب وراءها تلك المعاني الإنسانية لمفهوم العدالة الاجتماعية ، فمعاناة الانسان المسجون خلف قضبان

السجون لا تختلف عن معاناة أخيه الانسان الآخر الذي يموت جوعاً في أفريقيا الشرقية ، أو أولئك الأطفال الذين يحرقون أحياء بقنابل حرب فيتنام . إن المعاناة الانسانية واحدة مهما اختلفت أسبابها وتباينت صورها وأشكالها . اننا في الواقع لا نستطيع أن نفسر جريمة الايذاء التي يرتكبها شخص ضد آخر وفقاً لمنطق ذلك القانون العلمي الأحادي الذي يقوم على السبب والنتيجة . ان هذا القانون لا يأبه للمعاناة الانسانية الذاتية التي يعانيها الانسان في سبيل تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية . ان مفهوم العقاب المعاصر ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، لم يعد له ثمة معنى مقبول وذلك من خلال ما يمارس فيه من جراحة طبية وايلام بدني وتعذيب نفسي وعزل مادي يقيد حرية الانسان بصورة قاسية بحيث لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً ولا يقابل بشراً .

اننا لا نستطيع ان ندرك معنى الحرية ذاتها الا اذا خرجنا عن مجال الدولة المغناطيسي الجاذب ، كما كان عالم الفلك « كوبرنيك » لا يستطيع ان يتصور حركة الأرض الا حين يتاح له الخروج منها بعيداً عنها والنظر اليها من على سطح الشمس . ويظهران صاحبي هذا الكتاب لا يدعوان الى تصحيح مسيرة علم الاجرام الحالي كفرع من فروع المعرفة العلمية او وضع هذا العلم في اطار فكري انساني جديد . انهما في الحقيقة يدعوان الى اقامة مجتمع بديل لمجتمعنا الراهن حيث لا يكون هناك حاجة الى علم إجرام او الى عقاب ينبعث عن سلطان الدولة . ان العلاج هو في الغاء الدولة والغاء الرأسمالية معاً والغاء كل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية وهذا لا شك يلغي حاجتنا الى علم اجرام يقوم على سلطة الدولة . ومع ذلك فان المؤلفين لا يقدمان الحل الماركسي بديلاً لمواجهة الحالة . انهم يعتقدان بان الماركسيين انفسهم يرسخون سلطان الدولة بعد نجاح محاولتهم في قلب النظام القائم .

فالبديل المطلوب هو نظرة انسانية متفتحة نحو العالم بحيث يسود التوافق بدل التغيير والذوبان بدل الالغاء والتناغم بين الانسان وبين كل ما هو طبيعي .

اننا لا نزال نعيش في عالم يتميز بألوان العنف والعدوانية ، سواء كان ذلك في مجتمعاتنا الكبيرة او المحلية ، او في بيوتنا او في مدارسنا او في دوائر عملنا او مصانعنا وحقولنا الزراعية . ان جميع هذه المؤسسات تصطبغ بصبغة القهر والتسلط والقمع والعدوانية وطلب الطاعة العمياء ، ونحن لا نزال نترعرع من خلال مفاهيم اجتماعية محدودة لا تخرج عن دائرة الطاعة او حدود الواجب او الخوف من العقاب . ولذلك فنحن لم نعد نشعر بوجود العنف من حولنا لأننا غير منفصلين عنه بل صار جزءاً من حياتنا . كما أنه ليس بوسعنا ادراك لا مشروعية العنف الذي نعانيه ، ولا يمكننا تقويم لا أخلاقياته ، لأننا نعجز في الواقع عن ادانة مصدر هذا العنف وهو الدولة . ان الدولة بوصفها صاحبة السلطة المطلقة تستطيع ان تمارس اعمال القتل والايذاء والحبس ومصادرة المال وانتهاك حرمة البيوت ومصادرة الحريات الفردية ، ومع ذلك فان مثل هذه الأعمال تكتسب التسميات الاجرامية التقليدية حين يقوم بها فرد من الأفراد حيث يصبح هذا الفرد قاتلاً او سارقاً او مغتصباً او منتهك حرمات . اما العنف المشروع الذي يصدر عن سلطة شرعية كالدولة فهو الذي لا يمكن ادانته لأنه يستند الى شرعية تقوم على سيادة الدولة على الافراد . وموجز ما يراه مؤلفا هذا الكتاب ان معاناتنا لا تنبعث عن تلك الأفعال اللااجتماعية التي يعاقب عليها القانون كجرائم ، بل عن تلك الأفعال المشروعة التي لا توصم

بوصمة الجريمة والاجرام . ان مثل هذه الأفعال المشروعة قد تشيع الكثير من العوز والتعاسة والدمار والصراع ، ومع ذلك فهي تعاسة تظل غير منظورة لأنها بعيدة عن الاشارة والتنويه .

(٣)

ان التعريف القانوني للجريمة ، الذي لا يزال يقوم على فكرة الضرر بالمصلحة الاجتماعية لا يربط بالضرورة بين مخالفة القانون وبين حدوث بعض الضرر بالمصلحة الاجتماعية او حتى انتهاك بعض المعايير الاجتماعية او القيم الأخلاقية . ذلك ان هناك جرائم كثيرة لا ينشأ عنها ضرر ما لأحد من الأفراد سوى صاحبها كجريمة التسكع وجريمة السكر او حتى تغيب حدث صغير عن بيته او عن مدرسته . وهناك من الناحية الأخرى أفعال ضارة مؤلمة لا يحتضنها التعريف القانوني للجريمة كعقوبة الاعدام ذاتها وعقوبة الحبس والحرب وتلوث البيئة والتعصب العنصري والاباحية الجنسية والمعاملة القاسية التي يلقاها الصغار من قبل ذويهم .

ان الجريمة من الناحية القانونية لا تعدو كل فعل او امتناع يرد بنص في القانون الجزائي ، وهذا يفيد بأن الجريمة كل نمط سلوكي معين يخرج على معيار قانوني معين وكل ما عدا ذلك لا يشكل جريمة . وهذا يفيد ببساطة ان غياب نص القانون الجزائي ذاته يؤدي الى انعدام الجريمة ذاتها .

وكذلك شأن العقوبة كجزاء رسمي فهي تمثل ذلك الضرر او الايلام المتعمد الذي تلحقه سلطة ذات صلاحية شرعية بفرد معين وذلك عن فعل تعتبره ضاراً بها . واذا كانت الدولة قد نشأت في أول مراحلها لحماية مصالح طبقة التجار وذوي اليسار فقد استخدم مفهوم الجريمة لحماية هذه المصالح . ان القانون الجنائي لا يهدف لحماية تلك الاعراف والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع بل هو قد جاء لحماية مصالح الدولة . فالدولة غالباً ما تنتهك بعض الأعراف والمعايير الاجتماعية تحت بعض المبررات الاقتصادية والسياسية . لقد كانت انظمة الرق ، التي سادت لدى مجتمعات كثيرة ، بعض جهود أولئك الذين يملكون السلطة الكافية لتقرير مشروعية الرق . وحين انحسر النظام الاقطاعي وضعفت فعالية مؤسساته انبثقت السلطة المركزية للدولة تحت أشكال مختلفة تحت مظلة سيادة الدولة متبنية حماية الأفراد . وهكذا بدأت الدولة أو (الصفوة) تضع تعريف الجريمة المناسب وتفرض لها العقاب المناسب ، وصارت الجريمة مفهوماً رسمياً يرتبط بمخالفة القانون ، والخروج على النظام القائم ، وهذا بذاته عمل موجه ضد سلطة الدولة . ان تاريخ تطور القانون الجنائي وما تضمن من ممارسات رسمية لمواجهة ظاهرة الجريمة تعكس تلك الانماط المناسبة التي تتضمن مطلب الضبط والطاعة .

وهذه لا شك ترتبط ببعض الخلفيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل عصر من العصور .

وكذلك كان شأن العقوبة ذاتها كجزاء رسمي يصدر عن سلطة رسمية هي الدولة . لقد صار العقاب ذلك الضرر المتعمد الذي يصدر عن سلطة ذات شرعية لمعاقبة فرد من الأفراد عن فعل معين ضار بمصلحة الدولة . ومن هنا فان فكرة قبول القانون ذاته تعتبر تبريراً للدولة مهما اتخذت هذه الدولة من اجراءات لمواجهة المشكلات او التعاسة التي تخلقها بنفسها . ان

فكرة قبول القانون تعني ان الأطفال الذين تساء معاملتهم او الجياع الذين يتصورون جوعاً وضحايا العنف البدني وضحايا عنف الدولة لم تعد اليوم مشكلات ينبغي ان نهتم بها بصورة مباشرة او نتحمل مسئولياتها . لقد صار القانون ذاته وما يفرزه من علاقات تبعية هي الأمور التي تجاوزت الآن درجة معاناتنا . ان الأفعال الضارة التي تقع بيننا اليوم كالاغتصاب الجنسي والقتل والحرب وقسوة العقاب والاستغلال الاقتصادي والايذاء البدني يمكن تقليصها وتخفيف آثارها وأضرارها فيما لو تركنا القانون جانباً وأقمنا بدله مجتمعات انسانية تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك . ولعل هذا يتيح لنا الطريق الى ايجاد حلول اجتماعية عادلة لكل ما نعانيه من صراعات وتناقضات تعاني منها مجتمعاتنا .

ان الشعور بمسئولية الفرد نحو الجماعة يمكن ان يكون البديل الصالح لكل المسئوليات المتعددة التي تضطلع بها تلك اللجان الكثيرة التي تشكلها لايجاد الحلول البيروقراطية لمشكلاتنا الراهنة . ان الشعور بالعدالة في حياتنا اليومية والطرق التي نستجيب بها لمواجهة صراعاتنا وتعاستنا يمكن ان تكون بادراكنا الكبير لمدى شعورنا بالحاجة الى الآخرين .

(٤)

ولا شك ان فحوى الكتاب تتلخص في ان جذور مشكلاتنا الراهنة تنحصر في اننا لا زلنا نركز على دراسة الجريمة من الناحية العلمية بمعزل عن مطلبين اساسيين هما مطلب دراسة الدولة ذاتها التي تنشيء القانون الجنائي ومطلب دراسة المعاناة الانسانية من أجل تحرير انفسنا . ان اغفالنا لأهمية المطلب الأخير هو المسئول عن مضاعفة تعاستنا ومعاناتنا في سبيل تحقيق مجتمع انساني صالح سليم . وان الضرر الرسمي الذي يصدر عن سلطة شرعية يشيع في مجتمعنا التعاسة والعناء والتناقض والدمار والحاجة . ورغم هذا فان الضرر الذي قد يلحق بالفرد من جراء سرقة لا قانونية او من قبل سلطة تحتمي وراء القانون يظل يسير في دورته المعتادة دون توقف . واذا كانت الكرة الأرضية عاجزة اليوم عن حماية مواردها الطبيعية من النفاد العاجل فان الضمير الانساني عاجز اليوم عن حماية نفسه من الاندثار والضياع ، واذا كان لا بد من العيش بدون سلطة او بدون قهر سلطوي فعلينا التركيز على حياة مجتمعية جديدة قائمة على التعاون المتبادل .

وفي اطار بيئة محددة باقتصاديات طبيعية معينة فان صراع الانسان لكي يكون انساناً يصبح امتداداً حيوياً للحياة ذاتها . فاذا كان الانسان لا يزال يسعى الى تطوير موارد الطبيعة بما ييسر له حياته الطبيعية فان من الأولى ان يبدأ الانسان بتطوير ذاته بما يكفل بعث الحياة الى الجنس الانساني عامة وذلك من خلال ما يتمتع من ذكاء وحب وحيوية وما يحس به من تعاون نحو الآخرين . ان حرصنا اليوم على المشاركة الجماعية في ما نملكه من خيرات الطبيعة ينبغي أن يمتد الى مشاركة انسانية اخرى في خدمة اهداف الجنس الانساني الذي ننتمي اليه .

ولعل هذا لا يقف عند حدود تحقيق مطلب العدالة والمساواة فحسب بل ينبغي أن يمتد الى ذلك المصدر الداخلي الذاتي الذي يقودنا الى التعامل مع الآخرين كما نرغب ان نعامل نحن به في ظروف مماثلة . واذا كنا لا نريد ان نكون محكومين لأحد فان علينا أن لا نحكم الآخرين .

ولعل هذا لا يعني اطعام الجياع من البشر وفق احساسنا الآدمي بآلام الجوع بل ليمتد الى تلك المشاركة الوجدانية من خلال التعاون الكامل مع الآخرين وتطوير علاقاتنا بهم على نحو يملأ ذلك الفراغ الانساني الفسيح الذي يفصل بيننا .

ان الحرية التي ننشدها لنا وللآخرين ينبغي أن تكون حرية خلاّقة تعمل بدون سلطة أو تسلط على الآخرين أو تقييد ارادتهم . انها قوة متحررة تعمل من خلال ما تملكه من مهارات خاصة لتكون ذات تأثير معين على الآخرين . وفي اطار بيئة تتميز بتنظيم اجتماعي يقوم على مثل هذه الحرية فانه لا مكان للخوف من تسلط فردي أو عدوان على الآخرين .

ان تحقيق مثل هذه المطالب الكبيرة يستلزم مواصلة الصراع نحو تحقيق انسانيتنا .

* * *

العَدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الرابع عشر
اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن

أدب المراسلات

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	مسقط	٤٠٠	بايه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٫٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٫٥٠٠ دينار
البلاد الاجنبية ٢٫٠٠٠ ،،

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت